جامع الاعتقاد

القواعد العقدية لأمة خير البرية

جامع الاعتقاد

القواعد العقدية لأمة خير البرية

اعداد

فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم أبو كركات

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

دار خير زاد

٥٧ ش نور الإسلام متفرع من أحمد عصمت أعين شمس - القاهرة

رقم الإيداع

المحلي : ٢٦٩٦٤

الدولي: ٦ - ١٧ - ٦٧٢٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨

خير زاد للنشر والطباعة

جامع الاعتقاد

القواعد العقدية لأمة خير البرية

إعداد

فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم أبو كرات

خير زاد
للنشر والطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة صاحب الفضيلة الإمام الفقيه أبو بكر الحنبلي حفظه الله جل ثناؤه على طاعته

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه؛ والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليما كثيرا.

أما بعدُ:

فإن فضيلة الشيخ / محمد بن إبراهيم أبو كرات قد دفع إلي مصنفه (جامع الاعتقاد) – القواعد العقدية لأُمة خير البرية – وقد تصفحته فأعجبني لموافقته الطائفة المنصورة أهل السنة والجماعة وعدم خروجه عن الوحيين بفهم الصحابة الكرام ، فبين لنا وفقه الله تعالى للسعادة والحسنى وزيادة ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يشذ عن منهج أهل السنة والجماعة ، وانطلق مبينا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره مفصِلاً القول في ذالك بالأدلة الصحيحة في مناطها ، ومذكراً أن الإيمان قول وعمل ونية واعتقاد وسنة وانه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، مرغبا في وجوب التوحيد الصافي ومحذرا من الشرك بأنواعه وصوره داعيا للسنة القولية والفعلية والتقريرية والخلقية ، محذرا من البدع بكل صورها ، موضحا لأسماء الله تعالى وصفاته والقواعد المعتبرة عند أهل العلم المحققين وتبيان اشرط الساعة وغير ذالك مما أجاد فيه وأفاد من خلال جهاد اللسان والقلم ، فزاده الله سدادا وتوفيقا وجعله معينا

لإخوانه من الطائفة المنصورة التي لا تزال ظاهرة على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله .

وكتبه الراجي عفو مولاه

أبو بكر بن محمد بن الحنبلي

في غرة رجب العام الحادي والأربعين بعد المائة الرابعة

والألف من هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله صاحب الفضل والمنة، والصلاة والسلام علىٰ صاحب الحوض وأول من تفتح له أبواب الجنة.

وبعد؛؛

فقد مَّن الله علينا بأن علَّمنا نُسكنا وأبان لنا السنة، وهدانا لأقيم الدين وأتم علينا المنة، وجمع كلمتنا علىٰ الحق في هدي صفوة عباده من الإنس والجنة.

فاعلم - وفقنا الله وإياك إلىٰ مراضيه، وأعاننا علىٰ كل ما يرضيه - أن أهل السنة قد توحدت كلمتهم واتحد رأيهم علىٰ أصول هذا الدين وعلىٰ عقيدة الأنبياء والمرسلين وخاتمهم النبي الأمين عليه أفضل صلاة وأتم تسليم ولا خلاف بينهم في ذلك أجمعين.

وإليك أيها الأخ الكريم ما خلصت إليه من ذلك مما ثبت في كتب الأولين والآخرين من حفظة سنة النبيين وعقيدة المرسلين وطريقة الموحدين لرب العالمين، مع ما اعتلىٰ ذلك من نسيان وتقصير من العبد الفقير إلىٰ الرب العليم القدير، ولكن يكفينا أجر النية من رب البرية فهو صاحب العطية وبين يديه نضع تلك الأمنية، وقد قسمت مصنفي هذا إلىٰ قواعد، لتكتمل به الفوائد، ولكل قاعدة ما يعين علىٰ فهمها، والعمل بها، والله هو المستعان، وعليه وحده التكلان، أسكننا الله وإياك الفردوس من الجنان.

مؤلف الكتاب
الفقير إلى عفو ربه /
محمد بن إبراهيم أبو كرات

القواعد العقدية لأمة خير البرية

تعريف مصطلح العقيدة والمقصود به:

وقبل معرفة التعريف ينبغي هنا التعرض لمسألة مهمة جدًّا يحتاجها طالب العلم، وهي: مسألة العقيدة، هل اسم العقيدة اسم ورد في القرآن والسنة أم أنه لم يرد هذا الاسم في القرآن والسنة؟

الحقيقة أن اسم العقيدة الوارد في القرآن والسنة هو الإيمان، فالعقيدة مصطلح ذكره العلماء المتأخرون لجملة المسائل التي تتعلق بعقيدة الإنسان، وهذه المسائل تسمىٰ في القرآن: الإيمان، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢]، فالإيمان والسنة هذه هي التي ذكرها العلماء المتأخرون باسم العقيدة، أي: أنه في زمن الرسول ﷺ لم يكن هذا المصطلح -وهو العقيدة- موجودًا، لكن كان الموجود هو الإيمان.

ومعنى الإيمان:

التصديق الجازم بالعقائد الواردة في القرآن والسنة والعمل بمقتضاها.

القاعدة الأولى: اعلم علمك الله أن الإيمان قول وفعل وأنه يزيد وينقص وأن أهل الإيمان متفاوتون في إيمانهم

ودليل ذلك: قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر:٣١].

وقال رسول الله ﷺ «**بني الإسلام علىٰ خمس ...**» الحديث، رواه البخاري ومسلم.

فَالْإِيمَان قَول وَعمل مَعَ اعْتِقَاده بالجنان قَول بِاللِّسَانِ وَعمل بالجوارح والأركان وهما سيان ونظامان وقرينان لَا نفرق بَينهمَا لَا إِيمَان إِلَّا بِعَمَل وَلَا عمل إِلَّا بِإِيمَان.

والمؤمنون فِي الْإِيمَان يتفاضلون وبصالح الْأَعْمَال هم متزايدون وَلَا يخرجُون بِالذنُوبِ من الْإِيمَان، وَلَا يكفرون بركوب كَبِيرَة وَلَا عصيان، وَلَا نوجب لمحسنهم الْجنان بعد من أوجب لَهُ النَّبِي ﷺ وَلَا نشْهد علىٰ مسيئهم بالنَّار بعد من شهد له النبي الأمين بوحي من رب العالمين.

❁

القاعدة الثانية: واعلم أن لفظة الإيمان والإسلام إذا اجتمعتا تفرقتا وإذا تفرقتا اجتمعتا

ودليل ذلك: قال تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

* وعند مسلم في «صحيحه» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ... الحديث).

ففرّق النبي ﷺ بينهما لأنهما في موضع واحد أما إذا ذُكر لفظ الإيمان مفردًا فاعلم أنه يشمل بذلك الإسلام وإذا ذُكر لفظ الإسلام مفردًا فإنه يشمل الإيمان

كالذي جاء عن ابن عباس عند البيهقي: «**آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع، آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلّا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان ...**» الحديث.

فذكر النبي ﷺ أركان الإسلام في تعريف الإيمان لأنه جاء مفردًا هنا فانتبه.

القاعدة الثالثة: واعلم أن الإيمان أركان وشعب وعبادات.

ودليل ذلك ما جاء في «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**». فهذه بعض شعب الإيمان.

أصول الإيمان وأركانه الست:

- الْإِيمَانُ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ؛ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

ودليله: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥].

* وكالذي جاء عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان وتؤمن بالبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره**» رواه النسائي والطبراني.

القاعدة الرابعة: الإيمان بأن الله عَزَّوَجَلَّ واحد أحد صمد

ودليل ذلك: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:١-٤].

القاعدة الخامسة أن توحيد الله عَزَّوَجَلَّ يكون من جهتين توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية.

أولاً: توحيد الربوبية:

(وهو إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالخلق والملك والتدبير وبكل ما أثبته لنفسه من أسماء وصفات وأفعال مع نفي الشريك والند والمثيل).

ويسمى أيضًا توحيد المعرفة والإثبات: (وهو معرفة الله عَزَّوَجَلَّ بآياته المسموعة وآياته المنظورة وإثبات ما أثبته لنفسه ونفي ما نفاه عن نفسه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف).

فتوحيد المعرفة: هو توحيد الربوبية وتوحيد الإثبات هو توحيد الأسماء والصفات.

وتوحيد الذات: هو الاعتقاد أن الله واحد بذاته ليس معه شريك في الخلق.

أما توحيد الإثبات: فهو توحيد الصفات، وهو اعتقاد أن كل صفة لله تعالىٰ فإنه منفرد بها، لا يشبه غيره في شيء من صفاته، فيقال -مثلًا-: صفاته الذاتية كوجهه ويده وسمعه وبصره لا تشبه صفات المخلوقين، نوحده بها ونقول: إنها لائقة به.

وكذلك الصفات الفعلية، فيقال: إن الله يحب، ويرحم، ويغضب، ويرضىٰ، ويكره، ويمقت، وأن الله استوىٰ، ويجيء، وينزل كما أخبر تعالىٰ عن نفسه، وهو في كل ذلك لا يشبهه أحدٌ من خلقه، فهو منفرد بذلك وحده، هذا توحيد الصفات.

وقبل أن نورد الأدلة علىٰ توحيد الربوبية من جهة النقل والعقل لابد أن نتعرف علىٰ بعض أدلة وجود الخالق عَزَّوَجَلَّ لنتصدىٰ بذلك للملاحدة الذين أنكروا بحنقهم وجوده سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا.

القاعدة السادسة : أدلة في وجود الخالق عَزَّوَجَلَّ كما نبه إليها القرآن العظيم

وذلك من جهات:

أولاً / من جهة الفطرة:

والمعنىٰ المقصود عند السلف في ذلك هو (أن المعرفة الفطرية بالخالق تعني المعرفة الإجمالية، أما التفصيلية فذلك لا سبيل له إلَّا عن طريق الوحي) والأدلة علىٰ ذلك لا تحصىٰ من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ولكن الناظر يجد أنها دائمًا ما ترتبط بأمرين (إضافة لإثبات الوجود الإلهي) فتشير إلىٰ إفراده بالعبادة وإثبات البعث والنشور وقلما تجد انفراد هذه الأدلة علىٰ إثبات وجوده تعالىٰ كما في قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝٣٥ ﴾ [الطور:٣٥] وذلك لأن المعرفة بوجوده فحسب لا تنفع صاحبها ولا يترتب عليها فلاحه في الدنيا ولا في الآخرة وإلا كانت نفعت إبليس لأنه يشاركهم في ذلك وإنما الذي يترتب عليه الفلاح في الدنيا والآخرة هو اقتران هذه المعرفة بإفراده بالعبادة وإفراده بصفات ربوبيته والاستعداد ليوم الميعاد.

ودلالة الفطرة واضحة على وجودة سبحانه من جهتين:

أولاً: من جهة ما طُبع في الفطر من بديهيات من أن المتناقضين مثلًا لا يجتمعان ولا يرتفعان وأنه لابد لكل حادث من محدث وأنه لابد لمن أحدث المحدثات إلَّا يكون حادث.

ثانيًا: ومن جهة أن المخلوق مرزوق ومُدبَّر له أمره وهناك من يملكه ويقدر له قدره وهذا كله واضح جلي في كون العبد لا يختار لون نفسه ولا هيئتها ولا يختار مرضه ولا شفاءه ولا فقره علىٰ الحقيقة ولا غناه ولا ضعفه ولا قوته ولا موته ولا حياته إلىٰ غير ذلك من الأمور اللاإرادية التي لا يملك تحويلها ولا تغييرها علىٰ الحقيقة.

أما تنبيهات القرآن علىٰ ذلك فكثيرة جدًّا ومنها قوله جل ثناؤه ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٠-٦٣].

ثانيًا: من جهة دلالة المخلوقات على الخالق سبحانه وتعالى:

ولذلك مظاهر منها:

١ - الخلق:

والخلق علىٰ حقيقته (يعني الإيجاد من العدم من غير سابقة مثال) وهذا محال في غير الله عَزَّوَجَلَّ.

ودليل ذلك: قوله تعالىٰ متحديًا هؤلاء الملحدين المنكرين الجاحدين:

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور: ٣٥-٣٧].

وكل عاقل يعلم بداهة أنه لابد لهذه المخلوقات من خالق لأنه لابد لكل مُحدَثٍ من مُحدِث لأنه يستحيل عقلًا أن تُوجِد المخلوقات نفسها بنفسها لأنها قبل أن توجد كانت عدمًا ويستحيل علىٰ العدم أن يوجِد موجودًا بل يستحيل عليه الفعل من الأصل ولهذا فإن العقل يثبت هذه المسألة بداهة حتىٰ الداروينيون البلهاء في نظريتهم العقيمة العمياء نظرية التطور التي لا تقوم إلَّا علىٰ تخاريف لا تخضع بحال إلىٰ أي مستندات علمية تقيم صلبها أو تقوي وتدها، حتىٰ هؤلاء إن سلمنا جدلًا بكلامهم فمن خلق الكائن الأول الذي تطورت منه الكائنات أم أنه خلق نفسه فأوقعوا أنفسهم فيما أرادوا أن يفروا منه. لكن علىٰ كل حال العقل والمنطق يسلمان بلا شك ولا ريب بأن لكل حادث مُحدث.

وعلىٰ العقل أيضًا أن يسلم بأن مُحدث هذه المحدثات لابد وأن يكون غير حادث وإلا فإن الأمر لا ينتهي أبدًا وهذا محال عقلًا ومن هنا نقول لابد من إبطال التسلسل في المحدثات.

ودليل ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

وببساطة عقلية محضة بما أنه لم يدعي أحد أنه هو الأول والآخر إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ فينبغي التسليم له والإذعان لخبره سبحانه وتعالىٰ وإلا مَنْ يكون الأول غيره ومن يكون الآخر سواه.

٢- دليل العناية:

(أي الاعتناء المقصود بكل المخلوقات وخاصة الإنسان وموافقة المخلوقات له وذلك عن قصد وحكمة وتعمد وليس مجرد مصادفة).

لأن الإنسان لم يعتني بنفسه بداية ويخلق لها السماوات التي تظلها والأرض التي تقلها والثمرات التي تقيمها ولم يخلق لها ليلًا يكون سُباتًا لها ولا نهارًا يكون معاشًا لها ولم يخلق قلبًا يخفق لنفسه ولا معدة تهضم ولا رئته تتنفس، ولم يخلق الهواء الذي خلقت الرئة لتتنفسه ولا الطعام الذي خلقت المعدة لتهضمه ولا الأرض التي خلقت القدم لتطأها فهذه العناية الإلهية التي لا مثيل لها ومحال أن تكون صدفة من غير تدبير من أعظم أدلة وجود المدبر العلي القدير.

ودليل ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ:٦-١٦].

٣- الإتقان والتقدير:

(أي دلالة القصد أو النظام). ومسألة الإتقان الكامل التام يستطيع أن يشهد بها الملحد قبل المؤمن لأنها من الظهور بمكان لا يخفىٰ حتىٰ علىٰ العميان كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك:٣-٤]، وقوله جل ثناؤه ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٨٨].

وهذا واضح جلي أثبته النظر البسيط للمتأمل العادي وأثبته النظر العلمي للمتأمل الحاذق العليم بأجهزته الحديثة وعلومه الواسعة فالكل يشهد بعظم إتقان الصانع وأنه لا

تفاوت في صنعته ولا مثقال ذرة من خردل بل إنه من عظم صنعته الكل يحاول تقليد بعضا من أجزاء بعض من المخلوقات فتحداهم الخالق عَزَّوَجَلَّ أن يخلقوا أقل المخلوقات وأحقرها في أعين الكثيرين وهذا التحدي مستمر قائم إلىٰ قيام الساعة فاسمع بآذان قلب واشهد بالحق إن كنت من المنصفين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾ [الحج:٧٣-٧٤]. فهذا تحدٍّ علميٌّ واضح جلي وكلام المنكرين ثرثرة لا تخضع لعلم ولا لعقل ويا ليتهم يأخذون الأمر علىٰ محمل الجد ويجتهدون مجتمعين ومتفرقين ليخلقوا لنا ذرة أو نملة أو ذبابة أو حتىٰ عنكبوتًا أم أنهم لا يحسنون إلَّا الهرتقات والثرثرات التي لا يحسنها إلَّا المفلس الأحمق وهم في ذلك يشابهون أسلافهم من عير قريش الذين قالوا مثل قولهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت:٢٦].

ثم هذه القوانين التي أذهلت العقول وخلدت ذكر مَن اكتشفها مثل قانون الجاذبية الأرضية وقانون الطفو، إلىٰ غير ذلك من الذي وضعها وخلقها ثم هل نقول بأن أرشميدس اخترع قانون الطفو أم اكتشف قانون الطفو، نقول اكتشف، إذًا فمن الذي خلقه وقدره؟ ولا يزال العلم الذي يتشدقون به عبارة عن اكتشافات لما خلق رب الأرض والسماوات وبرغم كل هذا التقدم العلمي المُدَّعَىٰ إلَّا أنهم لم يفعلوا شيئًا إلَّا محاولات جاهدة لتقليد خلق الله عَزَّوَجَلَّ ولن يستطيعوا إنشاء نسخة أصلية ولو اجتمعوا لها فأين تقدمهم في الطيران أمام تقدم أصغر الطيور حجمًا وأقلهم إمكانية والله الذي لا إله إلَّا هو لو اجتمع كل علماء الدنيا ما استطاعوا أن يصنعوا طائرة مثل طائر الطنان ناهيك عن صناعة صقرٍ أو حتىٰ ذبابة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾ [الحج:٧٣-٧٤].

إذًا فبما أن مدعي العلم هؤلاء الذين ملأوا الدنيا علينا ضجيجًا بإلحادهم (ودعواهم الساقطة بالرجوع إلىٰ العلم والبعد عن مَنْ علَّم العلم وأرسىٰ قواعده ولم يحيطوا بشيء من علمه إلَّا بما شاء بما أنهم لم ولن يستطيعوا مجتمعين أن يخلقوا أصغر وأضعف

المخلوقات إذًا فعليهم أن يخضعوا علميًّا لمن أبدع هذه المخلوقات بغير مثال سابق بل وبغير مادة سابقة ويذعنوا له ويستسلموا لشرعه كما أعجزهم خلقه ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

وهنا لابد من ذكر لطيفة جليلة ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ تحدىٰ خلقه ممن كفر به ولم يذعن لأمره من جهتين وذلك كما في قوله جل ثناؤه ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] فتحداهم من جهة الخلق فالخلق له وحده فلا يستطيع أحد أن يخلق مثل خلقه والأمر له وحده فلا يستطيع أحد أن ينزل مثل أمره كما ذكر ذلك جل ثناؤه مفصلًا في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج:٧٣-٧٤] وفي قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء:٨٨-٨٩].

٤- دليل التسخير والتدبير:

(أي السيطرة والقهر وذلك يتجلىٰ في نواميس الكون التي أخضعها الله لحكمته وعظمته).

وهذا أيضًا واضح جلي لا يخفىٰ علىٰ بادي النظر كما لا يخفىٰ من باب أولىٰ علىٰ أولي الألباب من عباد الله، فالذي ينظر إلىٰ القواعد والأنظمة الكونية التي لا تتغير ولا تتبدل كالنظام الذري والنظام الشمسي ونظام المجرة وما بين ذلك من أنظمة الطفو والجاذبية وغير ذلك مما لم نكتشف منه إلَّا عشر معشار قواعده، يعلم أنها مسخرة مدبرة مقهورة فيا ترىٰ من الذي سخرها؟! الإنسان الذي لم ولن يصل إلىٰ أبعادها؟! أم هي سخرت نفسها بنفسها لهذا المخلوق حبًا وكرامة؟! أم أن الذي سخرها هو الذي خلقها وأخضعها وأجبرها فلا خيار لها ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:١١].

* وقال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى:١٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [السجدة:٤-٦].

* وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج:٦٥-٦٦].

وليس هذا في العالم الخارجي فقط بل إن نظام التسخير الذي لا دخل للإنسان فيه يحيط به من كل مكان من الذرة إلىٰ المجرة والذي أوجد هذه الكائنات هو الذي سخرها وقهرها وأجبرها.

وعندما يأتي رويبضة الإلحاد فيتحدثون عن الحداثة والعلم نقول لهم سؤالًا واحدًا: هل هذا العلم الذين يظنون أنهم بلغوا منه ذروة سنامه قواعده مكتشفة أم مخترعة؟ سيجيب الجميع: بل مكتشفة، فكل النظريات العلمية التي قامت علىٰ أساسها التكنولوجيا الحديثة مكتشفه فلم يخترع أحد نظرية الطفو ولا نظرية الجاذبية وإنما اكتشفوها إذًا فمن الذي اخترعها أي خلقها أي فطرها؟! أليس الذي خلق السماوات والأرض وفطرهن من غير مثال سابق ومن قبل أن يوجد أحد من إنس أو جن أو ملك ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف:٥١].

* وقال جل ثناؤه ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٥٦].

* وقال سبحانه: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد:١٦].

٥- التخصيص:

(وتعني أن الله عَزَّوَجَلَّ خص المخلوقات بهذه الصور التي صورهم عليها ولو شاء لخلقهم علىٰ غيرها) وهذا الأمر أيضًا من أوضح الدلائل البينات علىٰ وجود الخالق المدبر الرازق سبحانه وتعالىٰ وهذا واضح جلي في الهيئات التي وجدت عليها المخلوقات، فمثلًا انظر إلىٰ خلق الإنسان يمشي علىٰ رجلين لأنه لا يحتاج إلَّا إلىٰ رجلين

لكي يتحرك في حركة الحياة فهو لم يُخلق لجر شيء أو ليأخذ منه شيء كما حال البهائم التي خلقت لأجل أمر معلوم، فمثلًا نجد أن الأبقار خلقت على هيئة سمينة تمشي على أربع ثديها إلى أسفل لكي يسهل حلبها ويسهل استخدامها في الحرث وما شابه ذلك من الأعمال التي ينبغي أن تقوم بها والتي خلقت من أجلها وهكذا فخلقت الطيور على الهيئة التي تساعدها على الطيران والزواحف على الهيئة التي تعينها على حياتها إلى ما هنالك من تفاصيل خلق المخلوقات مما يعجز اللسان عن ذكره والبنان عن سطره من واسع مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ بأصنافها التي لا تعد وقدراتها التي لا تحد ولا يعلم عظم تركيبها ونظامها إلَّا الذي خلقها وهداها وصورها وركب فيها سر محياها وهي لا تملك من أمر نفسها شيئًا وكيف وقد خلقت على هذه الهيئات وهي لا تدري بوظيفتها التي خُلقت لها إلَّا بعد ما خُلقت فمن الذي خلقها على هذه الهيئة ومن الذي هداها سبلها ومن الذي علمها نظامها إلَّا الخالق المدبر الذي خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩، ٥٠].

وكما هو واضح فتخصيص هذه المخلوقات على هذه الهيئات تشير بأصابع الحال على قدرة الكبير المتعال وعلى وجود من خلق ومن خصص ولا ينكر هذا إلَّا جاحد معاند مكابر، ثم إن الذي هو قادر على الذهاب بهذه الخصائص التي خص بها هذه المخلوقات هو الذي تثبت له الربوبية عليها كما قال تعالى: ﴿ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الواقعة:٧٠]، ﴿ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٨]، وهذا غيض من فيض وقطرة من بحر وإلا فكل مخلوق يدل على خالقه كما أن كل مصنوع يدل على صانعه.

ثم الأدلة على وجود الواحد المعبود لا تعد ولا تحصى ومنها معجزات أنبيائه التي أيد بها من أرسل إلى عباده مما عجز عن الإتيان بمثله كافة الخلق مجتمعين ومتفرقين وخاتمها المعجزة الباقية الخالدة معجزة القرآن العظيم التي أعجزت الخلق جميعًا علمًا وفصاحة ولغة وبلاغةً وتاريخًا وأدبًا وأخلاقًا وتشريعًا وغيبًا وشاهدًا إلى غير ذلك مما تحدى به القرآن ذاته كل الخلق والتحدي قائم إلى قيام الساعة، ثم أيضًا من بعض دلائل وجود الخالق جل وعلا استجابة الدعاء وهذا لا ينكره إلَّا جاحد لأنه مضطرد معلوم من المشاهدة بالضرورة.

واعلم أن ذكر الأدلة علىٰ وجود الصانع سبحانه لا تحصىٰ لأن كل موجودٍ عن عدمٍ فهو دليل علىٰ وجود موجِدٍ كما قال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء:٤٤] وذلك التسبيح إذعان لموجده وعبادةٌ لربه كما قيل:

وفي كــلِّ شــيءٍ لــهُ آيــةٌ … تــدلُّ علــىٰ أنــهُ الواحــدُ

فأما أدلة الكتاب العزيز: فمنها قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الغاشية:١٧-٢١].

* وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾ [النبأ:٦-١٥].

* وصرف سبحانه هذه الكلمات في كتابه العزيز وصرف هذه الأدلة منها الدلالة علىٰ وجوده وقدرته وحكمته، وأنه لا مشارك له ولا معاضد ولا مغالب فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات:٢٧-٣٣].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد:٣-٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس:٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران:٢٧].

* وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنعام:٩٥-٩٨].

* وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس:٢٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ ﴾ [الإسراء:٦٧].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يس:٣٣-٤٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس:٧١-٧٣].

* وقال تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة:٥٨، ٥٩].

* وقال تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة:٦٨، ٦٩].

* وقال تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الواقعة:٧١-٧٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون:١٢-١٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس:٢٤-٣٢]، فوجه الدلالة من هذه الآيات جليٌّ لمن سبقت له السعادات. قال تعالىٰ: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام:٤٦].

* وقد مدح الله تعالىٰ قومًا أدتهم الفكر إلىٰ معرفة العبر. قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران:١٩١].

وهذه بعض إيماءات القرآن الكريم (الكتاب المسموع) علىٰ التدبر في صفحة الكون (الكتاب المنظور)، وبين كتاب الله المسموع وكتاب الله المنظور يعمل العقل الذي ما خلق إلَّا ليتدبر في أمر خلقه فيؤمن به ويخضع له ويتبع هداه من قبل أن يضل ويخزىٰ فيطيع أمره ويجتنب نهيه لعله يتذكر أو أن يخشىٰ فيقود صاحبه إلىٰ دار السعادة الأبدية ويجنبه الشقاء الأبدي.

ثبتنا الله وإياكم على كل حق وخير وكفانا وإياكم زيغ القلوب والعقول ومدارك الهلاك والبور ووفقنا إلى ما يحب ويرضى وأعاننا على كل ما يرضيه.

القاعدة السابعة: وجوب الإيمان بتوحيد ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ

ومعنى توحيد الربوبية: هو إفراده سبحانه وتعالى بالخلق والملك والرزق والتدبير وبجميع صفات الربوبية.

فعُلم من هذا التعريف أن الرب لابد وأن يكون خالقًا على الحقيقة رازقًا من الأصل مالكًا لعبده ولكل ما ملك مدبرًا لأمر عبده كله وذلك ليس إلَّا لواحد إلَّا وهو الله رب العالمين.

ودليل ذلك: نقلي وعقلي:

أما النقلي فدليله: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤].

* وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣].

* وقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك:١].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس:٣].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس ٣١-٣٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد:٢-٤].

وذكرت صفة ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه أكثر من مئتين وأربع وعشرين مرة (بصيغة رب، وربكم).

وأما دليل وحدانية ربوبية الله العقلي:

وذلك كالذي نبه عليه كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء:٤٢- ٤٤].

فنجد هنا أن الآية الكريمة نبهت علىٰ جدل عقلي محض وعلىٰ فرضية عقلية صرفة فأولًا فرضت جدلًا (وهذا محال ولكن مجاراة لعقول المشركين) أن هناك إله غيره سبحانه علىٰ إقرار الجميع أن رب العرش هو الله وحده ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٨٦، ٨٧] وهنا معنىٰ العرش حسي ومعنوي، فالحسي هو عرش الله الذي استوىٰ عليه سبحانه وتعالىٰ علىٰ الحقيقة بالكيفية التي لا يعلمها إلّا هو سبحانه.

أما المعنوي فيعني السيطرة والهيمنة والقهر والسلطان علىٰ عبادة، وهنا لابد لهذه الآلهة المزعومة أن تطلب هذا العرش لتحكم سيطرتها علىٰ العوالم ولا يكون أحدٌ مسيطرًا عليها لأن إله مسيطر عليه مربوب لا يصح عقلًا أن يكون إلهًا وهو مربوب خاضع لغيره لأنه من الأولىٰ أن يتجه العباد إلىٰ الأعلىٰ الذي لا يسيطر عليه أحد، ثم يترتب علىٰ ذلك صراع في الملاء الأعلىٰ علىٰ بلوغ العرش والهيمنة وهذا غير حادث وغير موجود لأنه لا أثر له ولا ادعاء به من أحد، أو أننا لو فرضنا جدلًا وجود آلهة أخرىٰ لم يكن لهم بد من أن يلجأوا إلىٰ ذي العرش والسلطان علىٰ خلقه ليمنحهم بعضًا من سلطانه أو جزءًا من ملكه لأن الملك والسلطان كله لله عَزَّوَجَلَّ ولو حدث ذلك وهذا محال لأنه غير موجود ولم

يدعيه أحد لكان هذا عجزًا من تلك الآلهة المزعومة والإله لو اعتراه العجز والفقر لغيره لم يعد إله لأنه لا يستطيع أن يكون ربًّا منفردًا بالهيمنة علىٰ خلقه لا يحتاج لأحد، وكل هذا يحاج أهل الشرك بدليل عقلي لو تفكروه لوحّدوا معبودهم كما هو واحد في ربوبيته فلابد أن يكون واحدًا في إلهيته فكما أنه ممتنع علىٰ العقل وجود ربين فينبغي أن يمتنع علىٰ العبد وجود معبودين، هذا والله أعلىٰ وأعلم.

ثم في قول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٢] دلالة علىٰ امتناع وجود ربين مدبرين وإلهين معبودين واضح لأن ذلك حتمًا سيؤدي إلىٰ فسادٍ بيّنٍ من جهتين من جهة فساد السماوات والأرض في ذاتهما ومن جهة فساد من فيهما من المخلوقات، هذا مع استحالة وجود ربين مدبرين لامتناع أن يكونا أحدهما أكفأ من الآخر لأنه بذلك سيكون ربًّا له ولو كانا متكافئين لامتنع التدبير منهما لا من حيث الاتفاق ولا من حيث الاختلاف وهذا ما ذكره أهل العلم مثل ابن تيمية وغيره.

وهذا أيضًا واضح جلي من حيث تكامل النظام الكوني ووحدة النظم الأساسية كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٠-٣٥].

فالناظر المتأمل في هذه الآيات الكريمات يجد وحدة الخالق ظاهرةً جلية في وحدة النظام سواء في خلق الأحياء من مادة واحدة أو في وضع القوانين الثابتة من ثبات الجبال ودوران الكواكب والأجرام في الفلك وحتىٰ دوران الذرات في فلك (فالمجرة تسير بنفس نظام الذرة) فالذي سير المجرة هو الذي خلق الذرة وبما أن القانون واحد فالمقنن واحد وبما أن الكل يتكامل إذًا فالمدبر واحد حتىٰ في قانون الحياة والموت فالذي خلقهما واحد والذي حد حدودهما واحد، ولو كان غير ذلك لفسدت السماوات والأرض ولضاع الخلق فلربما اتخذ هذا الإله قرارًا ونظم قانونًا يغاير قانون الإله الآخر فتضاد القانونين فأذهب كل منهما الآخر ففي ذلك من الفساد ما لا يخفىٰ علىٰ ذي لب ثم ربما اتفقا فتسما

فانتهىٰ عندئذٍ التكامل وحدث العجز والنقص فتولد عن هذا خلل وفساد عظيم فلا في اختلافهما خير ولا في اتفاقهما خير، فامتنع عقلًا وجود ربين مدبرين وامتنع وجود الإصلاح إن كان هذا قائما ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء:١١١].

وهذا أيضًا بيّنٌ في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

[المؤمنون:٩١-٩٢].

القاعدة الثامنة: من توحيد الربوبية أن الشرك ناقض من نواقض التوحيد

والشرك لغة: اسم من قولهم: أشرك به يشرك إشراكًا، وهو مأخوذ من مادّة (ش ر ك) الّتي تدلّ علىٰ مقارنة وخلاف انفراد، ومن ذلك الشّركة، وهي أن يكون الشّيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما.

والشرك إما أن يكون شرك ربوبية وإما أن يكون شرك إلوهية:

فاما شرك الربوبية (فهو كأن يجعل العبد (ندًا أو شريكًا أو كُفأً) لربه عَزَّوَجَلَّ سواء في خلق الخلق أو ملكهم أو تدبير أمرهم أو تولي رزقهم أو في شيء من خصائص ربوبيته سبحانه وتعالىٰ).

أما شرك الإلهية (فهو صرف أي نوع من أنواع العبادات (القلبية أو البدنية أو المالية الظاهرة أو الباطنة لغير الله عَزَّوَجَلَّ).

وأما قسمي الشرك اصطلاحًا: قال المناويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الشّرك إمّا أكبر، وهو إثبات الشّريك لله تعالىٰ، أو أصغر وهو مراعاة غير الله في بعض الأمور.

ودليل حرمته: قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦].

والشركُ أعظمُ الذنوب؛ وذلك لأمور: لأنه تشبيه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، فمن أشرك مع الله أحدًا فقد شبهه به، وهذا أعظم الظلم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

<u>والظلم هو:</u> وضع الشيء في غير موضعه، فمن عبد غير الله فقد وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها، وذلك أعظم الظلم. ومن ادعىٰ شيئًا من خصائص الربوبية لغير الله عَزَّوَجَلَّ فقد جعل له شريكًا في ربوبيته وذلك أيضًا أعظم الظلم.

وإليك بعض عقوبات الشرك الأكبر:

١ - إن الله تعالى لا يغفره لمن لقيه به:

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء:٤٨].

وذلك لمن مات علىٰ الشرك ولم يتب إلىٰ الله قبل موته، أما من تاب منه وهو ما زال حيًّا فيُغفر له بإذن الله.

٢ - إن الله حرم الجنة على المشرك وجعله مخلدًا في نار جهنم:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢]

٣ - أنَّ الشركَ يُحبطُ جميعَ الأعمال:

* قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر:٦٥].

وعليه فإن الكافر أو المشرك من الممكن أن يكون فاعلًا لبعض أصناف الخير من صدقات أو إصلاحات للدنيا أو طيب خلق مع الناس أو أمانة أو صدق إلىٰ غير ذلك مما يشكل علىٰ بعض الناس فيقولون هل من الممكن أن يكون من اكتشف علاجًا جعله الله سببًا في شفاء ملايين الخلق أو آلة تساعد الناس وتيسر لهم معايشهم أو غير ذلك مما يصلح دنيا الناس أن يخلد في النار وليس له في الآخرة من نصيب من الخير، كيف يكون هذا؟.

✍ أقول وبالله التوفيق: هذا العبد لم يقل يومًا ربي الله ولم يعمل لوجه الله عَزَّوَجَلَّ عملًا وإنما عمل ليقال وقد قيل أو عمل لتحصيل مكسب من الدنيا وقد حصل ما عمل لأجله فلا غرو أن لا يكون له في الآخرة من نصيب لأنه لم يعمل لها يومًا، ثم إن الله عَزَّوَجَلَّ لم يخلق الخلق لإعمار الدنيا فحسب وإنما الإعمار وسيلة لإقامة العبودية وإلا فإن الله عَزَّوَجَلَّ لما خلق الأرض أمدها بكل ما يصلح أمر المقيمين فيها ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ ﴾ [الذاريات:٤٧-٥١].

إذا فالغاية التي خلق الإنسان من أجلها هي إقامة العبودية لله وحده وكل أمر من أموره ينبغي أن يصب في تلك الغاية العظيمة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

٤- أنَّ المشرك حلال الدم والمال وذلك بضوابطه الشرعية:

* قال تعالىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة:٥].

* وقال النبي ﷺ: «**أُمرتُ أن أقاتلَ حتىٰ يقولوا: لا إله إلَّا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلَّا بحقها**».

وذلك لإقامة التوحيد وحفظ الموحدين ليكون الدين كله لله عَزَّوَجَلَّ فالكافر المقاتل الذي يريد محاربة دين الله عَزَّوَجَلَّ وذهاب أمره سبحانه يقاتله أهل الإسلام عند القدرة علىٰ قتاله تحت راية دولة المسلمين فإن غلبوا أسروا من كان حيًّا وقتلوا من حاربهم وسلبوا أموالهم.

فهذا المشرك ما الذي أحل دمه وماله وعرضه أليس كفره وشركه وحربه علىٰ الله وعلىٰ دينه، فانظر كيف هتك الشرك عرض هؤلاء وأباح دماءهم فتأمل كيف هان الله عليهم فهانوا عليه.

٥- أن الشرك محبط للعمل:

* قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦].

فاعلم أن الشرك لا يبقىٰ معه عمل مهما كان نبيلًا في نظر الناس ولا يبقىٰ معه عامل مهما كان عظيمًا عند الخلق.

فإن الله لا يقبل من العمل إلَّا ما كان خالصًا لوجه تابعًا لأمره، ولا يقبل عاملًا إلَّا إذا كان موحدًا لذاته خاضعًا لدينه مسلمًا وجهه إليه مؤمنًا به حق الإيمان.

٦- أنَّ الشركَ أكبرُ الكبائر:

* قال رسول ﷺ «**إلَّا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» قلنا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين...**» الحديث.

قال العلامة ابن القيم: (أخبر سُبحانه أن القصد بالخلق والأمر: أن يُعرفَ بأسمائه وصفاته، ويُعبدَ وحده لا يُشرك به، وأن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]. فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله، وأنزلَ كُتبه؛ ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل، ومن أعظم القسط: التوحيد، وهو رأس العدل وقوامه؛ وإن الشرك ظلم كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

[لقمان:١٣].

فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل؛ فما كان أشد منافاةً لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر ... إلىٰ أن قال: (فلما كان الشرك منافيًا بالذات لهذا المقصود؛ كان أكبر الكبائر علىٰ الإطلاق، وحرم الله الجنة علىٰ كل مشرك، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد، وأن يتخذوهم عبيدًا لهم لما تركوا القيام بعبوديته، وأبىٰ الله سبحانه أن يقبل لمشرك عملًا، أو يقبلَ فيه شفاعة، أو يَستجيب له في الآخرة دعوة، أو يقبل له فيها رجاء؛ فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله، حيث جعل له من خلقه ندًّا، وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك في الواقع لم يظلم ربَّه، وإنَّما ظلَمَ نفسه) انتهىٰ.

٧- أنَّ الشركَ تنقص وعيب:

نزه الرب سبحانه نفسه عنهما، فمن أشرك بالله فقد أثبت لله ما نزه نفسه عنه، وهذا غاية المحادَّةِ لله تعالىٰ، وغاية المعاندة والمشاقَّة لله.

وذلك لأن الشريك إما أن يكون معينًا لشريكه (ولا يتخذ المعين إلَّا عند العجز عن القيام بالأمر منفردًا) أو يكون ممولًا (ولا يتخذ الممول إلَّا عند الافتقار) وإما أن يكون مدبرًا (ولا يتخذ المدبر إلَّا عند فقد الحيلة والاضطرار) وكل هذا وغيره من دواعي الشراكات ناتج عن العجز وهو عيب لا ينبغي لرب يعبده العباد فالشرك نفي للربوبية علىٰ عمومها ومدعاة لإنكار الرب، ولهذا (ألحَد) الكثيرون من بني الأصفر من أهل الغرب بسبب شرك النصارىٰ التي عمت هذه الأرجاء، لأن ملحدي أوربا ما ألحدوا إلَّا لما عجزت عقولهم عن تصور رب فقير محتاج مهان متمثل في عبد له صاحبة وولد يعتريه ما يعتري المخلوق من عجز وفشل وخضوع إلىٰ ما هنالك مما تُصوره النصرانية المحرفة، وعلىٰ هذا قام الإلحاد الأوربي، ولو وصل لهم الإسلام علىٰ حقيقته وتأملوه بعقول

منصفة متجردة لأسلموا عن بكرة أبيهم، أعاننا الله وإياكم علىٰ تبليغ دعوة الحق لكل الخلق.

أقسام الشرك:

قال ابن القيّم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ-: الشّرك نوعان: أكبر وأصغر.

فالشّرك الأكبر: (لا يغفره الله إلّا بالتّوبة منه) وهو أن يتّخذ من دون الله ندًّا، يحبّه كما يحبّ الله. وهو الشّرك الّذي تضمّن تسوية آلهة المشركين بربّ العالمين [وهو ما يسميه بعض أهل العلم بشرك التسوية]. ولهذا قالوا لآلهتهم في النّار: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٧- ٩٨] مع إقرارهم بأنّ الله وحده خالق كلّ شيء، وربّه ومليكه، وأنّ آلهتهم لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت. وإنّما كانت هذه التّسوية في المحبّة والتّعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلّهم يحبّون معبوداتهم ويعظّمونها ويوالونها من دون الله. وكثيرًا منهم بل أكثرهم يحبّون آلهتهم أعظم من محبّة الله. ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده، ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم من المشايخ أعظم ممّا يغضبون إذا انتقص أحدٌ ربّ العالمين، وإذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوداتهم غضبوا غضب اللّيث إذا حرد، وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئًا رضوا عنه ولم تنكر له قلوبهم.

وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة، وترىٰ أحدهم قد اتّخذ ذكر إلهه ومعبوده من دون الله علىٰ لسانه ديدنا له إن قام وإن قعد، وإن عثر وإن مرض وإن استوحش فذكر إلهه ومعبوده من دون الله هو الغالب علىٰ قلبه ولسانه. وهو لا ينكر ذلك، ويزعم أنّه باب حاجته إلىٰ الله، وشفيعه عنده، ووسيلته إليه. وهكذا كان عبّاد الأصنام سواء. وهذا القدر هو الّذي قام بقلوبهم، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم.

فأولئك كانت آلهتهم من الحجر، وغيرهم اتّخذوها من البشر. قال الله تعالىٰ، حاكيًا عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر:٣].

ثمّ شهد عليهم بالكفر والكذب، وأخبر أنّه لا يهديهم فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر:٣]. فهذه

حال من اتّخذ من دون الله وليًّا يزعم أنّه يقرّبه إلىٰ الله. وما أعزّ من يخلص من هذا؟ بل ما أعزّ من لا يعادي من أنكره.

(مسألة في الشفاعة):

وواصل ابن القيم قائلًا: والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم أنّ آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشّرك. وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله، وأخبر أنّ الشّفاعة كلّها له، وأنّه لا يشفع عنده أحد إلَّا لمن أذن الله أن يشفع فيه.

ومن جهل المشرك: اعتقاده أنّ من اتّخذه وليًّا أو شفيعًا أنّه يشفع له، وينفعه عند الله كما يكون خواصّ الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم، ولم يعلموا أنّ الله لا يشفع عنده أحد إلَّا بإذنه، ولا يأذن في الشّفاعة إلَّا لمن رضي قوله وعمله. كما قال تعالىٰ في الأصل الأوّل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٥٥].

قلت: هذا هو الشافع.

وفي الأصل الثّاني: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

قلت: وهذا هو المشفوع له.

وبقي أصل ثالث، قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ [طه:١٠٩]، وهو أنّه لا يرضىٰ من القول والعمل إلَّا التّوحيد، واتّباع الرّسول. وعن هاتين الكلمتين يسأل الأوّلين والآخرين. كما قال أبو العالية: كلمتان يُسأل عنهما الأوّلون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟.

قلت: وهذا هو المشفوع فيه.

فهذه ثلاثة أصول تقطع شجرة الشّرك من قلب من وعاها وعقلها: لا شفاعة إلَّا بإذنه. ولا يأذن إلَّا لمن رضي قوله وعمله. ولا يرضىٰ من القول والعمل إلَّا توحيده، واتّباع رسوله.

فالله تعالىٰ لا يغفر شرك العادلين به غيره كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام:١].

* وأصحّ القولين: أنّهم يعدلون به غيره في العبادة والموالاة والمحبّة، كما في الآية الأخرىٰ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨].

* وكما في آية البقرة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

وترىٰ المشرك يكذّب حالُه عملَه وقوله؛ فإنّه يقول: لا نحبّهم كحبّ الله، ولا نسوّيهم بالله، ثمّ يغضب لهم ولحرماتهم إذا انتهكت أعظم ممّا يغضب لله، ويستبشر بذكرهم، ويتبشبش به لا سيّما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم من إغاثة اللهفان، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنّهم الباب بين الله وبين عباده، فإنّك ترىٰ المشرك يفرح ويسرّ ويحنّ قلبه، وتهيج منه لواعج التّعظيم والخضوع لهم والموالاة، وإذا ذكرت له الله وحده، وجرّدت توحيده لحقته وحشة، وضيق، وحرج ورماك بتنقّص الإلهيّة الّتي له، وربّما عاداك.

وقد قطع الله تعالىٰ كلّ الأسباب الّتي تعلّق بها المشركون جميعًا قطعًا يعلم من تأمّله وعرفه: أنّ من اتّخذ من دون الله وليًّا، أو شفيعًا فهو ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾ [العنكبوت:٤١].

* وقال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣] فالمشرك إنّما يتّخذ معبوده لما يعتقد أنّه يحصل له به من النّفع، والنّفع لا يكون إلّا ممّن فيه خصلة من هذه الأربع: إمّا مالك لما يريده عباده، فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده.

فنفىٰ سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتّبًا، متنقّلًا من الأعلىٰ إلىٰ ما دونه، فنفىٰ الملك، والشّركة، والمظاهرة، والشّفاعة، الّتي يظنّها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشّفاعة بإذنه.

فكفىٰ بهذه الآية نورًا، وبرهانًا ونجاةً، وتجريدًا للتّوحيد، وقطعًا لأصول الشّرك، وموادّه لمن عقلها.

والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكنّ أكثر النّاس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمّنه له، ويظنّونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا. وهذا هو الّذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شرّ منهم، أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك.

ولكنّ الأمر كما قال عمر بن الخطّاب- رضي الله عنه -: (إنّما تنقض عرىٰ الإسلام عروة عروه إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهليّة)، وهذا لأنّه إذا لم يعرف الجاهليّة والشّرك، وما عابه القرآن وذمّه وقع فيه وأقرّه، ودعا إليه وصوّبه وحسّنه. وهو لا يعرف أنّه هو الّذي كان عليه أهل الجاهليّة، أو نظيره. أو شرّ منه، أو دونه. فينقض بذلك عرىٰ الإسلام عن قلبه. ويعود المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والبدعة سنّة، والسّنّة بدعة، ويكفر الرّجل بمحض الإيمان وتجريد التّوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرّسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حيّ يرىٰ ذلك عيانًا، والله المستعان.

ويدخل تحت هذا النّوع (الشّرك الأكبر) السّجود لغير الله، والرّكوع، والنّذر، والخوف، والتّوكّل علىٰ غيره، والعمل لغيره، والإنابة، والخضوع، والذّلّ لغير الله، وابتغاء الرّزق من عند غيره، واعتقاد أن يكون في الكون ما لا يشاؤه، وطلب الحوائج الّتي لا يقدر عليها إلّا هو من غيره، والاستغاثة بهم.

وما نجا من شرك هذا الشّرك الأكبر إلّا من جرّد توحيده لله، وعادىٰ المشركين في الله، وتقرّب بمقتهم إلىٰ الله، واتّخذ الله وحده وليّه وإلهه ومعبوده فجرّد حبّه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذلّه لله، وتوكّله علىٰ الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلىٰ الله، واستغاثته بالله. وأخلص قصده لله متّبعًا لأمره، متطلّبًا لمرضاته. إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل لله فهو لله، وبالله، ومع الله.

والشّرك أنواع كثيرة. لا يحصيها إلّا الله. ولو ذهبنا نذكر أنواعه لاتّسع الكلام أعظم اتّساع.

✍ **قلت:** وهذا الذي ذكره بن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ شرك الألوهية.

أما شرك الربوبية فهو كأن يدعي المرء لله عَزَّوَجَلَّ شريكًا في ملكه أو في تصريف أمور خلقه قال تعالىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء:١١١].

وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحقاف:٤]، أو غير ذلك من خصائص الربوبية التي لا ينبغي أن تصرف إلّا لله وحده

ويدخل في هذا النوع الاعتقاد في تأثيرات النجوم علىٰ الحوادث كإنزال المطر أو جلب منفعة أو دفع مضرة ويدخل فيه أيضًا الاعتقاد في الأموات في جلب المنافع ودفع المضار أو في الأنبياء والأولياء أو الصالحين بأنهم يدبرون أمر الخلق مع الله عَزَّوَجَلَّ ويدخل في ذلك أيضًا من يعتقد في التمائم والتعاويذ والطيرة (ونجمة البحر) وما يسمىٰ اليوم (بالحظَّاظات) أو (الجعرانة) أو (الأحجبة)، أو المعلقات التي تعلق لجلب المصالح أو دفع المضار ويدخل أيضًا (الخرز الأزرق)و(العين الزرقاء) ويدخل في ذلك أيضًا الاستعانة بالجن والاعتقاد بأنهم يملكون شيئًا من خصائص الربوبية أو شفاء أحد أو إنجاح أحد أو تغيير قلب أحد إلىٰ غير ذلك، فيذبح لهم أو يستعاذ بهم أو ينذر لهم أو يلجأ إليهم أو لغيرهم من دون الله عَزَّوَجَلَّ لقضاء الحوائج وفك الكربات وجمع الأزواج أو تفريقهم كل هذا وغيره إن اعتقده أو عمل به صاحبه كفر وأشرك بالله عَزَّوَجَلَّ شركًا أكبر كما قال جل ثناؤه في البقرة ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة:١٠٢]

إذًا من فعل من هذه الأمور شيء فقد أشرك بالله ما لم ينزل به سلطانًا وجعل لله عَزَّوَجَلَّ ندًّا في ربوبيته وهو من الشرك الأكبر عياذًا بالله فلا خالق إلَّا الله ولا رازق إلَّا الله ولا مدبر إلَّا الله ولا مالك إلَّا الله ولا مصرف لأمور الخلق سواه ولا دافع للضر إلَّا هو ولا جالب للنفع غيره تعالىٰ عما يشرك الظالمون علوًّا كبيرًا.

وأمّا الشّرك الأصغر: فكيسير الرّياء، والتّصنّع للخلق، والحلف بغير الله، كما ثبت عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»، وقول الرّجل للرّجل ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلّا الله وأنت، وأنا متوكّل علىٰ الله وعليك، ولولا أنت لم يكن كذا وكذا»، وقد يكون هذا شركًا أكبر بحسب قائله ومقصده.

وصحّ عن النّبيّ ﷺ أنّه قال لرجل قال له: «ما شاء الله وشئت»: «**أجعلتني لله ندًّا؟ قل: ما شاء الله وحده**». وهذا اللّفظ أخفّ من غيره من الألفاظ.

وحكم صغير الشرك إحباط القدر الذي أشرك فيه العبد وهو يعد من الذنوب والآثام التي يعاقب عليها العبد إن لم يتب منها، أما إن كان العبد يعتقد ما يقول من تعظيم المحلوف به أو ادعاء أنه يدبر أمرًا مما توكل به عليه أو غير ذلك من اعتقاد العبد شيء مما اختص به الله عَزَّوَجَلَّ ذاته به يعتقده لغير الله فهذا يدخل في الشرك الأكبر وإن اشترك في لفظه مع الشرك الأصغر والله أعلىٰ وأعلم.

من مظاهر الشرك الأكبر:

للشّرك سواء أكان من المشركين أهل الجاهليّة الأولىٰ، أو ممّن ينتسبون إلىٰ أهل الكتاب من اليهود أو النّصارىٰ، أو المبتدعة ممّن ينتسبون إلىٰ الإسلام- وهو منهم ومن شركهم براء- صور عديدة كشف عنها علماء الإسلام محذّرين النّاس منها، خاصّة أنّ بعض هذه المظاهر قد شاعت في بعض البلدان الإسلاميّة، نذكر من ذلك:

١ - الاستغاثة والتوسّل بغير الله تعالى:

قال الإمام ابن تيميّة:

من أعظم أنواع الشّرك دعاء الملائكة والأنبياء والصّالحين بعد موتهم، وعند قبورهم، وفي مغيبهم، وخطاب تماثيلهم والاستغاثة بهم، وطلب الشّفاعة منهم، وهو من الدّين الّذي لم يشرعه الله، ولا ابتعث به رسولًا، ولا أنزل به كتابًا، وليس هو واجبًا ولا مستحبًّا باتّفاق علماء المسلمين، ولا فعله أحد من الصّحابة والتّابعين لهم بإحسان، ولا أمر به إمام من أئمّة المسلمين، وإن كان ذلك ممّا يفعله كثير من النّاس ممّن له عبادة وزهد، ويذكرون فيه حكايات ومنامات، فهذا كلّه من الشّيطان، وفيهم من ينظم القصائد في دعاء الميّت والاستشفاع به، والاستغاثة، أو يذكر ذلك في ضمن مديح الأنبياء والصّالحين، فهذا كلّه ليس بمشروع، ولا واجب، ولا مستحبّ باتّفاق أئمّة الدّين، فإنّ الله لا يُعبد إلّا بما هو واجب أو مستحبّ. (أي بما شرع)

ولم يكن النّبيّ ﷺ بل ولا أحد من الأنبياء قبله شرعوا للنّاس أن يدعو الملائكة والأنبياء والصّالحين ويستشفعوا بهم، لا بعد مماتهم ولا في مغيبهم.

وقال الشّيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنّ دعاء غير الله من الأموات والأشجار والأصنام وغيرها شرك بالله عَزَّوَجَلَّ ينافي العبادة الّتي خلق الله الثّقلين من أجلها، وأرسل الرّسل وأنزل الكتب لبيانها والدّعوة إليها وهذا هو معنىٰ «لا إله إلّا الله» أي لا معبود بحقّ إلّا الله، فهي تنفي العبادة عن غير الله، وتثبتها لله، وهذا هو أصل الدّين الأوّل، أمّا الأصل الثّاني فهو

أنّه لا يعبد إلّا بشريعة نبيّه ورسوله محمّد ﷺ، وهذا معنىٰ شهادة أنّ لا إله إلّا الله، وأنّ محمّدًا رسول الله، فمن دعا الأموات من الأنبياء وغيرهم، أو دعا الأصنام أو الأشجار أو الأحجار أو غير ذلك من المخلوقات أو استغاث بهم فقد اتّخذهم أربابًا من دون الله، وجعلهم أندادًا لله، وهذا يناقض أصل الإيمان وينافي معنىٰ الشّهادتين، كما أنّ من ابتدع في الدّين شيئًا لم يأذن به الله لم يحقّق معنىٰ شهادة أنّ محمّدًا رسول الله. وكلّ عمل مبتدع لم يأذن به الله يكون يوم القيامة هباءً منثورًا لأنّه لم يوافق شرعه المطهّر.

٢- الزيارة البدعية للمقابر:

✍ **قال الإمام ابن تيميّة** - رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ -: زيارة قبور المسلمين علىٰ وجهين: زيارة شرعيّة، وزيارة بدعيّة.

فأمّا الزّيارة الشّرعيّة فمقصودها الدّعاء للميّت، كما أنّ الصّلاة عليه دعاء له، وكان ﷺ إذا دفن الرّجل من أمّته يقوم علىٰ قبره ويقول: «**سلوا الله له التّثبيت فإنّه الآن يُسأل**».

وكان ﷺ يزور قبور أهل البقيع والشّهداء بأحد، ويعلّم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول أحدهم: «**السّلام عليكم أهل الدّيار من المؤمنين والمسلمين، وإنّا إن شاء الله تعالىٰ بكم لاحقون، ويرحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية، اللهمّ لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنّا بعدهم**».

أمّا الزّيارة البدعيّة فهي الّتي يقصد بها أن يطلب من الميّت الحوائج، أو يطلب منه الدّعاء له والشّفاعة، أو يقصد الدّعاء عند قبره لظنّ القاصد أنّ ذلك أجوب للدّعاء. فالزّيارة علىٰ هذه الوجوه كلّها مبتدعة لم يشرعها النّبيّ ﷺ ولا فعلها الصّحابة لا عند قبر النّبيّ ﷺ ولا عند غيره، وهي من جنس الشّرك وأسباب الشّرك. ولو قصد الصّلاة عند قبور الأنبياء والصّالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدّعاء عندهم - مثل أن يتّخذ قبورهم مساجد - لكان ذلك محرّمًا منهيًّا عنه، ولكان صاحبه متعرّضًا لغضب الله ولعنته، كما قال النّبيّ ﷺ: «**اشتدّ غضب الله علىٰ قوم اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وقال: «**قاتل الله اليهود والنّصارىٰ اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذّر ما صنعوا. وقال: «**إنّ من كان قبلكم كانوا يتّخذون القبور مساجد، إلّا فلا تتّخذوا القبور مساجد فإنّي أنهاكم عن ذلك**».

فإذا كان هذا محرّمًا وهو سبب لسخط الرّبّ ولعنته فكيف بمن يقصد دعاء الميّت والدّعاء عنده، وبه، واعتقد أنّ ذلك من أسباب إجابة الدّعوات ونيل الطّلبات وقضاء الحاجات!؟

وهذا كان أوّل أسباب الشّرك في قوم نوح وعبادة الأوثان في النّاس، قال ابن عبّاس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلّهم علىٰ الإسلام ثمّ ظهر الشّرك بسبب تعظيم قبور صالحيهم.

✍ **ويقول ابن القيّم** عن هذا المظهر من مظاهر الشّرك (أي طلب الحوائج من الموتىٰ والاستغاثة بهم، والتّوجّه إليهم): وهذا أصل شرك العالم، فإنّ الميّت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، فضلًا عمّن استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلىٰ الله فيها.

والميّت محتاج إلىٰ من يدعو له، ويترحّم عليه، ويستغفر له، كما أوصانا النّبيّ ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين «أن نترحّم عليهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة» فعكس المشركون هذا، وزاروهم زيارة العبادة، واستقضاء الحوائج، والاستغاثة بهم، وجعلوا قبورهم أوثانًا تُعبد.

✍ **وقال الشّيخ ابن باز**: إنّ هذا النّوع من دعاء الأموات كقول القائل: بحقّ الله رجال الله أعينونا بعون الله، وكونوا عوننا بالله، وكقولهم: يا أقطاب، يا أوتاد، يا أسياد، يا ذوي الأمداد فينا واشفعوا لله، هذا عبدكم واقف، وعلىٰ بابكم عاكف.

إنّ هذا ونحوه من الشّرك الأكبر وهو من جنس عمل المشركين الأوّلين مع آلهتهم كالعزّىٰ واللّات وغيرهما، ويلحق ذلك ويتبعه الاستغاثة والاستعانة بمن يعتقد فيهم الولاية من الأحياء فيما لا يقدر عليه إلّا الله عَزَّوَجَلَّ كشفاء المرضىٰ وهداية القلوب، ودخول الجنّة والنّجاة من النّار وأشباه ذلك، لأنّ ذلك عبادة لغير الله وطلب لأمور لا يقدر عليها سواه من الأموات والغائبين، وذلك أقبح من شرك الأوّلين، لأنّ الأوّلين إنّما يشركون في حال الرّخاء، وأمّا في حال الشّدائد فيخلصون لله العبادة لأنّهم يعلمون أنّه سبحانه هو القادر علىٰ تخليصهم من الشّدّة دون غيره، فإن قال قائل من هؤلاء المشركين المتأخّرين: إنّا لا نقصد أنّ أولئك يفيدون بأنفسهم وإنّما نقصد شفاعتهم إلىٰ الله في ذلك، قيل له: إنّ ذلك هو مقصد الكفّار الأوّلين ومرادهم، وليس مرادهم أنّ آلهتهم تخلق أو ترزق أو تنفع أو تضرّ بنفسها بدليل ما حكاه القرآن عنهم من نحو قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وقوله عزّ من قائل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، وقد ردّ عليهم

المولىٰ هذا القول بقوله سبحانه ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

فأبان سبحانه أنّه لا يعلم في السّموات ولا في الأرض شفيعًا عنده علىٰ الوجه الّذي يقصده المشركون، وما لا يعلم الله وجوده، لا وجود له، لأنّه سبحانه لا يخفىٰ عليه شيء.

٣- الذّبح لغير الله والنّذر لغيره سبحانه:

✍ **يقول الشّيخ ابن باز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال الله- عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣] فأمر الله نبيّه أن يخبر النّاس أنّ صلاته ونسكه - وهو الذّبح- ومحياه ومماته لله ربّ العالمين لا شريك له، فمن ذبح لغير الله فقد أشرك بالله كما لو صلّىٰ لغير الله، لأنّ الله سبحانه جعل الصّلاة والذّبح قرينين وأخبر أنّهما لله وحده لا شريك له، فمن ذبح لغير الله من الجنّ والملائكة والأموات وغيرهم يتقرّب إليهم بذلك فهو كمن صلّىٰ لغير الله. وفي الحديث الصّحيح يقول النّبيّ ﷺ: «**لعن الله من ذبح لغير الله**».

وهذا كالذي يحدث من كثير من الجهال من الذبح للبدوي أو للسيدة نفيسة أو لغيرهم عند القبور والأضرحة، ومن ذلك ما يكون من أمر الدجالين والسحرة وأتباعهم بالذبح للجن ويأمروهم بأن يكون ذلك في الخلاء (ما يسمىٰ الآن بالحمامات) ولا يسمون علىٰ الذبيحة، هذا محض الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ لأنهم أيضًا لولا اعتقادهم بأنهم يجلبون لهم نفعًا أو يدفعون عنهم ضرًّا ما ذبحوا لهم هذا مع ما بين الله جل ثناؤه من أن النسك لا يكون إلّا له وحده عَزَّوَجَلَّ .

أمّا النّذر لغير الله تعالىٰ فإنّه أعظم (إثمًا) من الحلف بغيره سبحانه، وإذا كان من حلف بغير الله قد أشرك، فكيف بمن نذر لغير الله؟.

والنذر هو: (أن ينوي العبد بقلبه ولسانه إن حدثت له نعمة كذا أن يتصدق بكذا أو يفعل كذا أو كذا).

وحكمه: عامةً أنه مكروه كما قال النبي ﷺ: «**إن النذر لا يقدم شيئًا ولا يؤخر، وإنما يستخرج به من البخيل**». (صحيح)، رواه أحمد والحاكم.

وهو إما أن يكون المنذور به خيرًا مقدورًا فوجب علىٰ الناذر أن يفي به وإما أن يكون خيرًا غير مقدور فوجب علىٰ الناذر أن يكفر كفارة يمين، وإما أن يكون المنذور به محرمًا فوجب علىٰ الناذر أن يكفر ولا يأتي المحرم، كما جاء عن النبي ﷺ «**إن النذر لا يقرب من**

ابن آدم شيئًا لم يكن الله تعالىٰ قدره له، ولكن النذر يوافق القدر، فيخرج ذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يريد أن يخرج». (صحيح). رواه مسلم وغيره.

وإما أن يكون المنذور له غير الله فيحرم علىٰ الناذر أن ينذر أو أن يفي بنذره وعليه التوبة لله والرجوع لدينه هذا والله أعلم.

٤- الحلف بغير الله تعالىٰ:

قال ابن تيميّة- رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ-: إنّ الحلف بالمخلوقات شرك بخالقها، كما جاء عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك (أو كفر)**».

وقد اتّفق المسلمون علىٰ أنّه من حلف بالمخلوقات المحرّمة أو بما يعتقد هو حرمته كالعرش، والكرسيّ، والكعبة، والملائكة والصّالحين وغير ذلك لا ينعقد يمينه، ولا كفّارة في الحلف بذلك، وهو حرام عند الجمهور، ولم يقل أحد من العلماء المتقدّمين أنّ اليمين ينعقد بأحد من الخلق، إلّا في نبيّنا ﷺ فإنّ عن أحمد روايتين في أنّه ينعقد اليمين به، وقد طرد بعض أصحابه الخلاف في سائر الأنبياء وهذا ضعيف، والّذي عليه الجمهور كمالك والشّافعيّ وأبي حنيفة أنّه لا ينعقد اليمين بالنّبيّ ﷺ- ناهيك عن سائر الأنبياء- كما جاء في إحدىٰ الرّوايتين عن أحمد، وهو الصّحيح.

وقد ذكر ابن القيّم هذا النوع علىٰ أنّه من الشّرك الأصغر- كما سبق- وجعل منه أيضًا:

٥- سجود المريد للشّيخ: (الذي يفعله بعض الجهال من وضع الرأس عند قدم الشيخ):

إنّ سجود المريد للشّيخ شرك من السّاجد والمسجود له (إن رضي بذلك) فإن قالوا: ليس هذا سجودًا وإنّما هو وضع الرأس قدّام الشيخ احترامًا وتواضعًا، قيل لهم: حقيقة السّجود وضع الرأس لمن يسجد له، وكذلك السّجود للصّنم، وللشّمس، وللنّجم، وللحجر، كلّه وضع الرأس قدّامه.

٦- حلق الرّأس للشّيخ:

ومن الشّرك (الأصغر) حلق الرأس للشّيخ، فإنّه تعبّد لغير الله، وكذلك التّوبة للشّيخ لأنّها لا تكون إلّا لله عَزَّوَجَلَّ.

٧- الخوف من غير الله:

ومنه كذلك الخوف من غير الله (ويخرج من هذا الخوف الطبيعي كخوف الإنسان من السباع ومن السيف وغير ذلك من المضار كقول نبي الله موسىٰ لقومه ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الشعراء:٢١].

ومن الشرك الأصغر أيضًا (ويمكن أن يتحول إلىٰ أكبر بحسب اعتقاد المشرك ومقدار الفعل الذي يفعله) التّوكّل علىٰ غير الله والعمل لغير الله، والإنابة والخضوع والذّلّ لغير الله وإضافة النّعمة لغير الله، وغير ذلك من مظاهر الرّياء.

بعض أنواع الشرك المشهورة وحكم ذلك:

✍ **قال الكفويّ:** والشّرك أنواع:

١ – شرك الاستقلال: وهو إثبات إلهين مستقلّين كشرك المجوس.

٢ – وشرك التّبعيض: وهو تركيبه الإله من آلهة كشرك النّصارىٰ.

٣ – وشرك التّقريب: وهو عبادة غير الله ليقرّب إلىٰ الله زلفىٰ كشرك متقدّمي الجاهليّة.

٤ – وشرك التّقليد: وهو عبادة غير الله تبعًا للغير كشرك متأخّري الجاهليّة.

٥ – وشرك الأسباب: وهو إسناد التّأثير للأسباب العاديّة كشرك الفلاسفة والطّبائعيّين ومن تبعهم.

٦ – وشرك الأغراض: وهو العمل لغير الله.

✍ **قال الكفويّ:** فحكم الأربعة الأولىٰ الكفر بإجماع وحكم السّادس المعصية من غير كفر بإجماع، وحكم الخامس التّفصيل فمن قال في الأسباب العاديّة إنّها تؤثّر بطبيعتها فقد حكم الإجماع علىٰ كفره، ومن قال إنّها تؤثّر بقوّة أودعها الله فيها بطبيعتها فهو فاسق.

(وقد قال كلّ من الإمامين الذّهبيّ وابن حجر إنّ الشّرك كبيرًا كان أو صغيرًا من الكبائر).

القاعدة التاسعة: في الأسماء والصفات

ومن توحيد الربوبية توحيد الأسماء والصفات: ومعناه (الاعتقاد الجازم بكمال الله المطلق في أسمائه وصفاته وإفراده بها ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

[الشورى:١١] وإثبات ما أثبته لنفسه في كتابه وصحيح سنة رسوله ﷺ من غير تكييف أو تمثيل، ولا تعطيل أو تحريف)

ولابد لمن أراد أن يتعرف علىٰ أسماء الله وصفاته أن يمر بقواعد أوردها أهل العلم لكي لا يقع فيما يحذر من القول علىٰ الله بغير علم أو الفهم المغلوط لأسماء الله أو أوصافه أو أفعاله.

واعلم – رحمنا الله وإياك – أن القاعدة الأولىٰ والعظمىٰ في معرفة أسماء الله جل ثناؤه هي ما ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه العزيز مبينة علىٰ النحو الذي ليس بعده تبيان وذلك في قوله جل ثناؤه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٠]، فهذا هو منطلق أهل السنة والجماعة في جمع ومعرفة أسماء الله وصفاته وأفعاله، ثم منطلقهم ﷺ في شرح المعاني وتعريف المباني قوله جل ثناؤه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] أن هاتين القاعدتين هما المنطلق الرئيس في علوم الأسماء والصفات. فانتبه!

وقولنا أسماء الله كلها حسنىٰ: (أي البالغة في الحسن غايته) ودليل ذلك قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٠].

اعلم أن اللفظ إما أن يكون كمالًا مطلقًا أو كمالًا في حال، ونقصًا في حال، وإما أن يكون نقصًا مطلقًا وإما أن يكون كمالًا ناقصًا.

(والذي نثبته لربنا عَزَّوَجَلَّ ما كان كمالًا مطلقًا).

✍ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: [القاعدة الأولىٰ: أسماء الله تعالىٰ كلها حسنىٰ، أي: بالغة في الحسن غايته، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]؛ وذلك لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه لا احتمالًا ولا تقديرًا].

وحسنىٰ علىٰ وزن فُعلىٰ، وهذه الكلمة تأنيث من أحسن، مثل: كبرىٰ، وصغرىٰ، فهما تأنيث أكبر وأصغر، فإذا كان أصل الفعل هو حسن وأحسن، فإن حسنىٰ هي تابعة لأحسن والذي هو اسم تفضيل يدل علىٰ كمال الصفة، فأسماء الله تعالىٰ كلها حسنىٰ، أي: بلغت الغاية في الحسن وفي الجمال وفي الكمال، وقد دل علىٰ ذلك أربعة آيات تقريرًا من كتاب

الله:

* الآية الأولىٰ: في سورة الأعراف وهي قول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

* والآية الثانية هي آية الإسراء وهي قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء:١١٠].

* والآية الثالثة هي آية طه وهي قول الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه:٨].

* والآية الرابعة هي آية الحشر وهي آخر آية في السورة وهي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر:٢٤].

۞ دلالات وصف أسماء الله بالحسنى:

ووصف أسماء الله عَزَّوَجَلَّ بالحسنىٰ له دلالات كثيرة، منها:

أن أسماء الله سبحانه وتعالىٰ تدل كلها علىٰ المدح والثناء والتمجيد لله سبحانه وتعالىٰ، كما ذكر ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مدارج السالكين»، وذكره شيخه قبله في «نقض التأسيس»، وكذلك تدل علىٰ أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ تتضمن معان جميلة، فكما أنها تدل علىٰ المدح والكمال والجلال والتمجيد فهي كذلك تدل علىٰ معان جليلة وعظيمة وهي معاني الكمال، وهذه المعاني هي الصفات.

وكل اسم من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ يدل علىٰ معنىٰ، فمثلًا: اسم الله (الرحمن) يدل علىٰ معنىٰ: وهو الرحمة، واسم الله سبحانه وتعالىٰ (العزيز) يدل علىٰ معنىٰ: وهي العزة، والعزة غير الرحمة، وكل اسم من أسماء الله سبحانه وتعالىٰ يدل علىٰ معنىٰ غير المعنىٰ الذي يدل عليه الاسم الآخر، وإن كانت جميع أسماء الله عَزَّوَجَلَّ تدل علىٰ مسمىٰ واحد وهو الله سبحانه وتعالىٰ، وهذا يدل علىٰ أنها أسماء، يعني: إذا كانت أسماء الله عَزَّوَجَلَّ كل اسم منها يدل علىٰ معنىٰ، وهي كثيرة فالمعاني التي تدل علىٰ كمال الله عَزَّوَجَلَّ كثيرة ومتعددة، ولهذا سميت حسنىٰ.

وكذلك من الدلالات على أن أسماء الله حسنى: أنه لا يوجد اسم من أسماء الله يتضمن الشر أو النقص، بل الشر والنقص في مفعولاته عَزَّوَجَلَّ، وليس في فعله، وليس في وصفه، وليس في اسمه سبحانه وتعالى، ويمكن أن نذكر مثالًا يدل على ذلك، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج: ١٢ - ١٤]، انظروا في الاسم سمى نفسه الغفور الودود، وهي أسماء الخير والبركة، وفي مفعوله وصفه بأنه شديد، ومثل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠]، فالعذاب نتيجة فعله سبحانه وتعالى وهي آثار فعله وقد توصف بالألم، وبما فيه ضرر بالنسبة للإنسان أو لغيره، لكن أسماء الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن ينسب إليها شر بأي وجه من الوجوه.

۞ أمثلة على أسماء الله الحسنى:

✍ **قال الشيخ ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: [مثال ذلك: الحي اسم من أسماء الله تعالى متضمن للحياة الكاملة التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال، الحياة المستلزمة لكمال الصفات من العلم والقدرة والسمع والبصر وغيرها].

الحي يتضمن كمال الحياة بالنسبة لله سبحانه وتعالى، وهذه الحياة لا يعتريها نقص بأي وجه من الوجوه، فهي ليست مسبوقة بعدم فلا يعتريها النقص، ولا يلحقها زوال.

والمخلوق يمكن تسميته بالحي، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الأنعام:٩٥]، فالمخلوق حي لكن حياته ناقصة؛ لأنه سبقها العدم، وسيأتي عليها الفناء، ولأنه يتخللها السِّنَة يعني: النعاس، والنوم، فضلًا عما يدخلها من النسيان والغفلة ونحو ذلك من قوادح الحياة، لكن حياة الله عَزَّوَجَلَّ كاملة لا يعتريها نقص بأي وجه من الوجوه، فليست مسبوقة بعدم، ولا يلحقها زوال، وليس فيها نسيان، وليس فيها خطأ، وليس فيها نوم، وليس فيها نعاس، بل هو سبحانه وتعالى حي حياة دائمة مستمرة ليس لها بداية وليس لها نهاية سبحانه وتعالى، وهذا هو معنى قول الشيخ: (وذلك لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه).

✍ **قال الشيخ ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: [ومثال آخر: العليم اسم من أسماء الله متضمن للعلم الكامل الذي لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، قال الله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، العلم الواسع المحيط بكل شيء جملة وتفصيلًا، سواء ما يتعلق بأفعاله أو أفعال خلقه، قال الله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ

ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩]، ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود:٦]، ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾ [التغابن:٤].

العليم: اسم من أسماء الله تعالىٰ يتضمن صفة من صفاته وهي العلم، فهذا العلم الذي يدل عليه اسمه سبحانه وتعالىٰ لا نقص فيه بأي وجه من الوجوه، واسمه سبحانه وتعالىٰ العليم لا نقص فيه في أي وجه من الوجوه، وأنه لا يعتريه النسيان، ولا تعتريه غفلة، ولا يعتريه خطأ، وهذا الاسم العظيم الذي هو من أسمائه سبحانه وتعالىٰ: (العليم) يدل علىٰ سعة علمه، وأن هذا العلم ليس علمًا محدودًا بشيء، وإنما هو علم محيط بكل شيء، ويستوي في ذلك أفعال عباده وأفعال غيره، فكل شيء يعلمه سبحانه وتعالىٰ، ولهذا فعلم الله عَزَّوَجَلَّ لا يمكن أن يحد، وهذا هو وجه الحسن في الاسم؛ لأنه قد يسمىٰ إنسان بعليم لكن كما قال تعالىٰ: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف:٧٦]، وقد يكون الإنسان عنده علم لكن علمه محدود، وربنا هو الذي يعلم كل شيء سبحانه وتعالىٰ، سواء من الأشياء المحسوسة أو غير المحسوسة، والشرعية أو غير الشرعية.

معنى الحسن في أسماء الله تعالى:

ويمكن التنبيه إلىٰ عدة أمور تدل علىٰ وصف أسماء الله عَزَّوَجَلَّ بأنها حسنىٰ:

أولًا: أن الأسماء الجامدة التي لا تدل علىٰ معان ليست من أسماء الله سبحانه وتعالىٰ؛ لأنها ليست حسنة ولا يتحقق فيها وصف الحسنىٰ، مثل: الموجود، فلا يمكن أن يسمىٰ الله: الموجود حتىٰ ولو كان المعنىٰ صحيحًا، فلا يسمىٰ به، ولا يمكن أن يكون هذا له اسم؛ والسبب في ذلك: أنه ليس فيه معنىٰ الحسن، وإنما غاية ما فيه أنه شيء موجود.

ولا يسمىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بأي اسم من هذه الأسماء؛ لأنها لا تتضمن معنىٰ كريمًا حسنًا، ويدل علىٰ أن هذه الأسماء الجامدة ليست من أسماء الله سبحانه وتعالىٰ، فالوصف في الآيات الأربع السابقة وصف لأسماء الله بالحسنىٰ وهذا يدل علىٰ أهمية أن تكون أسماء الله عَزَّوَجَلَّ موصوفة بهذه الصفة وهي الحسن.

كذلك لا يسمىٰ الله سبحانه وتعالىٰ بالاسم الذي يحتمل المدح والذم، مثل: المتكلم، فلا يقال: إن الله عَزَّوَجَلَّ هو المتكلم، فالمتكلم ليس اسمًا من أسماء الله؛ لأن الكلام قد

يكون حسنًا وقد يكون سيئًا، وقد يكون ممدوحًا وقد يكون مذمومًا، فلا يسمىٰ الله سبحانه وتعالىٰ بالاسم الذي يحتمل المدح ويحتمل الذم.

وقد نقد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح الأصفهانية الأشاعرة الذين سموا الله سبحانه وتعالىٰ بهذه الأسماء التي لم يسم بها نفسه، وكان من أوجه النقد التي نقدهم من خلالها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن هذا الاسم يحتمل المعنىٰ الممدوح علىٰ المعنىٰ المذموم، وهذا ينافي الحسن الذي وصف الله سبحانه وتعالىٰ به أسماءه، وكذلك ما ورد مقيدًا أو مضافًا فإن هذا لا يؤخذ منه اسم من أسماء الله سبحانه وتعالىٰ، ويمكن أن نمثل لهذا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾ [السجدة:٢٢]، فلا يؤخذ من هذه الآية اسم لله وهو المنتقم؛ لأن الوصف هنا وهو قوله: ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ مرتبط ومقيد بالمجرمين، لكن إذا قلت: المنتقم بشكل عام احتمل هذا أن يكون منتقمًا أيضًا حتىٰ من المؤمنين فلا يصح، وحينئذ سينافي الحسن الوارد في الآيات الأربع.

ومثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام:٧٣]، فلا يؤخذ من هذه الآية اسم الله عَزَّوَجَلَّ العليم مثلًا أو العالم، لا يؤخذ من هذه الآية تحديدًا لكنه يؤخذ من آيات أخرىٰ تدل بشكل أصرح علىٰ اسم الله عَزَّوَجَلَّ، فالأسماء التي تأتي مقيدة ومضافة لا يصح أن يؤخذ منها اسم من أسماء الله سبحانه وتعالىٰ، مثل: مجري السحاب، وهازم الأحزاب ونحو ذلك.

✍ قال الشيخ **ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: [ومثال ذلك: الرحمن اسم من أسماء الله تعالىٰ متضمن للرحمة الكاملة التي قال عنها رسول الله ﷺ: **(لله أرحم بعباده من هذه بولدها)** يعني: أم صبي وجدته في السبي فأخذته وألصقته ببطنها وأرضعته، ومتضمن أيضًا للرحمة الواسعة التي قال الله عنها: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقال عن دعاء الملائكة للمؤمن: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].].

وهذا مثال يدل علىٰ أن اسم الله عَزَّوَجَلَّ الرحمن اسمًا حسنًا.

📄 قواعد جليلة في باب الأسماء والصفات والإخبار عن الله جل ثناؤه:

(وهذه القاعدة مأخوذة من كتاب «بدائع الفوائد» لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ).

ما يجري صفة أو خبرًا علىٰ الرب تبارك وتعالىٰ أقسام:

القسم الأول: ما يرجع إلىٰ نفس الذات كقولك ذات وموجود.

القسم الثاني: ما يرجع إلىٰ صفات معنوية كالعليم والقدير والسميع.

القسم الثالث: ما يرجع إلىٰ أفعاله نحو: الخالق والرزاق.

القسم الرابع: ما يرجع إلىٰ التنزيه المحض ولا بد من تضمنه ثبوتًا إذ لا كمال في العدم المحض كالقدوس والسلام.

القسم الخامس: ولم يذكره أكثر الناس وهو الاسم الدال علىٰ جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة بل هو دال علىٰ معناه لا علىٰ معنىٰ مفرد نحو المجيد العظيم الصمد فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ولفظه يدل علىٰ هذا فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة فمنه اسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَارُ، وأمجد الناقة علفًا، ومنه ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥] صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله علىٰ رسوله ﷺ كما علمناه لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه فأتىٰ في هذا المطلوب باسم تقتضيه كما تقول: «اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» ولا يحسن: «إنك أنت السميع البصير» فهو راجع إلىٰ المتوسل إليه بأسمائه وصفاته وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي: «**ألظوا بياذا الجلال والإكرام**» ومنه «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلَّا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام**» فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده وأنه الذي لا إله إلَّا هو المنان فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعا عند المسئول وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة وقد فتح لمن بصره الله تعالىٰ تفسير الاسم الإلهي (العظيم – والصمد) ولنرجع إلىٰ المقصود وهو وصفه تعالىٰ بالاسم المتضمن لصفات عديدة فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال وكذلك الصمد قال ابن عباس هو السيد الذي كمل في سؤدده وقال ابن وائل هو السيد الذي انتهىٰ سؤدده وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد فقد صمد له كل شيء وقال ابن الأنباري: «لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم» واشتقاقه يدل علىٰ هذا فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه واجتمعت فيه صفات السؤدد وهذا أصله في اللغة كما قال:

أَلَا بَكَّـرَ النَّـاعِي بِخَيْـرِ بَنِـي أَسَـدِ ... بِعَمْـرِو بْـنِ مَسْـعُودٍ وَبِالسَّـيِّدِ الصَّـمَدِ

والعرب تسمي أشرافها بالصمد لاجتماع قصد القاصدين إليه واجتماع صفات

السيادة فيه.

القسم السادس: (صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر وذلك قدر زائد علىٰ مفرديهما) نحو الغني الحميد العفو القدير الحميد المجيد وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن فإن الغنىٰ صفة كمال والحمد كذلك واجتماع الغنىٰ مع الحمد كمال آخر فله ثناء من غناه وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما وكذلك العفو القدير والحميد المجيد والعزيز الحكيم فتأمله فإنه من أشرف المعارف تسليط صفات السلب علىٰ أسماء الله تعالىٰ وأما صفات السلب المحض فلا تدخل في أوصافه تعالىٰ إلَّا أن تكون متضمنة لثبوت كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو لتضمنها ثبوتًا كقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] متضمن لكمال قدرته وكذلك قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس:٦١] متضمن لكمال علمه وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣] متضمن لكمال صمديته وغناه وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤] متضمن لتفرده بكماله وأنه لا نظير له وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] متضمن لعظمته وأنه جل عن أن يدرك بحيث يحاط به وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب.

قواعد عامة قبل دراسة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى

القاعدة الأولى (من قواعد الأسماء).

أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته:

كالشيء والموجود والقائم بنفسه فإنه يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا.

ഈ◊ഇ

القاعدة الثانية(من قواعد الأسماء)

(أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه بل يطلق عليه منها كمالها):

وهذا كالمريد والفاعل والصانع فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق بل هو الفعال لما يريد فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة ولهذا إنما أطلق علىٰ نفسه من ذلك أكمله فعلًا وخبرًا.

ഈ◊ഇ

القاعدة الثالثة(من قواعد الأسماء)

(أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا أن يشتق له منه اسم مطلق):

كما غلط فيه بعض المتأخرين فجعل من أسمائه الحسنىٰ المضل الفاتن الماكر تعالىٰ الله عن قوله فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلَّا أفعال مخصوصة معينة فلا يجوز أن يسمىٰ بأسمائها المطلقة والله أعلم.

ഈ◊ഇ

القاعدة الرابعة(من قواعد الأسماء)

(أن أسماءه عَزَّوَجَلَّ الحسنى هي أعلام وأوصاف):

والوصف بها لا ينافي العلمية بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم لأن أوصافهم مشتركة فنافتها العلمية المختصة بخلاف أوصافه تعالىٰ.

✍ **قلت:** وذكر أهل العلم في بيان ذلك أن القاعدة التي بين أيدينا وهي: أن أسماء الله تعالىٰ أعلام وأوصاف.

بأنها أعلام باعتبار دلالتها علىٰ الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني، وهي بالاعتبار الأول مترادفة لدلالتها علىٰ مسمىٰ واحد وهو الله عَزَّوَجَلَّ، وبالاعتبار الثاني متباينة لدلالة كل واحد منهما علىٰ معناه الخاص، فالحي العليم القدير السميع البصير الرحمن الرحيم العزيز الحكيم كلها أسماء لمسمىٰ واحد وهو الله سبحانه وتعالىٰ، لكن معنىٰ الحي غير معنىٰ العليم غير معنىٰ القدير وهكذا.

هذه قاعدة جليلة يؤخذ منها أن كل اسم من أسماء الله سبحانه وتعالىٰ يدل علىٰ صفة من صفاته، وهذا معنىٰ قولنا: إن أسماء الله سبحانه وتعالىٰ مشتقة، فهي مشتقة من معانٍ وهذا من غاية الحسن.

✍ **قلت:** والأدلة علىٰ أن أسماء الله تتضمن صفات:

فهناك أربعة أدلة علىٰ أن أسماء الله سبحانه وتعالىٰ تتضمن صفات:

-**الدليل الأول:** أن الله سبحانه وتعالىٰ وصف أسماءه بأنها حسنىٰ، ومعنىٰ حسنىٰ: أي أنها تدل علىٰ معان حسنىٰ، وتدل علىٰ صفات حسنىٰ، والأسماء الجامدة التي لا معاني لها ليست بحسنة، ومن هنا فكل اسم من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ يتضمن صفة من صفاته، فالدليل علىٰ أن أسماء الله تتضمن صفات الله عَزَّوَجَلَّ مأخوذ من الآيات الواردة التي سبق أن ذكرناها والتي وصف الله سبحانه وتعالىٰ أسماءه بأنها حسنة، مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقد ذكر هذا شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العظيم «درء تعارض العقل والنقل».

-**الدليل الثاني:** وجود صفات الله عَزَّوَجَلَّ المرتبطة بأسمائه في كتابه العزيز.

وهو قول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإنما قلنا بأنها أعلام وأوصاف لدلالة القرآن عليها، فإن الإنسان وهو يقرأ أسماء الله في القرآن يقرأ أيضًا صفات لله عَزَّوَجَلَّ مطابقة لهذه الأسماء).

ويمكن أن نمثل بمثال ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ [يونس:١٠٧]، فالغفور يتضمن صفة المغفرة، والرحيم يتضمن صفة الرحمة،

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الكهف:٥٨]، يدل علىٰ أن الرحيم هو صاحب الرحمة، فإن الآية الثانية دلت علىٰ أن الرحيم هو المتصف بالرحمة.

ويمكن أن نذكر أمثلة أخرىٰ، منها: أن من أسماء الله سبحانه وتعالىٰ (القوي العزيز)، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٨]، فمن صفاته أنه ذو القوة، ومن أسمائه القوي، فهذا دليل علىٰ أن اسمه القوي يتضمن صفته القوة.

وأما العزيز فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر:١٠]، فاسمه العزيز يتضمن صفة العزة.

ومن ذلك أيضًا اسمه (العليم)، ومن صفاته العلم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فهذا يدل علىٰ أن اسمه (العليم) يتضمن صفة العلم.

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ [هود:١٤]، وهذا يدل علىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ اسمه (العليم) وله صفة متعلقة به وهي العلم.

مثال آخر: (البصير) من أسماء الله سبحانه وتعالىٰ، وقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «**لو كشفه**» أي: لو كشف عن وجهه، «**لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه**»، فهذا يدل علىٰ أن له بصر، وأنه هو البصير.

وأيضًا (القدير) اسم من أسماء الله سبحانه وتعالىٰ ووصف له، فقد جاء في حديث الاستخارة الثابت في البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: (كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة -إلىٰ أن قال في دعاء الاستخارة-: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك**»)، فهذا يدل علىٰ أن لله قدرة وأنه هو القدير.

وهذه الأدلة التي سقناها تدل علىٰ القاعدة التي ذكرناها، وهو: أن كل اسم من أسماء الله يتضمن صفة من صفات الله **سبحانه وتعالىٰ**.

-**الدليل الثالث:** هو إجماع أهل اللغة والعرف أنه لا يطلق (عليم) إلَّا لمن له علم، ولا يطلق: (قدير) إلَّا لمن له قدرة، ولا (سميع): إلَّا لمن له سمع، ولا (بصير): إلَّا لمن له بصر، وهذا أمر أوضح من أن يحتاج إلىٰ دليل.

-**الدليل الرابع:** وهو أننا نجد في الموجودات مقدورات ومعلومات، وهذه المقدورات تدل علىٰ قدرة، وهذه المعلومات تدل علىٰ علم، فالمقدورات والمعلومات المو-جودة

دليل على وجود القدرة والعلم عند الباري سبحانه وتعالى، وأنها مأخوذة من اسمه العليم القدير كما سيأتي إيضاحه وشرحه.

أنواع الصفات التي تتضمنها أسماء الله تعالى:

الصفات التي تتضمنها أسماء الله تعالى أربعة أنواع:

-**النوع الأول:** ما يرجع إلى صفات معنوية، فالعليم يؤخذ منه صفة معنوية وهي العلم، والقدير والسميع يؤخذ منهما صفة القدرة وصفة السمع وكلاهما صفتان معنويتان.

-**النوع الثاني:** ما يرجع إلى أفعال الله سبحانه وتعالى، فاسمه الخالق يدل على صفة الخلق، واسمه (الرزاق) يدل صفة الرزق وهي من الأفعال، واسمه المحيي المميت يدل على صفة الإحياء والإماتة وهي من أفعاله سبحانه وتعالى.

-**النوع الثالث:** ما يرجع إلى التنزيه والتقديس المحض.

اعلم أن من القواعد الثابتة (أن كل ما دل على تنزيه في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ أو في صفاته، لابد أن يدل على كمال ضده)، وسيأتي إيضاحها وتفصيلها في قواعد الصفات بإذنه تعالى، وهذا مثل القدوس، فإن القدوس هو المنزه عن كل عيب.

-**والنوع الرابع:** هو ما يدل على جملة أوصاف متعددة، وليس له معنى واحد فقط، وإنما يدل على معانٍ متعددة مثل العظيم، فهو العظيم في كل شيء: العظيم في خلقه العظيم في أمره ومثله المجيد، والصمد، ونحو ذلك، وقد شرح ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «بدائع الفوائد» شرحًا مطولًا.

ذكر عقيدة المعتزلة والمعطلة في صفات الله:

✍ قال **الشيخ ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: [وإنما قلنا بأنها أعلام وأوصاف لدلالة القرآن عليه كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ [يونس:١٠٧]، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، فإن الآية الثانية دلت على أن الرحيم هو المتصف بالرحمة، ولإجماع أهل اللغة والعرف أنه لا يقال: عليم إلَّا لمن له علم ولا سميع إلَّا لمن له سمع ولا بصير إلَّا لمن له بصر، وهذا أمر أبين من أن يحتاج إلى دليل].

وعقيدة المعتزلة، وأهل التعطيل الذين عطلوا الصفات أن الله تعالى سميع بلا سمع وبصير بلا بصير وعزيز بلا عزة وهكذا، حيث إنهم فرغوا أسماء الله سبحانه وتعالى من الصفات، كما ذكر ذلك القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني في كتابه «شرح الأصول الخمسة»، وقال: إنه يحسن إجراء الأسماء على الله تعالى من غير إذنه، وهذا يدل على أنه

يرىٰ أنه يصح أن يطلق علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أنه السميع وأنه العزيز وأنه الكريم، لكنه يجرد هذه الأسماء من معانيها، ويقولون -أعني المعتزلة-: إن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ جامدة لا تدل علىٰ صفات، فهم يقولون: إنه السميع لكن بدون سمع، وإنه البصير لكن بدون بصر، وإنه الكريم لكن بدون كرم، وإنه العلي لكن بدون علو، وهكذا، فهم يفرغون أسماء الله سبحانه وتعالىٰ من مدلولاتها ومعانيها، ويجعلونها أعلامًا محضة لا تدل علىٰ صفة، وعقيدتهم ذكرها القاضي عبد الجبار في كتاب «المغني في أبواب العدل والتوحيد»، وفي كتاب «شرح الأصول الخمسة»، وقد نسب الشهرستاني في «الملل والنحل» هذه العقيدة إلىٰ المعتزلة، وكذلك البغدادي في «الفرق بين الفرق».

واحتجوا بشبهة ذكرها الشيخ، وهي قوله: وعللوا ذلك بأن ثبوت الصفات يستلزم تعدد القدماء، وهذه العلة عليلة بل ميتة بدلالة السمع والعقل علىٰ بطلانها).

فهم احتجوا بأن إثبات الصفات يستلزم منه تعدد الواحد وتعدد القدماء، يقول أبو الحسين الخياط في كتابه الانتصار علىٰ ابن الراوندي: (إذا قلنا: إن الله هو السميع وله سمع فلا يخلو هذا السمع من أمرين: إما أن يكون محدثًا أو يكون قديمًا، فإذا كان محدثًا فيلزم حدوث الحوادث في ذاته تعالىٰ، وإذا كان قديمًا فليزم تعدد القدماء، حيث إن الإله قديم وصفته قديمة).

وهذا الذي قاله مبطل للتوحيد، ونحن نبطله بدليل الكلام، فهم يقولون: إن إثبات الصفات يستلزم منه تعدد الآلهة، ويظنون بقولنا: الله عَزَّوَجَلَّ له سمع أن هذا إله السمع، وإذا قلنا: إن له بصر، قالوا: هذا الإله الثاني، وإذا قلنا: إن له سبحانه وتعالىٰ يد قالوا: هذا إله ثالث ورابع وهكذا، ولهذا أدخلوا نفي الصفات في مسمىٰ التوحيد، وقالوا: وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده تقتضي نفي الصفات؛ لأنه إذا أثبتنا الصفات فمعنىٰ هذا أننا عددنا الآلهة وجعلناها أكثر من واحد، وهذا لا شك أنه باطل وأنهم ضالون في هذا القول، وهم يرددون أن إثبات الصفات يستلزم إبطال التوحيد، ويقولون: يجب علينا أن نثبت التوحيد لله تعالىٰ، ويظنون أن إثبات التوحيد يستلزم نفي الصفات وردها، وقد شرح ذلك -كما قلت- القاضي عبد الجبار شرحًا مستفيضًا في الأصل الأول من الأصول الخمسة وهو التوحيد، وكلامه باطل، فإن الموصوف في الدنيا يوصف بعدة صفات وهو واحد، أي: الإنسان في الدنيا يوصف بأن له يد وعين، وأنه يسمع ويرىٰ، ويذكر له صفات كثيرة متعددة مع أنه واحد، فلا يتصور أن الإله إذا قلنا: إن له صفات وأن له سمع وبصر وعلم وحكمة

وإرادة أنه يلزم من كل صفة من هذه الصفات أن تكون إلهًا مستقلًّا، هذا خطأ وضلال وانحراف.

وقد أصابتهم هذه الانحرافات في العقيدة بسبب علاقتهم بالفلاسفة.

والأدلة علىٰ بطلان هذه الشبهة أدلة كثيرة من النصوص الشرعية ومن العقل،

فأما من النصوص فقد سبق أن بيَّنَّا أن الله عَزَّوَجَلَّ أثبت الصفات لنفسه، وهو أعلم بنفسه سبحانه وتعالىٰ ولا يحيطون بعلمه فنسب العلم إليه، ولو كان العلم إلهًا مستقلًّا لما نسبه إليه، وكما يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ [هود:١٤]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٨]، فأعطىٰ نفسه صفة وهي القوة، والقوة غير العلم، وقال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ [الكهف:٥٨]، والرحمة غير القوة وغير العلم، ولا يلزم من هذا تعدد الآلهة كما يقولون، وإنما هو إله واحد، وأصل شبهتهم هو دليل الحدوث كما سبق أن ذكرنا أنهم استدلوا علىٰ وجود الله بدليل حدوث الأجسام، وحاولوا أن يثبتوا بدليل الحدوث وجود الله عَزَّوَجَلَّ، واستخدموا بذلك طريقة عقلية محددة وهي باطلة، فلما استخدموها التزموا بلوازم، كان من هذه اللوازم أن إثبات الصفة يستلزم تعدد الآلهة، فأخذوا هذه الشبهة من هذا الدليل الذي أرادوا به إثبات وجود الله تعالىٰ.

وكذلك سبق أن بينا أن هذه الشبهة باطلة، والأدلة من القرآن تردها كما أوردنا.

عقيدة الأشاعرة في صفات الله:

أما الأشاعرة فإنهم يثبتون أسماء الله تعالىٰ، ويثبتون ما تدل عليه من الصفات إلَّا الصفات التي لا يثبتونها، فمثلًا: اسم العلي يقولون: إنه يتضمن صفة العلو، لكنهم يؤولون هذه الصفة، ويقولون: إن العلو الذي يتضمنه اسمه العلي هو علو القهر والشرف والمكان، ولا يثبتون علو الذات لله عَزَّوَجَلَّ، فهم لا يرون أن الله عَزَّوَجَلَّ مستو علىٰ عرشه وعال علىٰ خلقه، وكذلك غيرها من الصفات يفرغونها في بعض الأحيان من التوافق، وقد اهتم علماء الأشاعرة في شرح أسماء الله سبحانه وتعالىٰ منهم الغزالي في المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ، ومنهم الفخر الرازي في كتابه لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالىٰ والصفات، ومنهم البيهقي في الأسماء والصفات، ومنهم الحليمي في المنهاج في شعب الإيمان، وأكثر الأشاعرة الكلامية عندما يذكرون أسماء الله عَزَّوَجَلَّ فإنهم يفسرونها، فهم ليسوا من المعتزلة.

فالمعتزلة يرون أن أسماء الله أعلام محضة لا تتضمن شيئًا من الصفات.

وأما الأشاعرة فإنهم يقولون: أسماء الله عَزَّوَجَلَّ تتضمن الصفات، ويعنون بذلك الصفات التي يثبتونها هم، وهي الصفات السبع المشهورة: صفة العلم والقدرة، والحياة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام؛ فهذه صفات يثبتونها لله عَزَّوَجَلَّ، لكن إذا دل اسم من الأسماء علىٰ معنىٰ لا يثبتونه بل يؤولونه، ويفرغونه من محتواه.

قولهم: (واجب الوجود، وممكن الوجود) هي في الأصل ألفاظ فلسفية، أتىٰ بها الفلاسفة وقسموا ما يمكن، أو ما يتخيل أن يوجد إلىٰ ثلاثة أقسام: واجب الوجود، وممكن الوجود، ومستحيل الوجود.

فواجب الوجود: هو الذي لابد أن يكون ويجب أن يوجد، وهو الإله.

وممكن الوجود: هي المخلوقات، فإن هذه المخلوقات ممكن أن تكون موجودة وممكن إلَّا تكون موجودة، فقبل مائتين سنة كان بالإمكان إلَّا نكون وكان بالإمكان أن نكون، فكنا كما أراد الله سبحانه وتعالىٰ، فهذا ما يسمونه ممكن الوجود، أي أن وجودنا ليس لازمًا وإنما هو ممكن وأراده الله عَزَّوَجَلَّ فكان.

وأما المستحيل أو ممتنع الوجود: فهو الأمور التي يستحيل وجودها مثل اجتماع النقائض، كاجتماع الحركة والسكون في جسم واحد، فهذا مستحيل، ولا يمكن أن توجد حركة وسكون في جسم واحد، وهذا ما يسمونه ممتنع الوجود، ولهذا ذكرها الشيخ علىٰ أنها من الصفات.

۞ الدهر ليس من أسماء الله تعالى:

✍ **قال الشيخ ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: [وبهذا أيضًا علم أن الدهر ليس من أسماء الله تعالىٰ؛ لأنه اسم جامد لا يتضمن معنىٰ يلحقه بالأسماء الحسنىٰ، ولأنه اسم للوقت والزمن، قال الله تعالىٰ عن منكري البعث: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، يريدون مرور الليالي والأيام.

فأما قوله ﷺ: «**قال الله عَزَّوَجَلَّ: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**» فلا يدل علىٰ أن الدهر من أسماء الله تعالىٰ؛ وذلك أن الذين يسبون الدهر إنما يريدون الزمان الذي هو محل الحوادث لا يريدون الله تعالىٰ، فيكون معنىٰ قوله: (وأنا الدهر) ما فسره بقوله: (بيدي الأمر أقلب الليل والنهار)، فهو سبحانه خالق الدهر وما فيه، وقد بين أنه يقلب الليل والنهار، وهما الدهر ولا يمكن أن يكون المقلِّب

بكسر اللام هو المقلَّب بفتحها، وبهذا تبين أنه يمتنع أن يكون الدهر في هذا الحديث مرادًا به الله تعالىٰ].

أي أن الدهر ليس اسمًا من أسماء الله تعالىٰ؛ فلابد أن تكون أسماؤه حسنىٰ وأن تتضمن معان جليلة، والدهر ليس اسمًا حسنًا؛ لأنه -كما ذكر الشيخ ابن عثيمين- اسم للوقت والزمان، واسم لمرور الليالي والأيام، وليس فيه معنىٰ حسنًا، ولهذا فالله عَزَّوَجَلَّ يقول عن منكري البعث: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤] يعني: لا يهلكنا إلَّا مرور الأيام، فلم ينسبوا الهلاك إلىٰ الله تعالىٰ.

وأما ما يروىٰ عن الله تعالىٰ في الحديث القدسي أنه قال: «**يؤذيني ابن آدم: يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أُقلِّب الليل والنهار**»، فليس المقصود بقوله: (وأنا الدهر) أن اسمه الدهر؛ لأن الذين يسبون الدهر في الأصل لا يريدون سب الله سبحانه وتعالىٰ، وإنما يريدون سب الأيام والليالي النحسات التي مرت عليهم، وقوله: (وأنا الدهر) يعني: أنه سبحانه وتعالىٰ لما خلق الأيام والليالي وهو سبحانه وتعالىٰ مبنيها ومدبرها سبحانه وتعالىٰ قال: (وأنا الدهر)، ثم فسر ذلك بقوله: (أقلب الليل والنهار).

قاعدة في دلالة أسماء الله تعالى على إثبات الاسم والصفة والأثر:

وخلاصة هذه القاعدة هي: أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ تدل علىٰ ثلاثة أمور:

الأول: إثبات الاسم لله سبحانه وتعالىٰ.

الثاني: إثبات ما تضمنه من الصفة لله سبحانه وتعالىٰ.

الثالث: إثبات أثرها ومقتضاها الذي يحصل للناس.

القاعدة الخامسة (من قواعد الأسماء)

(أن الاسم من أسمائه له دلالات: دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم)؛

قلت: وذكر أهل العلم في شرح ذلك:

أن دلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ علىٰ تمام وكمال معناه الذي وضع له، مثل: دلالة البيت علىٰ الجدران والسقف، فإذا قلنا: بيت فإنه يدل علىٰ وجود الجدران والسقف.

ودلالة التضمن: هو دلالة اللفظ علىٰ جزء معناه الذي وضع له، كما لو قلنا: البيت وأردنا السقف فقط، أو قلنا: البيت وأردنا الجدار فقط، فإذا أردنا واحدًا منهما فهذا يسمونه المتضمن، يعني: فردًا واحدًا من أفراد المعنىٰ الآخر.

ودلالة الالتزام: هي دلالة اللفظ علىٰ معنىً خارج اللفظ يلزم منه هذا اللفظ.

فإذا قلنا: كلمة السقف مثلًا، فالسقف لا يدخل فيه الحائط فإن الحائط شيء والسقف شيء آخر، لكنه يلزم منه؛ لأنه يتصور وجود سقف لا حائط له يحمله، فهذه هي دلالة الالتزام أو اللزوم.

يمكن أن نستفيد من هذه الدلالات الثلاث في فهم أي لفظ من الألفاظ سواء كانت ألفاظًا شرعية أو ألفاظًا لغوية، أو أيًا من الألفاظ.

ومن هذه الألفاظ: الألفاظ الشرعية فإنها تارة تدل علىٰ معنىً، وتارة تدل علىٰ جزء من معنىً، وتارة تدل علىٰ أمر خارج المعنىٰ، لكنه لا يكمله، ومن ذلك أسماء الله تعالىٰ. فإن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ ينطبق عليها هذه الدلالات الثلاث.

مثال ذلك: الخالق -كما ذكر الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ- فإنه يدل علىٰ ذات الله سبحانه وتعالىٰ وعلىٰ صفة الخلق بدلالة المطابقة؛ لأنه إذا قلنا: خالق فنفهم من هذا ذاتًا وهي الله سبحانه وتعالىٰ، فهذه دلالة المطابقة، وهذا هو المعنىٰ الشامل لكلمة الخالق.

ويمكن أن نأخذ دلالة التضمن من اسمه الخالق وهي صفة الخلق، فعندما يقول لك إنسان: اثبت صفة الخلق لله تعالىٰ، فتقول: إن الخالق اسم من أسمائه، فيقول: بأي دلالة أثبتها، فنقول له: بدلالة التضمن؛ لأنه يتضمن معنىً واحدًا من معاني أخرىٰ، والمعنىٰ الثاني هو ذات الله سبحانه وتعالىٰ.

وأما دلالة اللزوم أو الامتناع فهو أن اسم الله الخالق يدل علىٰ صفة العلم والقدرة، فإنه لا يتصور خلق بغير علم وقدرة، فلابد أن يكون هناك علم وقدرة، لكن العلم والقدرة ليست مأخوذة من لفظ الخالق أو من الصفة، وإنما أخذت من معنىٰ يلزم من معنىٰ الخالق، وهذه هي دلالة الالتزام، وقد ذكر الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه القاعدة: أن لازم قول الله وقول رسوله حق، ثم استطرد بعد ذلك وذكر لازم القول عمومًا في كلام الناس، هل لازم القول قول لصاحبه أو أنه ليس بقول لصاحبه.

ويمكن أن نذكر كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الدلالات في النونية، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ودلالة الأسماء أنواع ثلاث كلها معلومة ببيان دلت مطابقة كذاك تضمنًا وكذا التزامًا واضح البرهان أما مطابقة الدلالة فهي أن الاسم يفهم منه مفهومان ذات الإله وذلك الوصف الذي يشتق منه الاسم بالميزان يعني: يفهم منه معنيان: دلالة المطابقة، وهي ذات الإله، والمعنىٰ الذي هو صفة من صفات الله تعالىٰ.

وهو الوصف الذي يشتق منه الاسم بالميزان.

❧◊☙

القاعدة السادسة (من قواعد الأسماء)

أن أسماءه الحسنى لها اعتباران: اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثاني متباينة:

❧◊☙

القاعدة السابعة (من قواعد الأسماء)

أن ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفا:

كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع.

قلت: وذكر أهل العلم في شرح هذه القاعدة فيما يطلق علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ثلاثة أمور:

الأول: الاسم.

الثاني: الصفة.

الثالث: الخبر.

وبين هذه الثلاثة الأمور فروق يمكن أن نذكر شيئًا منها.

أما الاسم: فهو ما يدل علىٰ ذات الله سبحانه وتعالىٰ مع دلالته علىٰ صفة الكمال، وكل ما دل علىٰ ذات الله سبحانه وتعالىٰ ودل علىٰ صفة كمال فهو اسم الله سبحانه وتعالىٰ.

وأما الصفة: فإنها التي تدل علىٰ معنىٰ يقوم بذات الله سبحانه وتعالىٰ، ومن هنا نلاحظ أن الاسم يدل علىٰ أمرين، والصفة تدل علىٰ أمر واحد.

فالأمران الأولان اللذان يدل عليهما الاسم: دلالته علىٰ الذات ودلالته علىٰ صفة يحملها هذا الاسم، وأما الصفة فإنها تدل علىٰ أمر واحد وهو مجرد الوصف، هذا من جهة.

ومن جهة أخرىٰ فإن الاسم هو الذي يُعبَّد له، فيقال في الرحمن عبد الرحمن، ويقال في العزيز عبد العزيز، ويقال في الكريم عبد الكريم، لكن الصفة لا يُعبد لها، فلا يقال في الرحمة مثلًا: عبد الرحمة، ولا يقال: عبد المُلك، وعبد العزة.

ومن جهة أخرىٰ، فالاسم هو العلم في اللغة، والصفة هي المصدر، فمثلًا العزيز علم، وأما العزة فهي المصدر.

وأسماء الله سبحانه وتعالىٰ هي الأعلام التي تدل علىٰ ذات الله عَزَّوَجَلَّ وتتضمن الصفات، فالعزيز والحليم والرحيم تتضمن العزة والحلم والرحمة وهكذا فكل اسم من أسماء الله يتضمن صفة من صفاته.

وأما الخبر فهو ما يطلق علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بغير توقف، كأن يقال: إن الله سبحانه وتعالىٰ واجب الوجود مثلًا، أو إن الله سبحانه وتعالىٰ قديم أزلي، وهذه الألفاظ لم ترد في السنة ولم ترد في القرآن، لكن يصح إطلاقها علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من باب الخبر، ومن هذا الباب يصح ترجمة معاني أسماء الله في أي من الألفاظ السابقة وغيرها، وأهم شيء إلَّا يدل هذا اللفظ علىٰ نقص أو ذم، وإنما يدل علىٰ معنىٰ حسن أو علىٰ أقل تقدير لا يجوز علىٰ معنىٰ سيئ، فيقال مثلًا: الله عَزَّوَجَلَّ شيء موجود، ويمكن أن يقال: واجب الوجود، وقد ذكر أهل العلم في ضمن ردودهم علىٰ الفرق الضالة بعض الأمور التي أضافوها إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ولم يرد فيها نص من القرآن أو السنة، لكنهم لم يدرجوها علىٰ أنها أسماء من أسماء الله أو علىٰ أنها صفات من صفاته، وإنما أضافوها علىٰ سبيل الخبر والحكاية،

ولهذا هناك قاعدة، (وهي أن باب الخبر واسع، وباب الصفات أضيق منه، وباب الأسماء أضيق من باب الصفات).

ومن جملة الفروق بين الأسماء والصفات من جهة وبين الخبر من جهة أخرىٰ، هو أن الأسماء والصفات توقيفية، يعني: مبنية علىٰ النص من القرآن ومن صحيح السنة، بينما الخبر ليس مبنيًّا علىٰ النص، لكنه مبني علىٰ المعنىٰ الصحيح الثابت لله سبحانه وتعالىٰ، هذا من جهة.

ومن جهة أخرىٰ فإن الاسم يُدعىٰ به؛ فيقال: يا عزيز يا كريم، لكن ما يُخبَر به عن الله لا يدعىٰ به، فلا يقال: يا واجب الوجود مثلًا.

كما أن الأسماء والصفات جميعًا قد بلغت الغاية في الحسن، بينما الأخبار لا يشترط أن تكون حسنة بمعنىٰ: لا يشترط أن تكون أحسن ما يكون من الألفاظ، وإنما أهم شيء أن تدل علىٰ المعنىٰ بغير تضمن للنقص وللإساءة، وإنما تدل علىٰ المعنىٰ الصحيح، مثل الموجود فيصح أن يحكىٰ عن الله عَزَّوَجَلَّ بأنه موجود، بينما كلمة موجود لا تتضمن مدحًا ولا تتضمن معنىٰ حسنًا، لكن يصح أن يخبر عن الله عَزَّوَجَلَّ بها، ولهذا قد يستغرب بعض طلاب العلم عندما يقرأ كلامًا -مثلًا- لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول فيه إن الله عَزَّوَجَلَّ واجب الوجود وإنه قديم أزلي، ويحكي عنه بألفاظ لم ترد في الكتاب والسنة.

وذلك أن باب الأخبار واسع وأهم شيء هو أن يكون المعنىٰ صحيحًا، وفيها ترجمة لأسماء الله سبحانه وتعالىٰ.

✍ **قال الشيخ ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويصح ترجمة أسماء الله لغير العرب وتقريب معانيها إلىٰ أفهامهم بألفاظ ليست واردة في القرآن وليست واردة في السنة مادامت دلت علىٰ معنىٰ صحيح.

✍ **قلت:** وقال أهل العلم في ذلك أن أسماء المولىٰ عَزَّوَجَلَّ توقيفية، لا مجال للعقل فيها، ولا مكان للمنطق والفلسفة والإدراك البشري والإحساس الآدمي في أي منها؛ وذلك لأنها متعلقة بالذات الإلهية التي لا يعرف كنهها إلَّا هو جل في علاه.

فعقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالىٰ هي أنها توقيفية، ولا يمكن أبدًا أن يؤخذ اسم من أسماء الله سبحانه وتعالىٰ أو صفة من صفاته إلَّا عن طريق الكتاب والسنة، فلا دخل للعقل في إثبات اسم من أسماء الله سبحانه وتعالىٰ.

والدليل علىٰ هذه العقيدة مأخوذ من الشرع وهو الكتاب والسنة ومن العقل.

أما الشرع فقد دل علىٰ أن أسماء الله سبحانه وتعالىٰ خبرية، وأنه لا يجوز للإنسان أن يتكلم في أسماء الله سبحانه وتعالىٰ بغير علم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء:٣٦].

والإنسان إذا سمىٰ الله سبحانه وتعالىٰ باسم لم يسم به نفسه من غير دليل شرعي ،ومن غير خبر عن الصادق عليه الصلاة والسلام فإنه دخل في أمر لا علم له به، وحينئذ يدخل في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ ﴾ [الإسراء:٣٦].

وكذلك يدل علىٰ هذا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف:٣٣].

فإذا أثبت إنسان لله اسمًا لم يدل عليه دليل شرعي من القرآن أو من السنة فقد قال علىٰ الله بغير علم.

ومن المعقول ما يدل علىٰ أنه لا يجوز أن يسمىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلَّا بما سمىٰ به نفسه، وهو أن العقل له مجال محدد، وأسماء الله سبحانه وتعالىٰ ليست داخلة في مدارك العقل، وبناءً علىٰ هذا فإذا تجاوز العقل مداركه للدخول في أمور لا قبل له بها فهذا باطل ممن أدخل نفسه فيه.

وكذلك ثبت أنه لا يجوز أن يسمىٰ الرسول ﷺ بغير اسمه وهو رسول الله ﷺ، فإذا كان الرسول ﷺ لا يصح أن يسمىٰ بغير اسمه فالله سبحانه وتعالىٰ أولىٰ.

فلو أن رجلًا سمىٰ الرسول ﷺ بالبطل مثلًا وهذا لم يرد، ولم يسم رسول الله ﷺ به نفسه فلا شك أن هذا باطل وإن كان معناه صحيحًا؛ لأن التسمية علم كما سبق أن بينا أن الأسماء أعلام، وإن كان معناها صحيحًا إلَّا أنه لا يصح أن يطلق الإنسان شيئًا من الأسماء والصفات علىٰ أحد إلَّا إذا ارتضاه وأقره، وبناءً علىٰ هذا فلا يصح لإنسان أن يطلق علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أسماء، والله عَزَّوَجَلَّ لم يرضها ولم يقرها.

* ومن الأدلة علىٰ أن أسماء الله توقيفية أن الأسماء الحسنىٰ من الغيب الذي لا سبيل إلىٰ الوصول إليه إلَّا بالوحي، ومن المعلوم أن أهل الإسلام تميزوا بإيمانهم بالغيب، ولهذا لا يصح أن يسمي الإنسانُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بغير اسمه إلَّا بالوحي، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف المؤمنين: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾

[البقرة:٣].

فإيمانهم بالغيب ثابت ومستقر، والأسماء الحسنىٰ من الغيب، ولا يمكن كشف هذه الأسماء الحسنىٰ إلَّا بالوحي، أي: أنه لا يمكن أن يكشف الغيب إلَّا بالوحي.

ومن الأمور المقررة هو أن هناك فرقًا بين ما يُدْعىٰ به وبين ما يُخبر به عن الله سبحانه وتعالىٰ، فما يُدعىٰ الله سبحانه وتعالىٰ به هو الأسماء الحسنىٰ، ولا يصح لإنسان أن يدعو الله عَزَّوَجَلَّ أو أن يناديه بغير اسمه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] وقد أخذ المفسرون من هذه الآية أنه لا يصح لأحد أن يسمي الله سبحانه وتعالىٰ إلَّا بما سمىٰ به نفسه.

وأما ما يخبر به عن الله سبحانه وتعالىٰ فقد سبق أن بينا أن مجال الخبر أوسع من مجال التسمية والوصف، وأن التسمية والوصف لا يجوز أن يكون إلَّا بما أخبر به الله سبحانه وتعالىٰ وبما أخبر به الرسول ﷺ.

وأما مجال الإخبار العام مثل أن توجد طائفة من الطوائف -تنفي مثلًا- كون الله سبحانه وتعالىٰ مستوٍ علىٰ عرشه ويقولون: إن الله عَزَّوَجَلَّ مخالط للناس، فيأتي إنسان ويخبر عن الله عَزَّوَجَلَّ ويقول: الله سبحانه وتعالىٰ بائن عن خلقه.

فقوله: (بائن عن خلقه). لم يرد في القرآن والسنة، هذه اللفظة بحروفها، لكن معناها صحيح ثابت في النصوص، ولا إشكال عليه.

وإذا قال قائل: إن الله عَزَّوَجَلَّ قديم أو مُوجد الوجود، أو أن له ذاتًا، وكل هذه لم ترد بألفاظها في النصوص، فإذا أخبر الإنسان عن الله عَزَّوَجَلَّ بها فلا بأس بذلك.

عقيدة المعتزلة والأشاعرة في توقيف أسماء الله:

وأما عقيدة المعتزلة فإنهم انقسموا إلىٰ قسمين: معتزلة البصرة، ومعتزلة بغداد.

فأما معتزلة البصرة فقد كانوا يقولون: إنه يصح إجراء الأسماء علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ بمقتضىٰ العدل من غير إذن منه، فإذا تصور الإنسان معنًىٰ شريفًا يصح أن يسمىٰ الله عَزَّوَجَلَّ به حتىٰ ولو لم يرد به السمع، أي: لم ترد به النصوص.

ومن أكثر من أشار إلىٰ هذا وسمىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بأسماء غير لائقة أبو علي الجبائي وهو من معتزلة البصرة، ونص علىٰ ذلك القاضي عبد الجبار الهمداني في كتابه شرح الأصول الخمسة، وقال: إنه ثبت عقلًا أنه يصح أن يسمىٰ المخلوق بأسماء إذا كانت معانيها

صحيحة، وبناءً علىٰ هذا فكذلك الخالق يصح من باب قياس الغائب علىٰ الشاهد، كما يقولون.

وهذا الكلام باطل، والسبب في ذلك: أن المخلوق في الواقع لا يصح أن يسمىٰ بغير اسمه، فلو أن رجلًا كان اسمه عليًّا فسماه رجل محمدًا؛ لأنه محمود بين الناس فلا يصح أن يسميه ويناديه: يا محمد! بإجماع العقلاء، والإشكال الذي وقع فيه هؤلاء أنهم لم يفرقوا بين الأسماء وبين الأخبار.

فالأسماء والتي هي الأعلام لا يصح أن يسمىٰ الله سبحانه وتعالىٰ باسم منها إلَّا إذا دل عليه دليل من القرآن أو من السنة؛ لأنها أخبار غيب، والغيب لا يثبت بالعقل، وإنما يثبت بالخبر عنه أو بالسمع.

وبناءً علىٰ ذلك فقد خلطوا، وصح عندهم أن يسمىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بأي اسم من الأسماء التي يرونها فسموه بالقديم، وسموه بواجب الوجود، وأطلقوا عليه أنه المتكلم وأنه المريد، وهكذا. وكل هذه أسماء لم ترد في الكتاب ولا السنة.

وقد سبق أن بينا أن الصفة إذا كانت عامة فهي منقسمة إلىٰ معنىٰ صحيح ومعنىٰ فاسد، ولا يصح أن يؤخذ منها اسم من أسماء الله، فالمريد مثلًا أو وصف الله بالإرادة يمكن أن تكون إرادة خير ويمكن أن تكون إرادة شر فلا يصح أن يؤخذ منها اسم لله عَزَّوَجَلَّ وهو المريد؛ وذلك لأمرين:

الأمر الأول: عدم ورود اسم المريد في الكتاب والسنة أنه اسمٌ لله سبحانه وتعالىٰ.

والأمر الثاني: أن معناها منقسم إلىٰ معنىٰ حسن ومعنىٰ قبيح، وكما تعلمون أن الله سبحانه وتعالىٰ وصف كل أسمائه بأنها حسنىٰ، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وأما معتزلة بغداد فإنهم قالوا بأن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ توقيفية فوافقوا بذلك السلف.

أما الأشاعرة فإن جمهورهم قالوا: إن أسماء الله سبحانه وتعالىٰ توقيفية، وخالف جمهورَ الأشاعرة القاضي أبو بكر الباقلاني ووافق المعتزلة البصريين، وقال: يصح أن يسمىٰ الله سبحانه وتعالىٰ من غير توقيف، يعني: يصح أن يطلق علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أسماء لم ترد في الكتاب ولا السنة.

أما إمام الحرمين الجويني -وهو من الأشاعرة- فقد توقف وقال: لا نقول: إنه يصح إطلاق الأسماء علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من غير توقيف مطلقًا، ولا يصح أيضًا أن نقول: إنه يشترط

فيها التوقيف، فتوقف في هذه المسألة، وقال: إنه ليس عندي دليل في ذلك، وقد ذكر ذلك في كتابه الإرشاد.

والحق هو ما سبق أن بيناه: أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ توقيفية لا تؤخذ إلَّا من النصوص الشرعية فقط.

وقد ذكر السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منظومته أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ توقيفية، فقال: لكنها في الحق توقيفية لنا بذا أدلة وفية (لكنها) أي: أسماء الله عَزَّوَجَلَّ (في الحق) أي: في القول الصحيح.

✍ ثم ذكر الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الشرح: أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

- القسم الأول: الأسماء التي ورد الإذن بإطلاقها، قال: وقد أجمع أهل السنة علىٰ أنه يجوز إطلاقها علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أذن بذلك.

- القسم الثاني: أسماء ورد المنع من إطلاقها.

قال: وقد أجمع أهل السنة علىٰ أنه لا يجوز إطلاقها علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

- القسم الثالث: الأسماء التي لم يرد إطلاقها، ولم يرد المنع منها.

ثم قال: إن أهل السنة اختلفوا في ذلك، وذكر أنهم علىٰ قسمين: جمهور أهل السنة وهم الذين قالوا: إنه يمنع أن يُطلَق علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ اسمٌ لم يطلقه علىٰ نفسه.

ثم ذكر طائفة سماهم من أهل السنة وقال: إنهم جوزوا أن يُطلَق علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ اسمٌ لم يرد المنع منه ولم يرد إثباته.

والحق هو أن السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يخلط في مصطلح أهل السنة فيجعل طوائف من الأشاعرة من أهل السنة، وقد ذكر هذا في مقدمة شرحه في لوامع الأنوار.

والواجب هو أن تمحص كلمة أهل السنة، (فلا تطلق إلَّا علىٰ المتبعين لآثار الرسول ﷺ في الاعتقاد والعمل).

وأما الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة فإنهم لا يدخلون في السنة بهذا المعنىٰ، وبناءً علىٰ ذلك فنقول: إن أهل السنة تنقسم عندهم أسماء الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ قسمين:

- القسم الأول: هو الذي ثبت بالنصوص وحينئذ نطلقها علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

- القسم الثاني: وهي التي لم ترد في الكتاب ولا السنة سواءً بنفي أو بإثبات وهذا ما نرده ولا نثبته لله سبحانه وتعالىٰ ما دام أن الخبر لم يرد من الله عَزَّوَجَلَّ ومن الرسول ﷺ.

القاعدة الثامنة(من قواعد الأسماء)

أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل:

فيخبر به عنه فعلًا ومصدرًا، ونحو السميع البصير القدير يطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة ويخبر عنه بالأفعال من ذلك نحو: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ [المجادلة:١] ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات:٢٣] هذا إن كان الفعل متعديًا فإن كان لازمًا لم يخبر عنه به نحو الحي بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال حي.

القاعدة التاسعة (من قواعد الأسماء)

(أن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم):

فالرب تبارك وتعالىٰ فعاله عن كماله والمخلوق كماله عن فعاله فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل، فالرب لم يزل كاملًا فحصلت أفعاله عن كماله؛ لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله، كمُل ففعل، والمخلوق فعل فكمُل، الكمال اللائق به.

القاعدة العاشرة(من قواعد الأسماء)

إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم:

فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقًا له تعالىٰ أو أمرًا إما علم بما كونه أو علم بما شرعه ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنىٰ وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضىٰ بمقتضيه فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنىٰ وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه فأمره كله مصلحة وحكمة ولطف وإحسان إذ مصدره أسماؤه الحسنىٰ وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة إذ مصدره أسماؤه الحسنىٰ فلا تفاوت في خلقه ولا عبث ولم يخلق خلقه باطلًا ولا سدًىٰ ولا عبثًا وكما أن كل موجود سواه فبإيجاده فوجود من سواه تابع لوجوده تبع المفعول المخلوق لخالقه فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما

سواه فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم فمن أحصىٰ أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصىٰ جميع العلوم إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالىٰ ولهذا لا تجد فيها خللًا ولا تفاوتًا؛ لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله إما أن يكون لجهله به أو لعدم حكمته وأما الرب تعالىٰ فهو العليم الحكيم فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض.

القاعدة الحادية عشر (من قواعد الأسماء)

أن أسماءه كلها حسنى ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً:

وقد تقدم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل نحو الخالق والرازق والمحيي والمميت وهذا يدل علىٰ أن أفعاله كلها خيرات محض لا شر فيها لأنه لو فعل الشر لاشتُقَّ له منه اسم ولم تكن أسماؤه كلها حسنىٰ وهذا باطل فالشر ليس إليه فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق ذاته لا يدخل في أفعاله فالشر ليس إليه لا يضاف إليه فعلًا ولا وصفًا وإنما يدخل في مفعولاته وفرق بين الفعل والمفعول فالشر قائم بمفعوله المباين له لا بفعله الذي هو فعله فتأمل هذا فإنه خفي علىٰ كثير من المتكلمين وزلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام وهدىٰ الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

القاعدة الثانية عشر (من قواعد الأسماء)

في بيان مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة:

وهذا هو قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح

المرتبة الأولىٰ: إحصاء ألفاظها وعددها

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وهو مرتبتان إحداهما: دعاء ثناء وعبادة والثاني: دعاء طلب ومسألة فلا يثنىٰ عليه إلَّا بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ وكذلك لا يُسأل إلَّا بها فلا يُقال يا موجود أو يا شيء أو يا ذات اغفر لي وارحمني بل يُسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيًا لذلك المطلوب فيكون السائل متوسلًا إليه بذلك الاسم ومن تأمل أدعية الرسل ولا سيما خاتمهم وإمامهم وجدها مطابقة لهذا وهذه العبارة أولىٰ من عبارة من قال يتخلق بأسماء الله فإنها ليست بعبارة سديدة وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله علىٰ قدر الطاقة وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان وهي التعبد وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن وهي الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال فمراتبها أربعة أشدها إنكارًا عبارة الفلاسفة وهي التشبه وأحسن منها عبارة من قال التخلق وأحسن منها عبارة من قال التعبد وأحسن من الجميع الدعاء وهي لفظ القرآن.

قلت: وقال أهل العلم في ذلك أن دعاء المسألة (هو دعاء الطلب من الله عَزَّوَجَلَّ) مثل: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا، أي: أن يسأل الإنسان ربه سبحانه وتعالىٰ بأسمائه ومثل ذلك الرجل الذي دعا وقال: اللهم إنك أنت الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، ثم دعا بعد ذلك.

وأما دعاء العبادة (فهو التعبد بمعناها) وهو أنواع:

- أولها: الإيمان بها، وإثباتها كما أمر الله سبحانه وتعالىٰ وكما جاء عن النبي ﷺ.

- وثانيها: الاتصاف بما تضمنته من معان إذا أمكن الاتصاف بها، فمثلًا: الله عَزَّوَجَلَّ هو الكريم، فيستحب أن يكون الإنسان كريمًا، وهو العفو، فيستحب أن يكون الإنسان عفوًا، وهو سبحانه وتعالىٰ العليم، فينبغي للإنسان أن يهتم بالعلم، وهكذا التعبد لله عَزَّوَجَلَّ بما

تضمنته أسماؤه إذا أمكن من دعاء العبادة، وهذا الأمر دل عليه ما ثبت في «صحيح مسلم» من قول النبي ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**»، فأخذوا من هذا الحديث أنه يستحب للإنسان أن يتصف بأسماء الله سبحانه وتعالىٰ وبما تدل عليه من المعاني إذا أمكن.

وقولنا: إذا أمكن؛ لأن هناك أسماء لله عَزَّوَجَلَّ لا يمكن أن يتصف الإنسان بما تدل عليه من المعاني مثل: الخالق والمتكبر ونحو ذلك، فهناك أسماء تدل علىٰ معان خاصة بالله سبحانه وتعالىٰ، لا يمكن أن يتصف بها الإنسان، وإنما يتصف الإنسان بما تدل عليه من المعاني الممكنة مثل الرحمن فيأخذ الإنسان منها صفة الرحمة، وهكذا كثير في أسماء الله سبحانه وتعالىٰ.

وهناك أسماء متعددة لهذا النوع من التعبد، أطلقها عدد من المشتغلين بأسماء الله عَزَّوَجَلَّ، وأخطأوا في الإطلاق، فالفلاسفة يقولون: ينبغي علىٰ الإنسان أن يتشبه بالله، ولا شك أن هذا استخدام سيئ وقبيح.

وبعضهم يقول: إنه ينبغي التخلق بأخلاق الله، وهذا استخدام عند بعض الصوفية وهو استخدام ليس بمناسب.

وبعض من تكلم في هذا الأمر يقول: إنه ينبغي أن يتعبد الإنسان بما تدل عليه معاني أسماء الله سبحانه وتعالىٰ، وأفضلها أن يقول الإنسان الدعاء بمعناه، والدعاء كما سبق ينقسم إلىٰ دعاء المسألة ودعاء العبادة، وحينئذ يكون الإنسان موافقًا للهدي النبوي وللأمر الشرعي.

* بقي أن ننبه في هذه القاعدة إلىٰ أمرين مهمين:

- الأمر الأول: أن هناك أسماء لله سبحانه وتعالىٰ تدل علىٰ صفة واحدة، مثاله القدير والقادر والمقتدر فكلها مشتقة من صفة واحدة وهي القدرة، وهي ثلاثة أسماء حتىٰ ولو كانت تدل علىٰ معنىٰ واحد، ومثل العلي والأعلىٰ والمتعال وهي تدل علىٰ معنىٰ العلو: علو الشرف وعلو الذات، وهذه وإن دلت علىٰ معنىٰ واحد إلَّا أنها أيضًا ثلاثة أسماء لله سبحانه وتعالىٰ.

- الأمر الثاني: هناك أسماء مقترنة، لا يصح أن يطلق واحد منها علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ دون الآخر، مثاله: المعز المذل، أو الرافع الواضع، أو القابض الباسط أو نحو ذلك من الأسماء المقترنة فلا يصح أن يطلق الإنسان واحدًا منها دون الآخر لأنه يكمل بعضها بعضًا في المعنىٰ، ولكنهما يعتبران مع هذا اسمان.

وهناك عدد من أهل العلم اجتهدوا في جمع أسماء الله سبحانه وتعالىٰ، واختلفوا في هذه الأسماء، فبعضهم يذكر اسمًا من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ ويقول: إنه اسم ثابت، وبعضهم ينفيه.

ولعل ذلك مرجعه إما إلىٰ تضعيف أو تصحيح بعض الأحاديث التي وردت فيها أسماء أو صفات لله جل ثناؤه أو إلىٰ الأسماء المشتقة من الصفات وجل الأسماء المختلف فيها أصل الخلاف فيها مرجعه لهذين السببين والله أعلم.

القاعدة الثالثة عشر (من قواعد الأسماء)

في اللفظ المشترك بين الله والعباد:

قال الشيخ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ اختلف النظار في الأسماء التي تطلق علىٰ الله وعلىٰ العباد كالحي والسميع والبصير والعليم والقدير والملك ونحوها:

– القول الأول: قالته طائفة من المتكلمين هي حقيقة في العبد مجاز في الرب وهذا قول غلاة الجهمية وهو أخبث الأقوال وأشدها فسادًا.

– القول الثاني: مقابله وهو أنها حقيقة في الرب مجاز في العبد وهذا قول أبي العباس الناشئ.

– القول الثالث: أنها حقيقة فيهما وهذا قول أهل السنة وهو الصواب واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما وللرب تعالىٰ منها ما يليق بجلاله وللعبد منها ما يليق به وليس هذا موضع التعرض لمأخذ هذه الأقوال وإبطال باطلها وتصحيح صحيحها فإن الغرض الإشارة إلىٰ أمور ينبغي معرفتها في هذا الباب ولو كان المقصود بسطها لاستدعت سِفرين أو أكثر.

القاعدة الرابعة عشر (من قواعد الأسماء)

أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاثة اعتبارات (أي المشترك اللفظي):

– أولًا: اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالىٰ أو العبد.

– ثانيًا: اعتباره مضافًا إلىٰ الرب مختصًّا به.

– ثالثًا: اعتباره مضافًا إلىٰ العبد مقيدًا به.

(فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتًا للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله، وللعبد منه ما يليق به).

وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات والعليم والقدير وسائر الأسماء فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها فما لزم هذه الأسماء لذاتها فإثباته للرب تعالىٰ لا محذور فيه بوجه بل ثبتت له علىٰ وجه لا يماثله فيه خلقه ولا يشابههم فمن نفاه عنه لإطلاقه علىٰ المخلوق ألحد في أسمائه وجحد صفات كماله ومن أثبته له علىٰ وجه يماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه ومن شبه الله بخلقه فقد كفر ومن أثبته له علىٰ وجه لا يماثل فيه خلقه بل كما يليق بجلاله وعظمته فقد برئ من فرث التشبيه ودم التعطيل وهذا طريق أهل السنة وما لزم الصفة لإضافتها إلىٰ العبد وجب نفيه عن الله كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلىٰ الغذاء ونحو ذلك وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلىٰ ما هو عال عليه وكونه محمولًا به مفتقرًا إليه محاطًا به كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالىٰ وما لزم صفة من جهة اختصاصه تعالىٰ بها فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم وقدرته وإرادته وسائر صفاته فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق فإذا أحطت بهذه القاعدة خُبْرًا وعقلتها كما ينبغي خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين (آفة التعطيل وآفة التشبيه) فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبت لله الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ حقيقة فخلصت من التعطيل ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم فخلصت من التشبيه فتدبر هذا الموضع واجعله جنتك التي ترجع إليها في هذا الباب والله الموفق للصواب.

القاعدة الخامسة عشر (من قواعد الأسماء)

أن الصفة متى قامت بموصوف لزمها أمور أربعة أمران لفظيان وأمران معنويان:

فاللفظيان ثبوتي وسلبي فالثبوتي أن يشتق للموصوف منها الموصوف ويخبر بها عنه والسلبي أن لا يعود حكمها إلىٰ غيره ولا يكون خبرًا عنه وهي قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات فلنذكر من ذلك مثالًا واحدًا وهو صفة الكلام فإنه إذا قامت بمحل كانت هو التكلم دون من لم تقم به وأخبر عنه بها وعاد حكمها إليه دون غيره فيقال: قال

وأمر ونهىٰ ونادىٰ وناجىٰ وأخبر وخاطب وتكلم وكلم ونحو ذلك وامتنعت هذه الأحكام لغيره فيستدل بهذه الأحكام والأسماء علىٰ قيام الصفة به وسلبها عن غيره علىٰ عدم قيامها به وهذا هو أصل السنة الذي ردوا به علىٰ المعتزلة والجهمية وهو من أصح الأصول طردًا وعكسًا.

القاعدة السادسة عشر (من قواعد الأسماء)

أن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد:

فإن لله تعالىٰ أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل كما في الحديث الصحيح: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك**» صحيح علىٰ الراجح فجعل أسماءه ثلاثة أقسام: قسم سمىٰ به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ولم ينزل به كتابه وقسم أنزل به كتابه فتعرف به إلىٰ عباده وقسم استأثر به في علم غيبه فلم يطلع عليه أحد من خلقه ولهذا قال استأثرت به أي انفردت بعلمه وليس المراد انفراده بالتسمي به لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل الله بها كتابه ومن هذا قول النبي ﷺ في حديث الشفاعة: «**فيفتح علي من محامده بما لا أحسنه الآن**» رواه البخاري ومسلم وتلك المحامد تفي بأسمائه وصفاته ومنه قوله: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك**» رواه مسلم وأبو داود وغيرهما وأما قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**» رواه البخاري ومسلم فالكلام جملة واحدة وقوله: «**ومن أحصاها دخل الجنة**» صفة لا خبر مستقبل والمعنىٰ له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها وهذا كما تقول لفلان مائة مملوك وقد أعدهم للجهاد فلا ينفي هذا أن يكون له مماليك سواهم معدون لغير الجهاد وهذا لا خلاف بين العلماء فيه.

القاعدة السابعة عشر (من قواعد الأسماء)

أن أسماءه تعالى منها ما يطلق عليه مفردًا ومقترنا بغيره وهو غالب الأسماء:

فالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم، وهذا يسوغ أن يدعىٰ به مفردًا ومقترنًا بغيره فتقول: يا عزيز يا حليم يا غفور يا رحيم وأن يفرد كل اسم وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه بما يسوغ لك الإفراد والجمع ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده بل مقرونًا بمقابله كالمانع والضار والمنتقم فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله فإنه مقرون بالمعطي والنافع

والعفو فهو المعطي المانع الضار النافع المنتقم العفو المعز المذل لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاء ومنعًا ونفعًا وضرًّا وعفوًا وانتقامًا وأما أن يثنىٰ عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرىٰ الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض فهي وإن تعددت جارية مجرىٰ الاسم الواحد ولذلك لم تجئ مفردة ولم تطلق عليه إلَّا مقترنة فاعلمه فلو قلت: يا مذل يا ضار يا مانع وأخبرت بذلك لم تكن مثنيًا عليه ولا حامدًا له حتىٰ تذكر مقابلها.

القاعدة الثامنة عشر (من قواعد الأسماء)

أن الصفات أربعة أنواع:

١ - صفات كمال. ٢ - وصفات نقص.

٣ - وصفات لا تقتضي كمالًا ولا نقصًا.

٤ - وهو ما يكون كمالًا ونقصًا باعتبارين.

والرب تعالىٰ منزه عن الأقسام الثلاثة وموصوف بالقسم الأول وصفاته كلها صفات كمال محض فهو موصوف من الصفات بأكملها وله من الكمال أكمله وهكذا أسماؤه الدالة علىٰ صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها فليس في الأسماء أحسن منها ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدي معناها.

وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيرًا بمرادف محض بل هو علىٰ سبيل التقريب والتفهيم وإذا عرفت هذا فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنىً وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أو نقص فله من صفة الإدراكات العليم الخبير دون العاقل الفقيه والسميع البصير دون السامع والباصر والناظر ومن صفات الإحسان البر الرحيم الودود دون الرفيق والشفوق ونحوهما وكذلك العلي العظيم دون الرفيع الشريف وكذلك الكريم دون السخي والخالق البارئ المصور دون الفاعل الصانع المشكل والغفور العفو دون الصفوح الساتر وكذلك سائر أسمائه تعالىٰ يجري علىٰ نفسه منها أكملها وأحسنها وما لا يقوم غيره مقامه فتأمل ذلك، فأسماؤه أحسن الأسماء كما أن صفاته أكمل الصفات فلا

تعدل عما سمىٰ به نفسه إلىٰ غيره كما لا تتجاوز ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله إلىٰ ما وصفه به المبطلون والمعطلون.

القاعدة التاسعة عشر(من قواعد الأسماء)

أن من أسمائه الحسنى ما يكون دالاً على عدة صفات ويكون ذلك الاسم متناولا لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها:

كما تقدم بيانه كاسمه العظيم والمجيد والصمد كما قال ابن عباس: فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره: «الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤدده والشريف: الذي قد كمل في شرفه والعظيم: الذي قد كمل في عظمته والحليم الذي قد كمل في حلمه والعليم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده وهو الله سبحانه إسناده ضعيف» هذه صفته لا تنبغي إلَّا له ليس له كفوا أحد وليس كمثله شيء سبحان الله الواحد القهار هذا لفظه وهذا مما خفي علىٰ كثير ممن تعاطىٰ الكلام في تفسير الأسماء الحسنىٰ ففسر الاسم بدون معناه ونقصه من حيث لا يعلم فمن لم يحط بهذا علما بخس الاسم الأعظم حقه وهضمه معناه فتدبره.

القاعدة العشرون(من قواعد الأسماء)

وهي الجامعة لما تقدم من الوجوه وهي (معرفة الإلحاد في أسمائه):

حتىٰ لا يقع فيه قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف:١٨٠]، والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته (ل ح د) فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط ومنه الملحد في الدين المائل عن الحق إلىٰ الباطل قال ابن السكيت: «الملحد المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه» ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾ [الكهف:٢٧] أي من تعدل إليه وتهرب إليه وتلتجئ إليه وتبتهل فتميل إليه عن غيره تقول العرب التحد فلان إلىٰ فلان إذا عدل إليه إذا عرف هذا

فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

- أولًا: أن يسمىٰ الأصنام بها: كتسميتهم اللات من الإلهية والعزىٰ من العزيز وتسميتهم الصنم إلهًا وهذا إلحاد حقيقة فإنهم عدلوا بأسمائه إلىٰ أوثانهم وآلهتهم الباطلة

- ثانيًا: تسميته بما لا يليق بجلاله: كتسمية النصارىٰ له أبًا وتسمية الفلاسفة له موجبًا بذاته أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك.

- ثالثًا: وصفه بما يتعالىٰ عنه ويتقدس من النقائص: كقول أخبث اليهود (إنه فقير) وقولهم (إنه استراح بعد أن خلق خلقه) وقولهم: «يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ» وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

- رابعًا: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها: كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد ويقولون لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا وشرعًا ولغة وفطرة وهو يقابل إلحاد المشركين فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها فكلاهما ملحد في أسمائه ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب وكل من جحد شيئًا عما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك فليستقل أو ليستكثر.

- وخامسًا: تشبيه صفاته بصفات خلقه: تعالىٰ الله عما يقول المشبهون علوًّا كبيرًا فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طرقه وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله فلم يصفوه إلَّا بما وصف به نفسه ولم يجحدوا صفاته ولم يشبهوها بصفات خلقه ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظا ولا معنىٰ بل أثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات فكان إثباتهم بريئًا من التشبيه وتنزيههم خاليًا من التعطيل لا كمن شبه حتىٰ كأنه يعبد صنمًا أو عطل حتىٰ كأنه لا يعبد إلَّا عدمًا وأهل السنة وسط في النحل كما أن أهل الإسلام وسط في الملل توقد مصابيح معارفهم من: ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾

[النور:٣٥].

فنسأل الله تعالىٰ أن يهدينا لنوره ويسهل لنا السبيل إلىٰ الوصول إلىٰ مرضاته ومتابعة رسوله إنه قريب مجيب.

فهذه عشرون فائدة مضافة إلىٰ القاعدة التي بدأنا بها في أقسام ما يوصف به الرب تبارك وتعالىٰ فعليك بمعرفتها ومراعاتها ثم اشرح الأسماء الحسنىٰ إن وجدت قلبًا عاقلًا ولسانًا قائلًا ومحلًّا قابلًا وإلا فالسكوت أولىٰ بك فجناب الربوبية أجل وأعز مما يخطر بالبال أو يعبر عنه المقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف:٧٦] حتىٰ ينتهي العلم إلىٰ من أحاط بكل شيء علمًا وعسىٰ الله أن يعين بفضله علىٰ تعليق شرح الأسماء الحسنىٰ مراعيًا فيه أحكام هذه القواعد بريئا من الإلحاد في أسمائه وتعطيل صفاته فهو المان بفضله والله ذو الفضل العظيم.

(وهذه القواعد مأخوذة من كتاب «بدائع الفوائد» لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ).

القاعدة العاشرة: في ذكر بعض الأسماء الحسنى التي جاء ذكرها في كتاب الله وصحيح سنة النبي ﷺ.

١ - (الإله):

✍ **قلت: دليله:** قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت:٤٦].

المعنىٰ: «والإله هو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فقد دخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنىٰ، ولهذا كان القول الصحيح إن (الله) أصله (الإله) وأن اسم (الله) هو الجامع لجميع الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ والله أعلم.

والإله هو المعبود المحفود له الذي تألهه القلوب تعبدًا وخشية ومحبة وطمعًا، وعلىٰ العبد أن يقيم له العبودية وحده ولا يشرك به أحدا فكل عبودية لله هي عبودية لاسمه الإله سبحانه وتعالىٰ وعلىٰ العبد أن يدعوه به عَزَّوَجَلَّ ويذر الذين يدعون من دونه سبحانه وتعالىٰ عما يشرك الظالمون علوًّا كبيرًا.

٢- لفظ الجلالة (الله):

✍ **قلت: دليله:** قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، ولفظ الجلالة (الله) ذكر في كتاب ربنا تبارك وتعالىٰ (١٥٦٧مرة) وذكر بلفظ (لله) ١١٣مرة.

وقد بدء ربنا عَزَّوَجَلَّ كلامه العزيز بلفظ الجلالة فقال: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة:١-٣]، وهذا الإله الذي له المحامد والذي هو رب العالمين وخالقهم وبارئهم وهو أعلم بهم وبما يصلحهم هو الذي بيده الختم علىٰ قلوب من يشاء من عباده بظلمهم وكبرهم فلا يصل إليهم الحق ولا يخرج من قلوبهم الباطل ولو علم فيهم خيرًا لأسمعهم ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة:٧]، وهو سبحانه مالك القلوب والأبدان فيزيد من أمرض قلبه بالشبهات مرضًا ويزيد الذين اهتدوا هدىٰ ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾ [البقرة:١٠]، وهو سبحانه يستهزئ بمن استهزأ بدينه وبأوليائه جزاءً وفاقًا ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١٥﴾ [البقرة:١٥] وهو جل ثناؤه من ينير بصيرة من شاء من عباده ويُظْلِم قلب من أراد ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ۝١٧﴾ [البقرة:١٧]، وهو عَزَّوَجَلَّ علىٰ كل شيء قدير يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويرضىٰ عمن يشاء ويغضب علىٰ من يشاء ويحب من يشاء ويبغض من يشاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٠﴾ [البقرة:٢٠]، ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥]، ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٢٠]، ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧]، ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝١٩٠﴾ [البقرة:١٩٠]، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝١٩٤﴾ [البقرة:١٩٤]، ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٩٥﴾ [البقرة:١٩٥]، وأن الرزق رزقه ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦٠]، وأن الفضل بيد الله وحده ﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٦٤﴾ [البقرة:٦٤]، ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤]، ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٧٧﴾ [البقرة:٧٧]، ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة:٨٣]، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٧٤﴾

[البقرة:٧٤]، وأنه لعن أعداءه وطردهم من رحمته ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨] وأنه يعادي الكافرين الجاحدين لدينه ورُسله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة:٩٨]، وأنه لا يملك الضر والنفع إلَّا هو ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة:١٠٢].... وهكذا فمن تتبع لفظ الجلالة (الله) تعرف إلىٰ الله حق المعرفة، فتأمل ذلك الباب فهو من أنفع الأبواب بإذن الله.

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الله: هو المألوه المعبود، ذو الألوهية، والعبودية علىٰ خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال، وأخبر أنه الله الذي له جميع معاني الألوهية وأنه هو المألوه المستحق لمعاني الألوهية كلها، التي توجب أن يكون المعبود وحده المحمود وحده المشكور وحده المعظم المقدس ذو الجلال والإكرام.

واسم «الله» هو الجامع لجميع الأسماء الحسنىٰ، والصفات العلىٰ، والله أعلم.

فإذا تُدبر اسم «الله» عُرف أن الله تعالىٰ له جميع معاني الأُلوهية، وهي كمال الصفات والانفراد بها، وعدم الشريك في الأفعال لأن المألوه إنما يؤله لما قام به من صفات الكمال فيحب ويخضع له لأجلها، والباري جل جلاله لا يفوته من صفات الكمال شيء بوجه من الوجوه، والمألوه هو الذي يملك جلب المصالح لمن عبده ودفع المضار عنهم، ومن المعلوم أنَّ الله تعالىٰ هو المالك لذلك كله، وأنَّ أحدًا من الخلق لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا فإذا تقرر عند العبد أنَّ الله وحده المألوه أوجب له أن يعلق بربه حبه وخوفه ورجاءه، وأن ينيب إليه في كل أموره، وأن يقطع الالتفات إلىٰ غيره من المخلوقين ممن ليس له من نفسه كمال ولا له فعال ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم.

✍ **وقد سئل الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الاسم الأعظم من أسماء الله هل هو اسم معين معروف أو اسم غير معين ولا معروف.**

فأجاب: «بعض الناس يظن أن الاسم الأعظم من أسماء الله الحسنىٰ لا يعرفه إلَّا من خصه الله بكرامة خارقة للعادة، وهذا ظن خطأ، فإن الله تبارك وتعالىٰ حثنا علىٰ معرفة أسمائه وصفاته، وأثنىٰ علىٰ من عرفها، وتفقه فيها، ودعاء الله بها دعاء عبادة وتعبد ودعاء مسألة، ولا ريب أنّ الاسم الأعظم منها أولاها بهذا الأمر، فإنه تعالىٰ هو الجواد المطلق الذي لا منتهىٰ لجوده وكرمه، وهو يحب الجود علىٰ عباده، ومن أعظم ما جاد به عليهم

تعرفه لهم بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا، فالصواب أنّ الأسماء الحسنىٰ كلها حسنىٰ، وكل واحد منها عظيم، ولكن الاسم الأعظم منها (هو كل اسم مفرد أو مقرون مع غيره إذا دل علىٰ جميع صفاته الذاتية والفعلية أو دل علىٰ معاني جميع الصفات)

* مثال ذلك:

لفظ الجلالة (الله)، فإنه الاسم الجامع لمعاني الألوهية كلها، وهي جميع أوصاف الكمال.

* ومثل اسم الله (الحميد المجيد) كما في قوله جل ثناؤه ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢﴾ [إبراهيم:١-٢].

* وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

* وكقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج:١٣- ١٦]، فإن الحميد الاسم الذي دل علىٰ جميع المحامد والكمالات لله تعالىٰ،

والمجيد الذي دل علىٰ أوصاف العظمة والجلال ويقرب من ذلك (الجليل الجميل) (الغني الكريم).

ومثل اسم الله (الحي القيوم)، فإن (الحي) من له الحياة الكاملة العظيمة الجامعة لجميع معاني الذات، (والقيوم) الذي قام بنفسه، واستغنىٰ عن جميع خلقه، وقام بجميع الموجودات، فهو الاسم الذي تدخل فيه صفات الأفعال كلها.

ومثل اسمه (العظيم الكبير) الذي له جميع معاني العظمة والكبرياء في ذاته وأسمائه وصفاته، وله جميع معاني التعظيم من خواص خلقه.

ومثل قولك: (يا ذا الجلال والإكرام)، فإن الجلال صفات العظمة، والكبرياء، والكمالات المتنوعة، والإكرام استحقاقه علىٰ عباده غاية الحب وغاية الذل وما أشبه ذلك.

فعلم بذلك أن الاسم الأعظم اسم جنس (ما وضع لأن يقع علىٰ شيء، وعلىٰ ما أشبهه، كالرجل؛ فإنه موضوع لكل فرد خارجي علىٰ سبيل البدل من غير اعتبار تعينه)،

وهذا هو الذي تدل عليه الأدلة الشرعية، كما في السنة أن النبي ﷺ سمع رجلًا يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**»، قَالَ: فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَىٰ**».

وكذلك الحديث الآخر حين دعا الرجل، فقال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ، بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ**: «**لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَىٰ**»

وكذلك قوله ﷺ: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين**: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣]، و﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]. رواه أبو داود والترمذي، فمتىٰ دعا الله العبد باسم من هذه الأسماء العظيمة بحضور قلب ورقة وانكسار، لم تكد ترد له دعوة، والله الموفق».

✍ **قلت**: واعلم – علَّمنا اللهُ وإياك – أن التعبد بلفظ الجلالة (الله) يكون بدعائك له به وبإفراد العبودية له وتعظيمه وإجلاله علىٰ النحو الذي يليق بعظمته والتفكر والتدبر في جميع أسمائه جل ثناؤه وصفاته ولا يجوز لأحد التسمي بهذا الاسم العظيم إلَّا إله السماوات والأرض سبحانه وتعالىٰ.

ولا ينبغي أن يتصف بهذه الصفة (صفة الألوهية) إلَّا هو عَزَّوَجَلَّ وفعل هذا كفر يخرج من الملة عياذًا بالله.

٣- (الواحد) ٤- (الأحد):

✍ **قلت: دليله**: قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [القصص:٦٥].

واعلم أن اسم الله الواحد ذكر في القرآن ست مرات مقرونًا باسم القهار سبحانه وتعالىٰ.

وأما اسم (الأحد) فذكر مرة واحدة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص:١].

«الواحد الأحد هو الذي توحّد بجميع الكمالات، وتفرّد بكل كمال، ومجد وجلال، وجمال، وحمد، وحكمة، ورحمة، وغيرها من صفات الكمال فليس له فيها مثيل ولا نظير، ولا مناسب بوجه من الوجوه فهو الأحد في حياته، وقوميته، وعلمه، وقدرته، وعظمته، وجلاله، وجماله، وحمده، وحكمته، ورحمته، وغيرها من صفاته، موصوف

بغاية الكمال، ونهايته من كل صفة من هذه الصفات فيجب علىٰ العبيد توحيده، عقلًا، وقولًا، وعملًا، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفرده بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة».

✍ **قلت:** واعلم أن عبودية هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله جل وعلا يكون بدعائه بهما وإفراده في ربوبيته وفي عبوديته وفي جميع أسمائه وصفاته وعدم التفات القلب لغيره واليقين بأنه ليس كمثله شيء وكما أنه تفرد بالخلق وحده وتفرد بالملك وحده وتفرد بالأمر الكوني وحده فلابد بأن نفرده بالأمر الشرعي وحده فالحكم له وحده فلا يعبد غيره ولا يطلب من غيره ولا يرجىٰ سواه ولا يكون في قلب العبد أحد إلا هو ولا يحكم إلَّا بشرعه ولا يرضىٰ إلَّا بقضائه، فتأمل.

٥- (العلي)، ٦- (الأعلى):

✍ **قلت: ودليله:** قال تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وجاء اسم (العلي) سبحانه وتعالىٰ في القرآن (الكريم) ست مرات.

* وذلك كما في قوله جل ثناؤه: ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٠-٦٢].

* وكما في قوله جل ثناؤه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان:٢٩-٣٠].

* وكما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

* وكما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر:١١-١٢].

* وكما في قوله جل ثناؤه: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الشورى:١-٥].

* وأما اسم (الأعلىٰ) فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل:١٩، ٢٠].

* وقال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى:١].

✍ **قال شيخنا السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «من أسمائه الحسنىٰ (العلي الأعلىٰ) وذلك دال علىٰ أن جميع معاني العلو ثابتة لله من كل وجه، فله علو الذات، وهو أنه مستوٍ علىٰ عرشه، فوق جميع خلقه، مباين لهم، وهو مع هذا مطلع علىٰ أحوالهم، مشاهد لهم، مدبر لأمورهم الظاهرة والباطنة متكلم بأحكامه القدرية، وتدبيراته الكونية، وبأحكامه الشرعية.

وأما علو القدر فهو علو صفاته، وعظمتها فلا يماثله صفة مخلوق، بل لا يقدر الخلائق كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه:١١٠] وبذلك يعلم أنه ليس كمثله شيء في كل نعوته وله علو القهر فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلّهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن فلو اجتمع الخلق علىٰ إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا علىٰ منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه، وذلك لكمال اقتداره، ونفوذ مشيئته وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه.

فهو الذي علىٰ العرش استوىٰ وعلىٰ الملك احتوىٰ، وبجميع صفات العظمة والكبرياء، والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف وإليه فيها المنتهىٰ».

✍ **قلت**: وعبودية هذين الاسمين الكريمين لا تكون إلَّا بالإذعان له في أمره والخضوع له في شرعه والخوف منه في قهره والذل له في عزه والتفكر والتدبر في عظمة الكون وعظمة علوه، وإذًا! إذا كان الكون بهذا الاتساع وهذا العلو العظيم فكيف علو من كونه ثم ينبغي علىٰ العبد أن لا يُعلي إلَّا من أعلاه الله عَزَّوَجَلَّ، وألا يَخضع لغيره، وأن يعلم أنه يراقبه ويرقُبه ولا يخفىٰ عليه شيء من أمره، ثم عليه أن يدعوه بها بذل وافتقار وخضوع وانكسار.

٧- (الأول)، ٨ - (والآخر)، ٩ - (والظاهر)، ١٠ - (والباطن):

✍ **قلت: ودليل ذلك:** قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

✍ **قال الشيخ السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «فسرها النبي ﷺ تفسيرًا كاملًا واضحًا فقال: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»، إلىٰ آخر الحديث.

ففسر كل اسم بكل معناه، ونفىٰ عنه كل ما يضاده وينافيه فمهما قدر المقدرون وفرض الفارضون من الأوقات السابقة المتسلسلة إلىٰ غير نهاية فالله قبل ذلك، وكل وقت لاحق مهما قدر وفرض الله بعد ذلك.

ولهذا لا يستحق اسم واجب الوجود إلَّا هو (قلت: وهذا ليس من أسماء الله بل هذا يؤخذ من باب الإخبار عن الله جل ثناؤه كما تقدم في الأبواب السابقة)، فمن خصائصه أنه لا يكون إلَّا موجودًا كاملًا فلا يشاركه في وجوب الوجود أحد فوجوب وجوده بنعوته الكاملة في جميع الأوقات، وهو الذي أوجد الأوقات وجميع الموجودات، وكلها مستندة في وجودها وبقائها إلىٰ الله.

- فاسم الله (الأول): يدل علىٰ أن كل ما سواه حادث كائن بعد أن لم يكن، ويوجب للعبد أن يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية، إذ السبب والمسبب منه تعالىٰ.

- واسم الله (الآخر): يدل علىٰ أنه هو الغاية، والصمد الذي تصمد إليه المخلوقات بتأهلها، ورغبتها، ورهبتها، وجميع مطالبها.

- واسم الله (الظاهر): يدل علىٰ عظمة صفاته، واضمحلال كل شيء عند عظمته من ذوات وصفات وعلىٰ علوه.

- واسم الله (الباطن): يدل علىٰ اطلاعه علىٰ السرائر، والضمائر، والخبايا، والخفايا، ودقائق الأشياء، كما يدل علىٰ كمال قربه ودنوه، ولا يتنافىٰ الظاهر، والباطن لأن الله ليس كمثله شيء في كل النعوت فهو العلي في دنوه، القريب في علوه.

✍ **قلت**: واعلم أن هذه الأسماء الشريفة من أسماء ربنا عَزَّوَجَلَّ تدل علىٰ أنه عَزَّوَجَلَّ مبتدأ كل شيء منه فلا يلجأ العبد لسواه في جلب المصالح ودفع المضار ولا يعتقد في غيره فيدعوه بها عند الشدائد وعند نزول المحن وعند رجاء النعم فلا ينقطع عن الطلب منه بل ولا يرجو غيره ولا يحفد لسواه فهنا يتعلق قلبه بمولاه فيوقن بأن إليه منتهاه، وأمره سائرٌ

إليه لا محالة فيعمل ليوم يقف فيه بين يدي مولاه ثم إن كل أموره موكولة إليه فكل ما يريده يوجده له الأول وكل ما يصبو إليه بيد الآخر وهو الذي يعلم بظواهر الأمور وبواطنها فلا يستخير العبد غيره ولا يثق إلَّا بما عنده ويدعوه بها عند رجاء تيسير الخير وعند خداع الأعداء فهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم فيرضىٰ بقضائه ويثق في حكمه ويطيب نفسًا بشرعه.

١١- (الخالق)، ١٢- (البارئ)، ١٣- (المصور)، ١٤- (الخلاق):

ودليله: قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحشر: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الحجر: ٨٦].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الخالق، البارئ، المصور، الذي خلق جميع الموجودات وبرأها، وسواها بحكمته، وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل ولا يزال علىٰ هذا الوصف العظيم».

قلت: والخالق علىٰ الحقيقة هو الذي صنع الأشياء بغير مثال سابق وأوجدها من العدم وهذا لا يكون إلَّا لله عَزَّوَجَلَّ ذلك أن كل الصناع وإن أتقنوا صناعاتهم إلَّا أنهم صنعوها بمقدمات مضت من الأمثلة الموجودة كما أنهم أوجدوها من مواد موجودة من الأصل لا من عدم فمحال أن يصنع مخلوق شيئًا وإن دق من عدم وتخليق الله عَزَّوَجَلَّ لمخلوقاته من أعظم أدلة وجوده كما إنه من أجل أدلة ربوبيته وانفراده بها سبحانه وتعالىٰ كما أنه خلق العباد وخلق لهم أفعالهم من خير وشر كما قال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات: ٩٦] فلا يكون في ملكه إلَّا ما شاء.

ولا في ملكوته إلَّا ما أراد، ثم إنه لم يخلق الخلق جملة واحدة ويتركهم كما يدعي المبطلون بل هو خلاق عليم يخلق ما يشاء وقت ما أراد علىٰ النحو الذي يشاء فهو سبحانه الخالق ابتداء وانتهاء الخلاق دومًا وأبدًا سبحانه وتعالىٰ عما يدعي المبطلون الكاذبون علوًّا كبيرًا.

ثم هو سبحانه وتعالىٰ بارئهم أي خالقهم ومخلصهم في مراحل خلقهم لأن البرء هو الإبعاد والتخليص ومراحل الخلق تحتاج إلىٰ هذا التخليص دائمًا فمثلًا بالنسبة للبشر فهو الذي خلصهم في بادئ خلقهم من الصورة الترابية إلىٰ الصورة البشرية ثم هو الذي خلصهم وأبعدهم عن الأذىٰ في بطون أمهاتهم حتىٰ خلصت لهم الحياة، ثم هو الذي

خلص من أراد منهم من الرجس والذنوب والمعاصي ثم هو الذي إن شاء أبرأهم من المصائب والمعايب والأمراض والأسقام إلىٰ آخره والله أعلم.

ثم هو جل وعلا الذي يصور عباده كيف يشاء فهو الذي أعطىٰ كل مخلوق خلقه وهيئته التي وجد عليها لتناسب الوظيفة التي خلق لأجلها ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه:٥٠]، وذلك فضل الله علىٰ جميع خلقه ومنته عليهم وهذا باب واسع لمن تأمله.

✍ **قلت:** فعلىٰ العبد أن يتعبده سبحانه بهذه الأسماء المباركة بأن يدعوه بها عند نزول البلاء وعند طلب العون وعند رجاء الشفاء وعند طلب التوبة والتخلص من الذنوب والرزايا، وكذلك أن يعتقد أن سر الخلق عنده وإيجادهم بأمره ومردهم إليه وأنه هو الذي خلق هذه الأوثان والأنداد التي عبدت من دونه سفها بغير علم وأنه خالق الخلق والمتصرف في أمرهم فلا يجوز شرعًا ولا عقلًا أن يُعبد ويُرجىٰ أحدٌ غيره سبحانه وتعالىٰ.

١٥- (القابض)، ١٦- (الباسط):

ودليله: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالىٰ هو: الخالق، القابض، الباسط، الرازق، المسعر، وإني لأرجو أن ألقىٰ الله ولا يطلبني أحد بمظلمة ظلمتها إياه في دم ولا مال**». رواه أحمد وأبو داوود وغيرهما بسند صحيح

فهو القابض للأرزاق والأرواح والنفوس، والباسط للأرزاق، والرحمة، والقلوب، فهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره علىٰ من يشاء ويقبضه عمن يشاء كذلك كل نعمة أنعمها علىٰ أحد من خلقه فمن عدله وعطائه وفضله وكل شيء يدور بعلمه وحكمته ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وعلىٰ العبد أن يرضىٰ بما قسمه له وأن يتضرع إليه عند حوائجه ويوقن بأن ما أعطاه الله لا مانع له وما منعه لا معطي له ويدعوه أن يبسط له في كل خير وأن يقبض عنه كل سوء وشر.

ولابد أن يعلم أنه لابد من ذكر هذين الاسمين مقترنين لأنهما من المتقابلات التي لا ينبغي أن يُثنَىٰ علىٰ الله بها إلَّا كل واحد مع الآخر لأن الكمال المطلق في اجتماع الوصفين.

١٧- (البر)، ١٨- (الوهاب)، ١٩- (الكريم):

✍ **قلت: ودليله:** قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطور:٢٨].

* وقال تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٨]، وذكر اسم الوهاب في الكتاب العزيز ثلاث مرات.

* وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانفطار:٦].

✍ **قال الشيخ السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «من أسمائه تعالىٰ: البر الوهاب الكريم الذي شمل الكائنات بأسرها ببره، وهباته، وكرمه، فهو مولىٰ الجميل، ودائم الإحسان، وواسع المواهب، وصفة البر وآثار هذا الوصف جميع النعم الظاهرة والباطنة، فلا يستغني مخلوق عن إحسانه وبره طرفة عين، وتدل هذه الأسماء علىٰ سعة رحمته، ومواهبه التي عم بها جميع الوجود بحسب ما تقتضيه حكمته.

✍ **قلت:** وبره ومواهبه وكرمه عَزَّوَجَلَّ يشمل جميع خلقه بشكل عام بإغداق نعمه علىٰ جميع خلقه بارهم وفاجرهم مسلمهم وكافرهم ولكن له سبحانه بِر ومواهب وكرم خاص بأهل الإيمان به وأهل الإخلاص له من توفيقه لهم في فعل الخيرات وترك المنكرات وجعل حاجتهم له وحده وأُنسهم ولذتهم باتصالهم به وذلك يكون بقدره وقدرته وأيضًا بشرعه ورسالته التي حباهم بها ليخرجهم من الظلمات إلىٰ النور ويهديهم سبلهم ولا أعظم ولا أكرم ولا أبر من كونه وفقهم لسبل الهداية ومنَّ عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب واتباع الهدىٰ.

فعلىٰ العبد أن يتعبد الله عَزَّوَجَلَّ بهذه الأسماء المباركة بأن يسأل الله بها أن يهب له كل خير ويمن عليه بكل نعمة وأن يتأمل في بره وإحسانه وعطائه وامتنانه وإكرامه في الدنيا بكثرة النعم وفي الآخرة بأعظم الكرامات وأعظم الهبات دار الكرامة الجنة جعلنا الله وإياكم من أهلها ومن علينا بدخولها.

وهذا التأمل يورث المحبة والقرب منه عَزَّوَجَلَّ ويزيد كرامته وعطاءه للعبد، ثم علىٰ العبد أن يتخلق بهذه الآداب الربانية فيكون بارًّا بمن أمره الله ببرهم كريمًا في عطائه كما يحب أن يكرمه الله بازلًا لمواهبه التي وهبه الله إياها. والله الموفق وعليه التكلان.

٢٠- (البصير)، ٢١- (التواب)، ٢٣- (السميع)، ٢٤- (الرحيم)، ٢٥-(الرحمن):

فأما اسم الله (السميع) **فدليله** قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة:٧٦]، وذكر اسم الله السميع في القرآن الكريم تسع عشرة مرة وذكرت صفة السمع إحدىٰ عشرة مرة، مثل قوله جل ثناؤه:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

والسَّمِيع هُوَ الَّذِي لَا يعزب عَن إِدْرَاكه مسموع وَإِن خَفِي فَيسمع السِّرّ والنجوىٰ بل مَا هُوَ أدق من ذَلِك وأخفىٰ وَيدْرك دَبِيب النملة السَّوْدَاء علىٰ الصَّخْرَة الصماء فِي اللَّيْلَة الظلماء يسمع حمد الحامدين فيجازيهم وَدُعَاء الداعين فيستجيب لَهُم.

أما اسم الله (البصير) **دليله:** قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝٢٠﴾ [غافر:٢٠]، وذكر اسم البصير أربع مرات في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وذكرت صفة الإبصار منسوبة لله عَزَّوَجَلَّ سبع وعشرون مرة كقوله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝٤٤﴾ [غافر:٤٤]، ولم يذكر اسم البصير إلَّا مقرونًا باسم السميع.

✍ قال **السعدي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «البصير الذي أحاط بصره بجميع المُبصرات في أقطار الأرض والسماوات، حتىٰ أخفىٰ ما يكون فيها فيرىٰ دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وجميع أعضائها الباطنة، والظاهرة، وسريان القوت في أعضائها الدقيقة، ويرىٰ سريان المياه في أغصان الأشجار، وعروقها وجميع النباتات علىٰ اختلاف أنواعها، وصغرها، ودقتها، ويرىٰ نياط عروق النملة، والنحلة، والبعوضة، وأصغر من ذلك، فسبحان من تحدث العقول في عظمته، وسعة متعلقات صفاته، وكمال عظمته، ولطفه، وخبره بالغيب، والشهادة والحاضر، والغائب، ويرىٰ خيانات الأعين، وتقلبات الأجفان، وحركات الجنان، قال تعالىٰ: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾ [الشعراء:٢١٨-٢٢٠]، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر:١٩]، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ [المجادلة:٦]، أي مطلع، ومحيط علمه، وبصره، وسمعه بجميع الكائنات.

يبصر ما تحت الأراضين السبع، كما يبصر ما فوق السماوات السبع وأيضًا سميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنىٰ الأخير يرجع إلىٰ حكمته.

وكثيرًا ما يقرن الله بين (السميع البصير) مثل قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝١٣٤﴾ [النساء:١٣٤]، فكل من السمع، والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها سرها وعلنها وكأنها لديه صوت واحد، لا تختلف عليه الأصوات، ولا تخفىٰ عليه

جميع اللغات، والقريب منها، والبعيد، والسر، والعلانية عنده سواء ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرعد:١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة:١].

قالت عائشة رضي الله عنها: «تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشتكي إلىٰ رسول الله ﷺ وأنا في جانب الحجرة وإنه ليخفىٰ عليّ بعض كلامها فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ [المجادلة:١] الآية.

قلت: وسمعُ الله عَزَّوَجَلَّ وبصره ليس كمثله شيء ولا يشبهه شيءٌ من خلقه أبدًا، لا في ذات الاستماع ولا ذات الإبصار كيفًا ولا كمًّا ولا يقارن بحركة السمع والبصر عند المخلوقات أبدًا ونحن نثبت له سبحانه السمع والبصر والاستماع والإبصار من غير تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١].

وعبودية هذين الاسمين الشريفين دعاء الله عَزَّوَجَلَّ بهما عند الحاجة ومراقبته في السر والعلانية ومراعة حدوده وعدم الوقوع فيما حرم ومراعة نظره للعبد فلا يراه إلَّا علىٰ خير ولا يسمع منه إلَّا كل خير، ثم التدبر والتأمل في عِظم سمعه وسعة بصره جل ثناؤه.

وأيضًا علىٰ العبد أن يعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ سميع فيحفظ لِسانه.

وعليه أيضًا أن يعلم أنه لم يخلق لَهُ السّمع إلَّا ليسمع كَلَام الله عَزَّوَجَلَّ وَكتابه الَّذِي أنزلهُ وَحَدِيث رَسُول الله ﷺ فيستفيد بِهِ الْهِدَايَة إِلَىٰ طَرِيق الله عَزَّوَجَلَّ فَلَا يسْتَعْمل سَمعه إلَّا فِيهِ.

وبالنسبة إلىٰ اسمه جل ثناؤه (البصير) فعلىٰ العبد أن يعلم أنه خلق لَهُ الْبَصَر لينْظر إِلَىٰ الْآيَات وَإِلَىٰ عجائب الملكوت وَالسَّمَوَات فَلَا يكون نظره إلَّا عِبْرَة قيل لعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَل أحد من الْخلق مثلك فَقَالَ من كَانَ نظره عِبْرَة وصمته فكرة وَكَلَامه ذكرًا فَهُوَ مثلي، وعليه أن يعلم أنه بمرأىٰ من الله عَزَّوَجَلَّ ومسمع فَلَا يستهين بنظره.

أما اسم التواب **فدليله** قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [التوبة:١٠٤]، وذُكر اسم التواب في القرآن الكريم ست مرات ولم يذكر إلَّا مقرونًا بالرحيم أما صفة التوبة فذكرت مرتين كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات:١٢].

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هُوَ الَّذِي يرجع إِلَىٰ تيسير أسبَاب التَّوْبَة لِعِبَادِهِ مرّة بعد أُخرَىٰ بِمَا يظْهر لَهُم من آيَاته ويسوق إِلَيْهِم من تنبيهاته ويطلعهم عَلَيْهِ من تخويفاته وتحذيراته حَتَّىٰ إِذا اطلعوا بتعريفه علىٰ غوائل الذُّنُوب استشعروا الْخَوْف بتخويفه فَرَجَعُوا إِلَىٰ التَّوْبَة فَرجع إِلَيْهِم فصل الله تَعَالَىٰ بِالْقبُولِ.

تَنْبِيه: مَنْ قَبِلَ معاذيرَ الْمُجْرمين من رعاياه وأصدقائه ومعارفه مرّة بعد أُخْرَىٰ فقد تخلق بِهَذَا الْخلق وَأخذ مِنْهُ نَصِيبًا.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: التواب الذي لم يزل يتوب علىٰ التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين فكل من تاب إلىٰ الله توبة نصوحًا تاب الله عليه.

وتوبته على عبده نوعان:

- أحدهما: أنه يوقع في قلب عبده التوبة إليه، والإنابة إليه، فيقوم بالتوبة وشروطها من الإقلاع عن المعاصي، والندم علىٰ فعلها، والعزم علىٰ أن لا يعود إليها، واستبدالها بعمل صالح.

- والثاني: توبته علىٰ عبده بقبولها وإجابتها، ومحو الذنوب بها فإن التوبة النصوح تجُب ما قبلها».

قلت: والتواب هو العائد لعباده إذا عادوا إليه، فهم يتوبون أي يعودون من الذنوب إلىٰ الطاعات وهو سبحانه يعود إليهم بالمغفرة، ويعود إليهم ومن العقوبات إلىٰ الأجور والعطايا فإن العبد يبعد بالذنب عن الله ويقترب من الله بالتوبة وكذلك يبعده الله بذنبه ويقربه بتوبته.

ثم مسألة التوبة متوقفة علىٰ توفيق الله لعبده ولا يكون توفيقه لعبده إلَّا إذا رأىٰ من قلبه صدق الْتِجَائِه إليه، ومحبة وصول للحق، وهو أعلم بعباده سبحانه ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ [الإسراء:٥٤]، فمن رأىٰ اللهُ منه خيرًا وفَّقه للتوبة فتاب إليه سبحانه فأقلع عن ذنوبه وأراد ألَّا يعود إليها، لكن بقي أن صور الذنوب ما زالت في قلبه تراوده حينًا بعد حين ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام:٤٣]، فيتقبل الله عَزَّوَجَلَّ منه توبته لأنه تواب رحيم ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء:٢٧].

فيرحمه أولًا: من أثر الذنوب التي بقيت في قلبه فينسيه لذتها وشوقه إليها وينزعها من قلبه فلا يبقىٰ منها أثر ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٨].

وثانيًا: يرحمه من العقوبة التي كانت ستقع عليه إن ظل منغمسًا في ذنوبه.

ثالثًا: يرحمه من عذاب الإبعاد عن ربه وقربه من عدوه اللدود (الشيطان) ثم يمُن عليه عَزَّوَجَلَّ بأن يبغض إليه المعصية بعد أن كانت لذته فيها فيطمئن قلبه وتسكن سريرته ويرتاح باله فيتفرغ للوصول إلىٰ ربه وذلك عين المرغوب وذروة المطلوب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧].

رزقنا الله وإياكم توبة نصوحة.

أما اسم الله (الرحيم): فقد ذُكر في القرآن الكريم أكثر من أربعٍ وثلاثين مرة مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧]، وصفة الرحمة منسوبة لله عَزَّوَجَلَّ ذكرت أكثر من ثمانٍ وتسعين مرة كقوله تعالىٰ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [الأعراف:١٥٦].

أما اسم (الرحمن) فقد ذكر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ خمس وأربعين مرة منها قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف:٤٥].

والرَّحْمَة لغة: كما قال صاحب الكليات: هِيَ حَالَة وجدانية تعرض غَالِبًا لمن بِهِ رقة الْقلب، وَتَكون مبدأ للانعطاف النفساني الَّذِي هُوَ مبدأ الْإِحْسَان.

✍ **قلت**: وهذا التعريف معلوم كيفيته بالنسبة للمخلوق وهو كذلك بالنسبة له، أما بالنسبة للخالق عَزَّوَجَلَّ فلا نعلم الكيفية ولكن نثبت له سبحانه وتعالىٰ الاسم (الرحمن الرحيم) والصفة وهي (الرحمة) بدون تمثيل ولا تعطيل وبدون تكييف ولا تحريف. فانتبه!

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الرحمن الرحيم» اسمان دالان علىٰ أنه تعالىٰ ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل مخلوق، وكتب الرحمة الكاملة للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة المتصلة بالسعادة الأبدية، ومن عاداهم محروم من هذه الرحمة الكاملة، لأن الذي دفع هذه الرحمة وأباها بتكذيبه للخبر وتوليه عن الأمر فلا يلومن إلَّا نفسه.

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها ما دل عليه الكتاب والسنة من الإيمان بأسماء الله كلها وصفاته جميعها وبأحكام تلك الصفات.

فيؤمنون مثلًا بأنه رحمن رحيم ذو الرحمة العظيمة التي اتصف بها المتعلقة بالمرحوم، فالنعم كلها من آثار رحمته، وهكذا يقال في سائر الأسماء الحسنىٰ.

فيقال عليم: ذو علم عظيم يعلم به كل شيء.

قدير: ذو قدرة يقدر علىٰ كل شيء.

فإن الله قد أثبت لنفسه الأسماء الحسنىٰ والصفات العليا، وأحكام تلك الصفات، فمن أثبت شيئًا منها ونفىٰ الآخر كان مع مخالفته للنقل والفعل متناقضًا مبطلًا.

ودلالة الأسماء علىٰ الذات والصفات تكون بالمطابقة، والتضمين، والالتزام فإن الدلالة نوعان: لفظية، ومعنوية عقلية، فإن أعطيت اللفظ جميع ما دخل فيه من المعاني فهي دلالة مطابقة لأن اللفظ طابق المعنىٰ من غير زيادة ولا نقصان، وإن أعطيته بعض المعنىٰ فتسمىٰ دلالة تضمن، لأن المعنىٰ المذكور بعض اللفظ وداخل في ضمنه.

وأما الدلالة المعنوية العقلية فهي خاصة بالعقل والفكر الصحيح لأن اللفظ بمجرده لا يدل عليها وإنما ينظر العبد ويتأمل في المعاني اللازمة لذلك اللفظ الذي لا يتم معناها بدونه وما يشترط له من الشروط، وهذا يجري في جميع الأسماء الحسنىٰ كل واحد منها يدل علىٰ الذات وتلك الصفة دلالة مطابقة ويدل علىٰ الذات وحدها أو علىٰ الصفة وحدها دلالة تضمن.

ويدل علىٰ الصفة الأخرىٰ اللازمة لتلك المعاني دلالة التزام، مثال ذلك: (الرحمن) يدل علىٰ الذات وحدها وعلىٰ الرحمة وحدها دلالة تضمن، وعلىٰ الأمرين دلالة مطابقة، ويدل علىٰ الحياة الكاملة والعلم المحيط والقدرة التامة ونحوها دلالة التزام لأنه لا توجد الرحمة من دون حياة الراحم وقدرته الموصلة لرحمته، للمرحوم وعلمه به وبحاجته.

ومن تدبر اسمه «الرحمن» وأنه تعالىٰ واسع الرحمة له كمال الرحمة، ورحمته قد ملأت العالم العلوي والسفلي وجميع المخلوقات وشملت الدنيا والآخرة ويتدبر الآيات الدالة علىٰ هذا المعنىٰ كقوله تعالىٰ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ...﴾ [الأعراف:١٥٦]، الآيات ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٣]، ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [الروم:٥٠]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ

سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان:٢٠]، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل:٥٣]، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:١٨].

ويتلو سورة النحل الدالة علىٰ أصول النعم وفروعها التي هي نفحة وأثر من آثار رحمة الله ولهذا قال في آخرها: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل:٨١].

ثم تدبر سورة الرحمن من أولها إلىٰ آخرها فإنها عبارة عن شرح وتفصيل لرحمة الله تعالىٰ فكل ما فيها من ضروب المعاني وتصاريف الألوان من رحمة الرحمن ولهذا اختتمها في ذكر ما أعد الله للطائعين في الجنة من النعيم المقيم الكامل الذي هو أثر من رحمته تعالىٰ ولهذا يسمي اللهُ الجنةَ الرحمةَ كقوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٧].

وفي الحديث أن الله قال للجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي**». وقال: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف:٦٤].

وفي الحديث الصحيح: «**للهُ أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها**».

وفي الحديث الآخر: «**إن الله كتب كتابًا عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي**».

وبالجملة فالله خلق الخلق برحمته، وأرسل إليهم الرسل برحمته، وأمرهم ونهاهم وشرع لهم الشرائع برحمته، وأسبغ عليهم النعمة الظاهرة والباطنة برحمته، ودبرهم بأنواع التدبير وصرفهم بأنواع التصريف برحمته وملأ الدنيا والآخرة من رحمته فلا طابت الأمور، ولا تيسرت الأشياء، ولا حصلت المقاصد، وأنواع المطالب إلَّا برحمته، ورحمته فوق ذلك، وأجل وأعلىٰ.

وللمحسنين المتقين من رحمته النصيب الوافر والخير المتكاثر ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف:٥٦].

✍ **قلت**: وفرق بعض أهل العلم بين كلا الاسمين الشريفين (الرحمن والرحيم) وخلاصة القول في ذلك ما أورده الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره بسنده عن العَرْزَمي يقول: «الرحمن الرحيم»، قال: الرحمن بجميع الخلق، الرّحيم، قال: بالمؤمنين.

وجاء عن أبي سعيد - يعني الخدريّ - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ عيسىٰ ابن مريم قال: الرحمن رَحمنُ الآخرة والدنيا، والرحيم رحيمُ الآخرة».

فهذان الخبران قد أنبآنا عن فرق ما بين تسمية الله جل ثناؤه باسمه الذي هو «رحمن»، وتسميته باسمه الذي هو «رحيم»، واختلاف معنىٰ الكلمتين وإن اختلفا في معنىٰ ذلك الفرق، فدلّ أحدهما علىٰ أنّ ذلك في الدنيا، ودلّ الآخر علىٰ أنه في الآخرة.

قيل: لجميعهما عندنا في الصحة مخرج، فلا وجه لقول قائل: أيُّهما أولىٰ بالصحة؟ وذلك أنّ المعنىٰ الذي في تسمية الله بالرحمن، دون الذي في تسميته بالرحيم: هو أنه بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميعَ خلقه، وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص الرحمة بعضَ خلقه، إما في كل الأحوال، وإما في بعض الأحوال.

فلا شك - إذا كان ذلك كذلك - أنّ ذلك الخصوص الذي في وصفه بالرحيم لا يستحيل عن معناه، في الدنيا كان ذلك أو في الآخرة، أو فيهما جميعًا.

فإذا كان صحيحًا ما قلنا من ذلك - وكان الله جل ثناؤه قد خصّ عباده المؤمنين في عاجل الدنيا بما لطف بهم من توفيقه إياهم لطاعته، والإيمان به وبرسله، واتباع أمره واجتناب معاصيه، مما خُذِل عنه من أشرك به، وكفر وخالف ما أمره به، وركب معاصيَه؛ وكان مع ذلك قد جعلَ، جَلَّ ثناؤه، ما أعد في آجل الآخرة في جناته من النعيم المقيم والفوز المبين، لمن آمن به، وصدّق رسله، وعمل بطاعته، خالصًا، دون من أشرك وكفر به - كان بيِّنًا إن الله قد خص المؤمنين من رحمته في الدنيا والآخرة، مع ما قد عمَّهم به والكفارَ في الدنيا من الإفضال والإحسان إلىٰ جميعهم، في البَسْط في الرزق، وتسخير السحاب بالغَيْثِ، وإخراج النبات من الأرض، وصحة الأجسام والعقول، وسائر النعم التي لا تُحصىٰ، التي يشترك فيها المؤمنون والكافرون.

فربُّنا جل ثناؤه رحمنُ جميع خلقه في الدنيا والآخرة، ورحيمُ المؤمنين خاصةً في الدنيا والآخرة.

فأما الذي عمّ جميعَهم به في الدنيا من رحمته فكان رَحمانًا لهم به، فما ذكرنا مع نظائره التي لا سبيل إلىٰ إحصائها لأحد من خلقه، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٤، وسورة النحل: ١٨].

وأما في الآخرة، فالذي عمّ جميعهم به فيها من رحمته، فكان لهم رحمانًا، تسويته بين جميعهم جل ذكرُه في عَدله وقضائه، فلا يظلم أحدًا منهم مِثْقال ذَرّة، وإن تَكُ حسنةً

يُضاعفها ويُؤتِ من لَدُنْهُ أجرًا عظيما، وتُوفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ. فذلك معنىٰ عمومه في الآخرة جميعَهم برحمته، الذي كان به رحمانًا في الآخرة.

وأما ما خص به المؤمنين في عاجل الدنيا من رحمته، الذي كان به رحيما لهم فيها، كما قال جل ذكره: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣] فما وصفنا من اللطف لهم في دينهم، فخصّهم به، دونَ من خذَله من أهل الكفر به.

وأمَّا ما خصّهم به في الآخرة، فكان به رحيما لهم دون الكافرين، فما وصفنا آنفًا مما أعدَّ لهم دون غيرهم من النعيم، والكرامة التي تقصرُ عنها الأمانيّ. انتهىٰ كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

وعلىٰ العبد أن يتعبد الله عَزَّوَجَلَّ بهذين الاسمين الكريمين بدعاء الله عَزَّوَجَلَّ بهما والتوسل إليه بذكرهما وعليه أن يتخلق بخلقهما العظيم فيكون رحيما بنفسه فلا يوردها المهالك بمعصيته لربه عَزَّوَجَلَّ ويرفق بها باتباع ما أمر الله به ليصح عقله وبدنه وتهدأ نفسه وقلبه ثم يكون رحيما بعباد الله في معاملتهم يرفق بهم ويحنو عليهم ويدعوهم إلىٰ الله لعل الله ينجيهم به من العذاب وهكذا. انتهىٰ كلام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

✍ **قلت**: ثم لابد للمؤمن أن يتأمل في سعة رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وحقيقة الأمر أنه يمكن النظر لذلك من عدة جهات:

أولا: من جهة الرحمة الكونية، ثانيا من جهة الرحمة الشرعية:

فالرحمة الكونية ينعم بها كل الخلق علىٰ العموم وذلك من تيسير المعايش وحفظ السماوات والأرض من أن تزولا والظلال الوارفة واختلاف الفصول واختلاف الليل والنهار ولطفه بهم في تخفيف الآلام ولطفه في تقدير المقادير والإمهال لهم إلىٰ غير ذلك من تيسير الأرزاق وتنوع الأقوات.

ثم تأمل ذلك من جهة الرحمة الشرعية وهي تشمل أصل ذلك من إرسال الرسل وإنزال الكتب ثم حفظ كتابه العزيز وتقييد من يقوم علىٰ خدمته وتوصيله للناس وتفسيره وتبسيط علومه إلىٰ غير ذلك من اختيار الرسل المرسلة للخلق وقذف الرحمة في قلوبهم ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨]، وأمرهم بالرحمة بالناس ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فإرسال النبي رحمة واختيار النبي رحمة ومنهج النبي رحمة وأمر النبي بالرحمة وشرع النبي رحمة.

فالناظر إلىٰ جانب العبادات يجدها كلها رحمة فالصلاة مثلًا رحمة بالعباد ليخرجوا من عناء الدنيا إلىٰ لذة مناجاة ربهم والبعد عن منغصات الحياة بالقرب من ربها وتنقية القلب وتقويته بالاستعانة به وطرح الهموم ببابه والسعادة في رحابه وطلب الحوائج من عنده وانكسار النفس بين يديه إلىٰ ما هنالك من الرحمات التي لا يعدها عاد ولا يحصيها محصي.

وكذلك الزكاة من تطهير مال المعطي وحفظه عليه بمراعاة حال الفقير حتىٰ لا تمتد يد الفقير إلىٰ ماله في الحرام أو تمتد عينه بالحقد والغِل ومعونته للآخر الذي قدر عليه رزقه ومواساة لأصحاب الأعذار إلىٰ غير ذلك من مظاهر الرحمة في كل عبادة فرضها الله علىٰ عباده.

وذلك أيضًا يشمل جانب المعاملات من أمر بالعدل والإحسان وإتاء ذي القربىٰ حقه والمسكين وابن السبيل وحسن الخلق والوفاء بالعهد إلىٰ غير ذلك من محاسن الأخلاق والبعد عن أراذلها، رحمة ما بعدها رحمة ورفق ما بعده رفق بكل أفراد المجتمع حتىٰ بلغت تلك الرحمة ذروتها بأمر الناس بالرفق حتىٰ بالحجر والشجر والحيوان فهل بعد ذلك رحمة تذكر.

ومن أعظم مظاهر الرحمة الشرعية رحمته سبحانه التي تجلت في باب العقائد من توحيد المعبود وإفراد المسؤول وإجلال المرسول والوعد لمن امتثل بكل خير في الدنيا والآخرة والوعيد لمن خالف في الدنيا والآخرة وتبيين ما أشكل علىٰ كثير من الناس، وإظهار ما خفي عن الكثير منهم مما ينفعهم في دنياهم وعقبىٰ أُخراهم، إلىٰ ما هنالك من مظاهر الرحمات وفيوض الكرامات من رب الأرض والسماوات، فتأمله فإنه باب مشرق وطريق مزهر لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

الجهة الثالثة: الرحمة القدرية، والجهة الرابعة: الرحمة الجزائية:

فأما الرحمة القدرية فهي تتمثل في لطفه بعباده عند نزول النوازل والأقدار عليهم ويكفينا مثلًا لها ما جاء في سورة الكهف مما أجراه جل ثناؤه علىٰ يد الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ مما لا يستطيع إدراكه إلَّا من أحاطه الله به خُبرًا وإلا أُشكل عليه كما أُشكل علىٰ كليم الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذه فقط بعض النوازل القدرية التي أجراها الله بأمره علىٰ يد عبدٍ من عباده فخرقُ السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار لمن لا يستحق كل هذه في ظاهرها مخالفة للرحمة والعدل والفضل لكن من تأمل وجدها في غاية الفضل والعدل والرحمة والحكمة

والعظمة وذلك يتضح من مقالات الخضر في تبيين الحكمة مما أجراه الله علىٰ يديه، وهكذا الناظر في كل أقدار الله ونوازله بالعباد فكلها حكمة ورحمة وفضلًا وعدلًا.

فتأمله فإنه باب نافع جدًّا في الصبر علىٰ البلاء وحسن الظن برب الأرض والسماء وهو باب أيضًا مبارك في موضوع الصفات والأسماء.

وأما **الرحمة الجزائية** فهي تتمثل في حلم الله وصبره علىٰ عباده في عدم تعجيله أخذهم بعقوباته ثم تخفيفه عليهم إن أراد أن يعاقبهم وسعة مغفرته لذنوبهم وعدم معاقبتهم بكل ما اجترحوا من الآثام والذنوب إلىٰ غير ذلك مما يطول به المقال ولعلنا نفرد له في موضع آخر.

وخلاصة المسألة أن الناظر لآثار رحمة الله عَزَّوَجَلَّ ينبغي أن ينظر لها من هذه الجهات الأربع.

آثار الرحمة الكونية التكوينية وآثار الرحمة الشرعية وآثار الرحمة القدرية وآثار الرحمة الجزائية الحكمية.

٢٦- (المَلِكُ)، ٢٧- (القُدُّوس)، ٢٨- (السَّلَامُ)، ٢٩- (المُؤمِنُ)، ٣٠- (المُهيمِنُ)، ٣١- (العَزِيزُ)، ٣٢- (الجَبَّار)، ٣٣ - (المتكَبِّر)، ٣٤-(المالك)، ٣٥- (الكبير)؛

ودليل ذلك: قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر:٢٣].

* (الملك- المالك):

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الملك المالك: الذي له الملك فهو الموصوف بصفة الملك وهي صفات العظمة والكبرياء، والقهر، والتدبير، الذي له التصرف المطلق، في الخلق والأمر والجزاء.

وله جميع العالم العلوي والسفلي، كلهم عبيد، ومماليك، ومضطرون إليه وهو الآمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كما يشاء، وله من معنىٰ الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنىٰ كالعزيز الجبار المتكبر، الحكم، العدل، الخافض، الرافع، المعز، والمذل، العظيم، الجليل، الكبير، الحسيب، المجيد، الوالي، المتعالي، مالك الملك، المتسلط، الجامع، إلىٰ غير ذلك من الأسماء العائدة إلىٰ الملك

✍ **وقال الغزالي – غفر الله له ورحمه – في ملك الله جل ثناؤه للخلق:** هُوَ الَّذِي ينفذ مَشِيئَته فِي مَمْلَكَته كَيفَ شَاءَ وكما شَاءَ إيجادًا وإعدامًا وإبقاءً وإفناءً، وَالْملك هَاهُنَا بِمَعْنىٰ المملكة وَالْمَالِك بِمَعْنىٰ الْقَادِر التَّام الْقُدْرَة والموجودات كلهَا مملكة وَاحِدَة وَهُوَ مَالِكهَا وقادرها وَإِنَّمَا كَانَت الموجودات كلهَا مملكة وَاحِدَة لِأَنَّهَا مرتبطة بَعْضهَا بِبَعْض فَإِنَّهَا وَإِن كَانَت كَثِيرَة من وَجه فلهَا وحدة من وَجه ومثاله بدن الْإِنْسَان فَإِنَّهُ مملكة لحقيقة الْإِنْسَان وَهِي أَعْضَاء كَثِيرَة مُخْتَلفَة وَلكنهَا كالمتعاونة علىٰ تَحْقِيق غَرَض مُدبر وَاحِد فَكَانَت مملكة وَاحِدَة فَكَذَلِك الْعَالم كُله كشخص وَاحِد وأجزاء الْعَالم كأعضائه وَهِي متعاونة علىٰ مَقْصُود وَاحِد وَهُوَ إتْمَام غَايَة الْخَيْر الْمُمكن وجوده علىٰ مَا اقْتَضَاهُ الْجُود الإلهي وَلأَجل انتظامها علىٰ تَرْتِيب متسق وارتباطها برابطة وَاحِدَة كَانَت مملكة وَاحِدَة وَالله تَعَالَىٰ مَالِكهَا فَقَط.

✍ **قلت:** ولعل الفرق بين الاسمين الكريمين أن الملك بمعنىٰ ذو السلطان والقهر علىٰ عباده وله الحكم عليهم كونًا وينبغي أن يكون له عليهم الحكم شرعًا، وهو الذي يؤتي الملك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء وإضافة الملك له تليق بذاته فملكه يشمل كل مكان وكل زمان أبدًا وأزلًا، وكل الخلق جميعًا لا يخرج من ملكه أحد ولا من سلطانه مخلوق ونسبة الملك لغيره تليق بالمخلوق من العجز ووقوعه تحت سلطان القهر الإلهي والنقص الذي يعتري كل مخلوق ثم إن نسبة الملك لغيره تعني ملك محدود زمانًا ومكانًا ولابد أن يخضعه لملك الله وسلطانه عَزَّوَجَلَّ فالفرق بين نسبة الملك لله عَزَّوَجَلَّ ونسبته للمخلوق كالفرق بين الخالق عَزَّوَجَلَّ والمخلوق. فانتبه!

أما اسم الله المالك فله عَزَّوَجَلَّ ملكية كل خلقه وإن ملكهم مُلكًا محدودًا بتصرف محدود لوقت معلوم لكن المالك الحق هو الله لذلك أعلمهم أنهم وما ملكهم مُلكًا له يتصرف فيه كيف شاء علىٰ النحو الذي شاء ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون لأنه هو الذي خلقهم وخلق لهم ما يعملون ودبر أمرهم ورزقهم فهو سبحانه ملكهم الحق ومالكهم الخالص فسبحانه وتعالىٰ عما يشرك الظالمون علوًّا كبيرًا

ثم ينبغي التعبد له بالخضوع لذاته وتحكيم شرعه في كل أمر من أمور العباد، والمذلة له وحده واعتماد القلب عليه في جلب كل منفعة ودرء كل مفسدة وينبغي لمن آتاه الله شيئًا من الملك أو ملكه شيئًا من الملك أن يقسط فيه وأن يؤدي حق الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ النحو الذي يرضي ربه، وأن يعلم أن الذي ملكه قادر علىٰ أن ينزع ملكه ويؤتيه غيره، ثم ينبغي علىٰ العبد أن يلجأ لربه عَزَّوَجَلَّ ويخضع لأمره وأن يسأله وحده أن يُزيل ملك الظالمين ويثبت

ملك المتقين، ثم عليه أن يحفظ هذين الاسمين الكريمين ويعمل بما تقتضيه عبوديتهما ويدعو الله بهما.

* **القدوس- السلام:**

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «ومن أسمائه القدوس السلام، أي: المعظم المنزه عن صفات النقص كلها وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المتنزه عن جميع العيوب، والمتنزه عن أن يقاربه أو يماثله أحد في شيء من الكمال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم:٦٥]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢]، فالقدوس كالسلام، ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفىٰ ثبت الكمال كله فهو المقدس المعظم المنزه عن كل سوء، السالم من مماثلة أحد من خلقه ومن النقصان ومن كل ما ينافي كماله.

وهذا ضابط ما ينزه عنه الرب جل ثناؤه (ينزه عن كل نقص بوجه من الوجوه، وينزه ويعظم أن يكون له مثيلٌ أو شبيهٌ أو كفوٌ أو سميٌّ أو ندٌّ أو مضادٌّ، وينزه عن نقص صفة من صفاته التي هي أكمل الصفات وأعظمها وأوسعها).

ومن تمام تنزيهه عن ذلك إثبات صفات الكبرياء والعظمة له فإن التنزيه مراد لغيره ومقصود به حفظ كماله عن الظنون السيئة كظن الجاهلية الذين يظنون به ظن السوء، ظن غير ما يليق بجلاله وإذا قال العبد مثنيًا علىٰ ربه «سبحان الله» أو «تقدس الله» أو «تعالىٰ الله» ونحوها كان مثنيًا عليه بالسلامة من كل نقص وإثبات كل كمال».

✍ **قلت**: وقدسية الله عَزَّوَجَلَّ تشمل قدسية ذاته سبحانه من كمال التنزه عن كل عيب ونقص وسوء، وقدسية كلامه وقدسية صفاته وأفعاله فله سبحانه المثل الأعلىٰ في السماوات والأرض وقدسيته تنزيهه عن الصاحبة والولد والند والشريك والمثيل وهو السلام المُسَلَّم من النقائص والمعايب المُسلِّم عباده من أن يقع عليهم ظلم منه أو شيء لا يستحقونه، المسلم لمن اتبع هداه من عقوباته في الدنيا والآخرة المورث لعباده المتقين دار السلام السالمة في نفسها السالم أهلها.

وعلىٰ العبد أن يتأمل ذلك ويبتعد عن النجاسات الحسية والمعنوية الظاهرة والباطنة ويسلم الناس من لسانه ويده ولا يعتدي علىٰ أحد بغير حق ويعمل ما يكون به مؤهلًا لبلوغ دار السلام في الآخرة ثم ينبغي عليه أن يسأل الله بهذين الاسمين الشريفين فيقول

اللهم يا سلام سلمنا يا قدوس تب علينا ونقنا من كل سوء وهكذا ويتأمل ويتفكر في عظمة ربه وعلو صفاته جل وعلا، ويوقر كتابه فلا يمسه إلَّا طاهرًا إلىٰ غير ذلك والله أعلم وأحكم.

* **المتكبر:**

✍ **قال الشيخ السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «المتكبر عن السوء، والنقص، والعيوب لعظمته، وكبريائه».

✍ **قلت**: والمتكبر اسم من أسماء الله الحسنىٰ والكبرياء صفة من صفاته العلىٰ وهذا الاسم العظيم كمال في حق الله عَزَّوَجَلَّ نقص في المخلوق كما جاء في الحديث القدسي **(قال الله تعالىٰ: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار)**. رواه أحمد وغيره.

ذلك أن العبد إن تكبر كان كاذبًا أحمقًا لأنه يدعي ما ليس فيه وما لا ينبغي له، كيف وكله فقر وعوز إلىٰ غيره مهما بلغ من العلم أو السلطان أو الجاه أو المال فما زال مفتقر إلىٰ طُعمَة وشربة وإلىٰ من يطهو له ومن يكسيه ومن يدبر له أمره لذلك كانت دعوته باطلة وحجته داحضة أما بالنسبة لله عَزَّوَجَلَّ فإنه (أي الكبرياء والتكبر) عين الحق لأنه سبحانه الغني بذاته المغني لغيره المتعالي عن خلقه وهم الفقراء إليه الكبير في ذاته والكبير في أسمائه وصفاته العظيم بحق ويحق له وحده عَزَّوَجَلَّ ذلك لكمالاته وكمالات أسمائه وصفاته فالكبرياء والعظمة من أسمائه وصفاته الحقة جل ثناؤه.

* **الجبار:**

✍ **قال الغزالي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له: هُوَ الَّذِي ينفذ مَشِيئَته علىٰ سَبِيل الْإِجْبَار فِي كل وَاحِد وَلَا تنفذ فِيهِ مَشِيئَة أحد الَّذِي لَا يخرج أحد من قَبضته وتقصر الْأَيْدِي دون حمىٰ حَضرته فالجبار الْمُطلق هُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَإِنَّهُ يجْبر كل أحد وَلَا يجْبرهُ أحد وَلَا مثنوية فِي حَقه فِي الطَّرفَيْنِ.

✍ **وقال الشيخ السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الجبار بمعنىٰ العلي الأعلىٰ، وبمعنىٰ القهار، وبمعنىٰ الرؤوف، الجبار للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لاذ به، ولجأ إليه».

وله ثلاثة معان كلها داخلة باسمه الجبار فهو الذي يجبر الضعيف، وكل قلب منكسر لأجله، فيجبر الكسير ويغني الفقير ويُيسّر علىٰ المعسر كل عسير، ويجبر المصاب بتوفيقه

للثبات، والصبر، ويعيضه علىٰ مصابه أعظم الأجر إذا قام بواجبها، ويجبر جبرًا خاصًّا قلوب الخاضعين لعظمته وجلاله، وقلوب المحبين بما يفيض عليها من أنواع كراماته، وأصناف المعارف والأحوال الإيمانية فقلوب المنكسرين لأجله جبرها دانٍ قريب وإذا دعا الداعي فقال: «اللهم اجبرني، فإنه يريد هذا الجبر الذي حقيقته إصلاح العبد ودفع جميع المكاره عنه».

والمعنىٰ الثاني: أنه القهار لكل شيء، الذي دان له كل شيء، وخضع له كل شيء.

والمعنىٰ الثالث: أنه العلي علىٰ كل شيء، فصار الجبار متضمنًا لمعنىٰ الرؤوف القهار العلي، وقد يراد به معنىٰ رابع وهو المتكبر عن كل سوء، ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له كفؤ أو ضد أو سمي أو شريك في خصائصه، وحقوقه».

✍ **قلت**: وعبودية هذا الاسم الكريم تكون بدعاء الله عَزَّوَجَلَّ به فتقول مثلًا يا جبار أُجبُر كسري ويسر أمري وعليك بمن كاد لي ... إلىٰ آخر ذلك ثم لابد من خشيته والانكسار لذاته العلية والخضوع والذل له واليقين بأن الله عَزَّوَجَلَّ هو وحده الذي يجبر كسر عباده ويدفع عنهم الضر وينجيهم من كل سوء وهو قاسم الجبابرة وقهره لعباده حق لأنه هو خالقهم ورازقهم ومتولىٰ شؤونهم وهو أعلم بهم وبما يصلحهم وهو ذو فضل عليهم ورأفة بهم وحكمه وقضائه ماض فيهم وعدل بهم، والجبار كمال في ذات الله عَزَّوَجَلَّ نقص في عباده لأنه حق لرب العالمين باطل في عباده المقهورين ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾
ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف:٥٤-٥٥].

* **الكبير**:

✍ قال **السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: والكبير هو الذي له أوصاف الجلال؛ وهي أوصاف العظمة، والكبرياء ثابتة محققة لا يفوته منها وصف جلال وكمال.

وهو الموصوف بصفات المجد، والكبرياء، والعظمة، والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجلُّ وأعلىٰ، وله التَّعظيم، والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه، وإجلاله، والخضوع له، والتذلل لكبريائه.

✍ **وقال الغزالي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **وغفر له**: هُوَ ذُو الْكِبْرِيَاء، والكبرياء عبارَة عَن كَمَال الذَّات وأعني بِكَمَال الذَّات كَمَال الْوُجُود وَكَمَال الْوُجُود يرجع إِلَىٰ شَيْئَيْنِ:

أحدهمَا: دَوَامه أزلًا وأبدًا فَكل وجود مَقْطُوع بِعَدَم سَابق أو لَاحق فَهُوَ نَاقص وَلذَلِك يُقَال للْإِنْسَان إِذا طَالَتْ مُدَّة وجوده إِنَّه كَبِير أي كَبِير السن طَوِيل مُدَّة الْبَقَاء وَلَا يُقَال عَظِيم السن فالكبير يسْتَعْمل فِيمَا لَا يسْتَعْمل فِيهِ الْعَظِيم فَإِن كَانَ مَا طَال مُدَّة وجوده مَعَ كَونه مَحْدُود مُدَّة الْبَقَاء كَبِيرا فالدائم الأزلي الأبدي الَّذِي يَسْتَحِيل عَلَيْهِ الْعَدَم أولىٰ أن يكون كَبِيرًا.

وَالثَّانِي أن وجوده هُوَ الْوُجُود الَّذِي يصدر عَنهُ وجود كل مَوْجُود فَان.

✍ **قلت:** والله عَزَّوَجَلَّ كبير في ذاته فلا شيء مثله ولا أكبر منه سبحانه كبير في أسمائه وصفاته وأفعاله لا يحب سفاسف الأمور متكبر علىٰ خلقه بائن منهم لا تحويه سماء ولا أرض بل ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧]، فتأمل تلك العظمة

وعبودية هذا الاسم العظيم الجليل تقتضي من العبد التواضع والذل والافتقار له سبحانه وتعالىٰ وعدم التكبر علىٰ خلقه والتعاظم عليهم وأن يَكبُر الإنسان بهمته وتفكيره وأعماله عن المعاصي والذنوب وعن الأعمال الحقيرة والنيات الدنيئة، وألا يتكبر عن طاعته الله عَزَّوَجَلَّ والانكسار له والسجود بين يديه وأن يدعوه باسمه ويتوسل إليه به أن لا يسلط عليه ظالم ولا متكبر وكما ذكرنا في اسم الله المتكبر نقول في اسم الله الكبير في أن ذلك الاسم حق في ذات الله علىٰ النحو الذي يليق به، كمال بالنسبة له، ونقص وعيب وذنب عظيم في حق المخلوق أن يتكبر علىٰ خلق الله.

* المهيمن:

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**المهيمن**: المطلع علىٰ خفايا الأمور، وخبايا الصدور الذي أحاط بكل شيء علمًا».

✍ **وقال الغزالي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **وغفر له**: والمهيمن مَعْنَاهُ فِي حق الله عَزَّوَجَلَّ أنه الْقَائِم علىٰ خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم وَإِنَّمَا قِيَامه عَلَيْهِم باطلاعه واستيلائه وَحفظه وكل مشرف علىٰ كنه الْأَمر مستول عَلَيْهِ حَافظ لَهُ فَهُوَ مهيمن عَلَيْهِ والإشراف يرجع إِلَىٰ الْعلم والاستيلاء إِلَىٰ كَمَال الْقُدْرَة وَالْحِفْظ إِلَىٰ الْفِعْل فالجامع بَين هَذِه الْمعَانِي اسْمه (المهين) وَلنْ يجْتَمع ذَلِك علىٰ الْإِطْلَاق والكمال إِلَّا لله عَزَّوَجَلَّ وَلذَلِك قيل إِنَّه من أَسمَاء الله تَعَالَىٰ فِي الْكتب الْقَدِيمَة.

✍ **قلت:** وليست هيمنة الله علىٰ عباده اطلاع وعلم وإحاطة فقط بل سيطرة كاملة علىٰ كل الأمور فلا يخفىٰ عليه شيء من أمور عباده ولا يعجزه شيء منهم فلا يخرج شيء من سيطرته ولا يكون في ملكه إلَّا ما شاء.

فوجب علىٰ العبد أن يكون عنده يقين بإحاطة ربه بكل أمره بل وأمور الخلق أجمعين، وهم لا يحيطون بشيء من علمه ولا يقدرون علىٰ شيء من ملكه إلَّا بما أذن فيه وأراده، فيدرك حينها العبد أنه ما نفد إليه شيء من مكر أعدائه إلَّا بإذن الله فيلجأ إليه وحده عندما يحاط به ويستغيث به وحده عند مكر الماكرين وتدبير الخائنين ويدعوه باسمه المهيمن أن يقيه مكرهم ويرد كيدهم ويستعين بالمهيمن في تدبير أموره وشؤونه والله أعلم وأحكم.

*** المؤمن:**

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «المؤمن الذي أثنىٰ علىٰ نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله وأنزل كتبه بالآيات، والبراهين وصدق رسله بكل آية وبرهان، يدل علىٰ صدقهم وصحة ما جاؤوا به».

✍ **وقال الغزالي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **وغفر له:** هُوَ الَّذِي يعزىٰ إِلَيْهِ الْأَمْن والأمان بإفادته أسبَابه وسده طرق المخاوف وَلَا يتَصَوَّر أمن وأمان إلَّا فِي مَحل الْخَوْف وَلَا خوف إلَّا عِنْد إِمْكَان الْعَدَم وَالنَّقْص والهلاك وَالْمُؤمن الْمُطلق هُوَ الَّذِي لَا يتَصَوَّر أمن وأمان إلَّا وَيكون مستفادًا من جِهَته وَهُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَلَيْسَ يخفىٰ أن الْأَعْمَىٰ يخَاف أن يَنَالهُ هَلَاك من حَيْثُ لَا يرىٰ فعينه البصيرة تفيده أمنًا مِنْهُ، والأقطع يخَاف آفَة لَا تنْدَفع إلَّا بِالْيَدِ فاليد السليمة أمَان مِنْهَا وَهَكَذَا جَمِيع الْحَواس والأطراف وَالْمُؤمن خَالِقهَا ومصورها ومقويها.

وَلَو قَدرنَا إنْسَانًا وَحده مَطْلُوبًا من جِهَة أعدائه وَهُوَ ملقىٰ فِي مضيعة لَا تتحرك عَلَيْهِ أعضاؤه لضَعْفه وَإِن تحركت فَلَا سلَاح مَعَه وَإِن كَانَ مَعَه سلَاح لم يُقَاوم أعداءه وَحده وَإِن كَانَ لَهُ جنود لم يَأْمَن أن تنكسر جُنُوده وَلَا يجد حصنًا يأوي إِلَيْهِ فجَاء من عالج ضعفه فقواه وأمده بجُنُوده وأسلحته وَبنىٰ حوله حصنًا حصينًا فقد أَفَادَهُ أمنًا وأمانًا فبالحريّ أن يُسمىٰ مُؤمنًا فِي حَقه.

وَالْعَبْد ضَعِيف فِي أصل فطرته وَهُوَ عرضة الْأَمْرَاض والجوع والعطش من بَاطِنه وعرضة الْآفَات المحرقة والمغرقة والجارحة والكاسرة من ظَاهره وَلم يُؤمنهُ من هَذِه المخاوف إلَّا الَّذِي أعد الْأَدْوِيَة نافعة ورافعة لأمراضه والأطعمة مزيلة لجوعه والأشربة

مميطة لعطشه والأعضاء دافعة عَن بدنه والحواس جواسيس منذرة بِمَا يقرب من مهلكاته ثمَّ خَوفه الْأَعْظَم من هَلَاك الْآخِرَة وَلَا يحصنه عَنهُ إِلَّا كلمة التَّوْحِيد وَالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هاديه إِلَيْهَا ومرغبه فِيهَا حَيْثُ قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله حصني فَمن دخل حصني أمن عَذَابي فَلَا أمن فِي الْعَالم إِلَّا وَهُوَ مُسْتَفَاد بِأَسْبَاب هُوَ متفرد بخلقها وَالْهِدَايَة إِلَىٰ اسْتِعْمَالهَا فَهُوَ الَّذِي أعْطىٰ كل شَيْء خلقه ثمَّ هدىٰ فَهُوَ الْمُؤمن الْمُطلق حَقًّا.

✍ **قلت**: والمؤمن الذي أمن عباده الصالحين من ظلم الظالمين ومن عقوبات الدنيا وعقوبات يوم الدين، وهو الذي آمن بذاته وبأسمائه وصفاته وآمن بإيمان من وحده ومجده، والمؤمن الذي أمن الخلق من أن يقع عليهم منه ظلمًا أو هضمًا، والمؤمن المؤَمن لعباده بصدق وعده لهم بالجنة والمغفرة والرضوان إذا فعلو ما أمرهم به.

وعلىٰ العبد أن يتخلق بخلق الإيمان، والإيمان هو التصديق الجازم بكل ما أنزل الله علىٰ أنبيائه ورسله والعمل بمقتضىٰ ذلك والاعتقاد به، وعليه أن يتحلىٰ بصفات المؤمنين ويبتعد عن صفات المنافقين والمكذبين، وعليه أن يعمل علىٰ زيادة إيمانه بتكثير الطاعات والبعد عن الموبقات وأن يدعو ربه المؤمن أن يأمنه في الدنيا من ظلم الظالمين ومكر الماكرين ومن عقوبات الدنيا والآخرة وأن ويزيده إيمانًا مع إيمانه ويقينًا علىٰ يقينه.

٣٦- (المقدم)، ٣٧- (المؤخر):

✍ **قلت:** ودليل الاسمين الشريفين قول النبي ﷺ: «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلَّا أنت**». «رواه أحمد عن أبي هريرة».

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: «المقدم والمؤخر من أسمائه الحسنىٰ المزدوجة المتقابلة التي لا يطلق واحد بمفرده علىٰ الله إلَّا مقرونًا بالآخر فإن الكمال من اجتماعهما فهو تعالىٰ المقدم لمن شاء والمؤخر لمن شاء بحكمته.

وهذا التقديم يكون كونيًا وشرعيًا.

- فأما الكوني فهو كتقديم بعض المخلوقات علىٰ بعض وتأخير بعضها علىٰ بعض، وكتقديم الأسباب علىٰ مسبباتها والشروط علىٰ مشروطاتها.

وأنواع التقديم والتأخير في الخلق، والتقدير بحر لا ساحل له،

- وأما التقديم الشرعي فكما فضل الأنبياء علىٰ الخلق، وفضل بعضهم علىٰ بعض، وفضل بعض عباده علىٰ بعض، وقدمهم في العلم، والإيمان، والعمل، والأخلاق، وسائر الأوصاف،

وأخَّر من أخَّر منهم بشيء من ذلك وكل هذا تبع لحكمته وهذان الوصفان وما أشبههما من الصفات الذاتية لكونهما قائمين بالله والله متصف بهما، ومن صفات الأفعال لأن التقديم والتأخير متعلق بالمخلوقات ذواتها، وأفعالها، ومعانيها، وأوصافها، وهي ناشئة عن إرادة الله وقدرته، فهذا هو التقسيم الصحيح لصفات الباري وإن صفات الذات متعلقة بالذات، وصفات أفعاله من اتصفت بها الذات ومتعلقه بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال».

✍ **قلت**: والمتأمل في هذين الاسمين الشريفين يجد أنهما يقومان علىٰ علمه وحكمته سبحانه وتعالىٰ وعلىٰ قدرته عَزَّوَجَلَّ علىٰ عباده، وعلىٰ العبد أن يتعبد الله بهما بأن يوقن بأن ما قدمه الله هو من يستحق التقديم وما أخره الله هو من يستحق التأخير وأن الخير فيما اختاره شرعًا وقدرًا فيرضىٰ ويسلم لما اختاره الله عَزَّوَجَلَّ فلا يحب تأخير ما قدم ولا تقديم ما أخر ولا يقدم من أخره الله ولا يؤخر من قدمه الله ويدعو الله أن يوفقه لذلك كما جاء في الخبر «**قل إذا أصبحت: بسم الله علىٰ أهلي ومالي، اللهم رضني بما قضيت وعافني بما أبقيت، حتىٰ لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت**». رواه أبو نعيم.

وكان أيضًا من دعائه ﷺ «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلَّا أنت**». رواه مسلم

٣٨- (الحق):

✍ **قلت: ودليله:** قال تعالىٰ: ﴿ **يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ** ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور:٢٥].

✍ **قلت:** والحق اسم من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفة من صفاته، وذكر اسم الحق في القرآن أكثر من مائة مرة في أن الله حق وأنبياءه حق وكتبه حق وحكمه حق وهو نصير لكل حق ووعده حق وكلامه حق.

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ: «الحق: في ذاته، وصفاته، فهو واجب الوجود كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلَّا به. فهو الذي لم يزل، ولا يزال بالجلال، والجمال، والكمال، موصوفًا.

ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفًا. فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسوله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء إليه فهو حق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢]، ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ﴾ [يونس:٣٢]، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١].

✍ **قلت:** وعبودية هذا الاسم العظيم تقتضي من العبد أن يبذل جهده للوصول إلىٰ الحق وأن يسعىٰ إلىٰ ذلك قدر استطاعته وأن يسأل الله أن يريه الحق حقًّا ويرزقه اتباعه، ويريه الباطل باطلًا ويرزقه اجتنابه.

وهنا نكتة جليلة، وهي أن من عباد الله من يرىٰ الباطل حقًّا، ويرىٰ الحق باطلًا، ومنهم من يرىٰ الحق حقًّا ولا يتبعه، ويرىٰ الباطل باطلًا ولا يجتنبه، وكلا الفريقين هالك، أما الفريق الذين هداهم الله ووفقهم للخير فهؤلاء الذين أراهم الحق حقًّا ورزقهم اتباعه، وأراهم الباطل باطلًا ورزقهم اجتنابه، وهؤلاء أصحاب الفطر السليمة، والبصائر العظيمة، جعلنا الله وإياكم منهم.

وعلىٰ العبد أن يلجأ للحق ولا يسأل غيره أن يرفع عنه ظلم الظالمين وكيد الكائدين وأن يرد إليه الحق الذي سلبه منه السالبون.

وعليه أن يوقن بأن الله الحق هو نصير المظلومين ومهلك الظالمين وراد الحق للمستحقين ويوقن بأن لقاء الله حق فيستعد له وأن وعد الله حق فيعمل لنيله ولا ينال الحق والخير من الله إلَّا بحق.

٣٩- (الحكم):

ودليله: قال تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠].

ودليل هذا الاسم أيضًا قوله ﷺ: «**إن الله هو الحكم وإليه الحكم**» رواه أبو داوود.

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «ومن أسمائه الحكم الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة، بعدله وقسطه، فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يحمل أحدٌ وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه، ويؤدي الحقوق إلىٰ أهلها، فلا يدع صاحب حق إلَّا وصل إليه حقه.

وهو العدل في تدبيره، وتقديره ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٦].

والحكم الذي إليه الحكم في كل شيء فيحكم تعالىٰ بشرعه، ويبين لعباده جميع الطرق التي يحكم بها بين المتخاصمين، ويفصل بين المتنازعين، من الطرق العادلة الحكيمة، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ويحكم فيها بأحكام القضاء والقدر، فيجري عليهم منها ما تقتضيه حكمته ويضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها، ويقضي بينهم يوم الجزاء، والحساب، فيقضي بينهم بالحق، ويحمده الخلائق علىٰ حكمه حتىٰ من قضىٰ عليهم بالعذاب يعترفون له بالعدل، وأنه لم يظلمهم مثقال ذرة».

✍ **قلت:** وعبودية هذا الاسم الكريم تتضمن دعاءه عَزَّوَجَلَّ باسمه الحكم أن يقضي بين العبد وبين خصوم الباطل بقضائه، ثم علىٰ العبد أن يرضىٰ بقضاء ربه فيه ويعلم أنه يستحقه وأن قضاءه كله عدل وحكمة ورحمة ورأفة، ثم علىٰ العبد إن تولىٰ القضاء ولو بين اثنين من عباد الله أن يكون عادلًا يحكم بما يرضي ربه ولا يجور علىٰ أحد من عباد الله، بل وينصفهم من نفسه وأهله ولا يراعي أحدًا علىٰ حساب الحق والعدل ولا يرضي أحدًا بسخط الله، ويوقن أن الله عَزَّوَجَلَّ محاكِمه إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة أو في كليهما فيتقي الله في كل أفعاله وأقواله ولا يظلمن أحدًا.

٤٠- (الحكيم):

ودليله: قال تعالىٰ: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة:٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [التغابن:١٨]، واسم الحكيم جاء في كتاب الله ثلاثًا وأربعين مرة وجاءت صفة الحكمة تسعة وثلاثين مرة كقوله جل ثناؤه ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور:١٨].

والملاحظ أن اسم الله عَزَّوَجَلَّ الحكيم دائمًا ما يكون مصحوبًا باسمه العليم واسمه العزيز وكذلك صفة الحكمة، غير أن صفة الحكمة زادت علىٰ ذلك اقترانها بالعلو، وإذًا فحكمته سبحانه وتعالىٰ مبناها العلم والعلو والعزة، وذلك إعلامٌ لعباده بأن تقديم أمر أو تأخير أمر أو إصدار حكم أو إجراء قدر لا يكون إهمالًا وإنما إمهالًا فكل شيء يقدره جل ثناؤه مبناه علىٰ علمه الذي أحاط بكل شيء، وعِزته التي ليس كمثلها شيء وعلوه الذي لا يعلوه شيء والحكمة هي وضع الشيء في موضعه ويلزم لذلك تمام العلم وكمال الحكم وعظم الإحاطة ومنتهىٰ كل ذلك لله وحده سبحانه وتعالىٰ.

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الحكيم هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝﴾ [المائدة:٥٠]. فلا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يشرع شيئًا سدًىٰ، الذي له الحكم في الأولىٰ والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره، وجزائه.

والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها.

والحكيم: الموصوف بكمال الحكمة، وبكمال الحكم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم، والاطلاع علىٰ مبادئ الأمور، وعواقبها، واسع الحمد تام القدرة غزير الرحمة، فهو الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه، وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال.

وحكمته نوعان:

- أحدهما: الحكمة في خلقه فإنه خلق الخلق بالحق، ومشتمل علىٰ الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطىٰ كل مخلوق خلقه اللائق به بل أعطىٰ كل جزء من أجزاء المخلوقات، وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقته، وهيئته، فلا يرىٰ أحد في خلقه خللًا، ولا نقصًا، ولا فطورًا، فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلىٰ آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن، والانتظام، والإتقان لم يقدروا، وأنىٰ لهم القدرة علىٰ شيء من ذلك.

وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيرًا من حكمه، ويطلعوا علىٰ بعض ما فيها من الحسن، والإتقان.

وهذا أمر معلوم قطعًا بما يعلم من عظمته، وكمال صفاته، وتتبع حكمه في الخلق، والأمر.

وقد تحدّىٰ عباده، وأمرهم أن ينظروا، ويكرروا النظر، والتأمل هل يجدون في خلقه خللًا أو نقصًا، وأنه لابد أن ترجع الأبصار كليلة عاجزة عن الانتقاد علىٰ شيء من مخلوقاته.

- النوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره، فإنه تعالىٰ شرع الشرائع، وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليعرفه العباد، ويعبدوه، فأي حكمة أجل من هذا، وأي فضل، وكرم أعظم

من هذا، فإن معرفته تعالىٰ، وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص العمل له وحده، وشكره، والثناء عليه أفضل العطايا منه لعباده علىٰ الإطلاق.

وأجلُّ الفضائل لمن منَّ الله عليه بها، وأكمل سعادة وسرورًا للقلوب، والأرواح، كما أنها هي السبب الوحيد للوصول إلىٰ السعادة الأبدية، والنعيم الدائم.

فلو لم يكن في أمره، وشرعه إلَّا هذه الحكمة العظيمة التي هي أصل الخيرات، وأكمل اللذات، ولأجلها خلقت الخليقة، وحق الجزاء، وخلقت الجنة، والنار، لكانت كافية شافية.

هذا وقد اشتمل شرعه، ودينه علىٰ كل خير، فأخباره تملأ القلوب علمًا، ويقينًا، وإيمانًا، وعقائد صحيحة، وتستقيم بها القلوب، ويزول انحرافها، وتثمر كل خلق جميل، وعمل صالح، وهدىٰ، ورشد، وأوامره، ونواهيه محتوية علىٰ عناية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين والدنيا فإنه لا يأمر إلَّا بما مصلحته خالصة أو راجحة ولا ينهىٰ إلَّا عما مضرته خالصة أو راجحة.

ومن حكمة الشرع الإسلامي أنه كما أنه هو الغاية لصلاح القلوب، والأخلاق، والأعمال، والاستقامة علىٰ الصراط المستقيم، فهو الغاية لصلاح الدنيا، فلا تصلح أمور الدنيا صلاحًا حقيقيًّا إلَّا بالدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وهذا مشاهد محسوس لكل عاقل، فإن أمة محمد لما كانوا قائمين بهذا الدين أصوله، وفروعه، وجميع ما يهدي، ويرشد إليه كانت أحوالهم في غاية الاستقامة، والصلاح، ولما انحرفوا عنه، وتركوا كثيرًا من هداه، ولم يسترشدوا بتعاليمه العالية انحرفت دنياهم كما انحرفوا عن دينهم.

وكذلك انظر إلىٰ الأمم الأخرىٰ التي بلغت في القوة، والحضارة والمدنية مبلغًا هائلًا، ولكن لما كانت خالية من روح الدين ورحمته وعدله، كان ضررها أعظم من نفعها، وشرها أكبر من خيرها، وعجز علماؤها وحكماؤها وساساتها عن تلافي الشرور الناشئة عنها، ولن يقدروا علىٰ ذلك ما داموا علىٰ حالهم، ولهذا كان من حكمته تعالىٰ أن ما جاء به محمد ﷺ من الدين، والقرآن أكبر البراهين علىٰ صدقه، وصدق ما جاء به لكونه محكمًا كاملًا لا يحصل إلَّا به، وبالجملة، فالحكيم متعلقاته المخلوقات والشرائع، وكلها في غاية الإحكام، فهو الحكيم في أحكامه القدرية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية.

والفرق بين أحكام القدر، وأحكام الشرع أن القدر متعلق بما أوجده، وكونه وقدره، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وأحكام الشرع متعلقة بما شرعه، والعبد المربوب لا يخلو منهما أو من أحدهما، فمن فعل منهم ما يحبه الله ويرضاه، فقد اجتمع فيه الحكمان، ومن فعل ما يضاد ذلك فقد وجد فيه الحكم القدري، فإن ما فعله واقع بقضاء الله وقدره، ولم يوجد فيه الحكم الشرعي لكونه ترك ما يحبه الله، ويرضاه.

فالخير، والشر، والطاعات، والمعاصي كلها متعلقة وتابعة للحكم القدري، وما يحبه الله منها هو تابع للحكم الشرعي، ومتعلقه، والله أعلم.

٤١- (الحليم):

✍ **قلت: ودليله:** عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «**لا إله إلَّا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش الكريم، الحمد لله رب العالمين، اللهم اغفر لي، اللهم تجاوز عني، اللهم اعف عني فإنك عفو غفور**». رواه النسائي وابن عساكر.

* وعن عبد الله بن جعفر: **قال أخبرني عمي أن النبي** ﷺ، علمه هؤلاء الكلمات: «**لا إله إلَّا الله وحده أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده**». رواه البخاري ومسلم.

✍ **قلت**: وذكر عَزَّ وَجَلَّ في كتابه صفة حلمه عشر مرات كقوله تعالىٰ: ﴿**وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٣٥].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الحليم الذي له الحلم الكامل، والذي وسع حلمه أهل الكفر، والفسوق، والعصيان، ومنع عقوبته أن تحل بأهل الظلم عاجلًا، فهو يمهلهم ليتوبوا، ولا يهملهم إذا أصروا، واستمروا في طغيانهم، ولم ينيبوا.

والحليم الذي يدر علىٰ خلقه النعم الظاهرة والباطنة مع معاصيهم، وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم، ويستعتبهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي ينيبوا.

والله تعالىٰ حليم عفو، فله الحلم الكامل، وله العفو الشامل، ومتعلق هذين الوصفين العظيمين معصية العاصين، وظلم المجرمين، فإن الذنوب تقتضي ترتب آثارها عليها من العقوبات العاجلة المتنوعة، وحلمه تعالىٰ يقتضي إمهال العاصين، وعدم معاجلتهم ليتوبوا، وعفوه يقتضي مغفرة ما صدر منهم من الذنوب خصوصًا إذا أتوا بأسباب المغفرة من الاستغفار، والتوبة، والإيمان، والأعمال الصالحة، وحلمه وسع السماوات، والأرض، فلولا عفوه ما ترك علىٰ ظهرها من دابة، وهو تعالىٰ عفو يحب العفو عن عباده،

ويحب منهم أن يسعوا بالأسباب التي ينالون بها عفوه من السعي في مرضاته، والإحسان إلىٰ خلقه.

ومن كمال عفوه أن المسرفين علىٰ أنفسهم إذا تابوا إليه غفر لهم كل جرم صغير وكبير، وأنه جعل الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها».

✍ **قلت**: وعلىٰ العبد أن يتخلق بخلق الحلم فيكون حليمًا رفيقًا بعباد الله كما قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس «**إن فيك خصلتين يحبها الله تعالىٰ: الحلم والأناة**». رواه مسلم عن ابن عباس فالله عَزَّوَجَلَّ يحب الحلماء من عباده علىٰ عباده، فعلىٰ العبد أن يحلم حتىٰ علىٰ صاحب الذنب والخطيئة لعله يتوب ويرجع ويصلح فيصلُح ولا يعاجل أحدًا بالعقوبة وأن يكون حليمًا في اتخاذ قراراته متأنيًا في ذلك ناظرًا إلىٰ حلم الله عليه وحلمه علىٰ خلقه وإلىٰ عواقب ذلك الحلم من الخير العميم برجوعهم إلىٰ الحق ونجاتهم من العقوبة ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل:٦١].

ثم عليه أن يدعو الحليم جل ثناؤه أن يحلم عليه ولا يؤاخذه بذنوبه ولا يعاجله بالعقوبات ويتأمل سعة حلم الله علىٰ خلقه ورأفته بهم فإنه باب من أعظم أبواب محبة الله والقرب منه. فتأمل.

٤٢- (الحميد):

✍ **قلت: ودليله:** قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥]، وذكر اسم الله الحميد في كتاب الله عشر مرات.

وصفة الحمد ذكرت ست مرات منها قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٨].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الحميد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها، وأحسنها، فإن أفعاله تعالىٰ دائرة بين الفضل، والعدل.

فالحمد كثرة الصفات والخيرات، فهو الحميد لكثرة صفاته الحميدة، وهو سبحانه حميد من وجهين:

- أحدهما: أن جميع المخلوقات ناطقة بحمده، فكل حمد وقع من أهل السماوات والأرض، الأولين منهم والآخرين، وكل حمد يقع منهم في الدنيا والآخرة، وكل حمد لم يقع منهم بل كان مفروضًا ومقدرًا حيثما تسلسلت الأزمان، واتصلت الأوقات حمدًا يملأ الوجود كله العالم العلوي والسفلي، ويملأ نظير الوجود من غير عد ولا إحصاء.

فإن الله تعالىٰ مستحق للحمد من وجوه كثيرة:

منها أن الله هو الذي خلقهم، ورزقهم، وأسدىٰ عليهم النعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وصرف عنهم النقم، والمكاره، فما بالعباد من نعمة فمن الله، ولا يدفع الشرور إلَّا هو، فيستحق منهم أن يحمدوه في جميع الأوقات، وأن يثنوا عليه، ويشكروه بعدد اللحظات.

- الوجه الثاني: أنه يُحمد علىٰ ما له من الأسماء الحسنىٰ، والصفات الكاملة العليا، والمدائح والمحامد والنعوت الجليلة الجميلة، فله كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها، وأعظمها فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد، والثناء، فكيف بجميع الأوصاف المقدسة، فله الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته، وله الحمد لأفعاله لأنها دائرة بين أفعال الفضل، والإحسان، وبين أفعال العدل، والحكمة التي يستحق عليها كمال الحمد، وله الحمد علىٰ خلقه، وعلىٰ شرعه، وعلىٰ أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية، وأحكام الجزاء في الأولىٰ، والآخرة، وتفاصيل حمده، وما يحمد عليه لا تحيط بها الأفكار، ولا تحصيها الأقلام.

✍ **قلت:** ومحامد الله عَزَّوَجَلَّ لا يحصيها محصي ولا يعدها عاد ولا يبلغها مخلوق كالذي جاء عن النبي ﷺ: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك**». رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

وعلىٰ العبد أن يحمد ربه عَزَّوَجَلَّ علىٰ كل ما أعطىٰ وكل ما منع ويعلم أنه ربما كان منعه أعظم من عطائه فكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، وهنا أمر لابد من أن نورده إلَّا وهو الفرق بين الحمد والشكر، وخلاصة كلام أهل العلم في هذه المسألة، أن الحمد يكون بإقرار القلب وشهوده للنعم التي لا تعد ولا تحصىٰ وثناء اللسان ولهجانه بحمد المنعم ونسبة كل نعمة له سبحانه أما الشكر فيزيد علىٰ هذين الأصلين بأن يعمل العبد بنعم الله في الوصول إلىٰ مراضي الله ولا يستخدمها فيما يغضبه أبدًا وإلا

تغيرت عليه النعمة ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧]، وهذا الوعيد الذي توعد الله عَزَّوَجَلَّ به من لم يؤدي شكر النعمة يكون إما بالسلب وإما بالقلب، أما السلب فيعني أن يسلب المنعم نعمته ممن أنعم عليه فيحرمه إياها، وأما القلب فيعني ترك النعمة في الظاهر ولكن تصبح نقمة ولعنة على الكافر (بأنعم الله) الذي فرط في شكر النعمة ولم يستخدمها في طاعته وإنما استخدمها في معاصيه ونقمه. فتأمل فإنه باب عظيم لمن تأمله.

ثم على العبد أن يكون حامدًا شاكرًا لأنعم الله مقيمًا على طاعته، مُحَدِّثًا بنعمه عليه مثنيًا على المنعم ناسبًا كل نعمة لفضله وكرمه عليه، مُتبرئًا من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، داعيًا ربه الحميد المجيد أن يديم النعمة عليه متأملًا في محامد ربه، محبًّا له عَزَّوَجَلَّ باذلًا جهده فيما يرضيه عنه.

٤٣- (الحي)، ٤٤- (القيوم):

✍ **قلت: ودليله:** قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وذكر اسم (الحي) في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ أربع مرات واسم (القيوم) ثلاث مرات.

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «الحي القيوم كامل الحياة والقائم بنفسه.

القيوم لأهل السماوات والأرض القائم بتدبيرهم وأرزاقهم وجميع أحوالهم (فالحي): الجامع لصفات الذات، (والقيوم): الجامع لصفات الأفعال وجمعهما في غاية المناسبة كما جمعهما الله في عدة مواضع من كتابه كقوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وذلك أنهما محتويان على جميع صفات الكمال، فالحي هو كامل الحياة، وذلك يتضمن جميع الصفات الذاتية لله كالعلم والعزة والقدرة، والإرادة، والعظمة، والكبرياء، وغيرها من صفات الذات المقدسة.

والقيوم هو كامل القيومية الذي قام بنفسه، وعظمت صفاته، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقامت به الأرض والسماوات، وما فيهما من المخلوقات، فهو الذي أوجدها وأمدها، وأعدّها لكل ما فيه بقاؤها، وصلاحها، وقيامها، فهو الغني عنها من كل وجه، وهي التي افتقرت إليه من كل وجه، فالحي والقيوم من له صفة كل كمال، وهو الفعال لما يريد الذي إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، وكل الصفات الفعلية، والمجد، والعظمة، والجلال ترجع إلى اسمه القيوم، ومرجع صفات الكمال كلها ترجع إلى هذين الاسمين

الكريمين، ولذلك ورد الحديث أن اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطىٰ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ [البقرة:٢٥٥] لاشتمالهما علىٰ جميع الكمالات.

فصفات الذات ترجع إلىٰ الحي، ومعاني الأفعال ترجع إلىٰ القيوم».

✍ **قلت**: وعبودية هذين الاسمين الكريمين العظيمين تتضمن الإيمان الكامل بهما وبأن الله عَزَّوَجَلَّ حياة تليق بذاته لا تشبه حياة المخلوقين ولا تماثلها أبدًا كما أن للمخلوق حياة حقيقية تليق بعجزه وافتقاره واحتياجه بل ولكل نوع من أنواع المخلوقات حياة مختلفة فمثلًا حياة الإنس غير حياة الجن غير حياة الملائكة إلىٰ غير ذلك فحياته سبحانه وتعالىٰ حياة حقيقية تليق بذاته العلية وحياة المخلوقات حياة حقيقية تليق بذواتهم فنحن نثبت له سبحانه الحياة ولكن علىٰ النحو الذي يليق به، وعلىٰ العبد أن يثق فيمن لا يغفل ولا ينام ولا يموت، وأمره لا يفوت وأن يتقي عقوبته ويسعىٰ إلىٰ مراضيه.

٤٥- (العليم)، ٤٦- (الخبير):

✍ **قلت: ودليله:** قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [التحريم:٣].

واسم الله (العليم) جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ اثنين وثلاثين مرة، واسم الله (الخبير) جاء مرة واحدة.

وصفة العلم له عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة:٢٩]، ﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [التغابن:٤]، ﴿ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥ ﴾ [العلق:٤، ٥]، ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٤٨ ﴾ [سبأ:٤٨]، وصفة علمه سبحانه ذكرت أكثر من تسعين مرة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

✍ قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الخبير العليم: هو الذي أحاط علمه بالظواهر، والبواطن، والإسرار، والإعلان، والواجبات، والمستحيلات، والممكنات. وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي، والحاضر، والمستقبل، فلا يخفىٰ عليه شيء من الأشياء.

وهو العليم المحيط علمه بكل شيء: بالواجبات، والممتنعات، والممكنات، فيعلم تعالىٰ نفسه الكريمة، ونعوته المقدسة، وأوصافه العظيمة، وهي الواجبات التي لا يمكن إلَّا وجودها، ويعلم الممتنعات حال امتناعها، ويعلم ما يترتب علىٰ وجودها لو وجدت كما قال تعالىٰ: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

[المؤمنون:٩١].

فهذا وشبهه من ذكر علمه بالممتنعات التي يعلمها، وإخباره بما ينشأ منها لو وجدت علىٰ وجه الفرض والتقدير، ويعلم تعالىٰ الممكنات، وهي التي يجوز وجودها وعدمها ما وجد منها، وما لم يوجد مما لم تقتض الحكمة إيجاده، فهو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي والسفلي، لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان، ويعلم الغيب والشهادة، والظواهر، والبواطن، والجلي، والخفي، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال:٧٥].

والنصوص في ذكر إحاطة علم الله، وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جدًّا لا يمكن حصرها، وإحصاؤها، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر، وإنه لا يغفل، ولا ينسىٰ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩]، ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه:٧].

وإن علوم الخلائق علىٰ سعتها، وتنوعها إذا نسبت إلىٰ علم الله اضمحلت، وتلاشت، كما أن قدرتهم إذا نسبت إلىٰ قدرة الله لم يكن لها نسبة إليها بوجه من الوجوه، فهو الذي علمهم ما لم يكونوا يعلمون وأقدرهم علىٰ ما لم يكونوا عليه قادرين.

وكما أن علمه محيط بجميع العالم العلوي والسفلي، وما فيه من المخلوقات ذواتها، وأوصافها، وأفعالها، وجميع أمورها.

فهو يعلم ما كان، وما يكون في المستقبلات التي لا نهاية لها، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ويعلم أحوال المكلفين منذ أنشأهم، وبعدما يميتهم، وبعدما يحييهم، قد أحاط علمه بأعمالهم كلها خيرها وشرها، وجزاء تلك الأعمال وتفاصيل ذلك في دار القرار.

فينبغي للمؤمن الناصح لنفسه أن يبذل ما استطاع من مقدوره في معرفة أسماء الله، وصفاته، وتقديسه، ويجعل هذه المسألة أهم المسائل عنده، وأولاها بالإيثار، وأحقها بالتحقيق ليفوز من الخير بأوفر نصيب.

فيتدبر مثلًا اسم العليم: فيعلم إن العلم كله بجميع وجوهه، واعتباراته لله تعالىٰ فيعلم تعالىٰ الأمور المتأخرة أزلًا وأبدًا ويعلم جليل الأمور، وحقيرها، وصغيرها، وكبيرها، ويعلم تعالىٰ ظواهر الأشياء وبواطنها، غيبها وشهادتها، ما يعلم الخلق منها وما لا يعلمون، ويعلم تعالىٰ الواجبات أو المستحيلات، والجائزات، ويعلم تعالىٰ ما تحت الأرض السفلىٰ كما يعلم ما فوق السماوات العلىٰ، ويعلم تعالىٰ جزئيات الأمور وخبايا الصدور، وخفايا ما وقع ويقع في أرجاء العالم، وأنحاء المملكة، فهو الذي أحاط علمه جميع الأشياء في كل الأوقات، ولا يعرض تعالىٰ لعلمه خفاء ولا نسيان، ويتلو علىٰ هذه الآيات المقررة له كقوله في غير موضع: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة:٢٨٢].

- ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران:١١٩].

- ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن:٤].

- ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه:٧].

- ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد:١٠].

- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران:٦].

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان:٣٤].

- ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩].

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج:٦٣].

- ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦، ٢٧].

- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ:٢].

- ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧].

- ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة:١٦].

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾

[المجادلة:٧].

- ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

وغير ذلك من النصوص الكثيرة علىٰ هذا المعنىٰ فإن تُدبر بعض ذلك يكفي المؤمن البصير معرفته بإحاطة علم الله تعالىٰ وكمال عظمته وجليل قدره إنه الرب العظيم المالك ذو الجلال والإكرام، الرؤوف، الرافع الخافض، الرب.

✍ **قلت**: وعلم الله عَزَّوَجَلَّ ليس له مثيل ولا يماثل علم العالمين من خلقه، فإن علم العالمين من خلقه علم قاصر مفتقر مكتسب يحتاج إلىٰ آلات في جمعه وتحصيله له بداية ونهاية وأسباب ومسببات، فهو علم مُحاط به يخضع لإرادة الله ومشيئته إلىٰ غير ذلك.

أما علم الله عَزَّوَجَلَّ فهو علم ذاتي أبدي أزلي لا يحيط به مخلوق ولا يعرف مداه أحدٌ من خلق الله ولا يستطيع أحدٌ إدراك كيفيته ولا تصور ذلك، فقد أحاط بكل معلوم وعنده أصل العلوم ولا يحيطون بشيء من علمه إلَّا بما شاء في الوقت الذي شاء بالقدر الذي شاء، وكل معلوم فمن علمه وكل العلوم من فضل جوده.

وعلىٰ العبد المؤمن أن يتعبد الله عَزَّوَجَلَّ بهذين الاسمين الشريفين (العليم الخبير) فيلجأ إليه عَزَّوَجَلَّ ويطلب منه أن يمن عليه بالعلم النافع وأن يفقهه في دينه وأن يحفظه من

كل ما لا ينفعه ويشغله عن الغاية التي خلق من أجلها فكم من متعلم لعلم أهلكه وكم من منشغل بطلب لا خير من ورائه وكم من تائه حيران في دروب المعرفة فأضله الله علىٰ علم ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية:٢٣].

فعلىٰ العبد أن يلجأ إلىٰ الله جل ثناؤه في طلب الهداية إلىٰ العلم النافع والعمل الصالح، ثم عليه إن وفق لذلك أن ينسب الفضل لأهله ويذكر نعمة الله عليه ولا يتكبر علىٰ عباد الله ويتواضع لمولاه، ثم لينفق مما أعطاه الله وأولاه.

ونفقة العلم تعليمه للخلق والتماس الثواب من الله عَزَّوَجَلَّ فلا يبخل ولا يقصر لعل الله أن يزيده من فضله وأن لا يحرمه بركة العلم النافع.

وأعظم العلوم علىٰ الإطلاق علوم الشريعة وأعظمها علوم العقيدة، وأعظمها علم المعرفة بالله عَزَّوَجَلَّ، ويأتي عظم العلم من عظم المعلوم، علَّمنا اللهُ وإياكم ما ينفعنا ونفعنا بما علمنا.

ثم علىٰ العبد أن يعلم بأن ربه جل ثناؤه خبير بأحوال عباده عليم بهم وبما تُخفي صدورهم فلا يُري الله من نفسه إلَّا خيرًا ويستعين بربه في كل أموره وفي تعاملاته مع الناس فيقيسهم بداية بمقياس الشرع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات:١٣].

فانظر وتأمل فمعرفة الناس مبناها علىٰ تقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فتُقرّب منك كل تقي وتُبعد عنك كل شقي وذلك في كل معاملاتك، تنجو من الوقوع في المصائب والبلايا ولا تنخدع في أحدٍ من عباد الله أبدًا ومن خدعك بالله رد الله كيده في نحره وأظهر عواره وبواره وسرعان ما فضحه عندك لأنك فوضت أمرك أليه وأرجعت حكمك لما يرضيه فلا يخزيك أبدًا.

وعلىٰ العبد أن يوقن بخبرة الله في خلقة ومعرفته بعباده فيستخير الله في كل أمره بعدما أخذ بخبرة مولاه وعلمه وشرعه في الاختيار، وهذا الأمر عظيم جليل في بابه فتأمله.

٤٧- (الرب):

✍ **قلت: ودليله:** قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾ [قريش:٣]، وورد اسم الرب في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ مائة وأربع وعشرين مرة.

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: «قد تكرر اسم (الرب) في آيات كثيرة.

والرب هو المربي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم.

وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم وبهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

وهو الذي له جميع معاني الربوبية التي يستحق أن يؤله لأجلها وهي صفات الكمال كلها - والمحامد كلها له - والفضل كله والإحسان كله، وأنه لا يشارك اللهَ أحدًا في معنىٰ من معاني الربوبية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

لا بشرًا ولا ملكًا، بل هم جميعًا عبيد مربوبون لربهم بكل أنواع الربوبية، مقهورون خاضعون لجلاله وعظمته، فلا ينبغي أن يكون أحد منهم ندًّا ولا شريكًا لله في عبادته وإلوهيته.

فبربوبيته سبحانه يربي الجميع من ملائكة وأنبياء وغيرهم خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وإحياءً وإماتةً.

وهم يشكرونه علىٰ ذلك بإخلاص العبادة كلها له وحده، فيؤلهونه ولا يتخذون من دونه وليًّا ولا شفيعًا، فالإلهية حق له سبحانه علىٰ عباده بصفة ربوبيته»

✍ **قلت**: وربوبية الله جل ثناؤه ربوبية عامة قدرية لجميع عباده من آمن به ومن لم يؤمن به، فهم جميعًا مقهورون لقدرته وعظمته وقضائه وقدره فهو يربيهم بما شاء وكيف شاء علىٰ النحو الذي شاء والله غالب علىٰ أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ثم هناك ربوبية خاصة لمن آمن به وصدق رسله فيربيهم بلطيف قدره ويربيهم بعظيم شرعه والله ذو الفضل العظيم.

ثم توحيد ربوبية الله جل ثناؤه يكون بإفراده عَزَّوَجَلَّ بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا وخاصة تلك الأسماء والصفات الخاصة بالربوبية، ككونه خالقًا لجميع الخلق ولأفعالهم وحده، رازقًا لهم وحده، مالكًا لهم وحده، مدبرًا أمرهم وحده.

لا شريك له في ربوبيته كما ينبغي إلَّا يكون له شريك في إلاهيته واستشهاد القرآن علىٰ ألوهية الله عَزَّوَجَلَّ معتمدها علىٰ شهادة الخلق علىٰ ربوبيته ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت:٦١] فهم مُقِرُّون بأنه خالق كل شيء ولا خلاف بينهم علىٰ ذلك لأنه لا يستطيع عاقل أن يدَّعي أن

هناك خالق للمخلوقات غير الله ولكن العجيب أنهم مع إقرارهم بربوبيته لا يريدون أن يخضعوا لحكمه وإلاهيته فكيف يصرفون عن عبادته، وقال تعالىٰ مستشهدًا بربوبيته علىٰ إلاهيته ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل:٦٤]، وهكذا دعوة الأنبياء والرسل قائمة علىٰ استشهادهم بربوبيته علىٰ استحقاق إلاهيته.

والربوبية خاصة بذاته عَزَّوَجَلَّ وأسمائه وصفاته وأفعاله، والألوهية خاصة بعبادته، وعلىٰ العبد أن يفرده في ربوبيته فلا يدعي لأحد سواه خلقًا ولا ملكًا ولا تدبيرًا ولا رزقًا فالله عَزَّوَجَلَّ هو الخالق لكل الخلق علىٰ الحقيقة والعباد وما يصنعون من صنعته ومن خلقه، ثم خَلْق الله للخلق من العدم، أما ما يصنع الناس فلا يمكن إلَّا أن يكون من شيء موجود أصلًا ويكون محاولة لتقليد مخلوق أو جزء من مخلوق موجود، ومُلك الله دائم كامل شامل وملك المخلوق قاصر مملوك ناقص وكذلك كل صفات ربوبيته سبحانه ليس كمثله شيء فيها جميعًا.

ثم علىٰ العبد أن يفرد الرب سبحانه وتعالىٰ بالعبادة ظاهرها وباطنها أولها وآخرها فلا يعبد أحد مع الله أبدًا ولا يتخذ ربًّا سواه دومًا، وعليه أن يدعوه باسم الرب ويوقن بأنه مدبر له أمره ومستجيب لدعوته ولا يدعو أحدًا سواه والله أعلم وأحكم.

٤٨- (الرزاق):

✍ **قلت: ودليل ذلك:** قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٨]، ولم يرد اسم الله الرزاق في القرآن إلَّا مرة واحدة.

وأما صفة الرزق فدليلها مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة:٢١٢].

✍ **قلت**: وحقيقة الرزق هو كل عطاء نحله الله لعبد من عباده هذا هو المعنىٰ العام إذا أطلق لمعنىٰ الرزق وأحيانًا يأتي بمعنًىٰ خاص يراد به المال أو الطعام أو ما إلىٰ ذلك، لكن علىٰ العموم الأرزاق أنواع لا يحصيها إلَّا الله فأرزاق الله عَزَّوَجَلَّ لعباده لا يعدها عادٌّ ولا يحصيها محصي.

❁ **وقد قسمت أنواع الأرزاق إلى عدة أقسام:**

- **أولاً: أرزاق عامة:** وهي ما أحاط الله عَزَّوَجَلَّ به الخلق من عظيم فضله وجزيل نعمه من المطاعم والمشارب والزوجات والأولاد والصحة والعافية والأموال حتىٰ الأمطار

والثمار والنسمات والذرات كلها وغيرها أرزاق قسمها الله جل ثناؤه علىٰ خلقه بالمقدار الذي أراد علىٰ النحو الذي أراد بعلمه وحكمته وفضله ورحمته ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران:٣٧].

ولعل العلم والمنطق (المنطق المقصود طلاقة اللسان وحسن البيان) من الأرزاق التي يغفل عنها الكثير من الناس وهما من أعظم الأرزاق التي أولاها الله لمن شاء من عباده. فانتبه!

- **ثانيا: أرزاق خاصة:** وهي ما اختص الله جل ثناؤه بها عباده المتقين قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ [الطلاق:٢، ٣].

وهي أرزاق ظاهرة وباطنة: فالظاهرة مثل الرزق الحلال المبارك فيه من أموال طيبة وأولاد وأزواج صالحين وعلم نافع وعبادة مُعان عليها متقبلة وكفاية لمؤنة الدنيا حتىٰ لا ينشغل قلبه إلَّا بطاعته، ومن أعظم تلك العطايا الربانية والمنح الإلاهية أن يرزق لعبد العلم الشرعي والفهم عن الله ورسوله فهذه أعلىٰ مراتب الرزق علىٰ الإطلاق وقلّ من ينتبه لهذا وما يعقلها إلَّا العالمون. فتأمل.

وأما الأرزاق الباطنة فهي أجل وأعظم ومنها محبة الله ومحبة ما يحب ومن يحب وبغض ما يبغض ومن يبغض.

ومن الأرزاق الباطنة الرضا عن الله عَزَّوَجَلَّ ومنها القناعة بالقليل إلىٰ غير ذلك مما فيه صلاح قلوب العباد، فغياث القلوب أعظم بكثير من غياث الأبدان ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].

وعلىٰ العبد أن يستعمل ما أنعم الله عليه به من رزق في التقرب إليه وفي العمل بمراضيه وأن يبذله في مساعدة الخلق وأن يشكر الرزاق علىٰ كل ما رزقه وأن يصبر علىٰ ما منعه ويعلم أن العطاء رزق كما أن المنع رزق فربما منع الله عَزَّوَجَلَّ عن عبده رزقًا يسعىٰ إليه ويبذل جهده لتحصيله ليعطيه رزقًا خيرًا منه أو لربما حجب عنه رزقًا لضُر قد يصيبه لو ساقه إليه، فمنعهُ عطاء وعطاءه سخاء وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

ثم علىٰ العبد أن يوقن بأن رزقه بيد الله وحده، فلا يلجأ لأحدٍ غيره ولا يرجو أحدًا سواه ولا يخشىٰ إلَّا مولاه ولا يُطلب ما عند الله إلَّا برضاه.

وأخيرًا علىٰ العبد أن يحسن الظن بربه وينظر إلىٰ سعة رزقه عليه ولا يحصر الرزق في مال ولا ولد وليعلم أن الله جل ثناؤه عادل في تقسيم الأرزاق علىٰ عباده ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يتأملون فلا تكونن من الغافلين.

وعلىٰ العبد أن يعلم أن البلاء رزق وربما كان من أعظم أنواع الأرزاق ويكفي أنه يقرب المؤمن لربه ويرفعه في جنته إن رزق الصبر عليه.

فتأمل هذا الباب العظيم لعل الله أن يمن علينا برضاه بعد أن نرضىٰ عن قضاه ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة:١١٩].

٤٩- (الصمد):

✍ **قلت: ودليله:** قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾

[الإخلاص: ١-٤].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الصمد: أي الرب الكامل والسيد، العظيم، الذي لم يبق صفة كمال إلَّا اتصف بها، ووصف بغايتها، وكمالها بحيث لا تحيط الخلائق ببعض تلك الصفات بقلوبهم، ولا تعبر عنها ألسنتهم وهو المصمود إليه، المقصود في جميع الحوائج والنوائب ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن:٢٩].

فهو الغني بذاته، وجميع الكائنات فقيرة إليه بذاتهم: في إيجادهم، وإعدادهم، وإمدادهم بكل ما هم محتاجون إليه من جميع الوجوه ليس لأحد منها غنىٰ مثقال ذرة، في كل حالة من أحوالها.

والصمد: هو الذي تقصده الخلائق كلها في جميع حاجاتها وأحوالها وضروراتها لما له من الكمال المطلق في ذاته وصفاته، وأسمائه وأفعاله.

والصمد المغني الجامع الذي يدخل فيه كل ما فسر به هذا الاسم الكريم، فهو الصمد الذي تصمد إليه أي: تقصده جميع المخلوقات بالذل والحاجة والافتقار.

ويفزع إليه العالم بأسره، وهو الذي قد كمل بعلمه وحكمته وحلمه، وقدرته، وعظمته ورحمته وسائر أوصافه».

قلت: فعلىٰ العبد أن يوقن بأن الله عَزَّوَجَلَّ هو وحده من يملك قضاء الحوائج علىٰ الحقيقة وأن كل عباده ترجع إليه تسأله حوائجها وبناء علىٰ ذلك وجب علىٰ العبد أن لا يلجأ إلَّا إليه فيصمد له قلبه وتصمد له جوارحه في كل صغيرة وكبيرة من أمور دنياه وأخراه.

٥٠- (القوي)، ٥١- (المتين)، ٥٢- (القدير):

قلت: ودليل اسم الله القوي: قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [هود:٦٦].

- **ودليل الصفة:** قوله تعالىٰ: ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾

[الأنفال:٥٢].

- **ودليل اسم الله المتين:** قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٨].

- **ودليل الصفة:** قوله جل ثناؤه ﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف:١٨٣].

- **ودليل اسم الله القدير:** قوله جل ثناؤه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴾ [الروم:٥٤].

- **ودليل الصفة:** قوله جل ثناؤه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة:٢٠].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: «هذه الأسماء العظيمة معانيها متقاربة فهو تعالىٰ كامل القوة عظيم القدرة شامل العزة ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ ﴾ [يونس:٦٥]. (وذلك إذا أضفنا اسم الله (العزيز) إلىٰ الثلاثة أسماء المذكورة).

فالعزيز الذي له العزة كلها عزة القوة، وعزة الغلبة وعزة الامتناع، فممتنع أن يناله أحد من المخلوقات وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته.

فمعاني العزة الثلاثة كلها كاملة لله العظيم عزة القوة الدال عليها من أسمائه القوي المتين، وهي وصفه العظيم الذي لا تنسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت، وعزة الامتناع فإنه هو الغني بذاته فلا يحتاج إلىٰ أحد، ولا يبلغ العباد ضره فيضرونه، ولا نفعه فينفعونه بل هو الضار النافع المعطي المانع، وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات فهي كلها

مقصورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلَّا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلَّا به، فمن قوته واقتداره أنه خلق السماوات، والأرض، وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان:٢٨]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾

[الروم:٢٧].

ومن آثار قدرته أنك ترى الأرض هامدة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذبين، والكفار الظالمين من أنواع العقوبات وحلول المثلات، وأنه لم يغن عنهم كيدهم، ومكرهم، ولا أموالهم، ولا جنودهم، ولا حصونهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادوهم غير تتبيب، وخصوصًا في هذه الأوقات فإن هذه القوة الهائلة، والمخترعات الباهرة التي وصلت إليها مقدرة هذه الأمم هي من أقدار الله لهم وتعليمه لهم، ما لم يكونوا يعلمونه، فمن آيات الله أن قواهم، وقدرهم ومخترعاتهم لم تغن عنهم شيئًا في صد ما أصابهم من النكبات، والعقوبات المهلكة مع بذل جهدهم واجتهادهم في توقي ذلك، ولكن أمر الله غالب، وقدرته تنقاد لها عناصر العالم العلوي، والسفلي.

ومن تمام عزته وقدرته وشمولهما أنه كما أنه هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعتهم ومعاصيهم، وهي أيضًا أفعالهم، فهي تضاف إلى الله خلقًا وتقديرًا وتضاف إليهم فعلًا ومباشرة على الحقيقة ولا منافاة بين الأمرين، فإن الله خالق قدرتهم وإرادتهم، وخالق السبب التام خالق للمسبب قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات:٩٦].

ومن آثار قدرته ما ذكره في كتابه من نصرة أوليائه على قلة عددهم وعُددهم على أعدائهم الذين فاقوهم بكثرة العدد، والعُدة، قال تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٤٩].

ومن آثار قدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النار وأهل الجنة، من أنواع العقاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع الذي لا ينقطع، ولا يتناهى».

✍ **قلت**: وينبغي علىٰ العبد أن يعلم أن قدرة الله عَزَّوَجَلَّ قدرة مطلقة لا يعرف مداها إلَّا الله ويكفينا أن نعلم أنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وأنه علىٰ كل شيء قدير فهو الذي قَدر علىٰ خلق الخلق وعلىٰ مِلكهم وعلىٰ رزقهم وعلىٰ تدبير أمورهم وعلىٰ مجازاتهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر وهو الذي قدر مقادير المخلوقات وقدر أقدار الخلق وعلم مقدار كل واحد منهم فقدر له ما يليق بحاله وقدر قضاءه في خلقه فكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ولا يقدر قدر الله إلَّا الله.

فعلىٰ العبد أن لا يقدم بين يدي مولاه لا في قدره الكوني ولا قضائه الشرعي وأن يتأمل ويتدبر تقدير الله للمقادير فيرضىٰ بقضاء ربه وقدره ويذعن لمُقدر المقادير ويجعل سؤاله له دون غير ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

٥٣- (العظيم):

✍ **قلت: ودليله:** قوله جل ثناؤه ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العظيم الجامع فجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد والبهاء الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت في الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم.

والله تعالىٰ عظيم له كل وصف ومعنىٰ يوجب التعظيم فلا يقدر مخلوق أن يثني عليه كما ينبغي له ولا يحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه وفوق ما تثني عليه عباده.

واعلم أن معاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان:

- أحدهما: أنه موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكمله، وأعظمه وأوسعه، فله العلم المحيط، والقدرة النافذة، والكبرياء، والعظمة، ومن عظمته أن السماوات والأرض في كف الرحمن أصغر من الخردلة كما قال ذلك ابن عباس وغيره، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ ﴾

[الزمر:٦٧].

* وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ [فاطر:٤١].

* وقال تعالىٰ وهو العلي العظيم: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ [الشورى:٥] الآية.

وفي الصحيح عنه ﷺ: «**إن الله يقول الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته**» فلله تعالىٰ الكبرياء والعظمة، والوصفان اللذان لا يقدر قدرهما ولا يبلغ كنههما.

- النوع الثاني من معاني عظمته تعالىٰ: أنه لا يستحق أحد من الخلق أن يعظَّم كما يعظَّم الله فيستحق جل جلاله من عباده أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته، ومحبته، والذل له، والانكسار له، والخضوع لكبريائه، والخوف منه وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته، ومن تعظيمه أن يُتقىٰ حق تقاته فيُطاع فلا يُعصىٰ، ويُذكر فلا يُنسىٰ، ويُشكر فلا يُكفر، ومن تعظيمه تعظيم ما حرَّمه وشرعه من زمان ومكان وأعمال ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [الحج:٣٢]، و﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الحج:٣٠]، ومن تعظيمه أن لا يعترض علىٰ شيء مما خلقه أو شرعه.

✍ **قلت**: وعظمة الله ليس كمثلها شيء ولا ينبغي لعاقل أن ينسب عظمة المخلوق لعظمة الله ولا أن يعظم شيئًا مثل تعظيمه لمولاه، ثم عليه أن يعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ عظَّم بعض مفعولاته في كتابه العزيز فعظم عذابه بمن كفر به وعداه ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠﴾ [الجاثية:١٠].

- وعظم جزاءه لعباده الصالحين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣﴾

[الحجرات:٣].

- وعظم عذاب يوم القيامة ﴿۞وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١﴾ [الأحقاف:٢١].

- كما عظم بعض مخلوقاته، كما مدح خلق نبيه ﷺ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم:٤] وهكذا.

والعظمة إذا نُسبت لله كانت علىٰ النحو الذي يليق بذاته (لها غاية الكمال والجلال وليس كمثله شيء فيها) وإذا نسبت للمخلوق كانت علىٰ النحو الذي يليق به من نقص وعجز وافتقار.

ثم علىٰ العبد أن يخضع لربه العلي العظيم ولا يخشىٰ أحدًا سواه وأن يسأله بعظمته أن يحفظه من شر خلقه وأن يُعظِم خلقه، وعليه كلما رأىٰ خلقًا عظيمًا في نظره أن يتذكر عِظَم من خلقه.

٥٤- (الغفور)، ٥٥- (الغفار):

✍ **قلت: ودليله:** قوله جل ثناؤه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧ ﴾ [يونس:١٠٧]، وقد ورد اسم الله الغفور في القرآن الكريم إحدىٰ عشرة مرة.

أما صفة المغفرة فجاءت اثنتين وخمسين مرة مثل قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٢ ﴾ [البقرة:١٩٢] ويلاحظ أن اسم الغفور وصفة المغفرة يأتيان متلازمان في الغالب مع اسم الرحيم وصفة الرحمة.

أما اسم الله الغفار فدليله: كما في قوله تعالىٰ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٦٦ ﴾ [ص:٦٦]، وقد جاء الاسم الكريم ثلاث مرات ملازمًا لاسم (العزيز).

✍ **قلت**: والله جل وعلا ليس كمثله شيء في مغفرته لعباده فمن رحمته جل ثناؤه أن ستر عليهم ذنوبهم ثم لما تابوا ورجعوا إليه غفرها لهم ولم يحصها عليهم ولربما غفر لهم بعض الذنوب التي لم يتوبوا منها فضلًا وتكرمًا عليهم كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [النساء:٤٨] فعُلم من هذا أن العبد إذا مات علىٰ الإسلام وعلىٰ توحيد الله جل ثناؤه ومات علىٰ كبيرة أو صغيرة فهو في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له وذلك تبعًا لعلمه وحكمته وعظيم رحمته، ثم إن الله يغفر للعبد مادامت روحه في جسده ما لم يغرغر ما لم تطلع الشمس من مغربها ما لم يحل عليهم عذاب عام فإن مات العبد علىٰ كفر أو شرك أو نفاق أكبر فلا يغفر له أبدًا وهو - عياذًا بالله - خالدًا مخلدًا في جهنم، ثم زاد كرمه علىٰ عباده وفاض بأن وعد من تاب وأصلح بعد

المغفرة بالرحمة والعفو ثم تبديل السيئات حسنات فانظر إلىٰ آثار رحمة الله وأفضاله علىٰ عباه المؤمنين ذلك هو الغفور الرحيم.

وعلىٰ العبد أن يعفو ويغفر لإخوانه كما أنه يحب أن يغفر الله له وعليه أن يتوب ويرجع للغفور الرحيم لعل الله أن يتجاوز عنه ويغفر له ويرحمه وعليه أن يتدبر في سعة فضل الله بحلمه علىٰ عباده وتجاوزه عن زلاتهم وستره لهم علىٰ مخالفتهم له وقبوله لتوبتهم ومغفرته لهم علىٰ عظم ذنوبهم ففي تأمله هذا قرب من الله وعدم قنوته من رحمته ولجوئه إليه ومحبته له ويتيقن أنه لا غافر للذنوب إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ فلا شيخ ولا كاهن ولا قس ولا راهب ولا نبي ولا رسول وإنما العزيز الغفور قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٥].

أما الغفار فهو اسم يدل علىٰ سعة مغفرة الله عَزَّوَجَلَّ وأنه مازال غفارًا لعباده لأن العباد ما زالوا يخطؤون ويتوبون فمهما أخطأ العبد ثم تاب ثم عاود الخطأ ثم تاب فإن الله يغفر له ويعفو عنه.

وهنا نكتة لابد من ذكرها إلَّا وهي بأنه ينبغي علىٰ العبد إذا تاب أن يتوب توبة نصوحة صادقة وأن يعقد العزم علىٰ عدم العودة وأن يندم ويخلص لله في ذلك ويرد الحقوق إلىٰ أصحابها فإن فعل ذلك غفر الله له بفضله وكرمه لكن إن تاب توبة صورية غير صادقة لنازلة ألمت به أو لامتناع أسباب المعصية أو غير ذلك ولكن لم يندم ولم يعقد العزم علىٰ عدم العود فتلك توبة تحتاج إلىٰ توبة، واستغفار يحتاج إلىٰ استغفار. فانتبه.

ثم علىٰ العبد أن يكثر الاستغفار والإنابة إلىٰ الله فإن في ذلك مفاتيح كل خير ودرء كل شر ويكفي من ذلك قوله جل ثناؤه ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح:١٠-١٢].

✍ قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «العفو الغفور الغفار: الذي لم يزل، ولا يزال بالعفو معروفًا، وبالغفران، والصفح عن عباده موصوفًا.

كل أحد مضطر إلىٰ عفوه، ومغفرته كما هو مضطر إلىٰ رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة، والعفو لمن أتىٰ بأسبابها قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه:٨٢].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الغفور الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب علىٰ كل من يتوب ففي الحديث: «**إن الله يقول يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة**».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم:٣٢].

وقد فتح الله الأسباب لنيل مغفرته بالتوبة، والاستغفار، والإيمان، والعمل الصالح، والإحسان إلىٰ عباد الله، والعفو عنهم، وقوة الطمع في فضل الله، وحسن الظن بالله، وغير ذلك مما جعله الله مقربًا لمغفرته».

✍ **قلت:** وهنا نكتة لابد من إيضاحها إلَّا وهي الفرق بين العفو والمغفرة، فاعلم أيها الأخ اللبيب أن العفو هو التجاوز عن العقوبة عند المقدرة، أما المغفرة فهي ستر الذنوب علىٰ العبد وهي من الغفر الذي هو الستر ومنه المِغْفَرُ الذي يستر وجه الفارس عند المعارك.

والله تعالىٰ إذا غفر لعبده ستر ذنوبه عن خلقه ولم يجعلها حائلًا يحول بين وصوله إليه فإن غفر له تمت نعمته عليه بأن يعفو عنه فلا يعاقبه بذنوبه، لذلك العفو أعظم من المغفرة من هذه الجهة.

ولذلك أوصىٰ نبينا ﷺ زوجه وحِبه العالمة الفقيهة الذكية الزاكية التقية أم المؤمنين عائشة بأن تدعو في خير الليالي بخير الدعاء إلَّا وهو «**اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني**» فأوصىٰ خير الخلق خير النساء بخير الدعاء في خير الليالي. فتأمل لعل الله أن يعفو عنا وعنك.

٥٦- (الغني):

✍ **قلت: ودليله:** قوله جل ثناؤه ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [لقمان:٢٦].

وقد ورد اسم الله الغني ثمان مرات في كتاب الله جل وعلا، ومعظم ذلك يذكر الاسم الكريم ملازمًا له اسم الحميد.

أما دليل الصفة: فقوله تعالىٰ: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ [النور:٣٣].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

فهو الغني بذاته، الذي له الغنىٰ التام المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات لكماله وكمال صفاته.

فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلَّا غنيًّا، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلَّا خالقًا قادرًا رازقًا محسنًا فلا يحتاج إلىٰ أحد بوجه من الوجوه.

فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة المغني جميع خلقه غنًىٰ عامًّا، والمغني لخواص خلقه مما أفاض علىٰ قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية.

ومن كمال غناه وكرمه أنه يأمر عباده بدعائه، ويعدهم بإجابة دعواتهم، وإسعافهم بجميع مراداتهم، ويؤتيهم من فضله ما سألوه، وما لم يسألوه، ومن كمال غناه أنه لو اجتمع أول الخلق وآخرهم في صعيد واحد فسألوه، فأعطىٰ كلًّا منهم ما سأله وما بلغت أمانيه ما نقص من ملكه مثقال ذرة، ومن كمال غناه، وسعة عطاياه ما يبسطه علىٰ أهل دار كرامته من النعيم، واللذات المتتابعات، والخيرات المتواصلات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر.

ومن كمال غناه أنه لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا ولا شريكًا في الملك، ولا وليًّا من الذل، وهو الغني الذي كمل بنعوته، وأوصافه، المغني لجميع مخلوقاته.

قلت: وغنىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ليس كمثله شيء ولا يشابهه أحد من خلقه فكل غني في خلقه هو الذي أغناه ولكن ليس مثل غناه فلا أحد من الخلق غني من كل جهة فهذا محال في المخلوقات وإنما غناه من جهة دون الجهات الأخرىٰ فمثلًا ربما أغنىٰ الله أحدًا من عباده من المال فهل أغناه ذلك المال عن احتياجه لله أبدًا فهل أغناه ذلك المال عن العافية أبدًا بل هل أغناه ذلك المال عن احتياجه للخلق علىٰ العكس تماما بل ربما زادت حاجته لمن يقوم علىٰ خدمته وحراسة ماله، فانظر إلىٰ الفرق الواسع والبون الشاسع بين غنىٰ الخالق جل وعلا وغنىٰ المخلوق فالله عَزَّوَجَلَّ غني من كل جهة ولا يحتاج أبدًا لأحد من خلقه ولكنه الغني بذاته المغني لمن سواه.

فعلىٰ العبد أن ينيخ مطاياه بباب الملك الغني الحميد وأن يطلب منه أن يغنيه عن سؤال غيره وأن لا يجعل ملجأه إلَّا إليه ولا حاجته إلَّا عنده ويتوكل علىٰ مولاه حق توكله

فمن توكل عليه كفاه ومن سأله أعطاه ومن تمسك به هداه ومن خاف منه أرضاه ومن أطاع أمره تولاه ومن كل خيرٍ أولاه.

٥٧- (الفتاح):

✍ **قلت: ودليله:** قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ:٢٦].

ودليل الصفة قوله تعالىٰ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر:٢].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الفتاح: الذي يحكم بين عباده، بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدرية، وأحكام الجزاء، الذي فتح بلطفه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفته، ومحبته، والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب التي ينالون بها خير الدنيا والآخرة.

وفتحه تعالىٰ قسمان:

- أحدهما: فتحه بحكمه الديني، وحكمه الجزائي.
- والثاني: الفتاح بحكمه القدري.

ففتحه بحكمه الديني هو شرعه علىٰ ألسنة رسله جميع ما يحتاجه المكلفون، ويستقيمون به علىٰ الصراط المستقيم، وأما فتحه بجزائه فهو فتحه بين أنبيائه ومخالفيهم وبين أوليائه وأعدائه بإكرام الأنبياء وأتباعهم ونجاتهم، وبإهانة أعدائهم وعقوباتهم، وكذلك فتحه يوم القيامة، وحكمه بين الخلائق حين يوفىٰ كل عامل ما عمله.

وأما فتحه القدري فهو ما يقدره علىٰ عباده من خير وشر، ونفع وضر، وعطاء ومنع، قال تعالىٰ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر:٢].

فالرب تعالىٰ هو الفتاح العليم الذي يفتح لعباده الطائعين خزائن جوده وكرمه، ويفتح علىٰ أعدائه ضد ذلك، وذلك بفضله وعدله.

✍ **قلت**: وعلىٰ العبد أن يوقن بأن كل فتح علىٰ الناس من خير أو شر من نفع أو ضر فمن الله وحده وعلق الله عَزَّوَجَلَّ قلوب عباده به، فكل رحمة يرجوها العباد ففتحها من عند الله ومفاتحها بيده فهو وحده عَزَّوَجَلَّ من يملك خزائن السماوات والأرض قال تعالىٰ:

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:٢١]، فكل شيء مطلوب وكل شيء مرهوب فعند الله جل ثناؤه خزائنه فخزائن العلم عنده وخزائن الفهم عنده وخزائن المال عنده وخزائن المواهب عنده وخزائن البلايا عنده وخزائن المنايا عنده.

وخلاصة الأمر أن كل شيء له خزائن وكل خزائن لها مقاليد (مفاتيح) ولا يملك تلك الخزائن ويملك مفاتيحها ولا يقدر علىٰ فتحها إلَّا الفتاح العليم القدير الحكيم القاهر فوق عباده سبحانه وتعالىٰ علوًّا كبيرًا، فكل مرغوب فيه لا يطلب إلَّا منه وكل مرهوب منه لا يستعاذ إلَّا به فهو الوحيد القادر علىٰ جلب كل مصلحة للعبد ودرء كل مفسده فلا يُفزع إلَّا إليه ولا يطلب إلَّا منه ولا يتوكل إلَّا عليه.

٥٨- (القهار):

✍ **قلت: ودليله:** قال جل ثناؤه: ﴿ ... قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرعد:١٦] ورد هذا الاسم الكريم في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ست مرات.

أما صفة القهر فمثل قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٨].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «القهار: لجميع العالم العلوي، والسفلي، القهار لكل شيء الذي خضعت له المخلوقات وذلك لعزته وقوته، وكمال اقتداره.

وهو الذي قهر جميع الكائنات، وذلت له جميع المخلوقات أو دانت لقدرته، ومشيئته مواد وعناصر العالم العلوي والسفلي، فلا يحدث حادث، ولا يسكن ساكن إلَّا بإذنه، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وجميع الخلق فقراء إلىٰ الله عاجزون لا يملكون لأنفسهم نفعًا، ولا ضرًّا، ولا خيرًا، ولا شرًّا ثم إن قهره مستلزم لحياته وعزته وقدرته، فلا يتم قهره للخليقة إلَّا بإتمام حياته، وقوة عزته، واقتداره».

✍ **قلت:** والقهر هو الإخضاع والاقتدار ولما كان الله عَزَّوَجَلَّ هو الخالق لكل المخلوقات فمن البديهيات أن يكون قاهرًا عليهم لا يخرج أحدٌ أبدًا من سلطان قهره وجبروت عظمته لأن الخالق للقوة الواجد لها المدبر أمرها لابد عقلًا أن يكون أقوىٰ من كل قوي، وقوة الله عَزَّوَجَلَّ لا تحدها حدود ولا تلزمها قيود فسبحان الواحد المعبود، وقهره عَزَّوَجَلَّ لا يكون إلَّا بحلم وخبرة وعلم فالكل مقهورون له مربوبون لا يعجزه أحدٌ من خلقه ومن قهره لعباده أنه قهر السماوات والأرض ومن فيهن ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:١١] وقال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران:٨٣].

فكل الخلق أسلمت لحكمه وخضعت لأمره ولا يمكن أن يكون غير ذلك فهو ربهم وخالقهم ومدبر أمرهم ومالكهم وخضوع السماوات والأرض لله عَزَّوَجَلَّ خضوع محبة ورهبة وإجلال وإلا ما قالتا أتينا طائعين ومن ذا الذي يعرف عظمة ربه ولا يأتيه طائعًا مريدًا راغبًا محبًّا، ثم إن قهره عَزَّوَجَلَّ شامل لجميع مخلوقاته ولكل خلقه طائعهم وعاصيهم حتىٰ الكافر الملحد يقع تحت سلطان قهره عَزَّوَجَلَّ ألم تر أن جسد الكافر خاضعٌ مطيعٌ لخالقه، فإذا أراد أن يمرضه أمرضه، وإذا أراد أن يعجزه أعجزه، وإذا أراد أن يحييه أحياه، وإذا أراد أن يميته أماته، ولا يعصمه أحدٌ من ربه أبدًا.

* وقهره عَزَّوَجَلَّ يكون علىٰ قسمين:

١ - أولًا قهر شرعي وهو الخضوع لحكمه الشرعي والإذعان له محبة واختيارًا فلا ينبغي للعبد أن يكون له من أمر نفسه شيء كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦]، فعلىٰ المؤمن أن يقهر نفسه ويخضعها لأمر مولاه ولا يتصرف في شأن من شؤونها إلَّا بما يرضي سيده وخالقه عَزَّوَجَلَّ.

٢- ثانيًا قهر كوني تكويني قدري وهذا النوع يكون إجباريًّا لا خيار للعباد فيه وهو الحكم القدري وهو واقع لا محالة كالموت والحياة والفقر والغنىٰ والمرض والعافية والزلازل والكوارث التي تقع ولا دخل لأحد فيها إنما محض مشيئة الله وقدرته وهذه الأمور القدرية علىٰ العبد المؤمن أن يخضع لها بحسن الظن بمولاه ويقينه أنها تجري بحكمته ورحمته وعدله وقدرته فيذعن له بالرضا والتسليم وسؤال الحكيم العليم أن يرفع عنه كل بلاء وينجيه من درك الشقاء وعقوبات الأشقياء وعلىٰ العبد أن يتذكر دائمًا ويوقن أبدًا أن ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن وأنه لا يكون في ملكه إلَّا ما أراد فلا يُخضع رقبته إلَّا له ولا يطلب كشف الضر من أحدٍ سواه ويذكر دائمًا أن مولاه قاهر فوقه وفوق كل عباده فلا يلتفت لأحدٍ سوىٰ الله.

٥٩- (اللطيف):

قلت: ودليله: قوله جل ثناؤه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

وورد اسم (اللطيف) جل ثناؤه مرتين في كتاب الله العزيز.

وأما صفة لطفه جل ثناؤه فكقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان:١٦].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «ومن أسمائه الحسنىٰ «اللطيف»: الذي لطف علمه حتىٰ أدرك الخفايا، والخبايا، وما احتوت عليه الصدور، وما في الأراضي من خفايا البذور ولطف بأوليائه وأصفيائه، فيسرهم لليسرىٰ وجنبهم العسرىٰ، وسهل لهم كل طريق يوصل إلىٰ مرضاته وكرامته وحفظهم من كل سبب ووسيلة توصل إلىٰ سخطه، من طرق يشعرون بها، ومن طرق لا يشعرون بها، وقدر عليهم أمورًا يكرهونها لينيلهم ما يحبون، فلطف بهم في أنفسهم فأجراهم علىٰ عوائده الجميلة، وصنائعه الكريمة، ولطف لهم في أمور خارجة عنهم لهم فيها كل خير وصلاح ونجاح، فاللطيف متقارب لمعاني الخبير، الرؤوف، الكريم.

ومن لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يتم عليه إحسانه، ويشمله بكرمه ويرقيه إلىٰ المنازل العالية فييسره لليسرىٰ، ويجنبه العسرىٰ، ويجري عليه من أصناف المحن التي يكرهها وتشق عليه وهي عين صلاحه، والطريق إلىٰ سعادته، كما امتحن الأنبياء بأذىٰ قومهم وبالجهاد في سبيله.

وكما ذكر الله عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وكيف ترقت به الأحوال ولطف الله به وله بما قدره عليه من تلك الأحوال التي حصلت له في عاقبتها حسن العقبىٰ في الدنيا والآخرة.

وكم يمتحن أولياءه بما يكرهونه لينيلهم ما يحبون، وكم لله من لطف، وكرم لا تدركه الأفهام ولا تتصوره الأوهام، وكم استشرف العبد علىٰ مطلوب من مطالب الدنيا من ولاية ورياسة أو سبب من الأسباب المحبوبة فيصرفه الله عنها ويصرفها عنه رحمة به لئلا تضره في دينه، فيظل العبد حزينا من جهله وعدم معرفته بربه، ولو علم ما ادخر له في الغيب وأريد إصلاحه لحمد الله وشكره علىٰ ذلك، فإن الله بعباده رؤوف رحيم، لطيف بأوليائه.

وفي الدعاء المأثور: «اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغًا لي فيما تحب» اللهم الطف بنا في قضائك وبارك لنا في قدرتك حتىٰ لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت».

واعلم أن اللطف الذي يطلبه العباد من الله بلسان المقال ولسان الحال هو من الرحمة بل هو رحمة خاصة فالرحمة التي تصل العبد من حيث لا يشعر بها أو لا يشعر بأسبابها هي اللطف فإذا قال العبد: يا لطيف الطف بي أو لي وأسألك لطفك فمعناه تولني ولاية خاصة بها تصلح أحوالي الظاهرة والباطنة، وبها تندفع عني جميع المكروهات من الأمور الداخلية والأمور الخارجية.

فالأمور الداخلية لطف بالعبد. والأمور الخارجية لطف للعبد فإذا يسر الله عبده وسهل طريق الخير وأعانه عليه فقد لطف به وإذا قيض الله له أسبابًا خارجية غير داخلة تحت قدرة العبد فيها صلاحه فقد لطف له ولهذا لما تنقلت بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تلك الأحوال، وتطورت به الأطوار من رؤياه، وحسد إخوته له، وسعيهم في إبعاده جدا، واختصامهم بأبيهم ثم محنته بالنسوة ثم بالسجن ثم بالخروج منه بسبب رؤيا الملك العظيمة، وانفراده بتعبيرها، وتبوءه من الأرض حيث يشاء، وحصول ما حصل علىٰ أبيه من الابتلاء والامتحان، ثم حصل بعد ذلك الاجتماع السار وإزالة الأكدار وصلاح حالة الجميع والاجتباء العظيم ليوسف عرف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن هذه الأشياء وغيرها لطف الله لهم به فاعترف بهذه النعمة فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠] أي: لطفه تعالىٰ خاص لمن يشاء من عباده ممن يعلمه تعالىٰ محلًّا لذلك وأهلًا له فلا يضعه إلَّا في محله. الله أعلم حيث يضع فضله فإذا رأيت الله تعالىٰ قد يسر العبد لليسرىٰ، وسهل له طريق الخير، وذلل له صعابه، وفتح له أبوابه، ونهج له طرقه، ومهد له أسبابه، وجنبه العسرىٰ فقد لطف به.

- ومن لطفه بعباده المؤمنين أنه يتولاهم بلطفه فيخرجهم من الظلمات إلىٰ النور من ظلمات الجهل، والكفر، والبدع، والمعاصي إلىٰ نور العلم والإيمان والطاعة، ومن لطفه أنه يرحمهم من طاعة أنفسهم الأمارة بالسوء التي هذا طبعها وديدنها فيوفقهم لنهي النفس عن الهوىٰ ويصرف عنهم السوء والفحشاء فتوجد أسباب الفتنة، وجواذب المعاصي وشهوات الغي فيرسل الله عليها برهان لطفه ونور إيمانهم الذي منَّ به عليهم فيدعونها مطمئنين لذلك منشرحة لتركها صدورهم.

- ومن لطفه بعباده أنه يقدر أرزاقهم بحسب علمه بمصلحتهم لا بحسب مراداتهم فقد يريدون شيئًا وغيره أصلح فيقدر لهم الأصلح وإن كرهوه لطفًا بهم، وبرًا، وإحسانًا ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورى:١٩]، ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [الشورى:٢٧].

- ومن لطفه بهم أنه يقدر عليهم أنواع المصائب، وضروب المحن، والابتلاء بالأمر والنهي الشاق رحمة بهم، ولطفًا، وسوقا إلىٰ كمالهم، وكمال نعيمهم ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

- ومن لطيف لطفه بعبده إذ أهله للمراتب العالية، والمنازل السامية التي لا تدرك بالأسباب العظام التي لا يدركها إلَّا أرباب الهمم العالية، والعزائم السامية أن يقدر له في ابتداء أمره بعض الأسباب المحتملة المناسبة للأسباب التي أهل لها ليتدرج من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ ولتتمرن نفسه ويصير له ملكة من جنس ذلك الأمر وهذا كما قدر لموسىٰ ومحمد وغيرهما من الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - في ابتداء أمرهم رعاية الغنم ليتدرجوا من رعاية الحيوان البهيم وإصلاحه إلىٰ رعاية بني آدم ودعوتهم وإصلاحهم.

- وكذلك يذيق عبده حلاوة بعض الطاعات فينجذب ويرغب ويصير له ملكة قوية بعد ذلك علىٰ طاعات أجل منها وأعلىٰ ولم تكن تحصل بتلك الإرادة السابقة حتىٰ وصل إلىٰ هذه الإرادة والرغبة التامة.

- ومن لطفه بعبده أن يقدر له أن يتربىٰ في ولاية أهل الصلاح، والعلم، والإيمان وبين أهل الخير ليكتسب من أدبهم، وتأديبهم ولينشأ علىٰ صلاحهم وإصلاحهم كما امتن الله علىٰ مريم في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا﴾

[آل عمران: ٣٧].

إلىٰ آخر قصتها ومن ذلك إذا نشأ بين أبوين صالحين وأقارب أتقياء أو في بلد صلاح أو وفقه الله لمقارنة أهل الخير وصحبتهم أو لتربية العلماء الربانيين فإن هذا من أعظم لطفه

بعبده فإن صلاح العبد موقوف علىٰ أسباب كثيرة منها بل من أكثرها وأعظمها نفعًا هذه الحالة.

ومن ذلك إذا نشأ العبد في بلد أهله علىٰ مذهب أهل السنة والجماعة فإن هذا لطف له وكذلك إذا قدر الله أن يكون مشايخه الذين يستفيد منهم الأحياء منهم والأموات أهل سنة وتُقىٰ فإن هذا من اللطف الرباني.

ولا يخفىٰ لطف الباري في وجود شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أثناء قرون هذه الأمة وتبيين الله به وبتلامذته من الخير الكثير والعلم الغزير وجهاد أهل البدع والتعطيل والكفر ثم انتشار كتبه في هذه الأوقات فلا شك أن هذا من لطف الله لمن انتفع بها وأنه يتوقف خير كثير علىٰ وجودها فلله الحمد والمنة والفضل.

- ومن لطف الله بعبده أن يجعل رزقه حلالًا في راحة وقناعة يحصل به المقصود ولا يشغله عما خلق له من العبادة والعلم والعمل بل يعينه علىٰ ذلك ويفرغه ويريح خاطره وأعضاءه ولهذا من لطف الله تعالىٰ لعبده أنه ربما طمحت نفسه لسبب من الأسباب الدنيوية التي يظن فيها إدراك بغيته فيعلم الله تعالىٰ أنها تضره وتصده عما ينفعه فيحول بينه وبينها فيظل العبد كارهًا ولم يدر أن ربه قد لطف به حيث أبقىٰ له الأمر النافع وصرف عنه الأمر الضار ولهذا كان الرضا بالقضاء في مثل هذه الأشياء من أعلىٰ المنازل.

- ومن لطف الله بعبده إذا قدر له طاعة جليلة لا تنال إلَّا بأعوان أن يقدر له أعوانًا عليها ومساعدين علىٰ حملها قال موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [طه:٢٩-٣٤].

وكذلك امتن علىٰ عيسىٰ بقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة:١١١].

وامتن علىٰ سيد الخلق في قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال:٦٢]، وهذا لطف لعبده خارج عن قدرته ومن هذا لطف الله بالهادين إذا قيض الله من يهتدي بهداهم ويقبل إرشادهم فتتضاعف بذلك الخيرات والأجور التي لا يدركها العبد بمجرد فعله بل هي مشروطة بأمر خارجي.

- ومن لطف الله بعبده أن يعطي عبده من الأولاد، والأموال، والأزواج ما به تقر عينه في الدنيا، ويحصل له السرور، ثم يبتليه ببعض ذلك ويأخذه، ويعوضه عليه الأجر العظيم

إذا صبر واحتسب فنعمة الله عليه بأخذه علىٰ هذا الوجه أعظم من نعمته عليه في وجوده وقضاء مجرد وطره الدنيوي منه وهذا أيضًا خير وأجر خارج عن أحوال العبد بنفسه بل هو لطف من الله له قيض له أسبابًا أعاضه عليها الثواب الجزيل والأجر الجميل.

- ومن لطف الله بعبده أن يبتليه ببعض المصائب فيوفقه للقيام بوظيفة الصبر فيها فينيله درجات عالية لا يدركها بعمله وقد يشدد عليه الابتلاء بذلك كما فعل بأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ويوجد في قلبه حلاوة روح الرجاء وتأميل الرحمة وكشف الضر فيخف ألمه وتنشط نفسه.

- ولهذا من لطف الله بالمؤمنين أن جعل في قلوبهم احتساب الأجر فخففت مصائبهم وهان ما يلقون من المشاق في حصول مرضاته.

- ومن لطف الله بعبده المؤمن الضعيف أن يعافيه من أسباب الابتلاء التي تضعف إيمانه وتنقص إيقانه.

- كما أن من لطفه بالمؤمن القوي تهيئة أسباب الابتلاء والامتحان ويعينه عليها ويحملها عنه ويزداد بذلك إيمانه ويعظم أجره فسبحان اللطيف في ابتلائه وعافيته وعطائه ومنعه.

- ومن لطف الله بعبده أن يسعىٰ لكمال نفسه مع أقرب طريق يوصله إلىٰ ذلك مع وجود غيرها من الطرق التي تبعد عليه فييسر عليه التعلم من كتاب أو معلم يكون حصول المقصود به أقرب وأسهل وكذلك ييسره لعبادة يفعلها بحالة اليسر والسهولة وعدم التعويق عن غيرها مما ينفعه فهذا من اللطف.

- ومن لطف الله بعبده قدر الواردات الكثيرة والأشغال المتنوعة والتدبيرات والمتعلقات الداخلة والخارجة التي لو قسمت علىٰ أمة من الناس لعجزت قواهم عليها أن يمن عليه بخلق واسع وصدر متسع وقلب منشرح بحيث يعطي كل فرد من أفرادها نظرًا ثاقبًا وتدبيرًا تامًا وهو غير مكترث ولا منزعج لكثرتها وتفاوتها بل قد أعانه الله تعالىٰ عليها ولطف به فيها ولطف له في تسهيل أسبابها وطرقها وإذا أردت أن تعرف هذا الأمر فانظر إلىٰ حالة المصطفىٰ ﷺ الذي بعثه الله بصلاح الدارين وحصول السعادتين وبعثه مكملًا لنفسه ومكملًا لأمة عظيمة هي خير الأمم ومع هذا مكنه الله ببعض عمره الشريف في نحو ثلث عمره أن يقوم بأمر الله كله علىٰ كثرته وتنوعه وأن يقيم لأمته جميع دينهم ويعلمهم

جميع أصوله وفروعه ويخرج الله به أمة كبيرة من الظلمات إلىٰ النور ويحصل به من المصالح والمنافع والخير والسعادة للخاص والعام ما لا تقوم به أمة من الخلق.

- ومن لطف الله تعالىٰ بعبده أن يجعل ما يبتليه به من المعاصي سببًا لرحمته فيفتح له عند وقوع ذلك باب التوبة والتضرع والابتهال إلىٰ ربه وازدراء نفسه واحتقارها وزوال العجب والكبر من قلبه ما هو خير له من كثير من الطاعات.

- ومن لطفه بعبده الحبيب عنده إذا مالت نفسه مع شهوات النفس الضارة واسترسلت في ذلك أن ينغصها عليه ويكدرها فلا يكاد يتناول منها شيئًا إلَّا مقرونا بالمكدرات محشوًا بالغصص لئلا يميل معها كل الميل، كما أن من لطفه به أن يلذذ له التقربات ويحلي له الطاعات ليميل إليها كل الميل.

- ومن لطيف لطف الله بعبده أن يأجره علىٰ أعمال لم يعملها بل عزم عليها فيعزم علىٰ قربة من القرب ثم تنحل عزيمته لسبب من الأسباب فلا يفعلها فيحصل له أجرها فانظر كيف لطف الله به فأوقعها في قلبه وأدارها في ضميره وقد علم تعالىٰ أنه لا يفعلها سوقا لبره لعبده وإحسانه بكل طريق.

- وألطف من ذلك أن يقيض لعبده طاعة أخرىٰ غير التي عزم عليها هي أنفع له منها فيدع العبد الطاعة التي ترضي ربه لطاعة أخرىٰ هي أرضىٰ لله منها فتحصل له المفعولة بالفعل والمعزوم عليها بالنية وإذا كان من يهاجر إلىٰ الله ورسوله ثم يدركه الموت قبل حصول مقصوده قد وقع أجره علىٰ الله مع أن قطع الموت بغير اختياره فكيف بمن قطعت عليه نيته الفاضلة طاعة قد عزم علىٰ فعلها وربما أراد الله في ضمير عبده عدة طاعات كل طاعة لو انفردت لفعلها العبد لكمال رغبته ولا يمكن فعل شيء منها إلَّا بتفويت الأخرىٰ فيوفقه للموازنة بينها وإيثار أفضلها فعلًا مع رجاء حصولها جميعها عزمًا ونية.

- وألطف من هذا أن يقدر تعالىٰ لعبده ويبتليه بوجود أسباب المعصية ويوفر له دواعيها وهو تعالىٰ يعلم أنه لا يفعلها ليكون تركه لتلك المعصية التي توفرت أسباب فعلها من أكبر الطاعات. كما لطف بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في مراودة المرأة.

وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلَّا ظله رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين.

- ومن لطف الله بعبده أن يقدر خيرًا وإحسانًا من عبده ويجريه علىٰ يد عبده الآخر ويجعله طريقًا إلىٰ وصوله إلىٰ المستحق فيثيب الله الأول والآخر.

- ومن لطف الله بعبده أن يجري بشيء من ماله شيئًا من النفع وخيرًا لغيره فيثيبه من حيث لا يحتسب فمن غرس غرسًا أو زرع زرعًا فأصابت منه روح من الأرواح المحترمة شيئًا آجر الله صاحبه وهو لا يدري خصوصًا إذا كانت عنده نية حسنة وعقد مع ربه عقدًا في أنه مهما ترتب علىٰ ماله شيء من النفع فأسألك يا رب أن تأجرني وتجعله قربة لي عندك، وكذلك لو كان له بهائم انتفع بدرها وركوبها والحمل عليها، أو مساكن انتفع بسكناها ولو شيئًا قليلًا، أو ماعون ونحوه انتفع به، أو عين شرب منها، وغير ذلك ككتاب انتفع به في تعلم شيء منه، أو مصحف قرئ فيه، والله ذو الفضل العظيم.

- ومن لطف الله بعبده أن يفتح له بابًا من أبواب الخير لم يكن له علىٰ بال، وليس ذلك لقلة رغبته فيه وإنما هو غفلة منه وذهول عن ذلك الطريق فلم يشعر إلَّا وقد وجد في قلبه الداعي إليه والملفت إليه ففرح بذلك وعرف أنها من ألطاف سيده وطرقه التي قيض وصولها إليه فصرف لها ضميره ووجه إليها فكره وأدرك منها ما شاء الله».

✍ **قلت**: ولطف الله عَزَّوَجَلَّ يشمل حكمته القدرية وحكمه القضائي وحكمه الشرعي فهو لطيف في قدره بعلمه بدقائق الأمور التي تكون في خلقه والتي تنبغي لخلقه، وهو لطيف في حكمه عليهم بحكمه في دقائق الأمور كما يحكم عليهم في عظائم الأمور وعلمه بأحوال العبيد وما في الصدور كعلمه بظواهرها ثم لطفه بما حكم عليهم بقضائه وما أجراه بقدره من إمهال وإعذار وتخفيف، ثم لطف الله عَزَّوَجَلَّ ظاهر واضح في حكمه الشرعي فكل شريعة الله لطف ورحمة بتشريعه لدقائق الأمور كما تشريعه لعظائمها ولطفه بالمكلفين فلا يكلفهم إلَّا ما يسعهم فعله فإن وجد عذر خفف عليهم تخفيف بعد تخفيف فسبحان اللطيف الخبير العليم البصير.

* وخلاصة المسألة أن لطف الله عَزَّوَجَلَّ لطف علم ولطف حكم، فلطف علمه كما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ [لقمان:١٦]، ولطف حكمه القدري كقوله ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحج:٦٣]، ولطفه في حكمه الشرعي كقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾ [الحج:٧٨]، فجمع الله عَزَّوَجَلَّ كل مجامع اللطف والعلم والرحمة فليس كمثله شيء في لطفه ولا نظير له في علمه فسبحان اللطيف العليم الخبير.

فعلىٰ العبد أن يلطف بعباد الله ويرحمهم ويرأف بهم متخلقًا بهذا الخلق العظيم وعليه أن يسأل اللطيف أن يلطف به في كل أحواله في دنياه وآخرته عند نزول قدره ومضي قضائه معينًا له علىٰ كل خير مجنبه كل شر وسوء.

٦٠- (المقدم)، ٦١- (المؤخر):

✍ **قلت: ودليله:** ما جاء في الحديث (كان من آخر ما يقول النبي ﷺ بين التشهد والتسليم: «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلَّا أنت**») أخرجه مسلم.

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «**المقدم** والمؤخر من أسمائه الحسنىٰ المزدوجة المتقابلة التي لا يطلق واحد بمفرده علىٰ الله إلَّا مقرونًا بالآخر فإن الكمال من اجتماعهما فهو تعالىٰ المقدم لمن شاء والمؤخر لمن شاء بحكمته.

- وهذا التقديم يكون كونيًّا كتقديم بعض المخلوقات علىٰ بعض وتأخير بعضها علىٰ بعض، وكتقديم الأسباب علىٰ مسبباتها والشروط علىٰ مشروطاتها.

وأنواع التقديم والتأخير في الخلق، والتقدير بحر لا ساحل له.

- ويكون شرعيًّا كما فضل الأنبياء علىٰ الخلق، وفضل بعضهم علىٰ بعض، وفضل بعض عباده علىٰ بعض، وقدمهم في العلم، والإيمان، والعمل، والأخلاق، وسائر الأوصاف، وأخر من أخر منهم بشيء من ذلك وكل هذا تبع لحكمته وهذان الوصفان وما أشبههما من الصفات الذاتية لكونهما قائمين بالله والله متصف بهما، ومن صفات الأفعال لأن التقديم والتأخير متعلق بالمخلوقات ذواتها، وأفعالها، ومعانيها، وأوصافها، وهي ناشئة عن إرادة الله وقدرته، فهذا هو التقسيم الصحيح لصفات الباريء وإن صفات الذات متعلقة بالذات، وصفات أفعاله من متصفه بها الذات ومتعلقه بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال».

✍ **قلت:** وتقديم الله عَزَّوَجَلَّ يكون أيضًا بما قدم لعباد من عاجل البشريات والأجور وما أخر لهم من عظيم عطائه في جنات النعيم، وأيضًا يكون بما قدم لمن عصاه وخالف أمره ولم يتبع هداه من عاجل العقوبات والخزي في الحياة الدنيا وما أخر لهم من شديد العقوبات في نار يوم القيامة وفي جهنم أعاذنا الله وإياكم.

وعلىٰ العبد الرضا بقدر الله عَزَّوَجَلَّ فلا يحب تأخير ما عجل ولا تعجيل ما أخر فيقنع بما قدره ربه وقضاه له ويوقن بأن ما قدمه الله هو الخير وما أخره هو الخير ويثق في اختيار

مولاه، وعليه أن يعلم أن ما قدمه الله لا يستطيع أحد أن يؤخره وما أخره لا يستطيع أحد أن يقدمه، ويدعو ربه أن يقدم له كل خير وأن يؤخر عنه كل سوء وأن يرضه بما قدر له.

٦٢- (الودود):

✍ **قلت: ودليله:** قال جل ثناؤه: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ [البروج:١٤].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الودود هو المحب المحبوب بمعنىٰ واد ومودود فهو الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم ويحبونه فهو أحب إليهم من كل شيء قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه ودًّا وإخلاصًا وإنابة من جميع الوجوه.

ولا تعادل محبة الله من أصفيائه محبة أخرىٰ، لا في أصلها ولا في كيفيتها ولا في متعلقاتها وهذا هو الفرض والواجب أن تكون محبة الله في قلب العبد سابقة لكل محبة غالبة كل محبة ويتعين أن تكون بقية المحاب تبعًا لها.

ومحبة الله هي روح الأعمال، وجميع العبودية الظاهرة، والباطنة ناشئة عن محبة الله، ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد، ولا قوته فهو تعالىٰ الذي أحب عبده فجعل المحبة في قلبه ثم لما أحبه العبد بتوفيقه جازاه الله بحب آخر، فهذا هو الإحسان المحض علىٰ الحقيقة، إذ منه السبب ومنه المسبب ليس المقصود منها المعارضة وإنما ذلك محبة منه تعالىٰ للشاكرين من عباده ولشكرهم، فالمصلحة كلها عائدة إلىٰ العبد، فتبارك الذي جعل وأودع المحبة في قلوب المؤمنين، ثم لم يزل ينميها ويقويها حتىٰ وصلت في قلوب الأصفياء إلىٰ حالة تتضاءل عندها جميع المحاب، وتسليهم عن الأحباب وتهون عليهم المصائب وتلذذ لهم مشقة الطاعة، وتثمر لهم ما يشاءون من أصناف الكرامات التي أعلاها محبة الله والفوز برضاه والأنس بقربه، فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه: فمحبة قبلها صار بها محب لربه، ومحبة بعدها شكرًا من الله علىٰ محبة صار بها من أصفيائه المخلصين، وأعظم سبب يكتسب به العبد محبة ربه التي هي أعظم المطالب، الإكثار من ذكره والثناء عليه وكثرة الإنابة إليه، وقوة التوكل عليه، والتقرب إليه بالفرائض والنوافل، وتحقيق الإخلاص له في الأقوال والأفعال، ومتابعة النبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١].

✍ **قلت**: وود الله لعباده ومحبته لهم يكون بإنعامه عليهم واصطفائهم لعبادته وهذا جليٌّ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء:٦٩-٧٠] والمتأمل يجد أن القاسم المشترك بين كل من ذكر الله جل ثناؤه من المنعم عليهم أنهم أخلصوا دينهم لله واتقوه حق تقاته وعبدوه حق عبادته وإذًا فمحبة الله لعبده تعني أن ينعم عليه بأن يوفقه لحسن العبادة ثم يجمعه مع المنعم عليهم في جنة الأرض وجنة السماء (فأما جنة الأرض فهي جنة العبادة والمعرفة بالله عَزَّوَجَلَّ، وأما جنة السماء فهي الجنة التي أعدها الله لعباده المتقين).

أما محبة العبد لله فتكون بطاعة أمره وتصديق خبره.

والمحبة الواجبة علىٰ المؤمنين هي محبة الله ومحبة كل ما يحبه الله وكل من يحبهم الله وبغض كل ما يبغضه الله وكل من يبغضهم الله ولا يُعرف ذلك إلَّا من خلال كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وعلىٰ العبد أن يكون صاحب ود لكل تقي محبًّا لله ولما يحب الله عاملًا بطاعة الله لإثبات تلك المحبة.

٦٢- (الوكيل):

✍ **قلت: ودليله:** قوله جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ودليل الصفة: كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:٦٢].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الوكيل: المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته والذي تولىٰ أولياءه فيسرهم لليسرىٰ وجنبهم العسرىٰ وكفاهم الأمور، فمن اتخذه وكيلًا كفاه ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾ [البقرة:٢٥٧].

✍ **قال ابن الأثير**: في أسماء الله تعالىٰ «الوكيل» وهو القيّم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته أنّه يستقلّ بأمر الموكول إليه.

✍ **وقال الغزاليّ**: الوكيل هو الموكول إليه الأمور ولكنّ الموكول إليه ينقسم إلىٰ من يوكل إليه بعض الأمور، وذلك ناقص، وإلىٰ من يوكل إليه الكلّ، وليس ذلك إلَّا الله، سبحانه وتعالىٰ. والموكول إليه ينقسم إلىٰ من يستحقّ أن يكون موكولا إليه، لا بذاته ولكن بالتّفويض والتّوكيل، وهذا ناقص، لأنّه فقير إلىٰ التّفويض والتّولية؛ وإلىٰ من يستحقّ بذاته أن تكون الأمور موكولة إليه والقلوب متوكّلة عليه، لا بتولية وتفويض من جهة غيره، وذلك هو الوكيل المطلق.

والوكيل أيضًا ينقسم إلىٰ من يفي بما وكّل إليه وفاء تامّا من غير قصور، وإلىٰ من لا يفي بالجميع.

والوكيل المطلق هو الّذي الأمور موكولة إليه، وهو مليّ بالقيام بها، وفيّ بإتمامها، وذلك هو الله تعالىٰ فقط.

✍ **قلت**: والوكيل اسم من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ الثابتة له كما ينبغي لجلال وجهه سبحانه وتعالىٰ ليس كمثله شيء ولا أحد من خلقه.

* **ووكالة الله عَزَّوَجَلَّ تنقسم إلىٰ قسمين:**

- **أولًا: وكالة عامة**؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام:١٠٢]، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم:١٢]، وهذه الوكالة العامة تشمل جميع خلقه فهو الذي يدبر لهم أمورهم من مطاعم وملابس ومشارب ومعايش وغير ذلك مما يقيم حياتهم وذلك يشمل كل الخلق ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه:٥٠].

- **ثانيًا: وكالة خاصة**؛ وهي التي حبا الله عَزَّوَجَلَّ بها من أطاعه واتبع هداه وأسلم وجهه لله فهؤلاء يدخلون في وكالته العامة غير أنه جل ثناؤه خصهم بوكالة خاصة من كفايته لهم ليتفرغوا لعبادته وإعانتهم علىٰ طاعته ونصرته لهم وتأييدهم بمعونته والدفاع عنهم ودفع أعدائهم كما قال تعالىٰ: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم:١١].

- وكما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨].

- وكما قال جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فهو سبحانه كافيهم وناصرهم والمدافع عنهم والمتولي أمرهم ومنجيهم في الدنيا والآخرة. جعلنا الله وإياكم من هؤلاء.

ومن أسماء النبي ﷺ المتوكل كما جاء في الأثر «**وإني سميتك المتوكل**» فكان ﷺ خير المتوكلين علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ حق توكله وأمر أمته بذلك ونبههم عليه كما صح عنه أنه قال: «**لو أنكم توكلون علىٰ الله تعالىٰ حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**».

والمتوكّل علىٰ الله: الّذي علم أنّ الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده، ولا يتوكّل علىٰ غيره.

ومعنىٰ التوكل: صدق اعتماد القلب علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في استجلاب المصالح ودفع المضارّ من أمور الدّنيا والآخرة، وكلة الأمور كلّها إليه، وتحقيق الإيمان بأنّه لا يعطي ولا يمنع ولا يضرّ ولا ينفع سواه.

✍ **وقال الجرجاني**: التّوكّل هو الثّقة بما عند الله واليأس عمّا في أيدي النّاس.

۞ الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل:

✍ **قال ابن قيّم الجوزيّة**: التّوكّل من أعظم الأسباب الّتي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الأسباب لم يستقم معه التّوكّل.

ولكن من تمام التّوكّل: عدم الرّكون إلىٰ الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محلّ حكمة الله وأمره ونهيه.

والتّوكّل متعلّق بربوبيّته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبوديّة الأسباب إلّا علىٰ ساق التّوكّل ولا يقوم ساق التّوكّل إلّا علىٰ قدم العبوديّة.

۞ بين التوكل والاتّكال:

إنّ الأخذ بالأسباب مع تفويض أمر النّجاح لله تعالىٰ والثّقة بأنّه عَزَّوَجَلَّ لا يضيع أجر من أحسن عملًا، هو من التّوكّل المأمور به، أمّا القعود عن الأسباب وعدم السّعي فليس من التّوكّل في شيء وإنّما هو اتّكال أو تواكل حذّرنا منه رسول الله ﷺ، ونهىٰ عن الأسباب المؤدّية إليه، مصداق ذلك ما جاء في حديث معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معاذ، تدري ما حقّ الله علىٰ العباد وما حقّ العباد علىٰ الله؟**» قال (معاذ): قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنّ حقّ الله علىٰ العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقّ العباد علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إلّا يعذّب من لا يشرك به شيئًا**» قال: قلت: يا رسول الله، أفلا أبشّر النّاس؟ قال: «**لا تبشّرهم فيتّكلوا**»، وهنا يضع الرّسول ﷺ قاعدة جليلة، هي أنّ كلّ ما يؤدّي إلىٰ ترك العمل أو ما يكون مظنّة للاتّكال أو التّواكل ليس من التّوكّل في شيء، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ما يؤكّد هذه الحقيقة، ففي الحوار الّذي رواه أبو هريرة عن المصطفىٰ ﷺ وعمر بن الخطّاب رضي الله عنه هذا الحوار- كما جاء في رواية مسلم: قال عمر: يا رسول الله، بأبي أنت وأمّي، أبعثت أبا هريرة بنعليك، «**من لقي يشهد ألّا إله إلّا الله مستيقنًا بها قلبه، بشّره بالجنّة؟**» قال: «**نعم**»، قال (عمر): فلا تفعل، فإنّي أخشىٰ أن يتّكل النّاس عليها، فخلّهم يعملون». قال رسول الله ﷺ: «**فخلّهم يعملون**». ويفهم من الحديث والّذي قبله أنّ الاتّكال يعني ترك العمل وعدم الأخذ بالأسباب وأنّ ذلك ليس من التّوكّل في شيء.

فعلىٰ العبد أن يأخذ بالأسباب ثم يوقن بأن مسبباتها من عند الله عَزَّوَجَلَّ وأن التوفيق منه وحده بل وأن الأسباب والمسببات من عند الله ومن توفيقه فيتوكل علىٰ الله حق توكله ويثق فيما عند الله وييأس فيما عند الخلق فيعتمد قلبه عليه ويكل أمره إليه ويفوض أمره له وحده فهو حسبه ونعم الوكيل وهو وليه في الدنيا والآخرة.

٦٣- (الوهاب):

✍ **قلت: ودليله:** قوله جل ثناؤه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾ [ص:٩].

ودليل الصفة: قوله تعالىٰ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩﴾ [الشورى:٤٩].

✍ **قلت:** وهبات الله عَزَّوَجَلَّ لخلقه هي ما أفاض عليهم من نعمه ومواهبه من غير استحقاق لهم ولكن تفضلًا منه ونعمة وهبات الله للعباد لا تعد ولا تحصىٰ فهو يهب لمن يشاء ما يشاء وقتما شاء علىٰ النحو الذي شاء وكل ذلك بفضله وحكمته ورحمته فمواهبه

إما أن تكون مواهب دنيوية وإما أن تكون مواهب أخروية، فأما الدنيوية فمثل الولد الصالح والذرية الطيبة والزوجة الصالحة المباركة والمسكن الطيب الواسع الفسيح والمركب السهل اليسير وغيرها مما ييسر علىٰ العبد معيشته ويطيب عليه حياته ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

ثم لله هبات لخلقة تعينهم علىٰ الوصول إليه ومنها العلم النافع والفهم اليانع والثبات علىٰ الحق وما يعين علىٰ بلوغ مراضيه سبحانه وهذه أعلىٰ المواهب وأولاها وأعظمها قدرًا وأدومها نفعًا كما قال تعالىٰ مخبرًا عن دعاء العلماء الربانيين المهتدين من عباده ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٨].

فعلىٰ العبد أن يستخدم تلك المواهب الربانية والعطايا الإلهية في مراضي ربه ونفع خلقه لعل الله يزيده من تلك الهبات ويديم ما وهبه عليه وإلا بدلت بنقمات وأصبحت حجة عليه لا حجة له وأن يسأل الوهاب أن يهبه ما يسعده ويعينه في دنياه وآخرته ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان:٧٤]، وعليه أن يوقن بأن واهب النعم والمواهب هو الله وحده فلا يعترض علىٰ حكمه ولا يحسد ولا يحقد علىٰ أحدٍ من عباد الله قد وهبه الله موهبة ومنعها عنه، وإنما يسأل الله أن يديم فضله علىٰ عباده وأن يهبه من الخير ما يقربه إليه ويدنيه منه ومن مراضيه ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾ [النساء:٣٢].

✍ **قلت:** وهذه هي أسماء الله جل ثناؤه التي وردت في كتاب الله وصحيح سنة رسوله ﷺ بالعلمية.

أما الأسماء التي اشتقها العلماء من الصفات الواردة في الكتاب وصحيح السنة فكثيرة نورد منها الآتي ذكره علىٰ سبيل المثال لا الحصر علىٰ أن الأسماء المشتقة فيها خلاف واسع بين أهل العلم بين الزيادة والنقصان وما ينبغي وما لا ينبغي فلا خلاف بين ما ذكرنا من الأسماء التي جاءت بالعلمية في الكتاب والسنة ولكن جاء الخلاف علىٰ الاشتقاق من الصفات

٦٤- (الجميل):

ودليله: والجميل اسم مشتق من صفة الجمال التي وصف بها الله عَزَّوَجَلَّ كما في الحديث الشريف الصحيح كالذي جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»، قيل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة، قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**». رواه مسلم عن ابن مسعود.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الجميل من له نعوت الحسن والإحسان، فإنه جميل في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فلا يمكن لمخلوقٍ أن يعبر عن بعض جمال ذاته، حتىٰ أن أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم المقيم، واللذات، والسرور، والأفراح التي لا يقدر قدرها إذا رأوا ربهم، وتمتعوا بجماله نسوا ما هم فيه من النعيم، وتلاشىٰ ما هم فيه من الأفراح، وودّوا أن لو تدوم هذه الحال، ليكتسبوا من جماله، ونوره جمالًا إلىٰ جمالهم، وكانت قلوبهم في شوق دائم ونزوع إلىٰ رؤية ربهم، ويفرحون بيوم المزيد فرحًا تكاد تطير له القلوب.

وكذلك هو جميل في أسمائه، فإنها كلها حسنىٰ بل أحسن الأسماء علىٰ الإطلاق وأجملها، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم:٦٥]، فكلها دالة علىٰ غاية الحمد، والمجد، والكمال، لا يسمىٰ باسم منقسم إلىٰ كمال وغيره.

وكذلك هو الجميل في أوصافه فإن أوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت ثناءً وحمدًا، فهي أوسع الصفات، وأعمّها، وأكثرها تعلقًا، خصوصًا أوصاف الرحمة، والبر، والكرم، والجود.

وكذلك أفعاله كلها جميلة فإنها دائرة بين أفعال البر والإحسان التي يحمد عليها ويثنىٰ عليه ويشكر، وبين أفعال العدل التي يحمد عليها لموافقتها للحكمة والحمد، فليس في أفعاله عبث ولا سفه، ولا سدىٰ ولا ظلم، كلها خير وهدىٰ ورحمة ورشد وعدل ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٦].

فلكماله الذي لا يحصي أحد عليه به ثناء كملت أفعاله كلها فصارت أحكامه من أحسن الأحكام، وصنعه وخلقه أحسن خلق، وصنع وأتقن ما صنعه ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨].

وأحسن ما خلق ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٧]، ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ [المائدة:٥٠].

ثم استدل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدليل عقلي على جمال الباري، وأن الأكوان محتوية على أصناف الجمال، وجمالها من الله تعالى فهو الذي كساها الجمال، وأعطاها الحسن، فهو أولى منها، لأن معطي الجمال أحق بالجمال فكل جمال في الدنيا والآخرة، باطني وظاهري، خصوصًا ما يعطيه المولى لأهل الجنة من الجمال المفرط في رجالهم ونسائهم، فلو بدا كفُّ واحدةٍ من الحور العين إلى الدنيا لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، أليس الذي كساهم ذلك الجمال ومنَّ عليهم بذلك الحسن والكمال أحق منهم بالجمال الذي ليس كمثله شيء.

فهذا دليل عقلي واضح مسلم المقدمات على هذه المسألة العظيمة وعلى غيرها من صفاته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ [النحل:٦٠].

فكل ما وجد في المخلوقات من كمال لا يستلزم نقصًا، فإن معطيه - وهو الله - أحق به من المعطي بما لا نسبة بينه وبينهم كما لا نسبة لذواتهم إلى ذاته، وصفاتهم إلى صفاته، فالذي أعطاهم السمع، والبصر، والحياة، والعلم، والقدرة، والجمال، أحق منهم بذلك.

وكيف يعبر أحد عن جماله وقد قال أعلم الخلق به: «**لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**».

وقال ﷺ: «**حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**». فسبحان الله، وتقدّس عما يقوله الظالمون النافون لكماله علوًّا كبيرًا، وحسبهم مقتًا وخسارًا أنهم حرموا من الوصول إلى معرفته والابتهاج بمحبته.

والتعبد باسمه الجميل يقتضي محبته، والتأله له، وأن يبذل العبد له خالص المحبة، وصفو الوداد، بحيث يسبح القلب في رياض معرفته وميادين جماله، وينهج بما يحصل له من آثار جماله وكماله فإن الله ذو الجلال والإكرام، الجواد، الحسيب، الحفيظ

✍ **قلت**: ومن التعبد لاسمه سبحانه (الجميل) دعاء الله به والتأمل في كل جمال مشروع التأمل فيه.

وهنا نكتة لابد من الالتفات اليها إلّا وهي أن الجمال هو ما جمَّله الله، والقبيح هو ما قبَّحه الله، لا ما استحسنته النفوس أو استقبحته، فالنفس المؤمنة تابعة لمراضي ومحاب

مولاها جل وعلا، فمثلًا ربما استحسن بعض الناس مشاهدة النساء السافرات بزيّهن الماجن، وأصواتهن الخليعة، ومساحيقهن المبتذلة، وقالوا إن الله يحب الجمال، فنظروا وتأملوا في تلك الأجساد العاصية، وهذا محض افتراء على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ حرَّم النظرة الفاحشة، كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ..﴾ [النور: ٣٠-٣١] وعليه فإن ما حرَّمه الله هو القبيح، وإن بدا لبعض المُغرَّرِ بهم حسنًا، فالتبرج قبيح، والفجور قبيح، والخضوع بالقول قبيح، إلىٰ ما هنالك، ثم لربما استقبح الناس شيئًا هو حسنٌ طيبٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ، كما يستقبح الناس خلوف فم الصائم وهو عند الله عَزَّوَجَلَّ أطيب من ريح المسك، أو دم الشهيد وهو عند الله أعظم من المسك رائحة، أو استقبح بعضهم حجاب المرأة وهو مرضاة للرب، وهو عنده طيب حسن ارتضاه لعباده المتقين الأخيار، وهكذا....

فينبغي علىٰ المؤمن التقي أن يستحسن ما استحسنه الله، أن يستقبح ما استقبحه مولاه، والله أعلم.

ثم علىٰ العبد أن يكون جميلًا في مظهره، جميلًا في مخبره، جميلًا في جوهره، جميلًا في اسمه، جميلًا في خُلقه، جميلًا في عبادته، جميلًا في بيته، جميلًا في صفاته، يحب الجمال في كل شيء، ملتزمًا في ذلك بما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ.

٦٥ - (الجواد):

ودليله: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله جواد يحب الجود**» الحديث أخرجه أبو نعيم في «الحلية» وصححه الألباني في «صحيح الجامع».

✍ **قلت:** وهذا الاسم الكريم من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ مشتق من صفة جوده عَزَّوَجَلَّ الواردة في هذا الأثر الشريف، وجوده سبحانه وتعالىٰ ليس كمثله شيء ولا أحد من عباده.

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الجواد: يعني أنه تعالىٰ الجواد المطلق الذي عم بجوده جميع الكائنات، وملأها من فضله، وكرمه، ونعمه المتنوعة، وخص بجوده السائلين بلسان المقال أو لسان الحال من بر، وفاجر، ومسلم، وكافر، فمن سأل الله أعطاه سؤاله، وأناله ما طلب فإنه البر الرحيم ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣].

ومن جوده الواسع ما أعده لأوليائه في دار النعيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

والجواد الذي عم بجوده أهل السماء، والأرض فما بالعباد من نعمة فمنه وهو الذي إذا مسهم الضر فإليه يرجعون، وبه يتضرعون، فلا يخلو مخلوق من إحسانه طرفة عين، ولكن يتفاوت العباد في إفاضة الجود عليهم بحسب ما منَّ الله به عليهم من الأسباب المقتضية لجوده، وكرمه، وأعظمها تكمل عبودية الله الظاهرة والباطنة، العلمية والعملية، القولية والفعلية، والمالية، وتحقيقها باتباع محمد ﷺ بالحركات والسكنات».

✍ **قلت:** و(جُود) الله عَزَّوَجَلَّ مرهون بعلمه وحكمته ومعرفته الدقيقة والشاملة بأحوال عباده الظاهرة والباطنة فيجود بما شاء علىٰ من يشاء وقتما شاء، وقد أعطانا سبحانه وتعالىٰ مفاتيح استدرار الجود والعطاء ودوام النعم ومن ذلك الشكر علىٰ كل ما أعطىٰ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧] ومن ذلك بذل ما أعطىٰ الله للعبد في مراضي الرب ومن ذلك أن يكون العبد جوادًا معطاء كما كان خير العباد ﷺ فقد كان أجود الناس كما جاء في الحديث الذي جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان رسول الله ﷺ يعرض الكتاب في كل رمضان علىٰ جبريل، فيصبح رسول الله ﷺ من الليلة التي يعرض فيها ما يعرض وهو أجود من الريح المرسلة، لا يُسأل شيئًا إلَّا أعطاه». «ابن جرير».

وغيره ذلك من الأسباب التي تجلب الخير للعباد ككثرة الاستغفار وإخلاص النية لله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ ما هنالك من أسباب استدرار جود الله وإكثار عطاياه ودوام تلك العطايا، وعلىٰ العبد دعاء الله عَزَّوَجَلَّ بهذا الاسم الجليل والتأمل في عظم جوده فهو من أعظم أبواب محبة المنعم سبحانه وتعالىٰ.

٦٦ - (الحسيب):

ودليله: قال تعالىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء:٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝٨٦﴾ [النساء:٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣].

✍ **قلت:** والحسيب اسم مشتق من صفة المحاسبة وحسبة الكفاية لله عَزَّوَجَلَّ وهو اسم يليق بذاته العلية وصفاته الزكية.

✍ قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الحسيب: هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر بحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها.

والحسيب بمعنىٰ الرقيب المحاسب لعباده المتولي جزاءهم بالعدل، وبالفضل، وبمعنىٰ الكافي عبده همومه، وغمومه، وأخص من ذلك أنه الحسيب للمتوكلين ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه أمور دينه ودنياه.

والحسيب أيضًا هو الذي يحفظ أعمال عباده من خير وشر، ويحاسبهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال:٦٤] أي: كافيك وكافي أتباعك، فكفاية الله لعبده بحسب ما قام به في متابعة الرسول ظاهرًا وباطنًا، وقيامه بعبودية الله تعالىٰ».

✍ **قلت**: وتقتضي عبودية هذا الاسم الشريف مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في كل أمر، واليقين بأن عمل العبد مُحصًىٰ عليه وهو محاسَب عليه لا محالة إن كان خيرًا فخير وإن كان شرًّا فشر، وعليه أن يحاسب نفسه قبل أن يُحاسَب، ويحصي أعماله قبل أن تُحصىٰ عليه، ثم عليه إلَّا يلتجئ إلَّا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إن ألمت به الملمات وأحاط به عدوه لعلمه أنه لا ينجيه إلَّا الحسيب سبحانه وتعالىٰ وأن يتوكل عليه حق التوكل ويفوض أمره إلىٰ الله كل التفويض ويجعل ثقته بالحسيب فوق كل ثقة وعلمه بأنه كافيه وحده يقينًا لا ينفض عنه طرفة عين فيدعو الله باسمه الحسيب ويتذكر هذا الاسم دائمًا ويتأمل كيف أن الله أحصىٰ أعمال عباده وسيحاسبهم عليها وكيف أنه كفىٰ عباده الصالحين شر من أراد بهم سوء إلىٰ غير ذلك من ميزان المخلوقات ومعرفة أحوالها وأقدارها ومقاديرها.

٦٧ - (الحفيظ):

ودليله: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود:٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ:٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾ [الشورى:٦].

✍ **قلت**: والحفيظ اسم مشتق من صفة الحفظ العامة التي ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنه أحاط بها علمًا وقدرة، وهي من لوازم ربوبيته سبحانه وتعالىٰ علىٰ النحو الذي يليق به عَزَّوَجَلَّ لا يماثله فيها أحدٌ من خلقه فحفظه يشمل كل مخلوقاته عامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١]،

ثم حِفظه لأوليائه الصالحين من عباده خاصة ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

ثم إن ذلك يشمل الحفظ الذي هو ضد النسيان ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، فهذا من لوازم ربوبيته أيضًا والله أعلم.

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الحفيظ: الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أولياءه من وقوعهم في الذنوب والهلكات.

ولطف بهم في الحركات، والسكنات، وأحصىٰ علىٰ العباد أعمالهم وجزاءها.

والحفيظ يتضمن معنيين:

- أحدهما: أنه قد حفظ علىٰ عباده ما عملوه من خير وشر، وطاعة ومعصية. فإن علمه محيط بجميع أعمالهم ظاهرها وباطنها، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ووكل بالعباد ملائكة كرامًا كاتبين يعلمون ما تفعلون، فهذا المعنىٰ من حفظه يقتضي إحاطة علم الله بأحوال العباد كلها ظاهرها وباطنها، وكتابتها في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي في أيدي الملائكة، وعلمه بمقاديرها، وكمالها ونقصها، ومقادير جزائها في الثواب والعقاب ثم مجازاته عليها بفضله وعدله.

- والمعني الثاني: من معنيي الحفيظ: أنه تعالىٰ الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون، وحفظه لخلقه نوعان: عام وخاص:

فالعام حفظه لجميع المخلوقات بتيسيره لها ما يقيتها ويحفظ بنيتها، وتمشي إلىٰ هدايته، وإلىٰ مصالحها بإرشاده، وهدايته العامة التي قال عنها: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠]، أي: هدىٰ كل مخلوق إلىٰ ما قدر له وقضىٰ له من ضروراته وحاجاته، كالهداية للمأكل، والمشرب، والمنكح، والسعي في أسباب ذلك، وكدفعه عنهم أصناف المكاره، والمضار، وهذا يشترك فيه البر والفاجر، بل الحيوانات وغيرها، فهو الذي يحفظ السماوات والأرض أن تزولا، ويحفظ الخلائق بنعمه، وقد وكل بالآدمي حفظة من الملائكة الكرام يحفظونه من أمر الله، أي يدفعون عنه كل ما يضره مما هو بصدد أن يضره لولا حفظ الله.

أما الحفظ الخاص: فحفظه الخاص لأوليائه سوىٰ ما تقدم، بحفظهم عما يضر إيمانهم أو يزلزل إيقانهم من الشبه والفتن والشهوات، فيعافيهم منها ويخرجهم منها

بسلامة وحفظ وعافية، ويحفظهم من أعدائهم من الجن والإنس فينصرهم عليهم ويدفع عنهم كيدهم، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨]، وهذا عام في دفع جميع ما يضرهم في دينهم ودنياهم فعلىٰ حسب ما عند العبد من الإيمان تكون مدافعة الله عنه بلطفه، وفي الحديث: «**احفظ الله يحفظك**» أي احفظ أوامره بالامتثال ونواهيه بالاجتناب، وحدوده بعدم تعديها، **يحفظك** في نفسك ودينك ومالك وولدك، وفي جميع ما آتاك الله من فضله».

✍ **قلت:** ومن عبودية هذا الاسم الكريم والصفة المباركة أن يكون العبد حفيظًا أمينًا علىٰ كل ما يؤتمن عليه من أمانات سواء ما استودع الله عنده من بدنه وما حوىٰ أو عَلمه من علم نافع لدنياه وآخرته، فيحفظ البدن والروح والمال والنعمة في صرف كل هذا في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وعدم معصيته ويحفظ العلم بتكراره وتدبره والعمل بمقتضاه، ويحفظ ما استودعه الناس من أماناتهم ويؤديها علىٰ النحو الذي يرضي الله عَزَّوَجَلَّ وما أكثر الأمانات وما أكثر من ضيعها ولم يحفظها ولم يحفظ الله فيها كالذي جاء عن النبي الأمين ﷺ: «**يا غلام! إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلَّا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلَّا قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام، ورفعت الصحف**». رواه أحمد بسند صحيح من حديث ابن عباس.

ثم علىٰ العبد أن يسأل (الحفيظ سبحانه) أن يحفظه ويحفظ عليه نعمه وآلائه، اللهم يا حفيظ احفظنا **بحفظك**.

٦٨- (الواسع):

✍ **قلت: ودليله:** قوله جل ثناؤه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥]، ووردت صفة السعة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ثمان مرات واشتق منها (اسم الواسع) سبحانه وتعالىٰ.

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الواسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها بحيث لا يحصي أحد ثناءً عليه، بل هو كما اثنىٰ علىٰ نفسه، واسع العظمة، والسلطان، والملك، واسع الفضل، والإحسان عظيم الجود والكرم».

✍ **قلت:** وسعة الله عَزَّوَجَلَّ - كما ذكر الشيخ السعدي - سعة صفات ونعوت ومتعلقات، هذه الصفات والنعوت كما أنها سعة رحمة كما قال جل ثناؤه ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

كما أن هذه السعة سعة مغفرة وعفو عن العباد كما قال جل ثناؤه ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ [النجم:٣٢].

كما أنها سعة عطاء وإغناء للعباد ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ [النجم:٣٢].

وأيضًا هي سعة تفضيل وتزكية وترقية، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ [آل عمران:٧٣].

كما أنها سعة جزاء وتفضل علىٰ من أسلم وجهه لله واتبع هداه ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

[البقرة:٢٦١].

وعلىٰ العبد أن يطمع في كرم ربه الواسع العليم وأن يُري الله من نفسه خيرًا لعل الله أن يتفضل عليه بكرمه ويختصه برحمته ومغفرته وفضله ويوسع عليه في دنياه وأُخراه فالله أعلم بعباده وبمن يستحق السعة ومن يستحق الضيق والضنك كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٧].

فهو الواسع العليم الدائم العطاء الكريم، فعبودية هذا الاسم الشريف تقتضي من العبد أن لا يسأل غيره ولا يرجو سواه وأن يحسن التوكل عليه وأن يدعوه باسمه الكريم ويسأله أن يوسع عليه في كل خير يقربه إليه وأن يتأمل في سعة رحمة الله وسعة مغفرته وسعة غناه وسعة فضله.

٦٩- (المُقيت):

✍ **قلت:** ودليل هذا الاسم قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء:٨٥].

وهو اسم مشتق من هذه الصفة الكريمة التي وصف الله جل ثناؤه بها نفسه.

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «المقيت الذي أوصل إلىٰ كل موجود ما به يقتات وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمه وحمده».

✍ **قلت:** والمقيت هو القادر علىٰ عباده قادر علىٰ قهرهم وقادر علىٰ تدبير أمرهم، قادر علىٰ تقويتهم بما يحتاجون إليه وتمويلهم بكل ما يقيم حياتهم، وتقويت الله عَزَّوَجَلَّ لعباده قائم علىٰ أصلين **الأصل الأول** تقويتهم بقوت قلوبهم فهو سبحانه يقيت قلوب عباده المؤمنين بنور الهداية والمعرفة به عَزَّوَجَلَّ بما يقيت حياتها الأخروية وقربها منه عَزَّوَجَلَّ.

أما **الأصل الثاني** فهو تقوية الأبدان بما يقيم حياتها الدنيوية، ثم هو مقيت بمعنىٰ حفيظ وحسيب وعالم بما يحتاجه كل مخلوق من مخلوقاته، ومن لوازم ذلك أن يكون غنيًّا عالمًا محيطًا كريمًا حكيمًا قادرًا مقتدرًا.

وعلىٰ العبد أن يتعبد ربه الكريم بهذا الاسم الشريف فلا يُضيع من يُقِيتهم كما جاء ذلك عن النبي ﷺ أنه قال **«كفىٰ بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت»** أخرجه أحمد وغيره وهو حديث حسن. وعليه أن يستعين في طلب قوت قلبه وقوت بدنه وقوت من يعول بالله وحده وأن يتدبر في تقويت الله لعباده وسعة عطائه لخلقه سبحانه وتعالىٰ فهذا باب عظيم من أبواب محبة الله وصدق الاعتماد عليه سبحانه وتعالىٰ.

٧٠- (النور):

✍ **قلت:** ودليل هذا الاسم قال الله تعالىٰ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور:٣٥].

وهذا الاسم الشريف مشتق مما وصف الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية المباركة من أنه نور السماوات والأرض.

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «ومن أسمائه الحسنىٰ (النور) فالنور وصفه العظيم، وأسماؤه حسنىٰ، وصفاته أكمل الصفات له تعالىٰ رحمة، وحمد، وحكمة، وهو نور السماوات والأرض الذي نور قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به، ونور أفئدتهم بهدايته، وهو الذي أنار السماوات والأرض بالأنوار التي وضعها.

وحجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه، وبنوره استنارت جنات النعيم.

والنور الذي هو وصفه من جملة نعوته العظيمة وأما النور المخلوق فهو نوعان:

- **الأول نور حسي**؛ كنور الشمس، والقمر، والكواكب، وسائر المخلوقات المدرك نورها بالأبصار.

- **والثاني نور معنوي**؛ وهو نور المعرفة، والإيمان، والطاعة فإن لها نورا في قلوب المؤمنين بحسب ما قام في قلوبهم من حقائق المعرفة مواجيد الإيمان، وحلاوة الطاعة، وسرور المحبة.

وهذا النور هو الذي يمنع صاحبه من المعاصي ويجذبه إلىٰ الخير ويدعوه إلىٰ كمال الإخلاص لله، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، ومن بين يدي نورًا، ومن خلفي نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، اللهم اعطني نورًا، وزدني نورًا**».

وهذا النور الذي يعطيه اللهُ عبدَه أعظم منّة منها عليه وأصل الخير. وهذا النور مهما قوي فإنه مخلوق، فإياك أن تضعف بصيرتك ويقل تمييزك وعلمك فتظن هذا النور نور العيان ومشاهدة القلب لنور الذات المقدسة، وإنما هو نور المعرفة- والإيمان، ويبتلىٰ بهذا بعض الصوفية الذين ترد عليهم الواردة القوية فيقع منهم من الشطح والخطل ما ينافي العلم والإيمان، كما أن كثيف الطبع جافي القلب قد تراكمت عليه الظلمات، وتوالت عليه الغفلات فلم يكن له من هذا النور حظ ولا نصيب، بل ربما ازدرىٰ من سفاهة عقله وقلة وجده هذه الأحوال وزهد فيها، فمتىٰ منَّ الله علىٰ العبد بمعرفة صحيحة متلقاة من الكتاب والسنة، وتفقه في أسماء الله وصفاته، وتعبد لله بها، واجتهد أن يحقق مقام الإحسان فيعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه ولهج بذكر الله تعالىٰ استنار قلبه، وحصل له من لذة المعرفة ومواجيد الإيمان أعظم اللذات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

والمؤمن إذا كمل إيمانه أنار الله قلبه فانكشفت له حقائق الأشياء، وحصل له فرقان يفرق به بين الحق والباطل، وصار هذا النور هو مادة حياة العبد، وقوته علىٰ الخير علمًا وعملًا، وانكشفت عنه الشبهات القادمة في العلم واليقين، والشهوات الناشئة عن الغفلة والظلمة وكان قلبه نورًا وكلامه نورًا وعمله نورًا والنور محيط به من جهاته.

والكافر أو المنافق أو المعارض أو المعرض الغافل كل هؤلاء يتخبطون في الظلمات كل له من الظلمة بحسب ما معه من موادها وأسبابها والله الموفق وحده.

قلت: وبدايةً لابد من الانتباه إلىٰ أن نور الله عَزَّوَجَلَّ ليس كمثله شيء ولا يستطيع أحد أن يصفه ولا يعلم كيفيته إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، ثم إن النور كما ذكر أهل العلم وكما هو معلوم في اللغة إما أن يكون حسيًّا (نور الضياء الحسي كنور الشمس)وإما أن يكون معنويًّا (نور الهداية للحق والخير) وبالنسبة لله عَزَّوَجَلَّ فلكلا الأمرين لاسمه وصفته عَزَّوَجَلَّ النصيب الأكبر والقدر الأعظم علىٰ النحو الذي يليق بكماله وعظمته وجلاله سبحانه وتعالىٰ.

فأما بالنسبة للنور الحسي فلا يعلم كيفيته وكنهه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، وأما النور المعنوي أي نور الهداية فقد بلغنا منه الخير العميم فكلامه نور، وكتابه نور، وأنبياؤه نور، ودينه نور، وشرائعه نور، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة:١٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣]، ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

[النور:٤٠].

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢].

لكن الله عَزَّوَجَلَّ عرف لنا ما ينفعنا من معرفة أنه نور السماوات والأرض في بقية الآيات التالية لهذه الآية المباركة؛ فقال جل ثناؤه: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور:٣٥، ٣٦].

قال أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تأويله لهذه الآيات المباركات: يعني تعالىٰ ذكره بقوله: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور:٣٥] هادي مَنْ في السماوات والأرض، فهم بنوره إلىٰ الحق يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون.

وقوله ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ [النور:٣٥]، ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به، فقال: مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد، الذي أنزله إليهم فآمنوا به وصدقوا بما فيه في قلوب المؤمنين مثل مشكاة، وهي عمود القنديل الذي فيه الفتيلة، وذلك هو نظير الكوّة التي تكون في الحيطان التي لا منفذ لها، وإنما جعل ذلك العمود مشكاة؛ لأنه غير نافذ، وهو أجوف مفتوح الأعلىٰ، فهو كالكوّة التي في الحائط التي لا تنفذ.

ثم قال: ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ وهو السراج، وجعل السراج وهو المصباح مثلًا لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات المبينات.

ثم قال: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ يعني: أن السراج الذي في المشكاة: في القنديل، وهو الزجاجة، وذلك مثل للقرآن، يقول: القرآن الذي في قلب المؤمن الذي أنار الله قلبه في صدره، ثم مثل الصدر في خلوصه من الكفر بالله والشكّ فيه، واستنارته بنور القرآن، واستضاءته بآيات ربه المبينات، ومواعظه فيها بالكوكب الدرّيّ، فقال: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ ﴾ وذلك صدر المؤمن الذي فيه قلبه ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾.

كمشكاة فيها مصباح، المصباح من دهن شجرة مباركة زيتونة، لا شرقية ولا غربية، ومعنىٰ الكلام: ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالعشيّ دون الغداة، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب، فهي شرقية غربية.

وقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ ﴾ يقول تعالىٰ ذكره: يكاد زيت هذه الزيتونة يضيء من صفائه وحسن ضيائه ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ يقول: فكيف إذا مسته النار.

وإنما أريد بقوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ أن هذا القرآن من عند الله، وأنه كلامه، فجعل مثله ومثل كونه من عنده، مثل المصباح الذي يوقد من الشجرة المباركة، التي وصفها جلّ ثناؤه في هذه الآية. وعنىٰ بقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ ﴾: أن حجج الله تعالىٰ ذكره علىٰ خلقه تكاد من بيانها ووضوحها تضيء لمن فكر فيها ونظر أو أعرض عنها، ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ يقول: ولو لم يزدها الله بيانًا ووضوحًا بإنزاله هذا القرآن إليهم؛

منبهًا لهم علىٰ توحيده، فكيف إذا نبههم به وذكَّرهم بآياته، فزادهم به حجة إلىٰ حججه عليهم قبل ذلك، فذلك بيان من الله ونور علىٰ البيان، والنور الذي كان قد وضعه لهم ونصبه قبل نزوله.

وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يعني: النار علىٰ هذا الزيت الذي كاد يضيء ولو لم تمسسه النار.

وقوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يقول تعالىٰ ذكره: يوفق الله لاتباع نوره، وهو هذا القرآن، من يشاء من عباده.

وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: ويمثل الله الأمثال والأشباه للناس، كما مثَّل لهم مثل هذا القرآن في قلب المؤمن بالمصباح في المشكاة، وسائر ما في هذه الآية من الأمثال.

فعلىٰ العبد أن يلتمس نور الهداية والرشاد من الله عَزَّوَجَلَّ فيسعىٰ جاهدًا أن يحصل تلك الهدية من كتاب الله جل ثناؤه ومن سنة رسوله ﷺ ومن الاقتداء بأنبياء الله ورسله طالبًا العون علىٰ ذلك من الله عَزَّوَجَلَّ موقنًا بأن هدىٰ الله هو الهدىٰ.

٧١- (الهادي):

✍ **قلت: ودليله:** أنه اسم مشتق من الصفة التي وردت في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان:٣١].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الهادي أي الذي يهدي ويرشد عباده إلىٰ جميع المنافع وإلىٰ دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون ويهديهم بهداية التوفيق والتسديد ويلهمهم التقوىٰ ويجعل قلوبهم منيبة إليه منقادة لأمره».

✍ **قلت:** والهداية هي الدلالة والإرشاد وقد قسمها العلماء إلىٰ قسمين:

- **أولاً: هداية دلالة:** وهذا النوع إما أن يكون **معناه لغوي** وهو قائم بين الناس كأن يهدي رجل غيره إلىٰ طريق أو طريقة يسلكها لتوصله إلىٰ بلد أو غاية معينة يريد أن يصل إليها،

ثم هناك **معنًى شرعي** لهداية الدلالة إلَّا وهو دلالة الناس علىٰ سبل الرشاد وطريق الهدىٰ والحق وهذا النوع من الهداية يكون مصدره الأعلىٰ وموجهه الأول والأخير هو الله عَزَّوَجَلَّ كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن

﴿ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يونس:٣٥].

* ثم جعل الله تبارك وتعالىٰ أسباب للوصول إلىٰ تلك الهداية فمنها اتباع كتابه العزيز: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩].

* ومنها اتباع دينه القويم وصراطه المستقيم كما في قوله: ﴿ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنعام:٨٧، ٨٨].

* ومنه اتباع الأنبياء والرسل وخاتمهم نبينا محمد صلىٰ الله عليهم وسلم أجمعين ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [الشورى:٥٢، ٥٣].

وهذا كله يقع في نطاق هداية الدِّلالة الشرعية.

- **ثانيا: هداية التوفيق:** وهذا النوع لا يملكه قدرًا إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ وهو إما أن يكون في أمور الآخرة كأن يوفق العبد إلىٰ الوصول إلىٰ مراضي الله عَزَّوَجَلَّ وإلىٰ الثبات علىٰ الحق قولًا وفعلًا، وإما أن يكون في أمور الدنيا كأن يصل العبد إلىٰ غايته التي يبغيها في أمور حياته.

فعلىٰ العبد أن يدعو الهادي الذي يملك الهداية في الحقيقة أن يهديه سبيل الرشاد ويوفقه للوصول للحق ويوفقه للقيام بالحق ويوفقه للثبات علىٰ الحق فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

٧٢- (الحيي)، ٧٣- (الستير):

ودليله: قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «هذا مأخوذ من حديث: عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَعْلَىٰ بْنِ أُمَيَّةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَغْتَسِلَ فَلْيَتَوَارَىٰ بِشَيْءٍ**» رواه أحمد وغيره بسند حسن.

وهذا من رحمته، وكرمه، وكماله، وحلمه أن العبد يجاهر بالمعاصي مع فقره الشديد إليه، حتىٰ أنه لا يمكنه أن يعصي إلَّا أن يتقوىٰ عليها بنعم ربه، والرب مع كمال غناء عن الخلق كلهم من كرمه يستحي من هتكه، وفضيحته، وإحلال العقوبة به، فيستره بما يفيض

له من أسباب الستر، ويعفو عنه، ويغفر له، فهو يتحبب إلىٰ عباده بالنعم وهم يتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم بعدد اللحظات، وشرهم إليه صاعد.

ولا يزال الملك الكريم يصعد إليه منهم بالمعاصي وكل قبيح، ويستحي تعالىٰ ممن شاب في الإسلام أن يعذبه، وممن يمد يديه إليه أن يردهما صفرًا، ويدعو عباده إلىٰ دعائه، ويعدهم بالإجابة.

وهو الحيي الستير: يحب أهل الحياء، والستر، ومن ستر مسلمًا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه ولا يظهرها للناس، وإن من أمقت الناس إليه من بات عاصيًا، والله يستره فيصبح يكشف ستر الله عليه.

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النور:١٩]، وهذا كله من معنىٰ اسمه الحليم الذي وسع حلمه أهل الكفر، والفسوق، والعصيان، ومنع عقوبته أن تحل بأهل الظلم عاجلًا، فهو يمهلهم ليتوبوا، ولا يهملهم إذا أصروا واستمروا في طغيانهم ولم ينيبوا».

✍ **قلت:** وعلىٰ العبد أن يتخلق بهذا الخلق العظيم خلق الحياء فكذلك كان النبي ﷺ، كان أكثر حياء من العذراء في خدرها وبهذا أمرنا كالذي جاء في الحديث الذي حسنه بعض أهل العلم عند أحمد وغيره «**استحيوا من الله تعالىٰ حق الحياء، من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعىٰ، وليحفظ البطن وما حوىٰ، وليذكر الموت والبلىٰ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**».

وجاء أيضًا عند الحاكم: «**إن الحياء والإيمان قُرنا جميعًا، فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر**».

٧٤- (المجيب):

ودليله: أنه مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود:٦١].

✍ قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «من أسمائه المجيب لدعوة الداعين، وسؤال السائلين، وعباده المستجيبين، وإجابته نوعان:

إجابة عامة لكلٍ من دعاه دعاء عبادة أو دعاء مسألة قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠]، فدعاء المسألة يقول العبد اللهم أعطني كذا أو اللهم

أدفع عني كذا، فهذا يقع من البر والفاجر، ويستجيب الله فيه لكل من دعاه بحسب الحالة المقتضية، وبحسب ما تقتضيه حكمته، وهذا يستدل به علىٰ كرم المولىٰ وشمول إحسانه للبار والفاجر، ولا يدل بمجرده علىٰ حسن حال الداعي الذي أجيبت دعوته إن لم يقترن بذلك ما يدل عليه وعلىٰ صدقه وتعين الحق معه، كسؤال الأنبياء ودعائهم لقومهم وعلىٰ قومهم فيجيبهم الله، فإنه يدل علىٰ صدقهم فيما أخبروا به وكرامتهم علىٰ ربهم، ولهذا كان النبي ﷺ كثيرًا ما يدعو بدعاء يشاهد المسلمون وغيرهم إجابته، وذلك من دلائل نبوته وآيات صدقه، وكذلك ما يذكرونه عن كثير من أولياء الله من إجابة الدعوات فإنه من أدلة كراماتهم علىٰ الله.

وأما الإجابة الخاصة فلها أسباب عديدة، منها دعوة المضطر الذي وقع في شدة وكربة عظيمة، فإن الله يجيب دعوته، قال تعالىٰ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل:٦٢]، وسبب ذلك شدة الافتقار إلىٰ الله، وقوة الانكسار، وانقطاع تعلقه بالمخلوقين، وسعة رحمة الله التي يشمل بها الخلق بحسب حاجتهم إليها فكيف بمن اضطر إليها.

ومن أسباب الإجابة طول السفر والتوسل إلىٰ الله بأحب الوسائل إليه من أسمائه، وصفاته، ونعمه. وكذلك دعوة المريض، والمظلوم، والصائم، والوالد علىٰ ولده أو له في الأوقات والأحوال الشريفة».

✍ **قلت:** وذكر أهل العلم أن الدعاء لا يرد أبدًا من المؤمن ولكن إجابة الله له علىٰ ثلاث منازل فإما أن يجيبه علىٰ النحو الذي سأل معجلًا له ذلك، وإما أن يصرف عنه بسبب دعوته قدر من أقداره كان سيقع به وإما أن يؤخر الله له الإجابة إلىٰ الآخرة وهذا أعجبها وأعلاها منزلة ونفعًا للعبد، المهم أن الله جل ثناؤه لا يرد دعوة أبدًا ولكن علىٰ العبد أن يتحرىٰ أوقات الإجابة والأماكن التي يستحب فيها الدعاء والأوضاع التي ينبغي أن يكون عليها عند الدعاء ثم يكون في دعائه غير معتدٍ والتعدي في الدعاء إما أن يكون بدعاء ما لا ينبغي للعبد أن يسأل ربه به أو أن يدعو بإثم أو عدوان أو ظلم فهذه أمور محرمة في الدعاء أو يدعو ميتًا أو حتىٰ حيًّا فيما لا يقدر عليه إلَّا الله، فدعاء الأموات عامة شرك وسؤال في غير محله ولا ينبغي لمؤمن أبدًا، ثم لا يسجع في دعائه وإنما يتبسط ولا يرفع صوته متعديًا فإنه لا يدعو أصمًّا ولا بعيدًا.

* ومن الآداب التي ذكرها بعض أهل العلم ما جاء عن الإمام الغزاليّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

١- أن يترصّد لدعائه الأوقات الشّريفة كيوم عرفة من السّنة، ورمضان من الأشهر، ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السّحر من ساعات اللّيل.

٢- أن يغتنم الأحوال الشّريفة كحال الزّحف، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصّلاة، وعند إفطار الصّائم، وحالة السّجود، وفي حال السّفر.

٣- أن يدعو مستقبلًا القبلة، مع خفض الصّوت بين المخافتة والجهر، وأن لا يتكلّف السّجع في الدّعاء فإنّ حال الدّاعي ينبغي أن يكون حال متضرّع والتّكلّف لا يناسبه.

٤- الإخلاص في الدّعاء والتّضرّع والخشوع والرّغبة والرّهبة، وأن يجزم الدّعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاؤه فيه.

٥- أن يلحّ في الدّعاء ويكون ثلاثًا، كما ينبغي له أن لا يستبطأ الإجابة.

٦- أن يفتتح الدّعاء ويختتمه بذكر الله تعالىٰ والصّلاة علىٰ النّبيّ ﷺ ثمّ يبدأ بالسّؤال.

٧- التّوبة وردّ المظالم والإقبال علىٰ الله- عَزَّوَجَلَّ- بكنه الهمّة، وهو الأدب الباطن وهو الأصل في الإجابة، وتحرّي أكل الحلال

وليوقن العبد بأن الله جل ثناؤه قريب مجيب ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة:١٨٦]، فهنا في هذه الآية الكريمة عدة أمور، منها قرب الله عَزَّوَجَلَّ من عباده، ومنها إعلامه لعباده بأنه مجيب لدعائهم غير رادهم عن بابه، ومنها أمرهم بأن يستجيبوا له فيما دعاهم له من الإيمان به وبرسله وتصديق كتابه والعمل بمقتضاه، ولعل منها يستنبط أن سرعة استجابة العبد لربه وطاعة أمره من أعظم أسباب سرعة استجابة الله عَزَّوَجَلَّ له، لذلك كان الأنبياء أسرع من يستجيب الله لهم لأنهم أسرع من استجابوا له جل ثناؤه، هذا والله أعلم وأحكم.

فعلىٰ العبد أن لا يلجأ إلّا إلىٰ ربه السميع العليم المجيب ولا يتجه لغيره لا في دعاء مسألة ولا في دعاء عباده.

٧٥- (المجيد):

قلت: ودليله: مأخوذ من قوله الله تعالىٰ: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود:٧٣].

✍ **قال الزجاج في تفسير الأسماء الحسنىٰ**: (في اسم الله الْمجِيد) وأصل الْمجد فِي الْكَلَام الْكَثْرَة وَالسعَة وَهُوَ مَأْخُوذ من قَوْلهم أمجدت الدَّابَّة إِذا أكثرت عَلفهَا وَفِي الْمثل «فِي كل شجر نَار، واستمجد المرخ والعفار» أي أكثر مِنْهَا.

فالماجد فِي اللُّغَة الْكثير الشّرف وَالله تَعَالَىٰ ذكره أمجد الأمجدين وَأكْرم الأكرمين.

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: «المجيد الذي له المجد العظيم، والمجد هو عظمة الصفات، وسعتها فكل وصف من أوصافه عظيم شأنه فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه، الحكيم الكامل في حكمته إلىٰ بقية أسمائه وصفاته.

✍ **قلت**: وحقيقة الأمر أن مجد الله عَزَّوَجَلَّ ليس كمثله شيء ولا نظير له في مخلوقاته ولا ينبغي لأحدٍ أن يدعي لمخلوق ذلك أبدًا، بل علىٰ العبد أن يكون متواضعًا لمجد ربه عالمًا بعظمته متضائلًا لكل شرف وسعه من دونه طامعا في كرم مولاه وسعة ملكه وعِظم مجده وكثرة عطائه سبحانه، فهو سبحانه سحاء الليل والنهار والدنيا والآخرة لا تنفد خزائنه ولا تنضب عطاياه فعلىٰ العبد أن يخضع لصاحب المجد والكبرياء خضوع الذليل للرب الجليل.

٧٦ - (المحيط):

✍ **قلت: ودليله**: وهو مأخوذ من صفة إحاطته التي ذكرها في كتابه عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾

[فصلت: ٥٤].

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: «المحيط بكل شيء علمًا، وقدرة، ورحمة، وقهرًا».

✍ **قلت**: فهو الذي أحاط بكل شيء علمًا فلا علم يخرج من علمه ولا معلوم إلَّا من علمه ولا عالم إلَّا قد أحاط به علمًا وقدرةً ولا علم إلَّا ما عَلم ولا فهم إلَّا ما فهم فهو الأول في علمه وهو الآخر في علمه وهو الظاهر في علمه وهو الباطن في علمه، وكذلك قدرته قد أحاطت بكل مخلوقاته وبكل قُدرتهم وبكل قَدرِهم فلا يعجزه أحدٌ منهم لا قدرًا ولا قدرة، فالكل خاضع لقدرته قد أحاط بهم فلا يكون شيء منهم إلَّا بعلمه ومشيئته ولا يحيطون به علمًا ولا قدرة ولا قَدْرًا ولا قدَرًا ثم هو محيط بمخلوقاته رحمة وفضلًا وتدبيرًا وحُكمًا وحكمةً ثم جميع ما خلق والكل خلقه تحت جبروته مقهورون ولسلطانه مربوبون وبأمره مسخرون فلا ينفذ أحدٌ منهم مهما بلغ من سلطان قهره فهو يجير ولا يجار

عليه وهو يقدر ولا يُقدر عليه وهو يقهر ولا يُقهر فلا ملك إلَّا ملكه ولا سلطان لأحد من بعده ولا أحد من وراء إحاطته فهو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء والظاهر فوق كل شيء والباطن دون كل شيء وقد أحاط بكل شيء مكانًا ومكانةً وقهرًا وعلمًا وقدرةً وحكمةً ورحمةً وفضلًا ولا يحاط به ولا بعلمه ولا بقدرته ولا بسلطانه ولا بمكانه ولا بمكانته فلا يحده مكان ولا يعتريه زمان ولا تجري عليه الأزمان فهو الذي كان قبل المكان والزمان وقبل أن يكون مَلك أو جان أو إنس أو حيوان.

فسبحان من تفرد بإحاطته وتعالت قدرته وجلت عظمته ووسعت كل شيء رحمته.

فعلىٰ العباد أن يخضعوا له طوعًا ومحبةً ورغبةً ورهبةً وعلىٰ المؤمن أن يوقن بإحاطة ربه به فلا يُري الله من نفسه إلَّا خيرًا، وعليه أن يعلم أن كل خيرٍ أو رحمةٍ أحاطه الله بها فمنه وحده، وأن الله هو القادر علىٰ أن يرفعها أو يبدلها، ثم عليه أن يوقن بأن الله قد أحاط به علمًا فهو يعلم سره وعلانيته فيعمل علىٰ أن يكون سره خيرا من علانيته، وعليه أن يستيقن بأن إحاطة الله واقعة علىٰ كل الخلق ومنهم أعداؤه فلا يلجأ إلَّا إلىٰ ربه ولا يخشىٰ إلَّا مولاه ولا يعمل إلَّا لمراضيه.

ثم عليه أن يدعوه باسمه المحيط أن يغفر له ما قد علم منه وأن يرد له حقه ممن هضمه ويستعين بربه في كل أمره ويسأله أن يزيده من كل علم نافع ومن كل فضل يانع وأن يكفيه شر ما أهمه وغمه.

٧٧- (الرؤوف):

✍ **قلت: ودليله:** مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾ [النور:٢٠]، وقد ذكرت صفة الرأفة منسوبة لله عَزَّوَجَلَّ خمس مرات في كتاب الله .

✍ **قال الزجاج:** الرؤوف يُقَال إِن الرأفة وَالرَّحْمَة وَاحِد وَقد فرقوا بَينهمَا أَيْضا وَذَلِكَ أن الرأفة هِيَ الْمنزلَة الثَّانِيَة يُقَال فلَان رَحِيم فَإِذا اشتدت رَحمته فَهُوَ رؤوف.

✍ **قلت:** وذكر طائفة من أهل العلم أن الرأفة دفع المضرة، والرحمة جلب المسرة، والرأفة هي التخلية، والرحمة هي التحلية.

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «الرؤوف أي: شديد الرأفة بعباده فمن رأفته ورحمته بهم أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها.

ومن رأفته توفيقهم القيام بحقوقه وحقوق عباده.

ومن رأفته ورحمته أنه خوف العباد، وزجرهم عن الغي والفساد، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر:١٦].

فرأفته ورحمته سهلت لهم الطرق التي ينالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته حذرتهم من الطرق التي تقضي بهم إلىٰ المكروهات، فنسأله تعالىٰ أن يتمم علينا إحسانه بسلوك الصراط المستقيم، والسلامة من الطرق التي تفضي بسالكها إلىٰ الجحيم».

✍ **قلت:** ورأفة الله عَزَّوَجَلَّ عامة شاملة كاملة ليس كمثله شيء فيها وليس له مثيل ولا نظير في رأفته سبحان وتعالىٰ، ومن رأفته إرسال الرسل وإنزال الكتب ليتعرف الناس علىٰ ما يضرهم في دنياهم وأُخراهم فيجتنبوه حتىٰ لا تطالهم عقوبة أو يقع بهم مضرة وهذه هي رأفته الشرعية أما الرأفة التكوينية فهي ما أمد به مخلوقاته من أساليب وطرق للدفاع عن نفسها وحماية من تعول إن وجد وتحصيل أقواتها إلىٰ غير ذلك من أمور رأفته بعباده ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج:٦٥]، هذا غير دفاعه عن عباده الضعفاء علىٰ العموم ودفاعه عن أوليائه علىٰ الخصوص ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة:٢٠٧].

وعلىٰ العبد أن يكون رؤوفًا بنفسه أولًا فلا يُوردها المهالك ولا يُوردها موارد السوء التي تستوجب وقوع العقوبة عليها، ثم عليه أن يكون رؤوفًا بعباد الله رحيمًا بهم متأسيًا في ذلك بخير من اتصف بهذا من عباد الله نبينا محمد ﷺ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

[التوبة:١٢٨].

فهذه الصفة الكريمة والأدب العظيم ينبغي لكل عبد مؤمن صادق أن يتحلىٰ بها وخاصة الدعاة إلىٰ الله والعلماء الربانيين فحري إن كان هذا خُلقهم أن يحبهم الناس ويحرصون علىٰ معرفة الله والعمل بدينه اقتداءً بهم، ويا ليت قومي يعلمون.

ثم علىٰ العبد أن يدعو الله جل ثناؤه باسمه الرؤوف الرحيم أن يرؤف به ويعفو عنه ولا يوقع به عقوباته وأن يتقبل منه صالح عمله وأن يجعل عمله كله صالحًا خالصًا لوجهه الكريم.

٧٨- (الرفيق):

✍ **قلت: ودليله:** مأخوذ من حديث النبي ﷺ الصحيح: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَىٰ الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَىٰ الْعُنْفِ**».

الرفق لغة: أصل المادّة يدلّ علىٰ موافقة ومقاربة بلا عنف، يقول ابن فارس: الرّاء والفاء والقاف أصل واحد يدلّ علىٰ موافقة ومقاربة بلا عنف، فالرّفق خلاف العنف.

واصطلاحًا: هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل، وهو ضدّ العنف

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «ومن أسمائه «الرفيق» في أفعاله وشرعه، فالله تعالىٰ رفيق في أفعاله خلق المخلوقات كلها بالتدريج شيئًا فشيئًا بحسب حكمته ورفقه مع أنه قادر علىٰ خلقها دفعة واحدة وفي لحظة واحدة.

ومن تدبر المخلوقات وتدبر الشرائع كيف يأتي بها شيئًا بعد شيء شاهد من ذلك العجب العجيب، فالمتأني الذي يأتي الأمور برفق وسكينة ووقار اتباعًا لسنن الله في الكون واتباعًا لنبيه ﷺ.

فإن كان هذا هديه وطريقته تتيسر له الأمور، وبالأخص الذي يحتاج إلىٰ أمر الناس ونهيهم وإرشادهم، فإنه مضطر إلىٰ الرفق واللين، وكذلك من آذاه الخلق بالأقوال البشعة وصان هو لسانه عن مشاتمتهم، ودافع عن نفسه برفق ولين، اندفع عنه من أذاهم ما لا يندفع بمقابلتهم بمثل مقالهم وفعالهم، ومع ذلك فقد كسب الراحة، والطمأنينة والرزانة والحلم.

ومن تأمل ما احتوىٰ عليه شرع الله من الرفق، وشرع الأحكام شيئًا بعد شيء، وجريانها علىٰ وجه السعة واليسر ومناسبة العباد، وما في خلقه من الحكمة إذ خلق الخلق أطوارًا، ونقلهم من حالة إلىٰ أخرىٰ بحكم وأسرار لا تحيط بها العقول.

والرفق من العبد لا ينافي الحزم، فيكون رفيقًا في أموره متأنيًا، ومع ذلك لا يفوت الفرص إذا سنحت، ولا يهملها إذا عرضت».

✍ **قلت:** وحقيقة الرفق: كما قال الغزاليّ في «الإحياء»: اعلم أنّ الرّفق محمود ويضادّه العنف والحدّة. والعنف نتيجة الغضب والفظاظة، والرّفق واللّين نتيجة حسن الخلق والسّلامة، وقد يكون سبب الحدّة الغضب وقد يكون سببها شدّة الحرص واستيلائه بحيث يدهش عن التّفكّر ويمنع من التّثبّت فالرّفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلّا حسن الخلق، ولا يحسّن الخلق إلّا بضبط قوّة الغضب وقوّة الشّهوة وحفظهما علىٰ حدّ

الاعتدال. ولأجل هذا أثنىٰ رسول الله ﷺ علىٰ الرّفق وبالغ فيه، قال سفيان الثّوريّ لأصحابه: «تدرون ما الرّفق؟». قالوا: قل يا أبا محمّد، قال: أن تضع الأمور في مواضعها: الشّدّة في موضعها واللّين في موضعه والسّيف في موضعه والسّوط في موضعه. وهذا إشارة إلىٰ أنّه لا بدّ من مزج الغلظة باللّين والفظاظة بالرّفق، كما قيل:

ووضـع النّـدىٰ في موضـع السّـيف بـالعلا ... مضـرّ كوضـع السّـيف في موضـع النّـدىٰ

فالمحمود وسط بين العنف واللّين كما في سائر الأخلاق، ولكن لمّا كانت الطّباع إلىٰ العنف والحدّة أميل كانت الحاجة إلىٰ ترغيبهم في جانب الرّفق أكثر، فلذلك كثر ثناء الشّرع علىٰ جانب الرّفق دون العنف. انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ

والرفق سنة الله في معاملة خلقه جميعًا وأمره لأنبيائه الكرام في معاملاتهم لخلقه، كما أثنىٰ جل ثناؤه علىٰ نبيه محمد ﷺ وعلىٰ رفقه في معاملة خلقه وذلك في قوله تعالىٰ: **﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾** [آل عمران:١٥٩].

وقال جل ثناؤه لموسىٰ وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: **﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾** [طه:٤٣،٤٤].

وقد كان النبي ﷺ أرفق الناس بالناس وأرحمهم بعباد الله كما جاء في الحديث الصحيح (عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال: أتيت النّبيّ ﷺ في نفر من قومي فأقمنا عنده عشرين ليلة وكان رحيمًا رفيقًا فلمّا رأىٰ شوقنا إلىٰ أهالينا، قال: «**ارْجِعُوا فَكُونُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ، وَصَلُّوا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ**».

فعلىٰ العبد أن يكون رفيقًا بعباد الله رحيمًا بهم وألا يقابل الإساءة بالإساءة ولكن يصبر علىٰ أذىٰ الخلق ويقابل إساءتهم بإحسان وحلم فعن عائشة رضي الله عنها أنّ يهود أتوا النّبيّ ﷺ، فقالوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللهُ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْكُمْ. قَالَ: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ**» قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «**أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ**».

والرفق بشكل عام دعا الله عَزَّوَجَلَّ إليه العباد في كل شأنهم.

كالذي جاء عن عائشة زوج النّبيّ ﷺ عن النّبيّ ﷺ قال: «**إنّ الرّفق لا يكون في شيء إلّا زانه، ولا ينزع من شيء إلّا شانه**».

وخص الشارع أولي الأمر بهذا ونبههم إلىٰ خطورة المخالفة لهذا الأمر وذلك كالذي جاء عن عائشة ﵂ قالت: سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «**اللهمّ من ولي من أمر أمّتي شيئًا فشقّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمّتي شيئًا فرفق بهم فارفق به**».

فتأمل أخي العزيز مجتمعًا قد تحلىٰ بالرفق فكل كبير يرفق بالصغير وكل غني يرفق بالفقير وكل عالم يرفق بالجاهل حتىٰ يعلمه وكل قادر يرفق بمن قدر عليه وكل إنسان يرفق بأخيه الإنسان بل وكل إنسان يرفق حتىٰ بالحيوان بل بالجمادات من نباتات وأنهار وأشجار، وكل مسلم يرفق بأخيه المسلم فيرفق الرجل بزوجته وأبنائه وكذلك الزوجة ترفق بزوجها وأبنائها وكذلك الأبناء يرفقون بآبائهم والجار يرفق بجاره والبائع يرفق في بيعه والمشتري يرفق في شرائه إلىٰ آخره، تخيل معي أخي الحبيب مجتمعًا علىٰ هذه الصورة المبهرة هل يكون فيه حسد أو حقد أو غل أو ظلم أو فقر أو خلل، فهل علمت الآن أن الخلل يأتي من مخالفة الرحمن والبعد عن القرآن وسنة النبي العدنان، فابدأ بنفسك سيدي فكن أنت أول من يرفق بعباد الله وَأْمُرْ أهلك وذويك وعلم أبناءك الرفق وقل لهم قال رسول الله ﷺ: «**من أُعطي حظّه من الرّفق فقد أُعطي حظّه من الخير، ومن حُرم حظّه من الرّفق حُرم حظّه من الخير**».

وأسأل الله الرفيق أن يرفق بك وبذويك، وأن يرزقك قلبًا رفيقًا بعباد الله.

٧٩- (الرقيب)، ٨٠- (الشهيد):

✍ **قلت: ودليله:** مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء:١]، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ [المجادلة:٦].

✍ قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن اسم الله (الرقيب): والرَّقِيب هُوَ الْحَافِظ الَّذِي لَا يغيب عمَّا يحفظه، يُقَال: رقبت الشَّيْء أرقبه رَقبَة وَقَالَ الله تَعَالَىٰ ذكره: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨] والمراقبة الاستحياء وَالْحيَاء ضرب من التحفظ أيْضًا، وَهُوَ تَعَالَىٰ الْحَافِظ الَّذِي لَا يغيب عَنهُ شَيْء

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ (عن اسم الله الشهيد): والشَّهِيد الْحَاضِر، يُقَال: شهِدت الشَّيْء وَشهِدت بِهِ وأصل قَوْلهم شهِدت بِهِ من الشَّهَادَة الَّتِي هِيَ الْحُضُور، وَالْيَوْم الْمَشْهُود يَوْم الْقِيَامَة لِأَنَّهُ مَعْلُوم كَونه لَا محَالة فَكَانَ معنىٰ الشَّهِيد الْعَالم

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرقيب والشهيد من أسمائه الحسنىٰ وهما مترادفان، وكلاهما يدل علىٰ إحاطة سمع الله بالمسموعات وبصره بالمبصرات، وعلمه بجميع المعلومات الجليّة والخفية، وهو الرقيب علىٰ ما دار في الخواطر، وما تحركت به اللواحظ، ومن باب أولىٰ الأفعال الظاهرة بالأركان.

والرقيب المطلع علىٰ ما أكنته الصدور، القائم علىٰ كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجراها علىٰ أحسن نظام وأكمل تدبير.

ولهذا كانت المراقبة التي هي من أعلىٰ أعمال القلوب هي التعبد لله باسمه الرقيب الشهيد، فمتىٰ علم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر هذا العلم في كل أحواله، أوجب له ذلك حراسة باطنة عن كل فكر وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله وتعبد بمقام الإحسان فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه».

✍ **قلت:** فعلىٰ العبد أن يحفظ الله عَزَّوَجَلَّ في كل أقواله وأفعاله وخطراته ويعلم أن الله شاهدٌ عليه مُشهدٌ عليه أركانه مُشهدٌ عليه ملائكته وكفىٰ بالله شهيدًا.

كما أن علىٰ العبد أن يشهد بالحق ولا يخشىٰ في الله عَزَّوَجَلَّ لومة لائم، وعليه أيضًا إلَّا يشهد إلَّا الخير ولا يشاهد إلَّا ما يرضي ربه، وأن تكون مراقبته لربه دائمة شامله لا يغفل عن تلك المراقبة طرفة عين وهذا لا شك هو عين الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، كما عليه أن يراقب الله عَزَّوَجَلَّ في معاملة الخلق فيوقن في أن الله رقيب عليه فيما يقول وفيما يفعل فيتقي الله عَزَّوَجَلَّ في كل قول وفعل.

ثم هناك لطيفة أخرىٰ إلَّا وهي أن علىٰ العبد أن يكون مراقبًا لمن يعول لا يغفل عن رعيته سواء كانت ولايته عامة أو خاصة علىٰ عباد الله ويعلم أن الناس إذا فقدت الرقابة ضاعت وضيعت إلَّا ما رحم الله، لذلك ينبغي علىٰ العبد أن يوقن بمراقبة الله جل ثناؤه له في كل وقت وحين في خلواته وجلواته في حركاته وسكناته.

والناظر إلىٰ أحوال الناس يدرك أن الناس إذا أيقنت بأن هناك من يراقبها ويشاهدها ويشهد عليها فتقام عليها العقوبات بسبب هذه الرقابة وهذه الشهادة امتنعت من الوقوع في

الأخطاء كما هو مشاهد في حال علم الناس بأن هناك كاميرات مراقبة في مكان ما من منافذ بيع أو أماكن عمل أو حتىٰ في الشوارع والطرقات، وهذا ما دفع الحكومات وأصحاب المتاجر بل وأصحاب الأعمال من تجهيز أماكن العمل بهذه الكاميرات والاتصال بها علىٰ مدار الساعة وجعلها تسجل كل ما يحدث لمعرفة المخطئ وإقامة الدليل عليه ومعاقبته ليسير العمل علىٰ النحو الصحيح. وهنا يتأكد لنا عظم شرعنا وضرورة معرفة الناس بربهم وتربية اليقين في قلوبهم بأن الله رقيب عليهم وأنه شاهد عليهم (وهو كذلك).

فإن الناس لو رُبُّوا علىٰ هذا لكان منهم الخير الكثير والعطاء الجزيل ولقَلت أخطاؤهم وكثر استغفارهم. فانتبه!

فعبادة هذين الاسمين الكريمين والصفتين العظمتين يكون في مراقبة الله جل ثناؤه وخشيته في السر والعلن في القول والفعل وحتىٰ في النظرات وخطرات القلوب وفي تعليم أبنائنا هذه المراقبة من صغرهم وتنمية اليقين في قلوبهم بأن الله معهم يراهم ويسمعهم ويشهد عليهم وأنه لا يوجد مكان لا يطلع الله عليهم فيه، وأن نسأل الله أن يعيننا علىٰ ترك كل ما لا يحب أن يراه منا وفينا والله الموفق لكل خير وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٨١- (الشاكر)، ٨٢- (الشكور):

ودليل هذين الاسمين: قوله تعالىٰ: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر:٣٠]، ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء:١٤٧].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشكُور هُوَ فعول من الشُّكر وأصل الشُّكر فِي الْكَلَام الظُّهُور وَمِنْه يُقَال شكير النبت وشكر الضَّرع إِذا امْتَلَأ وامتلاؤه ظُهُوره.

وَيُقَال دَابَّة شكور وَهُوَ السَّرِيع السّمن فسرعة سمنه ظُهُور أثر صَاحبه عَلَيْهِ.

وَقَالَ الشَّاعِر:

(وَلَا بُـد مــن غَــزْوَة فِــي الرّبيــع... حجــون تكــل الوقــاح الشــكورا)

فَكَأن الشُّكْر من الله تَعَالَىٰ هُوَ إثابته الشاكر علىٰ شكره فَجعل ثَوَابه للشكر وقبوله للطاعة شكرا علىٰ طَرِيقَة الْمُقَابلَة كَمَا قَالَ عز اسْمه ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ [البقرة:١٩٤].

✍ **وقال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «ومن أسمائه تعالىٰ الشاكر الشكور وهو الذي يشكر القليل من العمل الخالص النقي النافع، ويعفو عن الكثير من الزلل ولا يضيع أجر من أحسن عملًا بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة بغير عدٍّ ولا حساب، ومن شُكره أنه يجزي بالحسنة عشرة أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، وقد يجزي اللهُ العبد علىٰ العمل بأنواع من الثواب العاجل قبل الآجل، وليس عليه حق واجب بمقتضىٰ أعمال العباد وإنما هو الذي أوجب الحق علىٰ نفسه كرمًا منه وجودًا، والله لا يضيع أجر العاملين به إذا أحسنوا في أعمالهم وأخلصوها لله تعالىٰ.

فإذا قام عبده بأوامره، وامتثل طاعته أعانه علىٰ ذلك، وأثنىٰ عليه، ومدحه، وجازاه في قلبه نورًا وإيمانًا وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطًا وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق.

ثم بعد ذلك يَقدُم علىٰ الثواب الآجل عند ربه كاملًا موفورًا، لم تنقصه هذه الأمور.

ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ومن تقرب منه شبرًا تقرب منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا تقرب منه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافًا مضاعفة».

✍ **قلت:** والشكر صفة لله عَزَّوَجَلَّ لا تماثل صفة الشكر عند المخلوقين والفرق بينهما كالفرق بين ذات الله عَزَّوَجَلَّ وذوات المخلوقين فبالنسبة لله عَزَّوَجَلَّ شكره يليق بذاته وغناه وعلوه عن خلقه جل وعلا أما المخلوق فهو مفتقر لفضل ربه فينبغي له أن يحفد إليه بالشكر والحمد حتىٰ يديم عليه نعمائه وآلائه ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧].

فعلىٰ العبد أن يكون شاكرًا لأنعم الله مظهرًا عليه أثر النعمة مستخدمًا هذه النعم في مراضيه سبحانه وتعالىٰ داعيًا له أن يزيده من كل نعمة وأن يحفظ عليه نعمه متدبرًا في أصناف النعم التي أنعم الله بها علىٰ عباده موقنًا بأن ما يفعله من خير لن يُكفره بل سيشكُرُ الله له صنيعه ويجزيه عليه خير الجزاء في الدنيا والآخرة فلا يطلب شكرًا من غيره ولا أجرًا من أحد سواه ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان:٨، ٩].

كما ينبغي على العبد أن يشكر كل من أسدى له معروفًا من عباد الله وأن لا يجحد خيرًا قُدم له كما قال رسول الله ﷺ: «**من لم يشكر النّاس لم يشكر الله عَزَّوَجَلَّ**»، ولا ينسى أبدًا قول خير عباد الله الشاكرين: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**».

٨٣- (القريب):

✍ **قلت: ودليله:** مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦].

وصفة قربه من عباده ثابته له شرعًا وعقلًا، فأما شرعًا فكقوله جل ثناؤه ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود:٦١]، وأما عقلًا فإن كل عاقل لا يتخيل أن يكون الرب الذي خلق فسوى وقدر فهدى ودبر أمور عباده وأجاب دعواهم وعلِم بأحوالهم لا يتخيل أن يكون بعيدًا عنهم، لكن من أنكر قربه من أصحاب العقول الحائرة والقلوب الزائغة إنما أنكره لما شبَّه صفة القرب بصفة الخلق، تعالى الله عما يصف الجاهلون علوًّا كبيرًا، وإنما يقيننا بقرب ربنا كما أخبر سبحانه يكون مصحوبًا بعلمنا بأن قربه ليس كمثله شيء ولا يعرف كيفيته على الحقيقة إلّا الله عَزَّوَجَلَّ ونوقن بأن الله جل ثناؤه بائن من خلقه على عرشه استوى، كما أنه على قرب من عباده وهو معهم باطلاعه عليهم وبعلمه بهم وبما أرسل عليهم من ملائكته وحفظته لا يخفى عليه شيء من أمورهم وأحوالهم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء إن شاء.

✍ **قال السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «القريب أي: هو القريب من كل أحد، وقربه نوعان:

قرب عام من كل أحد بعلمه، وخبرته، ومراقبته، ومشاهدته، وإحاطته وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.

وقرب خاص من عابديه، وسائليه، ومجيبيه، وهو قرب يقتضي المحبة، والنصرة، والتأييد في الحركات، والسكنات، والإجابة للداعين، والقبول، والإثابة.

وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق:١٩]، وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود:٦١]، وفي قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦]، وهذا النوع قرب يقتضي إلطافه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم ولهذا يقرن باسمه «القريب» اسمه «المجيب» وهذا القرب قربٌ لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره من لطفه بعبده، وعنايته به وتوفيقه، وتسديده، ومن آثاره الإجابة للداعين والإثابة للعابدين».

✍ **قلت:** وعلىٰ العبد أن يتعبد الله جل ثناؤه بهذا الاسم الشريف بأن يراقب ربه فلا يُرىٰ ربهُ من نفسه إلَّا خيرًا في سره وعلانيته، ثم عليه أن يتقرب إليه بما شرع، وأن لا يقع فيما يبعده عنه عَزَّوَجَلَّ من الذنوب والمعاصي لينال بذلك القرب الخاص، وبالجملة فعبادة القرب العام المراقبة وعبادة القرب الخاص الإحسان، ثم عليه أن لا يسأل أحدًا غير الله، لأنه لا أحد أقرب إليه منه، وإلا كان جاهلًا عقلًا، مشركًا شرعًا لأنه كيف يسأل ميتًا وإن كان صالحًا بل كيف يسأل حيًّا وإن كان قريبًا لأنه مهما كان قربه فالله أقرب منه إليه ومهاما كانت إجابته إن كان له إجابة فالله أسرع منه إليه، وخاصة في الأمور التي لا ينبغي أن يسأل فيها إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ كالهداية والرزق والمحبة والشفاء وغير ذلك مما لا ينبغي إلَّا لله ولا يملكه أحدٌ سواه، وبالجملة لا يجوز شرعًا سؤال الأموات، وذلك كما بينا فيما سبق بأنه نوع من أنواع الشرك، ثم سؤال الأحياء فيما يقدرون مكروه وفيما لا يقدرون محرم، ثم علىٰ العبد أن يدعو ربه بهذا الاسم الشريف فيقول يا قريب يا مجيب يسر لي كذا وكذا، وعليه أن يكون قريبًا من مراضي ربه بعيدًا عن مساخطه. والله من وراء القصد.

٨٤- (الأحد):

✍ **قلت: ودليله:** ما جاء في «مسند أحمد» بسند صحيح أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ قَضَىٰ صَلَاتَهُ وَهُوَ يَتَشَهَّدُ وَهُوَ يَقُولُ: **«اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاللهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الصَّمَدِ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»**، قَالَ: فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: **«قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ»** ثَلَاثَ مِرَارٍ.

✍ قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (الْأَحَد) قَالَ أهل الْعَرَبيَّة: أَصله وحد ثمَّ قلبت الْوَاو همزَة وَهَذَا فِي الْكَلَام عَزِيز جدًّا أَن تقلب الْوَاو الْمَفْتُوحَة همزَة وَلم نَعْرِف لَهُ نظيرًا إِلَّا أحرفًا يسيرَة مِنْهَا أَنَاة وأحرف نظيرتها وَيُقَال هَذَا وَاحِد ووحد كَمَا قدمْنَاهُ من سَالم وَسلم وحاكم وَحكم وَقَالَ النَّابِغَة (علىٰ مستأنس وحد...).

وَقَالَ بعض أَصْحَاب الْمعَانِي: الْفرق بَين الْوَاحِد والأحد أَن الْوَاحِد يُفِيد وحدة الذَّات فَقَط والأحد يفِيدهُ بِالذَّاتِ والمعاني (أي الصفات).

وعَلىٰ هَذَا جَاءَ فِي التَّنْزِيل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١] أَرَادَ الْمُنْفَرد بوحدانيته فِي ذَاته وَصِفَاته تَعَالَىٰ الله علوًّا كبيرًا

✍ **قلت:** ووحدانية الله عَزَّوَجَلَّ وأحاديته سبحانه هي تفرده في أسمائه وصفاته وأفعاله فقد تفرد عَزَّوَجَلَّ بأنه الأول الذي لا شيء قبله والآخر الذي لا شيء بعده والظاهر الذي لا شيء فوقه والباطن الذي لا شيء دونه جل في علاه لا تشبهه الخلائق ولا يشبه أحدًا من خلقه فكما أنه تفرد في وحدانيته وتفرد في ذاته وتفرد بخلق الخلق وملكهم وتفرد في تدبير أمورهم ورزقهم فمن أعظم الفِرا أن يُدعىٰ له الولد أو الصاحبة أو الظهير أو المعين ومن أكبر الغبن أن يشرك معه في ربوبيته أو في عبادته، فينبغي علىٰ العاقل أن يفرد ربه في قلبه وفي عمله بل وفي كل أموره وأحواله وأن يصمد إليه وحده ويتبرأ من كل من سواه عَزَّوَجَلَّ.

٨٥- (الأكرم):

✍ **قلت: ودليله:** ما جاء في قوله جل ثناؤه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ [العلق:١-٣].

✍ **قلت:** والأكرم علىٰ وزن الأفعل الذي هو المبالغة في الفعل والله عَزَّوَجَلَّ ليس كمثله شيء في كرمه أبدًا، وكل كرم فمن كرمه وكل جود فمن جوده وما السماوات والأرض ومن فيهن وما فيهن إلَّا قطرة من بحر جوده، سحاء السماوات والأرض يعطي منذ خلق الخلق ولا تنفذ خزائن جوده ولا ينقطع عطاؤه طرف عين عن عباده، ثم هو أكرم من كل كريم وأجود من كل جواد.

والفرق بين كرم العباد وكرم الله جل ثناؤه كالفرق بين العباد وبين ربهم سبحانه، فرق لا يقارن ولا يقاس، ثم إن كرمه عَزَّوَجَلَّ كرم عام وكرم خاص فأما الكرم العام فما أفاض علىٰ عباده من المطاعم والمشارب والنعم التي لا تعد ولا تحصىٰ.

وأما كرمه الخاص فما مَنَّ به علىٰ مَنِ اصطفىٰ من عباده الصالحين من كرامات وعطاءات لا تعد ولا تحصىٰ مما أفاض علىٰ قلوبهم من معارف وتقوىٰ وإخلاص وصدق توكل عليه إلىٰ غير ذلك مما يجعل العبد يعيش سعادة لا يجدها إلَّا في أنس مولاه عَزَّوَجَلَّ.

وأيضًا مما أنعم عليهم بأن لا يجعل حاجتهم إلَّا إليه وحده ولا توكلهم إلَّا عليه ثم يرضيهم بما قسم لهم ثم إكرامه لهم بالعون علىٰ العبادة ثم تقبله لعبادتهم التي أعانهم عليها ثم الكرم الأعظم الذي لا يليق إلَّا بالأكرم من تفضله عليهم بدار الخلود عند مليكهم المقتدر سبحانه وتعالىٰ، فعلىٰ العبد أن يتخلق بهذا الأدب فيكون كريمًا لا يبخل علىٰ عباد الله بشيء قد أكرمه الله به حتىٰ لا يحرمه الله منه وأن يسأل الأكرم أن يكرمه بالعمل بكتابه وسنة رسوله فلا نعلم كرمًا لله عَزَّوَجَلَّ أعظم علىٰ الخلق من إنزال الكتاب

والوحي بالسنة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ ﴾ [العلق: ١ - ٤] فأعظم كرم الله علىٰ عباده الصالحين الذين ارتضاهم من خلقه العلم الشرعي النافع والفهم عن الله وعن رسوله ﷺ والعمل بمقتضىٰ هذا العلم والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ فيه.

جعلنا الله وإياكم من عباده الكرماء وأكرمنا بدار كرامته.

٨٦- (الحافظ):

✍ **قلت: ودليله:** في قوله تعالىٰ: ﴿ **فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [يوسف: ٦٤].

✍ **قلت:** ومن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ (الحافظ).

والحفظ في اللغة يكون علىٰ منزلتين إما حفظ رعاية وإما حفظ إحصاء وتذكر الذي هو ضد النسيان.

وحفظ الله عَزَّوَجَلَّ يشمل الأمرين، وحفظه جل ثناؤه إما أن يكون عامًّا وهو الذي عم جميع خلقه علىٰ النحو الذي شاء كما حفظ الذراري والأقوات والأرزاق لعباده وكما حفظهم في بطون أمهاتهم وغير ذلك من حفظه لهم بما شاء كيفما شاء وقتما شاء، وإما أن يكون حفظًا خاصًّا وهو الحفظ الذي خص الله به من شاء من عباده الصالحين بحفظ قلوبهم من الزيغ وأبدانهم من أعدائهم وحَفِظ عليهم جوارحهم لما حفظوا الله فيها، كما أن الله جل ثناؤه شمل عباده الصالحين بحفظه العام أيضًا فهم مشتركون مع بقية الخلق في حفظه العام ومنفردون في حفظه الخاص لهم.

أما حفظ الإحصاء فهو جل وعلا الذي أحصىٰ علىٰ عباده أعمالهم كبيرها وصغيرها سرها وعلانيتها لا يخفىٰ عليه شيء من عباده كما قال جل ثناؤه ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ⑲ ﴾ [غافر: ١٩]، وقال أيضًا ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ٦]، فهو شهيد علىٰ عباده محصي لأعمالهم مجازيهم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، وعلىٰ العبد أن يتأمل ويتدبر في كلا الحفظين علىٰ اتساع ملكه وعظم خلقه فهو عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، وعلىٰ العبد أن يوقن بأن عمله مشاهد محفوظ عليه وأن الله لا ينسىٰ شيئًا من أمر عباده أبدًا ويجازيهم علىٰ ذلك في دنياهم وأخراهم لا يبخسهم شيئًا فيُقبل علىٰ فعل الخيرات محتسبًا ذلك عند رب الأرض والسماوات عالمًا بأن الله قد أحاط علمًا بما فعل لأجل مرضاته كالذي جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أكرم شابٌّ شيخًا لسِنِّه إلَّا قيَّض الله له من**

يكرمه عند سنه». فانظر كيف حفظ الله عَزَّوَجَلَّ لهذا الشاب معروفه وأداه إليه بعد سنين طوال.

وعلىٰ العبد أن يحفظ الأمانات التي استودعه الله إياها من سمع وبصر وعقل وبدن وعلم ومعارف إلىٰ غير ذلك مما جعله مستخلف فيه فيرعىٰ فيه حق ربه ولا يخون الأمانة بمعصية الله بها كالذي روي عن ابن عباس قال له النبي ﷺ: «**يا غلام إلا أعلمك كلمات لعل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفعك بهن؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلىٰ الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد جف القلم بما هو كائن، فلو اجتمع الناس علىٰ أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا عليه أو يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن الصبر علىٰ ما تكره خير كثير، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسرًا**».

وهذا الأثر الجامع الذي بين وأوضح أن الجزاء من جنس العمل وأن علىٰ العبد إن أراد حفظ الله الخاص له أن يحفظ الله فيما استرعاه وأنه إن قام بذلك حق القيام حفظه الله عَزَّوَجَلَّ في كل أمره ولم يوكله لغيره فكان في حاجته ولئن سأله أعطاه ولئن استعان به أعانه ولئن استحفظه حفظه، فتأمل ذلك حفظنا الله وإياك.

٨٧- (الولي):

✍ **قلت: ودليله:** في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩﴾ [الشورى:٩].

✍ **قال الزجاج** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْوَلِيّ هُوَ فعيل من الْمُوَالَاة وَالْوَلِيّ النَّاصِر وَقَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وَهُوَ تَعَالَىٰ وليهم بِأَن يتَوَلَّىٰ نَصرهم وإرشادهم كَمَا يتَوَلَّىٰ ذَلِك من الصَّبِي وليه وَهُوَ يتَوَلَّىٰ يَوْم الْحساب ثوابهم وجزاءهم.

✍ **قلت:** وولاية الله جل ثناؤه ولاية خاصة بأوليائه وعباده المتقين فهو ولي الذين آمنوا ليخرجهم من ظلمات الضلال والشرك والكفر إلىٰ نور الإيمان والحق والتوحيد ومن ظلمات الدنيا إلىٰ أنوار الآخرة ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وهو الذي يتولىٰ أمر حسابهم يوم يحشرون إليه فلا يظلمهم مثقال ذرة من خردل ولا يهضمهم شيئًا ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:٥١].

وهو الذي يتولىٰ المتقين فيدفع عنهم بأس الظالمين ومكر الماكرين ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:٥١]، فليس لهم أحد غيره يتولىٰ أمرهم ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى:٣١]، فهو نعم المولىٰ ونعم الولي ونعم النصير.

فعلىٰ العبد أن لا يرضىٰ بولاية أحد إلَّا الله ولا يلجأ لسواه ولا يتوكل علىٰ غيره ويدعوه أن يدافع عنه ويدفع عنه كل سوء ويتدبر في ولاية الله عَزَّوَجَلَّ لأوليائه الصالحين وينظر فيمن اتخذ غيره وليًّا هل يملك ذلك الولي من أمر نفسه شيء ناهيك عن أن يملك لغيره ضرًّا ولا نفعًا ولا حياته ولا نشورًا، ثم عليه أن يدعو الولي أن يتولىٰ أمره كله وأن لا يكله لغيره طرفة عين.

٨٨- (العالم):

✍ **قلت:** وهو مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ﴾ [السجدة:٦].

✍ **قلت:** وعلم الله جل ثناؤه ليس كمثله شيء فهو علم أبدي أزلي قد أحاط بكل شيء ولا يحيط أحدٌ بعلمه ولا يحيط به علمًا أحد من خلقه، فهو يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ولا يجري شيء قل أو كثر صغر أو عظم في ملكه إلَّا بعلمه ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩ ﴾ [الأنعام:٥٩]، فقد وسع كل شيء رحمة وعلمًا ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ ﴾ [غافر:٧]، وهو الذي علم بعباده وبأحوال قلوبهم وبأعمالهم وبأقدارهم وبما يصير إليه أمرهم وبما يصلح أحوالهم في دنياهم ودينهم وأخراهم وعاقبة أمرهم.

ومن علمه أنه علم بمن يستحق الجنة فأعطاه ومن يستحق النار فجزاه، وما يعلم أقدار عباده إلا هو، ولم يجبرهم علىٰ اتباع دينه ولا أجبرهم علىٰ كفر به بل خيرهم ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف:٢٩]..

ولكن من سعة علمه علمًا أزلًا من سيتبع الهدىٰ من ربه ومن سيسلك سبل الضلال.

فعلىٰ العبد أن يراعي علم ربه به فلا يجعله يعلم منه إلَّا خيرًا ولا يرىٰ منه إلَّا صوابًا وليلتمس العلم النافع ليعمل به وليسأل العليم أن يعلمه وأن يفهمه وأن يبذل ذلك العلم في مراضي ربه لعله يزيده علمًا ويبارك له فيما علمه.

٨٩- (العفو):

✍ **قلت: ودليله:** ما جاء في «مسند أحمد» وغيره بسند صحيح أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، فَبِمَ أَدْعُو؟ قَالَ: «**قُولِي: اللهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ، فَاعْفُ عَنِّي**».

✍ **قال الزجاج** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْعَفو يُقَال عَفَوْت عَن الشَّيْء أعفو عَنهُ إِذا تركته وَعَفا عَن ذَنبه إِذا ترك الْعقُوبَة عَلَيْهِ وَالله تَعَالَىٰ عَفْو عَن الذُّنُوب وتارك الْعقُوبَة عَلَيْهَا.

✍ **قلت:** وعفو الله عَزَّوَجَلَّ لا نظير له ولا مثيل فعفو الله نابع من كرمه وعلمه وحكمته وفضله وقوته وقهره، فالعفو لا يكون إلَّا ممن يملك العقوبة وإلا كيف يعفو من لا يملك أن يعاقب فالعفو دليل القوة والقهر والعظمة والكمال.

والله يعفو عمَّن يشاء من عباده بالقدر الذي شاء علىٰ النحو الذي أراد فإما أن يعفو عن ذنوب لم يتب منها العبد ومات عليها لكن حسناته رجحت علىٰ سيئاته وأراد الله بعلمه به ورحمته له أن يتجاوز عنه وإما أن يكون العفو في إمهال العبد وعدم مؤاخذته عند وقوع الذنب حتىٰ يتوب وإما أن يكون عفو الله عن العبد شاملًا كاملًا بعد التوبة.

فالله عَزَّوَجَلَّ حكيم في معاملة عباده عليم بأحوالهم وبما يصلحهم فأحيانًا يعجل لهم العقوبة لعلهم يرجعون وأحيانًا يؤخرها عنهم لعلهم يتوبون وأحيانًا يعفو عنهم لكي يرحمون، وكل ذلك مبناه علىٰ علمه وحكمته وحلمه جل ثناؤه.

وعلىٰ العبد أن يعفو ويصفح إذا كان في ذلك المصلحة الغالبة كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ

ٱللَّهِۗ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور:٢٢]، فأحيانًا تكون المصلحة في العفو وأحيانًا تكون في إنزال العقوبة وذلك بحسب حال المخطئ.

فمثلًا رجل مجرم معتاد الإجرام آذاك فهنا المصلحة الغالبة أن تنزل به العقوبة إن استطعت من خلال شكايته حتىٰ يرتدع بذلك عن العود لمثل هذا أو يسجن فيحجب شره عن الناس، أو يكون الذي آذاك رجل طيب ووقع منه هذا الأمر عندما اشتد غضبه فأخطأ فأوقع بك الأذىٰ فهنا الأولىٰ بك العفو والصفح عنه لأنه ربما إن اشتكيته فأوقعوا عليه العقوبة صار مجرمًا بمخالطة المجرمين، وهكذا فعلىٰ المرء أن ينظر في حال المخطئ وفي المصلحة الراجحة لعله بعفوه هذا أن ينال ما وعد الله به العافين عن خلقه من العفو عنهم ومغفرة ذنوبهم.

وعلىٰ العبد أن يسأل ربه العفو الغفور الرحيم أن يعفو عنه ويغفر له ويرحمه. وأن ينظر ويتدبر كيف عفىٰ الله عن أمم وعن أشخاص حقت عليهم عقوبات فضلًا منه ورحمة فتابوا وأنابوا وأصبحوا من عباد الله الصالحين بفضل عفوه وينظر كيف أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يؤاخذ بكل الذنوب وإنما يؤاخذ ببعضها ولو آخذ بجميعها لهلكنا جميعنا ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾ ﴾ [فاطر:٤٥].

وأخيرًا الفرق بين العفو والمغفرة أن العفو يكون بعد استحقاق العقوبة فيعفو جل ثناؤه فلا يعاقب أما المغفرة فتكون بستر المعصية لعل العبد أن يتوب منها فلا يكون قد افتضح عند الخلق، علىٰ أن المغفرة من الله جل ثناؤه مقدمة لعفوه ورحمته بالعباد. غفر الله لنا ولك.

اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا، غفور تحب المغفرة فاغفر لنا، رحيم تحب الرحمة فارحمنا.

٩٠- (الغفار)، ٩١- (الغفور):

✍ **قلت: ودليله:** قوله جل ثناؤه: ﴿ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [القصص:٦٦] وقد ورد اسم الله الغفار ثلاث مرات في كتاب الله العزيز.

أما صفة المغفرة فكقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه:٨٢].

أما دليل اسم الله الغفور ففي قوله جل ثناؤه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر:٤٩، ٥٠]، وجاء اسم الله الغفور في كتاب الله إحدىٰ عشرة مرة.

أما الصفة: فكقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [البقرة:١٩٢]، وجاءت صفة المغفرة في كتاب الله أكثر من اثنتين وخمسين مرة.

✍ **قال الزجاج** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في اسم الله (الْغفار) وأصل الغفر فِي الْكَلَام السّتْر والتغطية يُقَال اصبغ ثَوْبك فَهُوَ أغفر للوسخ أي أحمل لَهُ وأستر وَمعنىٰ الغفر فِي الله سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يستر ذنُوب عباده ويغطيهم بستره كَمَا جَاءَ فِي الدُّعَاء «يَا ستار استرنا بسترك الْحسن الْجَمِيل».

وكما جَاءَ فِي الْخَبَر الْمَأْثُور عَن رَسُول الله ﷺ أنه كَانَ يَقُول فِي دُعَائِهِ: «**لا تهتك أستارنا، وَلا تبل أخبارنا، وَلا تكلنا إِلَىٰ أنْفُسنَا طرفَة عين**».

الغفور هُوَ فعول من قَوْلهم غفرت الشَّيْء إِذا سترته.

وفعول مَوْضُوع للْمُبَالَغَة وَكَذَلِكَ فعال وَإِنَّمَا جَازَ تكرارهما وَإِن كَانَا بِمَعْنىٰ وَاحِد وَأنت لَا تكَاد تَقول فِي الْكَلَام فلَان تروك للفواحش تَرَّاك لَهَا، وصدوف عَن القبائح صدَّاف عَنْهَا لمعنيين.

أحدهمَا: أن اخْتِلَاف الْمَوْضِعَيْنِ يحسن من ذَاك مَا لا يحسن مَعَ الْمُجَاورَة إِلَّا تراهم أجمعُوا علىٰ أن الإيطاء مَعَ بعد الْموضع لَيْسَ هُوَ مثله مَعَ قرب الْموضع.

وَالْوَجْه الآخر: أن هَذَا يحسن فِي صِفَات الله تَعَالَىٰ ذكره وَإِن كَانَ لَا يحسن فِي أسامي المخلوقين وصفاتهم لأنهم لم يبلغُوا قطّ فِي صفة من الصِّفَات وَالله تَعَالَىٰ المتناهي فِي هَذِه الصِّفَات الَّتِي تمدح بهَا فَيحسن فِيهِ سُبْحَانَهُ من ذَلِك مَا لَا يحسن فِي غَيره وَيَجِيء علىٰ قِيَاس قَول أبي عَليّ قطرب أن يكون الغفور فِي ذنُوب الْآخِرَة والغفار الَّذِي يسترهم فِي الدُّنْيَا وَلَا يفضحهم وَالْوَجْه هُوَ الَّذِي ذكره أَبُو إِسْحَاق.

✍ **قلت:** ومغفرة الله عَزَّوَجَلَّ لا يملكها إِلَّا هو فلا يملكها ملك مقرب ولا رسول مرسل ولا عبد من عباده فقد خص الله عَزَّوَجَلَّ بها ذاته العلية كما في قوله جل ثناؤه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥]، وهذا

ليس كما يدعي بعض الجهلة المضللون بأن هناك من يغفر الذنوب من الخلق فيذهبون إلىٰ كهنتهم ورهبانهم ليغفروا لهم فهؤلاء لا دين لهم ولا عقل، لأنه لا يستطيع أحدٌ أن يستر من أراد الله فضحه أو أن يفضح من أراد الله ستره وهذا واضح معاين لأن الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور هو وحده ومن يعلم الخفيات هو وحده ومن يملك كشف الأستار وفضح الفجار هو وحده ومن يملك إيقاع العقوبات هو وحده سبحانه وتعالىٰ عما يشرك الظالمون علوًّا كبيرًا.

ثم الحمد لله أن هذا الأمر بيد الله وحده وإلا ما سترنا أحد وما رحمنا أحد، فعلىٰ العبد أن يلجأ إلىٰ ربه عَزَّوَجَلَّ ويسأله العفو والمغفرة، وعليه أن ينظر ويتدبر في سعة مغفرة ربه علىٰ عباده فكم غفر وكم عفا وكم صفح عن عباده وأنه لولا سعة مغفرته ودوام عفوه لهلكنا.

ثم علىٰ العباد أن يكثروا من الاستغفار فإنه يحجب عنهم غضبة الجبار وحلول نقمته عليهم، والاستغفار مدعاة لجلب كل خير من الله عَزَّوَجَلَّ من أرزاق متنوعة كإنزال الغيث والبركة في الأموال وكثرة الأولاد إلىٰ غير ذلك كما في قوله جل ثناؤه: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ [نوح:١٠-١٤].

وأيضًا فمغفرة الله عَزَّوَجَلَّ لابد أن يتبعها عفوه فإنه ستر فغفر ثم عفىٰ وصفح وربك الغفور ذو الرحمة وهو العفو ذو الصفح عن عباده، ثم علىٰ العبد أن يلزم الدعاء لله أن يغفر له ولوالديه ولمن له حق عليه أو فضل، بل وأن يستغفر أي يطلب من الله المغفرة لكل من يحبهم بل وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات فإن في ذلك خيرًا كثيرًا وحفظًا للنعم ودفعًا للنقم ثم عليه أن يسبق استغفاره بالتوبة والإنابة لربه جل ثناؤه وأن يتبع التوبة بالاستغفار بل ويتبع كل عمل صالح باستغفار من تقصير أو سهو أو غفلة أو إضاعة شيء كان ينبغي أن يفعل فيه ولم يفعله.

وخلاصة الأمر علىٰ العبد أن يغفر ويلزم هو الاستغفار ويبتعد عن كل ما يغضب الواحد القهار.

٩٢- (القادر):

✍ **قلت: ودليله:** في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [الأنعام:٦٥].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ في اسم الله (الْقَادِر): والْقَادِر علىٰ مَا يَشَاء لَا يعجزه شَيْء وَلَا يفوتهُ مَطْلُوب والقادر منا وَإِن اسْتحق هَذَا الْوَصْف فَإِن قدرته مستعارة وَهِي عِنْده وَدِيعَة من الله تَعَالَىٰ وَيجوز عَلَيْهِ الْعَجز فِي حَال وَالْقُدْرَة فِي أُخْرَىٰ وَالله تَعَالَىٰ هُوَ الْقَادِر فَلَا يتَطَرَّق عَلَيْهِ الْعَجز وَلَا يفوتهُ شَيْء.

قلت: وقدرة الله عَزَّوَجَلَّ لا مثيل لها ولا يقدر عليها أحدٌ من خلقه ولا يناظره أحدٌ فيها، فقدرته عَزَّوَجَلَّ كاملة شاملة دائمة أبدية أزلية ذاتية فعلية، فالله جل وعلا لا يعجزه شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة من خردل، فخلقه مقهورون تحت ظل قدرته فهو الفعال لما يريد وقتما يريد علىٰ النحو الذي يريد، وانظر في آثار تلك القدرة المبهرة في خلق الخلق وإخضاعهم وتسخيرهم لما أراده وانظر في قدرته المبهرة في خلق ما عظُم من الخلق من أجرام ونجوم وكواكب ومجرات وجبال شامخات في غاية العظمة والكمال وفي غاية القوة والجلال ثم هو قادرٌ عليهم ودليل ذلك تسخير نظامهم فلا يخرجون من قدرته وتسخيره بل هم خاضعون خضوعًا تامًّا كاملًا لما خلقوا له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر:٤١].

ثم علىٰ العبد أن يتدبر قدرة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عباده فكما أنه دبر أمرهم فخلقهم ورزقهم فهو الذي يملكهم وما ملكوا، وكل قدرة أولاها الله جل ثناؤه لعباده فمن قدرته فلا قدرة لمخلوق إلَّا بمعونة الخالق فهو الذي أعطىٰ كل ذي قدرة قدرته وهو الذي قدر علىٰ كل عاجز عجزه فلا حول ولا قوة إلَّا به، ومرد كل أمر إليه، وكل قدرة لمخلوق قاصرة ناقصة مضمحلة يحيط بها العجز من كل مكان والله لا يعتريه عجز ولا نقصان ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم علىٰ العبد أن ينظر لقدرة الله علىٰ الملوك والعظماء والأقوياء والقادرين من خلقه كيف أهلك من شاء منهم وكيف أذل من أراد منهم وكيف سلط من شاء علىٰ من يشاء، وهذا مدعاة للعبد أن لا يعتمد علىٰ قدرة أحد إلَّا الله وأن لا يثق في قوة أحد إلَّا مولاه وأن يخشىٰ ربه ويتقيه حق تقواه ويعلم أنه قادر عليه وأن قدرته منه وحده إن شاء أعطاها له وإن شاء منعها عنه وأعجزه وأخزاه، وليتذكر دائمًا قدرة ربه عليه إن هو قدر علىٰ أحدٍ من خلق الله فإذا دعته قدرته علىٰ ظلم الناس أو هضمهم أو إيذائهم فليتذكر قدرة الله عليه، وليسأل القدير القادر أن يمنحه القدرة علىٰ فعل الخيرات وترك المنكرات وإقامة الطاعات والبعد عن المنهيات وأن لا يسلط عليه صاحب قدرة ظالم، وأن يجلب له كل منفعة ويحجب

عنه كل مضرة بقدرته وعظمته وحوله وطوله جل في علاه، وإن عجز عن شيء من الخير فليستعن بقدرة مولاه.

٩٣- (القاهر):

✍ **قلت: ودليله:** مأخوذ مما جاء في كتاب الله جل ثناؤه ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨]، وورد اسم الله القاهر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ مرتين.

✍ **قال صاحب لسان العرب:** والقَهْرُ: الغَلَبة والأخذ مِنْ فَوْق. والقَهَّارُ: مِنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

✍ **قَالَ الأزهري:** وَاللهُ القاهرُ القَهّار، قَهَرَ خَلْقَه بِسُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ وصَرَّفهم عَلَىٰ مَا أراد طَوْعًا وَكَرْهًا، والقَهَّار لِلْمُبَالَغَةِ.

✍ **وَقَالَ ابْنُ الأثير:** الْقَاهِرُ هُوَ الْغَالِبُ جَمِيعَ الْخَلْقِ. وقَهَرَه يَقْهَرُه قَهْرًا: غَلَبَهُ. وَتَقُولُ: أَخَذْتُهُم قَهْرًا أي مِنْ غَيْرِ رِضَاهُمْ. وأَقْهَرَ الرجلُ: صَارَ أَصحابُه مَقْهُورين. وأَقْهَرَ الرجلَ: وَجَدَه مَقْهُورًا.

✍ **قلت:** وقهْرُ الله عَزَّوَجَلَّ قهرٌ كاملٌ شاملٌ لكل عباده، وقهره سبحانه وتعالى قهر قدري وليس قهرًا شرعيًّا، فهو لم يقهر عباده لعبادته ولكن قهرهم لحكمه الكوني التكويني فكل ملكه خاضع لسلطانه جل في علاه كما قال جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:١١]، فكل الملك والملكوت خاضع لسلطانه حتىٰ بدن الكافر والملحد الذي لا يؤمن به وذلك مشاهد معاين لا ينكره إلَّا جاحد فهو الذي يحييه ويميته ويقويه ويضعفه ويغنيه ويفقره إلىٰ غير ذلك من الأمور القدرية التي قدرها علىٰ عباده رغم أنوفهم فهذا سلطان قهره علىٰ عباده الذي لا يخرج منه أحد.

ثم خيَّر المكلفين من عباده في أن يؤمنوا به أوْ لَا يؤمنوا ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩]، ولم يقهر أحدًا منهم علىٰ عبادته فهو الغني الحميد العزيز المجيد وإنما مَنْ أراد أن يؤمن ويتبع الهدىٰ من ربه أعانه وأيده ومن أراد غير ذلك أذله وأبعده.

وخلاصة الأمر أن الكل خاضع لسلطان إرادته فهو ربهم وخالقهم ومالك أمرهم ولا يشاؤون إلَّا بمشيئته ولا يقدرون إلَّا بقدرته ولا حول ولا قوة إلَّا به.

فعلىٰ العبد أن يخضع لسلطان مولاه الشرعي فيطيع أمره ويجتنب نهيه ويصدق خبره طائعًا مريدًا حافذًا لمراضيه ساعيًا فيما يرضيه فينال بذلك سعادة الدارين وإحدىٰ الحسنيين.

٩٤- (المتعال):

✍ **قلت: ودليله:** قوله جل ثناؤه: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩ ﴾ [الرعد:٩].

✍ **قال الزجاج** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المتعالي هُوَ المتفاعل من الْعُلُوّ وَالله تَعَالَىٰ عَال ومتعال وَعلي.

✍ **وقال صاحب «لسان العرب»:** والله عَزَّوَجَلَّ هُوَ العَلِيّ المُتَعَالِي العَالِي الأعْلَىٰ ذُو العُلا والعَلاء والمَعَالِي، تَعالىٰ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ علوًّا كبيرًا، وَهُوَ الأعْلىٰ سُبْحَانَهُ بِمَعْنَىٰ الْعَالِي، وَتَفْسِيرُ تَعالَىٰ جلَّ ونبَا عَنْ كلِّ ثناءٍ فَهُوَ أعظم وأجلُّ وأعْلىٰ مِمَّا يُثنىٰ عَلَيْهِ لَا إِلَهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ قَالَ الأزهري: وَتَفْسِيرُ هَذِهِ الصِّفَاتِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ يَقْرُب بعضُها مِنْ بَعْضٍ، فالعَلِيُّ الشَّرِيفُ فَعِيل مِنْ عَلا يَعْلُو، وَهُوَ بِمَعْنَىٰ العالِي، وَهُوَ الَّذِي لَيْس فَوْقَهُ شَيْءٌ. وَيُقَالُ: هُوَ الَّذِي عَلا الخلقَ فَقَهَرهم بِقُدْرَتِهِ. وأما المُتَعَالِي: فَهُوَ الَّذِي جَلَّ عَنْ إفْكِ المُفْتَرِين وتَنَزَّه عَنْ وَساوس المتحيِّرين، وَقَدْ يَكُونُ المُتَعَالِي بِمَعْنَىٰ الْعَالِي. والأعْلَىٰ: هُوَ اللهُ الَّذِي هُوَ أعلىٰ مِنْ كُلِّ عالٍ وَاسْمُهُ الأعْلىٰ أي صَفَتُهُ أعْلىٰ الصِّفَاتِ، والعَلاءُ: الشرفُ، وَذُو العُلا: صَاحِبُ الصِّفَاتِ العُلا، والعُلا: جَمْعُ العُلْيا أي جَمْعُ الصِّفَةِ العُليا وَالْكَلِمَةِ العلْيا، وَيَكُونُ العُلىٰ جَمْعُ الِاسْمِ الأعْلىٰ، وصفةُ اللهِ العُلْيا شهادةُ أنْ لَا إِلَه إلَّا اللهُ، فَهَذِهِ أعلىٰ الصِّفَاتِ، وَلَا يُوصَفُ بِهَا غَيْرُ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَمْ يَزَلِ اللهُ عَلِيًّا عَالِيًا مُتَعالِيًا، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ إلحاد المُلْحِدِين، وَهُوَ العَلِيُّ الْعَظِيمُ. وعَلا فِي الجبَل والمَكان وَعَلَىٰ الدابَّةِ وكلِّ شَيْءٍ وعَلاهُ عُلُوًّا واسْتَعْلاه واعْتَلاه مثلُه، وتَعَلَّىٰ أي عَلا فِي مُهْلة. وعَلِيَ، بِالْكَسْرِ، فِي المَكارِمِ والرِّفْعة والشَّرَف يَعْلَىٰ عَلاءً، وَيُقَالُ أيضًا: عَلا، بِالْفَتْحِ، يَعْلىٰ.

✍ **قلت:** وعبودية اسم الله عَزَّوَجَلَّ (المتعال) تكون في التدبر في تعالىٰ الله تبارك وتعالىٰ بذاته وبأسمائه وصفاته وأفعاله علوًّا كبيرًا عن ذوات خلقه وعن أوصافهم وعن أفعالهم ثم هو متعالي عن كل نقص وزلل سبحانه وتعالىٰ، وعلىٰ العبد أن يرفع يديه إلىٰ مولاه عند سؤاله حاجته، وأن يتواضع لربه وينسب كل فضل وخير إليه وحده وينزه ربه عن كل نقيصة، ويُعلىٰ أمر مولاه عن كل أمر ويعلي كلمته عن كل كلمة، ويعلي كلامه وكلام نبيه

ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١﴾ [الحجرات:١]، ويعلم أن كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلىٰ فيجاهد لكي تكون كذلك دائمًا، ويوقن بعلو ذاته سبحانه وتعالىٰ وأنه علىٰ عرشه مستوٍ.

ثم علىٰ العبد أن تكون همته عالية في طلب معالىٰ الأمور، وأن لا يكون سفيها في طلبه فيطلب رذائل الأمور ويسعىٰ وراء سفسافها، ثم عليه أن يتعالىٰ عن الذنوب والمعاصي فلا يقع فيها بل ولا يقبل أن يقترب منها والله تعالىٰ أعلم وأحكم.

٩٥- (المقتدر):

✍ **قلت:** ودليله مأخوذ من قوله جل ثناؤه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ۝٤٥﴾ [الكهف:٤٥].

✍ **قال الزجاج** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المقتدر) مُبَالغَة فِي الْوَصْف بِالْقُدْرَةِ وَالْأَصْل فِي الْعَرَبيَّة أن زِيَادَة اللَّفْظ زِيَادَة الْمَعْنىٰ فَلَمَّا قلت اقتدر أَفَادَ زِيَادَة اللَّفْظ زِيَادَة الْمَعْنىٰ.

✍ **وقال ابْنُ الأثير:** فِي أسماء اللهِ تَعَالَىٰ القادِرُ والمُقْتَدِرُ والقَدِيرُ، فَالْقَادِرُ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ قَدَرَ يَقْدِرُ [يَقْدُرُ]، والقَدِير فَعِيلٌ مِنْهُ، وَهُوَ لِلْمُبَالَغَةِ، وَالْمُقْتَدِرُ مُفْتَعِلٌ مِنِ اقْتَدَرَ، وَهُوَ أبلغ.

✍ **قلت:** والله عَزَّوَجَلَّ قادر مقتدر علىٰ كل خلقه فلا يُعجزه شيء منهم ولا من أفعالهم ولا يَعجز عن شيء فأمره عَزَّوَجَلَّ نافذ في خلقه بأن يقول للشيء كن فيكون ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧]، وهو جل ثناؤه مقتدر علىٰ خلقه في تصريف أمورهم وتقويم أحوالهم علىٰ أعدل وأكمل وأعظم وجه، وهو القادر علىٰ تحويل أحوالهم علىٰ النحو الذي يريده في الوقت الذي يريده بالكم الذي يريده علىٰ الكيف الذي يريده.

وعلىٰ العبد أن يرضىٰ بما قدر مولاه وشاء وأن يوقن بأن الله قادر مقتدر عليه لا يعجزه شيء من أمره فيخشىٰ غضبته ويهاب عقابه ويسعىٰ علىٰ طلب العفو منه والمغفرة. وأنه علىٰ كل شيء مقتدر، فيلجأ إليه عند حاجته وإن كان قد فقد الأسباب أو كان يظن أن الأمر محال وأن حدوثه خيال فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو علىٰ ما يشاء قدير.

٩٦- (المليك):

✍ **قلت: ودليله:** مأخوذ من قوله جل ثناؤه: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر:٥٥].

✍ **قلت:** والله عَزَّوَجَلَّ مَلك العباد ومَلك أقدارهم وهو المالِك لكل ما يجازيهم به من خير وشر فهو المليك المالك للجنة والنار، فعلىٰ العباد أن يسألوا مالك الجنة أن يدخلهم إياها ومالك النار أن يعيذهم منها فلا يرجوا غيره ولا يحفدوا لسواه، ولتطمئن قلوب الطائعين إلىٰ مليكهم وسيدهم أنهم إن أطاعوه واتبعوا هداه رزقهم مقاعد الصدق والحق عنده لا تزول عنهم ولا تحور ولا تتحول عنهم ولا تبور فكما صدقوا ربهم صدقهم وعده في ملكه الذي لا يزول، فعلىٰ العبد أن يسأل المليك من كل خير يملكه ويستعيذ به من كل شر وسوء، وأن يتأمل في سعة ملكه جل ثناؤه وعظم قدرته عليه، فلا يخرج شيء وإن عظم من ملكية الله ولا ينفد شيء وإن قل من ملكيته وكل شيء خاضع لحكمه لأنه مالكه ومقدر أمره وحده جل ثناؤه.

٩٧- (المولى):

✍ **قلت: ودليله:** في قوله جل ثناؤه: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الأنفال:٤٠].

✍ **قلت:** والمولىٰ هو الذي يتولىٰ عباده ويتولىٰ شؤونهم جميعها، وتولي الله لأمور العباد يكون بولايته العامة وولاية الخاصة، فولايته العامة لخلقه تكون في تدبير أمورهم وتيسير معايشهم وشفاء مرضاهم وحفظ نسلهم إلىٰ غير ذلك من أمور لا تعد ولا تحصىٰ في شؤون الخلق ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾

[الشورى:٩].

أما الولاية الخاصة فهي لأوليائه الصالحين من نصرة وحفظ ورعاية وتدبير خاص لشؤونهم وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وعلىٰ العبد أن يسعىٰ جاهدًا لنيل هذه الولاية بالإكثار من الطاعات والبعد عن المنهيات والسعي في الخيرات واليقين برب الأرض والسماوات والقرب من خالق البريات، ولا يلتفت إلىٰ أحدٍ من الخلق

وليوقن بأنه إن كان الله معه يتولىٰ أمره فلا غالب له من الناس وإن لم يكن الله معه، فلا ناصر له منهم، وليعلم أن الله يتولىٰ المؤمنين المتقين الصادقين وأن الكافرين لا مولىٰ لهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد:١١].

٩٨- (النصير):

✍ **قلت: ودليله:** في قوله جل ثناؤه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال:٤٠].

✍ **قلت:** والنصير هو الذي يولي النصرة لعباده الصالحين وهو صاحب النصر والظفر علىٰ كل عدو لهم ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٠].

ونصرة الله عَزَّوَجَلَّ لعباده تكون من عدة جهات:

* أولًا: أن ينصرهم علىٰ أنفسهم بمعنىٰ أن ينتصر العبد علىٰ شهواته وملذاته الباطلة ورغباته الزائفة المهلكة فهذه أعظم وأكمل وأولىٰ وأول نصرة من الله لعبده المؤمن.

* ثانيًا: ثم النُصرة بالظفر علىٰ أعدائهم من شياطين الجن والإنس فيقيهم شر الاثنين معًا.

* ثالثًا: وهناك أسباب ذكرها أهل العلم لابد من الأخذ بها لينال العبد نصرة النصير ويظفر بمعية الرب القدير سبحانه وتعالىٰ ومن تلكموا الأسباب:

- أولًا: طاعة الله ورسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد:٧].

- ثانيًا: صدق الاعتماد والتوكل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

- ثالثًا: إخلاص النية والقصد لله والتجرد له.

- رابعًا: ترك المعاصي والبعد عن فضول المباحات.

- خامسًا: دراسة العقيدة الصحيحة وتربية الأمة عليها.

- سادسًا: مطالعة سير من نصرهم الله وأيدهم من السلف الصالح وتعليم ذلك للأبناء.

- سابعًا: الزهد في الدنيا والعمل للآخرة، إعداد العدة المادية والمعنوية.

- ثامنًا: تدريب النفوس علىٰ الصبر ومجاهدة النفس.

- تاسعًا: تزكية النفوس باتباع منهج التزكية في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

- عاشرًا: مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في السر والعلانية.

- حادي عشر: إصلاح ذات بين المسلمين.

- ثاني عشر: إقامة التوحيد قبل توحيد الكلمة.

- ثالث عشر: أن تكون الغاية العليا هي إقامة الدين بنا وليس إقامة الدنيا لنا.

- رابع عشر: الاستعداد المادي بتعلم العلوم النافعة وتجهيز الجيوش وتمكين أهل الصلاح من ولاية الأمر وإعطاء كل ذي قدر قدره وتعلية أمر العلم والعلماء في كل مجال نافع للأمة والاستغناء عن معونة أعداء الأمة والزهد فيما عندهم من أمور الدنيا التي فتحوها علىٰ الأمة لكي يستعبدوها بالشهوات الزائفة والملذات الفانية ومعرفة العدو الحقيقي للأمة وبث روح الأمل وعدم اليأس والاستسلام لأن اليأس هو أول منازل الهزيمة والأمل والثقة بالله عَزَّوَجَلَّ هو أول مراحل النصر والتمكين، وغير ذلك مما أورد أهل العلم مجملًا ومفصلًا، فالأمر ليس بعسير وهو أيضًا ليس بسهل يسير إلَّا علىٰ من يسَّره الله له، فتغيير حال الأمة يبدأ بي وبك ومن هنا يجب أن نبدأ بتربية نفوسنا أولًا وتربية أزواجنا ثانيًا، وتربية أبنائنا ثالثًا ثم الأقرب فالأقرب، وابداء بمن تعول ولا تتعجل النصر فمن تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، فيا ليت قومي يعلمون.

فعلىٰ العبد أن يسأل النصير أن ينصره ويستعين به في الظفر علىٰ أعدائه ويتوكل عليه لا علىٰ غيره، وعليه أن يكون هو نصيرًا للمظلومين، نصيرًا للحق أينما كان ومع أي أحد كان، وأن لا ينتصر لنفسه إن كانت علىٰ باطل بل يتبين أولًا إن كان علىٰ الحق أم علىٰ الباطل وذلك بعرض نفسه علىٰ الحق الذي هو كتاب الله وسنة رسوله وذلك من خلال العلماء الربانيين ولا يَعرض نفسهُ علىٰ نفسِهِ فيهلك ويهلكها معه، بل عليه أن ينتصر منها إن كانت علىٰ باطل، ثم عليه أن يتأمل كيف نصر الله عَزَّوَجَلَّ أولياءه وهزم أعداءه وأذل من خالفه ولو بعد حين فإن هذا الباب باب عظيم من دلالات الربوبية وشهادة واضحة جلية علىٰ وجود الخالق سبحانه وتعالىٰ فتأمله فإنه من أنفع ما يكون والله ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٩٩- (الوارث):

✍ **قلت:** وهو مأخوذ من قوله جل ثناؤه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨٠].

✍ **قال الزجاج** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْوَارِث كل بَاقٍ بعد ذَاهِب فَهُوَ وراث أو لم يكن علىٰ هَذَا يدل وضع الْكَلِمَة وَفِي الحَدِيث أن رَسُول الله ﷺ كَانَ يَقُول فِي دُعَائِهِ: «**متعنَا بأسماعنا وأبصارنا واجعله الْوَارِث منا**».

✍ **قلت:** والله عَزَّوَجَلَّ هو الوارث علىٰ الحقيقة فهو الباقي بعد زوال كل خلقه فهو يرثهم وكل ما ملكهم فيه كما قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم:٤٠]. فهو الأول فلا شيء قبله وهو الآخر فلا شيء بعده، وهنا دلاله في غاية الروعة والجمال في اسمه جل ثناؤه (الوارث) إلَّا وهي أن الأمر علىٰ الحقيقة يرجع إليه فعلىٰ العبد أن لا يلتفت لغيره، وإذا علم العبد أنه لا محالة سيترك ما ملَّكه الله عَزَّوَجَلَّ فيه وأنه سيتركه لا محالة لمن ملَّكه فيه، التفت إلىٰ ربه فعمل بما ملَّكه في طاعة مولاه ولم يبخل به علىٰ خلق الله، وعلم أنه سيورث لا محالة إذًا فهو ميت لا محالة، وكل هذا مدعاة إلىٰ ترك الدنيا وعدم الانشغال بها فهي زائلة لا محالة وتفريغ القلب للوارث الذي له ميراث السماوات والأرض والسعي الدائم لمراضيه وعدم الركون لغيره.

ثم علىٰ العبد أن يستعد ليوم يرثه ورثته فيتأهب لذلك اليوم فلا يُورِث وارثه إلَّا خيرًا، وإذا عَلم أن ما زاد عنه سيصير إرثًا اجتهد أن يعمل به في الطاعة ليكون له خيرًا عند ربه، ثم من الخير أن يترك ورثته أغنياء، من مال حلال طيب، ثم عليه أن يدعو بدعاء النبي ﷺ فيسأل الوارث فيقول اللهم: «**متعنَا بأسماعنا وأبصارنا واجعله الْوَارِث منا**» وليتدبر كم من مالك قد عظُم ملكه وفاض ماله وكثرت ضياعه وأملاكه فلم يرثه أحدٌ إلَّا الله، وكم من مُلك أورثه الله عَزَّوَجَلَّ لعباده الصالحين من بعد أن كان في أيدي الظالمين الطغاة إلىٰ غير ذلك فإنه باب يعين علىٰ الثقة بالله وحسن التوكل عليه والاجتهاد في طاعته وسؤاله دون غيره.

ومن أسماء الله جل ثناؤه التي وردت في سنة رسول الله ﷺ:

١٠١- (السُّبوح):

✍ **قلت: ودليله:** مأخوذ من الحديث الصحيح الذي أخرجه أحمد (عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ**».

وسبح في اللغة: السَّبْحُ والسِّباحة: العَوْمُ. سَبَحَ بِالنَّهْرِ وَفِيهِ يَسْبَحُ سَبْحًا وسِباحةً.

وسَبْحُ الفَرَسِ: جَرْيُه. وَفَرَسٌ سَبُوحٌ وسابِحٌ: يَسْبَحُ بِيَدَيْهِ فِي سَيْرِهِ.

والسَّبْحُ: الفَراغُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ [المزمل:٧]؛ إنما يَعْنِي بِهِ فَرَاغًا طَوِيلًا وتَصَرُّفًا؛ وَقَالَ اللَّيْثُ: مَعْنَاهُ فَرَاغًا لِلنَّوْمِ.

✍ وَقَالَ الزَّجَّاجُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]؛ قَالَ: مَنْصُوبٌ عَلَىٰ الْمَصْدَرِ؛ الْمَعْنَىٰ أُسبِّح الله تَسْبِيحًا. قَالَ: وَسُبْحَانَ فِي اللُّغَةِ تَنْزِيهُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَنِ السُّوءِ؛ قَالَ ابْنُ شُمَيْلٍ: رأيت فِي الْمَنَام كأنَّ إِنسانًا فَسَّرَ لِي سُبْحَانَ اللهِ، فَقَالَ: أما تَرَىٰ الْفَرَسَ يَسْبَحُ فِي سُرْعَتِهِ؟ وَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ السرعةُ إِليه والخِفَّةُ فِي طَاعَتِهِ، وجِماعُ مَعْنَاهُ بُعْدُه، تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، عَنْ أن يَكُونَ لَهُ مِثْلٌ أو شَرِيكٌ أو نِدٌّ أو ضِدٌّ؛

✍ وَقَالَ ابْنُ جِنِّي: سُبْحَانَ اسْمُ عَلَمٍ لِمَعْنَىٰ الْبَرَاءَةِ وَالتَّنْزِيهِ بِمَنْزِلَةِ عُثْمانَ وعِمْرانَ، اجْتَمَعَ فِي سُبْحَانَ التَّعْرِيفُ والألف وَالنُّونُ، وَكِلاهُمَا عِلَّةٌ تَمْنَعُ مِنَ الصَّرْفِ. وسَبَّح الرجلُ: قَالَ سُبْحَانَ اللهِ؛ وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾؛ قَالَ رُؤْبَةُ: سَبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ مِن تَأَلُّهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء:٤٤]؛ قَالَ الأزهري: وَمِمَّا يَدُلُّكَ عَلَىٰ أن تَسْبِيحَ هَٰذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ تَسْبِيحٌ تَعَبَّدَتْ بِهِ قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِلْجِبالِ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ [سبأ:١٠]؛ وَمَعْنَىٰ أَوِّبي سَبِّحي مَعَ دَاوُدَ النهارَ كلَّه إِلىٰ اللَّيْلِ؛ وَلَا يَجُوزُ أن يَكُونَ مَعْنَىٰ أمر اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِلْجِبالِ بالتأْويب إِلَّا تَعَبُّدًا لَهَا؛ وَكَذَٰلِكَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:١٨]، فَسُجُودُ هَٰذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ عِبادَةٌ مِنْهَا لِخَالِقِهَا لَا نَفْقَهُها عَنْهَا كَمَا لَا نَفْقَهُ تَسْبِيحَهَا؛ وَكَذَٰلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة:٧٤]؛ وَقَدْ عَلِم اللهُ هُبوطَها مِنْ خَشْيَتِهِ وَلَمْ يُعَرِّفْنَا ذَلِكَ فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِمَا أُعلمنا وَلَا نَدَّعِي بِمَا لَا نُكَلَّف بأفهامنا مِنْ عِلْمِ فِعْلِها كَيْفِيَّةً نَحُدُّها.

وَمِنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: السُّبُّوحُ القُدُّوسُ؛ قَالَ أبو إسحاق: السُّبُّوح الَّذِي يُنَزَّه عَنْ كُلِّ سُوء، والقُدُّوسُ: المُبَارَك، وَقِيلَ: الطَّاهِرُ؛ وَقَالَ ابْنُ سِيدَهْ: سُبُّوحٌ قُدُّوس مِنْ صِفَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لأنه يُسَبَّحُ ويُقَدَّسُ،

وَقَالَ جِبْرِيلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن لِلَّهِ دُونَ الْعَرْشِ سَبْعِينَ حِجَابًا لَوْ دَنَوْنَا مِنْ أحدها لأحرقتنا سُبُحاتُ وَجْهِ رَبِّنَا؛ رَوَاهُ صَاحِبُ الْعَيْنُ، قَالَ ابْنُ شُمَيْلٍ: سُبُحاتُ وَجْهِهِ نُورُ وَجْهِهِ. وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ:

«حجابُه النورُ والنارُ، لَوْ كَشَفَهُ لأحْرقت سُبُحاتُ وَجْهِهِ كلَّ شَيْءٍ أدركه بصَرُه».

سُبُحاتُ وَجْهِ اللهِ: جلالُه وَعَظَمَتُهُ، وَهِيَ فِي الأصل جَمْعُ سُبْحة؛ وَقِيلَ: أضواء وَجْهِهِ؛ وَقِيلَ: سُبُحاتُ الْوَجْهِ محاسنُه لأنك إذا رأيت الحَسَنَ الوجهِ قُلْتَ: سُبْحَانَ اللهِ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ تنزيهٌ لَهُ أي سُبْحَانَ وَجْهِهِ؛ وَقِيلَ: سُبُحاتُ وَجْهِهِ كَلَامٌ مُعْتَرِضٌ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْمَفْعُولِ أي لَوْ كَشَفَهَا لأحرقت كُلَّ شَيْءٍ أدركه بَصَرُهُ، فكأنه قَالَ: لأحرقت سُبُحاتُ اللهِ كُلَّ شَيْءٍ أبصره، كَمَا تَقُولُ: لَوْ دَخَلَ المَلِكُ البلدَ لَقُتِلَ - والعِياذُ بِاللهِ - كلّ مِنْ فِيهِ؛ قَالَ: وأقرب مِنْ هَذَا كُلِّهِ أن الْمَعْنَىٰ: لَوِ انْكَشَفَ مِنْ أنوار اللهِ الَّتِي تُحْجَبُ الْعِبَادُ عَنْهُ شَيْءٌ لأهلك كلَّ مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ ذَلِكَ النورُ، كَمَا خَرَّ مُوسَىٰ، عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ السَّلَامُ، صَعِقًا وتَقَطَّعَ الجبلُ دَكًّا، لمَّا تَجلَّىٰ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

✍ **قلت:** فعلىٰ العبد أن يُسبح ربه كثيرًا ويقدسه وينزهه، ويوقن بأن ربه جل ثناؤه منزه عن كل نقيصة في أسمائه وصفاته وأفعاله، ثم علىٰ العبد أن ينزه كلامه وكلام أنبيائه ورسله، وعليه وينزه أنبيائه ورسله عليهم صلوات الله وسلامه عن كل عيب ونقص، هذا ما ينبغي علىٰ العبد المؤمن الصادق، ولا يفعل مثل ما فعل هؤلاء المارقون الملاحدة ممن حرَّف وبدَّل وغيَّر وتطاول علىٰ ربه عَزَّوَجَلَّ من اليهود والنصارىٰ الذي وصفوا ربهم جل ثناؤه بما لا ينبغي له وادعوا عليه ما لا تطيق بحمله الجبال من عظم الإجرام وفداحة الآثام من ادعاء الولد له والصاحبة ومن وصفهم ربهم - تعالىٰ الله علوًّا كبيرًا - بالبخل أو أن يده مغلولة إلىٰ غير ذلك مما يعف اللسان عن ذكره كبرت كلمات تخرج من أفواههم النتنة وقلوبهم العفنة إن يقولون إلَّا كذبًا ولو أنهم آمنوا بصدق لنزهوا ربهم وقدسوه عَزَّوَجَلَّ فهو السبوح القدوس الذي تنزَّه عن كل عيب وتعالىٰ عن كل نقيصة.

ثم علىٰ العبد أن يتأمل ويتدبر كيف أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته وأفعاله كلها رفعة وعظمة ونزاهة وحكمة وطهارة وأنه يحب الطهارة ويحب المتطهرين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٢]، ويكره النجاسة ويبغض الأنجاس، وعلىٰ العبد أن يتدبر كيف رفع الله الأطهار ودحض الفجار، عليه أن يتأمل كيف نزَّه عباده الأتقياء ظاهرًا من أدران المعاصي والذنوب وباطنًا من نجاسات الشرك والكفر والنفاق، وهذا باب واسع أيضًا يحتاج إلىٰ كثيرٍ من التأمل والتدبر والعمل بمقتضىٰ ذلك.

فعلىٰ العبد أن يطهر نفسه ظاهرًا وباطنًا وخاصةً قبل أن يسأل ربه أو أن يتلو كتابه الكريم أو يقف بين يدي مولاه مصليًا أو طائفًا ببيته الحرام أو غير ذلك من مواضع فرض الله عَزَّوَجَلَّ عليه الطهارة فيها فيكون طاهرًا في حاله طاهرًا في مقاله مُقدسًا لربه مسبحًا له مبرئًا له من كل عيب ونقص، جعلنا الله وإياكم من الذين يسبحون ربهم بكرة وعشية وحفظنا وإياكم من كل عيب يبعدنا عن مراضي ربنا جل ثناؤه.

١٠٢- (السيد):

✍ **قلت: ودليله:** جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد وغيره بسند صحيح عن عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ يُحَدِّثُ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَنْتَ سَيِّدُ قُرَيْشٍ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**السَّيِّدُ اللهُ**»، قَالَ: أَنْتَ أَفْضَلُهَا فِيهَا قَوْلًا وَأَعْظَمُهَا فِيهَا طَوْلًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لِيَقُلْ أَحَدُكُمْ بِقَوْلِهِ، وَلا يَسْتَجِرَّهُ الشَّيْطَانُ**».

والسَّيِّدُ لغة: الرَّئِيسُ؛ وَقَالَ كُراع: وَجَمْعُهُ سادةٌ، وقال ابْنُ شُمَيْل: السَّيِّدُ الذي فاق غيره بِالْعَقْلِ وَالْمَالِ وَالدَّفْع وَالنَّفْع، المعطي مَالَهُ فِي حُقُوقِهِ الْمُعِينُ بِنَفْسِهِ، فَذَلِكَ السَّيِّدُ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: السَّيِّدُ الَّذِي لَا يَغْلِبُهُ غَضَبه. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ الْعَابِدُ الْوَرِع الْحَلِيمُ. وَقَالَ أَبو خَيْرَة: سُمِّيَ سَيِّدًا لأنه يَسُودُ سَوَادَ النَّاسِ أَي عُظْمهم. وقال الأصمعي: الْعَرَبُ تَقُولُ: السَّيِّدُ كُلُّ مَقْهور مَغْمُور بِحُلْمِهِ، وَقِيلَ: السَّيِّدُ الْكَرِيمُ. وَرَوَىٰ مُطَرِّفٌ عَنْ أَبيه قَالَ: جاءَ رَجُلٌ إِلىٰ النَّبِيِّ، ﷺ، فَقَالَ: أنت سَيِّدُ قُرَيْشٍ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ، ﷺ: «**السيدُ اللهُ**»، فَقَالَ: أنت أفضلُها قَوْلًا وأَعْظَمُها فِيهَا طَوْلًا، فَقَالَ النَّبِيُّ، ﷺ: «**لِيَقُلْ أحدكم بِقَوْلِهِ وَلَا يَسْتَجْرِئَنَّكُم**»؛ معناهُ هُوَ اللهُ الَّذِي يَحِقُّ لَهُ السِّيَادَةُ.

قَالَ أَبو مَنْصُورٍ: كَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ أَن يُمْدَحَ فِي وَجْهِهِ وأَحَبَّ التَّواضع لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وجَعَلَ السِّيَادَةَ لِلَّذِي سَادَ الْخَلْقَ أجمعين، وَلَيْسَ هَذَا بِمُخَالِفٍ لِقَوْلِهِ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ حِينَ قَالَ لِقَوْمِهِ الأنصار: «**قُومُوا إِلىٰ سَيِّدِكُمْ**»، أراد أنه أفضلكم رَجُلًا وأكرمكم، وأَما صِفَةُ اللهِ، جَلَّ ذِكْرُهُ، بِالسَّيِّدِ فَمَعْنَاهُ أنه مَالِكُ الْخَلْقِ وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَبِيدُهُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «**أنا سيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا فَخْرَ**»، أراد أنه أَوَّل شَفِيعٍ وأول مَنْ يُفتح لَهُ بَابُ الْجَنَّةِ، قَالَ ذَلِكَ إِخبارًا

عَمَّا أكرمه اللهُ بِهِ من الفضل والسؤدد، وتحدُّثًا بِنِعْمَةِ اللهِ عِنْدَهُ، وإعلامًا مِنْهُ لِيَكُونَ إِيمانهم بِهِ عَلَىٰ حَسَبِهِ ومُوجَبِهِ، وَلِهَذَا أتبعه بِقَوْلِهِ: «**وَلا فَخْرَ**» أي أن هَذِهِ الْفَضِيلَةَ الَّتِي نِلْتُهَا كَرَامَةً مِنَ اللهِ، لَمْ أنلها مِنْ قِبَلِ نَفْسِي وَلَا بَلَغْتُهَا بقوَّتي، فَلَيْسَ لِي أن أَفْتَخِرَ بِهَا؛ وَقِيلَ فِي مَعْنَىٰ قَوْلِهِ لَهُمْ لَمَّا قَالُوا لَهُ أَنتَ سَيِّدُنا: «**قُولُوا بِقَوْلِكُم**» أي ادْعوني نَبِيًّا وَرَسُولًا كَمَا سَمَّانِي اللهُ، وَلَا تُسَمُّونِي سَيِّدًا كَمَا تُسَمُّونَ رؤساءكم، فإني لَسْتُ كأحدهم مِمَّنْ يَسُودُكُمْ فِي أسباب الدُّنْيا.

وَفِي الْحَدِيثِ: يَا رسولَ اللهِ مَنِ السيِّدُ؟ قَالَ: «**يوسفُ بن إِسحاقَ بْنِ يعقوبَ بْنِ إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ»، قَالُوا: فَمَا فِي أُمَّتِك مِنْ سَيِّدٍ؟ قَالَ: «**بَلَىٰ مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا ورُزِقَ سَماحَةً، فأدّىٰ شُكْرَهُ وقلَّتْ شِكايَتُهُ فِي النَّاس**».

وَفِي الْحَدِيثِ: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ سَيِّدٌ، فَالرَّجُلُ سَيِّدُ أهل بَيْتِهِ، والمرأة سَيِّدَةُ أهل بَيْتِهَا**».

وَفِي حَدِيثٍ: قَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: «**انْظُرُوا إِلَىٰ سَيِّدِنَا هَذَا مَا يَقُولُ**».

قَالَ ابْنُ الأثير: كَذَا رَوَاهُ الْخَطَّابِيُّ. وَقِيلَ: انْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ سَوَّدْناه عَلَىٰ قَوْمِهِ ورأَسْناه عَلَيْهِمْ كَمَا يَقُولُ السلطانُ الأعظم: فُلَانٌ أميرُنا قائدُنا أي مَنْ أَمَّرناه عَلَىٰ النَّاسِ وَرَتَّبْنَاهُ لقَوْد الْجُيُوشِ. وَفِي رِوَايَةٍ: انْظُرُوا إِلَىٰ سَيِّدِكُمْ أي مُقَدَّمِكُم.

وَسَمَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ يَحْيَىٰ سَيِّدًا وَحَصُورًا؛ أراد أنه فَاقَ غَيْرَهُ عِفَّةً وَنَزَاهَةً عَنِ الذُّنُوبِ. وقال الْفَرَّاءُ: السَّيِّدُ الْمَلِكُ وَالسَّيِّدُ الرَّئِيسُ وَالسَّيِّدُ السخيُّ وَسَيِّدُ الْعَبْدِ مَوْلَاهُ، والأُنثىٰ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِالْهَاءِ. وَسَيِّدُ المرأة: زَوْجُهَا. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥].

✍ **قلت:** وسيد الخلق علىٰ الحقيقة هو الله عَزَّوَجَلَّ فهو مالكهم ورازقهم وصاحب النعم والتفضل عليهم وهو حاكمهم وصاحب السلطان والقهر عليهم قدرًا، فعلىٰ العبد أن يُسوِّد مولاه في كل أمره شرعًا فلا يُقبل علىٰ شيء إلَّا وينظر هل ذلك يرضي سيده أم لا، فتكون حركته في الحياة مرهونة بمراضي مولاه فلا يحرك ساكنًا ولا يسكن متحركًا إلَّا علىٰ مراد سيده، ومن هنا تتحقق العبودية الحاقة لله عَزَّوَجَلَّ، عبودية الخضوع التام والإذعان الكامل لأمر الله ومن حقق ذلك كان نعم العبد لأنه أواب لسيده خاضع له فأولاه سيده من النعم ما لا يعلم مداها ولا منتهاها أحدٌ سواه وحفظه ودافع عنه وجلب له كل مصلحة ودفع عنه كل مضرة ورزقه جوار قلبه له في الدنيا وجوار روحه له في الآخرة فكان من المقربين ومن ورثة جنة النعيم.

ومن خالف تلكموا العبودية ولم يرضىٰ بالله عَزَّوَجَلَّ سيدًا عليه سلط عليه عباده فبدلًا من أن يكون عبدًا للسيد الأعظم أصبح عبدًا لعبيده فانظر كيف أذل نفسه من حيث أراد عزتها وكيف ضيعها من حيث أراد حفظها وكيف أرداها من حيث أراد رفعتها، ثم انظر إلىٰ شتاته وتمزق إرادته فبدلًا من أن يرضي سيدًا واحدًا ويكون سلمًا له فيريح قلبه وبدنه أصبح خاضعًا لأسياد كُثر فضاع وضيع وعاش معيشة ضنكًا ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر:٢٩]. الحمد لله الذي ليس لنا ربٌّ سواه ولا سيدٌ إلَّا هو.

١٠٣- (الشافي):

✍ **قلت: ودليله:** كما جاء عن أحمد مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ بسند صحيح عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حَاطِبٍ، قَالَ: تَنَاوَلْتُ قِدْرًا لِأُمِّي، فَاحْتَرَقَتْ يَدِي، فَذَهَبَتْ بِي أُمِّي إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ يَدِي، وَلَا أَدْرِي مَا يَقُولُ، أَنَا أَصْغَرُ مِنْ ذَاكَ، فَسَأَلْتُ أُمِّي، فَقَالَتْ: كَانَ يَقُولُ: **«أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ»**.

✍ **قلت:** والشافي علىٰ الحقيقة هو الله عَزَّوَجَلَّ ولا أحد سواه ومن اعتقد غير ذلك أشرك بربه وخالف عقله ودينه، ولا غرو في ذلك فإن الذي خلق الداء هو الله والذي يملك الشفاء هو الله وحده لا شريك له.

والناظر يجد أن الداء إما أن يكون داءً للقلب وإما أن يكون داءً للبدن، فأما داء القلب عياذًا بالله فكمرض الشرك والكفر والنفاق والكبر والعجب والحقد والحسد والغل وحب الدنيا وحب الشهوات الباطلة وغير ذلك.

وجماع الأمر أن أمراض القلوب تنقسم إلىٰ قسمين أمراض شبهات وأمراض شهوات وكلا الاثنين مُهلك لصاحبه مُذهب لدينه ودنياه، والناس متفاوتون في تلك الأمراض علىٰ حسب تمكن الداء منهم ولا شفاء من ذلك إلَّا بإذن الله جل ثناؤه وعلىٰ العبد أن يلجأ لمولاه ويستعين في ذلك به ودواء ذلك بعد التوبة النصوحة لا يمكن إلَّا بتجريد النية والقصد له عَزَّوَجَلَّ وبمدارسة كتابه العزيز والتداوي به وطلب الشفاء من الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢]، اللهم اشفِ مرض قلوبنا، واجعلنا نلقاك بقلب سليم.

ثم تأتي بعد ذلك أمراض الأبدان تلكموا التي أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ بالتداوي منها كما صح ذلك عن النبي ﷺ: «**تداووا عباد الله، فإن الله تعالىٰ لم يضع داء إلَّا وضع له دواء، غير داء واحد: الهرم**» رواه أحمد.

فعلىٰ العبد أن يطلب الدواء كما عليه أن يوقن بأن هذا الدواء لن يكون له تأثيرٌ فعالٌ في الشفاء إلَّا بإذن الله فلا يعتقد في الطبيب ولا في دوائه ولكن يعتقد أن هذه أسباب إن شاء الله أمضاها وإن شاء عطلها فهو الشافي علىٰ الحقيقة، فعلىٰ العبد أن يلجأ إليه عند حلول البلايا والأمراض، ويسأل الشافي أن يشفيه وأن يعافيه من كل داء وبلاء، وهذا أصل من أصول العقيدة وباب عظيم من أبواب الشرك (إن اعتقد العبد غيره) علىٰ العبد أن يحذر منه فلا يعتقد شافٍ غير الله ولا يثق إلَّا في مولاه ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء:٧٥-٨٢].

ثم علىٰ العبد أن يتأمل كيف كشف الله الضر عن أوليائه الصالحين وعباده المقربين فسلم قلوبهم من أمراض القلوب وعافىٰ أبدانهم من أسقامها فانظر كيف نجَّىٰ يونس وعافاه بعدما نجاه وأنبت عليه شجرة يقطين، وكيف شفىٰ أيوب بعد ما نزل به البلاء وحل به الوباء فعافاه في طرفة عين، فجعل في ركضة بالقدم زوال الأمراض والسقم بأمر من بيده الشفاء وبإرادته البقاء، وله في كل لمحة لطف بعباده، وشفاؤه دائم لمن شاء من خلقه، فعلىٰ العبد أن يتعلق بما عند ربه ولا يعلق قلبه بسواه ويدعوه دائمًا ولا يدعو إلَّا هو.

١٠٤ - (المحسن):

✍ **قلت: ودليله:** مأخوذ من حديث النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الإِحْسَانَ إِلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**». (صحيح) رواه الطبراني.

✍ **قلت:** والله عَزَّوَجَلَّ هو المحسن علىٰ كل من خلق السابغ النعم عليهم البالغ الفضل علىٰ كافة العباد صاحب النعم مذهب النقم مدبر أمور العباد، وإحسان الله لعباده سابق لخلقهم مصاحب لوجودهم فالدنيا والآخرة قطرة من فيض جوده وإحسانه.

وإحسان الله عَزَّوَجَلَّ إحسان كوني وإحسان شرعي فأما الكوني فخاص وعام فأما العام فهو ما عم به عباده من عظيم نعمه عليهم وتوصيل جوده إليهم مؤمنهم وكافرهم بارهم

وفاجرهم فهو الذي أحسن إليهم وتفضل عليهم بنعمه ظاهرة وباطنة، فرزقهم بالصحة والمال والولد والمطاعم المتنوعة الحسنة والمشارب الكثيرة الطيبة وفضلهم علىٰ كثير من عباده تفضيلًا ولا يزال إحسانه بهم قائم وفضله عليهم سابغ، ثم هناك إحسان خاص بعباده الأتقياء من تيسير معايشهم وتطييب حياتهم ورزقهم الرضا بما رزقهم من النعم إلىٰ غير ذلك من محاسن وأفضال لا يحصيها إلَّا الله.

أما المحاسن الشرعية فهي تلك المحاسن التي جعلها تبارك وتعالىٰ في شرعه فشرعه كله حسن إجمالًا ومحاسنه لا تحصىٰ تفصيلًا فقد تقبل القليل وعفىٰ عن الكثير ولم يكلف إلَّا الوسع ورفع الحرج عن أهل الأعذار تفضلًا وإحسانًا وتقبل أهل الذنوب التائبين تكرمة وإنعاما، بل وكتب الإحسان علىٰ كل شيء كما جاء عن النبي ﷺ **«إن الله تعالىٰ كتب الإحسان علىٰ كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»** رواه مسلم.

وقد أمر عباده بالإحسان إحسانًا منه عليهم فقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥] فبشرهم بمحبته بل ووعدهم بمعيته الخاصة ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]، وأوفر لهم الجزاء وجزل لهم العطاء ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف:٩٠]، وقال: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس:٢٦] فهل بعد هذا عطاء وبعد هذا الخير جزاء.

فالله جل ثناؤه أوجب علىٰ عباده الإحسان معه والإحسان مع عباده، وهذا من إحسان الله لخلقه، فإحسان العبد مع الله أن يعبده كأنه يراه وهو عين المراقبة لله وكلما عظمت مراقبة العبد لربه كان مع الله وكلما كان مع الله كان الله معه معية خاصة من نصرة وحفظ إلىٰ غير ذلك، أما إحسان العبد مع الخلق فيكون ببذل الندىٰ وكف الأذىٰ وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر والعفو عنهم وبسط الوجه لهم والرفق بهم ومد يد العون لضعيفهم إلىٰ غير ذلك من مقتضيات الإحسان التي هي مجامع الأخلاق ودليل الإخلاص وخلاصة هذا النوع من الإحسان (مراقبة الله في معاملة الخلق) والله الموفق لكل خير.

١٠٥ - (المنان):

✍ **قلت: ودليله:** من حديث أنسِ بن مالك ﷺ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْحَلْقَةِ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي. فَلَمَّا رَكَعَ وَسَجَدَ جَلَسَ وَتَشَهَّدَ، ثُمَّ دَعَا، فَقَالَ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْمَنَّانُ، يا بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، إِنِّي أَسْأَلُكَ**». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَدْرُونَ بِمَا دَعَا؟**»، قَالُو: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَىٰ**» قَالَ: عَفَّانُ: «**دَعَا بِاسْمِهِ**» رواه أحمد بسند صحيح.

ومعنىٰ المنان: أي المُعْطِي ابْتِدَاءً، وَلِلَّهِ المِنَّة عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَلَا مِنَّة لأحد مِنْهُمْ عَلَيْهِ، تَعَالَىٰ اللهُ علوًّا كبيرًا.

✍ **وَقَالَ ابْنُ الأثير:** هُوَ الْمُنْعِمُ المُعْطي مِنَ المَنِّ فِي كَلَامِهِمْ بِمَعْنَىٰ الإحسان إِلىٰ مَنْ لَا يَسْتَثِيبُهُ وَلَا يَطْلُبُ الْجَزَاءَ عَلَيْهِ. والمَنّانُ: مِنْ أبنية الْمُبَالَغَةِ كالسَّفَّاكِ والوَهّابِ.

✍ **قلت:** وهذا كما هو معلوم شرعًا فهو مشاهد معلوم عقلًا فالله عَزَّوَجَلَّ صاحب الفضل والإنعام علىٰ جميع خلقه كونًا وشرعًا فكل النعم من عنده وحده فهو الذي منّ علىٰ عباده بخلقهم أصلًا وبحفظهم دومًا وبالإنعام عليهم أبدًا ولا يملك له أحدٌ من خلقه ضرًّا ولا نفعًا كالذي جاء في الحديث القدسي «**قال الله تعالىٰ: يا عبادي! إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته محرمًا بينكم فلا تظالموا، يا عبادي! كلكم ضال إلّا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي! كلكم جائع إلّا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي! كلكم عار إلّا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلّا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه**». (صحيح) [رواه مسلم] عن أبي ذر.

فهو سبحانه صاحب المنِّ عليهم في كل ما هم فيه من النعم الظاهرة والباطنة وهذه نعمه الكونية التي عمت كل العباد، أما النعم الشرعية فقد منَّ علىٰ عباده بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتعليمهم الشرائع كما قال جل ثناؤه: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧].

فهو الذي هدىٰ قلوبهم إليه بداية لِما علم فيها من الخير وهو الذي أعانهم علىٰ بلوغ مراضيه وهو الذي أعلمهم بما يرضيه ثم هو الذي خلق لهم هذه القلوب والأبدان والأرواح التي عبدوه بها وهو الذي يتقبل منهم إن شاء مِنَّةً منه وفضلًا بعد فضل، فهل يستطيع أحد أن يرفع رأسًا أو يذكر فضلًا أو يفتري منّة بعد ذلك اللهم إلّا جاحد جهول.

ولذلك كان أكثر الخلق تواضعًا هم أكثرهم علمًا بربهم كما قال النبي الكريم عندما سألوه عن عظيم عبادته فقال: **«أفلا أكون عبدًا شكورًا»**، وقال أيضًا **«لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»**. (صحيح) [البخاري] عن عمر.

فعلىٰ العبد أن يرد الفضل لمولاه وأن يتبرأ من حول نفسه وقوتها، وهذه هي الحقيقة التي لا ينكرها إلّا متكبر غره الشيطان وخدعته نفسه وتوشك أن تخزيه أحوج ما يكون إليها، ثم عليه أن لا يمنَّ علىٰ أحدٍ من عباد الله ناهيك أن يستدرجه شيطانه فيظن ظن السوء أنه يمنُّ علىٰ ربه عياذًا بالله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٤]، فهؤلاء قد أبطلوا أعمالهم لأنهم افتروا الكذب علىٰ الله وكذبوا علىٰ أنفسهم فأحبط الله أعمالهم وأذهب دنياهم وأُخراهم فالله لا يحب المنان من الخلق لأنه ادعاء في غير محله وكذب فاضح وبهتان واضح.

فعلىٰ العبد إن أصاب الحق أو أصابه خير أن يرد الفضل لمن والاه هذه النعم وحده، وهذا عين الحق ودرب المؤمنين وطريق المتقين جعلنا الله وإياكم منهم،

ثم عليه أن يدعو المنان أن يمن عليه بكل خير وأن يدفع عنه كل شر وعليه أن يتدبر في منة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ خلقه جميعًا وأنه لا أحد يمن عليه سبحانه وتعالىٰ، فنعم الرب ربنا ونعم الحسب حسبنا ونعم الوكيل وكيلنا.

ثانياً : قواعد في صفات الله عَزَّوَجَلَّ

باب الصفات من أعظم الأبواب الشرعية والعقدية التي بينها الله سبحانه وتعالىٰ بيانًا كافيًا وشافيًا في القرآن، وكذلك بينها الرسول ﷺ في السنة، وعقيدة السلف الصالح رضوان الله عليهم في هذا الباب العظيم مبنية علىٰ قاعدتين:

القاعدة الأولى: إثبات الصفات لله تعالىٰ.

والقاعدة الثانية: نفي مماثلة المخلوقات ومشابهتها.

وهاتان القاعدتان مأخوذتان من قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ يدل علىٰ قاعدة التنزيه، ونفي مشابهة المخلوقين ومماثلتهم، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يدل علىٰ إثبات هذه الصفات.

وبهاتين القاعدتين يتميز منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم عن غيرهم من الطوائف الضالة في هذا الباب، السلف الصالح يثبتون الصفات، وفي نفس الوقت ينفون مشابهة المخلوقات، لكن أهل التعطيل لا يثبتون الصفات، بل يخالفون السلف في إثبات الصفات وغلبوا جانب النفي، وأهل التشبيه والتمثيل غلبوا جانب الإثبات، وشبهوا الله سبحانه وتعالىٰ بالمخلوقات، وأما أهل السنة والجماعة فهم وسط: يثبتون الصفات، وينفون مشابهة المخلوقات، وهم أهل الحق والاستقامة والعدل في هذا الباب.

نافي الصفات يعبد عدمًا، والمشبه لله تعالىٰ بالمخلوقات يعبد صنمًا، كما قال بعض السلف رضوان الله عليهم، وهذه قضية ينبغي أن تتضح، وهي واضحة تمامًا علىٰ المنهج السلفي، وهذه القواعد تخدم هذه القضية مفصلة بإذنه تعالىٰ.

بعض القواعد تكون في باب الإثبات، وبعض القواعد تكون في باب النفي، يعني: السلف الصالح رضوان الله عليهم لهم قواعد مفصلة في باب الإثبات، ولهم قواعد مفصلة في باب النفي، فمثلًا في باب النفي لا يمكن أن يُنفىٰ عن الله سبحانه وتعالىٰ بطريقة مفصلة، يعني: لا يقال: ليس بطويل ولا بقصير ولا بكذا ولا بكذا، كما هي طريقة المبتدعة الضلال، وإنما يكتفي بالنفي المجمل، وهذه هي طريقة النصوص، يقال: الله عَزَّوَجَلَّ لا يشبه شيئًا من المخلوقات.

وما ورد من النصوص الشرعية فيه نفي مفصل مثل نفي النوم عن الله سبحانه وتعالىٰ، فإنه ليس نفيًا محضًا، وإنما يتضمن كمال ضده، وهذا النفي هو النفي الإيجابي، والذي يكون له ثمرة، وهي الإثبات، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لما قال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، قوله: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾، لا يؤخذ منها: نفي السِّنة وهو النعاس، والنوم عن الله عَزَّوَجَلَّ فقط، وإنما يدل أيضًا علىٰ كمال حياته، وهذا جانب إثبات، وعلىٰ كمال قيوميته، وأنه قائم بأمور العباد تدبيرًا وعملًا سبحانه وتعالىٰ، وستأتي قواعد مفصلة في البابين.

القاعدة الأولى (من قواعد الصفات) وهي قاعدة الكمال لله سبحانه وتعالى

وهذه القاعدة فصلها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مكانين من كتابه العظيم (الفتاوىٰ)، وفي أماكن متفرقة من كتبه، فصلها في المجلد السادس من الفتاوىٰ في رسالة خاصة اسمها: (الرسالة الأكملية) فقد بين فيها إثبات ما يستحقه الله سبحانه وتعالىٰ من الكمال، ونفي النقص عنه سبحانه وتعالىٰ بكل وجه من الوجوه.

الموضع الثاني: في المجلد السادس عشر في تفسير سورة العلق، حيث ذكر الطرق التي تدل علىٰ إثبات الكمال لله تعالىٰ وسيأتي تفصيلها بإذن الله تعالىٰ.

۞ صفات الله صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه:

✍ **قال الشيخ ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: صفات الله تعالىٰ كلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وهذا أمر متفق عليه بين طوائف المسلمين جميعًا، فلا يوجد أحد يقول: إن صفات الله عَزَّوَجَلَّ صفات نقص، لكن اختلف أهل الإسلام في تحقيق الكمال، يعني: من كون هذه صفة كمال أو صفة نقص، وكان أسعد الناس بالحق هم أهل السنة والجماعة رضوان الله عليهم، الذين جمعوا بين إثبات الصفات، وبين نفي مشابهة المخلوقات.

وقد أثبت الله سبحانه وتعالىٰ لنفسه الكمال المطلق من كل وجه من الوجوه، وقد استخدم القرآن الكريم إثبات الكمال المطلق لله تعالىٰ بطرق:

- الطريقة الأولىٰ: هي الاستدلال علىٰ كماله سبحانه وتعالىٰ بمخلوقاته؛ فإن الإنسان حين يرىٰ المخلوقات وما فيها من الدقة البالغة، وما فيها من الآثار العجيبة يستنبط منها كثيرًا من أسماء الله سبحانه وتعالىٰ وصفاته، فمثلًا: نصرة الله سبحانه وتعالىٰ للمؤمنين وإعانته لهم، وتمكينه لهم، يؤخذ منها: صفة المحبة لله سبحانه وتعالىٰ.

وتضييقه علىٰ الكافرين، وإهلاكه لهم، وتدميره لهم كسائر الأمم وإضعافه من شأنهم يؤخذ منها: صفة الغضب لله سبحانه وتعالىٰ.

والدقة الموجودة في هذا الكون تدل علىٰ صفة العلم والإرادة والحياة لله سبحانه وتعالىٰ، ويمكن أن نضرب علىٰ هذا مثالًا، وهو قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤]، هذه الآية تدل علىٰ الكمال المطلق لله عَزَّوَجَلَّ في صفة

العلم، يعني: إلَّا يعلم أن الذي يخلق؟ يعني: كيف لا يعلم وهو الذي يخلق؟ فإن الذي يخلق لابد أن يكون عالمًا؛ لأنه لا يمكن أبدًا أن يخلق وهو جاهل لا يدري ما يخلق، وليس عنده علم مفصل بما يخلق، بل لابد أن يكون عنده علم مفصل بما يخلقه بكل دقيقة وكبيرة وصغيرة فيه، فإذا كانت هذه المخلوقات كلها غير الله عَزَّوَجَلَّ هي مخلوقة له سبحانه وتعالىٰ، فهذا يدل علىٰ كمال علمه، فإثبات الكمال يمكن أن يؤخذ من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ.

- طريقة أخرىٰ: هي أن الله سبحانه وتعالىٰ قد جعل بعض خلقه متصفًا بالكمال، فجعل الإنسان لديه مثلًا علم وبصيرة ولديه حكمة، ولديه فهم، فإذا كان الله سبحانه وتعالىٰ قد جعل المخلوق متصفًا بشيء من صفات الكمال، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أولىٰ أن يتصف بها، وهذا أمر متفق عليه بين العقلاء.

فإذا كان المخلوق متصفًا بصفات الكمال في بعض الأحيان، ومن بعض الوجوه فقط؛ فالله عَزَّوَجَلَّ أولىٰ بها، فلا يصح مثلًا أن ننفي صفة العلم عن الله كما يفعل الجهمية، وإنما نقول: إن العلم صفة كمال، فما دام أنها صفة كمال وقد اتصف بها المخلوق فالخالق أولىٰ بها، وهذا يدل علىٰ فساد عقول الجهمية، وأنهم ليسوا علىٰ منهج مستقيم وطريقة مستقيمة، وإنما هم علىٰ طريق ضالة منحرفة من جهة النصوص الشرعية، ومن جهة العقل أيضًا.

- وهناك استدلال ثالث علىٰ استحقاق الله عَزَّوَجَلَّ لصفات الكمال: حيث إن الله عَزَّوَجَلَّ هو واهب الكمال وهو معطيه، فالله عَزَّوَجَلَّ يعطي كثيرًا من صفات الكمال للمخلوقات، فيقال: إن واهب الكمال أحق به وأولىٰ، فلا يمكن أن يهب الكمال لغيره وهو ناقص بأي وجه من الوجوه، ويمكن أن نثبت هذا بقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥].

إذًا: هم عندهم قوة، فقالوا: «من أشد منا قوة» الجواب الذي وهب لكم هذه القوة هو أشد منكم قوة؛ لأنكم كنتم ولا قوة لكم، فأعطاكم هذه القوة، فلا يمكن أبدًا أن تكونوا أقوىٰ منه وهو الذي أعطاكم هذه القوة، وهذا دليل عقلي شرعي من أوضح الأدلة.

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴾ [الروم:٢٧] يعني: له الوصف الأعلىٰ والأكمل من كل وجه من الوجوه.

وكذلك مما يدل علىٰ إثبات الكمال لله سبحانه وتعالىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ عندما ذكر آلهة المشركين بين أن عبادتها باطلة، حيث إنها اتصفت بصفات النقص، والإله لا يمكن أن يكون ناقصًا، ومثال ذلك: يقول الله عَزَّوَجَلَّ في قصة محاجة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم:٤٢]، فقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ﴾ هذا نقص، ﴿وَلَا يُبۡصِرُ﴾ هذا نقص، ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ هذا نقص ثالث، والله عَزَّوَجَلَّ قد بين أن الآلهة المعبودة من دونه باطلة؛ لأنها ناقصة، فهذا يدل علىٰ أنه هو الإله الحق، وأنه لا بد أن يكون كاملًا، ولهذا استدل عليهم أئمة السنة بمثل هذه الأدلة علىٰ إثبات الصفات، فمثلًا: يثبتون صفة السمع بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ﴾، فالإله لابد أن يكون سميعًا، ويثبتون صفة البصر بقوله: ﴿وَلَا يُبۡصِرُ﴾، ويثبتون صفة الملك والأفعال لله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾.

القاعدة الثانية (من قواعد الصفات) امتناع وصف الله تعالى بصفات النقص التي لا كمال فيها.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: [وإذا كانت الصفة نقصًا لا كمال فيها فهي ممتنعة في حق الله] يعني: يجب نفيها عن الله سبحانه وتعالىٰ، مثل: الجهل والعجز والموت والصمم والعمي ونحو ذلك، كل هذه صفات نقص يجب نفيها عن الله، وقد دلت الأدلة الشرعية علىٰ ذلك، كقوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، وكقوله تعالىٰ: ﴿فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، وكقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾ [فاطر:٤٤]، وكقول الرسول ﷺ عن الدجال: «إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور»، وكقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾ [سبأ:٣]، وكقوله تعالىٰ في آية الكرسي: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فكل ما فيه صفات نقص لا مدح فيها ولا كمال فيجب أن تنفىٰ عن الله، وإنما نثبت لله عَزَّوَجَلَّ صفات الكمال فقط.

ولهذا لما وصفه اليهود بصفات النقص عاقبهم الله عَزَّوَجَلَّ، فعندما قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، قال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤].

ولما وصفوه بالفقر وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران:١٨١].

فعاقبهم الله عَزَّوَجَلَّ بأن جعل مصيرهم العذاب المحرق، والله عَزَّوَجَلَّ قد نزه نفسه عن النقائص والعيوب جميعًا، وهناك أدلة كثيرة مثل: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقول الله تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم:٦٥]، ومثل: قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

هذه السورة من أعظم السور المشتملة علىٰ التنزيه لله سبحانه وتعالىٰ، وعندما يذكر الإنسان ربه سبحانه وتعالىٰ بقوله: (سبحان الله)؛ فإن هذه الكلمة تشتمل علىٰ معنىٰ التنزيه ونفي النقائص والعيوب عن الله سبحانه وتعالىٰ، ولهذا يقول الرسول ﷺ فيما ثبت في البخاري: «**كلمتان خفيفتان علىٰ اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلىٰ الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»، وكلها تدل علىٰ التنزيه ونفي النقائص عن الله عَزَّوَجَلَّ، كما يدل عليه قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

أما إذا كانت الصفة مشتملة علىٰ النقص في حال وعلىٰ الكمال في حال آخر، مثل: المخادعة والمكر، فالمخادعة في بعض الأحيان تكون نقصًا، وفي بعض الأحيان تكون كمالًا.

فلا نطلقها علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بإطلاق، ولا ننفيها عنه بإطلاق، وإنما نثبتها في المواطن التي أثبتها الله لنفسه كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]، ونحو ذلك مثل: الكيد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥ - ١٦]، ومثل: المكر، قال تعالىٰ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

فلا يصح أن نثبت صفة المكر لله مطلقًا، فالإطلاق في الإثبات والإطلاق في النفي خطأ، وإنما نثبت المكر لله عَزَّوَجَلَّ بالمشركين الذين يمكرون، ونثبت الخداع لله عَزَّوَجَلَّ بالمشركين الذين يخادعونه وهكذا.

أما إذا كانت الصفة لا تشتمل علىٰ كمال بأي وجه من الوجوه، فإنه لا يصح إثباتها لله عَزَّوَجَلَّ، مثل: الخيانة، فليس فيها كمال بأي وجه من الوجوه، حتىٰ لو خانه غيره، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ [الأنفال:٧١] قال: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ ولم يقل: فخانهم؛ لأن الخيانة ليس فيها مدح بأي وجه من الوجوه.

القاعدة الثالثة (من قواعد الصفات) في ضابط الصفة المتضمنة للكمال المطلق لله تعالى

عندنا مسألتان في القاعدة الأولىٰ: المسألة الأولىٰ: ضابط الصفة التي هي كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

فالضابط فيها يمكن أن يذكر في فقرتين:

- الفقرة الأولىٰ: أن تكون هذه الصفة كمالًا في ذاتها، بقطع النظر عما نسبت إليه، فإذا كانت هي في ذاتها صفة كمال لا نقص فيها، فهذه تثبت لله سبحانه وتعالىٰ.

مثال ذلك: (الحياة) فالحياة في ذاتها صفة كمال؛ لأنه ضد الموت، والموت صفة نقص بإجماع العقلاء، وحينئذٍ الحياة صفة كمال سواء نسبت إلىٰ الخالق أو نسبت إلىٰ المخلوق، فنثبتها لله عَزَّوَجَلَّ.

كذلك العلم، والسمع، والبصر ونحو ذلك، هذه كلها صفات ثابتة لله سبحانه وتعالىٰ وهي صفات كمال في ذاتها، سواء نسبت إلىٰ المخلوق أو نسبت إلىٰ الخالق.

- الفقرة الثانية: أن تكون الصفة سالمة من استلزامها لما ينافي صفات الكمال.

فبعض الأحيان قد تكون صفة من الصفات كمالًا لكنها بالنسبة للمخلوق نقص، ومثال ذلك: صفة الذرية: فالذي له أولاد تعتبر هذه الصفة كمال بالنسبة له؛ ولهذا يعيبون الذي لا أولاد له، لكن هذه لا يمكن أن تثبت لله؛ لأنها تضمنت الحاجة إلىٰ الغير، والله

عَزَّوَجَلَّ لا يحتاج إلىٰ غيره سبحانه وتعالىٰ، وحينئذٍ هذه تكون صفة كمال بالنسبة للمخلوق، ولا تكون صفة كمال بالنسبة إلىٰ الخالق، هذا هو الضابط في مسألة الصفة التي تكون كمالًا لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

القاعدة الرابعة (من قواعد الصفات) في مسألة في الأسماء المشتركة في اللفظ بين الله عَزَّوَجَلَّ وبين العباد

اختلف النظار في الأسماء التي تطلق علىٰ الله وعلىٰ العبد ؛ كالحي والسميع والبصير والعليم والقدير والملك ونحوها فقالت طائفة من المتكلمين: هي حقيقةٌ في العبد مجازٌ في الرب وهذا قول غلاة الجهمية، (وهو أخبث الأقوال وأشدها فسادًا).

الثاني: مقابلُهُ، وهو أنَّها حقيقةٌ في الرب مجازٌ في العبد، وهذا قول أبي العباس الناشي.

الثالث: أنَّها حقيقة فيهما، وهذا قول أهل السنة، وهو الصواب.

(واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما، وللرب تعالىٰ منها ما يليق بجلاله، وللعبد منها ما يليق به)

* واعلم أن الاسم والصفة من هذا النوع (أي النوع الثالث) له ثلاثةُ اعتباراتٍ:

- الاعتبار الأول - اعتبارٌ من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالىٰ أو العبد.

- الاعتبار الثاني: اعتباره مضافًا إلىٰ الرب مختصًّا به.

- الاعتبار الثالث: اعتباره مضافًا إلىٰ العبد مقيدًا به.

* قيد مهم جدًّا (فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتًا للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله وللعبد منه ما يليق به وبعجزه وافتقاره وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات، والعليم والقدير وسائر الأسماء، فإنَّ شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها. فما لزم هذه الأسماء لذاتها فإثباته للرب تعالىٰ لا محذور فيه بوجه، بل يثبت له علىٰ وجه لا يماثِلُ فيه خَلْقَهُ ولا يشابِهُهُم، فمن نفاه عنه لإطلاقه علىٰ المخلوق ألحد في أسمائه وجحد صفات كماله، ومن أثبته له علىٰ وجهٍ يماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه، ومن شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن أثبته

له علىٰ وجهٍ لا يماثل فيه خلقه بل كما يليق بجلاله وعظمته فقد برئ من فرث التشبيه ودم التعطيل وهذا طريق أهل السنة.

- وما لزم الصفةَ لإضافتها إلىٰ العبد وجب نفيه عن الله، كما يلزمُ حياة العبد من النومِ والسِّنةِ والحاجةِ إلىٰ الغذاءِ ونحوِ ذلك، وكذلك ما يلزمُ إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزمُ علوه من احتياجه إلىٰ ما هو عالٍ عليه وكونه محمولًا به مفتقرًا إليه محاطًا به. كلُّ هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالىٰ.

وما لزم صفة من جهة اختصاصِهِ تعالىٰ بها فإنَّه لا يَثْبُتُ للمخلوق بوجه كعلمه الذي يلزمه القِدَمُ والوجوبُ والإحاطةُ بكل معلومٍ، وقدرتِهِ، وإرادتِهِ، وسائر صفاته. فإنَّ ما يختصُّ به منها لا يمكنُ إثباتُهُ للمخلوق.

(فإذا أحطتَ بهذه القاعدة خُبرًا وعَقَلْتَها كما ينبغي خلصتَ من الآفتين اللتين هما أصل بلاءِ المتكلمين: آفة التعطيل وآفة التشبيه، فإنَّك إذا وفيت هذا المقامَ حقه من التصور أثبت لله الأسماء الحسنىٰ والصفاتِ العلىٰ حقيقةً فخصلت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم فخلصت من التشبيه، فتدبر هذا الموضع واجعله آخيَّتك التي ترجعُ إليها في هذا الباب والله الموفق للصواب).

✍ وقد ذكر العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أصولًا ثلاثة لابد من ذكرها هنا:

قاعدة مهمة في ثلاثة أصول لفهم الأسماء والصفات:

ذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن القرآن العظيم دلّ علىٰ أن مبحث الصفات يرتكز علىٰ ثلاثة أسس، من جاء بها كلها فقد وافق الصواب، وكان علىٰ الاعتقاد الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه السلف الصالح، ومن أخلّ بواحد من تلك الأسس الثلاثة فقد ضلّ.

وذكر أنّ كلّ هذه الأسس الثلاثة يدلّ عليها القرآن العظيم:

-**الأساس الأول:** تنزيهه - جلّ وعلا - عن أن يشبه شيء من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين. وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص:٤]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ﴾ [النحل:٧٤].

-**الأساس الثاني:** هو الإيمان بما وصف الله به نفسه، لأنّه لا أحد أعلم بالله من الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة:١٤٠].

والإيمان بما وصفه به رسوله ﷺ لأنه لا أعلم بالله بعد الله من رسول الله ﷺ الذي قال في حقّه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: ٣-٤] .

-**الأساس الثالث:** الذي ترتكز عليه مباحث الصفات - كما يقول الشيخ الشنقيطي - قطع الأطماع عن إدراك حقيقة الكيفية، لأنّ إدراك حقيقة الكيفية مستحيل. وهذا نص الله عليه في سورة (طه) حيث قال: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠ ﴾ [طه: ١١٠].

القاعدة الخامسة (من قواعد الصفات) في أن الصفة إذا قامت بموصوف لزمها أمور أربعة

أمران لفظيان، وأمران معنويان.

- فاللفظيان: ثبوتي وسلبي.

فالثبوتي: أنْ يشتق للموصوف منها اسمٌ. والسلبي: أنْ يمتنع الاشتقاق لغيره.

- والمعنويان: ثبوتي وسلبي.

فالثبوتي: أنْ يعود حكمها إلىٰ الموصوف ويخبر بها عنه. والسلبي: أنْ لا يعود حكمها إلىٰ غيره ولا يكون خبرًا عنه.

وهي قاعدةٌ عظيمةٌ في معرفة الأسماء والصفات، فلنذكر من ذلك مثالًا واحدًا وهو صفةُ الكلام. فإنَّها إذا قامت بمحل كان هو المتكلم دون من لم تقم به وأُخبر عنه بها وعاد حكمها إليه دون غيره، فيقال: قال، وأمر، ونهىٰ، ونادىٰ، وناجىٰ، وأخبر، وخاطب، وتكلم، وكلم، ونحو وامتنعت هذه الأحكامُ لغيره فيستدل بهذه الأحكام والأسماء علىٰ قيام الصفة به وسلبها عن غيره علىٰ عدم قيامها به، وهذا هو أصل السنة الذي ردوا به علىٰ المعتزلة والجهمية وهو من أصح الأصول طردًا وعكسًا.

القاعدة السادسة (من قواعد الصفات) في معرفة الصفات

اعلم - علَّمك الله - أن صفات الله عَزَّوَجَلَّ كلها صفات كمال لا نقص فيها كما هي أسماؤه جل وعلا، باب الصفات أوسع من باب السماء.

صفاته تعالى تنقسم إلى قسمين:

أولا ثبوتية: وهي التي أثبتها الله عَزَّوَجَلَّ لنفسه في كتابه أو علىٰ لسان رسوله ﷺ.

حكمها: يجب أن نثبتها له علىٰ الوجه اللائق به عَزَّوَجَلَّ.

وهي قسمان:

- ذاتية: وهي التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها سبحانه كالعلم والقدرة والسمع والبصر وغير ذلك، ومنها الصفات الخبرية كالوجه واليدين والعينين.

- فعلية: وهي التي تتعلق بمشيئته إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها كالاستواء علىٰ العرش والنزول إلىٰ السماء وغير ذلك.

وقد تكون الصفة ذاتية وفعلية في نفس الوقت كالكلام فإنه صفة ذاتية له لأنه لم يزل ولا يزال متكلمًا وهي باعتبار آحاد الكلام فعلية لأنها تخضع لمشيئته سبحانه وتعالىٰ.

ثانيًا: سلبية: وهي ما نفاه الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه في كتابه أو علىٰ لسان رسوله ﷺ.

حكمها: يجب نفيها عنه عَزَّوَجَلَّ مع العلم بأنه يجب أيضًا إثبات ضدها من صفة الكمال له تبارك وتعالىٰ فنفيها ليس لمجرد النفي وإنما لإثبات الكمال في ضدها كما في قولة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩]، وغير ذلك.

القاعدة السابعة (من قواعد الصفات) في أنه يجب في إثبات الصفات التخلي عن محذورين

-**أولاً: التمثيل:** وهو اعتقاد المثبت أن صفاته تعالىٰ مماثلة لصفات خلقه وهذا فحش عظيم وخطأ جسيم بل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] سبحانه وتعالىٰ عمَّا يصف الجاهلون علوًّا كبيرًا

-**ثانيًا: التكييف:** وهو أن يعتقد المثبت أن كيفية صفات الله تعالىٰ كذا وكذا من غير تمثيل وهذا أيضًا من أبطل الباطل ومن القول علىٰ الله بغير علم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه:١١٠]، سبحانه وتعالىٰ عن افتراءات المبطلين وضابطه كما جاء عن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سُئل عن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:٥] كيف استوىٰ؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فما أجمل فهم السلف وما أضل فهم الخلف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه -: وقد عُلم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها، إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه – مع ما أثبته من الصفات – من غير إلحاد، لا في أسمائه ولا في آياته.

القاعدة الثامنة (من قواعد الصفات) في مسألة في التفويض

إن أهل السنة يفرقون بين تفويض العلم، وتفويض المعنىٰ، وتفويض الكيف، فتفويض العلم ليس مذهب أهل السنة الجماعة، لأنهم علموا يقينًا أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:٥]؛ لأن الخبر ورد بذلك فليس عندي مجال أن أفوض علم الاستواء لله عَزَّوَجَلَّ، لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أعلمني وأخبرني في كتابه أنه استوىٰ.

أما تفويض معنىٰ الاستواء لله عَزَّوَجَلَّ هو أنني لا أعرف أن الله قد أخبرني بالاستواء، ولا أعلم معنىٰ الاستواء، وأفوضه لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا غلط لأن الاستواء معناه: الفوقية والارتفاع والعلو، فلا يفوض العلم والمعنىٰ، وإنما تفوض الكيفية.

وليس من اختصاصي أن أعرف كيفية استواء ربنا علىٰ العرش، وهذا من اختصاص ربنا، لأني لم أر الله عَزَّوَجَلَّ، ومن أجل أن أكيف ذلك الاستواء لابد أن أراه سبحانه وأنا لم أره، فيقال: فلان استوىٰ علىٰ الكرسي بمعنىٰ أنه تربع أو جلس مدلدلًا رجليه، واستوىٰ عليه بمعنىٰ علا وارتفع عليه أو استقر عليه أو استولىٰ عليه، وهذه المعاني كلها في الاستواء لا تليق بالمولىٰ عَزَّوَجَلَّ.

القاعدة التاسعة (من قواعد الصفات) في بعض صفات الله عَزَّوَجَلَّ الذاتية

صفة الوجه:

ودليل الصفة: قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة:١١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧].

قال اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أصول الاعتقاد»: صفة الوجه ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ بأدلة الكتاب والسنة، وقد تضافرت أقوال علماء السنة علىٰ إثباتها لله عَزَّوَجَلَّ، كما أثبتها سبحانه لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ، وهذا كعادتهم في إثبات سائر الصفات لله عَزَّوَجَلَّ، بدون تأويل ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، وقد خالف أهل البدع في ذلك فأولوا هذه الصفة، كما أولوا غيرها من الصفات، ظانين أنهم ينزهون الله عَزَّوَجَلَّ بزعمهم عن الأبعاض والأجزاء ومشابهة المخلوقين، وهذا انحراف وضلال مبين.

قلت: فإذا سألك سائل: هل لله وجه سبحانه وتعالىٰ؟

فقل: نعم لله وجه.

فإن قال لك: ما دليل ذلك؟

فقل: قال الله تعالىٰ عن نفسه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٧].

فإن قال لك: هل هو وجه علىٰ الحقيقة؟

فقل له: نعم.

فإن قال لك: فكيف هو هذا الوجه هل له كيفية؟

فقل له: نعم له كيفية، ولكن لا يعلمها إلَّا الله، لأني لم أرَ الله، ولم يعلمني الله عَزَّوَجَلَّ عن كيفية ذلك فلا ينبغي أن أقول علىٰ الله بغير علم.

فإن قال لك: فهل يشبه بحال من الأحوال وجه أحد من المخلوقين؟

فقل له: معاذ الله فربنا أعلمنا أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فإن قال لك: وما يقول أهل السنة في ذلك؟

فقل له: يقولون نثبت لله عَزَّوَجَلَّ صفة الوجه، وهي صفة ذاتية له تبارك وتعالىٰ، ولا نشبهه ولا نمثله بأحد من خلقه، ولا نعلم كيفية وجهه الكريم، ولا نحرِّف ما أثبته الله لنفسه، فنصرف اللفظ عن معناه بغير دليل يوجب الصرف، ولا نعطل صفة وصف ربنا بها نفسه.

فإذا قال لك: فلم نفىٰ الصفة من نفاها ولم عطل الصفة من عطلها ولم حرف المعنىٰ من حرفه؟

فقل له: أنه ما فعل ذلك هؤلاء المبتدعة إلَّا لما شبهوا في أذهانهم بجهلهم صفة المخلوق بصفة الخالق تعالىٰ الله عما يدعي الجاهلون المبتدعون علوًّا كبيرًا.

۞ صفة اليد:

ودليل الصفة: قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ [الفتح:١٠].

* وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ أَوْ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَائِنًا مَنْ كَانَ فَاقْتُلُوهُ، فَإِنَّ يَدَ اللهِ عَلَىٰ الْجَمَاعَةِ. وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ يَرْكُضُ**» صحيح رواه ابن حبان وغيره.

* وقال أيضًا: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّوَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**». صحيح رواه مسلم وغيره

✍ **قال العلامة اللالكائي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: صفات الله الذاتية لا تثبت إلَّا من طريق السمع فقط، ولا دخل للعقل ولا للنظر فيها، كالقدم والساق واليد والنفس، فكلها ثابتة بالكتاب والسنة، وقد وضع أهل السنة والجماعة قواعد تميزهم عن الفرق الضالة التي خرجت عن جادة الصواب في اعتقادهم في أسماء الله وصفاته ما بين تمثيل أو تعطيل أو تأويل. وقد ثبت بالكتاب والسنة أن لله يدين كلتاهما يمين، نمرّها كما جاءت من غير تكييف، ولا تمثيل لها، ومن غير تعطيل ولا تأويل.

✍ **قلت:** وما ذكرناه في مسألة إثبات الوجه لله عَزَّوَجَلَّ نقوله هنا أيضًا في صفة اليد فالصفة معلومة والكيفية مجهولة بالنسبة لنا وإثباتها واجب والخوض فيها بدعة.

صفة الأصابع:

ودليل الصفة: ما رواه الإمام مسلم في «صحيحه» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (جاء حبر إلىٰ النبي ﷺ - ومعنىٰ حبر: عالم من علماء اليهود - فقال: يا أبا القاسم! إن الله تعالىٰ يمسك السماوات يوم القيامة علىٰ أصبع، والأرضين علىٰ أصبع، والجبال والشجر علىٰ أصبع، والماء علىٰ أصبع، والثرىٰ -الذي هو التراب- علىٰ أصبع، وسائر الخلق علىٰ أصبع ثم يهزهن فيقول: أنا الملك أنا الملك، فضحك النبي ﷺ تعجبًا مما قال الحبر وتصديقًا له).

قال الإمام اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أهل السنة والجماعة يثبتون لله تعالىٰ الأسماء والصفات كما يليق بجلال الله من غير تكييف ولا تعطيل ولا تحريف ولا نفي ولا تأويل، ومن ذلك إثباتهم لصفة الأصابع والأنامل، فقد ثبت ذلك في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام التي ذكر فيها أن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن جل وعلا.

قلت: وما ذكرناه في الصفات السابقة ينسحب علىٰ هذه الصفة أيضًا، فليرجع إليه لمن أراد.

صفة القَدم:

ودليل الصفة: ما جاء عند أحمد وغيره بسند صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ الْجَنَّةُ: أَيْ رَبِّ، مَا لَهَا يَدْخُلُهَا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ وَقَالَتِ النَّارُ: يَا رَبِّ، مَا لَهَا يَدْخُلُهَا الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ؟ قَالَ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا. قَالَ: فَأَمَّا الْجَنَّةُ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يَظْلِمُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَإِنَّهُ يُنْشِئُ لَهَا مِنْ خَلْقِهِ مَا شَاءَ، وَأَمَّا النَّارُ، فَيُلْقَوْنَ فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، وَيُلْقَوْنَ فِيهَا، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّىٰ يَضَعَ رَبُّنَا عَزَّوَجَلَّ فِيهَا قَدَمَهُ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ»**

قال الإمام اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ صفة القدم ثابتة لله تعالىٰ في السنة، وهي قدم تليق بالله سبحانه لا تشبه أقدام المخلوقين، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة في جميع الصفات، إذ يجب إمرارها كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف ولا تأويل، وقدم الله سبحانه لا يعلم كيفيتها إلَّا هو سبحانه وتعالىٰ.

صفة السمع والبصر:

ودليل الصفة: قال جل ثناؤه: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة:١]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق:١٤].

قال اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات وسط بين المجسمة والمعطلة، فهم يثبتون لله ما أثبته لنفسه وما أثبته له نبيه عليه الصلاة والسلام من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تبديل ولا تأويل، سواء في صفات الذات كالسمع والبصر، أو صفات الأفعال كالمجيء والاستواء، وغيرها.

صفة العين:

ودليل الصفة: قال تعالىٰ: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه:٣٩].

وصفة الوجه والعين لله عَزَّوَجَلَّ صفة ذاتية خبرية، وليست صفة فعلية، بل هي صفة ذاتية، بمعنىٰ أنها لازمة لذاته منذ الأزل وإلىٰ الأبد، فهي لازمة له أولًا وآخرًا ولا تنفك عنه، فهي ليست من صفات الأفعال التي إذا شاء الله تعالىٰ فعلها وإذا شاء لم يفعلها كصفة الكلام والضحك والغضب والإتيان والمجيء والسرور والفرح، وغير ذلك، فهذه صفات فعلية إذا شاء فعلها وإذا شاء لم يفعلها، بخلاف الصفات الذاتية اللازمة له، والتي لا تنفك عنه سبحانه وتعالىٰ.

صفة النفس:

ودليل الصفة: قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة:١١٦].

قال الإمام اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من سمات أهل السنة والجماعة أنهم يثبتون لله تعالىٰ ما أثبته لنفسه، وما أثبته له رسوله من الأسماء والصفات، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله، ومن تلك الصفات التي أثبتوها صفة النَّفس لله تعالىٰ، وقد اختلف السلف والأئمة من أهل السنة في كونها صفة للذات الإلهية، أم أنها دلالة علىٰ الذات الإلهية، وكذلك اختلفوا في النَّفس فبعضهم جعله صفة، وبعضهم حمله علىٰ

التنفيس، ولكل قول منها ما يعضده من الأدلة.

القاعدة العاشرة (من قواعد الصفات) في ذكر بعض الصفات الفعلية لرب البرية

صفة الكلام:

ودليل الصفة: قوله تعالىٰ: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة:٧٥].

* وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة:٦].

* وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء:١٦٤].

* وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف:١٠٩].

قال اللالكائي رَحِمَهُ اللَّهُ ومنهج أهل السنة والجماعة في صفات الله أنها صفات تليق به سبحانه، لا يجوز فيها التمثيل ولا التشبيه ولا التكييف ولا التأويل، بل يجب إثباتها كما أثبتها الله لنفسه في كتابه، وأثبتها له رسوله ﷺ في سنته، ومن ذلك ما ورد أن لله يدين وعينين ووجهًا وقدمًا ورجلًا، وغيرها من الصفات الذاتية، كما نثبت لله عَزَّوَجَلَّ صفة الكلام وهي صفة ذاتية وفعلية، فهو تعالىٰ يتكلم وقتما يشاء، بحرف وصوت ليس كحرف وصوت المخلوقين.

صفة الاستواء على العرش:

ودليل الصفة: في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٩].

* وقوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد:٢]، وذُكرت صفة استواء الله جل وثناؤه علىٰ العرش سبع مرات في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ

✍ **قال الإمام اللالكائي**: من سمات أهل السنة والجماعة أنهم يثبتون لله تعالىٰ ما أثبته لنفسه، وما أثبته له رسوله من الأسماء والصفات، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله، ومن تلك الصفات التي أثبتوها صفة النفس لله تعالىٰ، وقد اختلف السلف والأئمة من أهل السنة في كونها صفة للذات الإلهية، أم أنها دلالة علىٰ الذات الإلهية، وكذلك اختلفوا في النَّفس فبعضهم جعله صفة، وبعضهم حمله علىٰ التنفيس، ولكل قول منها ما يعضده من الأدلة.

صفة النزول:

ودليل الصفة: قوله ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ اسْمُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ، حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ حَتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ**» رواه أحمد وهو علىٰ شرط الشيخين.

✍ **قال الإمام اللالكائي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أصول الاعتقاد»: صفات الله الفعلية هي ما يتعلق بأفعال الله تبارك وتعالىٰ، وأفعاله لا منتهىٰ لها، فهو يفعل ما يشاء، متىٰ شاء، وكيفما يشاء، ومن صفات الله الفعلية صفة النزول، وأهل السنة يثبتون لله سبحانه وتعالىٰ نزولًا يليق بجلاله وعظمته، وقد خالفهم في ذلك فرق الخوارج الذين يردون الأحاديث الواردة في ذلك، أو يشبهون نزوله بنزول المخلوقين، كما خالفهم في ذلك القائلون بعدم نزوله تعالىٰ مطلقًا، وغيرهم من أهل المذاهب المنحرفة، والتي ما هي إلَّا نتاج إعمال العقل وتقديمه علىٰ النص، واتباع الهوىٰ الذي يؤول بصاحبه إلىٰ التردي في أودية الهلاك.

صفة المجيء:

ودليل الصفة: قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر:٢١، ٢٢].

✍ **قال الإمام اللالكائي** عَزَّوَجَلَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: صفتا الإتيان والمجيء لله عَزَّوَجَلَّ من الصفات الفعلية التي تخضع لمشيئته سبحانه وتعالىٰ، وهما ثابتتان بالكتاب والسنة ثبوتًا يليق بالله سبحانه دون تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل، خلافًا للمؤولة الذين صرفوا النصوص عن ظاهرها ومرادها، فأولوا الإتيان والمجيء لله بأنه مجيء أمر الله سبحانه أو رحمته، لا مجيئه بذاته سبحانه وتعالىٰ.

رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة:

ودليل ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣].

* وما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ» فَقَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ» فَقَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.....» وراه أحمد وغيره بسند صحيح.

قال الإمام اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «أصول الاعتقاد»: تعد مسألة رؤية المؤمنين لربهم عَزَّوَجَلَّ من أشرف مسائل الدين وأجلها، إذ إنها تتعلق بالاعتقاد وأصول الدين، بل هي الغاية التي شمر إليها المشمرون، وهي الزيادة التي أكرم الله بها عباده المؤمنين في الآخرة، وقد دلت علىٰ ذلك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة قاطبة، خلافًا لبعض أهل الأهواء والبدع.

الآن بعد أن انتهينا بفضل الله تعالىٰ من ذكر الأسماء والصفات الواجب إثباتها لربنا جل ثناؤه، وذكر القواعد التي أصَّلها علماءُ أهل السنة والجماعة في هذا الشأن، نرجع إلىٰ القواعد الأساسية من قواعد الاعتقاد:

القاعدة الحادية عشرة في وجوب الإيمان بتوحيد ألوهية الله عَزَّوَجَلَّ

اعلم - علَّمك الله - أن النوع الثاني من التوحيد هو توحيد الإلهية وهو (إفراد الله بالعبادة وحده والتبرؤ من كل معبود سواه).

ويسمىٰ أيضًا (التوحيد العملي الإرادي القصدي الطلبي وهو توحيد العبادة).

ويعني إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعمل التعبدي وإرادة القلب لما يرضيه وقصد القلب بالتوجه إليه دون من سواه وإفراده بالطلب والدعاء والمسألة دون غيره).

ومعنىٰ العبادة: (هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه وذلك لا يُعلم إلَّا عن طريق الكتب المنزلة والرسل المرسلة.

ودليل ذلك: شهادة الله لنفسه بالألوهية:

شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهد له به ملائكته وأنبياؤه ورسله، قال تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨ ﴾ [آل عمران:١٨]، ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران:١٩] فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد والرد علىٰ جميع طوائف الضلال، فتضمنت أجلّ شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها، من أجلّ شاهد بأجلّ مشهود به

۞ مراتب الشهادة التي ينبغي للشاهد أن يقوم بها:

١ - مرتبة العلم:

(وهي: أن الشاهد يعلم ما يشهد به علم يقين، ويكون علمه ناشئًا عن أدلة، وتكون تلك الأدلة صريحة الدلالة ليس فيها شك ولا تردد).

٢ - مرتبة التكلم والإخبار:

(وهي مرتبة التكلم والإخبار، أنت إذا شهدت بالتوحيد واعتقدته بقلبك فلا تسكت علىٰ ما في نفسك، بل عليك أن تخبر بما شهدت وبما تعتقده، فتخبر الناس بأنك علىٰ يقين بهذا التوحيد، وأنك علىٰ عقيدة راسخة ومعرفة تامة لما تعتقده، من إلهية الله وحده ومن استحقاقه لصفات الكمال وللأسماء الحسنىٰ والصفات العلا، فالتكلم يسمىٰ شهادة).

٣- مرتبة الإعلام:

وأما مرتبة الإعلام والإخبار فنوعان: إعلام بالقول وإعلام بالفعل، وهذا شأن كل مُعلم لغيره بأمر؛ تارة يعلمه به بقوله، وتارة بفعله، ولهذا كان مَنْ جعل داره مسجدًا وفتح بابها وأبرزها بطريقها وأذن للناس بالدخول والصلاة فيها معلمًا أنها وقف وإن لم يتلفظ به.

وكذلك من وجد متقربًا إلىٰ غيره بأنواع الْمَسَارِّ يكون مُعْلِمًا له ولغيره أنه يحبه وإن لم يتلفظ بقوله، وكذلك بالعكس.

وكذلك شهادة الرب عَزَّوَجَلَّ وبيانه وإعلامه، يكون بقوله تارة وبفعله أخرىٰ، فالقول ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه، وأما بيانه وإعلامه بفعله فكما قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:١٨].

وقال آخر: وفي كل شيء له آية تدل علىٰ أنه واحد ومما يدل علىٰ أن الشهادة تكون بالفعل قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ﴾ [التوبة:١٧] فهذه شهادة منهم علىٰ أنفسهم بما يفعلونه.

والمقصود أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه، ودلالتها إنما هي بخلقه وجعله.

٤- مرتبة الأمر والإلزام:

وأما مرتبة الأمر بذلك والإلزام به، وأن مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه؛ فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به وقضىٰ وأمر وألزم عباده به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣].

* وقال الله تعالىٰ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ﴾ [النحل:٥١].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة:٣١].

* وقال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء:٢٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ﴾ [القصص:٨٨]، والقرآن كله شاهد بذلك.

فهذه المرتبة الرابعة التي هي مرتبة الأمر والإلزام بالمأمور به، وهو التوحيد، قال الله تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٨-١٩] هذه الشهادة قد لا يكون فيها أمر صريح فهو لم يقل: اشهدوا بما شهدت به، ولا قال: ألزمتكم أيها الناس بأن تشهدوا بما شهدت به، ولكن العاقل يتفكر إذا قرأ أو قيل له: إن الله قد شهد لنفسه بالوحدانية، وملائكته شهدوا له بذلك، والعلماء من خلقه شهدوا له بذلك، فيفكر ويقول: كيف لا أكون مع العلماء؟! إذا لم أكن مع العلماء كنت مع الجهال، ولا أرضىٰ أن أكون بين الجاهلين، فعند ذلك يشهد بما شهدوا به، فكأن ذلك أمر، وكأنه يقول: شهدت بذلك أنا وملائكتي والعلماء من خلقي فافعلوا ذلك واشهدوا به يا جميع الخلق.

هذا قد يؤخذ من هذه الشهادة، ولكن هناك أدلة صرحت بأمر الناس كلهم بهذه الشهادة، وبهذا التوحيد، مثل الآيات التي تقدمت، فالله تعالىٰ يقول: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ﴾ [يوسف:٤٠] هذا أمر وإلزام، وكذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ﴾ [النساء:٣٦]، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [البقرة:٨٣]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ﴾ [التوبة:٣١]، ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة:٥] فالأمر يقتضي الإلزام.

إذا أمرنا الله بهذا فقد ألزمنا به، فيجب امتثاله، فإن أمر الله هو الحق، وضده هو الباطل، فمن لم يمتثل هذا المأمور فإنه خاسر.

القاعدة الثانية عشرة في وجوب تحقيق شُرُوط لا الله إلاَّ الله

والشرط اصطلاحًا: مَا توقف الشَّيْء علىٰ وجوده وَلم يكن جُزْءًا من حَقِيقَته. كَالْوضُوءِ فِي الصَّلَاة. فَإِنَّهُ شَرط لصِحَّة الصَّلَاة. فَإِذا لم يُوجد لم تصح الصَّلَاة، وَلَيْسَ الْوضُوء جُزْءًا من حَقِيقَة الصَّلَاة. وَهَكَذَا كل مَا جعله الشَّارِع شرطا لشَيْء. فَإِن هَذَا الشَّيْء لَا يتَحَقَّق وَلَا يعْتد بِهِ - فِي نظر الشَّارِع إِلَّا إِذا تحقق ذَلِك الشَّرْط - وَإِن لم يكن جُزْءًا من حَقِيقَته وَعَلِيهِ: فشروط الشَّيْء هِيَ الَّتِي لَا يَصح إِلَّا بتوافرها.

وَإِذًا فشروط لَا الله إِلَّا الله. هِيَ: الَّتِي لَا تصح لَا الله إِلَّا الله إِلَّا بتوافرها.

وَهِي سَبْعَة نظمها أحد الْعلمَاء فِي قَوْله:

علم يَقِين وإخلاص وصدقك مَعَ ... محبَّة وانقياد وَالْقَبُول لَهَا

كَمَا جمعهَا الشَّيْخ حَافظ الحكمي فِي قَوْله:

وبشروط سَبْعَة قد قيدت ... وَفِي نُصُوص الْوَحْي حَقًّا وَردت

فَإِنَّهُ لم ينْتَفع قَائِلهَا ... بالنطق إِلَّا حَيْثُ يستكملها

وَالْعلم وَالْيَقِين وَالْقَبُول ... والانقياد فادر مَا أَقُول

والصدق وَالْإِخْلَاص والمحبة ... وفقك الله لما أحبه

والآن نشرع فِي بَيَان كل شَرط مِنْهَا بِشَيْء من الْإِيضَاح.

الشَّرط الأول: الْعلم:

وَالْعلم لُغَة: نقيض الْجَهْل. تَقول علمه علمًا - أي - عرفه حق الْمعرفَة.

وَفِي الِاصطلاح: معرفَة الْمَعْلُوم علىٰ مَا هُوَ بِهِ.

وَعَلِيهِ فالعلم بِلَا إِلَه إِلَّا الله: مَعْرفَتهَا بحقيقتها. وَهُوَ: أن تعلم بمعناها نفيًا وإثباتًا علما منافيًا للْجَهْل.

وَمَعْنَاهَا: الْبَرَاءَة من كل مَا يُعبد من دون الله، وإخلاص الْعِبَادَة لله وَحده بِاللِّسَانِ وَالْقلب وَسَائِر الْجَوَارِح.

وَقد دلّ الْكتاب وَالسّنة علىٰ ذَلِك. فَمن الْكتاب: قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩] الْآيَة.

وَهَذِه الْآيَة - كَمَا نرىٰ - صَرِيحَة فِي اشْتِرَاط الْعلم بِلَا إِلَه إِلَّا الله.

وَمن السّنة: قَوْله ﷺ : «من مَاتَ وَهُوَ يعلم أن لا إِلَه إِلَّا الله دخل الْجنَّة» مسلم.

والعلم بلا إله إلَّا الله لابد أن يكون مصاحبًا للعلم بالله وأسمائه وصفاته، ومقتضىٰ كل عبودية من عبوديات أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، فالعلم يكون بالله وبوحدانيته وعلمٌ بكل ما هو شرك به عَزَّوَجَلَّ لتجنبه وهكذا فعلوم العقيدة فرض علىٰ كل موحدٍ تعلمها والعمل بمقتضاها.

الشَّرط الثَّانِي: الْيَقِين.

الْيَقِين لُغَة: هُوَ زَوَال الشَّك، وَتَحْقِيق الْأَمر، وَالْعلم بِهِ.

وَهُوَ: نقيض الشَّك - كَمَا أن الْعلم نقيض الْجَهْل.

وَفِي الِاصطلاح: اعْتِقَاد الشَّيْء بِأَنَّهُ كَذَا مَعَ اعْتِقَاد أنه لَا يُمكن إِلَّا كَذَا مطابقًا للْوَاقِع غير مُمكن الزَّوَال.

وَالْمرَاد هُنَا: أن يكون قَائل لَا إِلَه إِلَّا الله مُسْتَيْقنًا قلبه بمدلول هَذِه الْكَلِمَة يَقِينًا جَازِمًا منافيًا للشَّك.

فَمن قَالَهَا وهو شاك فِي شَيْء مِمَّا دلّت عَلَيْهِ من مَعْنَاهَا لم يتَحَقَّق لَدَيْهِ هَذَا الشَّرْط.

وهو أن يوقن بقلبه علمًا لا يساوره شك بكل ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به عن نفسه وعن رسله وعن كتبه وعن ملائكته وبكل ما شرع فلا يصدق إلَّا خبر ربه وإن قال القائلون وقالوا فهو يقين بالله وبكلامه وأقداره وأفعاله بحيث لا يهتز هذا اليقين ولا طرفة عين وإلَّا سقطت سماء إيمانه علىٰ أرضها.

* والأدلة علىٰ ذَلِك كَثِيرَة من الْكتاب وَالسّنة:

- فَمن الْكتاب: قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات:١٥].

- ومن السنة: قَوْله ﷺ لأبي هُرَيْرَة: «اذْهَبْ بنعلي هَاتين فَمن لقِيت وَرَاء هَذَا الْحَائِط يشْهد أن لَا إِلَه إِلَّا الله مُسْتَيْقنًا بهَا قلبه فبشره بِالْجنَّةِ» مسلم.

الشَّرط الثَّالث: الإخلاص.

الْإِخْلَاص لُغَة: مصدر أَخْلص يخلص. وَهُوَ يرد لمعانٍ. مِنْهَا: تنقية الشَّيْء وتهذيبه. تَقول: أخلصت السّمن: أَي جعلته خَالِصًا. وأخلص لله دينه: أمحصه وَترك الرِّيَاء فِيهِ. فَهُوَ عبد مخلص. وأخلص الشَّيْء: اخْتَارَهُ.

واصطلاحًا: هُوَ تصفية الْعَمَل لله بالتبرؤ من دونه.

* ودليله من الْكتاب: قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ...﴾ [الزمر:٢،٣] الْآيَة.

* وَقَوله تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤﴾ [الزمر:١٤].

* وَقَوله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ...﴾ [البينة:٥] الآية

* ومن السنة عَن أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَالَ: سَمِعت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**قَالَ الله تَعَالَىٰ: أنا أغْنىٰ الشُّرَكَاء، مَن عَمِلَ عملًا أشرك فِيهِ معي غَيْرِي تركته وشركه**» مسلم.

هَذِه بعض الْأَدِلَّة من الْكتاب وَالسّنة الَّتِي توكد شَرْطِيَّة الْإِخْلَاص وأهميته. بل هُوَ حَقِيقَة الْإِسْلَام.

✍ **قَالَ شيخ الْإِسْلَام**: «وَأما الْإِخْلَاص فَهُوَ حَقِيقَة الْإِسْلَام إِذْ «الْإِسْلَام» هُوَ الاستسلام لله لَا لغيره كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ...﴾ [الزمر:٢٩]، فَمن لم يستسلم لله فقد استكبر، وَمن استسلم لله وَلغيره فقد أشرك وكل من الْكبر والشرك ضد الْإِسْلَام، وَالْإِسْلَام ضد الشّرك وَالْكبر».

✍ **قلت**: وهو تخليص القلب وتصفيته من كل ما سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فلا يَطلب رائيًا لعمله إلَّا الله ولا يلتفت في طلبه ومسألته لأحدٍ سواه، والإخلاص عزيز إلَّا علىٰ من اختاره الله واصطفاه وينبغي علىٰ العبد أن يبذل وسعه في تخليص قلبه من كل ما سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وذلك لا يكون إلَّا بالعلم اليقيني بأن الله وحده هو من يملك دفع كل مضرة عنه وجلب كل مصلحة له وأنه لا أحد من الخلق يملك له ضرًّا ولا نفعًا كما جاء في الحديث «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلَّا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلَّا قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام ورفعت الصحف**» فالإخلاص لا يكون إلَّا بالعلم واليقين فهما السبيل الوحيد لبلوغه بعد توفيق الله عَزَّوَجَلَّ للعبد.

الشَّرط الرَّابع: الصدق المنَافِي للكذب:

الصدْق لُغَة: مصدر صدق - تَقول: صدق يصدق صَدقًا وصِدقًا - يفتح وَيكسر وَالْكَسْر أفْصح - أو الْفَتْح للمصدر، وَالْكَسْر للاسم. ضد الْكَذِب. وَهُوَ مُطَابقَة الْكَلَام للْوَاقِع بِحَسب اعْتِقَاد الْمُتَكَلّم.

* وَالْمرَاد هُنَا: أن يَقُول الْمَرْء «لَا إِلَه إِلَّا الله» صَادِقًا من قلبه بمعناها ومقتضاها صدقًا منافيًا للكذب.

* قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:١-٣].

* وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة:٨-١٠].

قَالَ ابْن الْقيم: «هُوَ من شَأْنه الصدْق فِي قَوْله وَعَمله وحاله فالصدق فِي الْأَقْوَال: اسْتِوَاء اللِّسَان علىٰ الْأَقْوَال كاستواء السنبلة علىٰ سَاقهَا، والصدق فِي الْأَعْمَال: اسْتِوَاء الْأَفْعَال علىٰ الأمر والمتابعة كاستواء الرَّأْس علىٰ الْجَسَد، والصدق فِي الْأَحْوَال: اسْتِوَاء أعمال الْقلب والجوارح علىٰ الْإِخْلَاص واستفراغ الوسع وبذل الطَّاقَة فبذلك يكون العَبْد من الَّذين جَاءُوا بِالصِّدقِ وبحسب كَمَال هَذِه الْأُمُور فِيهِ وقيامها بِهِ تكون صدقيته».

ومن كَلَام ابْن الْقيم يَتَّضِح أن الصدْق الْوَاجِب وَهُوَ مَا دلّت عَلَيْهِ الْآيَات، بِمَعْنىٰ الشَّهَادَة ومقتضاها قولًا وَعملًا وَحَالًا.

والصدق الذي هو شرط من شروط لا اله إلَّا الله هو أن يُصدق العبد ربه عَزَّوَجَلَّ في كل ما أخبر به من علوم الغيبيات وغيرها ويصدق الأنبياء والرسل فيما أخبروا عن ربهم جل وعلا وأن يظهر أثر هذا التصديق علىٰ أحوال قلبه وعلىٰ لسان حاله ومقاله فيكون بذلك صادقًا مُصدقًا عاملًا بمقتضىٰ ما صدق فيه وصدقه ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣].

أما الأدِلَّة من السّنة فمنها قَوله ﷺ لأبي مُوسَىٰ - وَمَعَهُ نفر من قومه - «أَبْشِرُوا وَبَشِّرُوا مَنْ وَرَاءَكُمْ، أَنَّهُ مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ صَادِقًا بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ». رواه أحمد.

قَوْله ﷺ فِي الْأعرَابِي الَّذِي علمه شرائع الْإِسْلَام: «أفْلح إِن صدق» رواه البخاري وَهَذَا الحَدِيث صَرِيح فِي شَرْطِيَّة الصدْق فِي الْأَقْوَال وَفِي الْأَعْمَال (فِي الصَّلَاة وَالصّيَام وَالزَّكَاة) وَهِي من مقتضيات لَا إِلَه إِلَّا الله.

الشَّرط الخَامِس: المحبَّة:

الْمحبَّة لُغَة: اسْم للحب. وَالْحب: نقيض البغض، وَهُوَ الوداد.

واصطلاحًا: المحبة الواجبة هي محبة الله (طاعته في كل ما أمر به واجتناب كل ما نهىٰ عنه وتصديق كل ما أخبر به وميل النفس إليه والشوق إلىٰ لقائه).

قلت: ومن لوازمها محبة كل ما يحبه الله وكل من يحبهم الله وبغض كل ما يبغضه الله وبغض كل من يبغضهم الله.

ولابد أن نفرق بين المحبة العاطفية والمحبة الشرعية فالمحبة العاطفية هي ميل قلبي لمشتهًىٰ نفسي أما المحبة الشرعية فلها ضوابط وأصول لابد من مراعاتها وهي أن محبة العبد لله لا تكون إلَّا باتباع منهج الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢]، فربط جل ثناؤه بين المحبة وبين الاتباع رباطًا وثيقًا لا ينفك ولا ينحل فلا محبة بدون اتباع ولا اتباع بدون محبة.

أما محبة الله عَزَّوَجَلَّ للعبد فهي إنعامه عليه بطاعته وقبول تلك الطاعة منه ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء:٦٩-٧٠]، ولا نعلم قاسمًا مشتركًا جمع هؤلاء الذين أنعم الله عليهم إلَّا توفيقه لهم لحسن عبادته وتقبله لهم لخدمة دينه وقبوله لطاعتهم، وبناءً عليه فمقياس معرفة من يحبهم الله هو إقامتهم علىٰ الطاعة فكلما كان العبد طائعًا لله مقيمًا علىٰ مراضيه كلما عُلم أن الله عَزَّوَجَلَّ يحبه ويقربه منه.

إذًا لا ينبغي أن يقاس الخلق إلَّا بهذا المقياس مقياس الطاعة لله عَزَّوَجَلَّ وهي دليل عظيم علىٰ محبة الله للعبد، ثم محبة النبي ﷺ أيضًا لا تكون إلَّا محبة بالضوابط الشرعية فمحبته ﷺ هي الانقياد له والاقتداء به في كل أمر من أمور الدين وكلما كان العبد مقتديًا كلما كان محبًّا وغير هذا تكون مجرد ترهات وأقاويل كاذبة لا تنفع صاحبها عند الله عَزَّوَجَلَّ، ثم بعد ذلك ينبغي أن تكون المحبة العاطفية تابعة للمحبة الشرعية فلا تناقضها

بحال من الأحوال، وعليه فإن تعارضت المحبة العاطفية مع المحبة الشرعية فينبغي علىٰ العبد أن يدعها علىٰ الفور لأنه إن لم يدعها أصبحت ندًّا لله عياذًا بالله ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة:١٦٥]، ولهذا لابد للعبد أن ينظر في كل ميل لقلبه وكل اتباع لبدنه فإن كان موافقًا لمحبة الله وطاعته تمسك به وإن كان مضادًا لمحبة الله وطاعته تخلص منه علىٰ الفور، وهنا تُبلىٰ النفوس ويُعلم الصادق في محبته من الكاذب فيهلك من هلك عن بينة وينجو من نجا عن بينة، فانتبه!

وَالْمرَاد هُنَا: الْمحبَّة، وَهِي: الْمَودَّة وَالرَّغْبَة لـ «لا إِلَه إِلَّا الله»، وَلما اقتضته ودلت عَلَيْهِ من الْأَقْوَال وَالْأَفْعَال محبَّة مُنَافِيَة لضدها.

وَمن ذَلِك: أن يكون الله سُبْحَانَهُ وَرَسُوله أحب إِلَيْهِ مِمَّا سواهُمَا، والمحبة لأَهْلهَا العاملين بهَا الملتزمين بشروطها، وبغض من نَاقض ذَلِك.

ذَلِك أنه لَا يحصل لقائلها معرفَة وَقبُول إِلَّا بالمحبة، لِأَن الْمحبَّة تدل علىٰ الْإِخْلَاص الْمنَافِي للشرك، وَمن أحب الله تَعَالَىٰ أحب دينه.

* ودليله من الكتاب: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ... ﴾ [البقرة:١٦٥] الْآيَة.

* وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ... ﴾ [المائدة:٥٤] الْآيَة.

* ودليله من السنة: قَالَ ﷺ: «**ثَلَاث من كن فِيهِ وجد بِهن حلاوة الْإِيمَان: من كَانَ الله وَرَسُوله أحب إِلَيْهِ مِمَّا سواهُمَا، وَمن أحب عبدًا لَا يُحِبهُ إِلَّا لله، وَمن يكره أن يعود فِي الْكفْر بعد إِذْ أنقذه الله مِنْهُ كَمَا يكره أن يُلقىٰ فِي النَّار**» رواه البخاري.

* وَعَن أبي رزين الْعقيلِيّ أنه قَالَ: يَا رَسُول الله مَا الْإِيمَان؟ فَقَالَ: «**أن تشهد أن لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ وَأن مُحَمَّدًا عَبده وَرَسُوله وَأن يكون الله وَرَسُوله أحب إِلَيْك مِمَّا سواهُمَا...**» الحَدِيث رواه أحمد.

وَانْتِفَاء هَذِه الْمحبَّة ردة - كَمَا قَالَ ابْن تيمية - وَهُوَ يتَكَلَّم عَن الْمُرْتَد: «أو كَانَ مبغضًا لرَسُوله أو لما جَاءَ بِهِ اتِّفَاقًا».

بل إِن مَنْ سَاوَىٰ بَين محبَّة الله وَرَسُوله وَبَين محبَّة غَيرهمَا فَلَيْسَ بِمُؤْمِن فضلًا عَمَّن أحب مَا سوىٰ الله وَرَسُوله أكثر من محبتهما. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

* وَقَوله ﷺ: «لَا يُؤمن أحدكُم حَتَّىٰ أكون أحب إِلَيْهِ من وَالِده وولده وَالنَّاس أَجْمَعِينَ».

ومحبة الله وَرَسُوله لَا تتَحَقَّق إِلَّا بِاتِّبَاع مَا بلغه الرَّسُول ﷺ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ... ﴾ [آل عمران:٣١] الْآيَة

✍ قَالَ ابْن كثير: «هَذِه الْآيَة حاكمة علىٰ كل من ادّعىٰ محبَّة الله وَلَيْسَ هُوَ علىٰ الطَّرِيقَة المحمدية بِأَنَّهُ كَاذِب حَتَّىٰ يتبع الشَّرْع المحمدي وَالدّين النَّبَوِيّ فِي جَمِيع أَقْوَاله وأفعاله».

✍ وَقَالَ يحيىٰ بن معَاذ: «لَيْسَ بصادق من ادّعىٰ محبَّة الله وَلم يحفظ حُدُوده».

✍ وَقَالَ أَبُو يَعْقُوب النهرجوري: «كل من ادّعىٰ محبَّة الله وَلم يُوَافق الله فِي أمره فدعواه بَاطِلَة».

وَمن تَمام محبَّة الله محبَّة مَا يُحِبهُ وَكَرَاهَة مَا يكرههُ. فَمن أحب شَيْئا مِمَّا يكرههُ الله أو كره شَيْئا مِمَّا يُحِبهُ الله لم يكمل توحيده وَصدقه فِي قَول لَا إِلَه إِلَّا الله، وَكَانَ فِيهِ من الشّرك بِحَسب مَا كرهه مِمَّا يُحِبهُ الله، وَمَا أحبه مِمَّا يكرههُ الله. وَلذَلِك ذمّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هَؤُلَاءِ فَقَالَ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ [محمد:٩]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [محمد:٢٨].

* وَفِي «صَحِيح الْحَاكِم» عَن عَائِشَة رضي الله عنها عَن النَّبِي ﷺ قَالَ: «الشّرك فِي هَذِه الْأمة أخفىٰ من دَبِيب النَّمْل علىٰ الصَّفَا فِي اللَّيْلَة الظلماء، وَأَدْنَاهُ أَن تحب علىٰ شَيْء من الْجور أو تبغض علىٰ شَيْء من الْعدْل» الحَدِيث.

✍ قَالَ ابْن رَجَب - بعد سِيَاقه هَذَا الحَدِيث -: «وَهَذَا نَص فِي أَن محبَّة مَا يكرههُ الله وبغض مَا يُحِبهُ مُتَابعَة للهوىٰ، والموالاة علىٰ ذَلِك والمعاداة فِيهِ من الشّرك الْخَفي».

وعلامة حب العَبْد ربه تَقْدِيم محابه وَإِن خَالَفت هَوَاهُ، وبغض مَا يبغض ربه وَإِن مَال إِلَيْهِ هَوَاهُ، وموالاة من والىٰ الله وَرَسُوله ومعاداة من عَادَاهُ، وَاتِّبَاع سنة رَسُوله ﷺ وتقديمها علىٰ غَيرهَا من السّنَن.

وَمن الْمَعْلُوم أن الْجَوَارِح تعْمل - فِي الْغَالِب - بِمُقْتَضىٰ الْحبّ والبغض، يَدْفعهَا حب الشَّيْء إِلَىٰ عمله وبغض الشَّيْء إِلَىٰ تَركه وَلذَا إِذا تمكنت محبَّة الله تَعَالَىٰ فِي الْقلب لم تنبعث الْجَوَارِح إِلَّا إِلَىٰ طَاعَته عَزَّوَجَلَّ وَهَذَا - كَمَا قَالَ ابْن رَجَب - هُوَ معنىٰ الحَدِيث الإلهي الَّذِي خرّجه البُخَارِيّ عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي ﷺ عَن ربه - وَفِيه «**وَلَا يزَال عَبدِي يتقرَّب إِلَيّ بالنوافل حَتَّىٰ أحبه فَإِذا أحببته كنت سَمعه الَّذِي يسمع بِهِ وبصره الَّذِي يبصر بِهِ وَيَده الَّتِي يبطش بهَا وَرجله الَّتِي يمشي بهَا...**» الحَدِيث.

✍ قَالَ الْفَاكِهَانِيّ: «يحْتَمل أن يكون معنىٰ سَمعه مسموعه، لِأَن الْمصدر قد جَاءَ بِمَعْنىٰ الْمَفْعُول مثل فلَان أملي بمعنىٰ مأمولي، وَالْمعْنَىٰ أنه لَا يسمع إِلَّا ذكري وَلَا يلتذ إِلَّا بتِلَاوَة كتابي وَلَا يأنس إِلَّا بمناجاتي وَلَا ينظر إِلَّا فِي عجائب ملكوتي وَلَا يمد يَده إِلَّا فِي رضاي وَرجله كَذَلِك». وَبِمَعْنَاهُ قَالَ ابْن هُبَيْرَة - وَهَذَا يُؤَيّد مَا قَالَه ابْن رَجَب - آنِفًا - فِي معنىٰ الحَدِيث.

الشَّرط السَّادِس: الانقياد.

الانقياد: لُغَة: الخضوع والذل. تَقول قدته فانقاد واستقاد لي.

وَالْمرَاد هُنَا: الانقياد التَّام لـ «لا إِلَه إِلَّا الله» وَلما اقتضته ظَاهرًا وَبَاطنًا انقيادًا منافيًا للترك.

وَيحصل الانقياد بِالْعَمَلِ بِمَا فَرْضه الله وَترك مَا حرمه والتزام ذَلِك. وتحكيم شرع الله فِي كل صغيرة وكبيرة فِي حياة العبد، لِأَن الْإِسْلَام حَقِيقَة: أن يسلم العَبْد بِقَلْبِه وجوارحه لله، وينقاد لَهُ بِالتَّوْحِيدِ وَالطَّاعَة.

ودليله: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥].

✍ قَالَ ابْن الْقيم - فِي تَفْسِير هَذِه الْآيَة -: أقسم سُبْحَانَهُ علىٰ نفي الْإِيمَان عَن الْعباد حَتَّىٰ يحكموا رَسُول الله ﷺ فِي كل مَا شجر بَينهم».

وَقَوله ﷺ: «**لَا يحل دم امْرِئ مُسلم يشْهد أن لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُول الله إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاث: الثّيّب الزَّانِي، وَالنَّفس بِالنَّفسِ، والتارك لدينِهِ المفارق للْجَمَاعَة**».

✍ **قلت:** والبيان العملي لهذا الانقياد يكون بانقياد العبد لربه في تصديق الخبر الذي أخبر به عَزَّوَجَلَّ وطاعة الأمر واجتناب النهي وذلك لا يتحقق إلَّا بخضوع الباطن باليقين فيما ينبغي أن يعتقده العبد من العقائد التي أخبر بها الرب، ثم بخضوع الظاهر للأمر والنهي، فعلىٰ العبد أن ينقاد ويسلم ويذعن لكل ما أمره الله أن يؤمن به من عقيدته في ربه جل ثناؤه أو عقيدته في رسله وأنبيائه أو عقيدته في الكتب المنزلة من عنده أو عقيدته في ملائكة الله أو في الجن أو في اليوم الآخر أو في أهل الإيمان أو في أهل الكفر إلىٰ غير ذلك من مفردات المعتقد التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله، ثم انقياد الجوارح تكون تبعًا لما جاء عن الله وعن رسوله أيضًا.

✍ **كما قال الإمام أحمد-** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ-: هو أن يتّبع الرّجل ما جاء عن النّبيّ ﷺ وعن أصحابه، ثمّ هو من بعد في التّابعين مخيّر.

✍ **وقال الشّافعيّ-** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ-: باب ما أبان الله لخلقه من فرضه علىٰ رسوله اتّباع ما أوحي إليه وما شهد له به من اتّباع ما أمر به، وأنّه ﷺ هاد لمن اتّبعه.

ثمّ ساق الآيات الدّالّة علىٰ هذه المعاني ومنها قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾

[الأحزاب: ١ - ٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية:١٨].

ثمّ قال- رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ-: وما سنّ رسول الله ﷺ فيما ليس لله فيه حكم فبحكم الله سنّة، وكذلك أخبرنا الله في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٥٢، ٥٣].

وقد سنّ رسول الله ﷺ مع كتاب الله، وسنّ فيما ليس فيه بعينه نصّ كتاب، وكلّ ما سنّ فقد ألزمنا الله اتّباعه، وجعل في اتّباعه طاعته، وفي العنود عن اتّباعه معصيته الّتي لم يعذر بها خلقًا، ولم يجعل له من اتّباع سنن رسول الله ﷺ مخرجًا للآيات المذكورة. ولقول رسول الله ﷺ: «**لا ألفينّ أحدكم متكئًا علىٰ أريكته يأتيه الأمر من أمري، ممّا أمرت به أو نهيت عنه، فيقول لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتّبعناه**».

وسنن رسول الله ﷺ مع كتاب الله وجهان: أحدهما نصّ كتاب، فاتّبعه رسول الله ﷺ كما أنزله الله، والآخر جملة بيّن رسول الله ﷺ فيه عن الله معنىٰ ما أراد بالجملة، وأوضح كيف فرضها عامًّا أو خاصًّا، وكيف أراد أن يأتي به العباد. وكلاهما اتّبع فيه كتاب الله.

فلم أعلم من أهل العلم مخالفًا في أنّ سنن النّبيّ ﷺ من ثلاثة وجوه، فاجتمعوا منها علىٰ وجهين:

أحدهما ما أنزل الله فيه نصّ كتاب فبيّن رسول الله ﷺ مثل ما نصّ الكتاب.

والآخر ممّا أنزل الله فيه جملة كتاب، فبيّن عن الله معنىٰ ما أراد. وهذان الوجهان اللّذان لم يختلفوا فيهما.

والوجه الثّالث (المختلف فيه) ما سنّ رسول الله ﷺ فيما ليس فيه نصّ كتاب.

- **فمنهم من قال:** جعل الله له بما افترض من طاعته وسبق في علمه من توفيقه لرضاه، أن يسنّ فيما ليس فيه نصّ كتاب.

- **ومنهم من قال:** لم يسنّ سنّة قطّ إلّا ولها أصل في الكتاب، كما كانت سنّته لتبيين عدد الصّلاة وعملها علىٰ أصل جملة فرض الصّلاة، وكذلك ما سنّ من البيوع وغيرها من الشّرائع؛ لأنّ الله قال: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء:٢٩]، وقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥] ما أحلّ وحرّم فإنّما بيّن فيه عن الله كما بيّن الصّلاة.

- **ومنهم من قال:** بل جاءته به رسالة الله فأثبتت سنّته بفرض الله.

- **ومنهم من قال:** ألقي في روعه كلّ ما سنّ (وسنّته الحكمة): الّذي ألقي في روعه عن الله، فكان ما ألقي في روعه سنّته.

وأيّ هذا كان، فقد بيّن الله أنّه فرض فيه طاعة رسوله ﷺ، ولم يجعل لأحد من خلقه عذرًا بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله ﷺ، وأن قد جعل الله بالنّاس كلّهم الحاجة إليه في دينهم، وأقام عليهم حجّته بما دلّهم عليه من سنن رسول الله ﷺ معاني ما أراد الله بفرائضه في كتابه، ليعلم من عرف منها ما وصفنا أنّ سنّته ﷺ إذا كانت سنّة مبيّنة عن الله معنىٰ ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه، وفيما ليس فيه نصّ كتاب سنّة أخرىٰ فهي كذلك لا يختلف حكم الله ثمّ حكم رسوله، بل هو لازم بكلّ حال. انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وخلاصة الأمر في هذا، أنّ المسلم واجب عليه أن يتّبع منهج الله وشريعته، كما وردت في القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة؛ لأنّ كمال الإنسان وترقّيه لا يكون إلّا عبر منهاج العبادة الّذي ورد في هذين المصدرين، والّذي يعني إسلام النّفس في كلّ ما تفعل وتذر لما يريده الله ويرضاه عبر الالتزام الكلّي بفعل ما أمر به وترك ما نهىٰ عنه.

وإذا كان الاتّباع كما سبق هو اتّباع النّبيّ ﷺ فيما جاء عنه وعن أصحابه، فما جاء عنه أمران: القرآن بوصفه وحيًا من الله تعالىٰ إلىٰ النّبيّ ﷺ، والسّنّة النّبويّة المطهّرة.

وكلّ ما جاء بالقرآن ملزم الاتّباع، حيث إنّه يحتوي علىٰ المنهج الكامل لحياة المجتمع الإسلاميّ، وبالتّالي فهو يشمل كلّ ما يحتاجه هذا المجتمع، وما يحتاجه الإنسان في حياته، من عقائد وأخلاق، وأحكام عمليّة تتّصل بالعبادات والمعاملات الّتي تنظّم علاقة الإنسان بأمثاله وبالمجتمع وبالأمم والعالم.

أمّا السّنّة النّبويّة فقد جاءت مكمّلة للقرآن، وأوجب الله علىٰ النّاس طاعة الرّسول في قبول ما شرعه لهم وامتثال ما يأمرهم به، وينهاهم عنه.

إذن واجب للرّسول ﷺ علىٰ الأمّة أمران؛ الأوّل: الطّاعة فيما أتىٰ به. والثّاني: أن يبلّغوا عنه ما أخبرهم به.

والسّنّة أقوال وأفعال وتقريرات، وكلّ الأقوال والتّقريرات من الدّين، وحجّة علىٰ المسلم أن يتّبعها، والأفعال منها:

ما يتّصل ببيان الشّريعة وهذا واجب الاتّباع (كصلاته، وصومه، وحجّه...):

- ما يتّصل بخاصّته هو، حيث قام الدّليل علىٰ أنّها خاصّة بمحمّد ﷺ.

- ما يتّصل بمقتضىٰ الجبلّة البشريّة أو بمقتضىٰ العادات الجارية، كالملبس، والمأكل والمشرب، ... إلخ، وهذا يخضع لمقتضىٰ الطّبيعة الإنسانيّة.

ولكنّ هذا الاتّباع ليس تقليدًا أعمىٰ، وإنّما اتّباع بصير متفهّم واع بهدىٰ الله وحكمته، وبالمقوّمات الكفيلة ببناء الإنسان بناء قويًّا راسخًا.

قال جل ثناؤه ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام:١٥٣].

الشّرط السّابع: القبول:

القُبول لُغَة: مصدر قبل الشّيْء وتقبله.

وَهُوَ يرد لمعانٍ .. مِنْهَا: أخذ الشَّيْء عَن طيب خاطر.

تَقول: قبلت الْهَدِيَّة أقبلها قبولًا. إِذا أَخذتهَا.

والرضاء بالشَّيْء: تَقول: قبلت الشَّيْء أقبله قبولًا، إِذا رضيته وميل النَّفس إِلَىٰ الشَّيْء. تَقول: علىٰ فلَان قبُول، إِذا قبلته النَّفس. وَفِي الحَدِيث: «ثمَّ يوضع لَهُ الْقبُول فِي الأَرْض».

وَهُوَ بِفَتْح الْقَاف: الْمحبَّة والرضاء بالشَّيْء، وميل النَّفس إِلَيْهِ. وغير ذلك.

وَالْمرَاد هُنَا: الْقبُول لـ «لا إِلَه إِلَّا الله» وَلما اقتضته بِالْقَلْبِ وَاللِّسَان وَسَائِر الْجَوَارِح قبولًا منافيًا للرَّدّ فَلَا يرد هَذِه الْكَلِمَة أو شَيْئا من مقتضياتها، الَّتِي جَاءَ بهَا الْحق بِوَاسِطَة رَسُوله ﷺ، فَإِن الشَّهَادَة قد يَقُولهَا من يعرف مَعْنَاهَا لكنه لَا يقبل مِمَّن دَعَاهُ إِلَيْهَا بعض مقتضياتها إِمَّا كبرا أو حسدًا أو غير ذَلِك. فَهَذَا لم يُحَقّق شَرط الْقبُول.

* والأدلة علىٰ هَذَا الشَّرْط من الْكتاب وَالسّنة كَثِيرَة.

* مِنْهَا: قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

[الروم:٤٧].

وَجه الدّلَالَة: أن الله تَعَالَىٰ وعد فِي هَذِه الْآيَة بالنجاة والنصر لِلْمُؤْمِنين الَّذين قبلوا مَا تضمنته الشَّهَادَة.

* وَقَوله تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الصافات:٣٥-٤٣].

فَفِي هَذِه الْآيَات - كَمَا نرىٰ - وَعِيد بِالْعَذَابِ الأَلِيم فِي الْآخِرَة لمن لم يقبل معنىٰ لَا إِلَه إِلَّا الله وَمَا تضمنه من الْإِيمَان برسالة مُحَمَّد ﷺ كَمَا أن فِيهَا وَعدًا بالنعيم فِي جنَّات النَّعيم لمن قبل ذَلِك.

* وَأما من السّنة فَمِنْهَا: مَا روىٰ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَىٰ، وَالْعِلْم كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَىٰ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ

لا تُمْسِكُ مَاءً، وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» مُتَّفق عَلَيْهِ.

وَالشَّاهِد: قَوْله: «... وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

وَمن هَدْيه ﷺ: شَهَادَة أن لَا إِلَه إِلَّا الله (مَعْنَاهَا ومقتضاها) والْحَدِيث ظَاهر فِي عدم انْتِفَاع من لم يقبل ذَلِك الْهدىٰ. وَعَلَيهِ فَلَا ينْتَفع قَائِل الشَّهَادَة إِذا لم يقبل مَعْنَاهَا ومقتضاها.

[ومن هنا يتبين أن هذه الشروط ملزمة لكل من أراد أن يحيا علىٰ لا إله إلَّا الله ويموت عليها بإذن الله عَزَّوَجَلَّ وهذا أمر مستقراً في جميع الشرائع بَيِنٌ ظاهر في شريعة محمد ﷺ معلوم بالعقل السليم والفطر النقية].

القاعدة الثالثة عشرة في معرفة أقسام العبادات

وقد قسم العلماء العبادات من حيث التكليف إلىٰ عبادات بدنية (كالصلاة) وعبادات مالية (كالزكاة) وعبادات تجمع بين البدنية والمالية (كالحج).

وقسموها من حيث المكلف إلىٰ عبادات خاصة بكل جارحة من جوارح الإنسان.

فمثلاً هناك عبادات خاصة بالقلب (كالمحبة والتوكل والإنابة والخوف والخشية والرجاء وترك الكبر والحسد والحقد إلىٰ غير ذلك) وعبادات خاصة باللسان (كالذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلىٰ الله وحفظ اللسان عمَّا يغضب الله عَزَّوَجَلَّ من غيبة ونميمة وكذب وبهتان إلىٰ غير ذلك).

وهكذا وبالمثال يتضح المقال فإن العبادات مقسمة علىٰ الجوارح بحيث يخضع العبد لربه بكامل جوارحه ويستسلم له بكل ما ملكه فيه ربه عَزَّوَجَلَّ فيقيم العبودية كاملة ويخضع لألوهية ربه بكليته قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٨]، ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

فيستحق بذلك نيل الرضا منه وتمام النعمة عليه بأن يخلده في نعمه ولا يعرضه لنقمه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

القاعدة الرابعة عشرة في شروط قبول العبادة

الشرط الأول: الإخلاص:

والإخلاص لغة: مصدر أخلص يخلص وهو مأخوذ من مادّة (خ ل ص) الّتي تدلّ علىٰ تنقية الشّيء وتهذيبه.

والإخلاص اصطلاحًا: كما قال الجرجانيّ: الإخلاص: إلّا تطلب لعملك شاهدًا غير الله تعالىٰ وقيل هو: تخليص القلب عن شائبة الشّوب المكدّر لصفائه- الفطريّ-.

وقال الكفويّ: الإخلاص هو القصد بالعبادة إلىٰ أن يعبد المعبود بها وحده، وقيل تصفية السّرّ والقول.

وحقيقة الإخلاص: التبرّي عن كلّ ما دون الله تعالىٰ، أمّا الإخلاص في الدّين فيقول فيه الرّاغب:

إخلاص المسلمين أنّهم قد تبرّءوا ممّا يدّعي اليهود من التشبيه، والنّصارىٰ من التّثليث، قال تعالىٰ: ﴿ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ ﴾ [الأعراف:٢٩].

ودليله: قال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الزمر:١١].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:٥].

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تبارك وتعالىٰ: أنا أغنىٰ الشّركاء عن الشّرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**» رواه مسلم.

أقسام الإخلاص:

الإخلاص ينقسم بحسب ما يظهر من العبد، يمكن أن يشمل كلّ فعل الإنسان، ولذا يقال: إنّ الإخلاص أربعة أقسام: إخلاص في الأقوال، وإخلاص في الأفعال، وإخلاص في الأعمال أي العبادات، وإخلاص في الأحوال أي إلهامات القلب وواردات الغيب. والدّين شامل لكلّ هذا، وباعتبار أنّ الإخلاص التزام حيويّ أكثر ممّا هو تصوّر نظريّ، فإنّ موقف الإخلاص يستلزم عدّة أمور، وهي:

١ - الاستمراريّة: حيث إنّ حياة الإنسان عبارة عن تواصل واستمرار، ومواقف الحياة مستمرّة ومتكاملة، ولذا لا ينبغي أن يتفكّك الإخلاص أو يتبعثر، لأنّه لا يتعلّق بالموقف المعاصر فقط، ولا بالماضي فقط، ولا بالمستقبل فقط، وإنّما هو موقف مستمر، ومن ثمّ كانت الاستمراريّة صفة أساسيّة في الإخلاص.

٢ - التّكامل: بمعنىٰ انضواء الشّخص بجميع مكوّناته في أهداف وجوده المستمدّة من الإطار الإسلاميّ للحياة، حتّىٰ يتمكّن من بلوغ أكمل درجة ممكنة من صياغة الذّات بطريقة متكاملة، وذلك عبر محبّة قويّة لله وللحقّ والحقيقة، وللآخرين المخلصين، هذا إلىٰ جانب التّكامل بين النّيّة والفعل.

٣- العلم: حيث إنّ الإخلاص يستلزم وعي الإنسان بوجوده في إطار التّعاليم الإسلاميّة، وهذا الوعي لا يمكن أن يتمّ بغير معرفة، لأنّه لا يمكن أن يتأتّىٰ عن جهل، وجهل الإنسان لا يمكن أن يؤدّي إلىٰ إخلاص حقيقيّ، ومن ثمّ كان العلم شرطًا ضروريًّا لتحقيق الإخلاص، هذا إلىٰ جانب ضرورة العلم بما يحقّق الإخلاص.

٤ - التدرّج: باعتبار أنّ الإخلاص جهد بشريّ من أجل الوصول إلىٰ كمال الإنسان بوصوله إلىٰ حقيقة العبوديّة والتّحقّق بها، ولذا فإنّ الإنسان يتعثّر وينهض مرارًا وتكرارًا، بهدف بلوغ المرتبة العالية، إنّ التّجربة صعبة في مواقف حياة الإنسان، ولذا فهو يحتاج إلىٰ التّدرّج، وهذا شرط لكمال الإخلاص.

٥ - الأمانة: باعتبارها رعاية لحقّ الله تعالىٰ، وأداء للفرائض والواجبات، وهذا يتطلّب عدم الخيانة وحفظ الحقوق، وهي خير شاهد خارجيّ علىٰ الإخلاص، وخاصّة أنّ المنزلقات الّتي يمكن أن تطيح بالأمانة اللّازمة للإخلاص وفيرة، وهذه توفّر حظوظًا للنّفس تفسد الإخلاص، ولذا كان لا بدّ من توافر الأمانة لتوافر الإخلاص والتمسّك به.

وخلاصة الأمر؛ أنّ الإخلاص تصفية للعمل والقول والعبادة ممّا يشوبها من رياء ومراءاة أو خداع أو كذب، ويأتي في مراتب عديدة، وهي: طرح العمل وعدم رؤيته، فضلًا عن طرح طلب العوض عنه، والخجل من العمل مع بذل الوسع والغاية فيه، مع رؤية التّوفيق في العمل المخلص علىٰ أنّه جود من الله تعالىٰ، ثمّ إخلاصه بالخلاص منه، أي جعله خالصًا لوجه الله تعالىٰ.

✍ قال مكحول: «ما أخلص عبد قطّ أربعين يومًا إلّا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه».

قال أبو سليمان الدّارانيّ: «إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرّياء».

قال يوسف بن الحسين: «أعزّ شيء في الدّنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرّياء عن قلبي فكأنّه ينبت علىٰ لون آخر».

قال الفضيل بن عياض في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]: هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا عليّ ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إنّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتّىٰ يكون خالصًا صوابًا. الخالص أن يكون لله والصّواب أن يكون علىٰ السّنّة. ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠].

قال شهر بن حوشب: «جاء رجل إلىٰ عبادة بن الصّامت، فقال: أنبئني عمّا أسأل عنه، أرأيت رجلًا يصلّي يبتغي وجه الله ويحبّ أن يحمد؟ فقال عبادة: «ليس له شيء، إنّ الله تعالىٰ يقول: أنا خير شريك فمن كان له معي شريك فهو له كلّه لا حاجة لي فيه».

قال الجنيد- رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «الإخلاص سرّ بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوىٰ فيميله».

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]: وهذان ركنا العمل المتقبّل لا بدّ أن يكون خالصًا لله صوابًا علىٰ شريعة رسول الله ﷺ».

قال ابن القيّم- رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ-: «العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملًا ينقله ولا ينفعه».

والشرط الثاني المتابعة:

الاتباع لغة: مصدر اتّبع المأخوذ من مادّة (ت ب ع)، وتدلّ هذه المادّة علىٰ التّلوّ والقفو، يقال: تبعت القوم تبعًا، وتباعه بالفتح، إذا مشيت خلفهم.

واصطلاحًا:

قال الإمام أحمد- رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ-: هو أن يتّبع الرّجل ما جاء عن النّبيّ ﷺ وعن أصحابه، ثمّ هو من بعد في التّابعين مخيّر.

✍ **وقال ابن عبد البرّ** - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ -: **الاتّباع ما ثبت عليه الحجّة، وهو اتّباع كلّ من أوجب عليك الدّليل اتّباع قوله.** فالرّسول ﷺ هو المثل الأعلىٰ في اتّباع ما أمر به.

ودليله: قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ [محمد:٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١].

* وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنّ رسول الله ﷺ قال: «**كلّ أمّتي يدخلون الجنّة إلّا من أبىٰ**» قالوا: يا رسول الله، ومن يأبىٰ؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنّة، ومن عصاني فقد أبىٰ**» رواه البخاري.

* وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنّ نفرًا من أصحاب النّبيّ ﷺ سألوا أزواج النّبيّ ﷺ عن عمله في السّرّ؟ فقال بعضهم: لا أتزوّج النّساء. وقال بعضهم لا آكل اللّحم. وقال بعضهم: لا أنام علىٰ فراش. فحمد الله وأثنىٰ عليه فقال: «**ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، ولكنّي أصلّي وأنام، وأصوم وأفطر. وأتزوّج النّساء. فمن رغب عن سنّتي فليس منّي**».

* وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ**» رواه الشيخان.

✍ **وقال عمر** - رضي الله عنه - لشريح (القاضي): «**إن جاءك شيء في كتاب الله فاقض به، ولا يلفتنّك عنه الرّجال؛ فإن جاءك ما ليس في كتاب الله فانظر سنّة رسول الله** ﷺ **فاقض بها، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنّة من رسول الله** ﷺ**، فانظر ما اجتمع عليه النّاس فخذ به، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن في سنّة رسول الله** ﷺ**، ولم يتكلّم فيه أحد قبلك، فاختر أيّ الأمرين شئت، إن شئت أن تجتهد برأيك ثمّ تقدم فتقدّم، وإن شئت، إن تتأخر فتأخّر، ولا أرىٰ التّأخر إلّا خيرًا لك**».

✍ **وعن عمر بن الخطّاب** - رضي الله عنه -: أنّه جاء إلىٰ الحجر الأسود فقبّله فقال: «**إنّي أعلم أنّك حجر لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أنّي رأيت النّبيّ** ﷺ **يقبّلك ما قبّلتك**».

✍ **وعن أبيّ بن كعب** - رضي الله عنه - قال: «**عليكم بالسّبيل والسّنّة، فإنّه ليس من عبد علىٰ السّبيل والسّنّة ذكر الرّحمن ففاضت عيناه من خشية الله - عَزَّوَجَلَّ - فتمسّه النّار. وليس من عبد علىٰ سبيل وسنّة ذكر الرّحمن فاقشعرّ جلده من مخافة الله، إلّا كان مثله كمثل شجرة**

قد يبس ورقها فهي كذلك إذ أصابتها الرّيح فتحاتّ عنها ورقها، إلّا تحاتّت عنه ذنوبه كما تحاتّ عن تلك الشّجرة ورقها. وإنّ اقتصادًا في سبيل وسنّة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنّة، فانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهادًا أو اقتصادًا أن يكون ذلك علىٰ منهاج الأنبياء وسنّتهم».

✍ **قال ابن عبّاس** - رضي الله عنهما - في قوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران:١٠٦]، «فأما الذين ابيضت وجوههم فأهل السّنّة والجماعة وأولو العلم. وأمّا الّذين اسودّت وجوههم فأهل البدع والضّلالة».

✍ **قال أبو موسىٰ الأشعريّ** - رضي الله عنه - في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة:١٢١]: من يتّبع القرآن يهبط به علىٰ رياض الجنّة)».

✍ **قال الفضيل بن عياض في تفسير قوله تعالىٰ:** ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك:٢]: هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا عليّ ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إنّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتّىٰ يكون خالصًا صوابًا. الخالص أن يكون لله والصّواب أن يكون علىٰ السّنّة. ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠]».

إذا هذان شرطان لقبول أي عمل يعمله العبد وبدونهما لا يقبل للعبد عمل ولا بدون أحدهما.

القاعدة الخامسة عشر في الأمور التي توجب رد العمل وعدم قبوله ومنها بعد الشرك والكفر (النفاق والرياء والابتداع) وهذه الأمور لا يقبل معها العمل

أولاً: النفاق:

تعريف النفاق: النفاق لغة: اسم مأخوذ من مادّة (ن ف ق) الّتي تدلّ علىٰ الخروج، فالنّفق سرب في الأرض له مخلص إلىٰ مكان.

واصطلاحًا: قال الجرجانيّ: النّفاق: إظهار الإيمان باللّسان وكتمان الكفر بالقلب.

أقسام النفاق:

ذكر الحافظ ابن رجب أنّ النّفاق ينقسم شرعًا إلىٰ قسمين:

أحدهما: النّفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويبطن ما يناقض ذلك كلّه أو بعضه. وهذا هو النّفاق الّذي كان علىٰ عهد رسول الله ﷺ، ونزل القرآن بذمّ أهله وتكفيرهم، وأخبر أنّ أهله في الدّرك الأسفل من النّار.

ودليله: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

والثّاني: النّفاق الأصغر، وهو نفاق العمل: وهو أن يظهر الإنسان علانية ويبطن ما يخالف ذلك.

وقال ابن رجب: ومن أعظم خصال النّفاق العمليّ، أن يعمل الإنسان عملًا ويظهر أنّه قصد به الخير، وإنّما عمله ليتوصّل به إلىٰ غرض له سيّئ فيتمّ له ذلك ويتوصّل بهذه الخديعة إلىٰ غرض ويفرح بمكره وخداعه وحمد النّاس له علىٰ ما أظهره ويتوصّل به إلىٰ غرضه السّيّئ الّذي أبطنه.

ودليله: ما جاء عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربع من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا. ومن كانت فيه خلّة منهنّ كانت فيه خلّة من نفاق حتّىٰ يدعها: إذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف. وإذا خاصم فجر**» غير أنّ في حديث سفيان «**وإن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النّفاق**» متفق عليه.

ثانيًا الرياء:

الرياء لغة: مصدر قولهم: راءاه يرائيه رياءً ومراءاةً، وهو مأخوذ من مادّة (ر أ ىٰ) الّتي تدلّ- كما يقول ابن فارس- علىٰ نظر وإبصار بعين أو بصيرة، يقال من ذلك: راءىٰ فلان، وفعل ذلك رئاء النّاس (ورياء النّاس)، وهو أن يفعل شيئًا ليراه النّاس.

الرياء اصطلاحًا: قال الجرجانيّ: الرّياء: ترك الإخلاص في العمل بمراعاة غير الله فيه.

وقال ابن حجر (الهيتميّ): حدّ الرّياء المذموم: إرادة العامل بعبادته غير وجه الله تعالىٰ، كأن يقصد اطّلاع النّاس علىٰ عبادته وكماله، فيحصل له منهم نحو مال أو جاه أو ثناء

أقسام الرياء:

ذكر الغزاليّ: أنّ الرّياء بحسب ما يراءىٰ به خمسة أقسام:

- **الأوّل:** الرّياء في الدّين بالبدن، وذلك بإظهار النّحول والصّفار ليوهم بذلك شدّة الاجتهاد، وعظم الحزن علىٰ أمر الدّين وغلبة خوف الآخرة.

أمّا رياء أهل الدّنيا فيكون بإظهار السّمن وصفاء اللّون واعتدال القامة، وحسن الوجه ونظافة البدن وقوّة الأعضاء.

- **الثّاني:** الرّياء بالهيئة والزّيّ، وذلك بتشعيث شعر الرّأس، وإبقاء أثر السّجود علىٰ الوجه، وغلظ الثّياب وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثّوب وتركه مخرّقًا، كلّ ذلك لإظهار أنّه متّبع للسّنّة.

أمّا مراءاة أهل الدّنيا فبالثّياب النّفيسة، والمراكب الرّفيعة وأنواع التّوسّع والتّجمّل في الملبس والمسكن.

- **الثّالث:** الرّياء بالقول، ويكون من أهل الدّين بالوعظ والتّذكير والنّطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار لإظهار غزارة العلم، ومن ذلك تحريك الشّفتين بالذّكر في محضر النّاس، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر أمامهم.

وأمّا أهل الدّنيا فيكون رياؤهم بحفظ الأشعار والأمثال، والتّفاصح بالعبارات، وحفظ الغريب من النّحو واللّغة للإغراب علىٰ أهل الفضل.

- **الرّابع:** الرّياء بالعمل، وذلك كمراءاة المصلّي بطول القيام والرّكوع والسّجود ونحو ذلك.

أمّا أهل الدّنيا فمراءاتهم بالتّبختر والاختيال وغيرهما ممّا يدلّ علىٰ الجاه والحشمة.

- **الخامس**: المراءاة بالأصحاب والزّائرين، كأن يطلب المرائي من عالم أن يزوره ليقال: إنّ فلانًا قد زار فلانًا، ومن ذلك كثرة ذكر الشّيوخ.

قال الغزاليّ: فهذه الخمسة هي مجامع ما يرائي به المراؤون، وكلّهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد.

۞ درجات الرياء:

للرّياء بحسب قصد المرائي أربع درجات:

- **الأولىٰ**: وهي أغلظها إلّا يكون مراده الثّواب أصلًا، كالّذي يصلّي أمام النّاس، ولو انفرد فإنّه لا يصلّي، وربّما دفعه الرّياء إلىٰ الصّلاة من غير طهر.

- **الثّانية**: أنّ قصده للثّواب أقلّ من قصده لإظهار عمله. وهذا النّوع قريب ممّا قبه في الإثم.

- **الثّالثة**: أن يتساوىٰ قصد الثّواب وقصد الرّياء، بحيث إنّ أحدهما وحده لا يبعثه علىٰ العمل، ولكن لمّا اجتمع القصدان انبعثت فيه الرّغبة في العمل، وهذا قد أفسد بمقدار ما أصلح، وظواهر الأخبار تدلّ علىٰ أنّه لا يسلم (من العقاب).

- **الرّابعة**: أن يكون اطّلاع النّاس مرجّحًا ومقوّيًا لنشاطه، ولو لم يكن ذلك ما ترك العبادة، وهذا النّوع لا يحبط أصل الثّواب ولكنّه ينقص منه أو يعاقب صاحبه علىٰ مقدار قصد الرّياء، ويثاب علىٰ مقدار قصد الثّواب.

۞ حكم الرياء:

✍ **ذكر الذّهبيّ الرّياء ضمن الكبائر، وذكر أدلّة ذلك من الكتاب والسّنّة وآثار السّلف** الصّالح، وعدّه ابن حجر الكبيرة الثّانية بعد الشّرك بالله

ودليله: قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وعن ابن عبّاس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سمّع سمّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به»** متفق عليه.

معالجة الرياء:

✍ **قال الغزاليّ ما خلاصته:** لا يستطيع أحد أن يقمع الرّياء إلّا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوّة الشّهوات، ويكون ذلك بأمرين:

- **الأوّل:** قلع عروقه واستئصال أصوله وهي:

لذّة المحمدة والفرار من ألم الذّمّ، والطّمع فيما في أيدي النّاس، وهذه الثّلاثة راجعة إلىٰ حبّ المنزلة والجاه.

- **الثّاني:** أن يشمّر الإنسان عن ساعد الجدّ لدفع ما يعرض من خاطر الرّياء،

وخواطره ثلاثة أيضًا وهي: العلم باطّلاع الخلق ورجاء اطّلاعهم، ثمّ هيجان الرّغبة من النّفس في حمدهم، وحصول المنزلة عندهم، ويعقب ذلك هيجان الرّغبة في قبول النّفس له (أي الحمد والمنزلة) والرّكون إليه وعقد الضّمير علىٰ تحقيقه، والخاطر الأوّل يسمّىٰ معرفة، والثّاني رغبة وشهوة، والثّالث هو العزم وكمال القوّة في دفع الخاطر الأوّل قبل أن يعقبه الثّاني، فإذا خطر له معرفة اطّلاع الخلق أو رجاء اطّلاعهم دفع ذلك بأن قال: ما لي وللخلق علموا أو لم يعلموا، والله عالم بحالي فأيّ فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرّغبة إلىٰ لذّة الحمد فعليه أن يذكر تعرّض المرائي للمقت عند الله يوم القيامة وخيبته- في أحوج أوقاته- إلىٰ أعماله، وعندئذ تثور عنده كراهة للرّياء تقابل تلك الشّهوة إذ يتفكّر في تعرّضه لمقت الله وعقابه الأليم، الشّهوة تدعوه إلىٰ القبول والكراهة تدعوه إلىٰ الإباء والنّفس تطاوع- لا محالة- أقواهما ويتّضح من ذلك أنّه لا بدّ في ردّ الرّياء الّذي خطر أثناء العبادة من المعرفة والكراهة والإباء.

أمّا من الناحية العملية: فإنّ دفع الرّياء يستلزم من المرء أن يعوّد نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتّىٰ يقنع قلبه بعلم الله ولا تنازعه نفسه بطلب علم غير الله به، وهذا وإن كان يشقّ في البداية إلّا أنّه يهون بالصّبر عليه وبتواصل ألطاف الله عَزَّوَجَلَّ وما يمدّ به عباده من التأييد والتّسديد.

ثالثًا: الابتداع في الدين:

الابتداع لغة: مصدر قولهم: ابتدع الشّيء يبتدعه، وهو مأخوذ من مادّة (ب د ع) الّتي تدلّ علىٰ ابتداء الشّيء وصنعه لا عن مثال.

والبدعة اصطلاحًا: قال الشّاطبيّ- رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-: البدعة: طريقة في الدّين مخترعة تضاهي الشّرعيّة يقصد بالسّلوك عليها المبالغة في التّعبّد لله- سبحانه-.

۞ **ودليل حرمة الابتداع في دين الله عَزَّوَجَلَّ:**

* قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل:١١٦-١١٧].

* وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرّت عيناه، وعلا صوته... الحديث. وفيه يقول: «**أمّا بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدىٰ هدىٰ محمّد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة... الحديث**» متفق عليه.

* وعن عائشة- رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ**» متفق عليه.

أقسام البدعة:

قسّم الشّافعيّ- رَحِمَهُ ٱللَّهُ- البدعة إلىٰ قسمين:

- البدعة الضّالّة: ويراد بها ما أحدث وخالف كتابًا أو سنّة أو إجماعًا أو أثرًا.

- البدعة المحمودة: ما أحدث من الخير ولم يخالف كتابًا أو سنّة أو إجماعًا أو أثرًا.

والأصل في هذا ما روي عن عمر- رضي الله عنه - في قيام رمضان «نعمت البدعة هذه».

✍ **ولهذا قال ابن الأثير**: البدعة بدعتان: بدعة ضلالة، وبدعة هدىً، فما كان في خلاف ما أمر به الله ورسوله فهو البدعة الضّالّة الّتي هي مناط الذّمّ والإنكار، وما كان واقعًا تحت عموم ما ندب الله إليه وحضّ عليه الله ورسوله فهو بدعة هدىً، وهي في حيّز المدح، ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد الشّرع به، ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه: «نعمت البدعة هذه» لمّا كانت الجماعة في قيام رمضان من أفعال الخير وداخلة في حيّز المدح سمّاها بدعة ومدحها، لأنّ النّبيّ ﷺ لم يسنّها لهم، وإنّما صلّاها ثمّ تركها ولم يحافظ عليها، ولا جمع النّاس لها، ولا كانت في زمان أبي بكر وإنّما كان عمر رضي الله عنه هو الّذي جمع النّاس عليها، فبهذا سمّاها بدعة وهي في الحقيقة سنّة، لقوله ﷺ: «**عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين من بعدي**» وعلىٰ هذا التّأويل يحمل الحديث الآخر «**كلّ محدثة بدعة**» إنّما يريد ما خالف أصول الشّريعة ولم يوافق السّنّة.

ثم لعل عمر رضي الله عنه أراد بكلمة بدعة المعنىٰ اللغوي لا المعنىٰ الاصطلاحي لأن هذا هو المشهور وقتئذ. فانتبه!

قال ابن الأثير: وأكثر ما يستعمل المبتدع عرفًا في الذّمّ، أي أنّه إذا أطلق لفظ البدعة فإنّه يراد بها النّوع الأوّل وهو المذموم شرعًا.

ولابد لنا أن نذكر هنا أسباب ودوافع البدعة:

قال الشّاطبيّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-: إنّ صاحب البدعة إنّما يخترعها ليضاهي بها السّنّة حتىٰ يكون ملبسًا بها علىٰ الغير، أو تكون هي ممّا تلتبس عليه بالسّنّة، إذ الإنسان لا يقصد الاستتباع بأمر لا يشابه المشروع، لأنّه إذ ذاك لا يستجلب به في ذلك الابتداع نفعًا ولا يدفع به ضررًا، ولا يجيبه غيره إليه.

فأنت ترىٰ العرب في الجاهليّة في تغيير ملّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كيف تأوّلوا فيما أحدثوه احتجاجًا منهم، كقولهم في أصل الإشراك ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وكترك الحمس الوقوف بعرفة لقولهم: لا نخرج من الحرم اعتدادًا بحرمته.

وكطواف من طاف منهم بالبيت عريانًا قائلين: لا نطوف بثياب عصينا الله فيها، وما أشبه ذلك ممّا وجّهوه ليصيّروه بالتّوجيه كالمشروع، فما ظنّك بمن عدّ أو عدّ نفسه من خواصّ أهل الملّة؟ فهم أحرىٰ بذلك (وهم المخطئون وظنّهم الإصابة) إنّ أصل الدّخول في البدعة يحثّ علىٰ الانقطاع إلىٰ العبادة والتّرغيب في ذلك، لأنّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦] فكأنّ المبتدع رأىٰ أنّ المقصود هذا المعنىٰ، ولم يتبيّن له أنّ ما وضعه الشّارع فيه من القوانين والحدود كاف (فرأىٰ من نفسه أنّه لا بدّ لما أطلق الأمر فيه من قوانين منضبطة، وأحوال مرتبطة، مع ما يداخل النّفوس من حبّ الظّهور أو عدم مظنّته).

وأيضًا فإنّ النّفوس قد تملّ وتسأم من الدّوام علىٰ العبادات المرتّبة، فإذا جدّد لها أمر لا تعهده، حصل لها نشاط آخر لا يكون لها مع البقاء علىٰ الأمر الأوّل.

وقد تبيّن بهذا أنّ البدع لا تدخل إلّا في العبادات. فكلّ ما اخترع من الطّرق في الدّين ممّا يضاهي المشروع ولم يقصد به التّعبّد فقد خرج عن هذه التّسمية. كالمغارم الملزمة علىٰ الأموال وغيرها علىٰ نسبة مخصوصة وقدر مخصوص ممّا يشبه فرض الزّكوات ولم يكن إليها ضرورة. وكذلك اتّخاذ المناخل وغسل اليد بالأشنان وما أشبه ذلك من الأمور الّتي لم تكن قبل.

قلت: وأيضًا ما كانت من بدع الدنيا أو الأمور المباحة كالسيارات والطائرات والميكرفونات وغير ذلك من وسائل تيسير أمور الناس فلا بأس بذلك أبدًا بل ربما دخل

في باب الضرورات في بعض أحيانه، ولا يدخل كل هذا وما كان علىٰ شاكلته ضمن معنىٰ البدع المنهي عنها.

واعلم أنّ البدعة في عموم لفظها يدخل فيها البدعة التّركيّة، كما يدخل فيها البدعة غير التّركيّة، فقد يقع الابتداع بنفس التّرك تحريما للمتروك أو غير تحريم، فإنّ الفعل مثلاً قد يكون حلالاً بالشّرع فيحرّمه الإنسان علىٰ نفسه أو يقصد تركه قصدًا، فهذا التّرك إمّا أن يكون لأمر يعتبر مثله شرعًا أو لا، فإن كان لأمر يعتبر فلا حرج فيه، إذ معناه أنّه ترك ما يجوز تركه أو ما يطلب تركه، كالّذي يحرّم علىٰ نفسه الطّعام الفلانيّ من جهة أنّه يضرّه في جسمه أو عقله أو دينه وما أشبه ذلك، فلا مانع هنا من التّرك: فإن قلنا بطلب التّداوي للمريض فإنّ التّرك هنا مطلوب، وإن قلنا بإباحة التّداوي، فالتّرك مباح، فهذا راجع إلىٰ أنّ العزم علىٰ الحمية ليس من المضرّات.

وأمّا إن كان التّرك تديّنًا فهو الابتداع في الدّين علىٰ كلتا الطّريقتين، إذ قد فرضنا الفعل جائزًا شرعًا فصار التّرك المقصود معارضة للشارع في شرع التّحليل وفي مثله نزل قول الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة:٨٧]، فنهىٰ أوّلًا عن تحريم الحلال. ثمّ جاءت الآية تشعر بأنّ ذلك اعتداء لا يحبّه الله. لأنّ بعض الصّحابة همّ أن يحرّم علىٰ نفسه النّوم باللّيل، وآخر الأكل بالنّهار، وآخر إتيان النّساء، وبعضهم همّ بالاختصاء، مبالغة في ترك شأن النّساء.

وفي أمثال ذلك قال النّبيّ ﷺ: «من رغب عن سنّتي فليس منّي». فإذًا كلّ من منع نفسه من تناول ما أحلّ الله من غير عذر شرعيّ فهو خارج عن سنّة النّبيّ ﷺ. والعامل بغير السّنّة تديّنًا هو المبتدع بعينه.

فإن قيل: فتارك المطلوبات الشّرعيّة ندبًا أو وجوبًا، هل يسمّىٰ مبتدعًا أم لا؟

فالجواب: أنّ التّارك للمطلوبات علىٰ ضربين: **(أحدهما)** أن يتركها لغير التّديّن إمّا كسلًا أو تضييعًا أو ما أشبه ذلك من الدّواعي النّفسيّة. فهذا الضّرب راجع إلىٰ المخالفة للأمر، فإن كان في واجب فمعصية، وإن كان في ندب فليس بمعصية، إذا كان التّرك جزئيًّا، وإن كان كلّيًّا فمعصية حسبما تبيّن في الأصول.

(والثّاني) أن يتركها تديّنًا. فهذا الضّرب من قبيل البدع حيث تديّن بضدّ ما شرع الله، ومثاله أهل الإباحية القائلين بإسقاط التّكاليف إذا بلغ السّالك عندهم المبلغ الّذي حدّوه.

القاعدة السادسة عشرة في وجوب الإيمان بالملائكة

اعلم – علَّمنا اللهُ وإياك – أن الملائكة عالم غير عالم الإنس وعالم الجن، وهو عالم كريم، كله طهر وصفاء ونقاء، وهم كرام أتقياء، يعبدون الله حق العبادة، ويقومون بتنفيذ ما يأمرهم به، ولا يعصون الله أبدًا، وأنهم خلقوا من نور أي إنّ المادة التي خلقوا منها هي النور؛ ففي «صحيح مسلم» عن عائشة ﵂ وعن أبيها: أن رسول الله ﷺ قال: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**».

والملك أصله: ألكَ، والمألكة، والمألُكُ: الرسالة. ومنه اشتق الملائك؛ لأنهم رسل الله.

وقيل: اشتق من (لَ أك) والملأكة: الرسالة، وألكني إلىٰ فلان؛ أي: بلغه عني، والملأك: الملك؛ لأنه يبلغ عن الله تعالىٰ.

وقال بعض المحققين: الملك من الملك. قال: والمتولي من الملائكة شيئًا من السياسات يقال له مَلَك، ومن البشر مَلِك.

والإيمان بالملائكة أصل من أصول الإيمان، لا يصح إيمان عبد ما لم يؤمن بهم، قال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

كيف يكون الإيمان بالملائكة؟

نقل السيوطي عن البيهقي في كتابه (شعب الإيمان): «أن الإيمان بالملائكة ينتظم في معانٍ:

- الأول: التصديق بوجودهم.

- الثاني: إنزالهم منازلهم، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه، كالإنس والجن مأمورون مكلفون، لا يقدرون إلَّا علىٰ ما أقدرهم الله عليه، والموت عليهم جائز، ولكنّ الله تعالىٰ جعل لهم أمدًا بعيدًا، فلا يتوفاهم حتىٰ يبلغوه، ولا يوصفون بشيء يؤدي وصفهم به إلىٰ إشراكهم بالله تعالىٰ، ولا يدعون آلهة كما دعتهم الأوائل.

- الثالث: الاعتراف بأنّ منهم رسلًا يرسلهم الله إلىٰ من يشاء من البشر، وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلىٰ بعض، ويتبع ذلك الاعتراف بأنّ منهم حملة العرش، ومنهم الصافّون،

ومنهم خزنة الجنّة، ومنهم خزنة النار، ومنهم كتبة الأعمال، ومنهم الذين يسوقون السحاب، فقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره».

وهم علىٰ عظم خلقتهم كما سيرد إلَّا أنهم خلق من خلق الله عَزَّوَجَلَّ مربوبون له أذلاء لعزته خاضعون لإرادته لا يفعلون شيئًا إلَّا ما شاء الله وقدر، مؤتمرون بأمره عَزَّوَجَلَّ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون فمهما بلغو من قوة وعظمة وقدرة فهم في نهاية الآمر عبادٌ لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آل عمران:٧٩-٨٠].

عظم خلقة الملائكة:

* روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش رجلاه في الأرض السفلىٰ وعلىٰ قرنه العرش وبين شحمة أذنه وعاتقه خفقان الطير مسيرة سبع مائة عام، يقول ذلك الملك: سبحانك حيث كنت»**.

عظم خُلق الملائكة:

* هم كما قال جل ثناؤه: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم:٦].

* وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [التكوير:١٩-٢١].

بعض وظائفهم التي كلفهم الله عَزَّوَجَلَّ بها:

- أولًا: تبليغ الرسالة للرسل: قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [البقرة:٩٧].

- ثانيًا: منهم حملة عرش الرحمن: قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر:٧].

- ثالثًا: إحصاء الأعمال علىٰ المكلفين: قال تعالىٰ: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق:١٨].

- رابعًا: منهم موكلون بإنزال العذاب على من أراد الله من عباده: قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود:٨١].

- خامسًا: موكلون بالجبال: كما جاء عن النبي ﷺ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ»، قَالَ: «فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ»، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». رواه أحمد والبيهقي - عن عائشة رضي الله عنها.

وغير ذلك من الملائكة الموكلون بالقطر والصواعق والبرق إلى غير هذا مما لا يعلمه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ ومن علم من خلقه (واعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ غني عنهم وعن العرش وعن جميع خلقه وأنه لا مُصرف ومدبر لشؤون خلقه غيره).

القاعدة السابعة عشرة في وجوب الإيمان بالجن

اعلم - علَّمنا الله وإياك - أن الجن عالم غير عالم الإنسان وعالم الملائكة، بينهم وبين الإنسان قدر مشترك من حيث الاتصاف بصفة العقل والإدراك، ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير والشر، ويخالفون الإنسان في أمور أهمها أن أصل الجان مخالف لأصل الإنسان.

لماذا سمّوا جنًّا؟

وسُمّو جِنًّا لاجتنانهم، أي: استتارهم عن العيون، قال ابن عقيل: «إنما سمّي الجن جنًّا لاجتنانهم واستتارهم عن العيون، ومنه سمي الجنين جنينًا، وسمّي المجنّ مجنًّا لستره للمقاتل في الحرب»

وجاء في محكم التنزيل: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف:٢٧].

وأن أصلهم الذي منه خلقوا ما أخبرنا الله - جلّ وعلا - أن الجنّ قد خُلقوا من النار في قوله: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحجر:٢٧]، وفي سورة الرحمن: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن:١٥]. وقد قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن وغير واحد في قوله: ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾: طرف اللهب، وفي رواية: من خالصه وأحسنه: وقال النووي في «شرحه على مسلم»: «المارج: اللهب المختلط بسواد النار».

* وفي الحديث الذي أخرجه مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: **«خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»**.

ولا شك أن خلق الجن متقدم على خلق الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحجر: ٢٦-٢٧]، فقد نصّ في الآية أن الجان مخلوق قبل الإنسان. ويرى بعض السابقين أنهم خلقوا قبل الإنسان بألفي عام، وهذا لا دليل عليه من كتاب ولا سنّة.

ونحن لا نعرف من خلقتهم وصورهم وحواسهم إلّا ما عرفنا الله منها، فنعلم أن لهم قلوبًا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

فقد صرح - تبارك وتعالى - بأن للجن قلوبًا، وأعينًا، وآذانًا، وللشيطان صوتًا، لقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء:٦٤]. وثبت في الأحاديث أن للشيطان لسانًا، وأن الجان يأكلون، ويشربون، ويضحكون، وغير ذلك.

قال ابن عبد البر: «الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان علىٰ مراتب:

١- فإذا ذكروا الجن خالصًا قالوا: جنّي.

٢- فإذا أرادوا أنه مما يسكن مع الناس، قالوا: عامر، والجمع: عمّار.

٣- فإن كان مما يعرض للصبيان قالوا: أرواح.

٤- فإن خبث وتعرض، قالوا: شيطان.

٥- فإن زاد علىٰ ذلك، فهو مارد.

٦- فإن زاد علىٰ ذلك وقوي أمره، قالوا: عفريت، والجمع: عفاريت».

وأخبرنا الرسول ﷺ أنّ «**الجن ثلاثة أصناف: فصنف يطير في الهواء، وصنف حيّات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون**». رواه الطبراني، والحاكم، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، بإسناد صحيح.

واعلم أنه لا مجال للتكذيب بعالم الجن فقد أنكرت قلة من الناس وجود الجنّ إنكارًا كليًّا، وزعم بعض المشركين: أن المراد بالجن أرواح الكواكب، وزعمت طائفة من الفلاسفة: أن المراد بالجن نوازع الشر في النفس الإنسانية وقواها الخبيثة، كما أن المراد بالملائكة نوازع الخير فيها.

وقيل غير ذلك قديمًا وحديثًا وحقيقة ما وقع فيه هؤلاء وغيرهم من المكذبين بعالم الجن أو عالم الملائكة أنهم أرادوا بجهلهم أن يقيسوا عالم الغيب بعالم الشهادة وهذا إن دل فإنما يدل علىٰ جهل محض ومجادلة بالباطل، فإن عالم الغيب له أحكام مختلفة تمامًا عن عالم الشهادة فعالم الغيب يوكل علمه إلىٰ عالمه سبحانه وعلىٰ عتباته يتوقف العقل ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:٣٦]، فإن علاقة العقل بالإيمان يكون قبل الدخول فيه بما جعل الله عَزَّوَجَلَّ من آيات ومعجزات عجز الخلق عن الإتيان بنظيرها ثم بعد ذلك علىٰ العقل أن يخضع للغيب ويسلم له تبعًا للإيمان الأول، ثم نحدث هؤلاء جدلًا بمنظور عقولهم نقول لهم هل القاعدة عندكم إلّا تؤمنوا إلّا بما ترون وما تعقلون فأين أرواحكم التي في أجسادكم بل أين يقع هذا العقل والتعقل الذي تتحدثون به وعنه وغير ذلك من الأمور التي لا يستطيع أن ينكرها عاقل ولا يدركها إنسان فتأمل.

والقول الحق أن الجن عالم ثالث غير الملائكة والبشر، وأنهم مخلوقات عاقلة واعية مدركة، ليسوا بأعراض ولا جراثيم، وأنهم مكلفون مأمورون منهيون.

ووجودهم معلوم من الدين بالضرورة:

يقول ابن تيمية: «لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمدًا ﷺ إليهم، وجمهور طوائف الكفار علىٰ إثبات الجن.

أمّا أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، فهم مقرّون بهم كإقرار المسلمين، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك، كما يوجد في المسلمين من ينكر ذلك... كالجهمية والمعتزلة، وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرّين بذلك.

وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواترًا معلومًا بالضرورة، ومعلوم بالضرورة أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة، بل مأمورون منهيون، ليسوا صفات وأعراضًا قائمة بالإنسان أو غيره، كما يزعمه بعض الملاحدة، فلما كان أمر الجن متواترًا عن الأنبياء تواترًا تعرفه العامة والخاصة، فلا يمكن لطائفة من المنتسبين إلىٰ الرسل الكرام أن تنكرهم».

ودليل ذلك من الكتاب العزيز: قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن:١].

* وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن:٦]. ونصوص القرآن كثيرة جدًّا في هذا الباب

ودليل ذلك من السنة المطهرة: في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**إذا سمعتم صياح الديكة، فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت ملكًا، وإذا سمعتم نهيق الحمار، فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنه رأىٰ شيطانًا**».

* وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ «**إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ فَدَعَتُّهُ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَىٰ جَنْبِ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، حَتَّىٰ تُصْبِحُوا فَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ أَجْمَعُونَ، قَالَ: فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ:** ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥﴾ [ص:٣٥]، قَالَ: «فَرَدَّهُ خَاسِئًا». صحيح رواه أحمد وغيره.

لماذا خلقت الجن؟

خلق الله الجن للغاية نفسها التي خلق الإنس من أجلها: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦].

فالجن علىٰ ذلك مكلفون بأوامر ونواهٍ، فمن أطاع رضي الله عنه، وأدخله الجنة، ومن عصىٰ وتمرد، فله النار، يدلّ علىٰ ذلك نصوص كثيرة.

ففي يوم القيامة يقول الله مخاطبًا كفرة الجن والإنس موبخًا مبكتًا: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأنعام:١٣٠].

ففي هذه الآيات دليل علىٰ بلوغ شرع الله الجن، وأنه قد جاءهم من ينذرهم ويبلغهم.

والدليل علىٰ أنهم سيعذبون في النار: قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٣٨]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [السجدة:١٣].

والدليل علىٰ أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة: قوله تعالىٰ: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٤٦-٤٧].

والخطاب هنا للجن والإنس؛ لأن الحديث في مطلع السورة معهما، وفي الآية السابقة امتنان من الله علىٰ مؤمني الجن بأنهم سيدخلون الجنة، ولولا أنهم ينالون ذلك لما امتن عليهم به.

✍ يقول ابن مفلح في كتابه «الفروع»: «الجن مكلفون في الجملة إجماعًا، يدخل كافرهم النار إجماعًا، ويدخل مؤمنهم الجنة وفاقًا لمالك والشافعي رحمهما الله».

وخلاصة المسألة؛ بأن الجن طرائق وأصناف ودرجات، منهم من هو مؤمن، ومنهم من هو فاسق، ومنهم من هو كافر، وأكفرهم وأجحدهم طائفة الشياطين، وعلىٰ رأسهم زعيمهم الملعون إبليس، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

والعداء بين الإنسان والشيطان عداء بعيد الجذور، يعود تاريخه إلىٰ اليوم الذي صور الله فيه آدم، قبل أن ينفخ فيه الروح، فأخذ الشيطان يطيف به، ففي «صحيح مسلم» عن

أنس: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لما صوّر الله آدم في الجنة، تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يُطيف به، ينظر ما هو، فلما رآه أجوف، عرف أنه خلق خلقًا لا يتمالك**».

وهي عدوة دائمة شاملة تامة لا تنقطع ولا تهدأ ولا تنفك أبدًا قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ ﴾ [فاطر:٦] فعلىٰ العبد العاقل إلَّا يغفل عن هذه العداوة أبدًا وأن يعتصم بعبودية الله حق الاعتصام وأن يدرك أن بقربه من مولاه بالتزام طاعته والبعد عن معاصيه بعده عن الشيطان وببعده عن ربه عَزَّوَجَلَّ «أحب أحبائه» قربه من الشيطان «ألد أعدائه» قال تعالىٰ ذكره: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر:٤٢] وهذه الآية المباركة من أرجىٰ آي القرآن في التحصن من الشيطان فتأمل.

فإقامة العبودية الخالصة لله عَزَّوَجَلَّ تحول بين الشياطين وبين العبد بإذن الله تعالىٰ.

واعلم بأن الجن مسلمهم وكافرهم صالحهم وعاصيهم أمم أمثالنا وأنهم مكلفون مثل الإنس وأنهم مربوبون خاضعون لله رب العالمين وأنهم لا ينفذون إلىٰ شيء من أقدار الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا بإذنه ولا يفعلون شيئًا إلَّا بمشيئته ورغم ما أعطىٰ الله لبعضهم من قدرة فما هم بمعجزين ولا يعتقد فيهم إلَّا ما يعتقد في شأن عباد الله علىٰ ما أخبر الله والغلو فيهم شرك - عياذًا بالله - وعدم الإيمان بهم كفر - أعاذنا الله - ولكن نؤمن بهم علىٰ النحو الذي أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ عنهم لأنهم غيب لا نعلمه إلَّا من قبل خالقهم سبحانه وتعالىٰ.

القاعدة الثامنة عشرة في وجوب الإيمان بكل الكتب المنزلة من عند الله عَزَّوَجَلَّ

أولاً: الإيمان بالقرآن العظيم:

القرآن لغة: اتفق أهل العلم رحمهم الله علىٰ أن لفظ «قرآن» اسم وليس بفعل ولا حرف والقرآن: مصدر «قرأ» بمعنىٰ: «تلا» كالرجحان والغفران، ثم نُقل من المصدر وجُعل اسمًا للكلام المنزَّل علىٰ نبينا محمد ﷺ.

ويشهد له قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ [القيامة:١٨] أي: قراءته.

أما القرآن في الاصطلاح: فقد ذكر العلماء رحمهم الله للقرآن الكريم تعريفًا اصطلاحيًّا يُقرّب معناه ويميزه عن غيره، فعرّفوه بأنه: كلام الله المنزل علىٰ نبيّه محمد ﷺ، المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر.

ويكفي ثناءً علىٰ القرآن ما أثنىٰ به الله عليه ويكفي من ذلك أنه كلام الله عَزَّوَجَلَّ تكلم به وأنه صفة من صفاته سبحانه وتعالىٰ.

ومن ثنائه عليه ما جاء في كتابه:

* وصفه بغاية العظمة والكمال والجلال، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر:٨٧]. .

* ووصفه بالإحكام في قوله تعالىٰ: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود:١].

* وذكر هيمنته علىٰ الكتب السابقة، في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨].

وهذا الكتاب هو المهيمن الحافظ لمقاصد الكتب المنزلة قبله، الشاهد المؤتمن علىٰ ما جاء فيها يُقِرُّ الصحيح فيها ويُصحّح الخطأ.

* ووصفه في أم الكتاب بأنه «عليٌّ حكيم» في قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف:٤].

فهذه شهادة من الله تعالىٰ بعلو شأن القرآن وحكمته، ولا ريب أن من عظمة القرآن أنه «عليٌّ» في محله، وشرفه، وقدره، فهو عال علىٰ جميع كتب الله تعالىٰ، بسبب كونه معجزًا باقيًا علىٰ وجه الدهر.

ومعنىٰ الحكيم: المنظوم نظمًا متقنًا لا يعتريه أي خلل في أي وجه من الوجوه، فهو حكيم في ذاته حاكم علىٰ غيره.

والقرآن «حكيم» كذلك فيما يشتمل من الأوامر والنواهي، والأخبار، وليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.

ومن ثناء الله تعالىٰ علىٰ القرآن أن وصفه في ثلاث سور بأنه «كتاب مبارك».

* قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام:٩٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام:١٥٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٥٠].

وبركة هذا الكتاب تمتد إلىٰ يوم القيامة وعطاؤه نامٍ لا ينفذ .. يواكب الحياة بهذا العطاء، ثم يأتي شفيعًا لأصحابه.

ثم أما بعد فإن الكلام عن القرآن ألعظيم لا بُد وحتمًا أن يجرنا إلىٰ تأصيل عقيدة أهل ألسنة والجماعة بأنه كلام الله عَزَّوَجَلَّ الذي تكلم به لجبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأن الأمة مجمعة علىٰ هذا المبدأ لا مراء عندها في ذلك أبدًا وما خالفها إلَّا الفِرق الهالكة:

۞ أولاً: الأدلة المثبتة لصفة الكلام:

• من أدلة الكتاب:

١ - قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾[البقرة:٢٥٣].

٢ - وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء:١٦٤].

٣ - وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣].

والآيات في ذلك كثيرةٌ جدًّا.

• من أدلة السنة:

* حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي -ﷺ- قال: «**احتجّ آدمُ وموسىٰ، فقالَ له موسىٰ: يا آدم، أنتَ أبونا، خَيَّبْتَنا وأخرَجْتَنا من الجنَّة، قال له آدم: يا موسىٰ، اصطفاكَ الله بكلامِهِ، وخَطَّ لكَ التوراةَ بيدِهِ، أتلومُني علىٰ أمْرٍ قدَّرهُ الله عليَّ قبلَ أن يخلقَني بأربعينَ سنةً؟ فحَجَّ آدمُ موسىٰ، فحَجَّ آدمُ موسىٰ -ثلاثًا-**» متفق عليه.

* حديث جابر بن عبد الله قال: كانَ النبيُّ -ﷺ- يَعْرِضُ نفسَه علىٰ الناس بالموقفِ فيقول: «**هلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُني إلىٰ قومِهِ؟ فإنَّ قريشًا قدْ مَنعوني أن أبلِّغَ كلامَ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ**» الحديث صحيح أخرجه أحمد وغيره.

وغير ذلك كثير في أحاديث النبي ﷺ التي صحت بها الروايات وتواترت بها الأخبار.

۞ وكلام الله تعالى غير مخلوق:

كلامُ الله تعالىٰ صفةٌ من صفاتِهِ غيرُ مَخلوقةٍ كسائرِ صِفاتِه، سَواء كان القرآن العربيَّ، أوِ التَّوراةَ العِبريَّةَ، أو غيرَ ذلك من كلامِهِ تعالىٰ، ممَّا وقَعَ من كلامِهِ، وممَّا لَم يقع بَعْدُ.

ولَقَدْ كانَ السَّلفُ في صَدْرِ الإسلام في غِنًىٰ عن إطلاقِ لفظِ (غير مخلوق) لأنَّه كانَ من المُسَلَّمِ عندهم أنَّ كلامَ الله صفةٌ مِن صفاتِهِ، وصفاتُهُ غيرُ مَخلوقةٍ، حتىٰ ظَهَرت الجَهمية، فنفَتْ صفةَ الكلامِ عن الله تعالىٰ، لكنْ لمَّا كانَ هذا القولُ منكرًا شَنيعًا، تَنفرُ منه قلوبُ الناسِ، وتقشَعِرُّ منه جلودُهم، ويرفُضُهُ إيمانُهُمْ، أبدَلوهُ بقَوْلِهم: كلامُ الله مَخْلوقٌ، فتظاهَروا بإثباتِ الكلامِ، وأبطلُوهُ بقولهم: مخلوقٌ.

فلمَّا كانَ حقيقةُ قَوْلِهم إبطالَ صفةِ الكلامِ وتَعطيلَها قابَلهم السَّلَفُ برفْضِ هذهِ البدعةِ وإنكارِها، والتَّشديدِ عليهم في ذلكَ، بل وتكفيرِهم، لأنَّ حقيقةَ قولهم الكفرُ، لِما تضمَّنَ من تكذيبِ القرآنِ، وإثباتِ النَّقْصِ للرَّحمنِ، فقالَ السَّلَفُ حينئذٍ: (كلامُ الله -كالقرآن وغيره- غيرُ مخلوقٍ).

ولقَدْ كانَتْ هذه العقيدةُ مبنيَّةً علىٰ أُسُسٍ متينةٍ وقَواعدَ عظيمةٍ من الكتابِ والسُّنَّةِ، والمَعقولِ الصَّريحِ، ونُصوصِ السَّلَفِ وكَلامِهم، خِلافًا لما يحسَبُه الجاهلونَ.

✍ **قال الشيخ الأشقر** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإنِّي ذاكرٌ لكَ من ذلكَ ما فَتَحَ الله تعالىٰ به لئلَّا تضِلَّ السَّبيلَ، ولتتَّقيَ ما أحدثَهُ الناسُ من القالِ والقيلِ:

• **من أدلة الكتاب:**

* قالَ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤].

والاحتجاجُ بهذه الآيةِ من وَجْهَيْنِ:

- **الأول:** أنَّه تعالىٰ فرَّقَ بين الخَلْقِ والأمْرِ، وهما صِفَتان من صِفاتِهِ، أضافَهما إلىٰ نفسهِ، أمَّا الخَلْقُ فَفِعْلُهُ، وأمَّا الأمرُ فقولُهُ، والأصْلُ في المُتعاطفين التَّغايُرُ إلَّا إذا قامَتِ القرينةُ علىٰ عَدم إرادَة ذَلك، وهنا قد قامتِ القرائنُ علىٰ توكيدِ الفَرْقِ بَيْنَهُما، ومنها الوجهُ الآتي.

- **والثاني:** أنَّ الخَلْقَ إنَّما يكونُ بالأمْرِ، كَما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢].

فقوله تعالىٰ: «كُنْ» هو أمْرُهُ، فلو كانَ مَخلوقًا لاحتاجَ خلقُهُ إلىٰ أمْرٍ، والأمْرُ إلىٰ أمرٍ، إلىٰ ما لا نِهاية، وهذا باطلٌ.

✍ **وقد احتجَّ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ الجَهْمِيَّة المُعْتزلةِ بهذه الآية.**

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قلتُ: قال الله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف:٥٤] ففرَّقَ بين الخَلْقِ والأمْرِ».

وقال لهم: «قال الله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ...﴾ [النحل:١] فأمْرُهُ كلامُه واستطاعَتُهُ ليسَ بمخلوقٍ، فلا تَضْرِبوا كِتابَ الله بعضَهُ بِبعضٍ».

وقالَ فيما كتَبَهُ للمتوكِّل حينَ سألَهُ عن مَسألةِ القرآنِ: «وقَدْ قالَ الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ...﴾ [التوبة:٦]، وقَالَ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف:٥٤]، فَأخبرَ بالخَلْقِ، ثُمَّ قَالَ: «وَالأمْرُ»، فأخبرَ أنَّ الأمرَ غَيْرُ مَخلوقٍ».

✍ **وقد سبَقَ الإمامَ أحمد إلىٰ هذا الاحتجاج شيخُه الإمام سفيانُ بن عُيَيْنَةَ الهِلاليُّ الحافظُ الثِّقةُ الحُجَّةُ، فقالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:**

«ما يَقولُ هذا الدُّوَيبَّةُ؟» -يعني بشرًا المَريسِيَ-. قالوا: يا أبا محمَّدٍ، يزعُمُ أنَّ القرآنَ مَخلوقٌ، فقالَ:

«كَذَبَ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] فالخَلْقُ خَلْقُ الله تبارك وتعالىٰ، والأمْرُ القرآنُ».

✍ قال الحافظُ هبةُ الله ابنُ الطَّبَريّ عقبَ هذا: «وكذلكَ قالَ أحمدُ بن حنبل، ونُعَيْمُ بن حمَّادٍ، ومحمَّدُ بن يحيىٰ الذُّهْليُّ، وعَبْدُ السَّلام بن عاصمٍ الرازيُّ، وأحمدُ بن سِنانٍ الواسطيُّ، وأبو حاتِمٍ الرازيُّ».

- وقالَ تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾ [الرحمن: ١ - ٣].

ففرَّقَ تعالىٰ بينَ عِلمِهِ وخَلْقِهِ، فالقرآنُ عِلْمُهُ، والإنسانُ خلقُهُ، وعِلْمُهُ تعالىٰ غيرُ مَخلوقٍ.

ثانيًا: وجوب الإيمان بجميع الكتب المنزلة من عند الله تبارك وتعالى:

اعلم - علَّمنا اللهُ وإياك - أن الإيمان أي التصديق بكل ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ من شرائع في كتبه وعلىٰ لسان رسله أمرٌ واجبٌ لا يتم إيمانُ عبدٍ ولا يصح إلَّا به وأن الكفر ببعض هذه الكتب كفرٌ بجميعها.

* ودليل ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٦ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣٧﴾ [البقرة:١٣٦-١٣٧].

* وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝١٣٦﴾ [النساء:١٣٦].

ومفهوم هذه الآيات وأمثالها سواء كانت أمرًا مباشرًا أو وصفًا للمؤمنين أو وصفًا للكافرين، هو أن الإيمان بالكتب السماوية كلها أمر واجب لا يتم إيمان المرء إلَّا به.

۞ وأما الكتب التي ورد ذكرها في القرآن:

فمن تلك الكتب التي أنزلت علىٰ الرسل السابقين ما سماه الله تعالىٰ لنا في القرآن الكريم، ومنها ما لم يسمه لنا، فمن الكتب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم:

- **أولاً: (الصحف):**

- وكل الذي جاء في القرآن عنها قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه:١٣٣].

- وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٣٦ - ٤٢].

- وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلىٰ: ١٤ - ١٩].

- **ثانياً: التوراة:**

ذكر القرآنُ الكريمُ التوراةَ (١٨) مرة، وهو الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخلاصة حديث القرآن عن التوراة قد نستطيع إجماله في الآتي:

- وصف القرآنُ التوراةَ بأنها هدىٰ ونور وفرقان، وضياء وذكر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٤].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء:٤٨].

- إن التوراة كتاب شامل لكل شيء، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأنعام:١٥٤].

- وتحدث القرآن الكريم عن ألواح موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد وردت في ثلاثة مواضع، فقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف:١٤٥].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف:١٥٠].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف:١٥٤].

- إن الرسالات التي جاءت بعدها مصدقة لها، فلقد قال الكتاب عن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المائدة:٤٦].

- وقال جل ثناؤه عن محمد ﷺ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة:٨٧-٨٩].

- **إن القرآن تحدث عن بعض الذي جاء في التوراة، ولنأخذ هذين المثالين:**

- المثال الأول: قال تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة:٤٥].

- المثال الثاني: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

- ذكر القرآنُ الذين كُلِّفوا بحمل أمانة «التوراة» منهم من حملها بأمانة، ومنهم من لم يحملها، فقال عن الصالحين منهم: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف:١٥٩].

وقال عن المفسدين منهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة:٥].

لكن هؤلاء أصبحوا هم الكثرة الغالبة، فأخذ القرآن لا يتحدث عن حملة التوراة «بني إسرائيل» إلَّا ويعمهم بالخيانة ونقض الميثاق، قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ﴾ [المائدة:١٣].

ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الإسراء:٤].

– أكد القرآن أن التوراة الموجودة الآن بين أيدينا هي ليست التوراة التي أنزلها علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإنما هي محرفة من قبل بني إسرائيل الذين خانوا العهد ونقضوا الميثاق.

قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ٧٨ - ٧٩].

ـ وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥].

ـ وقال تعالىٰ: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة:١٣].

۞ ثالثًا: (الإنجيل):

وذكر القرآنُ الكريمُ الإنجيلَ «١٢» مرة ويكاد يكون حديث القرآن عن الإنجيل قريبًا عن حديثه عن التوراة، إلّا في بعض النقاط، والإنجيل هو الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ عبده ورسوله عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

أ– وصَفَ القرآنُ الإنجيلَ بأنه هدىٰ ونور وموعظة:

قال تعالىٰ: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [المائدة:٤٦].

ب – ومما ورد في القرآن الكريم:

أن الإنجيل جاء مكملًا أو معدلًا لما جاء في التوراة من أحكام ولم يصف القرآن الإنجيل بما وصف به التوراة من أنه كتاب شامل يفصل كل شيء، بل علىٰ العكس، جاء وكأنه يصفه بمهمة محدودة هي نسخ بعض ما ورد في التوراة من أحكام، لحكمة يعلمها الله، يقول القرآن علىٰ لسان عيسىٰ ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ [آل عمران:٥٠].

ولهذا ربط القرآن بينهما في مهمة عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [آل عمران:٤٨ – ٤٩].

- هناك فرق واضح في اهتمام القرآن، فالظاهر اهتمامه برسالة موسىٰ أكثر من الإنجيل ويظهر هذا في عدد المرات التي ذكرت فيها التوراة «١٨» مرة بينما ذكر الإنجيل «١٢» مرة وذكر موسىٰ «١٣٦» مرة بينما لم يذكر عيسىٰ إلَّا «٢٥» مرة.

- هناك إشارة ربما تكون أظهر في الدلالة علىٰ اهتمام القرآن بالتوراة أكثر من اهتمامه بالإنجيل، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ – ٣٠].

- جاءت في الإنجيل كما في التوراة البشارة بالرسول ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٧].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف:٦].

ش ـ إن القرآن جاء مصدقًا أيضًا لرسالة عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كما هو مصدق لجميع الرسالات السابقة قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١].

- وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة:٩٧].

- وتحدث القرآن عن حملة الإنجيل كما تحدث عن حملة التوراة فقسمهم إلىٰ قسمين: فئة وقفت مع الإنجيل الحق وأخرىٰ كاذبة كافرة خائنة، فقال عن الأولىٰ: ﴿ ۞

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣].

وأما الثانية فهم: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

- ويخلص القرآن إلىٰ أن الإنجيل الذي بين أيدينا الآن ليس هو كلام الله، بل هو من تحريف المحرفين، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٧٨ - ٧٩].

والحقيقة فالقرآن لا يفصل في مقدار التحريف الذي ورد علىٰ التوراة والإنجيل، وكأن هدفه فقط أن يقول لنا إن هذين الكتابين ليسا مصدر ثقة، لأن الأهواء دخلتهما، أما التفصيل فلا نحتاجه نحن، وأيضًا فإن مقدار التحريف مختلف زمانًا ومكانًا ومذهبًا، فلم يهتم القرآن إلَّا بالذي فيه الفائدة للناس.

رابعًا: (الزبور):

هو الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، والزبور في اللغة هو الكتاب المزبور أي المكتوب، وجمعه زبر، وكل كتاب يسمىٰ زبورًا، قال تعالىٰ: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر: ٥٢] أي مسجل في كتب الملائكة ثم غلب إطلاق لفظ الزبور علىٰ ما أنزل علىٰ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ٥٥].

وأخبر سبحانه وتعالىٰ، أن مما كتبه في الزبور، وراثة الصالحين الأرض، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

هذه هي الكتب السابقة التي سماها الله لنا في كتابه إلَّا أنه توجد كتب أخرىٰ أُنزلت ولم تُسم لنا، بل ذُكرت مجملة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥].

وبعد والموقف الذي ينبغي أن يتخذه المسلم من تلك الكتب «التوراة والإنجيل»، أن يؤمن بما ورد فيهما مما قرره القرآن الكريم، أما ما ورد مخالفًا أصول القرآن العامة فلا يؤمن به، بل يعتقد في بطلانه، أما ما عدا ذلك من القصص والمواعظ التي لم يذكرها القرآن، ولا تناقض أصوله فلا يصدقها ولا يكذبها، وذلك اتباعًا لما ورد عن النبي ﷺ: **«إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان حقًّا لم تكذبوهم وإن كان باطلًا لم تصدقوهم»**.

فأخبار أهل الكتاب على ثلاثة أقسام:

- الأول: ما علمنا صحته، وشهد له بالصدق ما بأيدينا من الوحي فذاك صحيح.

- الثاني: ما علمنا كذبه، ودل علىٰ كذبه مخالفته لما لدينا من الوحي.

- الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما أخرج البخاري في صحيحه (أن النبي ﷺ قال: **«بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»**.

القاعدة التاسعة عشرة في أن القرآن الكريم نسخ الكتب السابقة كلها

اعلم - علَّمنا اللهُ وإياكم - أن الله سبحانه وتعالىٰ شاء أن ينسخ الكتب السابقة كلها وينزل كتابه الأخير ليبقىٰ في الأرض إلىٰ قيام الساعة، كان كل رسول من السابقين يرسل إلىٰ قومه خاصة، بينما بعث الرسول محمد ﷺ إلىٰ البشرية كافة كما جاء من كلامه ﷺ من رواية مسلم في «صحيحه»: «... **كان كلّ نبيّ يبعث إلىٰ قومه خاصّة وبعثت إلىٰ كلّ أحمر وأسود**»، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨].

وكذلك كانت الكتب السابقة تنزل لأقوام معينين بينما أُنزل القرآن للناس كافة، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [القلم:٥٢].

لذلك اقتضت مشيئة الله أن ينسخ هذا الكتاب الشامل الكامل ما سبقه من الكتب جميعًا ويهيمن عليها، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٤٨ - ٥٠].

ولم يعد يقبل من أحد أن يستمسك بما سبق من الكتب ويرفض القرآن، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [المائدة:٦٨].

وإقامة التوراة والإنجيل بالنسبة لأهل الكتاب المخاطبين بهذه الآية معناها: الإقرار بوحدانية الله، ذلك أن التوراة والإنجيل المنزلين من عند الله يقرران هذه الوحدانية تقريرًا جازمًا، ولكن أهل الكتاب حرَّفوهما، فالمطلوب منهم هو إقامتها مرة أخرىٰ، أي الرجوع إلىٰ أصل التوحيد، ثم إن التوراة والإنجيل قد ذكرا محمدًا ﷺ وأمر باتباعه عند ظهوره، فإقامتهما معناها الإيمان بالرسول ﷺ وما نزل عليه من وحي.. أي الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران:٨٥].

* وقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلَّا كان من أصحاب النار»** صحيح أخرجه مسلم وغيره.

القاعدة العشرون في وجوب الإيمان بالرسل جميعًا عليهم صلوات الله وسلامه

التعريف بالنبي والرسول والفرق بينهما:

أولا: تعريف النبي:

النبي - في لغة العرب - مشتق من النبأ وهو الخبر، قال تعالىٰ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [النبأ: ١-٢].

وإنّما سمّي النبيُّ نبيًّا لأنه مُخبرٌ مُخبَر، فهو مُخْبَر، أي: أنَّ الله أخبره، وأوحىٰ إليه ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [التحريم:٣]، وهو مُخْبرٌ عن الله تعالىٰ أمره ووحيه ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحجر:٤٩]، ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الحجر:٥١].

وقيل: النبوة مشتقة من النَّبْوَة، وهي ما ارتفع من الأرض، وتطلق العرب لفظ النبيّ علىٰ علم من أعلام الأرض التي يهتدىٰ بها، والمناسبة بين لفظ النبي والمعنىٰ اللغوي، أنَّ

النبيّ ذو رفعة وقدر عظيم في الدنيا والآخرة، فالأنبياء هم أشرف الخلق، وهم الأعلام التي يهتدي بها الناس فتصلح دنياهم وأخراهم.

ثانيًا: تعريف الرسول:

الإرسال في اللغة التوجيه، فإذا بعثت شخصًا في مهمة فهو رسولك، قال تعالىٰ حاكيًا قول ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل:٣٥]، وقد يريدون بالرسول ذلك الشخص الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أخذًا من قول العرب: (جاءت الإبلُ رَسَلًا) أي: متتابعة.

وعلىٰ ذلك فالرُّسل إنّما سمّوا بذلك لأنّهم وُجّهوا من قبل الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون:٤٤]، وهم مبعوثون برسالة معينة مُكلَّفون بحملها وتبليغها ومتابعتها.

الفرق بين الرسول والنبي:

لا يصحُّ قول من ذهب إلىٰ أنه لا فرق بين الرسول والنبيّ، ويدلُّ علىٰ بطلان هذا القول ما ورد في عدة الأنبياء والرسل، فقد ذكر الرسول ﷺ أنَّ عدة الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، وعدَّة الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولًا، ويدلّ علىٰ الفرق أيضًا ما ورد في كتاب الله من عطف النبيّ علىٰ الرسول ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢]، ووصف بعض رسله بالنبوة والرسالة مما يدُل علىٰ أن الرسالة أمر زائد علىٰ النبوة، كقوله في حقّ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم:٥١].

والشائع عند العلماء أنَّ النبي أعم من الرسول، فالرسول هو من أُوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه، والنبيُّ من أوحي إليه ولم يؤمر بالبلاغ، وعلىٰ ذلك فكلُّ رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا.

قال الدكتور الأشقر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهذا الذي ذكروه هنا بعيد لأمور:

- الأول: أن الله نصَّ علىٰ أنه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ...﴾ [الحج:٥٢]، فإذا كان الفارق بينهما هو الأمر بالبلاغ فالإرسال يقتضي من النبيّ البلاغ.

- **الثاني**: أنَّ ترك البلاغ كتمان لوحي الله تعالىٰ، والله لا ينزل وحيه ليكتم ويدفن في صدر واحد من الناس، ثمَّ يموت هذا العلم بموته.

- **الثالث**: قول الرسول ﷺ فيما يرويه عنه ابن عباس: «**عرضت عليَّ الأمم، فجعل يمرُّ النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد**».

فدلّ هذا علىٰ أنَّ الأنبياء مأمورون بالبلاغ، وأنَّهم يتفاوتون في مدىٰ الاستجابة لهم.

* **والتعريف المختار**: أنَّ «الرسولَ مَنْ أُوحي إليه بشرع جديد، والنبيَّ هو المبعوث لتقرير شرع من قبله».

وقد «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ**».

كما ثبت في الحديث، وأنبياء بني إسرائيل كلّهم مبعوثون بشريعة موسىٰ: التوراة وكانوا مأمورين بإبلاغ قومهم وحي الله إليهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ...﴾ [البقرة:٢٤٦]؛ فالنبي كما يظهر من الآية يُوحَىٰ إليه شيء يوجب علىٰ قومه أمرًا، وهذا لا يكون إلَّا مع وجوب التبليغ.

واعتبر في هذا بحال داود وسليمان وزكريا ويحيىٰ فهؤلاء جميعًا أنبياء، وقد كانوا يقومون بسياسة بني إسرائيل، والحكم بينهم وإبلاغهم الحق، والله أعلم بالصواب.

* **واعلم – وفقك الله – أن الإيمان بالأنبياء والرسل من أصول الإيمان.**

* قال تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران:٨٤].

* ومن لم يؤمن بالرسل ضل ضلالًا بعيدًا، وخسر خسرانًا مبينًا ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء:١٣٦].

* والذين يزعمون أنّهم مؤمنون بالله ولكنّهم يكفرون بالرسل والكتب هؤلاء لا يقدرون الله حقَّ قدره ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ [الأنعام:٩١].

فالذين يقدرون الله حقَّ قدره، ويعلمون صفاته التي اتصف بها من العلم والحكمة والرحمة لا بدَّ أن يوقنوا بأنَّه أرسل الرسل وأنزل الكتب، لأن هذا مقتضىٰ صفاته، فهو لم يخلق الخلق عبثًا، ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ [القيامة:٣٦].

* ومن كفر بالرسل وهو يزعم أنَّه يؤمن بالله فهو عند الله كافر لا ينفعه إيمانه، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فقد نصَّت الآية علىٰ كفر من زعم الإيمان بالله وكفر بالرسل ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [النساء:١٥٠].

✍ **يقول القرطبي في هذه الآية**: «نصّ سبحانه علىٰ أنَّ التفريق بين الله ورسله كفر، وإنَّما كان كفرًا لأنَّ الله فرض علىٰ الناس أن يعبدوه بما شرعه علىٰ ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردّوا عليهم شرائعهم، ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أُمروا بالتزامها، فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية، وكذلك التفريق بين الله ورسله».

واعلم أن الكفر برسول واحد كفر بجميع الرسل.

* قال تعالىٰ: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الشعراء:١٠٥].

* وقال: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [الشعراء:١٢٣].

* وقال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الشعراء:١٤١].

* وقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الشعراء:١٦٠].

ومن المعروف أنَّ كلّ أمةٍ كذَّبت رسولها، إلَّا أن التكذيب برسول واحد يعدّ تكذيبًا بالرسل كلّهم، ذلك أنَّ الرسل حملة رسالة واحدة، ودعاة دين واحد، ومرسلهم واحد، فهم وحدة، يبشر المتقدم منهم بالمتأخر، ويصدق المتأخر المتقدم.

ومن هنا كان الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض كفرًا بهم جميعًا، وقد وسم الله من هذا حاله بالكفر ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

وقد أمرنا الله بعدم التفريق بين الرسل والإيمان بهم جميعًا ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة:١٣٦].

ومن سار على هذا النهج فقد اهتدى ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾ [البقرة:١٣٧].

والذي يخالفه فقد ضلَّ وغوى ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة:١٣٧].

وقد مدح الله رسول هذه الأمة والمؤمنين الذين تابعوه لإيمانهم بالرسل كلهم، ولعدم تفريقهم بينهم، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥].

ووعد الله الذين لم يفرقوا بين الرسل بالمثوبة والأجر الكريم ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ [النساء:١٥٢].

وقد ذم الله أهل الكتاب لإيمانهم ببعض الرسل وكفرهم ببعض ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة:٩١].

فاليهود لا يؤمنون بعيسىٰ ولا بمحمد، والنصارىٰ لا يؤمنون بمحمد ﷺ.

واعلم - هدانا الله وإياك إلىٰ سواء السبيل - أن الأنبياء والرسل جمّ غفير.

واقتضت حكمة الله - تعالىٰ - في الأمم قبل هذه الأمّة أن يرسل في كلّ منها نذيرًا، ولم يرسل رسولًا للبشرية كلّها إلّا محمدًا ﷺ، واقتضىٰ عدله إلّا يعذب أحدًا من الخلق إلّا بعد أن تقوم عليه الحجة: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٥]. من هنا كثر الأنبياء والرسل في تاريخ البشرية كثرة هائلة، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر:٢٤].

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بعدّة الأنبياء والمرسلين، فعن أبي ذرّ قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلاثمائة وبضعة عشر جمًّا غفيرًا» وقال مرة: «خمسة عشر»، وفي

رواية أبي أمامة، قال أبو ذر: قلت: يا رسول الله، كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرُّسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا**».

ومن الأنبياء والرسل من لم يقصصهم الله علينا: وهذا العدد الكبير للأنبياء والرسل يدلنا علىٰ أنَّ الذين نعرف أسماءهم من الرسل والأنبياء قليل، وأنَّ هناك أعدادًا كثيرة لا نعرفها، وقد صرّح القرآن بذلك في أكثر من موضع، قال تعالىٰ: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء:١٦٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر:٧٨].

فالذين أخبرنا الله بأسمائهم في كتابه أو أخبرنا بهم رسوله ﷺ لا يجوز أنّ نكذّبَ بهم، ومع ذلك فنؤمن أنَّ لله رسلًا وأنبياء لا نعلمهم.

وقد ذكر الله في كتابه خمسة وعشرين نبيًّا ورسولًا، فذكر في مواضع متفرقة آدم وهودًا وصالحًا وشعيبًا وإسماعيل وإدريس وذا الكفل ومحمدًا عليهم السلام.

* قال تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران:٣٣].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ ﴾ [هود:٥٠].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ ﴾ [هود:٦١].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ ﴾ [هود:٨٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الأنبياء:٨٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ ...﴾ [الفتح:٢٩].

* وذكر ثمانية عشر منهم في موضع واحد في سورة الأنعام ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

أربعة من العرب:

من هؤلاء الخمسة والعشرين أربعة من العرب، فقد جاء في حديث أبي ذر في ذكر الأنبياء والمرسلين: «**منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر**».

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل: العرب العارية، وأمّا العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وهود وصالح كانا من العرب العاربة.

والأنبياء الذين سبق ذكرهم مذكورون في القرآن بأسمائهم، وهنا بعض الأنبياء أشار القرآن إلىٰ نبوتهم، ولكننا لا نعرف أسماءهم، وهم الأسباط، والأسباط هم أولاد يعقوب، وقد كانوا اثني عشر رجلًا عرّفنا القرآن باسم واحد منهم وهو يوسف، والباقي وعددهم أحد عشر رجلًا لم يعرفنا الله بأسمائهم، ولكنه أخبرنا بأنّه أوحىٰ إليهم، قال تعالىٰ: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة:١٣٦].

وقال: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ...﴾ [البقرة:١٤٠].

وهناك أنبياء عرفناهم من السنة، ولم ينصّ القرآن على أسمائهم، وهم:

- **شيث:** يقول ابن كثير: «وكان نبيًّا بنصّ الحديث الذي رواه ابن حبان في «صحيحه» عن أبي ذر مرفوعًا أنّه أُنزل عليه خمسون صحيفة».

- **يوشع بن نون:** فقد روىٰ أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**غزا نبيٌّ من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها، ولمّا يبنِ، ولا آخر قد بنىٰ بنيانًا ولما يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترىٰ غنمًا أو خلفات وهو منتظر ولادها، قال: فغزا، فأدنىٰ للقرية حين صلاةِ العصر، أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة، وأنا مأمور، اللهمَّ احبسها عليَّ شيئًا، فحبست عليه حتىٰ فتح الله عليه**».

والدليل علىٰ أنَّ هذا النبيّ هو يوشع قوله ﷺ: «**إنَّ الشمس لم تحبس إلّا ليوشع ليالي سار إلىٰ بيت المقدس**».

أما الخضر فهو العبد الصالح الذي رحل إليه موسىٰ ليطلب منه علمًا، وقد حدثنا الله عن خبرهما في سورة الكهف.

قال الشيخ الدكتور الأشقر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ وسياق القصة يدلّ علىٰ نبوته من وجوه:

- أحدها: قوله تعالىٰ: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الكهف:٦٥]، والأظهر أنّ هذه الرحمة هي رحمة النبوة، وهذا العلم هو ما يوحىٰ إليه به من قبل الله.

- الثاني: قول موسىٰ له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الكهف: ٦٦-٧٠] فلو كان غير نبيّ لم يكن معصومًا، ولم يكن لموسىٰ - وهو نبيٌّ عظيم، ورسول كريم، واجب العصمة - كبيرُ رغبةٍ، ولا عظيم طلبة في علم وَليّ غير واجب العصمة، ولما عزم علىٰ الذهاب إليه، والتفتيش عنه، ولو أنّه يمضي حقبًا من الزمان، قيل: ثمانين سنة، ثمَّ لما اجتمع به، تواضع له، وعظّمه، واتبعه في صورة مستفيد منه، دلّ علىٰ أنه نبيٌّ مثله، يوحىٰ إليه كما يوحىٰ إليه، وقد خصّ من العلوم اللدنيَّة والأسرار النبويَّة بما لم يطلع الله عليه موسىٰ الكليم، نبيّ بني إسرائيل الكريم.

- الثالث: أنّ الخضر أقدم علىٰ قتل ذلك الغلام، وما ذاك إلَّا للوحي إليه من الملك العلام، وهذا دليل مستقلٌّ علىٰ نبوَّته، وبرهان ظاهر علىٰ عصمته، لأنَّ الولي لا يجوز له الإقدام علىٰ قتل النفوس بمجرد ما يلقىٰ في خلده، لأنَّ خاطره ليس بواجب العصمة، إذ يجوز الخطأ عليه بالاتفاق، ولما أقدم الخضر علىٰ قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم علمًا منه بأنّه إذا بلغ يكفر، ويحمل أبويه علىٰ الكفر لشّدة محبتهما له، فيتابعانه عليه، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو علىٰ بقاء مهجته صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته دلّ ذلك علىٰ نبوته وأنّه مؤيد من الله بعصمته.

- الرابع: أنّه لمَّا فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسىٰ، ووضح له عن حقيقة أمره وجلَّاه، قال بعد ذلك كلّه: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف:٨٢]، يعني ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أُمرت به، وأُوحي إليّ فيه.

وقد ذهب جمع كثير من العلماء إلىٰ أن الخضر حي لم يمت، وقد وردت في ذلك أخبار كثيرة، وقد فتح القول بحياته بابًا للخرافة والدجل، فأخذ كثير من الناس يزعم أنّهم قابلوا الخضر، وأنّه وصّاهم بوصايا، وأمرهم بأوامر، ويروون في ذلك حكايات غريبة، وأخبارًا يأباها العقل السليم.

وقد ذهب إلىٰ تضعيف هذه الأخبار جمع من كبار المحدثين منهم البخاري، وابن دحية، وابن كثير، وابن حجر العسقلاني، وأقوىٰ ما يردُّ به علىٰ هؤلاء القائلين بحياته أنه لم يصح في ذلك حديث، وأنه لو كان حيًّا لكان فرض عليه أن يأتي إلىٰ الرسول ﷺ ويتابعه وينصره، فقد أخذ الله العهد علىٰ الأنبياء من قبل بالإيمان بمحمد ونصرته إذا أدركوا زمانه ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١]، وقد أخبر الرسول ﷺ أنه لو كان موسىٰ حيًّا ما وسعه إلَّا اتباعه.

وقد سأل إبراهيمُ الحربيُّ أحمدَ بن حنبل عن تعمير الخضر وإلياس، وأنهما باقيان يريان ويروىٰ عنهما، فقال أحمد: من أحال علىٰ غائب لم ينصف منه، وما ألقىٰ هذا إلَّا الشيطان. (مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام: ٤/ ٣٣٧).

وسُئل البخاري عن الخضر وإلياس: هل هما في الأحياء؟ فقال: كيف يكون هذا وقد قال النبي ﷺ: «**لا يبقىٰ علىٰ رأس مائة سنة ممن هو علىٰ وجه الأرض أحد**» (مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام»: ٤/ ٣٣٧).

وقد أطال جماعة من محققي العلماء في إيراد الأدلة المبطلة لهذه الخرافة، منهم ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٣٢٦)، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي في «أضواء البيان» (٤/ ١٨٤)، وقد ألف ابن حجر العسقلاني رسالة في ذلك سمّاها: «الزهر النضر في نبأ الخضر»، وهي مطبوعة ضمن «مجموعة الرسائل المنيرية»: ٢/ ١٩٥. (ذكره الدكتور الأشقر في «الرسل والرسالات».

واعلم أن حاجة الناس لإرسال الرسل أعظم من حاجتهم إلىٰ الماء والهواء والدواء لأن كل هذه الأمور إن هلك العبد بفقدها في الدنيا فلعله ينجو في حياته الأبدية في الآخرة لأن الرسل هي التي تعرف العباد وتقودهم إلىٰ الفلاح في الدنيا والآخرة والنجاة من عقوبات الله عَزَّوَجَلَّ فيهما.

وقد عقد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه القيم «مفتاح دار السعادة» مقارنة بيّن فيها أنّ حاجة الناس إلىٰ الشريعة أعظم من حاجتهم إلىٰ علم الطب مع شدّة حاجة الناس إليه لصلاح أبدانهم، فحاجتهم إلىٰ الرسالة أعظم من حاجتهم إلىٰ غيرها من العلوم، قال:

«حاجة الناس إلىٰ الشريعة ضرورية، فوق حاجتهم إلىٰ كل شيء، ولا نسبة لحاجتهم إلىٰ علم الطب إليها، إلَّا ترىٰ أنَّ أكثر العالم يعيشون بغير طبيب، ولا يكون الطبيب إلَّا في بعض المدن الجامعة، وأمَّا أهل البدو كلهم، وأهل الكفور كلّهم، وعامة بني آدم - لا يحتاجون إلىٰ طبيب، وهم أصحُّ أبدانًا، وأقوىٰ طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب، ولعّل أعمارهم متقاربة، وقد فطر الله بني آدم علىٰ تناول ما ينفعهم، واجتناب ما يضرهم، وجعل لكلّ قوم عادة وعرفًا في استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء، حتىٰ إنَّ كثيرًا من أصول الطب إنما أخذت من عوائد الناس، وعرفهم وتجاربهم.

وأمّا الشريعة فمبناها علىٰ تعريف مواقع رضا الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية، فمبناها علىٰ الوحي المحض، والحاجة إلىٰ التنفس فضلًا عن الطعام والشراب، لأنّ غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن، وتعطل الروح عنه، وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة، وهلاك الأبدان، وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت، فليس النّاس قطّ إلىٰ شيء أحوج منهم إلىٰ معرفة ما جاء به الرسول ﷺ والقيام به، والدعوة إليه، والصبر عليه، وجهاد من خرج عنه حتىٰ يرجع إليه، وليس للعالم صلاح بدون ذلك ألبتة، ولا سبيل إلىٰ الوصول إلىٰ السعادة والفوز الأكبر إلَّا بالعبور علىٰ هذا الجسم».

واعلم أن الرسل سفراء الله إلىٰ عباده، وحملة وحيه، ومهمتهم الأولىٰ هي إبلاغ هذه الأمانة التي تحملوها إلىٰ عباد الله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة:٦٧]، والبلاغ يحتاج إلىٰ الشجاعة وعدم خشية الناس، وهو يبلغهم ما يخالف معتقداتهم، ويأمرهم بما يستنكرونه، وينهاهم عمّا ألفوه، ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:٣٩].

والبلاغ يكون بتلاوة النصوص التي أوحاها الله من غير نقصان ولا زيادة ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [العنكبوت:٤٥]، ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا ﴾ [البقرة:١٥١]، فإذا كان الموحىٰ به ليس نصًّا يتلىٰ، فيكون البلاغ ببيان الأوامر والنواهي والمعاني والعلوم التي أوحاها الله من غير تبديل ولا تغيير.

ومن البلاغ أن يوضح الرسول الوحي الذي أنزله الله لعباده، لأنّه أقدر من غيره علىٰ التعرف علىٰ معانيه ومراميه، وأعرف من غيره بمراد الله من وحيه، وفي ذلك يقول الله

لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل:٤٤].

والبيان من الرسول للوحي الإلهي قد يكون بالقول، فقد بين الرسول ﷺ أمورًا كثيرة استشكلها أصحابه، كما بين المراد من الظلم في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢]، فقد بين الرسول ﷺ أن المراد به الشرك، لا ظلم النفس بالذنوب.

وكما بيّن الرسول ﷺ الآيات المجملة في الصلاة والزكاة والحج وغير ذلك بقوله.

وكما يكون البيان بالقول يكون بالفعل، فقد كانت أفعال الرسول ﷺ في الصلاة والصدقة والحج وغير ذلك بيانًا لكثير من النصوص القرآنية.

وعندما يتولىٰ الناس، ويعرضون عن دعوة الرسل، فإن الرسل لا يملكون غير البلاغ ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ [آل عمران:٢٠].

۞ حد الدّعوة إلى الله:

لا تقف مهمّة الرسل عند حدّ بيان الحقّ وإبلاغه، بل عليهم دعوة الناس إلىٰ الأخذ بدعوتهم، والاستجابة لها، وتحقيقها في أنفسهم اعتقادًا وقولًا وعملًا، وهم في ذلك ينطلقون من منطلق واحد، فهم يقولون للناس: أنتم عباد الله، والله ربكم وإلهكم، والله أرسلنا لنعرفكم كيف تعبدونه، ولأننا رسل الله مبعوثون من عنده، فيجب عليكم أن تطيعونا وتتبعونا، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥]. وكل رسول قال لقومه: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء: ١٠٨، ١٢٦، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٣، ١٧٩].

واعلم أن دعوة الرسل إلىٰ الله تقترن دائمًا بالتبشير والإنذار، ولأنَّ ارتباط الدعوة إلىٰ الله بالتبشير والإنذار وثيق جدًّا فقد قصر القرآن مهمة الرسل عليهما في بعض آياته ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الكهف:٥٦]، وقد ضرب الرسول ﷺ لنفسه مثلًا في هذا، فقال: «**إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتىٰ قومًا، فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعينيَّ، وإني أنا النذير العُريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا، فانطلقوا علىٰ مهلهم، فنجوا، وكذَّبته طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش،**

فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني، فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذّب بما جئت به من الحق».

- وتبشير الرسل وإنذارهم دنيوي وأخروي، فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧]. ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه:١٢٣].

- ويعدونهم بالعزّ والتمكين والأمن ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور:٥٥].

- ويخوِّفون العصاة بالشقاء الدنيوي ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤].

- ويحذرونهم العذاب والهلاك الدنيوي ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت:١٣].

- وفي الآخرة يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾ [النساء:١٣].

- ويخوفون المجرمين والعصاة عذاب الله في الآخرة، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء:١٤].

ومن يطالع دعوات الرسل يجد أنّ دعوتهم قد اصطبغت بالتبشير والإنذار.

✍ **قلت:** (وهناك جماعة محدثة خرجت علينا وأصلت لمذهبها في الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ البشارة دون النذارة وتعللوا في دعواهم هذه بأنهم يريدون تأليف قلوب الناس وجمعهم علىٰ الدين فخالفوا بذلك منهج الرسل في الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ واتهموهم بذلك (دون أن يشعروا) بأن منهجهم ينفر الناس من الدين، لبئس ما ظنوا ولبئس ما فعلوا فضلوا وأضلوا، هذا بالإضافة إلىٰ بغضهم للعلم رغم أنه بضاعة الداعية إلىٰ الله وتحريفهم لآيات الجهاد علىٰ أنها نزلت جميعًا في جهاد الدعوة ليثبطوا الناس عن الجهاد بالسيف وعن جهاد النفس إلىٰ غير ذلك مما ابتدعوه مما لم ينزل الله به سلطانًا وحذوا بذلك حذو طائفة من الصوفية المبتدعة هدانا الله وإياهم إلىٰ سواء السبيل.

- واعلم أن إخراج الرسل الناس من الظلمات إلىٰ النور لا يتحقق إلَّا بتعليمهم تعاليم ربهم وتزكية نفوسهم بتعريفهم بربهم وأسمائه وصفاته، وتعريفهم بملائكته وكتبه ورسله، وتعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، ودلالتهم علىٰ السبيل التي توصلهم إلىٰ محبته، وتعريفهم بعبادته ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة:٢]، ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ﴾ [البقرة:١٢٩].

- واعلم أن الله جلّ وعلا أرسل الرسل وأنزل الكتب كي لا يبقىٰ للناس حجّة في يوم القيامة، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

- واعلم أن الرسل وأتباعهم من بعدهم يحكمون بين الناس، ويقودون الأمة في السلم والحرب، ويلون شؤون القضاء، ويقومون علىٰ رعاية مصالح الناس، وهم في كلّ ذلك عاملون بطاعة الله، وطاعتهم في ذلك كلّه طاعة لله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

ولن يصل العبد إلىٰ نيل رضوان الله ومحبته إلَّا بهذه الطاعة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

ولذا فإنّ شعار المسلم الذي يعلنه دائمًا هو السمع والطاعة ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور:٥١].

وخلاصة المسألة أن الواجب الذي لا يقبل إيمان العبد إلَّا به أن يؤمن بجميع الأنبياء والرسل وخاتمهم محمد صلىٰ الله عليهم وسلم جميعًا كما أن طاعتهم وتوقيرهم وإجلالهم ونصرتهم والدفاع عنهم والذب عن أعراضهم ونشر دينهم والدعوة إلىٰ الإيمان بهم وتصديقهم فيما بلغوا عن ربهم والصلاة عليهم حين ذكرهم كل ذلك وغيره واجب علىٰ كل عبد مؤمن بالله عَزَّوَجَلَّ ثم إن خاتمهم في النبوة والرسالة محمد بن عبد الله ﷺ وهو خير الأنبياء بل هو خير البشر علىٰ الإطلاق وهو سيد ولد آدم وشفيع الخلائق وصاحب الحوض يوم العرض وله من المنازل العلية والمراتب الزكية ما لا يعلمه إلَّا رب البرية.

القاعدة الحادية والعشرون في وجوب الإيمان بالوحي المنزل من عند الله

تعريف الوحي:

سمّىٰ اللهُ الطريقَ الذي يعلم الله به أنبياءَه ورسله وحيًا، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء:١٦٣].

والوحي في اللغة: الإعلام الخفّي السريع مهما اختلفت أسبابه،

- فقد يكون بالإلهام كوحي الله إلىٰ الحواريين: ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي ﴾ [المائدة:١١١] وكوحي الله لأم موسىٰ: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ ﴾ [القصص:٧].

- ويأتي بمعنىٰ الإيماء والإشارة، فقد سمّىٰ القرآن إشارة زكريا إلىٰ قومه وحيًا ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ ﴾ [مريم:١١].

وأكثر ما وردت كلمة «وحي» في القرآن الكريم بمعنىٰ إخبار وإعلام الله من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، بطريقة سرّية خفيّة، غير معتادة للبشر.

والوحي اصطلاحًا: الإعلام بالشرع ولا يكون إلّا لمن ارتضىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من نبي أو رسول.

مقامات وحي الله إلى رسله:

للوحي الذي يعلم الله به رسله وأنبياءَه مقامات، قال الله تعالىٰ مبيّنًا هذه المقامات: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى:٥١].

فالمقامات ثلاثة:

۞ الأولى: الإلقاء في روع النبي الموحى إليه:

بحيث لا يمتري النبي في أنّ هذا الذي أُلقي في قلبه من الله تعالىٰ، كما جاء في «صحيح ابن حبان» عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**إنّ روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتىٰ تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب**».

وذهب ابن الجوزي إلىٰ أن المراد بالوحي في قوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ الوحي في المنام.

رؤيا الأنبياء:

وهذا الذي فسّر به ابن الجوزي المقام الأول داخل في الوحي بلا شّك، فإنّ رؤيا الأنبياء حقٌّ، ولذلك فإنَّ خليل الرحمن إبراهيم بادر إلىٰ ذبح ولده عندما رأىٰ في المنام أنّه يذبحه، وعدّ هذه الرؤيا أمرًا إلهيًّا، قال تعالىٰ في إبراهيم وابنه إسماعيل: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصافات: ١٠٢- ١٠٥].

وفي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «**أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في المنام، فكان لا يرىٰ رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح**»

۞ المقام الثاني: تكليم الله لرسله من وراء حجاب:

- وذلك كما كلّم الله تعالىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكر الله ذلك في أكثر من موضع في كتابه قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف:١٤٣].

- وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١١-١٤].

- وممن كلّمه الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ ...﴾ [البقرة:٣٣].

- وكلّم الله عبده ورسوله محمدًا ﷺ عندما عرج به إلىٰ السماء.

۞ **المقام الثالث: الوحي إلى الرسول بواسطة الملك:**

وهذا هو الذي يُفقه من قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى:٥١] وهذا الرسول هو جبريل، وقد يكون غيره وذلك في أحوال قليلة.

صفة مجيء الملك إلى الرسول:

بالتأمل في النصوص في هذا الموضوع نجد أنّ للملك ثلاثة أحوال:

- الأول: أن يراه الرسول ﷺ علىٰ صورته التي خلقه الله عليها، ولم يحدث هذا لرسولنا ﷺ إلّا مرتين.

- الثاني: أن يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس، فيذهب عنه وقد وعىٰ عنه الرسول ﷺ ما قال.

- الثالث: أن يتمثل له الملك رجلًا فيكلّمه ويخاطبه ويعي عنه قوله، وهذه أخف الأحوال علىٰ الرسول ﷺ وقد حدث هذا من جبريل في اللقاء الأول عندما فجأه في غار حراء.

وأن الوحي منزل من عند الله علىٰ من يشاء الله من عباده ممن اختصهم بحمل رسالته وتبليغ شريعته لخلقه والله يختص برحمته من يشاء وأعظم الفرية علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أن يدعي أحدٌ من الخلق أنه يوحىٰ إليه ولم يوحىٰ إليه أو يدَّعِي أنه يسعه أن يخرج عن شريعة محمد ﷺ أو أنه يجد وجدًا بشرع من عند الله جل وعلا يخلف شريعته، أو أنه يوحىٰ إلىٰ قلبه من الله بأوامر تخالف أمره، فكل هذ كذب علىٰ الله وكفر به عياذًا بالله.

ولا أحد يوحىٰ إليه من الله عَزَّوَجَلَّ بدين أو شرع بعد نبينا محمد ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام:٩٣]

وقال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠].

❁ قاعدة في بشرية الرسل صلوات الله عليه أجمعين:

واعلم أن الرسل والأنبياء يحتاجون لما يحتاج إليه البشر من الطعام والشراب، ويحدِثونَ كما يحدث البشر، لأنّ ذلك من لوازم الطعام والشراب، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧-٨].

ومن ذلك أنهم وُلدوا كما وُلد البشر، لهم آباء وأمهات، وأعمام وعمات، وأخوال وخالات، يتزوجون ويولد لهم، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ ﴾ [الرعد:٣٨].

ويصيبهم ما يصيب البشر من أعراض، فهم ينامون ويقومون، ويصحون ويمرضون، ويأتي عليهم ما يأتي على البشر وهو الموت، فقد جاء في ذكر إبراهيم خليل الرحمن لربه: ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٩-٨١].

وقال الله لعبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقال مبينًا أنّ هذه سنته في الرسل كلهم: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

* وقد جاء في وصف الرسول ﷺ: «**كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ**».

* وقد صح أنّ الرسول ﷺ قال لأمّ سُليم: «**يَا أُمَّ سُلَيْم أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ شَرْطِي عَلَىٰ رَبِّي، أَنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَىٰ رَبِّي فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، أَرْضَىٰ كَمَا يَرْضَىٰ الْبَشَرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ، مِنْ أُمَّتِي، بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ، أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً، وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

❁ ثانيًا: تعرض الأنبياء للبلاء:

ومن مقتضى بشرية الرسل أنّهم يتعرضون للابتلاء كما يتعرض البشر، فقد يسجنون كما سجن يوسف ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف:٣٣]، وذكر الله أنه لبث ﴿ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

[يوسف: ٤٢].

وقد يصيبهم قومهم بالأذىٰ وقد يدمونهم، كما أصابوا الرسول ﷺ في معركة أحد فأدموه، وكسروا رباعيته.

وقد يخرجونهم من ديارهم كما هاجر إبراهيم من العراق إلىٰ الشام، وكما هاجر نبينا محمد ﷺ من مكة إلىٰ المدينة.

وقد يقتلونهم ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧].

وقد يصابون بالأمراض، كما ابتلىٰ الله نبيّه أيوب فصبر، وقد صحّ عن الرسول ﷺ: **«أن نبيّ الله أيوب لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلَّا رجلين من إخوانه ...»**.

وكان من ابتلائه أن ذهب أهله وماله، وكان ذا مال وولد كثير، ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

والأنبياء لا يصابون بالبلاء فحسب، بل هم أشدُّ الناس بلاءً، فعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: **«الأنبياء، ثمّ الأمثل فالأمثل، يبتلىٰ الرجل علىٰ حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقّة ابتلي علىٰ حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي علىٰ الأرض ما عليه خطيئة»**.

ودخل أبو سعيد الخدري علىٰ الرسول ﷺ وهو يوعك، فوضع يده علىٰ الرسول ﷺ فوجد حرّه بين يديه فوق اللحاف، فقال: يا رسول الله، ما أشدها عليك! قال: **«إنا كذلك، يُضعَّف علينا البلاء، ويُضعَّف لنا الأجر»**، قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: **«الأنبياء، ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلىٰ بالفقر، حتىٰ ما يجد إلَّا العباءة التي يُحَوِّيها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء»**.

۞ ثالثًا: اشتغال الأنبياء بأعمال البشر:

ومن مقتضىٰ بشريتهم أنهم قد يقومون بالأعمال والأشغال التي يمارسها البشر، فمن ذلك اشتغال الرسول ﷺ بالتجارة، قبل البعثة، ومن ذلك رعي الأنبياء للغنم، فقد روىٰ جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كنّا مع رسول الله ﷺ نجني الكَبَاث، وإنّ رسول الله ﷺ قال: **«عليكم بالأسود منه، فإنّه أطيبه»**، قالوا: أكنت ترعىٰ الغنم؟ قال: **«وهل من نبي إلَّا وقد رعاها»** رواه البخاري في «صحيحه».

ومن الأنبياء الذين نصّ القرآن على أنهم رعوا الغنم نبيّ الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد عمل في ذلك عدّة سنوات، فقد قال له العبد الصالح: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾ [القصص: ٢٧-٢٨].

قال ابن حجر: والذي قاله الأئمة أن الحكمة في رعاية الأنبياء للغنم ليأخذوا أنفسهم بالتواضع، وتعتاد قلوبهم بالخلوة، ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم.

ومن الأنبياء الذي عملوا بأعمال البشر داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد كان حدّادًا يصنع الدروع، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾ [الأنبياء: ٨٠]، كان حدادًا، وفي نفس الوقت كان ملكًا، وكان يأكل مما تصنعه يداه.

ونبي الله زكريا كان يعمل نجارًا، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**كان زكريا يعمل نجارًا**».

رابعًا: ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية والملائكية:

ومقتضى كونهم بشرًا أنهم ليسوا بآلهة، وليس فيهم من صفات الألوهية شيء، ولذلك فإنّ الرسل يتبرّؤون من الحول والطول ويعتصمون بالله الواحد الأحد، ولا يدّعون شيئًا من صفات الله تعالى، قال تعالى مبينًا براءة عيسى مما نسب إليه: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

هذه مقالة عيسى في الموقف الجامع في يوم الحشر الأكبر، وهي مقولة صدق تنفي تلك الأكاذيب والترهات التي وصف بها النصارى عبد الله ورسوله عيسى فطائفة قالت: الله هو المسيح ابن مريم حلّ في بطن مريم ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ [المائدة: ٧٢]، وأخرى قالت: هو ثالث ثلاثة ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ

﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة:٧٣] وطائفة ثالثة قالوا: هو ابن الله، تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩﴾

[مريم: ٨٨-٨٩].

لقد غلا النصارىٰ في عيسىٰ غلوًّا عظيمًا، وهم بمقالتهم الغالية هذه يسبُّون الله أعظم سبّ وأقبحه، فهم يزعمون: «أنّ ربَّ العالمين نزل عن كرسي عظمته، فالتحم ببطن أنثىٰ، وأقام هناك مدةً من الزمان، بين دم الطمث في ظلمات الأحشاء، تحت ملتقىٰ الأعكان، ثم خرج صبيًّا رضيعًا يشبُّ شيئًا فشيئًا، ويبكي، ويأكل، ويشرب، ويبول، ويتقلب مع الصبيان، ثمّ أودع المكتب بين صبيان اليهود، يتعلم ما ينبغي للإنسان، هذا وقد قطعت منه القلفة حين الختان، ثمّ جعل اليهود يطردونه من مكان إلىٰ مكان، ثمّ قبضوا عليه وأصلوه أصناف الذلّ والهوان، فعقدوا علىٰ رأسه من الشوك تاجًا من أقبح التيجان، وأركبوه قصبة ليس لها لجام ولا عنان، ثمّ ساقوه إلىٰ خشبة الصلب مصفوعًا مبصوقًا في وجهه، وهم خلفه وأمامه وعن شماله ويمينه، ثمّ أركبوه ذلك المركب الذي تقشعرُّ منه القلوب مع الأبدان، ثمّ شدّت بالحبال يده مع الرجلان، ثمّ خالطهما تلك المسامير، التي تكسر العظام، وتمزق اللحمان، وهو يستغيث، ويقول: ارحموني، فلا يرحمه منهم إنسان، هذا وهو مدبر العالم العلوي والسفلي، الذي يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن، ثمّ مات ودفن في التراب تحت صم الجنادل والصوّان، ثمّ قام من القبر وصعد إلىٰ عرشه وملكه بعد أن كان ما كان».

فأيّ سبّ أعظم من هذا السبّ الذي نسبوه إلىٰ الباري جل وعلا! وأي ضلال أعظم من هذا الضلال!.

قاعدة في عصمة الأنبياء:

قال الشيخ سليمان الأشقر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ متسائلًا هل الرسل معصومون عن الخطأ والمعصية، وهل هي عصمة عامّة شاملة؟

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ مجيبًا عن ذلك هذا ما سنحاول بيانه بإذن الله تعالىٰ.

أولاً: العصمة في التحمّل وفي التبليغ:

اتفقت الأمة علىٰ أنَّ الرسل معصومون في تحمّل الرسالة، فلا ينسون شيئًا مما أوحاه الله إليهم إلّا شيئًا قد نُسخ، وقد تكفل الله لرسوله ﷺ بأن يقرئه فلا ينسىٰ شيئًا مما أوحاه إليه، إلّا شيئًا أراد الله أن ينسيه إياه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦-

٧]، وتكفل له بأن يجمعه في صدره: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٦-١٨].

وهم معصومون في التبليغ، فالرسل لا يكتمون شيئًا ممّا أوحاه الله إليهم، ذلك أن الكتمان خيانة، والرسل يستحيل أن يكونوا كذلك، قال تعالىٰ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة:٦٧] ولو حدث شيء من الكتمان أو التغيير لما أوحاه الله، فإن عقاب الله يحلّ بذلك الكاتم المغيّر ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

ومن العصمة إلّا ينسوا شيئًا مما أوحاه الله إليهم، وبذلك لا يضيع شيء من الوحي، وعدم النسيان في التبليغ داخل في قوله تعالىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ [الأعلى:٦] وما يدل علىٰ عصمته في التبليغ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣-٤].

۞ عصمة الرسول ﷺ من القتل:

عصم الله رسوله ﷺ من القتل حتىٰ يبلغ رسالة ربه، قال تعالىٰ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

✍ قال **سفيان الثوري** فيما نقله عنه ابن كثير في تفسير هذه الآية: «بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك، وناصرك ومؤيدك علىٰ أعدائك، ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك».

وقد أورد ابن كثير في تفسيره هذه الآية الأحاديث التي تفيد أنّ الصحابة كانوا يحرسون الرسول ﷺ قبل نزول هذه الآية، فلما نزلت ترك رسول الله ﷺ الحرس.

وقد جعل اليهود في شاة مصلية أهدتها يهودية لرسول الله ﷺ سمًّا لتقتله، فلما سألهم عما حملهم علىٰ ذلك قالوا: «**أردنا إن كنت كاذبًا نستريح منك، وإن كنت صادقًا لم يضرك**» رواه البخاري.

ولما سأل المرأة قالت: «**أردت قتلك**» فقال: «**ما كان الله ليسلطك علىٰ ذلك**» رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

فقد عصم الله رسوله أن يقتله السم، وأكل معه بعض أصحابه فماتوا كما أفادته بعض الأحاديث التي روت الواقعة.

۞ عصمة الرسول ﷺ من الشيطان:

وعصم الله رسوله ﷺ من الشيطان، وقد أعان الله رسوله علىٰ قرينه الشيطان فأسلم، فلا يأمره إلَّا بخير، ففي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلَّا وقد وُكل به قرينه من الجن**»، قالوا: وإياك؟ قال: «**وإياي، إلَّا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلَّا بخير**» وفي حديث عائشة أنه سمىٰ القرين شيطانًا.

۞ عدم العصمة من الأعراض البشريّة كالخوف والنسيان:

الأعراض البشرية كالخوف والغضب والنسيان تقع من الرسل والأنبياء، وهي لا تنافي عصمتهم والأمثلة علىٰ ذلك في الكتاب والسنة كثيرة، فمن ذلك:

١ - خوف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من ضيوفه:

أوجس إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في نفسه خيفة عندما رأىٰ أيدي ضيوفه لا تمتد إلىٰ الطعام الذي قدمه لهم، ولم يكن يعلم أنّهم ملائكة تشكلوا في صور البشر ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٠].

٢ - عدم صبر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على تصرفات العبد الصالح:

وموسىٰ وعد الخضر بأن يصبر في صحبته له، فلا يسأله عن أمر يفعله العبد الصالح حتىٰ يحدث له منه ذكرًا، ولكنه لم يتمالك نفسه، إذ رأىٰ تصرفات غريبة، فكان في كل مرّة يسأل أو يعترض أو يوجه، وفي كل مرّة يذكّره العبد الصالح ويقول له: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف:٧٥]. وعندما كشف له عن سر أفعاله قال له: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف:٨٢].

٣ - تصرفات موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما رأى قومه يعبدون العجل:

وغضب موسىٰ غضبًا شديدًا، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقىٰ الألواح وفي نسختها هدىٰ، عندما عاد إلىٰ قومه بعد أن تمّ ميقات ربه، فوجدهم يعبدون العجل، ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف:١٥٠].

وفي الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة، إنَّ الله تعالىٰ أخبر موسىٰ بما صنع قومه في العجل، فلم يلق الألواح، فلمّا عاين ما صنعوا ألقىٰ الألواح فانكسرت».

٤- نسيان آدم وجحوده:

ومن ذلك نسيان آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وجحوده، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلىٰ يوم القيامة، وجعل بين عيني كلِّ منهم وبيصًا من نور، ثمّ عرضهم علىٰ آدم، فقال: أي ربِّ مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأىٰ رجلًا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي ربّ من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له داود، فقال: ربِّ كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي ربِّ زده من عمري أربعين سنة، فلما انقضىٰ عمر آدم، جاءه ملك الموت، فقال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة، قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم، فجحدت ذريته، ونسي آدم، فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته»**.

٥- نبي يحرق قرية النمل:

ومن ذلك ما وقع من نبي من الأنبياء غضب إذ قرصته نملة، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فعاتبه الله علىٰ ذلك، ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة عن النبي ﷺ: **«نزل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثمّ أمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحىٰ الله إليه: فهلّا نملة واحدة»**.

- نسيان نبينا ﷺ وصلاته الظهر ركعتين:

ومن ذلك نسيان الرسول ﷺ في غير البلاغ، وفي غير أمور التشريع، فمن ذلك ما رواه ابن سيرين عن أبي هريرة قال: «صلىٰ بنا رسول الله ﷺ، إحدىٰ صلاتي العشيّ، فصلىٰ ركعتين، ثمّ سلّم، فقام إلىٰ خشبة معروضة في المسجد، فاتكأ عليها كأنّه غضبان، ووضع يده اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ، وشبّك بين أصابعه، ووضع خدّه الأيمن علىٰ ظهر كفه اليسرىٰ، وخرجت السرعان من أبواب المسجد، فقالوا: قصرت الصلاة، وفي القوم أبو بكر وعمر، فهابا أن يكلماه. وفي القوم رجل يقال له ذو اليدين، فقال: يا رسول الله، أنسيت أم قصرت الصلاة؟ فقال: **«لم أنس، ولم تقصر، فقال: أكما يقول ذو اليدين؟»** فقالوا: نعم. فتقدم فصلّىٰ ما ترك، ثمّ سلّم، ثمّ كبّر، وسجد مثل سجود أو أطول، ثمّ رفع رأسه وكبّر، وسجد مثل سجوده أو أطول، ثمّ رفع رأسه وكبّر، فربما سألوه، ثمّ سلّم، فيقول: أنبئت أنّ عمران بن حصين، قال: ثمّ سلّم» متفق عليه، وليس لمسلم فيه وضع اليد علىٰ اليد ولا التشبيك.

وفي رواية، قال: «بينما أنا أصلّي مع النبي ﷺ صلاة الظهر سلّم من ركعتين، فقام

رجل من بني سليم، فقال: يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت؟» وساق الحديث، رواه أحمد ومسلم.

وهذا يدل علىٰ أنّ القصة كانت بحضرته وبعد إسلامه.

وفي رواية متفق عليها لما قال: «**لم أنس ولم تقصر**»، قال: بلىٰ، قد نسيت، وهذا يدل علىٰ أن ذا اليدين تكّلم بعدما علم عدم النسخ كلامًا ليس بجواب سؤال.

وقد صرح الرسول ﷺ بطروء النسيان عليه كعادة البشر، ففي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**ولكنّي إنّما أنا بشر، أنسىٰ كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني**» قال هذا بعد نسيانه في إحدىٰ الصلوات.

أمّا الحديث الذي يروىٰ بلفظ: «**إني لا أنسىٰ، ولكن أُنسَّىٰ لأسنّ**» فلا يجوز أن يعارض به الحديث السابق، لأنّ هذا الحديث - كما يقول ابن حجر - لا أصل له، فإنّه من بلاغات مالك التي لم توجد موصولة بعد البحث الشديد.

۞ ثانيًا: مدى العصمة في إصابة الحق في القضاء:

الأنبياء والرسل يجتهدون في حكم ما يعرض عليهم من وقائع، ويحكمون وفق ما يبدو لهم، فهم لا يعلمون الغيب، وقد يخطئون في إصابة الحق، فمن ذلك عدم إصابة نبي الله داود في الحكم، وتوفيق الله لابنه سليمان في تلك المسألة.

فعن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنّما ذهب بابنك، وقالت الأخرىٰ: إنّما ذهب بابنك، فتحاكمنا إلىٰ داود، فقضىٰ به للكبرىٰ، فخرجتا علىٰ سليمان بن داود، فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقّه بينهما، فقالت الصغرىٰ: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها، فقضىٰ به للصغرىٰ**».

وقد وضح الرسول ﷺ هذه القضية وجلّاها، فقد روت أمُّ سلمة زوج النبي ﷺ: «أنّ النبي ﷺ سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: «**إنّما أنا بشر، وإنّه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها**».

الذين ينفون عن الرسل والأنبياء هذه الأعراض مخالفون للنصوص:

ذهبت الشيعة الإمامية الاثنا عشرية إلىٰ أن العصمة تقتضي إلَّا يقع من الأنبياء سهو ولا نسيان ولا خطأ، ولا خوف ولا غير ذلك من الأعراض البشرية، وقد سقنا لك

النصوص من الكتاب والسنة الدالة على خلاف ذلك، وهي نصوص لا تقبل تحويلًا ولا تأويلًا، فعليك بالكتاب والسنة ففيهما الهداية.

۞ ثالثًا العصمة من الكبائر:

الأمة الإسلامية مجمعة على عصمة الأنبياء والرسل من الكبائر من الذنوب وقبائح العيوب، كالزنى والسرقة والمخادعة، وصناعة الأصنام وعبادتها، والسحر، ونحو ذلك، وقد برأ كتاب الله وسنة رسوله (أنبياء الله ورسله) مما افتراه عليهم اليهود والنصارى في المحرف من كتبهم.

وإليك بعض ما نسبوه إليهم:

- أولًا: ما نسب اليهود إلى الأنبياء والمرسلين من القبائح:

١- زعموا أن نبيّ الله هارون صنع عجلًا، وعبده مع بني إسرائيل، [إصحاح (٣٢) عدد (١) من سفر الخروج].

وقد بيّن ضلالَهم هذا القرآنُ عندما حدثنا أنّ الذي صنع لهم عجلًا جسدًا له خوار هو السامري، وأن هارون قد أنكر عليهم إنكارًا شديدًا.

٢- أن إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قدّم امرأته سارة إلى فرعون حتى ينال الخير بسببها. [إصحاح (١٢) عدد (١٤) من سفر التكوين].

وقد كذبوا على خليل الرحمن، وقد قص علينا الرسول ﷺ قصة إبراهيم هذه عند دخوله لمصر، وفيها أن ملك مصر كان طاغية، وكان إذا وجد امرأة جميلة ذات زوج قتل زوجها وحازها لنفسه، فلما سئل إبراهيم عنها قال هي أخته، يعني أخته في الإسلام، وأخبر الرسول ﷺ أن الله حفظ سارة عندما ذهبت إلى الطاغية، فلم يمسها بأذى.

٣- ومن ذلك أن لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ شرب خمرًا حتى سكر، ثمّ قام على ابنتيه فزنى بهما الواحدة بعد الأخرى.. [سفر التكوين، إصحاح (١٩) عدد (٣٠)].

ومعاذ الله أن يفعل لوط ذلك، وهو الذي دعا إلى الفضيلة طيلة عمره، وحارب الرذيلة، ولكنّه الحقد اليهودي يمتد إلى الكملة من البشر، فلعنة الله على الظالمين.

٤- وأن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ سرق مواشٍ من حميّه، وخرج بأهله خلسة دون أن يُعلمه.. [سفر التكوين، إصحاح (٣١) عدد (١٧)].

٥- وأن روابين زنى بزوجة أبيه يعقوب، وأن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ علم بهذا الفعل القبيح وسكت.. [سفر التكوين، إصحاح (٣٥) عدد (٣٢)].

٦- وأن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ زنىٰ بزوجة رجل من قواد جيشه، ثم دبر حيلة لقتل الرجل، فقتل، وبعدئذ أخذ داود الزوجة وضمها إلىٰ نسائه، فولدت له سليمان. [سفر صموئيل الثاني إصحاح (١١) عدد (١)].

٧- وأن سليمان ارتد في آخر عمره، وعبد الأصنام، وبنىٰ لها المعابد.. [سفر الملوك الأول، إصحاح (١١) عدد (٥)].

هذه بعض المخازي والقبائح والكبائر التي نسبتها هذه الأمة المغضوب عليها إلىٰ أنبياء الله الأطهار، وحاشاهم مما وصفوهم به، ولكنها النفوس المريضة تنسب إلىٰ خيرة الله من خلقه القبائح، ليسهل عليهم تدبير ذنوبهم ومعايبهم عندما ينكر عليهم منكر، ويعترض عليهم معترض.

- ثانيا: ما نسبه النصارى من القبائح إلى الأنبياء:

والنصارىٰ ليسوا بأفضل من اليهود في هذا، فقد نسبوا إلىٰ الأنبياء والرسل القبائح، وذلك بتصديقهم بالتوراة المحرفة المغيرة الموجودة اليوم والتي فيها ما ذكرنا، بالإضافة إلىٰ ما في الإنجيل المحرف ومما فيه:

١- ورد في إنجيل (متىٰ) أن عيسىٰ من نسل سليمان بن داود، وأن جدهم فارض الذي هو من نسل الزنىٰ من يهوذا بن يعقوب.. [إصحاح متىٰ الأول، عدد (١٠)].

٢- وفي إنجيل [يوحنا إصحاح (٢) عدد (٤)] أن يسوع أهان أمَّه في وسط جمع من الناس.

فأين هذا مما وصفه به القرآن ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم:٣٢].

٣- وأن يسوع شهد بأن جميع الأنبياء الذين قاموا في بني إسرائيل هم سراق ولصوص.. [إنجيل يوحنا، إصحاح (١٠) عدد (٨)].

هذا غيض من فيض مما تطفح به تلك الأناجيل المحرفة من وصف الأنبياء والرسل بما هم بريئون منه، إن الأنبياء والرسل أزكىٰ الناس وأطهرهم وأفضلهم، ووالله إن هؤلاء لضالون فيما وصفوا به أنبياء الله الأبرار الأطهار.

ولذا فإن الأمة الإسلامية هي المدافعة عن الأنبياء والرسل، المشيدة بمآثرهم، فهي وارثة الأنبياء، المقيمة لدينهم، بخلاف ما عليه اليهود والنصارىٰ تجاه أنبيائهم.

رابعًا: العصمة من الصغائر:

ذهب أكثر علماء الإسلام إلىٰ أن الأنبياء ليسوا معصومين من الصغائر، وقال ابن تيمية: «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف، حتىٰ إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أنّ هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضًا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلّا ما يوافق هذا القول..».

الأدلة: وقد استدل جماهير العلماء علىٰ دعواهم بأدلة:

١- معصية آدم بأكله من الشجرة التي نهاه الله تعالىٰ عن الأكل منها، ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه: ١١٦-١٢١].

والآية في غاية الوضوح والدلالة علىٰ المراد، فقد صرحت بعصيان آدم ربه.

٢- ونوح دعا ربه في ابنه الكافر ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود:٤٥]، فلامه ربه علىٰ مقالته هذه، وأعلمه أنّه ليس من أهله، وأن هذا منه عمل غير صالح ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود:٤٦] فاستغفر ربّه من ذنبه وتاب وأناب ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [هود:٤٧].

والآية صريحة في كون ما وقع منه كان ذنبًا يحتاج إلىٰ مغفرة ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ ...﴾.

٣- وموسىٰ أراد نصرة الذي من شيعته، فوكز خصمه فقضىٰ عليه ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [القصص: ١٥-١٦]، فقد اعترف موسىٰ بظلمه لنفسه، وطلب من الله أن يغفر له، وأخبر الله بأنه غفر له.

٤- وداود عَلَيْهِ السَّلَامُ تسرّع في الحكم قبل سماع قول الخصم الثاني، فأسرع إلىٰ التوبة فغفر الله له ذنبه ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص: ٢٤-٢٥].

٥- ونبينا محمد ﷺ عاتبه ربه في أمور ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم:١] نزلت بسبب تحريم الرسول ﷺ العسل علىٰ نفسه، أو تحريم مارية القبطية.

وعاتبه ربه بسبب عبوسه في وجه الأعمىٰ ابن أم مكتوم، وانشغاله عنه بطواغيت الكفر يدعوهم إلىٰ الله، والإقبال علىٰ الأعمىٰ الراغب فيما عند الله هو الذي كان ينبغي أن يكون من الرسول ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ [عبس: ١-٤].

وقبل الرسول ﷺ من أسرىٰ بدر الفدية فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال:٦٨].

هذه أمثلة اكتفينا بذكرها عن غيرها، وإلّا فقد ورد في القرآن مغاضبة يونس لقومه، وخروجه من قومه من غير إذن من ربه، وما صنعه أولاد يعقوب بأخيهم يوسف في إلقائه في غيابة الجبّ، ثم أوحىٰ الله إليهم وجعلهم أنبياء.

۞ القائلون بعصمة الأنبياء من الصغائر:

يستعظم بعض الباحثين أن ينسب إلىٰ الأنبياء صغائر الذنوب التي أخبرت نصوص الكتاب والسنة بوقوعها منهم، ويذهب هؤلاء إلىٰ تهويل الأمر، ويزعمون أنّ القول بوقوع مثل هذا منهم فيه طعن بالرسل والأنبياء، ثم يتحاملون في تأويل النصوص، وهو تأويل يصل إلىٰ درجة تحريف آيات الكتاب كما يقول ابن تيمية، وكان الأحرىٰ بهم تفهم الأمر علىٰ حقيقته، وتقديس نصوص الكتاب والسنة، واستمداد العقيدة في هذا الأمر وفي كل أمر من القرآن وأحاديث الرسول، وبذلك نحكمها في كل أمر، وهذا هو الذي أمرنا به، أمّا هذا التأويل، والتحريف بعد تصريح الكتاب بوقوع مثل ذلك منهم فإنّه تحكيم للهوىٰ، ونعوذ بالله من ذلك.

وقد انتشرت هذه التأويلات عند الكتاب المحدثين، وهي تأويلات فاسدة من جنس تأويلات الباطنية والجهمية، كما يقول ابن تيمية.

۞ شبهتان:

الذين منعوا من وقوع الصغائر من الأنبياء أوردوا شبهتين:

-**الأولى:** أن الله أمر باتباع الرسل والتأسي بهم ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١]، وهذا شأن كل رسول، والأمر باتباع الرسول يستلزم أن تكون اعتقاداته وأفعاله وأقواله جميعها طاعات لا محالة، لأنه لو جاز أن يقع من الرسول معصية لله تعالىٰ لحصل تناقض في واقع الحال، إذ يقتضي أن يجتمع في هذه المعصية التي وقعت من الرسول الأمر باتباعها وفعلها من حيث كوننا مأمورين بالتأسي بالرسول ﷺ، والنهي عن موافقتها من حيث كونها معصية منهي عنها، وهذا تناقض، فلا يمكن أن يأمر الله عبدًا بشيء في حال أنه ينهاه عنه.

وقولهم هذا يكون صحيحًا، لو بقيت معصية الرسول خافية غير ظاهرة، بحيث تختلط علينا الطاعة بالمعصية، أما وأنّ الله ينبه رسله وأنبياءه إلىٰ ما وقع منهم من مخالفات ويوفقهم إلىٰ التوبة منها، من غير تأخير فإنّ ما أوردوه لا يصلح دليلًا بل يكون التأسي بهم في هذا منصبًّا علىٰ الإسراع في التوبة عند وقوع المعصية، وعدم التسويف في هذا، تأسيًا بالرسل والأنبياء الكرام في مبادرتهم بالتوبة من غير تأخير.

-**الثانية:** أنّ هؤلاء توهموا أن الذنوب تنافي الكمال، وأنها تكون نقصًا وإن تاب التائب منها، وهذا غير صحيح، فإنّ التوبة تغفر الحوبة، ولا تنافي الكمال، ولا يتوجه إلىٰ صاحبها اللوم، بل إنّ العبد في كثير من الأحيان يكون بعد توبته من معصيته خيرًا منه قبل وقوع المعصية، وذلك لما يكون في قلبه من الندم والخوف والخشية من الله تعالىٰ، ولما يجهد به نفسه من الاستغفار والدعاء، ولما يقوم به من صالح الأعمال، يرجو بذلك أن تمحو الصالحات السيئات، وقد قال بعض السلف: «كان داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة»، وقال آخر: «لو لم تكن التوبة أحبّ الأشياء إليه لما ابتلىٰ بالذنب أكرم الخلق عليه».

وقد ثبت في الصحاح «**أن الله أشد فرحًا بتوبة عبده من رجل أضلته ناقته بأرض فلاة، وعليها طعامه وشرابه، فنام نومة فقام فوجد راحلته فوق رأسه فقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**».

وفي الكتاب الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٢].

وقال تعالىٰ مبينًا مثوبة التائبين: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ

﴿ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ ...﴾ [الفرقان:٧٠].

وفي يوم القيامة «**يدني الله المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا، فيقول: نعم، أي رب، حتىٰ إذا قرره بذنوبه، ورأىٰ في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**».

ومعلوم أنه لم يقع ذنب من نبي إلَّا وقد سارع إلىٰ التوبة والاستغفار منه، يدلنا علىٰ هذا أن القرآن لم يذكر ذنوب الأنبياء إلَّا مقرونة بالتوبة والاستغفار، فآدم وزوجه عصيا فبادرا إلىٰ التوبة قائلين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف:٢٣].

وما كادت ضربة موسىٰ تسقط القبطي قتيلًا حتىٰ سارع طالبًا الغفران والرحمة قائلًا: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ [القصص:١٦].

وداود ما كاد يشعر بخطيئته حتىٰ خرّ راكعًا مستغفرًا ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ ٢٤﴾ [ص:٢٤].

فالأنبياء لا يقرون علىٰ الذنب، ولا يؤخرون التوبة، فالله عصمهم من ذلك، وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها.

وبذلك انهارت هاتان الشبهتان، ولم يثبتا في مجال الحجاج والنقاش، وحسبنا بالأدلة الواضحة البينة التي تهدي للتي هي أقوم.

السبب في عصمة الأنبياء مما عصموا منه وعدم عصمتهم مما لم يعصموا منه: الرسل والأنبياء بشر من البشر، عصمهم الله في تحمل الرسالة وتبليغها، فلا ينسون شيئًا، ولا ينقصون شيئًا، وبذلك يصل الوحي الذي أنزله الله إلىٰ الذين أرسلوا إليهم كاملًا وافيًا، كما أراده الله جلّ وعلا، وهذه العصمة لا تلازمهم في كلّ أمورهم فقد تقع منهم المخالفة الصغيرة، بحكم كونهم بشرًا، ولكنّ رحمة الله تتداركهم، فينبههم الله إلىٰ خطئهم، ويوفقهم للتوبة والأوبة إليه.

✍ **يقول الشيخ مصطفىٰ المراغي شيخ الجامع الأزهر**: «إنّ الوحي لا يلازم الأنبياء في كلّ عمل يصدر عنهم، وفي كلّ قول يبدر منهم، فهم عرضة للخطأ، يمتازون عن سائر البشر بأنّ الله لا يقرّهم علىٰ الخطأ بعد صدوره، ويعاتبهم عليه أحيانًا».

وهذه الصغائر التي تقع من الأنبياء لا يجوز أن تتخذ سبيلًا للطعن فيهم، والإزراء عليهم، فهي أمور صغيرة ومعدودة غفرها الله لهم، وتجاوز عنها، وطهرهم منها، وعلىٰ المسلم أن يأخذ العبرة والعظة لنفسه من هذه، فإذا كان الرسل الكرام الذين اختارهم الله واصطفاهم عاتبهم الله ولامهم علىٰ أمور كهذه، فإنّه يجب أن نكون علىٰ حذر وتخوف من ذنوبنا وآثامنا، وعلينا أن نتأسىٰ بالرسل والأنبياء في المسارعة إلىٰ التوبة والأوبة إلىٰ الله، وكثرة التوجه إليه واستغفاره.

ذكره صاحب «الرسل والرسالات» الدكتور الأشقر.

قاعدة في دلائل النبوة

اعلم أن ليس كل مدعي النبوة ثبت له ذلك وإنما ثبتت النبوة لمن جاء بدلائل دامغة علىٰ صدق نبوته ونورد بعض هذه الدلائل كما أوردها العلماء.

الآيات والمعجزات التي يجريها الله تصديقًا لرسله:

تعريف الآية والمعجزة:

الآية - في لغة العرب - العلامة الدالة علىٰ الشيء، والمراد بها هنا: ما يجريه الله علىٰ أيدي رسله وأنبيائه من أمور خارقة للسنن الكونية المعتادة التي لا قدرة للبشر علىٰ الإتيان بمثلها، كتحويل العصا إلىٰ أفعىٰ تتحرك وتسعىٰ، فتكون هذه الآية الخارقة للسنة الكونية المعتادة دليلًا غير قابل للنقض والإبطال، يدلُّ علىٰ صدقهم فيما جاؤوا به.

والآيات التي أيد الله عَزَّوَجَلَّ بها أنبياءه ورسله كما جمع أصولها أهل العلم استقراء ثلاثة أمور: العلم، والقدرة، والغنىٰ.

* فالإخبار بالمغيبات الماضية والآتية، كإخبار عيسىٰ قومه بما يأكلونه وما يدخرونه في بيوتهم، وإخبار رسولنا ﷺ بأخبار الأمم السابقة، وإخباره بالفتن وأشراط الساعة التي ستأتي في المستقبل - كل ذلك من باب العلم.

* وتحويل العصا أفعىٰ، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتىٰ، وشقّ القمر وما أشبه هذا - من باب القدرة.

* وعصمة الله لرسوله ﷺ من الناس، وحمايته له ممن أراد به سوءًا، ومواصلته للصيام مع عدم تأثير ذلك علىٰ حيويته ونشاطه من باب الغنىٰ.

وهذه الأمور الثلاثة: العلم، والقدرة، والغنىٰ، التي ترجع إليها المعجزات لا ينبغي أن تكون علىٰ وجه الكمال إلّا لله تعالىٰ، ولذلك أمر الله رسوله ﷺ بالبراءة من دعوىٰ هذه الأمور ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأنعام:٥٠].

فالرسول ﷺ يبرأ من دعوىٰ علم الغيب، وملك خزائن الأرض، ومن كونه مَلَكًا مستغنيًا عن الطعام والشراب والمال. والرسل ينالون من هذه الثلاثة المخالفة للعادة

المطردة، أو لعادة أغلب الناس بقدر ما يعطيهم الله تعالىٰ، فيعلمون من الله ما علمهم إيّاه، ويقدرون علىٰ ما أقدرهم عليه، ويستغنون بما أغناهم به.

أمثلة من معجزات الرُّسل:

أولاً: آية نبي الله صالح:

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف:٧٣].

ثانيًا: معجزة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

حطّم إبراهيم آلهة قومه التي كانوا يعبدونها، فأشعلوا له النار، ورموه فيها، فأمر الله - جل وعلا - النار إلّا تصيبه بأذىٰ وأن تكون عليه بردًا وسلامًا ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

ومن الآيات التي أجراها علىٰ يد إبراهيم إحياء الموتىٰ، وقد قصّ الله علينا خبر ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة:٢٦٠].

ثالثًا: آيات نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أعطىٰ الله موسىٰ تسع آيات بينات ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء:١٠١].

وأعظم هذه الآيات وأكبرها العصا التي كانت تتحول إلىٰ حيّة عظيمة عندما يلقيها علىٰ الأرض ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: ١٧-٢١].

رابعًا: معجزات نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

من معجزاته التي أخبرنا الله بها أنّه كان يصنع من الطين ما يشبه الطيور ثمَّ ينفخ فيها فتصبح طيورًا بإذن الله وقدرته، ويمسح الأكمه فيبرأ بإذن الله، ويمسح الأبرص فيذهب الله عنه برصه، ويمرُّ علىٰ الموتىٰ فيناديهم فيحييهم الله تعالىٰ، وقد حكىٰ القرآن لنا هذا في قوله

تعالىٰ مخاطبًا عيسىٰ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة:١١٠].

۞ خامسا: آيات خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه:

أجرىٰ الله علىٰ يد نبينا محمد ﷺ معجزات باهرات، وآيات مبصرات، إذا نظر فيها مريد الحقّ، دلته علىٰ أنها شهادة صادقة من الله لرسوله ﷺ، وقد عدّها بعض العلماء فنافت علىٰ ألف معجزة، وقد ألف فيها (الشيخ الأشقر) مؤلفات كثيرة لمن أراد الاستزادة من الباب، وتناول هذه المعجزات علماء التوحيد والتفسير والحديث والتاريخ بالشرح والبيان.

ولما كان كل نبي يبعث إلىٰ قومه خاصة وبعث نبينا ﷺ للناس عامة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ:٢٨] كان لابد من معجزة دائمة شاملة كاملة لكل زمان ولكل مكان حية بين يدي الخلق لا ينضب معينها ولا تنفض عجائبها يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها في جميع الأزمان وكافة الأماكن مجتمعين ومتفرقين ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨] حتىٰ تكون عليهم حجة إلىٰ يوم الدين فأجرىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بقدرته وعلمه ورحمته هذه المعجزة المبهرة علىٰ يدي النبي الخاتم الذي بعثه للناس كافة إلىٰ قيام الساعة وانتهاء الزمان والمكان.

لذلك نحن نقول لأصحاب الثرثرة والزندقة من أهل الكفر والشرك ومن أهل الإلحاد خاصة بل لكل من كفر بنبوة محمد ﷺ عامة لا ترهقونا بثرثرتكم ولكن عليكم بأمر واحد وهو تحقيق التحدي الأكبر الذي تحداكم به القرآن نفسه بـ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨]، أو ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود:١٣-١٤]، أو ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

هذا هو التحدي الحقيقي والحجة الدامغة فليجمعوا أمرهم وليأتوا صفًّا وقد أفلح اليوم من استعلىٰ فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا فهو كما قال جل ثناؤه: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٤].

۞ الآية العظمى:

وأعظم الآيات التي أعطيها رسولنا ﷺ، بل أعظم آيات الرسل كلّهم القرآن الكريم، والكتاب المبين، وهو آية تخاطب النفوس والعقول، آية باقية دائمة إلىٰ يوم الدين، لا يطرأ عليها التغيير ولا التبديل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

وقد تحدىٰ الله بهذا الكتاب فصحاء العرب، وقد كانت الفصاحة والبلاغة وجودة القول هي بضاعة العرب التي نبغت بها، وقد عادىٰ العرب دعوة الإسلام ورسول الإسلام، وكان مقتل هذه الدعوة أن يعارض فصحاؤهم هذا الكتاب، ويأتوا بشيء من مثله، ولكنهم عجزوا عن ذلك ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

۞ نمط فريد من المعجزات:

شاء الله تعالىٰ أن تكون معجزة محمد ﷺ نمطًا مخالفًا لمعجزات الرسل، وكان الله قادرًا علىٰ أن ينزل معجزة حِسيّة تذهل من يراها: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء:٤]. فلو شاء الله تعالىٰ لأنزل من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالًا، ولا انصرافًا عن الإيمان، ويصور خضوعهم لهذه الآية في صورة حسية: ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء:٤] ملوية محنية، حتىٰ لكأنَّ هذه هيئة لهم لا تفارقهم، فهم عليها مقيمون. ولكنه - سبحانه - شاء أن يجعل معجزة هذه الرسالة الأخيرة آية غير قاهرة، لقد جعل آيتها القرآن، منهاج حياة كاملة.

۞ معجزٌ في كلِّ ناحية:

معجزٌ في بنائه التعبيري، وتنسيقه الفني، باستقامته علىٰ خصائص واحدة، في مستوىٰ واحد، لا يختلف ولا يتفاوت، ولا تتخلف خصائصه، كما هي الحال في أعمال البشر، إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف في عمل الفرد الواحد، المتغير الحالات، بينما

تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيرية علىٰ نسق واحد، ومستوىٰ واحد، ثابت لا يتخلف، يدلّ علىٰ مصدره الذي لا تختلف عليه الأحوال.

معجزٌ في بنائه الداخلي، وتناسق أجزائه وتكاملها، فلا فلتة فيه ولا مصادفة، كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي وتتناسق وتتكامل، وتحيط بالحياة البشرية، وتستوعبها، وتلبيها وتدفعها، دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهج الشامل الضخم مع جزئية أخرىٰ، ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية، إذ تقصر عن تلبيتها.. ، وكلها مشدودة إلىٰ محور واحد، في اتساق لا يمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة، ولا بد أن يكون هناك علم مطلق، غير مقيد بقيود الزمان والمكان، هو الذي أحاط به هذه الإحاطة، ونظمه هذا التنظيم.

معجزًا في يسر مداخله إلىٰ القلوب والنفوس، ولمس مفاتيحها، وفتح مغاليقها، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين، وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات، دون تعقيد ولا التواء ولا مغالطة.

لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة - ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلىٰ التسليم - ذلك أنّ هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة إلىٰ الأمم كلّها، وللأجيال كلها، وليست رسالة مغلقة علىٰ أهل زمان وأهل مكان، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب، لكل أمة ولكل جيل، والخوارق القاهرة لا تلوي إلَّا أعناق من يشاهدونها، ثم تبقىٰ بعد ذلك قصة تروىٰ، لا واقعًا يشهد... .

فأما القرآن فها هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنًا كتاب مفتوح ومنهج مرسوم، يستمدُّ منه أهل هذا الزمان ما يقوِّم حياتهم - لو هدوا إلىٰ اتخاذه إمامهم - ويلبي حاجاتهم كاملة، ويقودهم بعدها إلىٰ عالم أفضل، وأفق أعلىٰ، ومصير أمثل، وسيجد فيه من بعدنا كثيرًا مما لم نجده نحن، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته، ويبقىٰ رصيده لا ينفد، بل يتجدد.

۞ سادسًا: النظر في أحوال الأنبياء:

وذلك جلي واضح في سيرهم لكل متأمل متدبر من حسن خلقهم وزهدهم في الدنيا وعملهم بما يأمرون به الناس وإصلاحهم وصلاحهم والمتأمل يجد هذا قاسمًا مشتركًا بينهم جميعًا مع عظم عبادتهم ورباطة جأشهم وعدم طلبهم للدنيا وخضوعهم لأمر الله

عَزَّوَجَلَّ وعظم تقواهم له في السر والعلانية وغير ذلك من عظائم الأمور الجليلة والزكية مما لا يتسع المجال لذكره.

۞ **النظر في دعواهم:**

فإن دعوة الأنبياء تكاد تكون واحدة فدعواهم جميعًا تنصب في طاعة الله وحده والإذعان له وإقامة التوحيد وهدم الشرك بكل ألوانه وأصنافه وإصلاح المجتمعات والدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وإقامة شرعه وإعلاء كلمته.

۞ **ثم تأييد الله عَزَّوَجَلَّ ونصرته وحفظه لهم:**

فمستحيل أن يؤيد الله عَزَّوَجَلَّ مدعي لنبوة بالكذب ومفتري عليه ما لم ينزل به سلطانًا قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧].

إذًا فهذه بعض الآيات والدلائل التي أيد الله تبارك وتعالىٰ بها من أرسل من البشر مما يعجز عن الإتيان بمثله مخلوق ليثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن هذا نبي من عند الله حقًّا فتقوم به الحجة علىٰ قومه وجدير بالذكر هنا الإشارة للباب الذي صدر به الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه النفيس الجامع الصحيح ألا وهو كتاب بدء الوحي فقد أورد فيه جملة من الأحاديث الصحيحة الدالة علىٰ صدق نبوة محمد ﷺ فتأمله فإنه نافع في بابه جدًّا وهناك مصنفات أفردت لهذا الباب فعلىٰ المستزيد الرجوع إليها.

✍ **قلت**: وخلاصة المسألة: أن الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله واجب لا يتم إيمان العبد إلَّا به ويجب الإيمان بأنهم بشر يوحىٰ إليهم من قبل الله عَزَّوَجَلَّ ويجب الإيمان بأنهم معصومون من الكذب علىٰ الله ومن الخلط في الرسالة ومن كبائر الذنوب قولًا واحدًا وأن الآيات والمعجزات التي أيدهم الله عَزَّوَجَلَّ بها لا يستطيعها مخلوق مهما بلغ وأن هذه المعجزات البينات الباهرات من أعظم أدلة ثبوت النبوة لهم ثم هي أيضًا من أعظم أدلة ربوبيته سبحانه وتعالىٰ وقدرته التي لا حد لها، فوجب بذلك الإيمان بهم وطاعتهم وتوقيرهم وإجلالهم وعدم التقديم بين أيديهم ولا بين يدي كلامهم ونصرتهم والعمل بما جاءوا به وتبليغ دعوتهم لعباد الله وتصديق كل ما جاءوا به تصديقًا جازمًا لا شك ولا ريبة فيه.

القاعدة الثانية والعشرون في الولايات (والمقصود هنا الولاية العظمى)

اعلم - علَّمنا اللهُ وإياك - أنه ليس ثم خلاف يذكر مما سنذكر حول مسألة وجوب الطاعة في المعروف لمن آلت له خلافة المسلمين فتولىٰ أمرهم ولكن الخلاف الدائر بين علماء أهل السنة وفقهائهم في كيفية تولي الخليفة وشروط توليته وبمن تنعقد تولية الخليفة إلىٰ غير ذلك من الأمور التي نذكر منها طرفًا لطيفًا مما جاء في «كتاب الأحكام السلطانية» للماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

۞ في بَيَانِ حُكْمِ الخلافة:

اعلم أنه قد ثَبَتَ وُجُوبُ الْإِمَامَةِ وفَرْضُهَا عَلَىٰ الْكِفَايَةِ كَالْجِهَادِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ، فَإِذَا قَامَ بِهَا مَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِهَا سَقَطَ فَرْضُهَا عَلَىٰ الْكِفَايَةِ، وَإِنْ لَمْ يَقُمْ بِهَا أَحَدٌ خَرَجَ مِنَ النَّاسِ فَرِيقَانِ:

- أَحَدُهُمَا: أَهْلُ الِاخْتِيَارِ حَتَّىٰ يَخْتَارُوا إمَامًا لِلْأُمَّةِ.
- وَالثَّانِي: أَهْلُ الْإِمَامَةِ حَتَّىٰ يَنْتَصِبَ أَحَدُهُمْ لِلْإِمَامَةِ، وَلَيْسَ عَلَىٰ مَنْ عَدَا هَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْأُمَّةِ فِي تَأْخِيرِ الْإِمَامَةِ حَرَجٌ وَلَا مَأْثَمٌ، وَإِذَا تَمَيَّزَ هَذَانِ الْفَرِيقَانِ مِنَ الْأُمَّةِ فِي فَرْضِ الْإِمَامَةِ وَجَبَ أَنْ يُعْتَبَرَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمَا بِالشُّرُوطِ الْمُعْتَبَرَةِ فِيهِ.

فَأَمَّا أَهْلُ الِاخْتِيَارِ فَالشُّرُوطُ الْمُعْتَبَرَةُ فِيهِمْ ثَلَاثَةٌ:

- أَحَدُهَا: الْعَدَالَةُ الْجَامِعَةُ لِشُرُوطِهَا.
- وَالثَّانِي: الْعِلْمُ الَّذِي يُتَوَصَّلُ بِهِ إلَىٰ مَعْرِفَةِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِمَامَةَ عَلَىٰ الشُّرُوطِ الْمُعْتَبَرَةِ فِيهَا.
- وَالثَّالِثُ: الرَّأْيُ وَالْحِكْمَة الْمُؤَدِّيَانِ إلَىٰ اخْتِيَارِ مَنْ هُوَ لِلْإِمَامَةِ أَصْلَحُ، وَبِتَدْبِيرِ الْمَصَالِحِ أَقْوَمُ وَأَعْرَفُ.

۞ الشروط التي ينبغي توافرها في الخليفة:

وَأَمَّا أَهْلُ الْإِمَامَةِ فَالشُّرُوطُ الْمُعْتَبَرَةُ فِيهِمْ سَبْعَةٌ:

- أَحَدُهَا: الْعَدَالَةُ عَلَىٰ شُرُوطِهَا الْجَامِعَةِ.
- وَالثَّانِي: الْعِلْمُ الْمُؤَدِّي إلَىٰ الِاجْتِهَادِ فِي النَّوَازِلِ وَالْأَحْكَامِ.
- وَالثَّالِثُ: سَلَامَةُ الْحَوَاسِّ مِنْ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَاللِّسَانِ؛ لِيَصِحَّ مَعَهَا مُبَاشَرَةُ مَا يُدْرَكُ بِهَا.

- وَالرَّابِعُ: سَلَامَةُ الْأَعْضَاءِ مِنْ نَقْصٍ يَمْنَعُ عَنِ اسْتِيفَاءِ الْحَرَكَةِ وَسُرْعَةِ النُّهُوضِ.
- وَالْخَامِسُ: الرَّأْيُ الْمُفْضِي إِلَىٰ سِيَاسَةِ الرَّعِيَّةِ وَتَدْبِيرِ الْمَصَالِحِ.
- وَالسَّادِسُ: الشَّجَاعَةُ وَالنَّجْدَةُ الْمُؤَدِّيَةُ إِلَىٰ حِمَايَةِ الْبَيْضَةِ وَجِهَادِ الْعَدُوِّ.
- وَالسَّابِعُ: النَّسَبُ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ؛ لِوُرُودِ النَّصِّ فِيهِ وَانْعِقَادِ الْإِجْمَاعِ عَلَيْهِ كما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدِّمُوا قُرَيْشًا وَلَا تَقَدَّمُوهَا**».

۞ بِمَ تنعقد الإمامة؟

والإمامة تنعقد من وجهين:

أحدهما: باختيار أهلِ العقْدِ والحَلِّ. وَالثَّانِي: بِعَهْدِ الْإِمَامِ مِنْ قَبْلُ.

وذكر العلماء اختلافًا فيمن هم أهل الحل والعقد وفي مسألة من اختاره الإمام ليخلفه فمن أراد تفصيلًا في ذلك فعليه الرجوع إلىٰ مصادر البحث وهي كثيرة شافية وافية والحمد لله ومنها مرجعنا في هذا المبحث كتاب (الأحكام السلطانية).

أما ما اتفق عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين فهو ما أورده أهل السنة والجماعة في مصنفاتهم الجامعة لأصول أهل السنة والجماعة وشروحها كما سنورد ذلك بإذن الله تعالىٰ لنثبت أن الخلاف ليس في أمر طاعة ولاة أمور المسلمين وإنما في مسألة شروط الولاية ولوازمها، لما للخروج علىٰ ولاة الأمر من المفاسد التي لا يعلم مداها إلَّا الله وما يترتب علىٰ ذلك من ضياع الدين والعرض والمال والنفس ووقوع الناس في فتن وبلايا تذهب بلب الرجل الحازم نسأل الله العافية.

وبتعبد الناس لله عَزَّوَجَلَّ وخضوعهم لأوامره وصدق اللجوء إليه يُخرج منهم من يسوسهم ويقودهم إلىٰ ما يرضي ربهم ويصلح دنياهم وأُخراهم قال تعالىٰ: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١ ﴾ [الرعد:٩-١١].

وقال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ

مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾
[آل عمران:٢٦-٢٨].

فتأمل تصل بعون الله إلىٰ حقيقة الأمر وإلىٰ ما ينبغي عليك فعله وكيف تزن الأمور بميزان الاعتقاد لا بميزان الهوىٰ والرأي، وصدق من قال: (منكم يولىٰ عليكم وعمالكم أعمالكم) فانتبه؛ علَّمنا اللهُ وإياك.

القاعدة الثالثة والعشرون في وجوب طاعة ولاة الأمور فيما لا معصية فيه لله

قال الله جل ثناؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء:٥٩].

✍ **عن أبي هريرة** رضي الله عنه في قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾، قال: هم الأمراء.

✍ **عن ابن عباس** رضي الله عنهما أنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء:٥٩]، نزلت في رجل بعثه النبي ﷺ علىٰ سرية.

✍ **قال الطبري** رحمه الله في الأولىٰ بتأويل هذه الآية الكريمة هم الأمراء والولاة؛ لصحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان [لله] طعةً، وللمسلمين مصلحة، كالذي جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**سيليكم بعدي ولاة، فيليكم البَرُّ ببِرِّه، والفاجر بفجوره، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق، وصلُّوا وراءهم. فإن أحسنوا فلكم ولهم، وإن أساؤوا فلكم وعليهم**».

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصىٰ الله، ومن عصىٰ أميري فقد عصاني**».

* وقال النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «**اصبر وإن كان عبدًا حبشيًّا**».

* **وقال عمر بن الخطاب** رضي الله عنه: «إن ظلمك فاصبر، وإن حرمك فاصبر».

✍ **قال إمام أهل السنة الإمام المبجل أحمد بن حنبل** رحمه الله: «أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم وترك البدع، وكل بدعة فهي

ضلالة، وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين.

والسنة عندنا آثار رسول الله ﷺ، والسنة تفسر القرآن، وهي دلائل القرآن، وليس في السنة قياس ولا تُضرَب لها الأمثال، ولا تُدرَك بالعقول ولا الأهواء، إنما هي الاتباع وترك الهوىٰ، ومن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقلها ويؤمن بها لم يكن من أهله... فذكر أمورًا ثم قال: والسمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر، ومن ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا به، ومن غلبهم بالسيف حتىٰ صار خليفة وسمي أمير المؤمنين.

والغزو ماض مع الأمراء إلىٰ يوم القيامة، البر والفاجر لا يترك، وقسمة الفيء وإقامة الحدود إلىٰ الأئمة ماضٍ ليس لأحد أن يطعن عليهم ولا ينازعهم، ودفع الصدقات إليهم جائزة ونافذة، من دفعها إليهم أجزأت عنه برًا كان أو فاجرًا.

وصلاة الجمعة خلفه وخلف من ولَّىٰ جائزة تامة ركعتين، من أعادهما فهو مبتدع تارك للآثار مخالف للسنة ليس له من فضل الجمعة شيء، إذا لم ير الصلاة خلف الأئمة من كانوا برهم وفاجرهم، فالسنة أن تصلي معهم ركعتين من أعادهما فهو مبتدع، وتدين بأنها تامة ولا يكن في صدرك من ذلك شك.

ومن خرج علىٰ إمام المسلمين وقد كان الناس اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة بأي وجه كان بالرضا أو بالغلبة فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين وخالف الآثار عن رسول الله ﷺ، فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية.

ولا يحل قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس، فمن فعل ذلك فهو مبتدع علىٰ غير السنة والطريق...».

ثم ذكر بقية الأصول- التي من فارقها لم يكن من أهل السنة-.

وذكر نحوًا من هذا وقريبًا منه الإمام علي بن المديني في عقيدته.

✍ وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: «هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بعروقها المعروفين بها، المقتدىٰ بهم فيها، من لدن أصحاب النبي ﷺ إلىٰ يومنا هذا، وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئًا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج من الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق».

وذكر أمورًا من أصول الاعتقاد منها قوله: «... والانقياد إلىٰ من ولاه الله أمركم، لا تنزع يدًا من طاعته، ولا تخرج عليه بسيفك حتىٰ يجعل الله لك فرجًا ومخرجًا، ولا تخرج علىٰ السلطان، وتسمع وتطيع، ولا تنكث بيعة، فمن فعل ذلك فهو مبتدع مخالف مفارق للجماعة، وإن أمرك السلطان بأمر هو لله معصية، فليس لك أن تطيعه ألبتة، وليس لك أن تخرج عليه ولا تمنعه حقه..».

✍ **وقال الإمام البخاري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم أهل الحجاز ومكة والمدينة والكوفة والبصرة وواسط وبغداد والشام ومصر... وذكر جماعة منهم ثم قال: ما رأيت واحدًا منهم يختلف في هذه الأشياء... فذكر أمورًا منها: وأن لا ننازع الأمر أهله لقول النبي ﷺ: «**ثلاث لا يَغِل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، وطاعة ولاة الأمر، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**». ثم أكد في قوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]: وأن لا يرىٰ السيف علىٰ أمة محمد ﷺ.

✍ **وقال الفضيل**: لو كانت لي دعوة مستجابة لم أجعلها إلَّا في إمام، لأنه إذا صلح الإمام أمن البلاد والعباد. قال ابن المبارك: يا معلم الخير من يجزي علىٰ هذا غيرك».

✍ وقال **أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي**: «سألت أبي وأبا زرعة عن مذهب أهل السنة في أصول الدين وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار وما يعتقدان من ذلك؟ فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازًا وعراقًا وشامًا ويمنًا فكان من مذهبهم... فذكرا أمورًا منها: ... ونقيم الجهاد والحج مع أئمة المسلمين في كل دهر وزمان، ولا نرىٰ الخروج علىٰ الأئمة ولا القتال في الفتنة، ونسمع ونطيع لمن ولاه الله عَزَّوَجَلَّ أمرنا، ولا ننزع يدًا من طاعة، ونتبع السنة والجماعة، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة، فإن الجهاد ماض مذ بعث الله عَزَّوَجَلَّ نبيه عليه الصلاة والسلام إلىٰ قيام الساعة مع ولي الأمر من أئمة المسلمين لا يبطله شيء، والحج كذلك، ودفع الصدقات من السوائم إلىٰ أولي الأمر من أئمة المسلمين...».

✍ **وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَري** وقد قيل له: متىٰ يعلم الرجل أنه علىٰ السنة والجماعة؟ قال: «إذا علم من نفسه عشر خصال: لا يترك الجماعة، ولا يسب أصحاب النبي ﷺ، ولا يخرج علىٰ هذه الأمة بالسيف، ولا يكذب بالقدر، ولا يشك في الإيمان،

ولا يماري في الدين، ولا يترك الصلاة علىٰ من يموت من أهل القبلة بالذنب، ولا يترك المسح عل الخفين، ولا يترك الجماعة خلف كل وال جَارَ أو عَدَل»

✍ **وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي:** «ولا نرىٰ الخروج علىٰ أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرىٰ طاعتهم من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والعافية

✍ **وقال الإمام البربهاري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أن جور السلطان لا ينقص فريضة من فرائض الله التي افترضها علىٰ لسان نبيه ﷺ، جوره علىٰ نفسه، وتطوعك وبرك معه تام إن شاء الله تعالىٰ، يعني الجماعة والجمعة والجهاد معهم وكل شيء من الطاعات فشاركهم فيه، وإذا رأيت الرجل يدعو علىٰ السلطان فاعلم أنه صاحب هوىً، وإذا سمعت الرجل يدعو للسلطان بالصلاح فاعلم أنه صاحب سنة إن شاء الله، يقول الفضيل بن عياض: لو كان لي دعوة ما جعلتها إلَّا في السلطان. فأُمرنا أن ندعو لهم بالصلاح، ولم نؤمر أن ندعو عليهم وإن جاروا وظلموا؛ لأن جورهم وظلمهم علىٰ أنفسهم وعلىٰ المسلمين، وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين».

✍ **وقال الإمام ابن بطة العكبري:** «... ونحن الآن ذاكرون شرح السنة ووصفها وما هي في نفسها، وما الذي إذا تمسك به العبد ودان الله به سُمي بها واستحق الدخول في جملة أهلها، وما إن خالفه أو شيئًا منه دخل في جملة من عبناه وذكرناه وحذر منه من أهل البدع والزيغ، مما أجمع علىٰ شرحنا له أهل الإسلام وسائر الأمة مذ بعث الله نبيه ﷺ إلىٰ وقتنا هذا».

وذكر جملة من هذه الأصول ثم قال: «ثم من بعد ذلك الكف والقعود في الفتنة ولا تخرج بالسيف علىٰ الأئمة وإن ظلموا.

* وقد أجمع العلماء من أهل الفقه والعلم والنسك والعباد والزهاد من أول هذه الأمة إلىٰ وقتنا هذا: أن صلاة الجمعة والعيدين ومنىٰ وعرفات والغزو والحج والهدي مع كل أمير بر وفاجر، وإعْطَاءَهم الخراج والصدقات والأعشار جائز، والصلاة في المساجد العظام التي بنوها، والمشي علىٰ القناطر والجسور التي عقدوها، والبيع والشراء وسائر التجارة والزراعة والصنائع كلها في كل عصر، ومع كل أمير جائز علىٰ حكم الكتاب والسنة، لا يضر المحتاط لدينه والمتمسك بسنة نبيه ﷺ ظلم ظالم ولا جور جائر إذا كان ما يأتيه هو علىٰ حكم الكتاب والسنة، كما أنه لو باع واشترىٰ في زمن الإمام العادل بيعًا

يخالف الكتاب والسنة لم ينفعه عدل الإمام، والمحاكمة إلىٰ قضاتهم ورفع الحدود والقصاص وانتزاع الحقوق من أيدي الظلمة بأمرائهم وشرطهم، والسمع والطاعة لمن والوه وإن كان عبدًا حبشيًّا إلَّا في معصيته الله عَزَّوَجَلَّ، فليس لمخلوق فيها طاعة، ثم من بعد ذلك اعتقاد الديانة بالنصيحة للأئمة وسائر الأمة في الدين والدنيا، ومحبة الخير لسائر المسلمين، تحب لهم ما تحب نفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك».

✍ **وقال أبو منصور معمر بن أحمد الأصبهاني** في رسالته التي جمعها في السنة لما رأىٰ غربة السنة وكثرة الحوادث واتباع الأهواء.. قال: «ثم من السنة الانقياد للأمراء والسلطان بأنه لا يخرج عليهم بالسيف وإن جاروا، وأن يسمعوا له وأن يطيعوا وإن كان عبدًا حبشيًّا أجدع، ومن السنة الحج معهم والجهاد معهم وصلاة الجمعة والعيدين خلف كل بر وفاجر...».

وقال في تمامها: «ويشهد لهذا الفصل المجموع من السنة كتب الأئمة، فأول ذلك كتاب «السنة» عن عبد الله بن أحمد بن حنبل وكتاب «السنة» لأبي مسعود وأبي زرعة وأبي حاتم، وكتاب «السنة» لعبد الله بن محمد بن النعمان وكتاب «السنة» لأبي عبد الله محمد بن يوسف البنا الصوفي - رحمهم الله أجمعين - ثم كتب «السنن» للمتأخرين مثل أبي أحمد العسال، ألفوا كتب السنة، فاجتمع هؤلاء كلهم علىٰ إثبات هذا الفصل من السنة...».

✍ **وقال الإمام أبو إسماعيل الصابوني**: «ويرىٰ أصحاب الحديث الجمعة والعيدين وغيرهما من الصلوات خلف كل إمام مسلم برًا كان أو فاجرًا، ويرون جهاد الكفرة معهم وإن كانوا جورة فجرة، ويرون الدعاء لهم بالإصلاح والتوفيق والصلاح وبسط العدل في الرعية، ولا يرون الخروج عليهم بالسيف، وإن رأوا منهم العدول عن العدل إلىٰ الجور والحيف، ويرون قتال الفئة الباغية حتىٰ ترجع إلىٰ طاعة الإمام العدل».

✍ **وقال التيمي**: «فصل يتعلق باعتقاد أهل السنة ومذهبهم... وطاعة أولي الأمر واجبة، وهي من أوكد السنن، ورد بها الكتاب والسنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق).

والنقول عن أهل السنة والجماعة في تقرير هذا الأصل الثابت كثيرة جدًّا، ولا يخلو كتاب من كتب أهل السنة والجماعة المؤلفة في شرح السنة وأصول الاعتقاد من تقرير هذا الأصل وبيانه وشرحه. هذا والله تعالىٰ أعلىٰ وأعلم.

ثم اعلم - يرحمك الله - أن الله عَزَّوَجَلَّ يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:٢٦].

وأنه بحكمته وعدله يولي على الناس من هو على شاكلتهم، كما قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (منكم يولى عليكم وعمالكم أعمالك) فليرجع الناس إلى ربهم ويتوبوا إليه يولي عليهم الصالحين جزاءً وفاقًا ويرسل عليهم الأرزاق ويبارك لهم في معايشهم وإن لم يفعلوا ذلك ولّى عليهم شرارهم وسلطوا عليهم بذنوبهم فساموهم أشد العذاب ورفعت البركة وسلط الزوجات والأولاد والبطون والشهوات، ولعذاب الآخرة أشق وأبقى ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٨]. فانتبه!

۞ فتوى العلماء في حكم الخروج في المظاهرات:

جاء في فتاوى اللجنة الدائمة كما ننصح كل مسلم ومسلمة بالابتعاد عن هذه المظاهرات الغوغائية التي لا تحترم مالًا ولا نفسًا ولا عِرضًا، ولا تمت إلى الإسلام بصلة، ليسلم للمسلم دينه ودنياه، ويأمن على نفسه وعرضه وماله. وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	عضو	عضو	نائب الرئيس
بكر أبو زيد	صالح الفوزان	عبد الله بن غديان	عبد العزيز آل الشيخ

الرئيس

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

فصل

في بيان عدم جواز الخروج على ولاة الأمر إلاَّ بضوابط

أولًا: أن يَرى كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان:

* فعن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من خلع يدًا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية**» رواه مسلم.

ومعنىٰ الحديث: أنه لا يجوز الخروج علىٰ الحاكم (ولي الأمر) إلَّا أن يرىٰ منه كفرًا بواحًا، كما جاء ذلك في الحديث الصحيح.

* وقَالَ عبادة بن الصامت – وَهُوَ مِنَ السَّبْعَةِ النقباء يوم العقبة -: «**بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ السَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَلا نُنَازِعُ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، ونَقُولُ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ**» قَالَ سُفْيَانُ: (زَادَ بَعْضُ النَّاسِ: **مَا لَمْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا**) رواه أحمد بسند صحيح.

ثانيا: القدرة:

ومعنىٰ القدرة أي أن يكون عند الناس قدرة توازي قدرة هذا الحاكم الكافر وإلا فالمفاسد التي تترتب علىٰ الخروج عليه مع عدم وجود القدرة أو ضعفها أعظم بكثير من مفاسد وجوده وذلك مصداقًا لقوله جل ثناؤه ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [الطلاق:٧]، فكيف نكلف الناس ما لم يكلفهم الله عَزَّوَجَلَّ به فهذا من الحنق الذي يهلك الخلق بغير حق.

ثالثًا: وجود البديل المسلم:

ومعنىٰ البديل المسلم أي الذي يكون مسلمًا عدلًا قويًّا يستطيع أن يقيم دين الله عَزَّوَجَلَّ في رعيته، وإلا ما فائدة أن نخرج علىٰ كافر ليأتي كافر، أو نخرج علىٰ من لا يقيم شرع الله ليأتي من لا يستطيع إقامة الشرع، بعد أن تُسفك دماء وتُهتك أعراض وتضيع بلاد ويستبيح الأعداء بيضة الأمة.

إذًا فهذه ثلاثة قواعد لا يجوز الخروج علىٰ حاكم إلَّا بوجودها فعليًّا، ثم من يستطيع أن يحكم بكفر معين من أهل القبلة يظهر الإسلام إلَّا أن يكون عالمًا ربانيًّا إمامًا بأصول الشريعة محيطًا بالواقع عالمًا به، متجردًا لله عَزَّوَجَلَّ مقيمًا للحجة علىٰ هذا المعين سواء كان هذا المعين الذي سيحكم عليه (حاكمًا أو محكومًا) لأنه لابد من وحصول شروط وانتفاء الموانع كما ذكر أهل العلم ذلك بالتفصيل في بابه.

واعلم – علَّمنا اللهُ وإياك – أن ما يحاك للأمة المسلمة في هذا الزمان واضح بين للعيان، ولكن لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد، فالواقع الذي يغفل عنه الكثير

من الناس أن الأمة الآن واقعة تحت الاحتلال الفكري والاقتصادي بل والعسكري في كثير من الأحيان وأنها تخضع خضوعًا كاملًا لذلك حُكامًا ومحكومين ومن قال بغير ذلك فإنما هو مغفل أو مستغفَل أو مستغفِل للناس للوصول إلىٰ مآربه وأهدافه الخبيثة الدنيئة، وهناك يد خفية تسعىٰ في الخفاء لتدمير الأمة بيد الأمة وأبناء الأمة وأموال الأمة، فهم يفرضون علىٰ الناس أنواعًا عديدة من الحصار منها الحصار الاقتصادي المهيمن علىٰ سبيل المثال لكي يتحكموا في قراراتها ومقدراتها، بعد أن فتحوا عليها أبواب الشهوات والملذات الزائفة، فتصبح الأمة مستهلكة لا منتجة وهم ينتجون لهم ما يأكلون وما يشربون وما يلبسون وما يركبون بعد أن عودوهم علىٰ ملبوس بعينه ومطعوم بعينه ومشروب بعينه ومركوب بعينه ففرضوا عليها فكرهم وحثالة عاداتهم المقيتة ففتحوا عليهم أبواب الرفاهية والراحة ولكن لا تدري الأمة أن ثمن ذلك باهظ جدًّا فثمن ذلك حرية الأمة وحرية قرارها.

فتنفق الأمة علىٰ الدخان مثلًا مليارات وعلىٰ ملابس النساء مليارات وعلىٰ مساحيق التجميل مليارات وهكذا علىٰ مراكبهم وعلىٰ شهواتهم ولذاتهم بل وعلىٰ ما يشاهدون من سفاسف الأمور من مسلسلات وأفلام ومباريات فتضيع أموال الأمة وأوقات الأمة وهِمة الأمة وشباب الأمة ونساء الأمة ورجال الأمة فتصبح أمة مهلهلة مهربدة، ثم يُمزقون الأمة عن طريق الفرق والأحزاب والجماعات والطوائف التي هي والله من صنع أعداء الأمة وهم الذين ابتدعوهم وهم الذين مولوهم، وآووا قادتهم وسادتهم ثم دفعوهم لتدمير أمتهم من حيث يعلم هؤلاء المستغفلون أو لا يعلمون.

وبذلك تحتاج الأمة إلىٰ الاقتراض فيقرضوهم ليستذلوهم ويخضعوهم فتصبح الأمة أسيرة للقروض وأسيرة للقرود، أسيرة لشهواتها وملذاتها بعد أن أصبحت هذه المعاصي والرفاهيات من الضروريات التي لا يستطيع أحد أن يتكلم فيها ناهيك عن أن يمنعها أو يحجبها عن الناس.

فمثلًا لو جاء حاكم أو حكيم وقال للناس: سنلغي المباريات أو نوقف الشاتات أو نغلق مواقع التواصل أو نمنع الشبكة العنكبوتية إلَّا من الضرورات أو نمنع الدخان أو نغلق الملاهي لمزقت الجماهير أمعاءه ولأخرجت أحشاءه ولرجم حتىٰ الموت من عامة الناس قبل خواصهم.

ثم يأتي هؤلاء المرتزقة من أعداء الأمة بعد ذلك ويقولون للناس أين الحرية والديمقراطية بل ويدفعون بالجهلة من أبناء الأمة ويقلبونهم علىٰ العامة والخاصة علىٰ الحكام والمحكومين بدعوىٰ أنهم لا يطبقون شرع الله ولا يقيمون حدوده ويدفعون إليهم أمولًا وعتادًا ويدربونهم ويؤهلونهم ثم يدفعونهم لقتال الأمة وسبي نسائها من المسلمين والمسلمات بدعوىٰ أنهم مرتدون وأن حكامهم قد كفروا بعد إيمانهم وأن هؤلاء هم المنقذون الذين سيقيمون دولة الإسلام (وهيهات هيهات لما توعدون).

فبدلًا من أن يوجهوا مدافعهم وبنادقهم إلىٰ صدور الصهاينة المعتدين أو الصليبيين المحتلين وجَّهُوها إلىٰ صدور الأمة المستضعفة المستغفلة فحاربوا الإسلام باسم الإسلام فدحرهم الله وأضلهم وأعمىٰ أبصارهم ونسأل الله أن يجعلهم عبرة وآية لمن خلفهم وأن يفضح سريرتهم ويظهر للناس ما هم عليه من الضلال والحنق والتآمر علىٰ أمة محمد ﷺ ولو كان فيهم خير لردوا الأمر إلىٰ الله ورسوله وإلىٰ أهل العلم الربانيين من الأموات والأحياء، لكن ومن يهدي من أضل الله.

ثم هناك من يقلب الناس علىٰ ولاة أمورهم ويدفعهم للخروج عليهم بدعوىٰ الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية وهو يعلم أن الكل محكوم من الخارج ويدرك أن الذي يدير دفة الأمور علىٰ الحقيقة الدول الكبرىٰ التي تتحكم في كل ما يخص هذه الشعوب وأن أحدًا من الخلق لا يستطيع أن يغير شيئًا لا قليلًا ولا كثيرًا إلَّا أن يشاء الله أمرًا لأن الحصار محكم ونحن في زمن الحصاد المر، فهم يعلمون ذلك علم اليقين ولكن لطمعهم يضللون الشعوب حتىٰ إذا وقع الناس في المحذور وخرجوا علىٰ حكامهم فتش هؤلاء علىٰ شيء من الغنيمة وتركوا الناس يمزق بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضًا وجلسوا هم بعد ذلك علىٰ موائد المفاوضات وفنادق المباحثات وقصور المعاهدات ووالله الذي لا إله غيره لو رميت لأحدهم عظمة من فضلات أسيادهم لولوا إليها وهم يجمحون لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمةً، إلَّا ما رحم ربي.

يا أخي العزيز إنها دائرة المصالح الدنيئة فكلٌّ يبكي علىٰ ليلاه وكل يغرد لأجل سربه، فإياك أن تنخدع بهؤلاء وأمثالهم وانظر إلىٰ مآلات الأمور وعواقبها واعلم أن التغيير يأتي من عند واحد هو خالق السماوات والأرض ومدبر الأمر فيهما وأنه لا يغير حتىٰ نتغير فلنربي الناس أولًا علىٰ الرجوع إلىٰ ربهم والاستغناء عن الشهوات المصدرة لهم من أعدائهم والزهد في المعاصي بل وفي فضول المباحات فصدق الصادق المصدوق حين

قال «فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَىٰ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ».

وصدق الرب الكريم حين أعلم وعلَّم وأصَّل لعباده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد:١١].

❁

القاعدة الرابعة والعشرون في وجوب محبة الصحابة والترضي عليهم والذب عنهم واقتفاء آثارهم والتمسك بمنهجهم

أولاً: تعريف الصحابي وعدد الصحابة وطبقاتهم رضي الله عنهم:

✍ **ذكر الإمام القسطلاني في «المواهب»** وغيره: أن الصحابي هو من صحب النبي ﷺ من المسلمين أو رآه ولو ساعة وهو مؤمن به ومات علىٰ ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: والصحابة ثلاثة أصناف:

الأول: المهاجرون. **الثاني:** الأنصار. **الثالث:** من أسلم يوم الفتح.

✍ **قال ابن الأثير في «جامع الأصول»:** والمهاجرون أفضل من الأنصار، وهذا علىٰ سبيل الإجمال.

وأما علىٰ سبيل التفصيل فإن جماعة من سباق الأنصار أفضل من جماعة من متأخري المهاجرين، وإنما سباق المهاجرين أفضل من سباق الأنصار.

ثم هم بعد ذلك متفاوتون، فرب متأخر في الإسلام أفضل من متقدم عليه مثل عمر بن الخطاب وبلال بن أبي رباح.

✍ **قال القسطلاني:** وقد ذكر العلماء للصحابة ترتيبًا علىٰ طبقات:

- **الطبقة الأولىٰ:** قوم أسلموا بمكة أول المبعث، وهم سباق المسلمين مثل خديجة بنت خويلد، وعلي بن أبي طالب، وأبي بكر، وزيد بن حارثة، وبقية العشرة رضي الله عنهم .

- الطبقة الثانية: أصحاب دار الندوة، بعد إسلام عمر بن الخطاب ﵁ حمل النبي ﷺ ومن معه من المسلمين علىٰ الذهاب إلىٰ دار الندوة فأسلم لذلك جماعة من أهل مكة.

- الطبقة الثالثة: الذين هاجروا إلىٰ الحبشة فرارًا بدينهم من أذىٰ المشركين، منهم جعفر بن أبي طالب، وأبو سلمة ابن عبد الأسد.

- الطبقة الرابعة: أصحاب العقبة الأولىٰ، وهم سباق الأنصار إلىٰ الإسلام، وكانوا ستة، وأصحاب العقبة الثانية من العام المقبل، وكانوا اثني عشر رجلًا.

- الطبقة الخامسة: أصحاب العقبة الثالثة، وكانوا سبعين من الأنصار منهم البراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة.

- الطبقة السادسة: المهاجرون الذين وصلوا إلىٰ النبي ﷺ بعد هجرته وهو بقباء قبل أن يبني المسجد وينتقل إلىٰ المدينة.

- الطبقة السابعة: أهل بدر الكبرىٰ، قال ﷺ لعمر في قصة حاطب بن أبي بلتعة: «**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَىٰ هَذِهِ الْعِصَابَةِ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» رواه البخاري ومسلم.

- الطبقة الثامنة: الذين هاجروا بين بدر والحديبية.

- الطبقة التاسعة: أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا بالحديبية تحت الشجرة. قال ﷺ: «**لا يَدْخُلُ النَّارَ، إِنْ شَاءَ اللهُ، مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**» رواه مسلم.

- الطبقة العاشرة: الذين هاجروا بعد الحديبية وقبل فتح مكة كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص.

- الطبقة الحادية عشر: الذين أسلموا يوم الفتح، وهم خلق كثير.

- الطبقة الثانية عشر: صبيان أدركوا النبي ﷺ ورأوه يوم الفتح وبعده في حجة الوداع وغيرها، كالسائب بن يزيد. انتهىٰ كلام المواهب. ونسب هذا التقسيم إلىٰ الحافظ أبي عبد الله الحاكم في كتاب «علوم الحديث».

✍ **قال الإمام الزرقاني في شرحه عليها**: وقال ابن سعد: إنهم خمس طبقات:

- الأولىٰ: البدريُّون. (أي من شهد بدرًا مقاتلًا مع النبي ﷺ).

– **الثانية**: من أسلم قديمًا ممن هاجر عامتهم إلىٰ الحبشة وشهدوا أُحدًا فما بعدها.

– **الثالثة**: من شهد الخندق فما بعدها.

– **الرابعة**: مسلمة الفتح فما بعدها.

– **الخامسة**: الصبيان والأطفال ممن لم يغز.

✍ **قال صاحب (المواهب)**: وأما عدة أصحابه ﷺ ، فمن رام حصر ذلك رام أمرًا بعيدًا، ولا يعلم حقيقة ذلك إلَّا الله تعالىٰ، لكثرة من أسلم من أول البعثة إلىٰ أن مات النبي ﷺ وتفرقهم في البلدان والبوادي.

وقد روىٰ البخاري أن كعب بن مالك رضي الله عنه قال في قصة تخلفه عن غزوة تبوك: «وأصحاب رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ» يعني الديوان. لكن قد جاء ضبطهم في بعض مشاهده كتبوك.

وقد روي أنه سار عام الفتح لمكة في عشرة آلاف من المقاتلة، وإلىٰ حنين في اثني عشر ألفًا، وإلىٰ حجة الوداع في تسعين ألفًا وقيل مائة ألف وأربعة عشر ألفًا ويقال أكثر من ذلك حكاه البيهقي، وإلىٰ تبوك في سبعين ألفًا.

وقد روي أنه ﷺ قُبض عن مائة ألف وأربعة وعشرين ألفًا، والله أعلم بحقيقة ذلك، انتهىٰ كلام صاحب «المواهب».

✍ **وقال شارحها المذكور**: وجاء عن أبي زرعة الرازي أنه قيل له: أليس يقال حديث النبي ﷺ أربعة آلاف حديث؟ فقال: ومن قال ذا؟ فلق الله أنيابه، هذا قول الزنادقة، قبض رسول الله ﷺ عن مائة ألف وأربعة عشر ألفًا من الصحابة ممن روىٰ عنه وسمع منه، وفي رواية ممن رآه وسمع منه، فقيل له: هؤلاء أين كانوا وأين سمعوا منه؟ قال: أهل المدينة وأهل مكة ومن بينهما والأعراب ومن شهد معه حجة الوداع، كل رآه وسمع منه بعرفة.

✍ **قال ابن فتحون في «ذيل الاستيعاب»**: وأجاب أبو زرعة بهذا سؤال من سأله عن الرواة خاصة، فكيف بغيرهم؟ قال الحافظ، يعني ابن حجر: ولم يحصل لجميع من جمع أسماء الصحابة العشر من أساميهم بالنسبة إلىٰ قول أبي زرعة هذا، فإن جميع ما في «الاستيعاب» ثلاثة آلاف وخمسمائة، وزاد عليه ابن فتحون قريبًا من ذلك. وبخط الحافظ الذهبي علىٰ «التجريد»: لعل الجميع ثمانية آلاف إن لم يزيدوا لم ينقصوا، قال، يعني الحافظ ابن حجر: ورأيت بخطه أيضًا أن جميع من في «أسد الغابة» سبعة آلاف وخمسمائة وأربعة وخمسون نفسًا.

وسبب خفاء أسمائهم أن أكثرهم أعراب وأكثرهم حضروا حجة الوداع. اهـ.

وعن الشافعي: قُبض ﷺ عن ستين ألفًا، ثلاثون بالمدينة، وثلاثون في قبائل العرب وغيرها.

وعن أحمد: قبض ﷺ وقد صلىٰ خلفه ثلاثون ألف رجل. كأنه عنىٰ بالمدينة، فلا يخالف ما فوقه.

والله أعلم بحقيقة ذلك، فإن كل من قال شيئًا إنما حكاه علىٰ قدر تتبعه ومبلغ علمه أو أشار بذلك إلىٰ وقت خاص وحال، فإذن لا تضارب بين كلامهم اهـ.

وعن مالك: مات بالمدينة نحو عشرة آلاف نفس من الصحابة. انتهىٰ كلام الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

قاعدة في عقيدة أهل السنة والجماعة في صحابة النبي ﷺ رضوان الله عليهم أجمعين

قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «عقيدته»: ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الحق يذكرهم، ولا نذكرهم إلَّا بالجميل، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان، ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولًا لأبي بكر الصديق رضي الله عنه تفضيلًا له وتقديمًا علىٰ جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم لعثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون، وأن العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ نشهد لهم بالجنة كما شهد رسول الله ﷺ، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير بن العوام، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وهو أمين هذه الأمة، رضوان الله عليهم أجمعين.

ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه وذرياته فقد برئ من النفاق.

وعلماء السلف من السابقين والتابعين ومن بعدهم من أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يذكرونهم إلَّا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو علىٰ غير السبيل. انتهت عبارة الإمام الطحاوي في «عقيدته».

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «الشفاء»: ومن توقيره ﷺ وبره توقير أصحابه وبرهم ومعرفة حقهم، والاقتداء بهم وحسن الثناء عليهم، والاستغفار لهم، والإمساك عما شجر بينهم، ومعاداة من عاداهم، والإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة وضلال الشيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم، وأن يلتمس لهم فيما نقل عنهم من مثل ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات والمحامل ويخرجه أصوب المخارج، إذ هم أهل ذلك، ولا يذكر أحدًا منهم بسوء ولا يغمض عليه أمرًا، بل يذكر حسناتهم وفضائلهم وحميد سيرهم ويسكت عما وراء ذلك، كما قال ﷺ في حديث الطبراني عن ابن مسعود: «إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا»، وقال الله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٩].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠].

* وقال الله تعالىٰ: ﴿۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح:١٨].

* وقال الله تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب:٢٣].

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أحاديث وآثارًا كثيرة في فضلهم رضي الله عنهم.

* منها: قوله ﷺ في حديث الترمذي: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد أذى الله تعالىٰ، ومن آذى الله تعالىٰ يوشك أن يأخذه»، وأذية الله تعالىٰ عبارة عن فعل ما لا يرضاه، إذ معناه الحقيقي لا يتصور في حقه تعالىٰ فهو مشاكلة، قاله الشهاب الخفاجي.

* منها: قوله ﷺ في حديث مسلم: **«لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه»**.

* منها: قوله ﷺ في حديث الديلمي وأبي نعيم: **«مَن سبَّ أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا»** الصرف: النفل، والعدل: الفرض.

* منها: قوله ﷺ في حديث البزار والديلمي عن جابر: **«إن الله اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختار لي منهم أربعة: أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليًّا، فجعلهم خير أصحابي، وفي أصحابي كلهم خير»**.

✍ **قال الشهاب الخفاجي** في شرح هذا الحديث: فكلهم علماء عدول كما في الحديث: **«خير القرون قرني ثم ... وثم ....»** وهذا سبب ما حكاه إمام الحرمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في الإجماع على عدالتهم كلهم صغيرهم وكبيرهم، فلا يجوز الانتقاد عليهم بما صدر عن بعضهم مما أدى إليه اجتهاده لما أوجب القطع بأنهم خير الناس بعد النبيين والمرسلين ولما اتصفوا به من الهجرة وترك الأهل والأوطان وبذل النفوس والأموال في نصرة الدين وقتل الآباء والأبناء والمناصحة في الدين وقوة الإيمان واليقين وغير ذلك من المنح الإلهية. اهـ.

* ومنها: حديث الطبراني عن خالد بن سعيد أن رسول الله ﷺ لما قدم من حجة الوداع إلى المدينة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: **«أيها الناس إني راض عن أبي بكر اعرفوا له ذلك. أيها الناس إني راض عن عمر وعن عثمان وعن علي وعن طلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف فاعرفوا لهم ذلك، أيها الناس إن الله قد غفر لأهل بدر والحديبية، أيها الناس احفظوني في أصحابي وأصهاري وأختاني لا يطالبنكم أحد منهم بمظلمة فإنها مظلمة لا توهب في القيامة غدًا»**.

* ومنها: حديث أبي نعيم والديلمي عن أنس إن رسول الله ﷺ قال: **«احفظوني في أصحابي وأصهاري فإنه من حفظني فيهم حفظه الله في الدنيا والآخرة، ومن لم يحفظني فيهم تخلى الله عنه، ومن تخلى الله عنه يوشك أن يأخذه»**.

* ومن الآثار: قول الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: **من أبغض الصحابة وسبهم** فليس له في فيء المسلمين حق، قال في «الشفاء»: ونزع -أي استدل- بآية سورة الحشر

وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠]. انتهىٰ كلام «الشفاء».

✍ **وأما شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – فقد قال في «عقيدته»:**

* ومن أصول أهل السنة والجماعة: سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ، كما وصفهم الله به في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر:١٠].

وطاعة النبي ﷺ في قوله: **«لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَه»**.

* ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم، فيفضلون «من أنفق من قبل الفتح وقاتل» وهو صلح الحديبية علىٰ من أنفق من بعده وقاتل، ويقدمون المهاجرين علىٰ الأنصار، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر: **«اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**، وبأنه **«لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»**، كما أخبر به النبي ﷺ، بل قد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

* ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، كالعشرة، وكثابت ابن قيس بن شماس، وغيرهم من الصحابة.

* ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر الصديق ثم عمر، ثم يثلثون بعثمان، ويربعون بعلي كما دلت عليه الآثار، وكما أجمعت الصحابة علىٰ تقديم عثمان في البيعة.

مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي بعد اتفاقهم علىٰ تقديم أبي بكر وعمر أيهما أفضل، فقدم قوم عثمان وسكتوا، أو ربعوا بعلي، وقدم قوم عليًّا، وقوم توقفوا.

لكن استقر أمر أهل السنة علىٰ تقديم عثمان ثم علي، وإن كانت هذه المسألة مسألة عثمان وعلي ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن المسألة التي يضلل المخالف فيها مسألة الخلافة، وذلك بأنهم يؤمنون أن الخليفة بعد

رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء الأئمة فهو أضل من حمار أهله.

* ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ، ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ حيث قال يوم غدير خُمّ: «**أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي**»، وقال أيضًا للعباس عمه وقد شكىٰ إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم فقال: «**والذي نفسي بيده، لا يؤمنون حتىٰ يحبوكم لله ولقرابتي**»، وقال ﷺ : «**إن الله اصطفىٰ بني إسماعيل، واصطفىٰ من بني إسماعيل كنانة، واصطفىٰ من كنانة قريشًا، واصطفىٰ من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**».

* ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين، ويقرون بأنهن أزواجه في الآخرة، خصوصا وخديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده، وأول من آمن به وعاضده علىٰ أمره، وكان لها منه المنزلة العلية، والصديقة بنت الصديق رضي الله عنها التي قال فيها النبي ﷺ : «**فضل عائشة علىٰ النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام**».

* ويتبرؤون من طريقة الروافض، الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، ومن طريقة النواصب، الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل.

* ويمسكون عما شجر بين الصحابة، ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون.

وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتىٰ إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات ما ليس لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ إنهم «**خير القرون**» وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ممن بعدهم.

ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنبًا فيكون قد تاب منه، أو أتىٰ بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته، أو ابُتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة، فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين، إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور لهم.

* ثم القَدْر الذي يُنكَر من فعل بعضهم قليل نزر، مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم، من الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة والنصرة، والعلم النافع، والعمل الصالح.

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما مَنَّ الله به عليهم من الفضائل، علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم هم الصفوة من قرون هذه الأمة، التي هي خير الأمم وأكرمها علىٰ الله تعالىٰ. انتهىٰ كلام ابن تيمية.

وخلاصة المسألة ما ذكرنا في مقدمة البحث من وجوب محبة صحابة رسول الله ﷺ ومن جملتهم أهل البيت الأطهار الأبرار الأخيار عليهم سلام الله ورضوانه أجمعين، والذب عنهم ولعن من لعنهم وبغض من أبغضهم فبحب الله ورسوله أحببناهم وبتكريم الله لهم أكرمناهم وبقربهم من نبيه قربناهم فمن أبغضهم فقد أبغض رسول الله علىٰ الحقيقة، وإن ادعىٰ غير ذلك، ومن أبغض رسول الله فقد أبغض الله أعاذنا الله وإياكم من الضلال وأهله، ونشهد الله أننا نحبهم ونحب من أحبهم ونبغض من أبغضهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود:١٨].

والمتأمل في جميع كتب أهل السنة والجماعة فيما سطروه من إثبات عقيدتهم الصحيحة يجد أنه لا يوجد مصنف ولا شرح إلَّا وذكر فضل صحابة النبي ﷺ وحقهم علىٰ أمة محمد وتبرأ من كل من آذاهم أو لعنهم أو انتقص منهم فإنهم حماة الدين وحملة الرسالة وأنصار الأنبياء والرسل وخاتمهم درة التاج حبيبنا محمد ﷺ وبدونهم ما وصل الإسلام إلينا وما علمنا عن ربنا شيئًا فجزاهم الله عنا وعن الإسلام خير الجزاء وجمعنا بهم مع نبي الأتقياء.

واعلم - رحمنا الله وإياك - أن كل من طعن في أصحاب محمد ﷺ فهو عدو مبين لله ورسوله ودينه وللمؤمنين ولا ريبة عندنا في ذلك، وذلك من جهات:

* **منها** أنه بطعنه في الصحابة طعن في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ لأن الله جل ثناؤه أثنىٰ عليهم في كتابه العزيز أثنىٰ علىٰ أفرادهم كما أثنىٰ علىٰ جماعتهم ويكفي أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أثبت رضوانه عنهم كما جاء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح:١٨].

وقال تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦)﴾ [النساء:٩٥-٩٦].

ويتبين لنا هنا أن الله جل ثناؤه قسمهم إلىٰ قسمين قسم أنفق من قبل الفتح وقسم أنفق من بعد الفتح وهؤلاء هم جميع أصحاب محمد ﷺ جميعًا، فبعد أن ذكرهم قال عنهم: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [النساء:٩٥] (أي الجنة)، وهنا يقع الإشكال علىٰ من زعم أنهم ارتدوا بعد النبي ﷺ فنقول لهؤلاء: أولم يكن الله يعلم أنهم سيرتدون بعد وفاة نبيِّه، أم كان يعلم، فإن قالوا: يعلم، قلنا: فكيف يعِد من ارتد عن دينه بالجنة، وإن قالوا: لا يعلم فقد كفروا.

إذًا فتكفير الصحابة واتهامهم بالنفاق - كما يدعي الرافضة ومن شايعهم - طعن في كتاب الله بل هو طعن في ذات الله (تعالىٰ الله عما يصف الجاهلون علوًّا كبيرًا) لأنه كيف يختار الله لنبيه صحبة سوء، وهل كان الله يعلم بما في صدورهم من سوء وكفر ونفاق أم كان لا يعلم فإن قالوا كان يعلم قلنا وكيف لم يُعلِم نبيه ﷺ بذلك بل كيف لم يحذره منهم كما حذره من المنافقين وأنزل عليه آيات بل سورة باسمهم، وإن قالوا لم يكن الله يعلم فقد كفروا.

- ثم هم بطعنهم في الصحب الكرام يطعنون في رسول الله ﷺ لأنه رضي صحبة الأشرار ومجالسة الفجار (وحاشىٰ لرسول الله) ونقول لهم هل كان النبي ﷺ يعلم بزيغهم وضلالهم وخيانتهم أم كان لا يعلم فإن قالوا كان يعلم قلنا كيف يعلم بذلك ثم يصحبهم إلَّا (عياذًا بالله) أن يكون مثلهم، وإن قالوا لا يعلم قلنا كيف يخبر عن غيب ما في السماوات والأرض والدنيا والآخرة ولا يدري بما يدور حوله بل ما يدور في بيته فهذا أيضًا طعنًا في نبوة محمد ﷺ.

- ثم الطعن في صحابة رسول الله رضوان الله عليهم طعن في الدين بكامله ذلك أنهم حملة الدين فهم من بلغوا عن نبينا الكتاب والسنة فكيف نأتمن من كان كافرًا أو فاسقًا أو منافقًا علىٰ تبليغ حرفٍ عن رسولنا ناهيك عن تبليغ الدين كله.

- ثم الطعن في صحابة النبي ﷺ طعن في عامة أمة محمد بأكملها ذلك أن الأمة تلقت ما أخبروا به بالقبول.

إذًا يُعلم مما تقدم أن من طعنَ وسبَّ وسلبَ وكفَّر صحابة نبينا رضوان الله عليهم إنما أراد إسقاط دين محمد ﷺ بالكلية ولكن لا يستطيع أن يجهر بقوله فيذهب قوله، وإنما يظهر إيمانًا ويبطن كفرًا ثم يمكر فيطعن فيمن يكون الطعن فيهم ذهابًا للدين ثم يدعي بعد ذلك الهراء أنه يدافع عن الدين وعن النبي وعن أهل بيته، فهل هذا كلام يعقله إلَّا من ذهب عقله.

رضي الله عن صحابة رسوله الكريم وجمعنا بهم في جنات النعيم وجزاهم عنا خير الجزاء علىٰ ما حملوا من الدين ودافعوا عن النبي الأمين وحفظوا لنا سنته وصانوا لنا ملته وبذلوا دماءهم وأموالهم ومهجهم في سبيل إعلاء لا إله إلَّا الله ويكفينا من حبهم أن يجمعنا الله بهم فالمرء مع من أحب يوم القيامة ويكفي مبغضهم أن يجمعه الله مع أوثانه التي بغضهم من أجلها.

القاعدة الخامسة والعشرون في وجوب الإيمان باليوم الآخر

اعلم - علَّمنا اللهُ وإياك - أن الإيمان باليوم الآخر من الغيبيات التي ينبغي لكل مسلم أن يؤمن بها ويسلم بكل ما ورد فيها تسليمًا كاملًا، وإن لم يخضع لمعقوله أو يرىٰ بالعين مدلوله ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة:١-٥].

فالغيب كما ذكرنا يقف علىٰ أعتابه العقل ويسلم فيه زمام الأمور للنقل الذي هو مِنْ عند مَنْ آمن وسلم أمره إليه بعد أن أقام الحجة عليه وأعجزه بآياته الباهرة وقدرته المبهرة، ومن هنا ننطلق إلىٰ ركب الآخرة فنتعرف أولًا علىٰ الروح وكيف تخرج من البدن ثم نتعرف علىٰ الموت، ثم علىٰ عذاب القبر، ثم البعث والنشور، ثم موقف الحساب وقيام القيامة، ثم الجنة والنار، وذلك كله لا ينفك عن كتاب الله وصحيح سنة رسوله ﷺ.

أولًا: الروح:

قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

ذكر الموت وخروج الروح:

قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝٢٠﴾ [ق:١٩-٢٠] (١٩).

أعلمنا الله بأن للموت سكرات لا ينجو منها عبد وتكون هذه السكرات عند الاحتضار ونزول الملائكة لقبض روح العبد وقد عاين النبي ﷺ هذه السكرات فقد روىٰ البخاري عن «عائشة ﵂: أن رسول الله ﷺ كانت بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء. فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «**لا إله إلّا الله إن للموت سكرات**» ثم نصب يديه فجعل يقول: «**في الرفيق الأعلىٰ**» حتىٰ قُبض ومالت يده»، وهو أمر معلوم من الشرع ومن النظر، ثم بيَّن لنا عَزَّوَجَلَّ حتمية الموت علىٰ كل خلقه وأنه لابد لكل حي أن يموت نبيًّا كان أو رسولًا قويًّا كان أو ضعيفًا غنيًّا كان أو فقيرًا ملكًا كان أو حقيرًا.

فقال عز من قائل: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٥].

فذكرنا بأن الموت أمر لا مفر منه وأنه أول منازل الآخرة وأن له ما بعده وأن الدنيا دار ممر لا دار مستقر فقال جل ثناؤه: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [البقرة:٣٦].

ثم بيَّن لنا عَزَّوَجَلَّ أنه لا شيء يحول بين الموت وبين العباد وأنه مدرك العبد لا محالة مهما علا شأنه وبلغ ملكه واحترز منه فقال سبحانه: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ ﴾ [النساء:٧٨]، وقال: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة:٨].

وأعلم العباد أن الذي يمنع الموت أن يصل إليهم ليس ما يظنون من أخذ الحيطة والتداوي والذهاب إلىٰ الأطباء أو أكل أصناف معينة أو العيش بطريقة معينة بل عدم حلول الأجل الذي أُجل لهم وأن الحفظة يحفظون العبد ما دام بقي في أجله شيء فإذا حل الأجل فلا عاصم من أمر الله فقال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:٦١-٦٢].

وأن مرد الأمر منه وإليه فلا يغتر العبد بطول الأمد فإنه ملاقي ربه لا محالة فيحاسبه علىٰ ما كان منه ويجازيه به إن كان خيرًا فخير وإن كان شرًّا فشر وهو أسرع الحاسبين.

ثم بيَّن لنا عَزَّوَجَلَّ أن هناك ألوان من العذاب لمن عصىٰ ربه وتكبر وتجبر وذلك حتىٰ عند خروج الروح من الجسد وأن هذا العذاب في غاية المهانة والمذلة والاحتقار لهؤلاء الذين ملأوا الأرض ظلمًا وجورًا وطغيانًا، فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنعام:٩٣].

وذكر لنا عَزَّوَجَلَّ لونًا آخر من عذاب هؤلاء الذين أجرموا في حق ربهم وحق عباده بل وفي حق أنفسهم وهو ندمهم علىٰ ما قصروا في حق الله وتمنيهم العودة إلىٰ الدنيا والرجوع إليها رجاء العمل الصالح وإصلاح ما أفسدوا ليحذرنا من مثل هذا الموقف فنحن مازلنا

في الأمنية فلنستعد ولنتأهب ولنؤدي ما علينا من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله فقال تعالىٰ ذاكرًا ومذكرًا ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

وأخبر سبحانه بأن الذي يتوفىٰ الأنفس علىٰ الحقيقة هو بذاته وذلك من أمره لملائكته فهم علىٰ الحقيقة عباد مقهورون لطاعته وأنه هو خالق تلك النفوس ومقدر آجالها ويتوفاها كل يوم بمشاهدة من الجميع فيميتها الميتة الصغرىٰ (النوم) وفي هذا إنذار وتمهيد وتذكير بالموتة الكبرىٰ وآية من آياته حاضرة بين يدي العباد فقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر:٤٢].

ثم بيَّن بأن الذي يقوم بمباشرة هذه المهمة الملائكة وخص منهم الملائكة الموكلون بقبض أرواح العباد وعلىٰ رأسهم ملك الموت ولم يذكر له اسمًا غير ذلك، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة:١١].

ثم أخبر جل ثناؤه عباده وبشرهم بأن هذه الميتة هي أخيرة لهم فمن أحسن منهم وأطاع ربه وخالف هواه أدخله في نعيم أبدي لا يذوق فيه موتًا أبدًا ولا حتىٰ موتة النوم فقال سبحانه عن أهل طاعته الذين هم أهل جنته ورضوانه ونعيمه: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾

[الدخان:٥٦-٥٧].

وفصَّل لنا نبيه محمد ﷺ بعض التفاصيل عن مسألة خروج الروح وسكرات الموت لننتبه ونستعد لتلك الأحداث التي لا محالة ملاقيها كل مخلوق، فعن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلىٰ القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأنما علىٰ رؤوسنا الطير، قال عمر بن ثابت: وقع ولم يقله أبو عوانة، فجعل يرفع بصره وينظر إلىٰ السماء ويخفض بصره وينظر إلىٰ الأرض، ثم قال: **«أعوذ بالله من عذاب القبر»** قالها مرارًا ثم قال: **«إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، جاءه ملك فجلس عند رأسه فيقول اخرجي أيتها النفس الطيبة**

إلىٰ مغفرة من الله ورضوان فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السقا. قال: وإن كنتم ترون غير ذلك... وتنزل ملائكة من الجنة بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم أكفان من أكفان الجنة، وحنوط من حنوطها. فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك لم يدعوها في يده طرفة عين قال: فذلك قوله تعالىٰ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام:٦١] قال: «فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت، فتعرج به الملائكة فلا يأتون علىٰ جند بين السماء والأرض إلّا قالوا: ما هذه الروح؟ فيقال: فلان، بأحسن أسمائه حتىٰ ينتهوا به أبواب سماء الدنيا فيفتح له، ويشيعه من كل سماء مقربوها حتىٰ ينتهي إلىٰ السماء السابعة، فيقال: اكتبوا كتابه في عليين ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المطففين:١٩-٢١] فيكتب كتابه في عليين. ثم يقال: ردوه إلىٰ الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها نعيدهم، ومنها نخرجهم تارة أخرىٰ، قال: فيرد إلىٰ الأرض، وتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه، فيقولان من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول ربي الله وديني الإسلام، فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان: وما يدريك؟ فيقول: جاءنا بالبينات من ربنا فآمنت به وصدقت قال: وذلك قوله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

قال: «وينادي منادٍ السماء أن قد صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وأروه منزله منها ويفسح له مد بصره. ويمثل عمله له في صورة رجل حسن الوجه طيب الرائحة حسن الثياب فيقول: أبشر بما أعد الله لك أبشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم، فيقول: بشرك الله بخير، من أنت فوجهك الوجه الذي جاء بالخير؟ فيقول: هذا يومك الذي كنت توعد، أو الأمر الذي كنت توعد أنا عملك الصالح فو الله ما علمتك إلّا كنت سريعًا في طاعة الله بطيئًا عن معصية الله فجزاك الله خيرًا. فيقول يا رب أقم الساعة كي أرجع إلىٰ أهلي ومالي.

قال: فإن كان فاجرًا وكان في إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة جاء ملك، فجلس عند رأسه فقال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة أبشري بسخط من الله وغضبه، فتنزل الملائكة سود الوجوه معهم مسوح من نار فإذا قبضها الملك قاموا فلم يدعوها في يده طرفة عين، قال: فتفرق في جسده فيستخرجها، تقطع منها العروق والعصب كالسفود الكثير الشعب في الصوف المبتل، فتؤخذ من الملك فتخرج كأنتن جيفة وجدت فلا تمر علىٰ جند فيما بين

السماء والأرض، إلَّا قالوا ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: هذا فلان بأسوأ أسمائه حتىٰ ينتهوا به إلىٰ سماء الدنيا فلا يفتح لهم، فيقولون: ردوه إلىٰ الأرض إني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها نعيدهم، ومنها نخرجهم تارة أخرىٰ قال: فيرمي به من السماء.

قال: وتلا هذه الآية ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

قال: «فيعاد إلىٰ الأرض وتعاد فيه روحه، ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولون: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: لا أردي. فيقولون: فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه فيقال: محمد، فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون ذلك قال: فيقال: لا دريت، فيضيق عليه قبره حتىٰ تختلف أضلاعه.

ويمثل له عمله في صورة رجل قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب، فيقول: أبشر بعذاب الله وسخطه، فيقول: من أنت فوجهك الذي جاء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث فو الله ما علمتك إلَّا كنت بطيئًا عن طاعة الله سريعًا إلىٰ معصية الله».

وجاء في رواية: (فيقيض له أصم أبكم بيده مرزبة لو ضُرب بها جبلٌ صار ترابًا - أو قال: رميمًا - فيضربه به ضربة تسمعها الخلائق إلَّا الثقلين، ثم تعاد فيه الروح فيضرب ضربة أخرىٰ» لفظ أبي داود الطيالسي وخرجه علي بن معبد الجهني من عدة طرق بمعناه.

وزاد فيه: «ثم يقيض له أعمىٰ أصم معه مرزبة من حديد فيضربه فيدق بها من ذؤابته إلىٰ خصره ثم يعاد فيضربه ضربة فيدق بها من ذؤابته إلىٰ خصره».

وزاد في بعض طرقه عند قوله مرزبة من حديد: «لو اجتمع عليه الثقلان لم ينقلوها. فيضرب بها ضربة فيصير ترابًا ثم تعاد فيه الروح، ويضرب بها ضربة يسمعها من علىٰ الأرض غير الثقلين، ثم يقال: افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له بابًا إلىٰ النار، فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلىٰ النار.

وزاد فيه عند قوله: وانقطاع من الدنيا: «نزلت به ملائكة غلاظ شداد معهم حنوط من نار وسرابيل من قطران يحتوشونه فتنتزع نفسه كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل يقطع معه عروقها، فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك في السماء وكل ملك في الأرض». والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح ورواه غيره.

وفي هذا الأثر بيان واضح في معتقد أهل السنة والجماعة في مسألة الموت وخروج الروح وأين تذهب ومستقرها بعد الموت خلافًا لبعض المذاهب الضالة والفرق الهالكة وهذا بين واضح من كلام الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى.

وختام الأمر فإننا نعتقد بأن الله عَزَّوَجَلَّ خلق الخلق لحكمة عظيمة وغاية جليلة وهي الابتلاء والاختبار لإظهار من يصلح منهم ممن لا يصلح لتقوم الحجة عليهم ويحق القول عليهم وجعل عَزَّوَجَلَّ الموت ملازمًا للحياة الدنيا وهذه مشيئته وتلكموا حكمته فهو الصادق فيما أخبر الحكيم فيما قدر فـ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك:١-٢].

جعلنا الله وإياك ممن كتب لهم السعادة في الدارين وجعلنا من أهل النجاة من الفريقين.

القاعدة السادسة والعشرون في وجوب الإيمان بعذاب القبر ونعيمه

أدلة عذاب القبر ونعيمه كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله:

* قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤] قال أبو سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود: ضنكًا. قال: عذاب القبر.

* وقيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ [الطور:٤٧] هو: عذاب القبر لأن الله ذكره عقب قوله: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الطور:٤٥]، وهذا اليوم هو اليوم الآخر من أيام الدنيا، فدل على أن العذاب الذي هم فيه هو عذاب القبر وكذلك قال: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الطور:٤٧] لأنه غيب.

* وقال: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر:٤٥، ٤٦] فهذا عذاب القبر في البرزخ وسيأتي.

* وفسر ابن عباس قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [التكاثر:٣] ما ينزل فيكم من العذاب في القبر ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [التكاثر:٤]: في الآخرة إذا حل بكم العذاب فالأول في القبر، والثاني في الآخرة فالتكرير للحالتين.

* وروى زر بن حبيش عن علي رضي الله عنه قال: كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت هذه السورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [التكاثر:١-٣] يعني في القبور.

* وعن أبي هريرة موقوفًا قال: «إذا وضع الميت في قبره أتاه آت من ربه فيقول له: من ربك؟ فإن كان من أهل التثبيت ثبت. وقال: الله ربي. ثم يقال له: ما دينك؟ فيقول: الإسلام. فيقول: من نبيك؟ فيقول: محمد ﷺ فيرى بشراه ويبشر. فيقول: دعوني أرجع إلى أهلي فأبشرهم فيقال له: نم قرير العين إن لك إخوانًا لم يلحقوا، وإن كان من غير أهل الحق والتثبيت قيل له: من ربك؟ فيقول: هاه، كالوا له، ثم يضرب بمطراق يسمع صوته الخلق إلَّا الجن والإنس. ويقال له: نم كنومة المنهوس». قال أهل اللغة: المنهوس بالسين المهملة: الملسوع نهسته الحية تنهسه.

* وأخرج البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن ابن عباس قال: مر النبي ﷺ على قبرين فقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير. أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة. وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله فدعا بعسيب رطب فشقه باثنين ثم غرس على هذا واحدًا وعلى هذا واحدًا، ثم قال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا**»، وفي رواية: «**كان لا يستنزه عن البول، أو من البول**» رواهما مسلم. وفي كتاب أبي داود: «**وكان لا يستنثر من بوله**» وفي حديث هناد بن السري «**لا يستبرئ من البول**» من الاستبراء. وقال البخاري: «**وما يعذبان في كبير وإنه لكبير**».

* وروى النسائي «**عن عائشة** رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي امرأة من اليهود. وهي تقول: إنكم تفتنون في القبور. فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «**إنما يفتن يهود**» قالت عائشة: فلبثنا ليالي. ثم قال رسول الله ﷺ: «**هل شعرت أنه أوحي إلي: أنكم تفتنون في القبور؟**» قال عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ «**يستعيذ من عذاب القبر**».

بعض أسباب الوقاية من عذاب القبر:

أولاً: الاستعاذة من عذاب القبر:

* فقد خرج البخاري عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر. ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات. ومن فتنة المسيح الدجال**» والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جدًّا أخرجها الأثبات الثقات.

۞ **ثانيًا: الرباط في سبيل الله:**

* عن النبي ﷺ قال: «**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات مرابطًا جرىٰ عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن من الفتان**». (صحيح)... [مسلم]

۞ **ثالثًا: الشهادة في سبيل الله:**

كالذي جاء عن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ: «**للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرىٰ مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع علىٰ رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه**» لفظ الترمذي، وقال حديث حسن صحيح غريب.

۞ **رابعًا: قراءة سورة الملك:**

كالذي روىٰ الترمذي عن ابن عباس قال: ضرب رجل من أصحاب رسول الله ﷺ خباءه علىٰ قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتىٰ ختمها فأتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ضربت خبائي علىٰ قبر وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا بقبر إنسان يقرأ سورة الملك حتىٰ ختمها. فقال ﷺ: «**هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر**». حديث حسن غريب.

* وخرج أيضًا عنه ﷺ: «**أن من قرأها كل ليلة جاءت تجادل عن صاحبها**».

وروي أنها المجادلة تجادل عن صاحبها - يعني قارئها - في القبر، وروي أن من قرأها كل ليلة لم يضره الفتان.

۞ **خامسًا: الموت بالمرض:**

* روىٰ ابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات مريضًا مات شهيدًا، ووقي فتنة القبر، وَغُدِيَ وَرِيحَ عليه برزقه من الجنة**».

* وخرج النسائي عن جامع بن شداد قال: سمعت عبد الله بن يسار يقول: كنت جالسًا عند سليمان بن صرد، وخالد بن عرفطة فذكرا أن رجلًا مات ببطنه فإذا هما يشتهيان أن يشهدا جنازته. فقال أحدهما للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: «**من يقتله بطنه لم يعذب في قبره**». أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده».

بعض ألوان عذاب القبر المذكورة في السنة:

* وجاء ذلك في حديث سمرة بن جندب قال، قال رسول الله ﷺ «رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي فأخرجاني إلىٰ الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل قائم علىٰ رأسه بيده كلوب من حديد فيدخله في شدقه فيشقه حتىٰ يخرجه من قفاه ثم يخرجه فيدخله في شدقه الآخر ويلتئم هذا الشدق فهو يفعل ذلك به فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق؛ فانطلقت معهما فإذا رجل مستلق علىٰ قفاه ورجل قائم بيده فهر أو صخرة فيشدخ بها رأسه فيتدهده الحجر فإذا ذهب ليأخذه عاد رأسه كما كان فيصنع مثل ذلك فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق؛ فانطلقت معهما فإذا بيت مبني علىٰ بناء التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار فيه رجال ونساء عراة فإذا أوقدت ارتفعوا حتىٰ يكادوا أن يخرجوا فإذا أخمدت رجعوا فيها فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق؛ فانطلقت فإذا نهر من دم فيه رجل وعلىٰ شاطئ النهر رجل بين يديه حجارة فيقبل الرجل الذي في النهر فإذا دنا ليخرج رمىٰ في فيه حجرًا فرجع إلىٰ مكانه فهو يفعل ذلك به فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق؛ فانطلقت فإذا روضة خضراء وإذا فيها شجرة عظيمة وإذا شيخ في أصلها حوله صبيان وإذا رجل قريب منه بين يديه نار فهو يحشها ويوقدها فصعدا بي في شجرة فأدخلاني دارًا لم أر دارًا قط أحسن منها فإذا فيها رجال شيوخ وشباب وفيها نساء وصبيان فأخرجاني منها فصعدا بي في الشجرة فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل فيها شيوخ وشباب فقلت لهما: إنكما قد طوفتماني منذ الليلة فأخبراني عما رأيت قالا: نعم؛ أما الرجل الأول الذي رأيت فإنه رجل كذاب يكذب الكذبة فتحمل عنه في الآفاق فهو يصنع به ما رأيت إلىٰ يوم القيامة ثم يصنع الله تعالىٰ به ما شاء؛ وأما الرجل الذي رأيت مستلقيًا علىٰ قفاه فرجل آتاه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل بما فيه بالنهار فهو يفعل به ما رأيت إلىٰ يوم القيامة؛ وأما الذي رأيت في التنور فهم الزناة؛ وأما الذي رأيت في النهر فذاك آكل الربا؛ وأما الشيخ الذي رأيت في أصل الشجرة فذاك إبراهيم عليه السلام؛ وأما الصبيان الذين رأيت فأولاد الناس؛ وأما الرجل الذي رأيت يوقد النار فذلك خازن النار وتلك النار؛ وأما الدار التي دخلت أولا فدار عامة المؤمنين؛ وأما الدار الأخرىٰ فدار الشهداء؛ وأنا جبريل وهذا ميكائيل؛ ثم قالا لي: ارفع رأسك فرفعت فإذا كهيئة السحاب فقالا لي: وتلك دارك فقلت لهما: دعاني أدخل داري فقالا: إنه قد بقي لك عمر لم تستكمله فلو استكملته دخلت دارك». (صحيح) رواه أحمد والبيهقي.

* وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا: فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنَ البَوْلِ - قَالَ وَكِيعٌ: مِنْ بَوْلِهِ - وَأَمَّا الآخَرُ: فَكَانَ

يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ». ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً، فَشَقَّهَا بِنِصْفَيْنِ، فَغَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ صَنَعْتَ هَذَا؟ قَالَ: «لَعَلَّهُمَا أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا - قَالَ وَكِيعٌ: تَيْبَسَا» رواه أحمد بإسناد صحيح علىٰ شرط الشيخين.

* وعَنْ أَبِي أَيُّوبَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَسَمِعَ صَوْتًا، فَقَالَ: «يَهُودُ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهَا» رواه أحمد بسند صحيح.

* وعَنْ أَبِي بَكْرَةَ، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَمَرَّ عَلَىٰ قَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «مَنْ يَأْتِينِي بِجَرِيدَةِ نَخْلٍ؟» قَالَ: فَاسْتَبَقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ آخَرُ، فَجِئْنَا بِعَسِيبٍ، فَشَقَّهُ بِاثْنَيْنِ، فَجَعَلَ عَلَىٰ هَذَا وَاحِدَةً، وَعَلَىٰ هَذَا وَاحِدَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ سَيُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا كَانَ فِيهِمَا مِنْ بُلُولَتِهِمَا شَيْءٌ»، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ فِي الْغِيبَةِ وَالْبَوْلِ» رواه أحمد بسند قوي.

إذًا فقد ذكرت أحاديث النبي ﷺ جملة من أصناف من يعذبون في قبورهم وجملة من أصناف العذاب الذي يعذبون به وبالحملة نجد أن هذه الآثار تنبئ بأن الكافر ولا شك يعذب في قبره ومن أمثلة ذلك عذاب اليهود وهذا ثابت بالسنة وبكتاب الله قبل ذلك وذلك في قوله تعالىٰ عن كفرة آل فرعون ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر:٤٥-٤٦].

وقوله جل ثناؤه في المنافقين: ﴿ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ﴿١٠١﴾ ﴾ [التوبة:١٠١].

ثم بينت الأحاديث الصحيحة كما أوردنا عذاب أهل الكبائر ممن يغتاب الناس ومن يسعىٰ بين الناس بالنميمة ومن لا يستبرئ من بوله إلىٰ غير ذلك وهذا دليل واضح علىٰ عذاب أهل الكبائر ما لم يتوبوا إلىٰ الله أو يتجاوز الله عمن يشاء علىٰ النحو الذي شاء والله أعلم وأحكم.

وخلاصة المسألة: أن معتقد أهل السنة والجماعة أن هناك حياة واقعة لا يعلم زمنها إلَّا الله تسمىٰ حياة البرزخ كما قال تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠١].

وأنها إما نعيم دائم أو عذاب قائم حتىٰ يُبعث الناس من قبورهم، رغم أنف الملحدين والمنكرين من أهل الجهل والكفر والنفاق ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء:٢٢٧].

وأن هذه الحياة لها قوانين غير قوانين الدنيا وأن وجود الناس في قبورهم مرحلة ما بين الدنيا والآخرة وأن بها سؤالًا وبعض من أصناف وألوان الجزاء فإن كان خيرًا فخير وإن كان شرًّا فشر ولا يعلم الكيفية إلَّا رب البرية وأن ذلك علىٰ النحو الذي أراد سبحانه وتعالىٰ فوجب الإيمان بذلك كما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والاستعداد لتلكم المرحلة التي لابد لكل حي من المكلفين أن يمر بها.

رزقنا الله وإياكم نعيم القبر ونعيم الجنة، وأعاذنا من عذابهما.

القاعدة السابعة والعشرون في وجوب الإيمان بالبعث والنشور

وأدلة ذلك من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ:

* قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج:٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم:٥٥-٥٧].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل:٣٨-٤٠].

* وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج:٦-٧].

والمعني بالبعث كما هو واضح في كل تلك الآيات وغيرها: هو إحياء الناس وبعثهم بعد موتهم لملاقاة ربهم ومثولهم بين يديه للمحاسبة علىٰ كل ما قدموه في حياتهم الدنيا فيجزي تبارك وتعالىٰ المحسن إحسانًا والمسيء سوءًا قال تعالىٰ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:١-٨].

وتنصب الموازين قال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَٰزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

وبيّن لنا عَزَّوَجَلَّ أن هناك تغيرات عظيمة سوف تصحب هذا اليوم بإذن الله تعالىٰ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَٰحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨].

ووضّح لنا النبي ﷺ كيف تُبدل كما جاء عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال **«يحشر الناس يوم القيامة علىٰ أرض بيضاء عفراء كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ، ليس فيها معلم لأحد»**. (صحيح).

وهذا التبديل يأتي في أحداث عظام تبدأ بعلامات وأشراط صغرىٰ ثم كبرىٰ.

ومن علامات الساعة الصغرى:

أولاً: بعثة النبي ﷺ:

كما جاء سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطىٰ»** رواه البخاري.

۞ ثانيًا: انشقاق القمر:

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ١، ٢].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنىٰ إذ انفلق القمر فلقتين، فكانت فلقة وراء الجبل وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: **«اشهدوا»** رواه مسلم.

۞ ثالثًا: نار الحجاز التي أضاءت أعناق الإبل ببصرى لها:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتىٰ تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرىٰ»**.

✍ **قال النووي** رحمه الله: «خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة، وكانت نارًا عظيمة جدًّا، من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة، تواتر العلم بها عند جميع الشام وسائر البلدان، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة» البخاري.

✍ **قلت:** ولعل هذه النار هي المذكورة في الأحاديث الواردة ولعلها غيرها فالعلم عند الله ونسأل الله العافية.

۞ رابعًا: الفتن:

وهي ابتلاءات واختبارات تُبتلىٰ بها الأمة تباعًا كما سيتبين ذلك من أخبار الرسول ﷺ.

* فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»**.

* وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلًا، فمنا من يصلح خباءه، ومنا من ينتضل ومنا من هو في جَشَرِهِ، إذ نادىٰ منادي رسول الله ﷺ الصلاة جامعة، فاجتمعنا إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: **«إنه لم يكن نبي قبلي إلَّا كان حقًّا عليه أن يدل أمته علىٰ خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتن فيرقق بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي، ثم تنكشف فيقول المؤمن هذه هذه، فمن**

أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلىٰ الناس الذي يحب أن يؤتىٰ إليه...» الحديث.

وقد أرشد ﷺ المسلمين إلىٰ ما يعصمهم من هذه الفتن والشرور والآثام فأمرهم بالتعوذ بالله منها وبالابتعاد عنها مع المبادرة بالأعمال الصالحة والإيمان الصحيح بالله واليوم الآخر ولزوم جماعة المسلمين.

* ومن ذلك قوله ﷺ: «**تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن**».

* وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟، قال: «**نعم**»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم، وفيه دخن**»، قلت: وما دخنه؟ قال: «**قوم يهدون بغير هدي، تعرف منهم وتنكر**»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم، دعاة علىٰ أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**»، قلت: يا رسول الله صفهم لنا؟ قال: «**هم من جلدتنا ويتكلمون بسنتنا**»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتىٰ يدركك الموت وأنت علىٰ ذلك**».

إلىٰ غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي يطول حصرها وسردها في هذا المكان، وكلها دالة علىٰ هذا الأمر العظيم الذي نبه عليه رسول الله ﷺ، وحذر أمته من عاقبته، وأرشدهم إلىٰ ما يعصمهم من هذه الشرور والآثام بالتعوذ منها والابتعاد عنها مع صحة الإيمان بالله تعالىٰ واتباع أمره ونهيه ولزوم جماعة المسلمين أهل السنة والجماعة، وإن كانوا في ضعف وقلة عدد.

✍ **قلت**: واعلم - رحمنا الله وإياك - أن الفتن التي حدثت في خير الأزمنة بين الصحابة الكرام إنما أحدثها أهل الأهواء وأعداء هذا الدين خاصة من اليهود الملاعين الذين يتربصون بأمة محمد الدوائر ويدبرون لها في الخفاء وعلىٰ رأسهم أو من ظهر من تلك المنظمات الخفية في زمن الصحابة الكرام ابن السوداء اليهودي (عبد الله بن سباء) هذا النجس العفن الذي ظهرت يده جلية في فتنة عثمان رضي الله عنه والخروج عليه، ثم في فتنة التشيع لعلي رضي الله عنه، ثم في فتنة الذين خرجوا عليه في فتنة الخوارج، ثم في فتنة قتل الحسين، إلىٰ غير ذلك مما جرت فيه الحروب وسفكت فيه دماء المسلمين بيد المسلمين ولكن

بإيعاز من هؤلاء الذي أثاروا الفتن من الأصل حتىٰ أن أيديهم ظاهرة واضحة لمن قرأ التاريخ بعناية وكان من أهل العلم الراسخين، فيجد الباحث المتقن أنه في تلك الحروب التي نشبت بين بني الملة كلما أراد المسلمون أن يجنحوا للسلم ويوقفوا نزيف الدم بل وحتىٰ في البدايات قبل نقطة دم واحدة هناك من يتداخل في طرفي النزاع ويقوم بإشعال نار الحرب ولا أحد يدري إلىٰ الآن من هو، ولا يخفىٰ علىٰ أصحاب الألباب أن المستفيد من إشعال نار الفتنة معلوم وأن من أشعل شرارتها مفهوم وذلك حسدًا من عند أنفسهم ومظنة منهم أنهم سيُذهبون نور الله ويأبىٰ الله إلَّا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ولو كره المشركون ولو كره المنافقون.

ونُبرئ صحابة نبينا الأكابر الأكارم من الأهواء ومن حب الدنيا والحرص علىٰ الرياسة، بل كانوا جميعًا همهم واحدًا الوصول إلىٰ الحق ونصرة الدين وحفظ الدماء والأعراض والأموال ولكن الذي أوقع الفتنة وأججها قوم من شياطين الجن والإنس وخاصة من أتباع الشيطان (اليهود) ومن علىٰ شاكلتهم فلا نخوض فيها إلَّا لإظهار الحق ونُبرئ حملة الدين والمبلغين عن رب العالمين من الصحابة الكرام ﵃ أجمعين، ولعن الله من خاض فيهم بسوء وزوَّر وحرَّف وبدَّل طمعًا في النيل منهم وذلك لينال من رسولهم وصاحبهم ﷺ. فانتبه.

۞ خامسًا: خروج الدجالين والكذابين أدعياء النبوة:

من أمارات الساعة وأشراطها خروج الدجالين الكذابين، الذين يدَّعون النبوة ويثيرون الفتنة بأباطيلهم، وقد أخبر النبي ﷺ أن عدد هؤلاء قريب من ثلاثين فقال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتىٰ يبعث دجالون كذابون، قريبًا من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله**».

وقد تحققت ووقعت هذه الآية، والعلامة من علامات الساعة، فخرج كثير من أدعياء النبوة قديمًا وحديثًا، ولا يستبعد أن يظهر دجالون آخرون إلىٰ أن يظهر الدجال الأعور الكذاب - نعوذ بالله من فتنته - فقد خطب رسول الله ﷺ يومًا فقال: «**إنه والله لا تقوم الساعة حتىٰ يخرج ثلاثون كذابًا آخرهم الأعور الكذاب**».

* وعن ثوبان ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتىٰ تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتىٰ يعبدوا الأوثان، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي**»

سادسًا: ولادة الأمَةُ ربتها وتطاول الحفاة العراة رعاء الشاء في البنيان:

من علامات الساعة التي ظهرت وأخبر بها الرسول ﷺ ولادة الأَمَة ولدًا يكون له السيادة عليها، وتفاخر الناس بالبنيان الشاهق، وزخرفة البيوت بعد أن كانوا حفاة يعيشون في خيام الشعر ويرعون الشياه والبعير، كما دل علىٰ ذلك الحديث المشهور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث جبريل الطويل وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة، قال له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: .. «فأخبرني عن الساعة؟» فقال رسول الله ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»، قال: «فأخبرني عن أماراتها؟»، قال: «**أن تلد الأمة ربتها، وأن ترىٰ الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**».

ومضمون ما ذكر من أشراط الساعة في هذا الحديث أن تنقلب الموازين، وتصبح الأمور في غير محلها اللائق بها، كأن يصبح الولدُ سيدًا ومولىٰ لأمه، ويحدث هذا عندما يتسع الإسلام، ويكثر السراري، ويتخذ الناس السراري ويكثر منهن الأولاد، فيكون الرجل من أَمَتِهِ في معنىٰ السيد لأمه، إذا كانت مملوكة لأبيه، وملك الأب راجع إلىٰ الولد، وكذلك ابنتها؛ لأنها في الحسب كأبيها.

وكذلك بالنسبة للحفاة العراة رعاء الشاء، أهل الجهل والجفاء عندما تختل الموازين بكثرة الأموال بين أيديهم، يصبحون هم رؤوس الناس فيتطاولون في البنيان ويتنافسون علىٰ وجه التفاخر والخيلاء، في زخرفة العمارات وعدد أدوارها بعد أن كانوا أهل تنقل وترحال لا تستقر بهم دار.

✍ **يقول العلامة حمود التويجري** رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: «والتطاول في البنيان يكون بتكثير طبقات البيوت ورفعها إلىٰ فوق، ويكون بتحسين البناء وتقويته وتزويقه، ويكون بتوسيع البيوت وتكثير مجالسها ومرافقها، وكل ذلك واقع في زماننا حين كثرت الأموال وبسطت الدنيا علىٰ الحفاة العراة العالة، فالله المستعان.

سابعًا: قبض العلم وظهور الجهل:

* من علامات الساعة التي أخبر بها رسول الله ﷺ: قبض العلم وظهور الجهل، فعن أبي موسىٰ وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**إن بين يدي الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج، والهرج: القتل**».

* وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا**».

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج**»، قالوا: يا رسول الله، أيم هو؟، قال: «**القتل القتل**».

✍ **قال ابن العربي**: «وأما ذهاب العلم، قال المشيخة: فيكون بوجوده، إما بمحوه من القلوب، وقد كان في الذين قبلنا، ثم عصم هذه الأمة، فذهاب العلم منها بموت العلماء، وقد قال جماعة من الناس: إن ذهاب العلم يكون أيضًا بذهاب **العمل** به، فيحفظون القرآن ولا يعملون به فيذهب العلم... والذي عندي أن الوجوه الثلاثة في هذه الأمة، فقد يذنب الرجل حتى يذهب ذنبه علمه، وقد يقرؤه ولا يعمل به، وقد يقبض بعلمه فلا ينتفع أحد به، أو يمنع من بثه فيذهب لوقته.

والمقصود بذهاب العلم هنا ذهاب علم الشريعة الذي هو أهم وأعظم علوم الدنيا على الإطلاق ولعل هذا ليس بمفهوم لكثير من أصحاب العقول الجامدة، ولكن دعونا نوضح لإخواننا هذا الأمر ونجليه لعلنا ندرك خطورة ذهاب العلم الشرعي.

أولًا إياك أن تظن أن العلم الشرعي يتوقف عند الصلاة والطهارة وغير ذلك من بعض الأمور الفقهية التي ربما ظن بادي الرأي أن هذا هو الدين كله وهذا غبن فاحش وخطأ واضح، لأن الدين عقائد يحتاج الناس إليها في كل لمحة من حياتهم فالعبد الذي يعلم أن الله يراه وأنه قادر عليه وأنه محاسبه لا يمكن أن يغش أو يهمل في عمله أو يضيع من يعول كذلك العبد الذي يؤمن بأنه محاسب وأن هناك دار جزاء وأنه سيقتص منه لا محالة إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة لا يمكن أن يخون أو أن يظلم وهكذا فبالعقيدة تقوم الأمم وتربوا التجارات وتتقن الصناعات وتصلح المجتمعات، وكذلك الدين عبادات وهذه العبادات عبادات بين العبد وبين ربه كالصلاة والصيام وغير ذلك وهذه تزيد اليقين في مراقبة الله وتطهير النفس وتزكيتها وصلاحها وعبادات ينتفع بها عباد الله وتنعش أحوالهم وتحسن أوضاعهم مثل الزكاة والحج والصدقات العامة وبر الوالدين وغير ذلك، وكذلك للدين أيضًا قسم ثالث إلّا وهو المعاملات وقوامه على بذل الندى وكف الأذى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على أذى الخلق وبهذا صلاح علاقات الناس واستقرارهم وشيوع الألفة بينهم وانشار الأمن والأمان بين العباد ليتفرغوا لإصلاح دينهم ودنياهم وأخراهم فيسعدوا في الدنيا والآخرة فانظر لتعلم أن العلم الشرعي هو سياسة الناس على النحو الذي يصلح دنياهم وأُخراهم بما شرعه الله لهم ورضيه لعباده ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠] ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤].

وبهذا التصور الصحيح يجب أن يعتقد المسلم وهذا أمر واضح بيِّن لكلِّ مطلع على شريعة محمد ﷺ.

وبناءً على ذلك فإن ضياع العلم الشرعي ضياع للدنيا والآخرة ومدعاة لظهور الفساد في الأرض وعلو المفسدين، وهذا معاين واضح في هذه الأزمنة ولعل ذلك يكون بداية لذهاب العلم الحقيقي، لأن العلم الشرعي إما أن يكون حقيقيًّا وهو ما كان على نهج السلف الصالح وطريقة العلماء الربانيين، أو أن يكون علمًا مزيفًا وهو خلاف ما كان عليه الأوائل من هذه الأمة الذين هم خير من حمل الدين وبلغ عن النبي الأمين وذلك كالذي يطرق آذاننا ليل نهار ويصدع رؤوسنا من مصطلحات ومبادئ لم ينزل الله بها سلطان من (لبرلة الدين) (وعلمنة الدين) (وتنقية الدين) (وتوسيط الدين) (وتوحيد الأديان) إلى غير ذلك من محاولات آثمة معلومة لدى علماء الأمة الأخيار (أو من بقي منهم)، وهذا الذي يريدون به محوٌ لدين محمد ﷺ ووضع لدين آخر يشبهه يسمونه دين الإسلام الجديد فيأخذون ما يلائم أهواءهم من الدين ويتركون ما يخالف تلكموا الأهواء وهؤلاء الذين قال الله في شأنهم: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦)﴾ [البقرة:٨٥-٨٦].

ولذلك أُمرنا أن نتبع الدين كما أُنزل على خاتم النبيين محمد عليه أفضل صلاة وأتم تسليم وأن ندخل في هذا الدين بكليتنا جميعًا مستغرقين كل جزئية فيه عاملين بها على فهم السلف الصالح الذين عاصروا نزول الوحي ومات رسولهم وهو راضٍ عنهم بعد أن رضي ربهم عنهم وأثبت ذلك في كتابه وأثنى على من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾ [التوبة:١٠٠].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨)﴾ [البقرة:٢٠٨].

وقال **أهل التأويل**: المقصود بالسلم هنا الإسلام، وإذًا واجب على المسلم أن يدخل في الإسلام كله بذاته كلها.

وخلاصة المسألة أن ذهاب العلم يكون بذهاب العلماء الربانيين كالذي جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يبق عالمًا اتّخذ النّاس رؤوسًا جهّالًا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا**») رواه البخاري في صحيحه.

وأن ذهاب العلم الشرعي الصحيح عذاب للناس وغضب من ربهم عليهم وأنه من علامات اقتراب نهاية العالم وقيام القيامة، فعلىٰ العامة والخاصة أن يحافظوا علىٰ سر وجودهم فيحطوا العلماء الربانيين بالرعاية اللازمة ويعلموا أولادهم العلم الشرعي الصحيح ويؤدوا للعلماء حقهم ويرعوا طلبة العلم المجتهدين ولا يلتفتوا للمرجفين والمنافقين أتباع كل ناعق ويلفظوا هذه الفئة الضالة من بينهم فلا يستمعون إليهم ولا يرفعون من شأنهم ويحاربوهم بكل ما آتاهم الله من قدرة علمية وفكرية ومالية ومعنوية حتىٰ يعلم هؤلاء أنه قد بقي في أمة محمد بقية خير.

ولو علم الله فينا ذلك لحفظ علينا فضله في بقاء العلم الشرعي والعلماء الربانيين في زماننا

حفظنا الله وحفظكم علىٰ طاعته.

۞ ثامنًا: تكليم السباع والجماد للإنس:

من أشراط الساعة التي أخبر بها الرسول ﷺ تكليم السباع الإنس، وإخبار فخذ الرجل بما يُحدث أهله بعده، وكلام النعل والسوط لصاحبهما.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: صلىٰ رسول الله ﷺ الصبح، ثم أقبل علىٰ الناس فقال: «**بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث**»، فقال الناس: سبحان الله بقرة تكلم؟ فقال: «**فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم، وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب، فذهب منها بشاة، فطلب حتىٰ كأنه استنقذها منه، فقال له الذئب يا هذا: استنقذتها مني فمن لها يوم السبع؟ يوم لا راعي لها غيري!**» فقال الناس: سبحان الله! ذئب يتكلم؟ قال: «**فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم**».

* وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: عدا الذئب علىٰ شاة فأخذها، فطلبه الراعي، فانتزعها منه، فأقعىٰ الذئب علىٰ ذنبه، قال: إلَّا تتقي الله تنزع مني رزقًا ساقه الله إلي، فقال: يا عجبي! ذئب مقع علىٰ ذنبه يكلمني كلام الإنس، فقال الذئب: إلَّا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما سبق، قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتىٰ دخل المدينة، فزواها إلىٰ زاوية من زواياها، ثم أتىٰ رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ فنودي بالصلاة جامعة، ثم خرج، فقال للراعي: «أخبرهم»، فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: «**صدق، والذي نفسي بيده، لا تقوم الساعة حتىٰ يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده**».

✍ **قال القرطبي**: وفي هذا الحديث ما يرد علىٰ كفرة الأطباء والزنادقة الملحدين، وأن الكلام ليس مرتبطًا بالهيبة والبله، وإنما الباري جلت قدرته يخلقه متىٰ شاء في أي شيء شاء من جماد أو حيوان علىٰ ما قدره الخالق الرحمن، فقد كان الحجر والشجر يسلمان عليه ﷺ تسليم من نطق وتكلم، ثبت ذلك في غيرما حديث، وهو قول أهل أصول الدين في القديم والحديث.

وثبت باتفاق حديث البقرة والذئب وأنهما تكلما علىٰ ما أخبر عنهما ﷺ في الصحيحين، قاله ابن دحية.

فهذه أخبار عن رسول الله ﷺ كلها أمارات للساعة، وإن كانت أمورًا خارقة للعادة جارية علىٰ غير المألوف إلَّا أنه يجب الإيمان بها وتصديقها لثبوتها عنه ﷺ.

۞ تاسعًا: قطع الأرحام وسوء الجوار وظهور الفساد:

من علامات الساعة التي أخبر بها الرسول ﷺ قطيعة الرحم وسوء الجوار وظهور الفساد والفحش، ومن الأحاديث الدالة علىٰ ذلك: ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتىٰ يظهر الفحش والتفاحش، وقطيعة الرحم، وسوء المجاورة**».

وقد وقع ما أخبر به الرسول ﷺ فنرىٰ الفساد ظاهرًا بين الناس كما نرىٰ التقاطع وسوء الجوار حاصلًا بينهم، وحل التباغض والتنافر بينهم محل المحبة والصلة والمودة، حتىٰ إن الجار لا يعرف جاره، والقريب لا يعرف عن بعض أرحامه هل هم من الأموات أم من الأحياء، ولا نقول إلَّا حسبنا الله ونعم الوكيل.

۞ عاشراً: كثرة الزلازل وظهور الخسف والقذف والمسخ الذي يعاقب الله به بعض هذه الأمة:

من علامات الساعة وأماراتها التي أخبر بها الرسول ﷺ: كثرة الزلازل، وظهور الخسف، والقذف، والمسخ، وقد دل علىٰ هذا الأحاديثُ الثابتةُ عنه ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتىٰ يُقبض العلم، وتكثر الزلازل...**».

✍ **يقول الحافظ** ابن حجر: «وقد وقع في كثير من البلاد الشمالية والشرقية والغربية كثير من الزلازل، ولكن الذي يظهر أن المراد بكثرتها شمولها ودوامها».

وقد كثرت الزلازل في عصرنا الحاضر في أماكن متعددة، وهذا مصداق لما أخبر به رسول الله ﷺ.

* وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «**يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف**» قالت: قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا ظهر الخبث**».

📄 أشراط وعلامات الساعة الكبرى:

۞ أولاً: خروج المهدي:

من علامات الساعة وأماراتها الكبرىٰ ظهور المهدي الذي يخرج في آخر الزمان، ويلي أمر هذه الأمة ويجدد لها دينها، وهو رجل يحكم بالإسلام ويملأ الأرض عدلًا بعد أن ملئت جورًا وظلمًا، تنعم الأمة في عهده بالخيرات والنعم التي لم تنعم بمثلها قط.

✍ **قال الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر، والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير في أيامه دائم.

وسيكون الكلام عليه في المسائل الآتية (ذكرها الشيخ الأشقر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ):

المسألة الأولى: معنى المهدي:

المهدي: لغة اسم مفعول من: هداه هدىٰ وهديا وهداية، والهدىٰ: هو الرشاد والدلالة، يقال: هداه الله للدين هدىٰ، وهديته الطريق، وإلىٰ الطريق هداية: أي عرفته.

✍ **وقال ابن الأثير**: المهدي الذي هداه الله إلىٰ الحق، وقد استعمل في الأسماء حتىٰ صار كالأسماء الغالبة.

وقد وردت هذه الكلمة في أحاديث عديدة، منها حديث العرباض بن سارية، وفيه: «**وسنة الخلفاء الراشدين المهديين**».

✍ **وقال ابن الأثير**: «ويريد بالخلفاء المهديين: أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليا، رضي الله عنهم أجمعين وإن كان عامًّا في كل من سار سيرتهم».

والمراد بالمهدي هنا: هو الذي بشر به رسول الله ﷺ أنه يجيء في آخر الزمان، ويؤيد الدين ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك الإسلامية، ويكون من أهل بيته ﷺ، ويخرج في زمنه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والدجال.

وقد وردت في شأن المهدي أحاديث كثيرة ما بين صحاح وحسان وضعاف تنجبر، وضعاف شديدة الضعف.

وهذه الأحاديث توضح وتخبر عن خروجه في الناس، وذلك بعدما يعم الأرض الظلم والفساد والطغيان؛ فيأتي ويملأ الأرض قسطًا وعدلًا بعدما ملئت جورًا وظلمًا.

وهو من سلالة النبي ﷺ ومن أبناء فاطمة رضي الله عنها وعلى خده شامة كأنها كوكب دري.

المسألة الثانية: اسمه واسم أبيه ونسبه:

- واسم المهدي (محمد)، واسم أبيه (عبد الله).

* فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلًا مني - أو من أهل بيتي - يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض...**» الحديث.

* وفي رواية أخرى: «**لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي**».

* وفي رواية أخرى: «**يلي رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي**»، قال: وقال أبو هريرة: «**لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يلي...**».

- وأما نسبه: فالروايات الكثيرة تبين لنا أنه من ولد فاطمة البتول، ابنة النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام رضي الله عنها وعن أولادها الطاهرين.

* عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المهدي من عترتي من ولد فاطمة**».

* وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة**».

فهذه الأخبار كلها تؤكد أن المهدي من ذرية رسول الله ﷺ، من ولد فاطمة الزهراء، وهذا ما عليه جماهير الأمة، فلا يسوغ العدول عنه ولا الالتفات إلى غيره من الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

✍ **يقول الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المهدي: وهو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسني رضي الله عنه.

المسألة الثالثة: صفة المهدي من صفات المهدي الواردة في السنة:

* ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المهدي مني، أجلىٰ الجبهة أقنىٰ الأنف يملأ الأرض قسطًا وعدلًا، كما ملئت جورًا وظلمًا، ويملك سبع سنين**».

ومن الأمور الدالة عليه:

أنه يخرج في زمانٍ سادَ فيه الجور والظلم، فيقيم هو بأمر الله العدل والحق، ويمنع الظلم والجور، وينشر الله به لواء الخير علىٰ الأمة، حيث يسقيه الله الغيث فتمطر السماء كثيرًا لا تدخر شيئًا من قطرها، وتؤتي الأرض أكلها لا تدخر عن الناس شيئًا من نباتها، وتكثر المواشي بسبب الخيرات، ويفيض المال فيقسمه بين الناس بالسوية.

* فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطي المال صحاحا، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعًا، أو ثمانيًا، يعني حججًا**».

المسألة الرابعة: مكان خروج المهدي وزمانه ومدة مكثه في الأرض:

ليست هناك روايات صحيحة صريحة تدل علىٰ مكان خروجه، أو الزمن الذي يخرج فيه، ولكن استأنس أهل العلم في بيان ذلك من مفهوم بعض الروايات وإن لم تكن قطعية.

* فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقتتل عند كنزكم ثلاثة، كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلىٰ واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونكم قتلًا لم يقتله قوم**». ثم ذكر شيئًا لا أحفظه فقال: «**فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوا علىٰ الثلج فإنه خليفة الله المهدي**».

✍ **قال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتىٰ يكون آخر الزمان فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق لا من سرداب سامرا، كما يزعمه جهلة الرافضة من أنه موجود فيه الآن وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان، فإن هذا نوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان، شديد من الشيطان؛ إذ لا دليل علىٰ ذلك، ولا برهان لا من كتاب ولا سنة ولا معقول صحيح ولا استحسان، إلىٰ أن قال: «ويؤيده بناس من أهل المشرق ينصرونه

ويقيمون سلطانه ويشدون أركانه، وتكون راياتهم سودا أيضًا، وهو زي عليه الوقار؛ لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال له العقاب» إلىٰ أن قال: «والمقصود: أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل خروجه وظهوره من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت كما دل علىٰ ذلك نص الأحاديث».

* وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون علىٰ الحق ظاهرين إلىٰ يوم القيامة فينزل عيسىٰ فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم علىٰ بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة»**.

وهناك رواية أوردها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «المنار المنيف» حدد فيها اسم الأمير الذي يصلي إمامًا وأنه المهدي بلفظ: «**فيقول أميرهم المهدي: تعال صلِّ بنا...**» إلىٰ آخر الحديث. ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن أورد الحديث: وهذا إسناد جيد.

* وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم»**، فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارها؟ قال: **«يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة علىٰ نيته»**.

* وعن حفصة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **«سيعوذ بهذا البيت** - يعني الكعبة - **قوم ليست لهم منعة ولا عدد ولا عدة، يبعث إليهم جيش، حتىٰ إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسف بهم»**.

* وعن عائشة رضي الله عنها قالت: عبث رسول الله ﷺ في منامه، فقلنا: يا رسول الله، صنعت شيئًا في منامك لم تكن تفعله؟ فقال: **«العجب أن ناسًا من أمتي يؤمون بالبيت برجل من قريش، قد لجأ بالبيت، حتىٰ إذا كانوا بالبيداء خسف بهم»**، فقلنا: يا رسول الله، إن الطريق قد تجمع الناس، فقال: **«نعم، فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل يهلكون مهلكًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتىٰ يبعثهم الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نياتهم»**.

ففي هذه الروايات الثلاث عن أمهات المؤمنين رضي الله عنهن جميعًا، إشارة صريحة للعائذ بالبيت وأنه من قريش، وأنه يؤيد بنصر الله، فيهلك الله أعداءه بالخسف.

وقد ورد أيضًا في الأحاديث الصحيحة ذكر خليفة يكثر الخير في زمانه حتىٰ إنه يحثو المال حثوًا ولا يعده عددًا ويعطيه للناس بدون عدد، ولكن الروايات هنا أيضًا لم تحدد اسم هذا الخليفة.

* فعن أبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله ﭭ أن النبي ﷺ قال: «**يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده**».

* وفي رواية: «**يكون في آخر أمتي خليفة يحثو المال حثوًا**».

* وعن أم سلمة ﭭ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكون اختلاف عند موت خليفة، فيخرج من بني هاشم فيأتي مكة فيستخرجه الناس من بيته بين الركن والمقام، فيجهز إليه رجل من قريش، أخواله من كلب، فيجهز إليه جيش فيهزمهم الله، فتكون الدائرة عليهم، فذلك يوم كلب، الخائب من خاب من غنيمة كلب، فيستفتح الكنوز ويقسم الأموال، ويلقي الإسلام بجرانه إلىٰ الأرض، فيعيشون بذلك سبع سنين أو قال: تسعًا**».

* وفي رواية أبي داود: «... «**فيخرج رجل من أهل المدينة هاربا إلىٰ مكة، فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام، ويبعث إليه بعث من الشام..**» الحديث.

ومن مجمل الروايات السابقة يتبين لنا أن المهدي رجل صالح يخرج في آخر الزمان، ويأوي إلىٰ مكة هاربًا من المدينة، فيبايع بين الركن والمقام عند الكعبة المشرفة، فيبعث إليه جيش لقتله فيخسف بهم، وينصره الله ويؤيده فيحكم بالإسلام، وينشر العدل بين الناس، ويعم الرخاء والنعمة بزمانه، ويلتقي مع نبي الله عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيؤم الأمة وعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يصلي خلفه، ويخرج معه ويساعده علىٰ قتل الدجال، ويعيش سبعًا أو تسع سنين، ثم يُتوفىٰ ويصلي عليه المسلمون.

✍ **قلت:** ومعتقد أهل السنة والجماعة هو الحق يخرج من مشكاة النبوة بخلاف معتقدات أهل الباطل والأهواء من الرافضة وغيرهم والذين يصورون المهدي سفاحًا وسفاك دماء وأنه يقتل من خالفهم في تشيعهم ويحكون عليه أباطيل وأهاويل لا يصدقها عاقل ولا يؤمن بها مسلم ولم ينزل الله بها سلطان طمعًا منهم في تضليل الناس وأكل أموالهم بالباطل والهيمنة عليهم بدعاوىٰ كاذبة وترهات باطلة أعاذنا الله والمسلمين من شر أعداء الدين.

وأيضًا هناك مرجفون من بني جلدتنا يثبِّطون الناس عن العمل وعن جهاد الأعداء وعن السعي في إقامة العدل وعن تربية الناس علىٰ دين الله جل ثناؤه رجاء خروج المهدي المُخلص حتىٰ تُحل كل مشاكل الأمة وهذا نوع من الإرجاف وضرب من التخاذل عن نصرة دين الله عَزَّوَجَلَّ لا ينبغي لمسلم تقي أن يُنصت لتلك الدعوات بل عليه نصرة الدين

بكل ما يملك والدفاع عن السنة بكل ما يستطيع وتربية الأمة علىٰ نهج النبوة الصحيح وأن يؤدي ما عليه كما فعل السلف الصالح كما لو كان لا يوجد علىٰ الأرض موحدٌ غيره، ثم علىٰ الأمة أن تحترز وتَحذر من عدوها وتستعد بكل طاقاتها وكل رجالتها انطلاقًا من مبدأ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم ﴾، ومن تخاذل عن ذلك فقد خان الله ورسوله وأمانته فلا يلومن إلَّا نفسه، أما ظهور المهدي عليه رضوان الله فلا يدري أحدٌ متىٰ يكون ذلك وفي أي زمان، ونسأل الله إن أدركنا زمانه أن نكون من أتباعه.

ثانيًا: فتنة المسيح الدجال:

ولفظ الدجال علىٰ وزن فعال بفتح أوله والتشديد من الدجل وهو التغطية، وأصل الدجل معناه: الخلط، يقال: دجل إذا لبس وموه، وجمع دجال: دجالون، ودجاجلة.

وسمي الدجال دجالًا؛ لأنه يغطي الحق بباطله، أو لأنه يغطي علىٰ الناس كفره بكذبه وتمويهه وتلبيسه عليهم.

- المراد بالدجال هنا: الدجال الأكبر الذي يخرج قبيل قيام الساعة في زمن المهدي وعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وخروجه من الأشراط العظيمة المؤذنة بقيام الساعة، وفتنته من أعظم الفتن والمحن التي تمر علىٰ الناس، ويسمىٰ مسيحًا؛ لأن إحدىٰ عينيه ممسوحة أو لأنه يمسح الأرض في أربعين يوما، ولفظة المسيح تطلق علىٰ الصدّيق، وهو عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعلىٰ الضليل الكذاب وهو الأعور الدجال.

قال القرطبي: «واختلف في لفظة المسيح لغة علىٰ ثلاثة وعشرين قولًا، ذكرها الحافظ أبو الخطاب بن دحية في كتابه «مجمع البحرين»، وقال: لم أرَ مَنْ جمعها قبلي ممن رحل وجال ولقي الرجال».

والمقصود بالمسيح هنا مسيح الضلالة الذي يفتن الناس بما يجري علىٰ يديه من الآيات، كإنزال المطر وإحياء الأرض، وبما يظهر علىٰ يديه من عجائب وخوارق للعادات.

وأما مسيح الهدىٰ فهو عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي سيأتي الكلام عليه.

وقد تواترت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في ذكر خروج الدجال في آخر الزمان والتحذير منه، حيث وصفه الرسول ﷺ لأمته وصفًا دقيقًا لا يخفىٰ علىٰ ذي بصيرة، كما حذر منه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله أممهم ووصفوه لهم أوصافًا ظاهرة.

* ومن الأحاديث الواردة في ذلك حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنىٰ علىٰ الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «**إني لأنذركموه، وما من نبي إلَّا وقد أنذر قومه، ولكني سأقول لكم فيه قولًا لم يقله نبي لقومه، إنه أعور، وأن الله ليس بأعور**».

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إلَّا أخبركم عن الدجال حديثًا ما حدثه نبي قومه؟ إنه أعور، وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار، فالتي يقول إنها الجنة هي النار، وإني أنذرتكم به كما أنذر به نوح قومه**».

* وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ ذكر يومًا بين ظهراني الناس الدجال فقال: «**إن الله تعالىٰ ليس بأعور، إلَّا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنىٰ، كأن عينه عنبة طافية**».

* وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ يوما حديثًا طويلًا عن الدجال فكان فيما يحدثنا به أنه قال: «**يأتي الدجال، وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينتهي إلىٰ بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس - أو من خير الناس - فيقول له: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، أتشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه، فيقول: والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم الآن، قال: فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه**».

* وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بعث نبي إلَّا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب إلَّا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، ومكتوب بين عينيه ك. ف. ر**».

* وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتىٰ ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه، عرف ذلك فينا، فقال: «**ما شأنكم؟**» قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال الغداة، فخفضت فيه ورفعت، حتىٰ ظنناه في طائفة النخل، فقال: «**غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي علىٰ كل مسلم، إنه شاب قطط عينه طافئة، كأني أشبهه بـ (عبد العزىٰ بن قطن) فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينًا، وعاث شمالًا، يا عباد الله فاثبتوا**».
قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال: «**أربعون يومًا، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم**

كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم»، قلنا: يا رسول الله فذاك اليوم الذي كسنة: أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره»، قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح، فيأتي علىٰ القوم فيدعوهم فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كان ذرا وأسبغه ضروعا، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله.

قال: فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أحوالهم، ويمر بالخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك، فيتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلًا ممتلئًا شبابًا، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين، رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل، ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك، إذ بعث الله المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين واضعًا كفيه علىٰ أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلَّا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتىٰ يدركه بباب لد، فيقتله.

ثم يأتي عيسىٰ ابن مريم قومًا قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ عيسىٰ ابن مريم: إني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلىٰ الطور.

ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم علىٰ بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم، فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء.

ويحصر نبي الله عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصحابه، حتىٰ يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار، فيرغب نبي الله عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسىٰ، كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصحابه إلىٰ الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلَّا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسىٰ وأصحابه إلىٰ الله، ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتىٰ يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها ويبارك في الرسل، حتىٰ إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك، إذ بعث الله ريحًا طيبًا، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن ومسلم، ويبقىٰ شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة». مسلم

✍ **قال الخطابي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده، وأنه شخص بعينه ابتلىٰ الله به عباده، وأقدره علىٰ أشياء من مقدورات الله تعالىٰ، من إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدنيا، والخصب معه، وجنته وناره ونهريه، واتباع كنوز الأرض له، وأمره السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالىٰ ومشيئته، ثم يعجزه الله تعالىٰ بعد ذلك فلا يقدر علىٰ قتل ذلك الرجل ولا غيره، ويبطل أمره ويقتله عيسىٰ ﷺ ويثبت الله الذين آمنوا.

هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار، خلافًا لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة، ولكن الذي يدعي مخارق وخيالات لا حقائق لها. وزعموا أنه لو كان حقًّا لم يوثق بمعجزات الأنبياء ﷺ

وهذا غلط من جميعهم؛ لأنه لم يدع النبوة فيكون ما معه كالتصديق له، وإنما يدعي الإلهية وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله، ووجود دلائل الحدوث فيه ونقص صورته وعجزه عن إزالة العور الذي في عينيه، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه، ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلَّا رعاع من الناس لسد الحاجة والفاقة رغبة في سد الرمق أو تقية وخوفًا من أذاه؛ لأن فتنته عظيمة جدا تدهش العقول وتحير الألباب مع سرعة مروره في الأرض فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله، ولهذا حذرت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من فتنته ونبهوا علىٰ نقصه ودلائل إبطاله. وأما أهل التوفيق فلا يغترون ولا يخدعون بما معه لما ذكرناه من الدلائل المكذوبة له مع ما سبق لهم من العلم بحاله، ولهذا يقول الذي يقتله ثم يحييه: ما ازددت فيك إلَّا بصيرة».

وقد دلت الأحاديث علىٰ أن المسيح الدجال يدخل كل بلد إلَّا مكة والمدينة، فعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس من بلد إلَّا سيطؤه الدجال إلَّا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلَّا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق**».

✍ **قال الحافظ ابن حجر** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله ﷺ: «**ليس من بلد إلَّا سيطؤه الدجال**» هو علىٰ ظاهره وعمومه عند الجمهور، وشذ ابن حزم فقال: المراد: إلَّا يدخله بعثه وجنوده، وكأنه استبعد إمكان دخول الدجال جميع البلاد لقصر مدته، وغفل عما ثبت في «صحيح مسلم» أن بعض أيامه يكون قدر سنة»

وقد بين الرسول ﷺ مدة مكثه في الأرض بعد خروجه، وأن قتله يكون علىٰ يد عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، وقد سبق ذكره.

فظهور الدجال - أخسأه الله وأخزاه - وشدة فتنته وهوله وبلاء الناس به، وبما يجري علىٰ يديه من علامات الساعة العظيمة وأشراطها الجسيمة، وقد سبق إيراد الأحاديث النبوية في شأنه والخبر عنه وبيان وصفه ونعته والتحذير منه، وكان النبي ﷺ يستعيذ في صلاته وغيرها من فتنة الدجال وشره وأمر أمته بذلك.

* فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات**».

* وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ في حائط بني النجار علىٰ بغلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال: «**من يعرف أصحاب هذه الأقبر**»؟ فقال رجل أنا: قال: «**متىٰ مات هؤلاء**»؟ قال: ماتوا في الإشراك، فقال: «**إن هذه الأمة تبتلىٰ في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر**»، قالوا: نعوذ بالله من النار، قال: «**تعوذوا بالله من عذاب القبر**»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: «**تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن**»، قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: «**تعوذوا بالله من فتنة المسيح الدجال**»، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال».

* وقد أرشد رسول الله ﷺ المؤمنين إلىٰ ما يعصمهم من فتنة المسيح الدجال كما جاء في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**».

قال مسلم: قال شعبة: من آخر الكهف، وقال همام: من أول الكهف.

✍ **قال المناوي مبينًا سبب العصمة**: «وذلك لما في قصة أهل الكهف من العجائب، فمن علمها لم يستغرب أمر الدجال فلا يفتن، أو لأن من تدبر هذه الآيات وتأمل معناها حذره فأمن منه أو هذه خصوصية أودعت في السورة».

فسورة الكهف لها شأن عظيم وفيها من العجائب والآيات الباهرات التي من تدبرها عصم من فتنة الدجال، وقد ورد الحث علىٰ قراءتها وخاصة في يوم الجمعة، كما في حديث

أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين**».

فينبغي على المسلم أن يحرص على قراءة هذه السورة وحفظها وخاصة في يوم الجمعة.

ثالثا: نزول عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

من أمارات الساعة العظام وأشراطها الكبار نزول عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ آخر الزمان من السماء، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أنه ينزل قبل قيام الساعة فيقتل الدجال ويكسر الصليب ويحكم بالقسط ويقضي بشريعة النبي ﷺ، ويحيي من شأنها ما تركه الناس، ثم يمكث ما شاء الله أن يمكث ثم يموت ويُصلَّى عليه ويدفن.

والكلام على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يتضمن عدة مسائل:

المسألة الأولى: الأدلة على نزوله من الكتاب والسنة:

ورد في القرآن الكريم ثلاث آيات تدل على نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

* الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف:٦١]. أي أن نزول عيس عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل القيامة علامة على قرب الساعة، ويدل على هذا: القراءة الأخرى (وإنه لَعَلَم للساعة) بفتح العين واللام، أي خروجه علم من أعلام الساعة وشرط من شروطها وأمارة على قرب قيامها. وروى الإمام أحمد والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف:٦١] قال: هو خروج عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل يوم القيامة.

وهذا المعنى مروي عن عدد من أئمة التفسير واختاره - الحافظ ابن كثير وغيره.

* الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد:٤].

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: معنى الآية: «أثخنوا المشركين بالقتل والأسر حتى يدخل أهل الملل كلها في الإسلام، ويكون الدين كله لله، فلا يكون بعده جهاد ولا قتال، وذلك عند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام».

والآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٥٩].

قرر كثير من المفسرين أن الضميرين في (به)، و(موته) لعيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقد روىٰ ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبي مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء:١٥٩] قال: «ذلك عند نزول عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا يبقىٰ أحد من أهل الكتاب إلَّا ليؤمنن به».

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا شك أن هذا هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسىٰ وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارىٰ الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك، فأخبر الله أنه رفعه إليه، وأنه باق حي، وأنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة التي سنوردها إن شاء الله قريبًا، فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، يعني: لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلَّا الإسلام أو السيف، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم».

وأما الأدلة من السنة المطهرة على نزوله فهي كثيرة جدًّا منها:

* حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، لا يقبلها من كافر، ويفيض المال حتىٰ لا يقبله أحد، حتىٰ تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها**» ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اقرأوا إن شئتم: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء:١٥٩].

* ومنها حديث جابر رضي الله عنه: قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلىٰ يوم القيامة**»، قال: «**فينزل عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم علىٰ بعض أمراء، تكرمة الله لهذه الأمة**».

* ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد، وإني أولىٰ الناس بعيسىٰ ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربوع إلىٰ الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلىٰ الإسلام، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلَّا الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمنة علىٰ الأرض، حتىٰ ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر،**

والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفىٰ، ويصلي عليه المسلمون».

إلىٰ غير ذلك من الأحاديث الكثيرة.

✍ **قال الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا علىٰ أحاديث نزول عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة وابن مسعود، وعثمان بن أبي العاص، والنواس بن سمعان، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومجمع بن جارية، وأبي سريحة حذيفة بن أسيد رضي الله عنهم، وفيها دلالة علىٰ صفة نزوله ومكانه، وأنه بالشام، بل بدمشق عند المنارة الشرقية، وأن ذلك يكون عند الإقامة لصلاة الصبح... فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية فلا يقبل إلَّا الإسلام كما تقدم في الصحيحين، وهذا إخبار من النبي ﷺ بذلك، وتقرير وتشريع وتسويغ له علىٰ ذلك في ذلك الزمان، حيث تنزاح عللهم، وترتفع شبههم من أنفسهم، ولهذا كلهم يدخلون في دين الإسلام متابعة لعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وعلىٰ يديه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء:١٥٩]. وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف:٦١]، وقرئ «لَعَلَم بالتحريك، أي أمارة ودليل علىٰ اقتراب الساعة، وذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال فيقتله الله علىٰ يديه ويبعث الله في أيامه يأجوج ومأجوج فيهلكهم الله ببركة دعائه».

وقد أجمعت الأمة علىٰ نزول عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَلَمًا من أعلام الساعة، ولم يخالف في ذلك إلَّا من شذ ممن لا يلتفت إليه ولا يعتد بخلافه.

✍ **قال السفاريني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمعت الأمة علىٰ نزوله، ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة، وإنما أنكر ذلك الفلاسفة والملاحدة، ممن لا يعتد بخلافه، وقد انعقد إجماع الأمة علىٰ أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية، وليس ينزل بشريعة مستقلة عند نزوله من السماء، وإن كانت قائمة به وهو متصف بها».

المسألة الثانية صفات عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

* أخبرنا الرسول ﷺ عن صفات عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فجاء في الروايات أنه رجل مربوع القامة ليس بالطويل ولا بالقصير، جعد أحمر اللون، عريض الصدر، أقرب الناس شبهًا به عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه.

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت عيسىٰ وموسىٰ وإبراهيم، فأما عيسىٰ فأحمر جعد عريض الصدر**».

* وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتقدم أن رسول الله ﷺ قال: «**لم يكن بيني وبينه نبي - يعني عيسىٰ - وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربوع، إلىٰ الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران، كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلىٰ الإسلام، فيهلك الله في زمانه الملل كلها إلَّا الإسلام...**» الحديث.

* وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما **أن رسول الله ﷺ قال: «عرض علي الأنبياء فإذا موسىٰ... ورأيت عيسىٰ ابن مريم، فإذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود...**» الحديث.

المسألة الثالثة: مكان نزوله ينزل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ**:**

عند المنارة البيضاء شرقي دمشق واضعًا كفيه علىٰ أجنحة ملكين، وعليه مهرودتان، ويكون هذا مع صلاة الفجر حيث اصطف المسلمون للصلاة، وقد تقدم إمامهم - والغالب أنه المهدي كما سبق - للصلاة بهم، فعندما يعلم بعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتأخر ويطلب من عيسىٰ أن يتقدم ليؤمهم فيأبىٰ، فيصلي بهم المهدي، فعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «**... فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعًا كفيه علىٰ أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد نفسه إلَّا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلب بباب لد فيقتله، ثم يأتي عيسىٰ ابن مريم قومًا قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة**».

✍ **يقول الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأشهر في موضع نزوله أنه علىٰ المنارة البيضاء الشرقية بدمشق، وقد رأيت في بعض الكتب أنه ينزل علىٰ المنارة البيضاء شرقي جامع دمشق، فلعل هذا هو المحفوظ، وتكون الرواية فينزل علىٰ المنارة البيضاء الشرقية بدمشق، فتصرف الراوي في التعبير بحسب ما فهم، وليس بدمشق منارة تعرف بالشرقية سوىٰ التي إلىٰ شرق الجامع الأموي، وهذا هو الأنسب والأليق؛ لأنه ينزل وقد أقيمت الصلاة».

✍ **ويقول الحافظ ابن رجب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبالشام ينزل عيسىٰ ابن مريم في آخر الزمان، وهو المبشر بمحمد ﷺ ويحكم به ولا يقبل من أحد غير دينه، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويصلي خلف إمام المسلمين ويقول: إن هذه الأمة أئمة بعضهم لبعض».

وأما مدة بقاء عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **إذا نزل:**

ففي بعض الروايات أنه يمكث سبع سنين، وفي الروايات الأخرىٰ أنه يمكث أربعين عامًا ثم يتوفىٰ ويُصلِّي عليه المسلمون، ففي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**فيبعث الله عيسىٰ ابن مريم... ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام فلا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلَّا قبضته**».

* وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق: «**ثم يمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفىٰ ويصلي عليه المسلمون**».

✍ **وقد جمع الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بين الروايتين فقال**: «هكذا وقع في الحديث: أنه يمكث أربعين سنة، وثبت في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو أنه يمكث في الأرض سبع سنين، فهذا مع هذا مشكل، اللهم إلَّا إذا حملت هذه السبع علىٰ مدة إقامته بعد نزوله، وتكون مضافة إلىٰ مدة مكثه فيها قبل رفعه إلىٰ السماء، وكان عمره إذ ذاك ثلاثًا وثلاثين سنة علىٰ المشهور، والله أعلم».

✍ **وقد عارض السفاريني هذا الجمع فقال بعد أن ذكره بدون عزو**: وهذا - والله أعلم - ليس بشيء لما مر من حديث عائشة عند الإمام أحمد وغيره «**فيقتل الدجال، ثم يمكث عيسىٰ في الأرض أربعين سنة**»، ثم حكىٰ عن البيهقي أنه اعتمد رواية «أربعين»، كما نقل عن السيوطي أنه ذهب إلىٰ ترجيحها؛ لأن زيادة الثقة يحتج بها، ولأنهم يأخذون برواية الأكثر ويقدمونها علىٰ رواية الأقل لما معها من زيادة العلم، ولأنه مثبت والمثبت مقدم.

✍ **وقال البرزنجي**: «إن القليل لا ينافي الكثير».

ولعل الراجح أن يقال: إن رواية «أربعين سنة» هي المعتمدة؛ لأنها رواية الأكثر، كما أشار إلىٰ ذلك السفاريني، ولعل هذه السنين تمر كأنها سبع سنين، ويستأنس لذلك بما رواه عبد بن حميد عن أبي هريرة رضي الله عنه في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾

[الزخرف:٦١]. قال: خروج عيسىٰ، يمكث في الأرض أربعين سنة، وتكون تلك الأربعون كأربع سنين، يحج ويعتمر. والله أعلم. ذكره الدكتور الأشقر.

وذكرت طائفة كبيرة من أهل العلم تواتر الأخبار الصحيحة عن نزول عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأن فيه إجماع أهل السنة والجماعة علىٰ ذلك والله أعلىٰ وأعلم. (وذلك التقسيم ذكره الشيخ سليمان الأشقر رَحِمَهُ اللَّهُ).

۞ واليك بعض الأمور التي تكون في زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

١ - قتل المسيح الدجال:

سبق ذكر أن نبي الله عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ ينزل والمسلمون في حال إعداد أنفسهم لحرب الدجال، وعلمنا أن الصلاة تقام في ذلك الوقت، فيصلي عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ خلف الرجل الصالح، وعندما يعلم الدجال بنزول عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يهرب، فيلحقه نبي الله إلىٰ بيت المقدس فيدركه وقد حاصر عصابة من المسلمين، فيأمرهم عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بفتح الباب فيفعلون ويكون وراءه الدجال فينطلق هاربًا، فيلحقه نبي الله عَلَيْهِ السَّلَامُ فيدركه عند باب لد الشرقي فيقضي عليه وعلىٰ من معه من يهود.

* ففي الحديث الصحيح عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح، إذ نزل عليهم عيسىٰ ابن مريم الصبح، فرجع ذلك الإمام ينكص يمشي القهقرىٰ ليتقدم عيسىٰ، فيضع عيسىٰ يده بين كتفيه، ثم يقول له: تقدم فصل، فإنها لك أقيمت، فيصلي بهم إمامهم، فإذا انصرف قال عيسىٰ: افتحوا الباب، فيفتحون ووراءه الدجال، معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلىٰ وساج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هاربًا، فيقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها، فيدركه عند باب لد الشرقي، فيقتله، فيهزم الله اليهود، فلا يبقىٰ شيء مما خلق الله عَزَّوَجَلَّ ليتوارىٰ به يهودي إلَّا أنطق ذلك الشيء، لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة إلَّا الغرقدة، فإنها من شجرهم لا تنطق، إلَّا قال: يا عبد الله المسلم هذا يهودي فتعال اقتله...**».

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «... **فبينما هم يعدون للقتال ويسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتىٰ يهلك، ولكنه يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته**».

وهكذا يكون أول عمل يقوم به نبي الله عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد نزوله من السماء هو مواجهة الدجال والقضاء عليه وعلىٰ من يتبعه من يهود.

٢ - هلاك يأجوج ومأجوج

إن خروج قوم يأجوج ومأجوج علامة من علامات الساعة الكبرىٰ، وسيأتي الكلام علىٰ هذه العلامة، والمراد هنا بيان أن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن يقضي علىٰ الدجال وفتنته، يفسد هؤلاء القوم في الأرض فسادًا كبيرًا، فيتضرع نبي الله عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصحابه إلىٰ الله تعالىٰ فيهلكهم شر هلكة، ويصبحون موتىٰ لا يبقىٰ منهم أحد، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله في الكلام علىٰ يأجوج ومأجوج.

٣ - ومن أجل هذا فهو يكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية فلا يقبل من أحد إلَّا الإسلام، أو القتل.

✍ **يقول القرطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذهب قوم إلىٰ أنه بنزول عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يرتفع التكليف لئلا يكون رسولًا إلىٰ أهل ذلك الزمان يأمرهم عن الله تعالىٰ وينهاهم، وهذا أمر مردود بالأخبار التي ذكرناها... وبقوله تعالىٰ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا نبي بعدي**» وقوله ﷺ: «**أنا العاقب**». يريد آخر الأنبياء وخاتمهم، وإذا كان ذلك فلا يجوز أن يتوهم أن عيسىٰ ينزل نبيًّا بشريعة متجددة غير شريعة محمد نبينا ﷺ، بل إذا أنزل فإنه يكون يومئذٍ من أتباع محمد ﷺ كما أخبر النبي ﷺ حيث قال لعمر: «**لو كان موسىٰ حيًّا ما وسعه إلَّا اتباعي**». فعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما ينزل مقررًا لهذه الشريعة مجددًا لها؛ إذ هي آخر الشرائع ومحمد ﷺ آخر الرسل.

٤ - رفع الشحناء والتباغض من بين الناس وانتشار الأمن والرخاء بين الخلق:

من الأمور التي أخبرنا عنها رسول الله ﷺ أنها تحدث في زمن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أن الشحناء والتباغض والتحاسد ترفع من بين الناس حيث تجتمع كلمة الجميع علىٰ الإسلام، وتعم البركة، وتكثر الخيرات، حيث تنبت الأرض نبتها، ولا يرغب في اقتناء المال لكثرته، وينزع الله في ذلك الوقت سم كل ذي سم حتىٰ يلعب الأولاد بالحيات والعقارب فلا تضرهم، وترعىٰ الشاة مع الذئب فلا يضرها، فتملأ الأرض أمنًا وسلمًا، وينعدم القتال بين البشر فترخص الخيل لعدم القتال، وترتفع أسعار الثور؛ لأن الأرض تحرث كلها.

* ففي حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق أن رسول الله ﷺ قال: «... **ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتىٰ يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون**

بقحفها، ويبارك في الرسل، حتىٰ أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس...» الحديث.

* ومن حديث أبي أمامة الطويل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «... **فيكون عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ في أمتي حكمًا عدلًا وإمامًا مقسطًا يدق الصليب، ويذبح الخنزير، ويضع الجزية، ويترك الصدقة، فلا يسعىٰ علىٰ شاة ولا بعير، وترفع الشحناء والتباغض، وتنزع حمة كل ذات حمة، حتىٰ يدخل الوليد يده في في الحية فلا تضره، وَتُفِرَّ الْوَلِيدَةُ الْأَسَدَ فَلَا يَضُرُّهَا، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتملأ الأرض من السلم، كما يملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة، فلا يُعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها، وتسلب قريش ملكها، وتكون الأرض كفاثور الفضة تنبت نباتها بعهد آدم، حتىٰ يجتمع النفر علىٰ القطف من العنب فيشبعهم، ويجتمع النفر علىٰ الرمانة فتشبعهم، ويكون الثور بكذا وكذا من المال، وتكون الفرس بالدريهمات...**».

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والله لينزلن عيسىٰ ابن مريم حكمًا عادلًا... وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يسعىٰ عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلىٰ المال فلا يقبله أحد**».

✍ **قال الإمام النووي** - رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ -: ومعناه أن يزهد الناس فيها، ولا يرغب في اقتنائها لكثرة الأموال وقلة الآمال وعدم الحاجة والعلم بقرب القيامة، وإنما ذكرت القلاص لكونها أشرف الإبل التي هي أنفس الأموال عند العرب وهي شبيهة بمعنىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾ [التكوير:٤]. ومعنىٰ لا يسعىٰ عليها: لا يعتني بها.

۞ موت عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ودفنه:

لم يرد عن الشارع نص يبين لنا مكان موت عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن ذكر بعض العلماء أنه يموت عَلَيْهِ السَّلَامُ في المدينة النبوية، وقيل إنه يدفن مع رسول الله ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما.

✍ **قال القرطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «واختلف حيث يدفن فقيل: بالأرض المقدسة ذكره الحليمي، وقيل: يدفن مع النبي ﷺ علىٰ ما ذكرناه من الأخبار».

رابعًا: خروج يأجوج ومأجوج:

من علامات الساعة الكبرىٰ التي أخبر بها الرسول ﷺ خروج يأجوج ومأجوج، والكلام علىٰ هذه العلامة يتضمن المسائل التالية:

المسألة الأولى: أصل يأجوج ومأجوج ونسبهم:

اختلف في اشتقاق الكلمتين:

فقيل: هما اسمان أعجميان مُنعا من الصرف للعلمية والعجمة، وعلىٰ هذا فليس لهما اشتقاق؛ لأن الأعجمية لا تشتق من العربية.

وقيل: بل هما عربيان، واختلف في اشتقاقهما، **فقيل**: من أجيج النار وهو التهابها، وقيل: من الأجاج وهو الماء الشديد الملوحة، **وقيل**: من الأج وهو سرعة العدو، **وقيل**: من الأجة بالتشديد وهي الاختلاط والاضطراب.

وعند جمهور القراء: ياجوج وماجوج بدون همز، وأما قراءة عاصم فهي بالهمزة الساكنة فيهما.

والخلاصة من هذا: أن جميع ما ذكر في اشتقاقهما مناسب لحالهم، ويؤيد الاشتقاق من ماج قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف:٩٩]. وذلك حين يخرجون من السد.

وقد اختلف في نسبهم، فقيل: إنهم من ذرية آدم.

والذي رجحه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنهم قبيلتان من ولد يافث بن نوح. فهما من ولد آدم وحواء، ويؤيد ذلك حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «**يقول الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة: يا آدم، يقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادىٰ بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلىٰ النار، قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف (أراه قال) تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾** [الحج:٢]. فشق ذلك علىٰ الناس حتىٰ تغيرت وجوههم، فقال النبي ﷺ: «**من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد...**» الحديث.

المسألة الثانية: الأدلة على خروجهم من القرآن والسنة:

* ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ

ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾ ﴾

[الكهف: ٩٣ - ٩٨].

* وقوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

[الأنبياء: ٩٦ - ٩٧].

فدلالة الآيتين علىٰ كون خروجهم من أشراط الساعة: أن فيهما التصريح بأنه إذا فتحت يأجوج ومأجوج فإن ذلك دليل علىٰ اقتراب الوعد الحق والمراد به يوم القيامة فقوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ ﴾ [الأنبياء:٩٦] حتىٰ «فيه متعلقة بما قبل الآية، أي كل قرية أهلكت تبقىٰ في الهلاك حتىٰ قيام الساعة، أو تبقىٰ في عدم الرجعة إلىٰ الدنيا، أو إلىٰ التوبة حتىٰ قيام الساعة، وهذه الأقوال مُفرعة علىٰ معنىٰ الآية السابقة وهي قوله تعالىٰ: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

[الأنبياء:٩٥].

وقيل: إن «حتىٰ» متعلقة بقوله تعالىٰ: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ [الأنبياء:٩٣] أي استمر الخلاف بين الأمم حتىٰ قيام الساعة وقوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ ﴾ [الأنبياء:٩٦] المراد إذا فتح الردم عن هاتين القبيلتين العظيمتين وتمكنوا من الخروج، فيخرجون من كل حدب وهو المرتفع من الأرض يسرعون في المشي إلىٰ الفساد.

وأما الأدلة من السنة علىٰ خروجهم فهي كثيرة:

* منها: حديث أم حبيبة بنت أبي سفيان ﵄، عن زينب بنت جحش ﵂: أن رسول الله ﷺ دخل يومًا فزعًا يقول: «**لا إله إلّا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**»، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**».

* ومنها: حديث النواس بن سمعان ﵁ الذي تقدم ذكره كثيرًا، وفيه: «**إذ أوحىٰ الله إلىٰ عيسىٰ أني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلىٰ الطور ويبعث**

الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم علىٰ بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسىٰ وأصحابه حتىٰ يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب إلىٰ الله عيسىٰ وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسىٰ كموت نفس واحدة. ثم يهبط نبي الله عيسىٰ وأصحابه إلىٰ الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلَّا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسىٰ وأصحابه إلىٰ الله فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله» وفي رواية بعد قوله «لقد كان بهذه مرة ماء»: «ثم يسيرون حتىٰ ينتهوا إلىٰ جبل الخَمَر وهو جبل ببيت المقدس فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هلم فلنقتل من في السماء فيرمون بنشابهم إلىٰ السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دمًا».

* ومنها: حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه في ذكر أشراط الساعة فذكر منها: يأجوج ومأجوج.

* ومنها: حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لما كان ليلة أسري برسول الله ﷺ لقي إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ - عليهم السلام - فتذاكروا الساعة إلىٰ أن قال: فردوا الحديث إلىٰ عيسىٰ، فذكر قتل الدجال ثم قال: ثم يرجع الناس إلىٰ بلادهم فيستقبلهم يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون لا يمرون بماء إلَّا شربوه ولا بشيء إلَّا أفسدوه. يجأرون إلي فأدعو الله فيميتهم فتجوىٰ الأرض من ريحهم، فيجأرون إلي فأدعو الله فيرسل السماء بالماء فيحملهم فيقذف بأجسامهم في البحر».

* ومنها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، فذكر الحديث وفيه: «ويخرجون علىٰ الناس فيستقون المياه ويفر الناس منهم فيرمون سهامهم في السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون: قهرنا أهل الأرض وغلبنا من في السماء قوة وعلوًّا، قال: فيبعث الله عَزَّوَجَلَّ عليهم نغفًا في أقفائهم، قال: فيهلكهم، والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتبطر وتشكر شكرًا وتسكر سكرًا من لحومهم».

إلىٰ غير ذلك من الأدلة التي تدل علىٰ خروجهم وأنه يجب الإيمان بها وتصديقها.

✍ قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويجب الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ وصح به النقل فيما شاهدناه أو غاب عنا، نعلم أنه حق وصدق، وسواء في ذلك ما عقلناه وما جهلناه، ولم نطلع علىٰ حقيقة معناه مثل حديث الإسراء والمعراج... إلىٰ أن قال:

ومن ذلك أشراط الساعة مثل خروج الدجال، ونزول عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيقتله وخروج يأجوج ومأجوج...».

✍ **وقال القاضي عياض**: «الأحاديث الواردة في يأجوج ومأجوج: هذه الأخبار علىٰ حقيقتها يجب الإيمان بها؛ لأن خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة، وقد ورد في خبرهم أنه لا قدرة لأحد علىٰ قتالهم من كثرتهم، وأنهم يحصرون نبي الله عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه من المؤمنين الذين نجوا من الدجال، فيدعو عليهم فيهلكهم الله عَزَّوَجَلَّ أجمعين بالنغف

- وهو دود في رقابهم - فيؤذون الأرض والمؤمنين بنتنهم، فيدعو عيسىٰ وأصحابه ربهم فيرمل الله طيرًا فتحملهم حيث شاء الله».

✍ **وقال السفاريني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن خروجهم من وراء السد علىٰ الناس حق ثابت لوروده في الذكر وثبوته عن سيد البشر، ولم يحله عقل فوجب اعتقاده».

المسألة الثالثة: السد ويأجوج ومأجوج:

بنىٰ ذو القرنين سد يأجوج ومأجوج ليحجز بينهم وبين جيرانهم الذين استغاثوا به منهم. وقد ورد في القرآن الكريم ذكر هذا السد، فقال تعالىٰ: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف: ٩٤ - ٩٥].

هذا ما ورد في القرآن علىٰ بناء هذا السد.

۞ **أما مكانه:**

ففي جهة المشرق لقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾

[الكهف:٩٠].

* قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال رجل للنبي ﷺ: رأيت السد من البرد المحبر. قال: «**قد رأيته**».

ويمكن أن يكون هذا السد هو السور المحيط بمدينة ترمذ الذي ذكره ياقوت الحموي في «معجم البلدان»، وليس هو سد ذي القرنين.

وأيضًا: فإن البحث في تحديد مكان السد لا يهم كثيرًا؛ ولا يحصل بعدم معرفته خلل في الاعتقاد؛ لأن المقصود بيان أن ما أخبرنا الله تعالىٰ به، وما جاء في الأحاديث الصحيحة من أن سد يأجوج ومأجوج موجود إلىٰ أن يأتي الوقت المحدد لدك هذا السد وخروج

يأجوج ومأجوج، وذلك عند دنو الساعة بهما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف: ٩٨ - ٩٩]. كل ذلك: حقيقة يجب التصديق به.

والذي يدل علىٰ أن السد موجود ولم يندك، حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ في السد قال: «**يحفرونه كل يوم حتىٰ إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدًا، قال: فيعيده الله عَزَّوَجَلَّ كأشد ما كان حتىٰ إذا بلغوا مدتهم وأراد الله تعالىٰ أن يبعثهم علىٰ الناس قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدًا إن شاء الله تعالىٰ واستثنىٰ، قال: فيرجعون وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون علىٰ الناس، فيستقون المياه ويفر الناس منهم**».

✍ **قال الحافظ ابن حجر** رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح: قال ابن العربي - رَحِمَهُ اللَّهُ: «في هذا الحديث ثلاث آيات: **الأولىٰ**: أن الله منعهم أن يوالوا الحفر ليلًا ونهارًا، **والثانية**: منعهم أن يحاولوا الرقي علىٰ السد بسلم أو آلة فلم يلهمهم ذلك ولا علمهم إياه، **الثالثة**: أنه صدهم عن أن يقولوا: إن شاء الله حتىٰ يجيء الوقت المحدد».

فخروجهم الذي هو من أشراط الساعة الكبرىٰ في آخر الزمان لم يقع؛ لأن الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ تدل علىٰ أن خروجهم بعد نزول عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الذي يدعو الله عَزَّوَجَلَّ بأن يهلكهم فيهلكون ويسلم الناس من شرهم.

فيجب علىٰ كل مسلم الإيمان بما جاء في الكتاب والسنة عن السد ويأجوج ومأجوج، ولا عبرة بمن أنكر وجود يأجوج ومأجوج ووجود السد الذي بناه ذو القرنين بينهم وبين الناس بحجة ظهور دول الكفر المتقدمة في الصناعة، وأن هؤلاء استطاعوا أن يكتشفو كل ما في الأرض ولم يتركوا منها شيئًا إلَّا أتوا عليه، ولكنهم لم يعثروا علىٰ يأجوج ومأجوج، ولم يروا سد ذي القرنين، ولا شك أن هذا قول فاسد؛ لأنه تكذيب صريح لما جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ولما أخبر به رسولنا ﷺ الذي لا ينطق عن الهوىٰ، ومن كذب بشيء جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة رسوله ﷺ فقد كفر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت:٤٧].

وأما دعواهم أن الأرض اكتشفت كلها ولم يجدوا فيها يأجوج ومأجوج والسد، فهي دعوىٰ باطلة تدل علىٰ عجز البشر وقصورهم؛ لأن معرفة جميع بقاع الأرض والإحاطة بما فيهما من المخلوقات لا يقدر عليها إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ الذي أحاط بكل شيء علمًا، ولا

يلزم من عدم رؤيتهم عدم وجودهم؛ لأنه قد يكون الله عَزَّوَجَلَّ صرفهم عن رؤية يأجوج ومأجوج ورؤية السد، أو جعل بينهم وبين الناس أشياء تمنع من الوصول إليهم كما حصل لبني إسرائيل حين ضرب الله عليهم التيه في فراسخ قليلة من الأرض، فلم يطلع عليهم الناس حتىٰ انتهىٰ أمد التيه، والله سبحانه وتعالىٰ علىٰ كل شيء قدير، جعل لكل شيء أجلًا ووقتًا، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام: ٦٦ - ٦٧]. وما عجز الأوائل عن اكتشاف ما اكتشفه المتأخرون إلَّا لأن الله عَزَّوَجَلَّ جعل لكل شيء أجلًا.

ثم هؤلاء الثرثارون الذين غرهم في دينهم ما كانوا يفترون هل أحاطوا بأنفسهم علمًا، عجبًا لأُناس لم يستطيعوا الوصول إلىٰ سر الروح التي بين جنباتهم ولم يقدروا علىٰ إدراك كنه عقولهم ولم يتوصلوا بعد لكل ما في أجسادهم، ثم يدعو كذبًا وبهتانًا وغرورًا أنهم قد أحاطوا بكل شيء علمًا وأنهم قد وصلوا لكل بقعة في الأرض وهذا محض افتراء وجرأة لا تدخل إلَّا علىٰ سفهاء الناس وجهالهم، وهم يخدعون أتباعهم من سفهائنا بهذا ويشككونهم في دينهم ولو تفكروا لعلموا أنهم يخدعونهم وأنهم ما أُوتوا من العلم إلَّا قليلًا فانتبه!

المسألة الرابعة: هلاك يأجوج ومأجوج وطيب العيش وبركته بعد موتهم:

بعد طغيان يأجوج ومأجوج وإفسادهم وعتوهم في الأرض وإهلاكهم للحرث والنسل، يتضرع نبي الله عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصحابه إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، ليكشف عنهم ما حل بهم من البلاء والمحن التي لم يجدوا بأنفسهم حيلة ولا قوة لدفعها، فيستجيب الله لهم، فيسلط الله عليهم الدود الصغير فيهلكهم فيصبحون موتىٰ موت الجراد، يركب بعضهم بعضًا، فتمتلئ الأرض من نتنهم، فيؤذون الناس بنتنهم أشد من حياتهم، فيتضرع نبي الله عيسىٰ وأصحابه ثانية إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فيرسل طيرًا تحملهم وتطرحهم في البحر، ثم يرسل مطرًا تغسل آثارهم، ثم يأمر الله الأرض لترد بركتها وتنبت ثمارها، فيعم الرخاء، وتطرح البركة فيعيش عيسىٰ ابن مريم وأصحابه في عيش رغيد.

* ففي حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطويل الذي مر ذكره فيما سبق أن الرسول ﷺ قال فيه: «**ويحاصر عيسىٰ ابن مريم وأصحابه حتىٰ يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسىٰ كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصحابه إلىٰ**

الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلَّا ملأه زهمهم، ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسىٰ وأصحابه إلىٰ الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله. ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتىٰ يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل حتىٰ إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس».

* وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «... ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلىٰ السماء، فترجع متخضبة دما للبلاء والفتنة، فبينا هم علىٰ ذلك، بعث الله دودًا في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقه، فيصبحون موتىٰ لا يسمع لهم حسٌّ، فيقول المسلمون: إلَّا رجل يشري لنا نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو، قال: فيتجرد رجل منهم لذلك محتسبًا لنفسه قد أطنها علىٰ أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتىٰ، بعضهم علىٰ بعض، فينادي: يا معشر المسلمين: إلَّا أبشروا، فإن الله قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فما يكون لها رعيٌ إلَّا لحومهم، فتشكر عنه كأحسن ما تشكر عن شيء من النبات أصابته قط».

خامسا: طلوع الشمس من مغربها:

طلوع الشمس من مغربها من علامات الساعة الكبرىٰ كما هو ثابت بالكتاب والسنة وإجماع العلماء.

* قال الله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام:١٥٨].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله بعد ذكره لأقوال المفسرين في الآية: وأولىٰ الأقوال بالصواب في ذلك ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ذلك حين تطلع الشمس من مغربها».

* ومن الأحاديث علىٰ ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمن الناس أجمعون، فذلك حيث لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا».

* ومنها: حديث أبي موسىٰ الأشعري ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتىٰ تطلع الشمس من مغربها**».

* ومنها: حديث صفوان بن عسال ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**إن الله فتح بابًا قبل المغرب، عرضه سبعون عامًا للتوبة لا يُغلق حتىٰ تطلع الشمس منه**».

✍ **قال الحافظ ابن حجر** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسىٰ ابن مريم، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام الساعة، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب».

✍ **قال البرزنجي في «الإشاعة»**: وهذا جمع حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

* وعن أبي ذر ﵁: أن النبي ﷺ قال يومًا: «**أتدرون أين تذهب هذه الشمس**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**إن هذه تجري حتىٰ تنتهي إلىٰ مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك، حتىٰ يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتىٰ تنتهي إلىٰ مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتىٰ يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئًا حتىٰ تنتهي إلىٰ مستقرها ذاك تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي اصبحي طالعة من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها**»، فقال رسول الله ﷺ: «**أتدرون متىٰ ذاكم؟ ذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا**».

وهذا السجود للشمس لا ندري كيفيته ولا يعلمها إلَّا الله سبحانه وتعالىٰ الذي يسجد له كل من في السماوات والأرض كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج:١٨].

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٤٨ - ٥٠].

✍ **قال ابن كثير**: «يخبر تعالىٰ عن عظمته وكبريائه الذي خضع له كل شيء ودانت له الأشياء بأسرها جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشيا، فإنه ساجد بظله لله تعالىٰ».

وقد تكلم العلماء - رحمهم الله تعالىٰ - عن حديث سجود الشمس تحت العرش وردوا علىٰ من أول ذلك، وبينوا أن سجودها تحت العرش سجود حقيقي.

✍ **قال أبو سليمان الخطابي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قول رسول الله ﷺ: «مستقرها تحت العرش» قال: «لا ننكر أن يكون لها استقرار تحت العرش من حيث لا ندركه ولا نشاهده وإنما أخبرنا عن غيب فلا نكذب به ولا نكيفه؛ لأن علمنا لا يحيط به... ثم قال عن سجودها تحت العرش: وفي هذا إخبار عن سجود الشمس تحت العرش فلا ينكر أن يكون ذلك عند محاذاتها العرش في مسيرها والتصرف لما سخرت له، وأما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف:٨٦]. فهو نهاية مدرك البصر إياها حالة الغروب ومصيرها تحت العرش للسجود، وإنما هو بعد الغروب».

✍ **قال القاضي عياض عقب شرحه للحديث السابق**: «وهو علىٰ ظاهره عند أهل الفقه والحديث والمتكلمين من أهل السنة خلافًا لمن تأوله من المبتدعة والباطنية، وهو أحد أشراط الساعة العظام المنتظرة».

✍ **وقال الإمام النووي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما سجود الشمس فهو بتمييز وإدراك يخلقه الله تعالىٰ».

✍ **وقال الإمام ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يسجد لعظمته تعالىٰ كل شيء طوعًا وكرهًا، وسجود كل شيء مما يختص به.

✍ **وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار وقوعه في كل يوم وليلة عند سجودها ومقابل الاستقرار المسير الدائم المعبر عنه بالجري - والله أعلم.

سادساً: خروج الدابة من أشراط الساعة الكبرى:

خروج دابة من الأرض في آخر الزمان تكلم الناس وتسميهم مؤمنًا وكافرًا، وذلك عند فساد الناس وتركهم أوامر الله تعالىٰ.

والكلام علىٰ هذه العلامة يشتمل علىٰ المسائل التالية:

۞ **المسألة الأولى: الأدلة على خروجها من الكتاب والسنة:**

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل:٨٢].

✍ عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن معنىٰ تكلمهم: تجرحهم، بمعنىٰ تكتب علىٰ جبين الكافر كافرًا، وعلىٰ جبين المؤمن مؤمنًا. وروي عنه أيضًا بمعنىٰ تخاطبهم.

✍ **قال الحافظ ابن كثير:** «هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق. يخرج الله لهم دابة من الأرض فتكلم الناس علىٰ ذلك».

✍ **وقال الألوسي:** «أي تكلمهم بأنهم لا يتيقنون بآيات الله تعالىٰ الناطقة بمجيء الساعة ومباديها أو بجميع آياته التي من جملتها تلك الآيات».

وأما الأدلة من السنة:

* فمنها: حديث أبي أمامة رضي الله عنه يرفعه إلىٰ النبي ﷺ قال: **«ثم تخرج الدابة فتسم الناس علىٰ خراطيمهم ثم يعمرون فيكم حتىٰ يشتري الرجل البعير، فيقال: ممن اشتريت؟ فيقول اشتريته من أحد المخطمين»**.

* ومنها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بادروا بالأعمال ستًّا: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويصة أحدكم»**.

* ومنها: حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: **«ما تذاكرون»؟** قالوا: نذكر الساعة قال: **«إنها لن تقوم الساعة حتىٰ تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسىٰ ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلىٰ محشرهم»**.

۞ **المسألة الثانية: صفة الدابة:**

اختلف العلماء في صفة الدابة إلىٰ عدة أقوال:

القول الأول: أنها فصيل ناقة صالح، قال القرطبي: «أولىٰ الأقوال أنها فصيل ناقة صالح وهو أصحها، والله أعلم» واستدل بحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده»

عن حذيفة قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال: «**لها ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج في أقصىٰ البادية ولا يدخل ذكرها القرية** – يعني مكة – **ثم تكمن زمنًا طويلًا، ثم تخرج خرجة أخرىٰ دون ذلك فيفشو ذكرها في البادية، ويدخل ذكرها القرية**»، يعني مكة، قال رسول الله ﷺ : «**ثم بينما الناس في أعظم المساجد علىٰ الله حرمة خيرها وأكرمها علىٰ الله المسجد الحرام لم يرعهم إلَّا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض رأسها عن التراب فتركض الناس منها شتىٰ ومعًا، وتثبت عصابة من المؤمنين عرفوا أنهم لم يعجزوا الله فبدأت بهم، فجلت وجوههم حتىٰ جعلتها كأنها الكوكب الدري، وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتىٰ إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه، فتقول: يا فلان: الآن تصلي!؟ فتقبل عليه فتسمه في وجهه...**».

ووجه الدلالة من هذا الحديث قوله: وهي ترغو والرغاء للإبل. وقال القرطبي في «التذكرة»: «وقد قيل إن الدابة التي تخرج هي الفصيل الذي كان لناقة صالح عليه السلام، فلما قتلت الناقة هرب الفصيل بنفسه فانفتح له الحجر فدخل فيه ثم انطبق عليه، فهو فيه إلىٰ وقت خروجه، حتىٰ يخرج بإذن الله تعالىٰ.

وقيل أنها دابة مزغبة شعراء ذات قوائم، طولها ستون ذراعًا، ويقال: إنها الجسَّاسة المذكورة في حديث تميم الداري رضي الله عنه والذي أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ. تقول فاطمة بنت قيس رضي الله عنها، وهي تحكي قصة اعتدادها بعد وفاة زوجها ابن المغيرة عند ابن عمها عبد الله بن عمرو بن أم مكتوم: «فلما انقضت عدتي سمعت نداء المنادي – منادي رسول الله ﷺ – ينادي: الصلاة جامعة، فخرجت إلىٰ المسجد، فصليت مع رسول الله ﷺ، فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قضىٰ رسول الله ﷺ صلاته، جلس علىٰ المنبر وهو يضحك فقال: «**ليلزم كل إنسان مصلاه**»، ثم قال: «**أتدرون لم جمعتكم**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ولكن جمعتكم لأن تميمًا الداري كان رجلًا نصرانيًّا فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثًا وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال: حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلًا من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهرًا في البحر ثم أرفؤوا إلىٰ جزيرة في البحر حتىٰ مغرب الشمس، فجلسوا في أقرب السفينة، فدخلوا الجزيرة، فلقيهم دابة أهلب كثير الشعر لا يدرون ما قُبُلُهُ من دبره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنت؟! فقالت: أنا الجساسة. قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم انطلقوا إلىٰ هذا الرجل في الدير، فإنه إلىٰ خبركم بالأشواق. قال: لما سمت لنا رجلًا فرقنا منها أن تكون**

شيطانة، قال: فانطلقنا سراعًا حتىٰ دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقًا، وأشده وثاقًا، مجموعة يداه إلىٰ عنقه وما بين ركبتيه إلىٰ كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك، ما أنت؟! قال: قد قدرتم علىٰ خبري، فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية، فصادفنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموج شهرًا ثم أرفأنا إلىٰ جزيرتك هذه فجلسنا في أقربها فدخلنا الجزيرة، فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر، لا يدرىٰ ما قُبُلُهُ من دبره من كثرة الشعر. فقلنا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة: قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلىٰ هذا الرجل في الدير فإنه إلىٰ خبركم بالأشواق. فأقبلنا إليك سراعًا، وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكون شيطانة، فقال: أخبروني عن نخل بَيْسان؟. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا له: نعم. قال: أما إنه يوشك أن لا يثمر. قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثير الماء. قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب. قال: أخبروني عن عين زُغَر؟ قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها. قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم. قال كيف صنع بهم؟، فأخبرناه أنه قد ظهر علىٰ من يليه من العرب وأطاعوه، قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه. وإني مخبركم عني، إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلَّا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة، فهما محرمتان علي كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحدًا منهما استقبلني ملك بيده سيف صلتا يصدني عنها، وإن علىٰ كل نقب منها ملائكة يحرسونها».

قالت: قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته في المنبر: «هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة» يعني المدينة «إلَّا هل كنت حدثتكم ذلك»؟ فقال الناس: نعم. قال: «فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة إلَّا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن لا بل من قبل الشرق ما هو من قبل الشرق، ما هو من قبل الشرق، ما هو» وأومأ بيده إلىٰ المشرق، قالت: فحفظت هذا من رسول الله ﷺ».

وسميت بالجسَّاسة؛ لأنها تجس الأخبار للدجال.

وقيل غير ذلك من أقوال كثيرة.

✍ **يقول العلامة عبد الرحمن بن سعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان وتكون من أشراط الساعة، كما تكاثرت بذلك الأحاديث ولم يذكر الله ورسوله كيفية هذه الدابة، وإنما ذكر أثرها والمقصود منها، وأنها من آيات الله تكلم الناس كلامًا خارقًا للعادة حين يقع القول على الناس، وحين يمترون بآيات الله فتكون حجة وبرهانًا للمؤمنين وحجة على المعاندين».

۞ **المسألة الرابعة: عمل الدابة:**

عمل هذه الدابة؛ كما جاءت به الأحاديث أنها تسم الناس المؤمن والكافر، حتىٰ إنه جاء في بعض الروايات: فتلقىٰ المؤمن فتسمه في وجهه، ويشترك الناس في الأقوال ويصطحبون في الأمصار، يعرف المؤمن الكافر وبالعكس.

✍ **قال ابن كثير**: وعن ابن عباس: تكلمهم، تجرحهم، يعني تكتب علىٰ جبين الكافر كافرًا، وعلىٰ جبين المؤمن مؤمنًا، ومنه تخاطبهم، وتخرجهم، وهذا القول ينتظم من مذهبين وهو قوي حسن جامع، والله تعالىٰ أعلم.

ويتلخص عمل الدابة في الأمور التالية:

١ - أنها دابة تكلم الناس.

٢ - أنها تسم المؤمن بعلامة وتجلو وجهه حتىٰ ينير.

٣ - أنها تسم الكافر بعلامة قيل: هي خطم الأنف.

✍ **قال ابن الأثير**: يعني تصيبه فتجعل له أثرًا مثل أثر الخطام.

سابعا: الدخان الذي يكون في آخر الزمان:

من علامات الساعة وأشراطها العظمىٰ ظهور دخان قبل قيام الساعة.

والكلام علىٰ هذه العلامة يتضمن المسائل التالية:

۞ **المسألة الأولى: الأدلة من الكتاب والسنة:**

* قال تعالىٰ: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الدخان: ١٠ - ١٣].

أما الأدلة من السنة علىٰ هذا الأمر فهي كثيرة:

* منها: حديث حذيفة بن أسيد الغفاري المتقدم، قال: «اطلع علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر الساعة فقال: «**ما تذاكرون**»؟ قلنا: نذكر الساعة، قال: «**إنها لن تقوم حتىٰ تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة...**» الحديث.

* ومنها: حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال...**» الحديث.

* ومنها: قوله ﷺ: «**إن ربكم أنذركم ثلاثًا: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ويأخذ الكافر فينتفخ حتىٰ يخرج من كل مسمع منه، والثانية: الدابة، والثالثة: الدجال**».

لقد اختلف العلماء - رحمهم الله - في المراد بالدخان الوارد في الآية والأحاديث المتقدمة علىٰ قولين:

١ - فذهب بعضهم إلىٰ أن هذا الدخان هو ما أصاب قريشًا من الشدة والجوع عندما دعا عليهم النبي ﷺ حين لم يستجيبوا له، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلىٰ السماء فلا يرون إلَّا الدخان، وإلىٰ هذا القول ذهب عبد الله بن مسعود ﷺ وتبعه جماعة من السلف ورجحه ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد استدل هؤلاء بما جاء في حديث مسروق بن الأجدع رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كنا جلوسًا عند عبد الله بن مسعود فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن قاصًّا يقص ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام» فقال عبد الله، وجلس وهو غضبان: «يا أيها الناس اتقوا الله، من علم منكم شيئًا فليقل بما يعلم، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قال لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦] إن رسول الله ﷺ لما رأىٰ من الناس إدبارًا قال لهم: «**اللَّهُمَّ سَبْعٌ كَسَبْعِ يُوسُفَ**» قال: فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتىٰ أكلوا الجلود والميتة من الجوعِ، وينظر إلىٰ السماء أحدهم فيرىٰ كهيئة الدخان».

✍ **وقال ابن مسعود أيضًا:** «خمس قد مضين: اللزام والروم والبطشة والقمر والدخان».

٢ - وذهب كثير من العلماء سلفًا وخلفًا إلىٰ أن الدخان هو من الآيات المنتظرة التي لم تأت بعد، وسيقع قرب يوم القيامة، وإلىٰ هذا ذهب علي بن أبي طالب، وابن عباس، وأبو سعيد الخدري ﷺ وغيرهم، وكثير من التابعين.

وقد رجح الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا، مستدلًّا بالأحاديث التي سبق ذكرها عند الاستدلال علىٰ هذه الآية (آية الدخان)، وبغيرها من الأحاديث، وأيضًا بما أخرجه ابن جرير وغيره عن عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوت علىٰ ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم فقال: «ما نمت البارحة حتىٰ أصبحت، قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتىٰ أصبحت».

✍ **قال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكره لهذا الأثر: «وهذا إسناد صحيح إلىٰ ابن عباس رضي الله عنهما حبر وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرها التي أوردوها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة علىٰ أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الدخان:١٠] أي بين واضح، يراه كل أحد، وعلىٰ ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد، وهكذا قوله تعالىٰ: ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ [الدخان:١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الدخان:١١] أي يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا.

٣ - وقد ذهب بعض العلماء إلىٰ الجمع بين هذه الآثار بأن قالوا هما دخانان ظهر أحدهما وبقي الآخر الذي سيقع في آخر الزمان، فأما الآية الأولىٰ التي ظهرت فهي ما كانت قريش تراه كهيئة الدخان، وهذا الدخان غير الدخان الحقيقي الذي يكون عند ظهور الآيات التي هي من أشراط الساعة.

✍ **قال القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال مجاهد: كان ابن مسعود يقول: «هما دخانان قد مضىٰ أحدهما، والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض ولا يجد المؤمن إلَّا كالزكمة، وأما الكافر فتثقب مسامعه.

✍ **وقال الإمام ابن جرير الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبعد فإنه غير منكر أن يكون أحل بالكفار الذين توعدهم بهذا الوعيد ما توعدهم، ويكون محلًّا فيما يستأنف بعد بآخرين دخانًا علىٰ ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ عندنا كذلك؛ لأن الأخبار عن رسول الله ﷺ قد تظاهرت بأن ذلك كائن، فإنه قد كان ما روىٰ عنه عبد الله بن مسعود، فكلا الخبرين اللذين رويا عن رسول الله ﷺ صحيح».

✍ **وقال النووي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين هذه الآثار».

ولا شك أن الجمع هو أفضل الطرق ولا منافاة بين الرأيين حينئذ - والله تعالىٰ أعلم،

ورد العلْم إليه أسلم.

ثامنًا: الخسوفات الثلاثة من العلامات الكبرى التي أخبر الرسول ﷺ بحدوثها في آخر الزمان:

وقد دلت علىٰ هذا أحاديث:

* منها: حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه - وقد سبق ذكره - وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنها لن تقوم حتىٰ تروا قبلها عشر آيات، وذكر منها ثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب**».

* ومنها: حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول ﷺ يقول: «**سيكون بعدي خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف في جزيرة العرب**»، قلت: يا رسول الله أيخسف بالأرض وفيها الصالحون؟ قال لها رسول الله ﷺ: «**إذا أكثر أهلها الخبث**».

فهذه الخسوفات الثلاثة من الأشراط الكبرىٰ التي لا تظهر إلَّا في آخر الزمان، وهي غير الخسوفات التي وقعت في الماضي وفي أماكن متعددة؛ لأن هذه من أشراط الساعة الصغرىٰ، أما هذه الخسوفات الثلاثة فهي خسوفات عظيمة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد وجد الخسف في مواضع، ولكن يحتمل أن يكون المراد بالخسوف الثلاثة قدرًا زائدًا علىٰ ما وجد، كأن يكون أعظم منه مكانًا أو قدرًا».

تاسعًا: النار التي تحشر الناس:

آخر الآيات الكبرىٰ والعلامات العظمىٰ لأشراط الساعة وأول الآيات المؤذنة بقيام القيامة خروج نار تحشر الناس إلىٰ محشرهم.

والكلام عليها في عدة مسائل:

المسألة الأولى: الأدلة على خروجها:

جاءت الروايات بأن خروج هذه النار يكون من اليمن من قعرة عدن، وجاءت روايات أخرىٰ بأنها تخرج من بحر حضرموت، ومن الأحاديث التي تبين ذلك:

١- حديث حذيفة بن أسيد في ذكر أشراط الساعة وآخره قوله ﷺ: «**وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلىٰ محشرهم**»، وفي رواية: «**نار تخرج من قعرة عدن ترحل الناس**».

٢- حديث ابن عمر رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**ستخرج نار من حضرموت أو من بحر حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس**».

٣- حديث أنس رضي الله عنه: «أن عبد الله بن سلام لما أسلم سأل النبي ﷺ عن مسائل ومنها: ما أول أشراط الساعة؟ فقال النبي ﷺ: «**أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلىٰ المغرب**».

۞ المسألة الثانية: الجمع بين الأحاديث الواردة في مكانها:

الجمع بين ما جاء أن هذه النار هي آخر أشراط الساعة الكبرىٰ وما جاء أنها أول أشراطها بأن يقال: إن آخريتها باعتبار ما ذكر معها من الآيات الواردة معها في حديث حذيفة، وأوليتها باعتبار أنها أول الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلًا، بل يقع بانتهاء هذه الآيات النفخ في الصور بخلاف ما ذكر معها من الآيات الواردة في حديث حذيفة، فإنه يبقىٰ بعد كل آية منها أشياء من أمور الدنيا.

أما ما جاء في بعض الروايات بأن خروجها يكون من اليمن، وفي بعضها الآخر أنها تحشر الناس من المشرق إلىٰ المغرب فيجاب عن ذلك بأجوبة:

١- أنه يمكن الجمع بين هذه الروايات بأن كون النار تخرج من قعر عدن لا ينافي حشرها الناس من المشرق إلىٰ المغرب، وذلك أن ابتداء خروجها من قعر عدن فإذا خرجت انتشرت في الأرض كلها، والمراد بقوله ﷺ: «**تحشر الناس من المشرق إلىٰ المغرب**» إرادة تعميم الحشر لا خصوص المشرق والمغرب.

٢- أن النار عندما تنتشر يكون حشرها لأهل المشرق أولًا، ويؤيد ذلك أن ابتداء الفتن دائمًا من المشرق، وأما جعل الغاية المغرب فلأن الشام بالنسبة إلىٰ أهل المشرق مغرب.

٣- يحتمل أن تكون النار المذكورة في حديث أنس كناية عن الفتن المنتشرة التي أثارت الشر العظيم والتهبت كما تلتهب النار، وكان ابتداؤها من قبل المشرق حتىٰ خرب معظمه وانحشر الناس من جهة المشرق إلىٰ الشام ومصر وهما من جهة الغرب، كما شوهد ذلك مرارًا في عهد التتر والمغول وغيرهم، وأما النار التي في حديثي حذيفة بن أسيد وابن عمر فهي نار حقيقية، والله أعلم.

۞ المسألة الثالثة: مكان الحشر:

المكان الذي يكون الحشر إليه في آخر الزمان هو الشام كما صحت بذلك الأحاديث الكثيرة منها:

١ - حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنكم محشورون رجالًا وركبانًا، وتجرون علىٰ وجوهكم ها هنا، وأومأ بيده إلىٰ الشام**».

٢ - حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الشام أرض المحشر والمنشر**» إلىٰ غير ذلك من الأحاديث.

✍ **قال الحافظ ابن حجر** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي تفسير ابن عيينة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «من شك أن المحشر ههنا، يعني الشام، فليقرأ أول سورة الحشر، قال لهم رسول الله ﷺ: «**يومئذ اخرجوا**»، قالوا: إلىٰ أين؟ قال: «**إلىٰ أرض المحشر**».

والسبب في كون الشام هي أرض المحشر أن الأمن والإيمان حين تقع الفتن في آخر الزمان يكون بالشام، وقد دعا النبي ﷺ للشام بالبركة فقال: «**اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا**».

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضائل الشام والترغيب في سكنها لا مجال لذكرها هنا وقد تقدم أن نزول عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في آخر الزمان يكون بالشام وبه يكون اجتماع المؤمنين لقتال الدجال، وهناك يقتله المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بباب لد، هذا بالإضافة إلىٰ أن أرض الشام مهبط الأنبياء ومسرىٰ رسول الله ﷺ.

۞ **المسألة الرابعة: زمان الحشر:**

وأما عن زمن الحشر: فقد اختلف أهل العلم فيه، فذهب بعض العلماء كالبيهقي والغزالي وغيرهما إلىٰ أن هذا الحشر ليس في الدنيا وإنما هو في الآخرة عند الخروج من القبور.

وذهب جماهير العلماء إلىٰ أن هذا الحشر يكون في الدنيا قبل قيام الساعة حيث يحشر الناس أحياء إلىٰ الشام، وأما الحشر من القبور إلىٰ الموقف فهو علىٰ خلاف الصورة الواردة في حشر الناس إلىٰ الشام حيث جاء في وصف حشر الدنيا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يحشر الناس علىٰ ثلاث طرائق راغبين راهبين، واثنان علىٰ بعير، وثلاثة علىٰ بعير، وأربعة علىٰ بعير، وعشرة علىٰ بعير، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا**» إلىٰ غير ذلك من الأحاديث التي تدل علىٰ أن المراد به حشر الموجودين في آخر الدنيا من أقطار الأرض إلىٰ محلة المحشر بأرض الشام.

وقد ورد في هذا الحديث وغيره الركوب والأكل والنوم وإماتة النار من يتخلف، ولو كان هذا بعد نفخة البعث لم يبق موت ولا ظهر يركب ويشترىٰ ولا أكل ولا لبس في عرصات القيامة، وأيضًا: فإن حشر الآخرة قد جاءت به الأحاديث تبين بأن الناس مؤمنهم وكافرهم يحشرون حفاة عراة لا عاهات فيهم، ففي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قام فينا رسول الله ﷺ خطيبًا بموعظة فقال: **«يا أيها الناس إنكم تحشرون إلىٰ الله حفاة عراة غرلًا** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤] **إلَّا وأن أول الخلائق يكسىٰ يوم القيامة إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ».

فمن أين للذين يبعثون بعد الموت حفاة عراة حدائق يدفعونها في الشوارف، أو أبعرة يركبها من يساق من الموقف إلىٰ الجنة، إن هذا في غاية البعد.

وبهذا يتبين أن الحشر الوارد في الأحاديث السابقة إنما يكون في الدنيا قبل يوم القيامة، أما حشر يوم القيامة فقد بينه حديث ابن عباس السابق، فمن ذهب إلىٰ خلاف ذلك فقد أخطأ وجانب الحق والصواب - والله أعلم.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما شرار الخلق فتخرج نار في آخر الزمان تسوقهم إلىٰ الشام قهرًا حتىٰ تجمع الناس كلهم بالشام قبل قيام الساعة».

وقد سبق التنبيه إلىٰ أن هذه النار غير النار التي خرجت في المدينة والتي تعد من الأشراط الصغرىٰ، والله أعلم.

(وهذه الأشراط منقولة بتصرف عن الشيخ العلامة سليمان الأشقر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ).

القاعدة الثامنة والعشرون في وجوب الإيمان باليوم الآخر وما به من أحداث جسام

أولاً: أشهر أسماء ذلك اليوم:

١- يوم القيامة:

- ورد هذا الاسم في سبعين آية من آيات الكتاب، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [النساء:٨٧].

- وقوله: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ [الإسراء:٩٧].

- وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[الشورى:٤٥].

والقيامة في اللغة مصدر قام يقوم، ودخلها التأنيث للمبالغة علىٰ عادة العرب، وسميت بذلك لما يقوم فيها من الأمور العظام التي بينتها النصوص. ومن ذلك قيام الناس لرب العالمين.

٢- اليوم الآخر:

- كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة:١٧٧].

- وقال: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة:٢٣٢].

- وقال: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة:١٨].

- وأحيانًا يسميه بالآخرة أو الدار الآخرة، كقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة:١٣٠].

- وقوله: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النساء:٧٤].

- وقوله: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗا﴾ [القصص:٨٣].

- وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

وسمىٰ ذلك اليوم باليوم الآخر، لأنه اليوم الذي لا يوم بعده.

٣- الساعة:

- قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥].

- وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه:١٥].

- وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾[الحج:١].

✍ **قال القرطبي:** «والساعة كلمة يعبر بها في العربية عن جزء من الزمان غير محدود، وفي العرف على جزء من أربعة وعشرين جزءًا من يوم وليلة، اللذين هما أصل الأزمنة.. وحقيقة الإطلاق فيها أن الساعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه، وهو المسمى بالآن، وسميت به القيامة إما لقربها، فإن كل آت قريب. وإما أن تكون سميت بها تنبيهًا على ما فيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود. وقيل: إنما سميت بالساعة لأنها تأتي بغتة في ساعة..».

٤- يوم البعث:

- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ...﴾ [الحج:٥].

- وقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ ﴾ [الروم:٥٦].

✍ **قال ابن منظور:** «البعث: الإحياء من الله تعالى للموتى، وبعث الموتى نشرهم ليوم البعث».

٥- يوم الخروج:

- قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ [ق:٤٢].

- وقال: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج:٤٣].

- وقال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم:٢٥].

سمي بذلك لأن العباد يخرجون فيه من قبورهم عندما ينفخ في الصور.

٦- القارعة:

- قال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ [القارعة: ١-٣].

- وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ [الحاقة:٤].

✍ **قال القرطبي:** «سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها. يقال: قد أصابتهم قوارع الدهر، أي: أهواله وشدائده، قالت الخنساء:

تعرفني الدهر نهشًا وحزا ... وأوجعني الدهر قرعًا وغمزا

أرادت أن الدهر بكبريات نوائبه وصغرياتها».

٧- يوم الفصل:

- قال تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[الصافات:٢١].

- وقال: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المرسلات:٣٨].

- وقال: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ ﴾ [النبأ:١٧].

سمي بذلك لأن الله يفصل فيه بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، وفيما كانوا فيه يختصمون، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [السجدة:٢٥].

٨- يوم الدين:

- قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الانفطار: ١٤-١٩].

- وقال: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الصافات:٢٠].

والدين في لغة العرب: الجزاء والحساب. قال الشاعر:

حصادك يومًا ما زرعت وإنما ... يدان الفتىٰ يومًا كما هو دائن

سمي بذلك لأنه الله يجزي العباد ويحاسبهم في ذلك اليوم.

٩- الصاخة:

- قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ ﴾ [عبس:٣٣].

✍ **قال القرطبي:** «قال عكرمة: (الصاخة) النفخة الأولىٰ و(الطامة) النفخة الثانية. قال الطبري: أحسبه من صخ فلان فلانًا إذا أصمه. قال ابن العربي: الصاخة التي تورث الصمم، وإنها المسمعة، وهذا من بديع الفصاحة حتىٰ لقد قال بعض أحداث الأسنان حديثي الأزمان:

أصمَّ بك الناعي وإن كنت أسمعا

✍ وقال آخر:

أصمَّني سيرهم أيام فرقتهم ... فهل سمعتم بسير يورث الصمما

ولعمر الله إن صيحة القيامة مسمعة، تصم عن الدنيا، وتسمع أمور الآخرة».

✍ **وقال ابن كثير:** «قال البغوي: الصاخّة يعني صيحة يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تصخُّ الأسماع، أي: تبالغ في إسماعها حتىٰ تكاد تصمها».

١٠ - الطامة الكبرى:

- قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [النازعات:٣٤].

سميت بذلك لأنها تطم علىٰ كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر:٤٦].

✍ **قال القرطبي:** «الطامّة الغالبة. من قولك: طمَّ الشيء إذا علا وغلب. ولما كانت تغلب كل شيء كان لها هذا الاسم حقيقة دون كل شيء. قال الحسن: الطامة: النفخة الثانية. وقيل: حين يسار أهل النار إلىٰ النار».

١١ - يوم الحسرة:

- قال تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم:٣٩].

سمي بذلك لشدة تحسر العباد في ذلك اليوم وتندمهم. أما الكفار فلعدم إيمانهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ﴾ [الأنعام:٣١]، واستمع إلىٰ تحسر الكفار عندما يحل بهم العذاب: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨].

وتبلغ الحسرة ذروتها بأهل الكفر عندما يتبرأ السادة والأتباع من متبوعيهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

[البقرة:١٦٧].

ويتحسر المؤمنون في ذلك اليوم بسبب عدم استزادتهم من أعمال البر والتقوىٰ.

١٢ - الغاشية:

- قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾ [الغاشية:١].

سميت بذلك لأنها تغشىٰ الناس بأفزاعها وتغمهم، ومن معانيها أن الكفار تغشاهم النار، وتحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [العنكبوت:٥٥].

- وقال: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف:٤١].

١٣ - يوم الخلود:

- قال تعالىٰ: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ [ق:٣٤].

سمي ذلك اليوم بيوم الخلود لأن الناس يصيرون إلىٰ دار الخلد، فالكفار مخلدون في النار، والمؤمنون مخلدون في الجنان، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٣٩].

- وقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[آل عمران:١٠٧].

١٤ - يوم الحساب:

- قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص:٢٦].

- وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [غافر:٢٧].

سمي بذلك اليوم بيوم الحساب، لأن الله يحاسب فيه عباده، قال القرطبي: «معنىٰ الحساب أن الله يعدِّد علىٰ الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة، ويعدِّد عليهم نعمه، ثم يقابل البعض بالبعض، فما يشف منها علىٰ الآخر حكم للمشفوف بحكمه الذي عينه للخير بالخير، وللشرِّ بالشرِّ، وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما منكم أحد إلَّا وسيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان**».

١٥ - الواقعة:

- قال تعالىٰ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ ﴾ [الواقعة:١].

✍ **قال ابن كثير:** «سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها». وأصل وقع في لغة العرب كان ووجد.

١٦ - يوم الوعيد:

- قال تعالىٰ: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ [ق:٢٠].

لأنه اليوم الذي أوعد به عباده. وحقيقة الوعيد هو الخبر عن العقوبة عند المخالفة

١٧ - يوم الأزفة:

- قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ [غافر:١٨].

سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النجم: ٥٧-٥٨].

والساعة قريبة جدًّا. وكل آت فهو قريب وإن بَعُد مداه. والساعة بعد ظهور علاماتها أكثر قربًا.

١٨ - يوم الجمع:

- قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الشورى:٧].

سميت بذلك، لأن الله يجمع فيه الناس جميعًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾ [هود:١٠٣].

١٩ - الحاقة:

- قال تعالىٰ: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ ﴾ [الحاقة: ١-٢].

سميت بذلك - كما يقول ابن كثير - لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد.

✍ **قال البخاري في «صحيحه»**: «هي الحاقة لأن فيها الثواب وحواق الأمور. الحقة والحاقة واحد».

✍ **وقال ابن حجر في شرحه لكلام البخاري**: «هذا أخذه من كلام الفراء. قال في معاني القرآن. الحاقة: القيامة. سميت بذلك لأن فيها الثواب وحواقّ الأمور. ثم قال: الحقة والحاقة كلاهما بمعنىٰ واحد.

✍ **قال الطبري**: سميت الحاقة لأن تحقّ فيها. وهي كقولهم: ليلٌ قائم. وقال غيره: سميت الحاقة لأنها أحقت لقوم الجنة ولقوم النار. وقيل: لأنها تحاقق الكفار الذين خالفوا الأنبياء. يقال: حاققته فحققته، أي: خاصمته فخصمته. وقيل: لأنها حق لا شك فيه».

٢٠ - يوم التلاق:

- قال تعالىٰ: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾ [غافر:١٥].

✍ **قال ابن كثير:** «قال ابن عباس: يلتقي فيه آدم وآخر ولده. وقال ابن زيد: يلتقي فيه العباد. وقال قتادة والسدي وبلال بن سعد وسفيان بن عيينة: يلتقي فيه أهل الأرض والسماء، والخالق والخلق، وقال ميمون بن مهران: يلتقي فيه الظالم والمظلوم. وقد يقال: إن يوم التلاق يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقىٰ ما عمله من خير وشر كما قاله آخرون».

٢١- يوم التناد:

- قال تعالىٰ حاكيًا نصيحة مؤمن آل فرعون قومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ [غافر:٣٢].

سمي بذلك لكثرة ما يحصل من نداء في ذلك اليوم، فكل إنسان يدعىٰ باسمه للحساب والجزاء، وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار، وأصحاب النار ينادون أصحاب الجنة، وأهل الأعراف ينادون هؤلاء وهؤلاء.

٢٢- يوم التغابن:

- قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩].

سمي بذلك لأن أهل الجنة يغبنون أهل النار، إذ يدخل هؤلاء الجنة، فيأخذون ما أعد الله لهم، ويرثون نصيب الكفار من الجنة.

هذه هي أشهر أسماء يوم القيامة، وقد أورد بعض العلماء أسماء أخرىٰ غير ما ذكرناه، وهذه الأسماء أخذوها بطريق الاشتقاق بما ورد منصوصًا، فقد سموه بيوم الصدر أخذًا من قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة:٦]، ويوم الجدال أخذًا من قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل:١١١].

وسموه بأسماء الأوصاف التي وصف الله بها ذلك اليوم، فقالوا من أسمائه: يوم عسير، ويوم عظيم، ويوم مشهود، ويوم عبوس قمطرير، ويوم عقيم.

- ومن الأسماء التي ذكروها غير ما تقدم: يوم المآب، يوم العرض، يوم الخافضة الرافعة، يوم القصاص، يوم الجزاء، يوم النفخة، يوم الزلزلة، يوم الراجفة، يوم الناقور، يوم التفرق، يوم الصدع، يوم البعثرة، يوم الندامة، يوم الفرار.

- ومنها أيضًا: يوم تبلىٰ السرائر، يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئًا، يوم يُدَعُّون إلىٰ نار جهنم دَعًّا، يوم تشخص فيه الأبصار، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، يوم لا ينطقون، يوم

لا ينفع مال ولا بنون، يوم لا يكتمون الله حديثًا، يوم لا مرد له من الله، يوم لا بيع فيه ولا خلال، يوم لا ريب فيه.

- وقد يضيف إليها بعض أهل العلم أسماء أخرىٰ، وقد يسمىٰ الاسم بما يقاربه ويماثله، قال القرطبي: «ولا يمتنع أن تسمىٰ بأسماء غير ما ذكر بحسب الأحوال الكائنة فيه من الازدحام والتضايق واختلاف الأقدام، والخزي، والهوان، والذل، والافتقار، والصَّغار، والانكسار، ويوم الميقات، والمرصاد، إلىٰ غير ذلك من الأسماء».

۞ السر في كثرة أسمائه:

✍ **يقول القرطبي**: «وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته، وكثرت أسماؤه، وهذا مهيع كلام العرب، إلَّا ترىٰ أن السيف لما عظم عندهم موضعه، وتأكد نفعه لديهم وموقعه، جمعوا له خمسمائة اسم، وله نظائر.

فالقيامة لما عظم أمرها، وكثرت أهوالها، سماها الله تعالىٰ في كتابه بأسماء عديدة، ووصفها بأوصاف كثيرة».

ثانيا: النفخ في الصور:

هذا الكون العجيب الغريب الذي نعيش فيه، يعجُّ بالحياة والأحياء الذين نشاهدهم والذين لا نشاهدهم، وهم فيه في حركة دائبة لا تهدأ ولا تتوقف، وسيبقىٰ حاله كذلك إلىٰ أن يأتي اليوم الذي يُهلك الله فيه جميع الأحياء إلَّا من يشاء، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وعندما يأتي ذلك اليوم ينفخ في الصور، فتُنهي هذه النفخة الحياةَ في الأرض والسماء ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾.

وهي نفخة هائلة مدمرة، يسمعها المرء فلا يستطيع أن يوصي بشيء، ولا يقدر علىٰ العودة إلىٰ أهله وخلانه ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

[يس: ٤٩-٥٠].

* وفي الحديث: «**ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلَّا أصغىٰ ليتًا، ورفع ليتًا، قال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله. قال: فيصعق ويصعق الناس**».

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن سرعة هلاك العباد حين تقوم الساعة، فقال: «**ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد**

انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة، وهو يليط حوضه، فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلىٰ فيه فلا يطعمها».

۞ الصّور الذي ينفخ فيه:

الصور في لغة العرب القَرْن، وقد سئل الرسول ﷺ عن الصور، ففسره بما تعرفه العرب من كلامها، ففي «سنن الترمذي» و«سنن أبي داود»، و«سنن ابن حبان»، و«مسند أحمد»، و«مستدرك الحاكم»، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «**الصور قرن ينفخ فيه**» قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي فيه: حديث حسن صحيح.

۞ اليوم الذي يكون فيه النفخة:

* تقوم الساعة في يوم الجمعة، ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلِق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلَّا يوم الجمعة**».

* وفي «مسند أحمد» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أُهبط، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلَّا وهي مُصِيخَةٌ، يوم الجمعة من حين تصبح حتىٰ تطلع الشمس، شفقًا من الساعة، إلَّا الجن والإنس**».

۞ كم مرَّة ينفخ في الصُّور؟

الذي يظهر أن إسرافيل ينفخ في الصور مرتين، الأولىٰ يحصل بها الصعق، والثانية يحصل بها البعث، قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر:٦٨].

وقد سمىٰ القرآن النفخة الأولىٰ بالراجفة، والنفخة الثانية بالرادفة، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات:٦-٧].

وفي موضع آخر سمىٰ الأولىٰ بالصيحة، وصرح بالنفخ بالصور في الثانية، قال تعالىٰ: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٤٩-٥١].

وقد جاءت الأحاديث النبوية مصرحة بالنفختين، ففي «صحيح البخاري ومسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما بين النفختين أربعون**». قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يومًا؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت.

* وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلَّا أصغىٰ ليتًا، ورفع ليتًا، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق، ويصعق الناس، ثم يرسل الله - أو قال: ينزل الله مطرًا، كأنه الطَّلُّ، أو الظِّلُّ**، (نعمان الشاك) **فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرىٰ فإذا هم قيام ينظرون**».

* وأخرج البيهقي بسند قوي عن ابن مسعود موقوفًا: «**ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض، فينفخ فيه، والصور قرن، فلا يبقىٰ خلق في السماوات ولا في الأرض إلَّا مات إلَّا من شاء ربك، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون**».

* وروىٰ أوس بن أوس الثقفي عن الرسول ﷺ قال: «**إن أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه الصعقة وفيه النفخة**»، وقد أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم.

وقد رجح هذا الذي دلت عليه هذه الآيات والأحاديث التي سقناها جمع من أهل العلم، منهم القرطبي، وابن حجر العسقلاني.

۞ الذين لا يُصعقون عند النفخ في الصور:

أخبرنا الباري جلَّ وعلا أن بعض من في السماوات ومن في الأرض لا يُصعقون عندما يُصعق من في السماوات ومن في الأرض ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨].

وقد اختلف العلماء في تعيين الذين عناهم الحق بالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨].

✍ وقد جنح **أبو العباس القرطبي** صاحب «المفهم إلىٰ شرح مسلم» إلىٰ أن المراد بهم الأموات كلهم، لكونهم لا إحساس لهم، فلا يصعقون.

وما ذهب إليه أبو العباس صحيح إذا فسرنا الصعق بالموت، فإن الإنسان يموت مرة واحدة، قال تعالىٰ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦].

✍ **وقد عقد ابن القيم في كتابه:** «الروح» فصلًا بيَّن فيه أن أهل العلم قد اختلفوا في موت الأرواح عند النفخ في الصور.

والذي رجحه ابن القيم أن موت الأرواح هو مفارقتها للأجساد، وخروجها منها، وردَّ قول الذين قالوا بفناء الأرواح وزوالها، لأن النصوص دلت علىٰ أن الأرواح تبقىٰ في البرزخ معذبة أو منعمة.

أما إذا فسرنا الصعق بالغشي، فإن الأرواح تصعق بهذا المعنىٰ ولا تكون داخلة فيمن استثنىٰ الله تبارك وتعالىٰ، فإن الإنسان قد يسمع أو يرىٰ ما يفزعه، فيصعق، كما وقع لموسىٰ عندما رأىٰ الجبل قد زال من مكانه ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣].

وقد جاء هذا المعنىٰ صريحًا في بعض النصوص، ففي حديث أبي هريرة، عند البخاري قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تخيروني علىٰ موسىٰ، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا موسىٰ باطشٌ بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنىٰ الله**».

* ورواه البخاري أيضًا عن أبي هريرة بلفظ: «**إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة، فإذا أنا بموسىٰ متعلق بالعرش، فلا أدري، أكذلك كان، أم بعد النفخة**».

* ورواه في موضع ثالث بلفظ: «**فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسىٰ باطشٌ بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن أفاق قبلي، أو كان ممن استثنىٰ الله**».

وهذا الحديث صريح في أن الموتىٰ يصعقون، فإذا كان رسول الله ﷺ وهو سيد المرسلين يصعق، فغيره أولىٰ بالصعق.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن الذي يصعق صعق غشي هم الشهداء دون غيرهم من الأموات، وأضاف إليهم آخرون من الأنبياء.

والسر في قَصْر هذا علىٰ الشهداء والأنبياء - كما يقول شيخ القرطبي: أحمد بن عمر - : «أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين، وهذه صفة الأحياء في الدنيا، وإذا كان هذا حال الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولىٰ، مع أنه قد صح عن النبي ﷺ أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأن النبي ﷺ قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس، وفي السماء، وخصوصًا بموسىٰ، وقد أخبرنا النبي ﷺ أن الله تبارك وتعالىٰ يردُّ عليه روحه، حتىٰ يرد السلام علىٰ كل من يسلم عليه، إلىٰ غير ذلك مما

يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلىٰ أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم، وإن كانوا موجودين أحياء.. وإذا تقرر أنهم أحياء، فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق، صعق كل من في السماوات ومن في الأرض، إلَّا من شاء الله».

وذهب إلىٰ أن الشهداء والأنبياء يصعقون صعق غشي أيضًا البيهقي فقال في صعق الأنبياء: «ووجهه عندي أنهم أحياء عند ربهم كالشهداء، فإذا نفخ في الصور النفخة الأولىٰ صعقوا، ثم لا يكون ذلك موتًا في جميع معانيه، إلَّا في ذهاب الاستشعار، وقد جوز النبي ﷺ أن يكون موسىٰ ممن استثنىٰ الله، فإن كان منهم فإنه لا يذهب استشعاره في تلك الحالة بسبب ما وقع في صعقة الطور».

وبناء علىٰ هذا الفقه يكون الأنبياء والشهداء من الذين يصعقون، ولا يكونون داخلين في الاستثناء، وقد نقل عن ابن عباس وأبي هريرة وسعيد ابن جبير أن الأنبياء والشهداء من الذين استثناهم الله، وعزاه ابن حجر إلىٰ البيهقي، فإن كان المراد استثناءهم من الموت فإن هذا حق، وإن كان المراد استثناءهم من الصعق الذي يصيب الأموات كما دل عليه حديث موسىٰ فالأمر ليس كذلك.

وذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن الأولىٰ بالمسلم التوقف في تعيين الذين استثناهم الله، لأنه لم يصح في ذلك نص يدل علىٰ المراد.

✍ **قال القرطبي** صاحب «التذكرة»: «قال شيخنا أبو العباس: والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، والكل محتمل».

✍ **وقال ابن تيمية**: «وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين، فإن الجنة ليس فيها موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكل ما استثناه الله، فإن الله أطلق في كتابه.. والنبي ﷺ قد توقف في موسىٰ، وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه الله أم لا؟

فإذا كان النبي ﷺ لم يُخْبَر بكل من استثنىٰ الله، لم يمكننا نحن أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء، وأمثال ذلك مما لم يخبر الله به، وهذا العلم لا يُنال إلَّا بالخبر، والله أعلم بالصواب».

التعريفُ بالبَعث وَالنشور:

المراد بالبعث المعاد الجسماني، وإحياء العباد في يوم المعاد، والنشور مرادف للبعث في المعنىٰ، يقال: نشر الميت نشورًا إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله أحياه. فإذا شاء الحق

تبارك وتعالىٰ إعادة العباد وإحياءهم أمر إسرافيل فنفخ في الصور فتعود الأرواح إلىٰ الأجساد، ويقوم الناس لرب العالمين، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر:٦٨].

وقد حدثنا الحق – تبارك وتعالىٰ – عن مشهد البعث العجيب الغريب فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: ٥١-٥٣].

وقد جاءت الأحاديث مخبرة بأنه يسبق النفخة الثانية في الصور نزول ماء من السماء، فتنبت منه أجساد العباد، ففي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلّا أصغىٰ ليتًا ورفع ليتًا**».

قال: «**وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق، ويصعق الناس. ثم يرسل الله** – أو قال: **ينزل الله – مطرًا كأنه الطَّل أو الظِّل**، (نعمان أحد رواة الحديث هو الشاك) **فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرىٰ فإذا هم قيام ينظرون**».

وإنبات الأجساد من التراب بعد إنزال الله ذلك الماء الذي ينبتها يماثل إنبات النبات من الأرض إذا نزل عليها الماء من السماء في الدنيا، ولذا فإن الله قد أكثر في كتابه من ضرب المثل للبعث والنشور بإحياء الأرض بالنبات بعد نزول الغيث، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف:٥٧].

وقال في موضع آخر: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر:٩].

ولاحظ في كلا الموضعين قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأعراف:٥٧]، ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر:٩]، فإنهما يدلان علىٰ المماثلة والمشابهة بين إعادة الأجسام بإنباتها من التراب بعد إنزال الماء قبيل النفخ في الصور، وبين إنبات النبات بعد نزول الماء من السماء.

ونحن نعلم أن النبات يتكون من بذور صغيرة، تكون في الأرض ساكنة هامدة، فإذا نزل عليها الماء تحركت الحياة فيها، وضربت بجذورها في الأرض، وبسقت بسوقها إلىٰ السماء، فإذا هي نبتة مكتملة خضراء.

والإنسان يتكون في اليوم الآخر من عظم صغير، عندما يصيبه الماء ينمو نمو البقل، هذا العظم هو عجب الذنب، وهو عظم الصلب المستدير الذي في أصل العجز، وأصل الذنب. ففي «صحيحي البخاري ومسلم» عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بين النفختين أربعون، ثم ينزل من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، وليس في الإنسان شيء إلَّا يَبلي، إلَّا عظم واحد، وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة**».

* ولمسلم طرف في عجب الذنب، قال: «**إن في الإنسان عظمًا لا تأكله الأرض أبدًا، فيه يركب يوم القيامة**»، قالوا: أي عَظْم هو يا رسول الله؟ قال: «**عجب الذنب**».

* وفي رواية له وللموطأ وأبي داود والنسائي قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل ابن آدم تأكله الأرض إلَّا عجب الذنب، منه خلق، وفيه يركب**».

وقد دلت النصوص الصحيحة أن أجساد الأنبياء لا يصيبها البلىٰ والفناء الذي يصيب أجساد العباد، ففي الحديث الذي يرويه أبو داود، وصححه ابن خزيمة وغيره: «**إن الله حرم علىٰ الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**».

البعث خلق جديد:

يعيد الله العباد أنفسهم، ولكنهم يخلقون خلقًا مختلفًا شيئًا ما عما كانوا عليه في الحياة الدنيا، فمن ذلك أنهم لا يموتون مهما أصابهم البلاء ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم:١٧]. وفي الحديث الذي يرويه الحاكم بإسناد صحيح عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قام فينا معاذ ابن جبل فقال: «يا بني أَوْدٍ، إني رسولُ رسولِ الله ﷺ تعلمون المعاد إلىٰ الله، ثم إلىٰ الجنة أو النار، وإقامة لا ظعن فيه، وخلود لا موت، في أجساد لا تموت» ورواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» بنحوه.

ومن ذلك إبصار العباد ما لم يكونوا يبصرون، فإنهم يبصرون في ذلك اليوم الملائكة والجن، وما الله به عليم، ومن ذلك أن أهل الجنة لا يبصقون ولا يتغوطون ولا يتبولون.

وهذا لا يعني أن الذين يبعثون في يوم الدين خلق آخر غير الخلق الذين كانوا في الدنيا، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «النشأتان نوعان تحت جنس: يتفقان ويتماثلان ويتشابهان

من وجه، ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر، ولهذا جعل المعاد هو المبدأ، وجعله مثله أيضًا.

فباعتبار اتفاق المبدأ والمعاد فهو هو، وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله، وهكذا كل ما أعيد، فلفظ الإعادة يقتضي المبدأ والمعاد...».

أول من تنشق عنه الأرض:

* أول من يبعث وتنشق عنه الأرض هو نبينا محمد ﷺ ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع... وأول مشفع»**.

* وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «استب رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفىٰ محمد علىٰ العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفىٰ موسىٰ علىٰ العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده، فلطم اليهودي، فذهب اليهودي إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم، فقال: **«لا تُخيروني علىٰ موسىٰ، فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا موسىٰ باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق، أو كان ممن استثنىٰ الله عَزَّوَجَلَّ»**.

* وفي رواية لهما: **«... فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلّا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرىٰ فأكون أول من يبعث، فإذا موسىٰ آخذ بالعرش، فلا أدري: أحوسب بصعقة الطور، أم بعث قبلي؟»**.

حشر الخلائق جميعًا إلى الموقف العظيم:

سمىٰ الله يوم الدين بيوم الجمع، لأن الله يجمع العباد فيه جميعًا: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣﴾ [هود:١٠٣]، ويستوي في هذا الجمع الأولون والآخرون ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

وقدرة الله تحيط بالعباد، فالله لا يعجزه شيء، وحيثما هلك العباد فإن الله قادر علىٰ الإتيان بهم، إن هلكوا في أجواز الفضاء، أو غاروا في أعماق الأرض، وإن أكلتهم الطيور الجارحة أو الحيوانات المفترسة، أو أسماك البحار، أو غيبوا في قبورهم في الأرض، كل ذلك عند الله سواء: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٤٨].

وكما أن قدرة الله محيطة بعباده تأتي بهم حيثما كانوا، فكذلك علمه محيط بهم، فلا ينسىٰ منهم أحدًا، ولا يضلُّ منهم أحد، ولا يشذُّ منهم أحد، لقد أحصاهم خالقهم تبارك وتعالىٰ، وعَدَّهم عدًّا ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]، ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف:٤٧].

وهذه النصوص بعمومها تدل علىٰ حشر الخلق جميعًا الإنس والجن والملائكة، ولا حرج علىٰ من فقه منها أن الحشر يتناول البهائم أيضًا.

وقد اختلف أهل العلم في حشر البهائم، فذهب ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أن ذلك كائن.

✍ **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «وأما البهائم فجميعها يحشره الله سبحانه، كما دل عليه الكتاب والسنة.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾﴾ [التكوير:٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى:٢٩]، وحرف (إذا) إنما يكون لما يأتي لا محالة.

✍ **وحكىٰ القرطبي** خلاف أهل العلم في حشر البهائم ورجح أن ذلك كائن للأخبار الصحيحة في ذلك، قال القرطبي: «واختلف الناس في حشر البهائم، وفي قصاص بعضها من بعض، فروي عن ابن عباس أن حشر البهائم موتها، وقاله الضحاك. وروي عن ابن عباس في رواية أخرىٰ أن البهائم تحشر وتبعث، وقاله أبو ذر وأبو هريرة وعمرو بن العاص، والحسن البصري وغيرهم، وهو الصحيح، لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾﴾ [التكوير:٥]، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨].

✍ **قال أبو هريرة**: يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة: البهائم، والطير، والدواب، وكل شيء، فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني ترابًا، فذلك قوله تعالىٰ حكاية عن الكفار ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ:٤٠] ونحوه».

كسوة العباد في يوم المعاد:

ذكرنا فيما سبق أن الله يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلًا، كما صحت بذلك الأحاديث، ثم يكسىٰ العباد، فالصالحون يكسون الثياب الكريمة، والطالحون يسربلون بسرابيل القطران، ودروع الجرب، ونحوها من الملابس المنكرة الفظيعة.

وأول من يُكسىٰ من عباد الله نبي الله إبراهيم خليل الرحمن، ففي «صحيح البخاري» عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**إن أول الخلائق يكسىٰ يوم القيامة إبراهيم الخليل**».

أرض المحشر:

الأرض التي يحشر العباد عليها في يوم القيامة أرض أخرىٰ غير هذه الأرض، قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن صفة هذه الأرض الجديدة التي يكون عليها الحشر، ففي «صحيحي البخاري ومسلم» عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة علىٰ أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي**» قال سهل أو غيره: «**ليس فيها معلم لأحد**».

قال الخطابي: العفر: بياض ليس بناصع. وقال عياض: العفر بياض يضرب إلىٰ حمرة قليلًا. وقال ابن فارس: معنىٰ عفراء خالصة البياض.

والنَّقِيّ: فتح النون وكسر القاف، أي: الدقيق النقي من الغش والنخال.

والمَعْلَمُ: العلامة التي يُهتدىٰ بها إلىٰ الطريق، كالجبل والصخرة، أو ما يضعه الناس دالًا علىٰ الطرقات، أو علىٰ قسمة الأراضي.

عظم أهوال يوم القيامة:

يوم القيامة يوم عظيم أمره، شديد هوله، لا يلاقي العباد مثله.

* ويدل علىٰ عظم هوله أمور:

الأول: وصفُ الله لذلك اليوم بالعظم، وحسبنا أن ربنا وصفه بذلك، ليكون أعظم مما نتصور، وأكبر مما نتخيل ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المطففين: ٤-٦]، ووصفه في موضع آخر بالثقل، وفي موضع ثالث بالعسر، ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإنسان:٢٧]، ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [المدثر: ٩-١٠].

الثاني: الرعب والفزع الذي يصيب العباد في ذلك اليوم، فالمرضع التي تفدي وليدها بنفسها تذهل عنه في ذلك اليوم، والحامل تسقط حملها، والناس يكون حالهم كحال السكارىٰ الذين فقدوا عقولهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ١-٢].

ولشدة الهول تشخص أبصار الظلمة في ذلك اليوم، فلا تطرف لشدة الرعب، ولا يلتفتون يمينًا ولا شمالًا، ولشدة الخوف تصبح أفئدتهم خالية لا تعي شيئًا ولا تعقل شيئًا ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

وترتفع قلوب الظالمين لشدة الهول إلىٰ حناجرهم، فلا تخرج، ولا تستقر في مكانها ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾ [غافر:١٨]. ومعنىٰ كاظمين، أي: ساكتين لا يتكلمون.

ووصف في موضع آخر ما يصيب القلوب والأبصار في ذلك اليوم فقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧﴾ [النور:٣٧]، وقال: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾ [النازعات: ٨-٩].

وحسبك أن تعلم أن الوليد الذي لم يرتكب جرمًا يشيب شعر رأسه لشدة ما يرىٰ من أهوال ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ۝١٨﴾ [المزمل: ١٧-١٨].

الثالث: انقطاع علائق الأنساب في يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]، فكل إنسان في ذلك اليوم يهتم بنفسه، ولا يلتفت إلىٰ غيره، بل إن الإنسان يفر من أحب الناس إليه، يفر من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس: ٣٣-٣٧].

وقال في موضع آخر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [لقمان:٣٣].

وقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة:٤٨].

الرابع: استعداد الكفار في يوم الدين لبذل كل شيء في سبيل الخلاص من العذاب، فلو كانوا يملكون ما في الأرض لافتدوا به ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ [يونس:٥٤].

بل لو كان للكافر ضعف ما في الأرض لافتدىٰ به ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الرعد:١٨].

بل هو علىٰ استعداد أن يبذل ما عنده ولو كان ملء الأرض ذهبًا، وعلىٰ احتمال أن كان الأمر كذلك، فإن الله لا يقبل منه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [آل عمران:٩١].

* وفي «صحيح البخاري» عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كان يقول: «**يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقال له: قد كنت سألتك ما هو أيسر من ذلك**».

ويصل الحال بالكافر في ذلك اليوم أن يتمنىٰ لو دفع بأعز الناس عنده في النار لينجو هو من العذاب ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [المعارج: ١١-١٥].

الخامس: ويدلك علىٰ هول ذلك اليوم وشدته: طوله، قال تعالىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾ [المعارج: ٤-٧].

وسياق الآيات دلالة واضحة علىٰ أن المراد به يوم القيامة، وقد ثبت بإسناد صحيح عن ابن عباس أنه يوم القيامة، وبذلك قال الحسن، والضحاك، وابن زيد. ولطول ذلك اليوم يظن الناس في يوم المعاد أنهم لم يلبثوا في الحياة الدنيا إلَّا ساعة من نهار، كما قال

تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ [يونس:٤٥]، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالىٰ مذكرًا للناس قيام الساعة ويحشرهم من أجداثهم إلىٰ عرصات القيامة: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ...﴾ [يونس:٤٥] كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النازعات:٤٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [طه:١٠٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم:٥٥].

وهذا دليل علىٰ استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة، كقوله: ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

بعض معالم أهوال القيامة:

يحدثنا القرآن عن أهوال ذلك اليوم التي تَشْدَه الناس، وتشدُّ أبصارهم، وتملك عليهم نفوسهم، وتزلزل قلوبهم.

ومن أعظم تلك الأهوال ذلك الدمار الكوني الشامل الرهيب الذي يصيب الأرض وجبالها، والسماء ونجومها وشمسها وقمرها.

يحدثنا ربنا أن الأرض تزلزل وتدكُّ، وأن الجبال تُسَيَّر وتنسف، والبحار تُفجّر وتُسجَّر، والسماء تتشقق وتمور، والشمس تُكوَّر وتذهب، والقمر يخسف، والنجوم تنكدر ويذهب ضوؤها، وينفرط عقدها.

وسأذكر بعض النصوص التي تصور وقائع تلك الأهوال ثم أذكر ما يحدث لكل واحد من العوالم العظيمة في ذلك اليوم.

قبض الأرض وطي السماء:

يقبض الحق تبارك وتعالىٰ الأرض بيده في يوم القيامة، ويطوي السماوات بيمينه، كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر:٦٧].

وقد أخبرنا في موضع آخر عن كيفية طيه للسماوات فقال: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء:١٠٤].

قال ابن كثير: «والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة، والعوفي عنه، ونص علىٰ ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير، لأنه المعروف في اللغة، فعلىٰ هذا فيكون معنىٰ الكلام يوم تطوىٰ السماء كطي السجل للكتاب، أي علىٰ الكتاب، بمعنىٰ المكتوب».

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة دالة علىٰ مثل ما دلت عليه النصوص القرآنية، وهي ما يقوله الحق تبارك وتعالىٰ بعد قبضه الأرض، وطيه السماء،

* ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض**».

* وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنىٰ، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله** - وفي رواية: **يأخذهن بيده الأخرىٰ - ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون، أين المتكبرون؟**».

* وروىٰ البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن يهوديًا جاء إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا محمد إن الله يمسك السماوات علىٰ إصبع، والأرضين علىٰ إصبع، والجبال علىٰ إصبع، والشجر علىٰ إصبع، والخلائق علىٰ إصبع ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتىٰ بدت نواجذه، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

وهذا القبض للأرض والطي للسماوات يقع بعد أن يفني الله خلقه، وقيل: إن المنادي ينادي بعد حشر الخلق علىٰ أرض بيضاء مثل الفضة، لم يُعْصَ الله عليها، واختاره أبو جعفر النحاس، قال: والقول الصحيح عن ابن مسعود، وليس هو مما يؤخذ بالقياس، ولا بتأويل.

وقال القرطبي: «والقول الأول أظهر، لأن المقصود إظهار انفراده بالملك، عند انقطاع دعوىٰ المدعين، وانتساب المنتسبين، إذ قد ذهب كل ملك وملكه، وكل جبار ومتكبر وملكه، وانقطعت نسبهم ودعاويهم، وهذا أظهر».

۞ دك الأرض ونسف الجبال:

يخبرنا ربنا تبارك وتعالىٰ أن أرضنا الثابتة، وما عليها من جبال صم راسية تحمل في يوم القيامة عندما ينفخ في الصور فتدك دكة واحدة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقة: ١٣- ١٥]، ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ [الفجر: ٢١]، وعند ذلك تتحول هذه الجبال الصلبة القاسية إلىٰ رمل ناعم، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤]، أي تصبح ككثبان الرمل بعد أن كانت حجارة صماء، والرمل المهيل: هو الذي إذا أخذت منه شيئًا تبعك ما بعده، يقال: أهلت الرمل أهيله هيلًا، إذا حركت أسفله حتىٰ انهال من أعلاه.

وأخبر في موضع آخر أن الجبال تصبح كالعهن، والعهن هو الصوف، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ [المعارج: ٩]، وفي نص آخر مثلّها بالصوف المنفوش: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٥].

ثم إن الحق تبارك وتعالىٰ يزيل هذه الجبال عن مواضعها، ويسوّي الأرض حتىٰ لا يكون فيها موضع مرتفع، ولا منخفض، وعبّر القرآن عن إزالة الجبال بتسييرها مرة، وبنسفها أخرىٰ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [التكوير: ٣]، ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٢٠].

وقال في نَسْفِه لها: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ [المرسلات: ١٠].

ثم بين الحق حال الأرض بعد تسيير الجبال ونسفها ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، أي ظاهرة لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

۞ تفجير البحار وتسجيرها:

أما هذه البحار التي تغطي الجزء الأعظم من أرضنا، وتعيش في باطنها عوالم هائلة من الأحياء، وتتهادىٰ فوقها السفن ذاهبة آيبة، فإنها تفجر في ذلك اليوم، وقد علمنا في هذا العصر الهول العظيم الذي يحدثه انفجار الذرات الصغيرة التي هي أصغر من ذرات الماء، فكيف إذا فجرت ذرات المياه في هذه البحار العظيمة، عند ذلك تسجر البحار، وتشتعل

نارًا، ولك أن تتصور هذه البحار العظيمة الهائلة وقد أصبحت مادة قابلة للاشتعال، كيف يكون منظرها، واللهب يرتفع منها إلىٰ أجواز الفضاء، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ [الانفطار:٣]، وقال: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ ﴾ [التكوير:٦].

وقد ذهب المفسرون قديمًا إلىٰ أن المراد بتفجير البحار، تشقق جوانبها وزوال ما بينها من الحواجز، واختلاط الماء العذب بالماء المالح، حتىٰ تصير بحرًا واحدًا، وما ذكرناه أوضح وأقرب، فإن التفجير بالمعنىٰ الذي ذكرناه مناسب للتسجير، والله أعلم بالصواب.

۞ موران السماء وانفطارها:

أما سماؤنا الجميلة الزرقاء التي ننظر إليها فتنشرح صدورنا، وتسر قلوبنا، فإنها تمور مورانًا، وتضطرب اضطرابًا عظيمًا ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الطور:٩].

ثم تنفطر، وتتشقق ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ ﴾ [الانفطار:١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾ [الانشقاق: ١-٢].

وعند ذلك تصبح ضعيفة واهية، كالقصر العظيم، المتين البنيان، الراسخ الأركان، عندما تصيبه الزلازل، تراه بعد القوة أصبح واهيًا ضعيفًا متشققًا، ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحاقة:١٦].

أما لون السماء الأزرق الجميل فإنه يزول ويذهب، وتأخذ السماء في التلون في ذلك اليوم كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء، وتارة صفراء، وأخرىٰ خضراء، ورابعة زرقاء، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الرحمن:٣٧].

وقد نقل عن ابن عباس أن السماء تكون في ذلك اليوم كالفرس الورد، والفرس الورد - كما يقول البغوي: تكون في الربيع صفراء، وفي الشتاء حمراء، فإذا اشتد البرد تغير لونها، وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الرحمن:٣٧] أي تكون ألوانًا.

۞ تكوير الشمس وخسوف القمر وتناثر النجوم:

أما هذه الشمس التي نراها تشرق كل صباح، فتغمر أرضنا بالضياء، وتمدنا بالنور والطاقة التي لا غنىٰ عنها لأبصارنا وأبداننا، وما يدب علىٰ الأرض من أحياء، وما ينمو فيها من نبات، فإنها تجمع وتكوَّر، ويذهب ضوؤها، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ

﴿ ١ ﴾ [التكوير:١]، والتكوير عند العرب: جمع الشيء بعضه علىٰ بعض، ومنه تكوير العمامة، وجمع الثياب بعضها علىٰ بعض، وإذا جمع بعض الشمس علىٰ بعض، ذهب ضوؤها ورمىٰ بها.

أما القمر الذي نراه في أول كل شهر هلالًا، ثم يتكامل ويتنامىٰ، حتىٰ يصبح بدرًا جميلًا بديعًا، يتغنىٰ بجماله الشعراء، ويؤنس المسافرين حين يسيرون في الليل، «إنه يخسف ويذهب ضوؤه ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾ [القيامة: ٧-٨].

أما تلك النجوم المتناثرة في القبة السماوية الزرقاء، فإن عقدها ينفرط، فتتناثر وتنكدر ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار:٢]، ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [التكوير:٢]، والانكدار، الانتثار، وأصله في لغة العرب: الانصباب.

بعض النصوص الواصفة لأهوال يوم القيامة:

قال القرطبي: «روىٰ الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من **سره أن ينظر إلىٰ يوم القيامة فليقرأ**: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق]». قال: هذا حديث حسن.

وإنما كانت هذه السور الثلاث أخص بالقيامة، لما فيها من انشقاق السماء وانفطارها، وتكور شمسها وانكدار نجومها، وتناثر كواكبها، إلىٰ غير ذلك من أفزاعها وأهوالها، وخروج الخلق من قبورهم إلىٰ سجونهم أو قصورهم، بعد نشر صحفهم، وقراءة كتبهم، وأخذها بأيمانهم وشمائلهم، أو من وراء ظهورهم في موقفهم علىٰ ما يأتي بيانه.

* قال الله تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق:١]. وقال ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار:١]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان:٢٥]، فتراها وهية منفطرة متشققة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾ [النبأ:١٩]، ويكون الغمام سترة بين السماء والأرض، وقيل إن الباء بمعنىٰ عن، أي: تشقق عن سحاب أبيض، ويقال: انشقاقها لما يخلص إليها من حر جهنم، وذلك إذا بطلت المياه، وبرزت النيران، فأول ذلك أنها تصير حمراء صافية كالدهن، وتتشقق لما يريد الله من نقض هذا العالم، ورفعه.

وقد قيل: إن السماء تتلون، فتصفر، ثم تحمر، أو تحمر، ثم تصفر، كالمهرة تميل في الربيع إلىٰ الصفرة، فإذا اشتد الحر مالت إلىٰ الحمرة، ثم إلىٰ الغبرة، قاله الحليمي.

* وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير:١]، قال ابن عباس ﷺ: تكويرها إدخالها في العرش. وقيل: ذهاب صفوها، قاله الحسن وقتادة، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد. وقال أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة، تلف فتمحىٰ. وقال الربيع بن خثيم: كورت رمي بها، ومنه: كورته، فتكور، أي: سقط. قلت: وأصل التكوير الجمع، مأخوذ من كار العمامة علىٰ رأسه يكورها، أي: لاثها، وجمعها، فهي تكور، ثم يمحو ضوءها ثم يرمىٰ بها، والله أعلم.

* وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير:٢]، أي: انتشرت، قيل: تتناثر من أيدي الملائكة، لأنهم يموتون، وفي الخبر أنها معلقة بين السماء والأرض بسلاسل بأيدي الملائكة. وقال ابن عباس ﷺ: انكدرت تغيرت، وأصل الانكدار الانصباب، فتسقط في البحار، فتصير معها نيرانًا، إذا ذهبت المياه.

* وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير:٣]، هو مثل قوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ [الكهف:٤٧]، أي: تحول عن منزلة الحجارة، فتكون كثيبًا مهيلًا، أي: رملًا سائلًا، وتكون كالعهن، وتكون هباء منبثًا، وتكون سرابًا، مثل السراب الذي ليس بشيء. وقيل: إن الجبال بعد اندكاكها أنها تصير كالعهن من حر جهنم، كما تصير السماء من حرها كالمهل.

✍ **قال الحليمي**: وهذا والله أعلم لأن مياه الأرض كانت حاجزة بين السماء والأرض، فإذا ارتفعت، وزيد مع ذلك في إحماء جهنم أثر في كل واحد من السماء والأرض ما ذكر.

* وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير:٤] أي: عطلها أهلها، فلم تحلب من الشغل بأنفسهم. والعشار: الإبل الحوامل، واحدها عشر، وهي التي أتىٰ عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتىٰ تضع، وبعدما تضع، وإنما خص العشار بالذكر، لأنها أعز ما يكون علىٰ العرب، فأخبر أنها تعطل يوم القيامة. ومعناه أنهم إذا قاموا من قبورهم، وشاهد بعضهم بعضًا ورأوا الوحوش والدواب محشورة، وفيها عشارهم التي كانت أنفس أموالهم، لم يعبؤوا بها، ولم يهمهم أمرها، ويحتمل تعطل العشار إبطال الله تعالىٰ أملاك الناس عما كان ملّكهم إياها في الدنيا، وأهل العشار يرونها، فلا يجدون إليها سبيلًا. وقيل: العشار: السحاب، يعطل مما يكون فيه، وهو الماء، فلا يمطر. وقيل: العشار الديار، تعطل فلا تسكن. وقيل: الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع، والقول الأول أشهر وعليه من الناس الأكثر.

* وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥] أي: جمعت، والحشر الجمع، وقد تقدم.

* وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] أي: أوقدت، وصارت نارًا. رواه الضحاك عن ابن عباس ﷺ. وقال قتادة: غار ماؤها، فذهب. وقال الحسن والضحاك: فاضت. قال ابن أبي زمنين: سجرت حقيقته ملئت، فيفضي بعضها إلىٰ بعض، فتصير شيئًا واحدًا. وهو معنىٰ قول الحسن. ويقال: إن الشمس تلف، ثم تلقىٰ في البحار، فمنها تحمىٰ، وتنقلب نارًا. قال الحليمي: ويحتمل إن كان هذا هكذا أن البحار في قول من فسر التسجير بالامتلاء هو أن النار حينئذ تكون أكثرها، لأن الشمس أعظم من الأرض مرات كثيرة، فإذا كورت، وألقيت في البحر، فصارت نارًا، ازدادت امتلاءً.

* وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:٧] تفسير الحسن أن تلحق كل شيعة شيعتها: اليهود باليهود، والنصارىٰ بالنصارىٰ، والمجوس بالمجوس، وكل من كان يعبد من دون الله شيئًا يلحق بعضهم ببعض، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين. وقال عكرمة: المعنىٰ تقرن بأجسادها، أي: ترد إليها، وقيل: يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان. يقرن المؤمنون بالحور العين، والكافرون بالشياطين.

* وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير:٨] يعني بنات الجاهلية، كانوا يدفنوهن أحياء، لخصلتين: إحداهما: كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به. الثانية: مخافة الحاجة والإملاق، وسؤال الموءودة علىٰ وجه التوبيخ لقاتلها، كما يقال للطفل إذا ضرب: لم ضربت؟ وما ذنبك؟ وقال الحسن: أراد الله أن يوبخ قاتلها، لأنها قتلت بغير ذنب. وبعضهم يقرأ: وإذا الموءودة سألت، تعلق الجارية بأبيها، فتقول: بأي ذنب قتلتني؟ وقيل: معنىٰ سئلت، يسأل عنها كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٤].

* وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير:١٠] أي: للحساب وسيأتي.

* وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير:١١] قيل: معناه طويت، كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، أي: كطي الصحيفة علىٰ ما فيها، فاللام بمعنىٰ (علىٰ)، يقال: كشطت السقف، أي: قلعته، فكان المعنىٰ: قلعت، فطويت والله أعلم، والكشط والقشط سواء، وهو القلع، وقيل: السجل كاتب للنبي ﷺ ولا يعرف في الصحابة من اسمه سجل.

* وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير:١٢]، أي: أوقدت. وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير:١٣] أي: قربت لأهلها، وأدنيت.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤] أي: من عملها، وهو مثل قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار:٥].

✍ ومما قيل في وصف أهوال ذلك اليوم شعرًا:

مثّل لنفسك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
إذ كورت شمس النهار وأدنيت ... حتىٰ علىٰ رأس العباد تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ... وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا البحار تفجرت من خوفها ... ورأيتها مثل الجحيم تفور
وإذا الجبال تقلعت بأصولها ... فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا العشار تعطلت وتخربت ... خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدىٰ القيامة أحشرت ... وتقول للأملاك أين تسير
وإذا تقاة المسلمين تزوجت ... من حور عين زانهن شعور
وإذا الموءودة سئلت عن شأنها ... وبأي ذنب قتلها ميسور
وإذا الجليل طوىٰ السماء بيمينه ... طي السجل كتابه المنشور
وإذا الصحائف نشرت فتطايرت ... وتهتكت للمؤمنين ستور
وإذا السماء تكشطت عن أهلها ... ورأيت أفلاك السماء تدور
وإذا الجحيم تسعرت نيرانها ... فلها علىٰ أهل الذنوب زفير
وإذا الجنان تزخرفت وتطيبت ... لفتىٰ علىٰ طول البلاء صبور
وإذا الجنين بأمه متعلق ... يخشىٰ القصاص وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف جناية ... كيف المصر علىٰ الذنوب دهور

✍ **ويقول الحارث المحاسبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ واصفًا ما يقع في ذلك اليوم من أهوال: «حتىٰ إذا تكاملت عدة الموتىٰ، وخلت من سكانها الأرض والسماء، فصاروا خامدين بعد حركاتهم، فلا حس يسمع، ولا شخص يُرىٰ، وقد بقي الجبار الأعلىٰ كما لم يزل أزليًّا واحدًا منفردًا بعظمته وجلاله، ثم لم يفجأ روحك إلَّا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بالذل والصغار منك ومنهم. فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك، وتفهم بعقلك بأنك تدعىٰ إلىٰ العرض علىٰ الملك الأعلىٰ، فطار فؤادك، وشاب رأسك للنداء، لأنها صيحة واحدة للعرض علىٰ ذي الجلال والإكرام والعظمة والكبرياء - فبينما أنت فزع للصوت إذ سمعت بانفراج الأرض عن رأسك، فوثبت مغبرًا من قرنك إلىٰ قدمك بغبار قبرك، قائمًا علىٰ قدميك، شاخصًا ببصرك نحو النداء، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة، وهم مغبرون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم.

فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم، فتوهم نفسك بعريك ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق، عراة حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة، فلا تسمع إلَّا همس أقدامهم والصوت لمدة المنادي، والخلائق مقبلون نحوه، وأنت فيهم مقبل نحو الصوت، ساعٍ بالخشوع والذلة، حتىٰ إذا وافيت الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجن والإنس عراة حفاة، قد نزع الملك من ملوك الأرض، ولزمتهم الذلة والصغار، فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدرًا بعد عتوهم وتجبرهم علىٰ عباد الله عَزَّوَجَلَّ في أرضه.

ثم أقبلت الوحوش من البراري وذرىٰ الجبال منكسة رؤوسها لذل يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بلية نابتها ولا خطيئة أصابتها، فتوهم إقبالها بذلها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور.

وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكّسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتىٰ وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار، وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها خاشعة لذل العرض علىٰ الله سبحانه فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء، واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض، قد أذلهم البعث وجمع بينهم النشور.

حتىٰ إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها، واستووا جميعًا في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم، وطمست الشمس والقمر، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها.

فبينما أنت والخلائق علىٰ ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم، وذلك بعينك تنظر إلىٰ هول ذلك، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام، فيا هول صوت انشقاقها في سمعك، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيام علىٰ أرجائها وهي حافات ما يتشقق ويتفطر، فما ظنك بهول يوم تنشق فيه السماء بعظمها، فأذابها ربها حتىٰ صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة كما قال الجليل الكبير: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن:٣٧]، ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ [المعارج: ٨-٩].

فبينا ملائكة السماء الدنيا علىٰ حافتها إذ انحدروا محشورين إلىٰ الأرض للعرض والحساب، وانحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلىٰ الذي أنزلهم محشورين إلىٰ الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه.

فتوهم تحدرهم من السحاب بعظيم أخطارهم وكبير أجسامهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم منكسين لذل العرض علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم، ومسألتهم إياهم: أفيكم ربنا؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالًا لمليكهم أن يكون فيهم، فنادوا بأصواتهم تنزيهًا لما توهمه أهل الأرض: سبحان ربنا، ليس هو بيننا، ولكنه آتٍ من بعد، حتىٰ أخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم.

فتوهمهم، وقد تسربلوا بأجنحتهم، ونكسوا رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم، ثم كل شيء علىٰ ذلك وكذلك إلىٰ السماء السابعة، كل أهل سماء مضعفين بالعدد، وعظم الأجسام، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفًا واحدًا.

حتىٰ إذا وافىٰ الموقف أهل السماوات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين وأدنيت من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين، ولا ظِلّ لأحد إلّا ظل عرش رب العالمين، فمن بين مستظل بظل العرش، وبين مضحو بحر الشمس، قد صهرته بحرها، واشتد كربه وقلقه من وهجها، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت، فدفع بعضهم بعضًا،

وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش، واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم، ففاض العرق منهم سائلًا حتىٰ استنقع علىٰ وجه الأرض ثم علىٰ الأبدان علىٰ قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عَزَّوَجَلَّ بالسعادة والشقاء، حتىٰ إذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه، وبعضهم حقويه، وبعضهم إلىٰ شحمه أذنيه، ومنهم من كاد أن يغيب في عرقه، ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه.

* عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل (وقال مرة: إن الكافر) ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه إلىٰ أنصاف أذنيه من طول القيام**» [متفق عليه].

* وعن عبد الله رفعه إلىٰ النبي ﷺ: «**إن الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة من طول ذلك اليوم، (وقال علي: من طول القيام). قالا جميعًا: «حتىٰ يقول: رب أرحني ولو إلىٰ النار**».

وأنت لا محالة أحدهم، فتوهم نفسك راجعة لكربك وقد علاك العرق، وأطبق عليك الغم، وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلىٰ دار السعادة أو إلىٰ دار الشقاء، حتىٰ إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه، وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم.

* عن قتادة أو كعب، قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين:٦] قال: «يقومون مقدار ثلاثمائة عام، وقال سمعت الحسن يقول: ما ظنك بأقوام قاموا لله عَزَّوَجَلَّ علىٰ أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة، ولم يشربوا فيها شربة، حتىٰ إذا انقطعت أعناقهم من العطش، واحترقت أجوافهم من الجوع انصرف بهم إلىٰ النار، فسقوا من عين آنية قد آن حرها، واشتد نفحها.

فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به، كلَّم بعضهم بعضًا في طلب من يكرم علىٰ مولاه أن يشفع لهم في الراحة من مقامهم ووقفهم لينصرفوا إلىٰ الجنة أو إلىٰ النار من وقوفهم، ففزعوا إلىٰ آدم ونوح ومن بعده إبراهيم، وموسىٰ وعيسىٰ من بعد إبراهيم، كلهم يقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، فكلهم يذكر شدة غضب ربه عَزَّوَجَلَّ، وينادي بالشغل بنفسه فيقول: نفسي نفسي، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلىٰ ربهم لاهتمامه بنفسه وخلاصها، وكذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل:١١١].

فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم، منفرد كل واحد منهم بنفسه، ينادي نفسي نفسي، فلا تسمع إلَّا قول نفسي نفسي. فيا هول ذلك وأنت تنادي معهم بالشغل

بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه، فما ظنك بيوم ينادي فيه المصطفىٰ آدم، والخليل إبراهيم، والكليم موسىٰ، والروح والكلمة عيسىٰ مع كرامتهم علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وعظم قدر منازلهم عند الله عَزَّوَجَلَّ، كل ينادي: نفسي نفسي، شفقًا من شدة غضب ربه، فأين أنت منهم في إشفاقك في ذلك اليوم واشتغالك، وبحزنك وبخوفك؟ حتىٰ إذا أيس الخلائق من شفاعتهم لما رأوا من اشتغالهم لأنفسهم، أتوا النبي محمدًا ﷺ فسألوه الشفاعة إلىٰ ربهم فأجابهم إليها، ثم قام إلىٰ ربه عَزَّوَجَلَّ واستأذن عليه، فأذن له، ثم خر لربه ساجدًا، ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله، وذلك كله بسمعك وأسماع الخلائق، حتىٰ أجابه ربه عَزَّوَجَلَّ إلىٰ تعجيل عرضهم والنظر في أمورهم.

بعض المشاهد التي يصفها القرآن الكريم من أهوال ما يحدث للخلق في ذلك اليوم:

١- قال تعالىٰ مبينًا حال الكفار عند خروجهم من القبور: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المعارج: ٤٣-٤٤].

والأجداث هي القبور، والنص يصور سرعة خروجهم من القبور في ذلك اليوم منطلقين إلىٰ مصدر الصوت كأنهم يسرعون إلىٰ الأنصاب التي كانوا يعبدونها في الدنيا، ولكنهم اليوم لا ينطلقون فرحين أشرين بطرين كما كان حالهم عندما كانوا يقصدون الأنصاب، بل هم أذلاء، أبصارهم خاشعة، والصغار يعلوهم، علىٰ النعت الذي كان يعدهم الله به في الدنيا.

٢- وقال تعالىٰ: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [القمر: ٦- ٨].

وهذه الآية تنص علىٰ ما نصت عليه الآيات السابقة من خروجهم خاشعي الأبصار أذلاء، مسرعين إلىٰ مصدر الصوت الذي يناديهم ويدعوهم، وتزيدنا بيانًا بإعطائنا صورة حية لمشهد البعث والنشور، فحالهم في ذلك اليوم في حركتهم وانطلاقتهم وهم يخرجون مسرعين كحال الجراد المنتشر، ويفيدنا النص أيضًا اعتراف الكفار في ذلك اليوم بصعوبة موقفهم ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [القمر:٨].

٣- ويفيدنا نص ثالث أن الكفار ينادون بالويل والثبور عندما ينفخ في الصور متسائلين عمن أقامهم من رقدتهم.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٥١-٥٢].

✍ وقد كان أبو محكم الجسري يجتمع إليه إخوانه، وكان حكيمًا، فإذا تلىٰ الآية السابقة بكىٰ، ثم قال: «إن القيامة ذهبت فظاعتها بأوهام العقول، أما والله لئن كان القوم في رقدة مثل ظاهر قولهم، لما دعوا بالويل عند أول وهلة من بعثهم، ولم يوقفوا بعد موقف عرض ولا مسألة إلَّا وقد عاينوا خطرًا عظيمًا، وحقت عليهم القيامة بالجلائل من أمرها، ولكن كانوا في طول الإقامة في البرزخ يألمون ويعذبون في قبورهم، وما دعوا بالويل عند انقطاع ذلك عنهم، إلَّا وقد نقلوا إلىٰ طامة هي أعظم منه، ولولا أن الأمر علىٰ ذلك ما استصغر القوم ما كانوا منه، فسموه رقادًا، وإن في القرآن لدليلًا علىٰ ذلك: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [النازعات: ٣٤]، ثم يبكي حتىٰ يبل لحيته».

٤- ويضيف نصٌّ آخر ملامحَ جديدةً إلىٰ صورتهم حال بعثهم، فأبصارهم لشدة الهول شاخصة جاحظة، وأفئدتهم خالية إلَّا من الهول الذي يحيط بهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

✍ ويقول بعض أهل التأويل في تفسير هذه الآيات: «والرسول ﷺ لا يحسب الله غافلًا عما يعمل الظالمون، ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون، ويسمع بوعيد الله، ثم لا يراه واقعًا بهم في الحياة الدنيا، فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة، التي لا إمهال بعدها، ولا فكاك منها، أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع، فتظل مبهوتة مذهولة، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك.

ثم يرسم مشهدًا للقوم في زحمة الهول...، مشهدهم مسرعين لا يلوون علىٰ شيء، ولا يلتفتون إلىٰ شيء، رافعين رؤوسهم، لا عن إرادة، ولكنها مشدودة، لا يملكون لها حراكًا. يمتد بصرهم إلىٰ ما يشاهدون من الرعب، فلا يطرف ولا يرتد إليهم، وقلوبهم من الفزع خاوية خالية، لا تضم شيئًا يعونه أو يحفظونه، أو يتذكرونه، فهي هواء خاوية.

هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه، حيث يقفون في هذا الموقف، ويعانون هذا الرعب، الذي يرتسم من خلال هذه المقاطع الأربعة، مذهلًا آخذًا بهم كالطائر الصغير في

مخالب الباشق الرعيب: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

فالسرعة المهرولة المدفوعة، في الهيئة الشاخصة المكروهة المشدودة، مع القلب المفزع الطائر الخاوي من كل وعي من الإدراك.. كلها تشي بالهول الذي تشخص فيه الأبصار».

٥- ويصور القرآن الفزع الذي يسيطر علىٰ نفوس الكفار في يوم الموقف العظيم فيقول: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر:١٨].

«والآزفة... القريبة العاجلة... هي القيامة، واللفظ يصورها كأنها زاحفة والأنفاس من ثم مكروبة لاهثة، وكأنما القلوب المكروبة تضغط علىٰ الحناجر، وهم كاظمون لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم، والكظم يكربهم، ويثقل علىٰ صدورهم، وهم لا يجدون حميمًا يعطف عليهم، ولا شفيعًا ذا كلمة تطاع في هذا الموقف العصيب المكروب».

٦- وما كان هؤلاء في حكم الله مجرمين متمردين علىٰ خالقهم وإلههم، مستكبرين عن عبادته وطاعته - فإنه يؤتىٰ بهم إلىٰ ربهم وخالقهم مقرنين في الأصفاد، مسربلين بالقطران تغشىٰ وجوههم النار، ويا لفظاعة حالهم، وعظم ما يلقون ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨-٥٠].

✍ **يقول الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآيات: «وتعاين الذين كفروا بالله، فاجترموا في الدنيا الشرك يومئذ، يعني يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾ [إبراهيم:٤٩]، يقول: مقرنة أيديهم وأرجلهم إلىٰ رقابهم بالأصفاد، وهي الوثاق من غل وسلسلة، واحدها صفد».

والسرابيل: هي القمص التي يلبسونها، والقطران: المادة التي تطلىٰ بها الإبل إذا أصابها الجرب، وقيل: القطران النحاس.

٧- وتدنو الشمس من رؤوس العباد في ذلك اليوم حتىٰ لا يكون بينها وبينهم إلَّا مقدار ميل واحد، ولو أنهم مخلوقون خلقًا غير قابل للفناء لانصهروا وذابوا وتبخروا، ولكنهم بعد الموت لا يموتون.

ويذهب عرقهم في الأرض حتىٰ يرويها، ثم يرتفع فوق الأرض، ويأخذهم علىٰ قدر أعمالهم. ففي «صحيح مسلم» عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«تدنىٰ الشمس يوم القيامة من الخلق، حتىٰ تكون منهم كمقدار ميل»**.

قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين.

قال: **«فيكون الناس علىٰ قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلىٰ كعبيه. ومنهم من يكون إلىٰ ركبتيه. ومنهم من يكون إلىٰ حقويه. ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا»**. قال: وأشار رسول الله بيده إلىٰ فيه.

وفي «صحيحي البخاري ومسلم» عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المطففين:٦]، قال: **«يقوم أحدهم في رشحه إلىٰ أنصاف أذنيه»**.

وفي «صحيحي البخاري ومسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يعرق الناس يوم القيامة حتىٰ يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا، ويلجمهم حتىٰ يبلغ آذانهم»**.

٨- وعندما يرىٰ الكفار العذاب والهوان الذي يصيبهم ويصيب أمثالهم من الكفرة المشركين يأخذهم الندم والحسرة، ولكثرة حسرة العذاب سمىٰ الله ذلك اليوم بيوم الحسرة ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [مريم:٣٩].

ولشدة تحسر الكافر وندمه علىٰ عدم اتباعه للرسول الذي بُعث إليه، واتباعه لأعداء الرسل، فإنه يعض علىٰ يديه ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

٩- وفي ذلك اليوم يوقن الكفار أن ذنبهم غير مغفور، وعذرهم غير مقبول، فييأسوا من رحمة الله ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الروم:١٢].

١٠- ويتمنىٰ الكفار في ذلك اليوم أن يهلكهم الله، ويجعلهم ترابًا ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ [النساء:٤٢]، ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النبأ:٤٠]، فما بالك بأقوام كانت مناياهم هي **غاية المنىٰ!!**.

۞ إحباط أعمالهم:

أعمال الكفار قسمان: قسم هو طغيان وبغي وإفساد في الأرض ونحو ذلك، فهذه أعمال باطلة فاسدة لا يرجو أصحابها من ورائها خيرًا، ولا يتوقعون عليها ثوابًا.

وقد شبه القرآن هذه الأعمال بالظلمات التي يركب بعضها بعضًا: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور:٤٠].

والقسم الثاني: أعمال يظنون أنها تغني عنهم من الله شيئًا، كالصدقة والعتاق وصلة الأرحام والإنفاق في سبل الخير، وقد ضرب الله في كتابه لهذا النوع من الأعمال أمثلة.

فشبهها في بعض المواضع بالسراب الذي يظنه رائيه ماء، ولكنه عندما يأتيه - وهو يؤمل أن يصل إليه فيروي غلته، ويُذهب ظمأه - لا يجده شيئًا، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور:٣٩] وشبهها في موضع آخر بالرياح الشديدة الباردة تهب على الزروع والثمار فتدمرها ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران:١١٧].

والصِّرُّ: البرد الشديد، وهذه الرياح الباردة هي الكفر والشرك التي تحرق أعمالهم الصالحة.

وشبهها في موضع ثالث بالرماد الذي جاءته ريح عاصف فذرته في كل مكان، فكيف يستطيع صاحبه جمعه بعد تفرقه!! ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم:١٨].

ولذلك فإن الله يجعل أعمال الكفار هباء منثورًا ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣]. وهذا الفريق الذي يظن أنه على خير يفاجأ يوم القيامة بأن عمله باطل ضائع، ومن هؤلاء عُبَّاد اليهود والنصارى بعد البعثة النبوية، فإن فريقًا منهم يجهدون أنفسهم بالعبادة، وفعل الخيرات، ويظنون أن ذلك ينفعهم عند الله تبارك وتعالى، وكذلك الذين انتسبوا إلى الإسلام، ولكنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به

سلطانًا، وعبدوا غير الله، كل هؤلاء لا تنفعهم أعمالهم، ولا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنًا ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦].

وقد سأل مصعب بن سعد أباه بن أبي وقاص عن الأخسرين أعمالًا، فقال: «هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمدًا ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة، وقالو: لا طعام فيها ولا شراب».

وإنما كان اليهود والنصارى من الأخسرين أعمالًا، لأن كثيرًا منهم يظنون أنفسهم على الحق، ويجتهدون في العبادة، وحقيقة الأمر أنهم خاسرون، لأنهم يكفرون برسول الله الخاتم، وكتابه المنزل، مع كفرهم بكثير مما أنزل إليهم من ربهم، وإيمانهم بالمحرف من دينهم.

فهذه الأعمال التي يظن الكفرة أنها نافعتهم في يوم الدين لا وزن لها ولا قيمة لها في ذلك اليوم لأنها قامت على غير أساس ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥].

والأساس هو الإسلام، فما لم يكن المرء مسلمًا موحدًا فعمله مردود، وسعيه موزور غير مشكور، روى مسلم في «صحيحه» عن عائشة قالت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: **«لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»**.

موقف الشفاعة:

عندما يشتد البلاء بالناس في الموقف العظيم ويطول بحث العباد عن أصحاب المنازل العالية ليشفعوا لهم عند ربهم، كي يأتي ربنا لفصل الحساب وتخليص الناس من كربات الموقف وأهواله، فيطلبون من أبيهم آدم أن يقوم بهذه المهمة الكبيرة، ويذكّرونه بفضله وإكرام الله له، فيأبى منها، ويحيلهم إلى نوح أول رسول أرسله الله إلى البشر، الذي سماه الله عبدًا شكورًا، فيأبى ويذكر ما كان منه من تقصير في بعض الأمور تجاه ربه ومولاه. وهكذا يحيلهم إلى من بعده من أولي العزم من الرسل، والآخر يدفعها إلى من بعده، حتى يأتوا الرسول الخاتم: محمد ﷺ، الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فيقوم الرسول ﷺ مقامًا يحمده عليه الأولون والآخرون، وتظهر به منزلته العظيمة، ودرجته العالية، فيستأذن علىٰ ربه فيأذن له، ويحمده ويمجِّده، ويسأله في أمته، فيستجيب له، ذلك أن الله أعطىٰ كل نبي دعوة في أمته لا ترد، وقد استعجل كل نبي تلك الدعوة في الدنيا، واختبأ الرسول ﷺ دعوته إلىٰ ذلك الموقف الذي تحتاج فيه أمته إلىٰ دعوته، فصلوات الله وسلامه عليه، فإنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، كما وصفه ربه، وقد ثبت في «صحيحي البخاري ومسلم» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل نبي يسأل سؤالًا أو قال: لكل نبي دعوة دعاها لأمته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**».

* وروىٰ البخاري ومسلم في «صحيحهما» عن معبد بن هلال العنزي قال: «انطلقنا إلىٰ أنس بن مالك، وتشفَّعنا بثابتٍ، فانتهينا إليه وهو يصلي الضحىٰ، فاستأذن لنا ثابت، فدخلنا عليه، وأجلس ثابتًا معه علىٰ سريره فقال له: يا أبا حمزة، إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تُحدِّثهم حديث الشفاعة.

فقال: حدثنا محمد ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلىٰ بعض، فيأتون آدم، فيقولون: اشفع لذريتك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم، فإنه خليل الله، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسىٰ، فإنه كليم الله، فيؤتىٰ موسىٰ، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسىٰ، فإنه رُوح الله وكلمته، فيؤتىٰ عيسىٰ، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد. فأوتىٰ فأقول: أنا لها، ثم أنطلق فاستأذن علىٰ ربي، فيؤذن لي، فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلَّا أن يلهمنيها، ثم أخر لربنا ساجدًا، فيقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفَّع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقول: انطلق فمن كان في قلبه حبة من برةٍ أو شعيرةٍ من إيمانٍ فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل. ثم أرجع إلىٰ ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرُّ له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفَّع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل. ثم أعود إلىٰ ربي أحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق، فمن كان في قلبه أدنىٰ أدنىٰ أدنىٰ من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل**».

* وروىٰ الترمذي عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ - آدم فمن سواه - إلَّا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، فقال: فيفزع الناس ثلاث فزعات، فيأتون آدم، فيقولون: أنت أبونا آدم، فاشفع لنا إلىٰ ربك، فيقول: إني أذنت ذنبًا فأهبطت به إلىٰ الأرض، ولكن ائتوا نوحًا. فيأتون نوحًا، فيقول: إني دعوت علىٰ أهل الأرض دعوة فأُهلكوا، ولكن اذهبوا إلىٰ إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقول: إني كذبت ثلاث كذبات، ثم قال رسول الله ﷺ: ما منها كذبة إلَّا ماحل بها عن دين الله، ولكن ائتوا موسىٰ، فيأتون موسىٰ، فيقول: قد قتلت نفسًا، ولكن ائتوا عيسىٰ، فيأتون عيسىٰ، فيقول: إني عُبِدت من دون الله، ولكن ائتوا محمدًا ﷺ، فانطلق معهم».

قال ابن جدعان: قال أنس: فكأني أنظر إلىٰ رسول الله، قال: «فآخذ بحلقة باب الجنة، فأقعقعها، فيقال: من هذا؟ فيقال: محمد، فيفتحون لي ويرحبون، فيقولون: مرحبًا، فأخر ساجدًا، فيلهمني الله من الثناء والحمد، فيقال لي: ارفع رأسك، سل تعط، واشفع تشفع، وقل يُسمع لقولك، وهو المقام المحمود الذي قال الله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾

[الإسراء ٧٩].

قال سفيان: ليس عن أنس إلَّا هذه الكلمة «فآخُذُ بحلقة باب الجنة فأُقعْقِعُها» أخرجه الترمذي.

وأنواع الشفاعة المقبولة:

دلت الأحاديث التي سقناها علىٰ نوعين من أنواع الشفاعة التي تقع في ذلك اليوم:

- الأول: الشفاعة العظمىٰ: وهي المقام المحمود، الذي يرغب الأولون والآخرون فيه إلىٰ الرسول ﷺ ليشفع إلىٰ ربه كي يخلص العباد من أهوال المحشر.

- الثاني: الشفاعة في أهل الذنوب من الموحدين الذين دخلوا النار.

أنواع شفاعة الرسول ﷺ:

- الأول والثاني: شفاعة الرسول ﷺ في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي آخرين قد أمر بهم إلىٰ النار أن لا يدخلوها.

- الثالث: شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

- **الرابع**: الشفاعة في أقوام يدخلون الجنة بغير حساب، ويمكن أن يستشهد لهذا بحديث عكاشة بن محصن حيث دعا له الرسول ﷺ أن يجعله من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، والحديث في الصحيحين.

- **الخامس**: شفاعة الرسول ﷺ في تخفيف عذاب عمه أبي طالب، حيث يخرجه الله به إلىٰ ضحضاح من نار يغطي قدميه يغلي لهما دماغه.

- **السادس**: شفاعته في الإذن للمؤمنين بدخول الجنة،

والشفاعة في أهل الذنوب ليست خاصة بالرسول ﷺ، فقد يشفع النبيون والشهداء والعلماء، وقد يشفع للمرء أعماله، ولكن رسولنا ﷺ له النصيب الأوفر منها، وقد يشفع غيره أيضًا في رفع درجات المؤمنين، وبقية الأنواع خاصة بالرسول ﷺ.

هذه هي أنواع الشفاعة التي تقع في يوم القيامة، أما الشفاعة المرفوضة فهي الشفاعة التي يتعامل بها الناس في الدنيا، حيث يشفع الشافع وإن لم يرض الذي شفع عنده، وقد يكره من شفع عنده علىٰ قبول شفاعة الشافعين لعظم منزلتها وقوتهم وبأسهم، وهذه هي الشفاعة التي يعتقدها المشركون والنصارىٰ في آلهتهم، ويعتقدها المبتدعون من هذه الأمة في مشايخهم، وقد أكذب الله أصحابها، فلا أحد يشفع في ذلك اليوم إلَّا بإذن من الله، ولا يشفع إلَّا إذا رضي الله عن الشافع والمشفوع، قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

ولذلك فإن والد إبراهيم لما مات كافرًا فإن الله لا يقبل شفاعة خليله فيه في ذلك اليوم.

* روىٰ البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يلقىٰ إبراهيم أباه آزر في يوم القيامة، وعلىٰ وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أنك لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزىٰ من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالىٰ، إني حرمت الجنة علىٰ الكافرين. ثم يقال لإبراهيم: ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه، فيلقىٰ في النار**».

الحساب والجزاء:

يراد بالحساب والجزاء أن يُوقف الحق تبارك وتعالىٰ عباده بين يديه، ويعرفهم بأعمالهم التي عملوها، وأقوالهم التي قالوها، وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا من إيمان

وكفر، واستقامة وانحراف، وطاعة وعصيان، وما يستحقونه علىٰ ما قدموه من إثابة وعقوبة، وإيتاء العباد كتبهم بأيمانهم إن كانوا صالحين، وبشمالهم إن كانوا طالحين.

ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده، وما يقولونه له، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين، وشهادة الشهود ووزن للأعمال.

والحساب منه العسير، ومنه اليسير، ومنه التكريم، ومنه التوبيخ، والتبكيت، ومنه الفضل والصفح، ومتولي ذلك أكرم الأكرمين.

ولكي نقف مع مشاهد هذا اليوم العظيم فعلينا بمشاهدة أحداثه من خلال وصف من قدره وأجرىٰ مقاديره سبحانه وتعالىٰ.

فقد وصف سبحانه هذا الموقف العظيم المهيب الذي لم تشهد السماوات والأرض مثله قط من أول لحظة إلىٰ آخر لحظة بكل دقة وروعة حتىٰ أن القلوب تكاد تطير من هيبته عند سماعه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء:٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١٢٢]، ولنشاهد معًا بعض هذه المشاهد كما وصفها لنا ربنا جل ثناؤه.

۞ المشهد الأول:

- قال تعالىٰ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر:٦٩].

- وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة:٢١٠].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

- وقال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر:٢١- ٢٢].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر:٢٣-٢٦].

- وقال تعالىٰ: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة: ١-١١].

ويؤتى بالعباد الذين عقد الحق محكمته العظيمة لمحاسبتهم:

ويُقامون صفوفًا للعرض علىٰ رب العباد ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف:٤٨]، ويؤتىٰ بالمجرمين منهم وهم الذين كذبوا الرسل، وتمردوا علىٰ ربهم، واستعلوا في الأرض - مقرنين في الأصفاد، مسربلين بالقطران، ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾ [إبراهيم: ٤٩-٥١]، ولشدة الهول تجثو الأمم علىٰ الركب عندما يُدعىٰ الناس للحساب لعظم ما يشاهدون، وما هم فيه واقعون ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨﴾ [الجاثية:٢٨].

إنه مشهد جليل عظيم نسأل الله أن ينجينا فيه بفضله وَمَنِّهِ وكرمه.

الكفار محاسبون مسؤولون كما أن أعمالهم توزن:

- وقد دلت علىٰ ذلك نصوص كثيرة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢﴾ [القصص:٦٢].

- وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾ [القصص:٦٥].

- وقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۝١٠٤ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥﴾ [المؤمنون: ١٠٣-١٠٥] ولا شك أن هذه النصوص في الكفار المشركين.

والحساب في ذلك اليوم قائم على العدل المطلق:

- قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١﴾ [البقرة:٢٨١].

- وقال تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ [النساء:٧٧].

- المبين قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام:١٦٤].

- ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

✍ **يقول القرطبي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾** [الأنعام:١٦٤]: «أي لا تحمل حاملة ثقل أخرىٰ، لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها، وأصل الوزر الثقل، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾ [الشرح:٢]، وهو هنا الذنب، .. والآية نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يقول: اتبعوا سبيلي أحمل أوزاركم، ذكره ابن عباس، وقيل: إنها نزلت ردًّا علىٰ العرب في الجاهلية من مؤاخذة الرجل بأبيه وابنه، وبجريرة حليفه».

المشهد الثاني عرض الأعمال على العباد:

- قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران:٣٠].

- وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

وهذا المشهد من أعظم المشاهد التي تظهر فيها الخفايا وتُبلىٰ كل نفس بما كسبت ويُفضح أمرها أمام الخلائق نسأل الله السلامة والستر، والمشهد يصور حضور الأعمال وكأن ذلك مصورٌ مرصودٌ عليهم بالصوت والصورة عندما كانوا في الدنيا وقد تم تسجيله ثم هو يوم القيامة يعرض صوتًا وصورة، عرضًا مصغرًا بين يدي العبد ثم يعرض علىٰ شاشة العرض الكبرىٰ إن صح التعبير علىٰ كل الخلق.

فتأمل أخي الحبيب واعلم أنه لا يوجد شيء لا يعلمه الله ولا عمل لم تسجله الملائكة الكرام فكن في حذر من فضيحة يوم العرض واحذر بطشة الجبار.

- قال تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

وهو كتاب شامل لجميع الأعمال كبيرها وصغيرها ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف:٤٩].

المشهد الثالث من مشاهد الفضل والكرم لربنا الكريم سبحانه:

فيجازي الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبع مائة ضعف والسيئة بمثلها ويعفو عن كثير ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٠].

وفي الحديث: «**إذا أسلم العبد فحسن إسلامه، يكفر الله عنه كل سيئة كان أزلفها، وكان بعد ذلك القصاص، الحسنة بعشر أمثالها، إلىٰ سبع مائة ضعف، والسيئة بمثلها إلّا أن يتجاوز الله عنها**». رواه البخاري.

وأما الأعمال التي تضاعف أضعافًا لا تدخل تحت حصر، ولا يحصيها إلّا الذي يجزي بها: الصوم، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، قال الله تعالىٰ: «إلّا الصوم فإنه لي: وأنا أجزي به**».

والسر في كون الصائم يعطىٰ من غير تقدير، أن الصوم من الصبر، والصابرون يوفون أجورهم بغير حساب، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر:١٠]، قال القرطبي: «وقال أهل العلم: كل أجر يُكال كيلًا، ويُوزن وزنًا إلّا الصوم، فإنه يُحثىٰ ويُغرف غرفًا».

ومن الصبر: الصبر علىٰ فجائع الدنيا وأحزانها وكربها التي يبتلي الله بها عباده ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وعندما يرىٰ أهل العافية عظم أجر الصابرين يتمنون أن تكون جلودهم قرضت بالمقاريض لينالوا أجر الصابرين، ففي «سنن الترمذي» عن جابر، و«معجم الطبراني» عن ابن عباس بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال: «**ليودّن أهل العافية يوم القيامة، أن جلودهم قرضت بالمقاريض، مما يرون من ثواب أهل البلاء**».

ومن فضل الله تبارك وتعالىٰ أن المؤمن الذي يهم بفعل الحسنة، ولكنه لا يفعلها تكتب له حسنة تامة، والذي يهم بفعل السيئة، ثم تدركه مخافة الله، فيتركها تكتب له حسنة تامة، ففي «صحيح البخاري»، عن ابن عباس ﭭ، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ، قال: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها، فعملها، كتبها الله له سيئة واحدة**».

۞ تبديل السيئات حسنات:

وتبلغ رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن يبدِّل سيئاتهم حسنات، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في «صحيحه» عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها. رجل يؤتىٰ به يوم القيامة. فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا. فيقول نعم: لا يستطيع أن ينكر. وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه. فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة. فيقول: رب، عملت أشياء لا أراها ها هنا**». فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتىٰ بدت نواجذه».

المشهد الرابع الشهادات:

إقامة الشهود علىٰ الكفرة والمنافقين: أعظم الشهداء في يوم المعاد علىٰ العباد هو ربهم وخالقهم وفاطرهم، الذي لا تخفىٰ عليه خافية من أحوالهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ﴾ [يونس:٦١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾[النساء:٣٣].

ولكن الله يحب الإعذار علىٰ خلقه، فيبعث من مخلوقاته شهداء علىٰ المكذبين الجاحدين حتىٰ لا يكون لهم عذر، وقد أشارت أكثر من آية إلىٰ الشهداء الذين يشهدون علىٰ العباد، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر:٦٩].

- وأول من يشهد علىٰ الأمم رسلها، فيشهد كل رسول علىٰ أمته بالبلاغ، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١]، ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[النحل:٨٩].

وقوله: ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل:٨٩]، هم الرسل، لأن كل أمة رسولها منها، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [القصص:٧٥].

- وكما يشهدون علىٰ أممهم بالبلاغ يشهدون عليهم بالتكذيب، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١٠٩]، وقال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: ٦-٧].

✍ **قال ابن كثير في تفسير الآية الأولىٰ:** «هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلوا إليهم، ... وقول الرسل: (لا علم لنا) قال مجاهد والحسن البصري والسدي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم.. وقال ابن عباس: لا علم لنا إلَّا علم أنت أعلم به منا، رواه ابن جرير ثم اختاره، ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، أي لا علم لنا بالنسبة إلىٰ علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا ما أجبنا، ولكن منهم من كنا إنما نطلع علىٰ ظاهره لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع علىٰ كل شيء، فعلمنا بالنسبة إلىٰ علمك كلا شيء».

ثم إن الأمم تكذب رسلها، وتقول كل أمة ما جاءنا من نذير، فتأتي هذه الأمة - أمة محمد ﷺ - وتشهد للرسل بالبلاغ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وقد أورد البخاري في «صحيحه» في كتاب التفسير الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدعىٰ نوح يوم القيامة، لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: «هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليكم شهيدًا، فذلك قوله جل ذكره:** ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]».

وقد أفاد ابن حجر أنه قد جاء الحديث عند أحمد والنسائي وابن ماجة بلفظ: «**يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، ويجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه أكثر من**

ذلك. قال: فيقال لهم: أبلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال للنبي: أبلغتهم؟ فيقول: نعم، فيقال له: من يشهد لك؟..» الحديث.

وذكر ابن حجر أيضًا أن في بعض روايات الحديث زيادة: «**فيقال ما علمكم؟ فيقولون: أخبرنا نبينا أن الرسل قد بلغوا فصدقناه**».

- ومن الأشهاد الأرض والأيام والليالي، تشهد بما عمل فيها وعليها، ويشهد المال علىٰ صاحبه، وقد عقد القرطبي في تذكرته لهذا الموضوع بابًا، وذكر فيه حديث الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ ﴾ [الزلزلة:٤]. قال: «**أتدرون ما أخبارها؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**فإن أخبارها أن تشهد علىٰ كل عبد أو أمة بما عمل علىٰ ظهرها، تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا، فهذه أخبارها**». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

- ويشهد علىٰ العبد أيضًا ملائكة الرحمن الذين كانوا يسجلون عليه صالح أعماله وطالحها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ ﴾ [ق:٢١]، والسائق والشهيد الملكان اللذان كانا موكلين بتلك النفس.

- وتشهد الملائكة علىٰ العباد بما كانوا يعملون، ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [هود:١٨]، فإذا لج العبد في الخصومة، وكذب ربه، وكذب الشهود الذين شهدوا عليه، أقام الله عليه شاهدًا منه، فتشهد علىٰ المرء أعضاؤه، وقد مضىٰ بيان هذا.

۞ مشهد سؤال العباد:

يُسأل العباد عن الإله الذي كانوا يعبدونه، وعن إجابتهم للمرسلين، وقد بينا ذلك فيما مضىٰ.

ويُسألون عن أعمالهم التي عملوها، وعما تمتعوا به من النعيم في الحياة الدنيا، كما يُسألون عن عهودهم ومواثيقهم، وعن أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم، وهذا ما سنبينه في هذا المبحث.

١ - الكفر والشرك:

- أعظم ما يُسأل عنه العباد هو كفرهم وشركهم، فيسألهم عن الشركاء والأنداد الذين كانوا يعبدونه من دون الله كما قال تعالىٰ: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ

﴿يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء: ٩٢-٩٣]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص:٦٢].

- ويُسألون عن عبادتهم لغير الله من تقديم القرابين للآلهة التي كانوا يعبدونها، ونحر الذبائح باسمها ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النحل:٥٦].

- ويُسألون عن تكذيبهم للرسل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [القصص: ٦٥-٦٦].

٢- ما عمله في دنياه:

- يُسأل المرء في يوم القيامة عن جميع أعماله التي عملها في الحياة الدنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

- وقال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾

[الأعراف:٦].

* وفي «سنن الترمذي» عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتىٰ يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه؟**».

* وفي «سنن الترمذي» أيضًا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه، حتىٰ يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم**».

والذي يتأمل في مثل هذا الحديث يعلم السر في دعوة الرسول ﷺ المسلم إلىٰ التخفف من المال، فكلما كثر مال العبد كثر حسابه وطال، وكلما قل ماله خف حسابه وأسرع به إلىٰ الجنة، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن فقراء المهاجرين يسبقون أغنياءهم إلىٰ الجنة بأربعين سنة، ففي «صحيح مسلم» عن أبي عبد الرحمن الْحُبُلِيِّ قال: جاء ثلاثة نفر إلىٰ عبد الله بن عمرو بن العاص، وأنا عنده، فقالوا: يا أبا محمد، إنا والله، ما نقدر علىٰ شيء، لا نفقة، ولا دابة، ولا متاع. فقال: ما شئتم إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم. وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان. وإن شئتم صبرتم. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء، يوم القيامة إلىٰ الجنة بأربعين خريفًا**».

٣ - النعيم الذي يتمتع به:

- يسأل اللهُ عبادَه في يوم القيامة عن النعيم الذي خولهم إياه في الدنيا، كما قال: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر:٨].

يعني بالنعيم شبع البطون، وبارد الماء، وظلال المساكن، واعتدال الخلْق، ولذة النوم، وقال سعيد بن جبير: حتىٰ عن شربة عسل. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا. وقال الحسن البصري: من النعيم الغذاء والعشاء. وقال أبو قلابة: من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي. وعن ابن عباس: النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار.

وهذا الذي فسروها به من باب التنوع في التفسير، فإن أصناف النعيم كثيرة لا تعد ولا تحصىٰ ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل:١٨].

وبعض أنواع النعيم من الضروريات وبعضها من الكماليات، والناس يتفاوتون في ذلك فيما بينهم، ويوجد في عصر ما لا يجده أهل عصور أخرىٰ، وفي بلد ما لا يجده أهل بلاد أخرىٰ، وكل ذلك يُسأل عنه العباد.

* روىٰ الترمذي بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول ما يُسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نصح لك جسمك؟ ونروك من الماء البارد**».

وبعض الناس لا يستشعر النعم العظيمة التي وهبه الله إياها، فلا يدرك النعمة التي في شربة الماء، ولقمة الطعام، وفيما وهبه الله من مسكن وزوجة وأولاد، ويظن أن النعم تتمثل في القصور والبساتين والمراكب فحسب، فقد سأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. فأنت من الأغنياء. قال فإن لي خادمًا. قال: فأنت من الملوك.

وفي «صحيح البخاري» عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»، ومعنىٰ هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون.

* وفي «مسند أحمد» أن رسول الله ﷺ قال: «**لا بأس بالغنىٰ لمن اتقىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والصحة لمن اتقىٰ الله خير من الغنىٰ، وطيب النفس من النعيم**».

* وفي بعض الأحاديث النبوية بيان من الرسول ﷺ عن صورة من صور السؤال عن النعيم الذي يواجه الله به عباده في ذلك اليوم، ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة عن النبي

ﷺ قال: «يلقىٰ (الربُّ) العبدَ فيقول: أي فُل، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلىٰ. قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ قال: فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقىٰ الثاني فيقول: أي فُل، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلىٰ. أي رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقىٰ الثالث، فيقول له مثل ذلك. فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع. فيقول: ههنا إذن. قال: ثم يقال له: الآن نبعث عليك شاهدًا عليك، ويتفكر في نفسه، من ذا يشهد علي؟ فيختم الله علىٰ فيه. ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله. وذلك ليعذر من نفسه. وذلك المنافق الذي يسخط الله عليه».

والسؤال عن النعيم سؤال عن شكر العبد لما أنعم الله به عليه، فإذا شكر فقد أدىٰ حق النعمة، وإن أبىٰ وكفر، أغضب عليه الله، ففي «صحيح مسلم» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضىٰ عن العبد أن يأكل الأكلة، فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها».

٤- العهود والمواثيق:

- يسأل اللهُ عبادَه عما عاهدوه عليه ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ [الأحزاب:١٥]، وكل عهد مشروع بين العباد فإن الله سائل العبد عن الوفاء به ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء:٣٤].

٥- السمع والبصر والفؤاد:

- يسألُ اللهُ العبادَ عن جميع ما يقولونه، ولذلك حذرهم من القول بلا علم ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء:٣٦]، قال قتادة: «لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله».

✍ قال ابن كثير: «ومضمون ما ذكروه في الآية أن الله نهىٰ عن القول بغير علم، بل بالظن، الذي هو التوهم والخيال. كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات:١٢].

* وفي الحديث: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»، وفي «سنن أبي داود»: «بئس مطية الرجل: (زعموا)»، وفي الحديث الآخر: «إن أفرىٰ الفرىٰ أن يري الرجل عينيه ما لم تريا»، وفي الصحيح: «من تحلم حلمًا كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل».

أول ما يحاسب عليه العبد من أعماله:

أول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله تبارك وتعالىٰ الصلاة، فإن صلحت أفلح ونجح وإلا خاب وخسر، ففي «سنن الترمذي والنسائي» عن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيئًا. قال الرب تبارك وتعالىٰ: انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله علىٰ ذلك**».

وفي «سنن أبي داود» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة، قال: يقول ربنا عَزَّوَجَلَّ لملائكته: انظروا في صلاة عبدي، أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئًا، قال: انظروا، هل لعبدي من تطوع، فإن كان له تطوع، قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال بعد ذلك**».

مشاهد من أنواع الحساب

يتفاوت حساب العباد، فبعض العباد يكون حسابهم عسيرًا وهؤلاء هم الكفرة المجرمون الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، وتمردوا علىٰ شرع الله، وكذبوا بالرسل، وبعض عصاة الموحدين قد يطول حسابهم ويعسر بسبب كثرة الذنوب وعظمها.

وبعض العباد يدخلون الجنة بغير حساب، وهم فئة قليلة لا يجاوزون السبعين ألفًا، وهم الصفوة من هذه الأمة، والقمم الشامخة في الإيمان والتقىٰ والصلاح والجهاد، وسيأتي ذكرهم وصفتهم عند الحديث عن أهل الجنة وبعض العباد يحاسبون حسابًا يسيرًا، وهؤلاء لا يناقشون الحساب، أي لا يدقق، ولا يحقق معهم، وإنما تعرض عليهم ذنوبهم ثم يتجاوز لهم عنها.

وهذا معنىٰ قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٧-٨]، ففي «صحيح البخاري ومسلم» عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلَّا هلك**»، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٧-٨]، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلَّا هلك**».

✍ **قال النووي في شرحه للحديث**: «معنىٰ نوقش الحساب: استقصي عليه. قال القاضي: وقوله: (عذب) له معنيان: أحدهما: أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ. والثاني: أنه مفض إلىٰ العذاب بالنار ويؤيده قوله في الرواية الأخرىٰ: (**هلك**) مكان (عذب) هذا كلام القاضي.

✍ **قال النووي**: وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصي عليه، ولم يسامح هلك، ودخل النار، ولكن الله تعالىٰ يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء».

✍ **ونقل ابن حجر عن القرطبي في معنىٰ قوله**: «إنما ذلك العرض» قال: «إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتىٰ يعرف منَّة الله عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة».

والمراد بالعرض - كما هو ظاهر من هذه الأحاديث - عرض ذنوب المؤمنين عليهم، كي يدركوا مدىٰ نعمة الله عليهم في غفرانها لهم.

❊❊❊

مشهد من مناقشة المرائين:

* روىٰ مسلم والترمذي والنسائي عن شفي بن ماتع الأصبحي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه، حتىٰ قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا، قلت له: أسألك بحق وحق، لما حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ، عقلته وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة، فمكثنا قليلًا، ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت، ما معنا أحدٌ غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرىٰ، ثم أفاق ومسح عن وجهه، وقال: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ، أنا وهو في هذا البيت، ما معنا أحدٌ غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارًّا علىٰ وجهه، فأسندته طويلًا، ثم أفاق، فقال: حدثني رسول الله ﷺ: **«أن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلىٰ العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قُتل في سبيل الله، ورجلٌ كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت علىٰ رسولي؟ قال: بلىٰ، يا رب، قال: فماذا عملت فما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان قارئ، وقد قيل ذلك. ويؤتىٰ بصحاب المال فيقول الله: ألم أوسع عليك، حتىٰ لم أدعك تحتاج إلىٰ أحد؟ قال: بلىٰ، يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم، وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جواد، فقيل ذلك. ثم يؤتىٰ بالذي قُتل في سبيل الله، فيقول الله: في ماذا قُتلت؟ فيقول: أُمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتىٰ قُتلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذلك»**. ثم ضرب رسول الله ﷺ علىٰ ركبتي، فقال: **«يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة»**.

✍ **قال الوليد أبو عثمان المدائني: فأخبرني عقبة بن مسلم: أن شفيًّا هو الذي دخل** علىٰ معاوية فأخبره بهذا.

* قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم: «أنه كان سيافًا لمعاوية، فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فُعل بهؤلاء هكذا، فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكىٰ معاوية بكاءً شديدًا، حتىٰ ظننا أنه هالك، وقلنا: قد جاء هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية، ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود: ١٥-١٦]. أخرجه الترمذي.

❀◊❀

مشهد لعرض الرب ذنوب عبده عليه:

* عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب. حتىٰ إذا قرره بذنوبه، ورأىٰ في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطىٰ كتاب حسناته. وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:١٨].

✍ **قال القرطبي في قوله:** «فيضع عليه كنفه» أي: ستره ولطفه وإكرامه، فيخاطب خطاب ملاطفة، ويناجيه مناجاة المصافاة والمحادثة، فيقول له: هل تعرف؟ فيقول: رب أعرف، فيقول الله ممتنًّا عليه، ومظهرًا فضله لديه: فإني قد سترتها **عليك** في الدنيا، أي لم أفضحك بها فيها، وأنا أغفرها لك اليوم.

❀◊❀

مشهد من معاتبة الرب عبده فيما وقع منه من تقصير:

* وقد حدثنا الرسول ﷺ عن معاتبة الرب لعبده يوم القيامة، ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالىٰ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني.**

قال: يا رب كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟

قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟

يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني؟

قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟

قال: أما علمت أنه استطعمتك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني؟

قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟

قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه؟ أما علمت أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي؟».

مشهد إيتاء العباد كتبهم:

في ختام مشهد الحساب يُعطىٰ كل عبد كتابه المشتمل علىٰ سجل كامل لأعماله التي عملها في الحياة الدنيا وتختلف الطريقة التي يؤتىٰ بها العباد كتبهم، فأما المؤمن فإنه يؤتىٰ كتابه بيمينه من أمامه، فيحاسب حسابًا يسيرًا، وينقلب إلىٰ أهله في الجنة مسرورًا ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق: ٧-٩]، وإذا اطلع المؤمن علىٰ ما تحويه صحيفته من التوحيد وصالح الأعمال سر واستبشر، وأعلن هذا السرور، ورفع به صوته، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤].

وأما الكافر والمنافق وأهل الضلال فإنهم يؤتون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم، وعند ذلك يدعو الكافر بالويل والثبور، وعظائم الأمور ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق: ١٠-١٢].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ [الحاقة: ٢٥-٣١].

وعندما يُعطىٰ العباد كتبهم يقال لهم: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩].

مشهد اقتصاص المظالم بين الخلق:

* يقتص الحكم العدل في يوم القيامة للمظلوم من ظالمه، حتىٰ لا يبقىٰ لأحد عند أحد مظلمة، حتىٰ الحيوان يقتص لبعضه من بعض، فإذا انطحت شاتان إحداهما جلحاء لا قرون لها، والأخرىٰ ذات قرون، فإنه يقتص لتلك من هذه، ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لتؤدن الحقوق إلىٰ أهلها يوم القيامة، حتىٰ يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»**.

والذي يعتدي علىٰ غيره بالضرب، يقتص منه بالضرب في يوم القيامة، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري في «الأدب المفرد» والبيهقي في «السنن»، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من ضرب بسوط ظلمًا، اقتُصَّ منه يوم القيامة»**.

* وفي «معجم الطبراني الكبير» عن عمار، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من ضرب مملوكه ظالمًا، أقيد منه يوم القيامة»** وإسناده صحيح.

والذي يقذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد في يوم القيامة، إن كان كذابًا فيما رماه به، ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال أبو القاسم ﷺ: **«من قذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد يوم القيامة، إلَّا أن يكون كما قال»**.

كيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة:

إذا كان يوم القيامة كانت ثروة الإنسان ورأس ماله حسناته، فإذا كانت عليه مظالم للعباد فإنهم يأخذون من حسناته بقدر ما ظلمهم، فإن لم يكن له حسنات أو فنيت حسناته، فإنه يؤخذ من سيئاتهم فيطرح فوق ظهره.

ففي «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلل منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»**.

وهذا الذي يأخذ الناس حسناته، ثم يقذفون فوق ظهره بسيئاتهم هو المفلس، كما سماه الرسول ﷺ، ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«أتدرون من المفلس؟»** قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: **«إن المفلس من أمتي، من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا،**

وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطىٰ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار».

* والمدين الذي مات، وللناس في ذمته أموال يأخذ أصحاب الأموال من حسناته بمقدار ما لهم عنده، ففي «سنن ابن ماجة» بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات وعليه دينار أو درهم، قضىٰ من حسناته، ليس ثم دينار ولا درهم**».

وإذا كانت بين العباد مظالم متبادلة اقتُصَّ لبعضهم من بعض، فإن تساوىٰ ظلم كل واحد منهما للآخر كان كفافًا لا له ولا عليه، وإن بقي لبعضهم حقوق عند الآخرين أخذها.

* ففي «سنن الترمذي» عن عائشة، قالت: جاء رجل فقعد بين يدي الرسول ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني، ويخونني، ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟

فقال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا لا لك، ولا عليك. وإن كان عقابك إياهم دون ذنبهم كان فضلًا لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل**» فتنحىٰ الرجل، وجعل يهتف ويبكىٰ.

فقال له رسول الله ﷺ: «**أما تقرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾**» [الأنبياء: ٤٧].

ولما كان هذا شأن الظلم فحري بالعباد الذين يخافون ذلك اليوم أن يتركوه ويجتنبوه وقد أخبر الرسول ﷺ أن الظلم يكون ظلمات في يوم القيامة، ففي «صحيح البخاري ومسلم» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**».

* وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ: «**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**».

۞ من أعظم مشاهد القصاص:

من أعظم الأمور عند الله أن يسفك العباد بعضهم دم بعض في غير الطريق الذي شرعه الله تبارك وتعالىٰ، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه الترمذي عن ابن مسعود، عن النبي

ﷺ قال: «يجيء الرجل آخذًا بيد الرجل، فيقول: يا رب، هذا قتلني: فيقول: لم قتلته؟ فيقول: قتلته لتكون العزة لك.

فيقول: فإنها لي. ويجيء الرجل آخذًا بيد الرجل، فيقول: أي رب، إن هذا قتلني. فيقول الله: لم قتلته؟ فيقول: لتكون العزة لفلان. فيقول: إنها ليست لفلان، فيبوء بإثمه».

* وفي «السنن» للترمذي، وأبي داود، وابن ماجة، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دمًا، فيقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني؟ حتىٰ يدنيه من العرش».

ولعظم أمر الدماء فإنها تكون أول شيء يُقضىٰ فيه بين العباد.

* فقد روىٰ البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أول ما يُقضىٰ بين الناس يوم القيامة في الدماء».

✍ قال ابن حجر في شرحه للحديث: «وفي الحديث عظم أمر الدم، فإن البداءة إنما تكون بالأهم، والذنب يعظم بحسب عظم المفسدة وتفويت المصلحة، وإعلام البنية الإنسانية غاية في ذلك».

ولا تعارض بين هذا الحديث وحديث أن أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة، قال ابن حجر العسقلاني: «ولا يعارض هذا حديث أبي هريرة رفعه: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته» الحديث أخرجه أصحاب السنن، لأن الأول محمول علىٰ ما يتعلق بمعاملات الخلق، والثاني: فيما يتعلق بعبادة الخالق.

وقد جمع النسائي في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين، ولفظه: «أول ما يحاسب العبد عليه صلاته، وأول ما يقضىٰ بين الناس في الدماء»

وخلاصة مسألة القصاص أن علىٰ العبد أن يتجنب الخوض في الآخرين بأكل حق أو الوقوع في دماء أو أعراض أو غيبة أو نميمة أو غير ذلك وإن كان ممن وقع في بعض ذلك أن يرد المظالم لأهلها فإن لم يستطع لعجزه عن ذلك فليستسمحهم فإن لم يقدر لفقدانه صاحب الحق فليستغفر لهم حتىٰ لا يلقىٰ الله مفلسًا أوبقتهُ حقوق الخلق كالذي صح عن النبي ﷺ عند مسلم (عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إنّ المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم

هذا، وضرب هذا، فيعطىٰ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضىٰ ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثمّ طرح في النّار».

۞ ومن أعجب المشاهد مشهد الاقتصاص للبهائم بعضها من بعض:

يقضي الله بين خلقه: الجن والإنس والبهائم، وإنه ليقيد يومئذ الجماء من القرناء، حتىٰ إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرىٰ قال الله: كونوا ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ:٤٠].

* هذا حديث أخرجه ابن جرير في تفسيره بإسناده إلىٰ أبي هريرة يرفعه، وفي رواية أخرىٰ أخرجها ابن جرير أيضًا عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يحشر الخلق كلهم، كل دابة وطائر وإنسان، يقول للبهائم والطير: كونوا ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر:** ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ:٤٠]».

* وعن ابن جرير أيضًا عن عبد الله بن عمرو قال: «إذا كان يوم القيامة مد الأديم، وحشر الدواب والبهائم والوحش، ثم يحصل القصاص بين الدواب، يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها، فإذا فرغ من القصاص بين الدواب، قال لها: كوني ترابًا، قال فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ:٤٠]».

* وأخرج مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**لتؤدن الحقوق إلىٰ أهلها يوم القيامة، حتىٰ يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**».

۞ مشهد اقتصاص المؤمنين بعضهم من بعض:

* في «صحيح البخاري» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إذا خلص المؤمنون من النار، حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتىٰ إذا نقوا وهذّبوا، أذن لهم بدخول الجنة، فو الذي نفس محمد بيده، لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا**».

مشهد الميزان:

في ختام ذلك اليوم ينصب الميزان لوزن أعمال العباد، يقول القرطبي: «وإذا انقضىٰ الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة. فإن المحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها».

* وقد دلت النصوص علىٰ أن الميزان ميزان حقيقي، لا يقدر قدره إلَّا الله تعالىٰ، فقد روىٰ الحاكم عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السماوات والأرض لَوَسِعَتْ. فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالىٰ: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك».

وهو ميزان دقيق لا يزيد ولا ينقص ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

وقد اختلف أهل العلم في وحدة الميزان وتعدده، فذهب بعضهم إلىٰ أن لكل شخص ميزانًا خاصًّا، أو لكل عمل ميزانًا لقوله تعالىٰ: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

وذهب آخرون إلىٰ أن الميزان واحد، وأن الجمع في الآية إنما هو باعتبار تعدد الأعمال أو الأشخاص.

وقد رجَّح ابن حجر بعد حكايته للخلاف أن الميزان واحد، قال: «ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله، لأن أحوال القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا».

✍ وقال السفاريني: «قال الحسن البصري: لكل واحد من المكلفين ميزان. قال بعضهم: الأظهر إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد، لقوله تعالىٰ: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقوله: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ [الأعراف:٨]. قال: وعلىٰ هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان، ولأفعال الجوارح ميزان، ولما يتعلق بالقول ميزان. أورد هذا ابن عطية وقال: الناس علىٰ خلافه، وإنما لكل واحد وزن مختص به، والميزان واحد. وقال بعضهم إنما جمع الموازين في الآية الكريمة لكثرة من توزن أعمالهم. وهو حسن».

والميزان عند أهل السنة ميزان حقيقي توزن به أعمال العباد وخالف في هذا المعتزلة، وقلة قليلة من أهل السنة.

✍ **قال ابن حجر**: «قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة علىٰ الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال، وأنكرت المعتزلة الميزان، وقالوا: هو عبارة عن العدل فخالفوا الكتاب والسنة، لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال، ليرىٰ العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا علىٰ أنفسهم شاهدين.

✍ **وقال ابن فورك**: أنكرت المعتزلة الميزان، بناء منهم علىٰ أن الأعراض يستحيل وزنها إذ لا تقوم بأنفسها.

قال: وقد روىٰ بعض المتكلمين عن ابن عباس أن الله تعالىٰ يقلب الأعراض أجسامًا فيزنها. انتهىٰ.

وقد ذهب بعض السلف إلىٰ أن الميزان بمعنىٰ العدل والقضاء، وعزا الطبري القول بذلك إلىٰ مجاهد.

والراجح ما ذهب إليه الجمهور.

✍ **وذكر الميزان عند الحسن فقال**: «له لسان وكفتان».

وعزا القرطبي تفسير الميزان بالعدل إلىٰ مجاهد والضحاك والأعمش.

ولعل هؤلاء العلماء فسروا الميزان بالعدل في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٧-٩]، فالميزان في هذه الآية العدل، أمر الله عباده أن يتعاملوا به فيما بينهم، أما الميزان الذي ينصب في يوم القيامة فقد تواترت بذكره الأحاديث، وأنه ميزان حقيقي، وهو ظاهر القرآن وقد رد الإمام أحمد علىٰ من أنكر الميزان بأن الله تعالىٰ ذكر الميزان في قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧]. والنبي ﷺ ذكر الميزان يوم القيامة، فمن رد علىٰ النبي ﷺ فقد رد علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

✍ **وقد استدل شيخ الإسلام** علىٰ أن الميزان غير العدل، وأنه ميزان حقيقي توزن به الأعمال بالكتاب والسنة، فقال:

«الميزان: هو ما يوزن به الأعمال، وهو غير العدل كما دلَّ علىٰ ذلك الكتاب والسنة، مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [المؤمنون:١٠٢]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [المؤمنون:١٠٣]، وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

* وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «**كلمتان خفيفتان علىٰ اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلىٰ الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**».

* وقال عن سَاقَيْ عبد الله بن مسعود: «**لهما في الميزان أثقل من أحد**».

* وفي الترمذي وغيره حديث البطاقة، وصححه الترمذي والحاكم وغيرهما في الرجل الذي يؤتىٰ به، فينشر له تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل منها مد البصر، فيوضع في كفة،

ويؤتىٰ ببطاقة فيها شهادة أن لا إله إلَّا الله. قال النبي ﷺ: «**فطاشت السجلات وثقلت البطاقة**».

وهذا وأمثاله مما يبين أن الأعمال توزن بموازين تبين بها رجحان الحسنات علىٰ السيئات وبالعكس، فهو ما به تبين العدل، والمقصود بالوزن العدل، كموازين الدنيا.

وأما كيفية تلك الموازين فهو بمنزلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب».

وقد رد القرطبي علىٰ الذين أنكروا الميزان وأولوا النصوص الواردة فيه وحملوها علىٰ غير محملها قائلًا: «قال علماؤنا ولو جاز حمل الميزان علىٰ ما ذكروه، لجاز حمل الصراط علىٰ الدين الحق، والجنة والنار علىٰ ما يرد علىٰ الأرواح دون الأجساد من الأحزان والأفراح، والشياطين والجن علىٰ الأخلاق المذمومة، والملائكة علىٰ القوىٰ المحمودة، وهذا كله فاسد، لأنه رد لما جاء به الصادق، وفي «الصحيحين»: «**فيعطىٰ صحيفة حسناته**»، وقوله: «**فيخرج له بطاقة**»، وذلك يدل علىٰ الميزان الحقيقي، وأن الموزون صحف الأعمال كما بينا وبالله التوفيق».

المطلب الثالث

ما الذي يوزن في الميزان

اختلف أهل العلم في الموزون في ذلك اليوم علىٰ أقوال:

الأول: أن الذي يوزن في ذلك اليوم الأعمال نفسها، وأنها تجسم فتوضع في الميزان، ويدل لذلك حديث أبي هريرة ﷺ في الصحيح قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلمتان حبيبتان إلىٰ الرحمن، خفيفتان علىٰ اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**».

وقد دلت نصوص كثيرة علىٰ أن الأعمال تأتي في يوم القيامة في صورةٍ اللهُ أعلمُ بها، فمن ذلك مجيء القرآن شافعًا لأصحابه في يوم القيامة، وأن البقرة وآل عمران تأتيان كأنهما غمامتان أو غَيَايَتَانِ، أو فرقان من طير صواف تحاجّان عن أصحابهما. ففي «صحيح مسلم» عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه. اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو غَيَايَتَانِ، أو فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تحاجان عن أصحابهما**».

* وروىٰ مسلم أيضًا عن النواس بن سمعان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يؤتىٰ بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران، كأنهما غمامتان، أو ظلتان بينهما شرق، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما**».

وهذا القول رجَّحه ابن حجر العسقلاني ونصره، فقال: «والصحيح أن الأعمال هي التي توزن، وقد أخرج أبو داود والترمذي، وصححه ابن حبان عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**ما يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من حسن الخلق**».

الثاني: أن الذي يوزن هو العامل نفسه، فقد دلَّت النصوص علىٰ أن العباد يوزنون في يوم القيامة، فيثقلون في الميزان أو يخفون بمقدار إيمانهم، لا بضخامة أجسامهم، وكثرة ما عليهم من لحم ودهن، ففي «صحيح البخاري» عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾** [الكهف: ١٠٥]».

ويؤتىٰ بالرجل النحيف الضعيف دقيق الساقين فإذا به يزن الجبال، روىٰ أحمد في «مسنده»، عن زر بن حبيش عن ابن مسعود، أنه كان دقيق الساقين، فجعلت الريح تلقيه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: «مم تضحكون؟» قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه. قال: «**والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد**».

✍ **قال ابن كثير:** تفرد به أحمد وإسناده جيد قوي.

✍ **وما أحسن ما قال الشاعر:**

تـــرىٰ الرجـــل النحيـــف فتزدريـــه ... وفي أثوابـــــه أســـــد هريـــــر

ويعجبـــــك الطريـــــر فتبتليـــــه ... فيخلـــف ظنـــك الرجـــل الطريـــر

الثالث: أن الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال.

* فقد روىٰ الترمذي في «سننه» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله سيخلص رجلًا من أمتي علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سجلًا، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: ألك عذر؟ فيقول: لا يا رب. فيقول الله تعالىٰ: بلىٰ، إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: فإنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء**».

✍ **وقد مال القرطبي إلىٰ هذا القول، فقال:** «والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف، قال ابن عمر: توزن صحائف الأعمال، وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام، فيجعل الله تعالىٰ رجحان إحدىٰ الكفتين علىٰ الأخرىٰ دليلًا علىٰ كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار.

✍ **وقال السفاريني:** «والحق أن الموزون صحائف الأعمال، وصححه ابن عبد البر والقرطبي وغيرهما، وصوبه الشيخ مرعي في (بهجته)، وذهب إليه جمهور من المفسرين، وحكاه ابن عطية عن أبي المعالي..».

خلاصة المسألة: ولعل الحق أن الذي يوزن هو العامل وعمله وصحف أعماله، فقد دلت النصوص التي سقناها علىٰ أن كل واحد من هذه الثلاثة يوزن، ولم تنف النصوص

المثبتة لوزن الواحد منها أن غيره لا يوزن، فيكون مقتضىٰ الجمع بين النصوص إثبات الوزن للثلاثة المذكورة جميعها.

وهذا ما رجحه الشيخ حافظ الحكمي فقال: «والذي استظهر من النصوص - والله أعلم - أن العامل وعمله وصحيفة عمله - كل ذلك يوزن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن، قد وردت بكل ذلك، ولا منافاة بينها، ويدل كذلك ما رواه أحمد - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ - عن عبد الله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ: قال: قال رسول الله: «**توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتىٰ بالرجل، فيوضع في كفة، ويوضع ما أحصىٰ عليه، فيمايل به الميزان. قال: فيبعث به إلىٰ النار. قال: فإذا أدبر، إذا صائح من عند الرحمن عَزَّوَجَلَّ يقول: لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتىٰ ببطاقة فيها لا إله إلَّا الله، فتوضع مع الرجل في كفة، حتىٰ يميل به الميزان**».

فهذا يدل علىٰ أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرىٰ، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن، ولله الحمد والمنة».

بعض الأعمال التي تثقل في الميزان:

أثقل ما يوضع في ميزان العبد:

حسن الخلق:

* فعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**إن أثقل شيء يوضع في ميزان العبد يوم القيامة خلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذيء**» رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الذكر:

* وفي «صحيحي البخاري ومسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلمتان خفيفتان علىٰ اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلىٰ الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**».

الطهور والحمد والتسبيح:

* ففي «صحيح مسلم» عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماء والأرض**».

۞ الجهاد بالمال في سبيل الله:

* روىٰ البخاري والنسائي وأحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**من احتبس فرسًا في سبيل الله، إيمانًا بالله، وتصديقًا بوعده، كان شبعه وريه، وروثه، وبوله، حسنات في ميزانه يوم القيامة**».

مشهد الحوض:

يكرم الله عبده ورسوله محمدًا ﷺ في الموقف العظيم بإعطائه حوضًا واسع الأرجاء، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلىٰ من العسل، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، يأتيه هذا الماء الطيب من نهر الكوثر، الذي أعطاه لرسوله ﷺ في الجنة، ترد عليه أمة المصطفىٰ ﷺ، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا.

وقد اختلف أهل العلم في موضعه فذهب الغزالي والقرطبي إلىٰ أنه يكون قبل المرور علىٰ الصراط في عرصات القيامة، واستدلوا علىٰ ذلك بأنه يؤخذ بعض وارديه إلىٰ النار فلو كان بعد الصراط لما استطاعوا الوصول إليه.

واستظهر ابن حجر أن مذهب البخاري أن الحوض يكون بعد الصراط، لأن البخاري أورد أحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة، وأحاديث نصب الصراط».

وما ذهب إليه القرطبي أرجح، وقد استعرض ابن حجر أدلة الفريقين في كتابه القيم: «فتح الباري».

۞ الأحاديث الواردة في الحوض متواترة:

لا شك في تواترها عند أهل العلم بأحاديث الرسول ﷺ، وقد رواها عن الرسول ﷺ أكثر من خمسين صحابيًّا، وقد ذكر ابن حجر أسماء رواة أحاديثه من الصحابة ونحن نسوق هنا بعض هذه الأحاديث التي أوردها الخطيب التبريزي في «مشكاته»:

١- عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء. ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من يشرب منها فلا يظمأ أبدًا**». متفق عليه.

٢- وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «**إن حوضي أبعد من أيلة من عدن لهو أشدُّ بياضًا من الثلج، وأحلىٰ من العسل باللبن، ولآنيته أكثر من عدد النجوم، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه**».

قالوا: يا رسول الله! أتعرفنا يومئذ؟ قال: «**نعم لكم سيماء ليست لأحد من الأمم، تردون عليَّ غرًّا محجلين من أثر الوضوء**». رواه مسلم.

٣- وفي رواية له عن أنس. قال: «**ترىٰ فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء**».

٤- وفي أخرىٰ له عن ثوبان، قال: سئل عن شرابه. فقال: «**أشد بياضًا من اللبن، وأحلىٰ من العسل يغت فيه ميزابان يُمدَّانه من الجنة، أحدهما من ذهب والآخر من وَرِق**».

۞ الذين يردون الحوض والذين يذادون عنه:

وردت أحاديث كثيرة بيَّن فيها الرسول ﷺ الذين يردون علىٰ حوضه، والذين يمنعون من الشرب منه، ونحن نذكر لك بعض ما أورده ابن الأثير منها في «جامع الأصول»:

١- روىٰ البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا فرطكم علىٰ الحوض، وليرفعن إليَّ رجال منكم، حتىٰ إذا أهويت إليهم لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول: أي رب، أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك؟**».

٢- ورويا أيضًا عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ليردن علىٰ الحوض رجال ممن صاحبني، حتىٰ إذا رأيتهم، ورفعوا إليّ، اختلجوا دوني، فلأقولن: أي رب، أصيحابي، أصيحابي، فليقالن لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**».

* وفي رواية «**ليردن عليَّ ناس من أمتي**.. الحديث، وفي آخره: **فأقول: سحقًا لمن بدل بعدي**» أخرجه البخاري ومسلم.

٣- ورويا عن أبي حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**أنا فرطكم علىٰ الحوض، من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا، وليردن عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم**»، قال أبو حازم: فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث، فقال: هكذا سمعت سهلًا يقول؟ فقلت: نعم، قال: وأنا أشهد علىٰ أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد، فيقول: «**فإنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا لمن بدل بعدي**». أخرجه البخاري ومسلم.

٤- ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يرد عليَّ يوم القيامة رهط من أصحابي - أو قال: من أمتي - فيحلَّؤُون عن الحوض، فأقول: يا رب، أصحابي، فيقول: إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا علىٰ أدبارهم القهقرىٰ**»، وفي رواية «**فيجلون**» أخرجه البخاري ومسلم.

* وللبخاري: أن رسول الله ﷺ قال: «بينما أنا قائم علىٰ الحوض، إذا زمرة، حتىٰ إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلم، فقلت: إلىٰ أين؟ فقال: إلىٰ النار والله، فقلت: ما شأنهم؟ فقال: إنهم قد ارتدوا علىٰ أدبارهم القهقرىٰ، ثم إذا زمرة أخرىٰ، حتىٰ عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال لهم: هلم، قلت: إلىٰ أين؟ قال: إلىٰ النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم قد ارتدوا علىٰ أدبارهم، فلا أراه يخلص منهم إلَّا مثل همل النعم».

* ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «ترد عليَّ أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه، كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله، قالوا: يا نبي الله تعرفنا؟ قال: نعم، لكم سيما ليست لأحد غيركم، تردون غرًّا محجلين من آثار الوضوء، وليصدن عني طائفة منكم، فلا يصلون، فأقول: يا رب، هؤلاء من أصحابي، فيجيء ملك، وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟».

* وفي أخرىٰ: «إن حوضي أبعد من أيلة من عدن، لهو أشد بياضًا من الثلج، وأحلىٰ من العسل باللبن، ولآنيته أكثر من عدد النجوم، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه»، قالوا: يا رسول الله، أتعرفنا يومئذ؟ قال: «نعم، لكما سيما ليست لأحد من الأمم، تردون علي غرًّا محجلين».

✍ وقد أورد القرطبي في «التذكرة» بعض الأحاديث التي سقناها ثم قال: «قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين: فكل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض، المبعدين عنه، وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج علىٰ اختلاف فرقها، والروافض علىٰ تباين ضلالها، والمعتزلة علىٰ أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدلون. وكذلك الظلمة المسرفون في الجور وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع.

ثم البعد قد يكون في حال، ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال، ولم يكن في العقائد، وعلىٰ هذا يكون نور الوضوء يعرفون به، ثم يقال لهم: سحقًا، وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا علىٰ عهد رسول الله ﷺ يُظهرون الإيمان ويسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر، ثم يكشف لهم الغطاء فيقال لهم: سحقًا سحقًا، ولا يخلد في النار إلَّا كل جاحد مبطل، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان».

المشهد الأخير من مشاهد يوم القيامة:

ويصوره لنا هذا الحديث الجامع لهذا المشهد بكل تفاصيله والذي يرويه الإمام مسلم في «صحيحه»:

* عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَىٰ الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَىٰ النَّصَارَىٰ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ، كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَىٰ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي أَدْنَىٰ صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا، فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّىٰ إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَىٰ قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَىٰ جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ».

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ،

وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّىٰ إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَىٰ النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدِ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَىٰ نِصْفِ سَاقَيْهِ، وَإِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا».

وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠].

فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، إِلَّا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَىٰ الْحَجَرِ، أَوْ إِلَىٰ الشَّجَرِ، مَا يَكُونُ إِلَىٰ الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَىٰ الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ؟»

فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَىٰ بِالْبَادِيَةِ، قَالَ: «فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا، أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

أما حال المنافقين - أعاذنا الله وإياكم - فيبينه بوضوح تام لا لبس فيه كتاب ربنا عَزَّوَجَلَّ وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ

وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)﴾ [الحديد:١٢-١٥].

وأيضًا يصور لنا القرآن العظيم مشهد العبور علىٰ الصراط أعظم تصوير وذلك في قوله جل ثناؤه:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾ [مريم:٦٨-٧٢].

مشهد حشر الكفار والمنافقين إلى جهنم أعاذنا الله وإياكم:

وهذا أيضًا يصوره لنا الكتاب العزيز تصويرًا في غاية الدقة تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم بالغيب وذلك في أكثر من موضع بأكثر من صورة

فمن ذلك أنهم يحشرون كقطعان الماشية جماعات جماعات:

ينهرون نهرًا غليظًا، ويصاح بهم من هنا وهناك، كما يفعل الراعي ببقره أو غنمه، قال تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣)﴾ [الطور:١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩)﴾ [فصلت:١٩]. ومعنىٰ يوزعون أي يجمعون، تجمعهم الزبانية علىٰ آخرهم، كما يفعل البشر بالبهائم.

ومن ذلك أنهم يحشرون إلى النار على وجوههم:

لا كما كانوا يمشون في الدنيا علىٰ أرجلهم، قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤)﴾ [الفرقان:٣٤].

* روىٰ البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن رجلًا قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر علىٰ وجهه يوم القيامة؟ قال: «**أليس الذي أمشاه علىٰ رجليه في الدنيا قادر أن يمشيه علىٰ وجهه يوم القيامة**» قال قتادة: بلىٰ وعزة ربنا.

ومع حشرهم علىٰ هذه الصورة المنكرة علىٰ وجوههم:

۞ **فإنهم يحشرون عميًا لا يرون، وبكمًا لا يتكلمون، وصمًا لا يسمعون:**

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء:٩٧].

ويزيد بلاءهم:

۞ **أنهم يحشرون مع آلهتهم الباطلة وأعوانهم وأتباعهم:**

- ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

۞ **وهم في هذا مغلوبون مقهورون أذلاء صاغرون:**

- ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران:١٢].

۞ **وقبل أن يصلوا إلى النار تصك مسامعهم أصواتها التي تملأ قلوبهم رعبًا وهلعًا:**

- ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان:١٢].

وعندما يبلغون النار ويعاينون أهوالها:

۞ **يندمون ويتمنون العودة إلى الدنيا كي يؤمنوا:**

- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]، ولكنهم لا يجدون من النار مفرًّا: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:٥٣].

۞ **وعند ذلك يؤمرون بالدخول في النار وغضب الجبار أذلاء خاسرين:**

- ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل:٢٩]، ولا ينجو من النار من الجن والإنس إلَّا الأتقياء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم:٦٨-٧٢]، ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل:٢٩].

وهنا يرسم صورة حسية وهم جاثون حول جهنم جثو الخزي والمهانة:

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [مريم:٦٨]، وهي صورة رهيبة، وهذه الجموع التي لا يحصيها العد محشورة محضرة إلىٰ جهنم جاثية حولها، تشهد هولها، ويلفحها حرها، وتنتظر في كل لحظة أن تؤخذ فتلقىٰ فيها، وهم جاثون علىٰ ركبهم في ذلة وفزع..، وهو مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين، يليه مشهد النزع والجذب لمن كانوا أشد عتوًا وتجبرًا: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم:٦٩]، وفي اللفظ تشديد، ليرسم بظله وجرسه صورة لهذا الانتزاع، تتبعها صورة القذف في النار، وهي الحركة التي يكملها الخيال.

وإن الله ليعلم من هم أولىٰ بأن يصلوها، فلا يؤخذ أحد جزافًا من هذه الجموع التي لا تحصىٰ، والتي أحصاها الله فردًا فردًا: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ [مريم:٧٠]، فهم المختارون ليكونوا طليعة المقذوفين.

وقد غيرت هذه الآية: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] أحوال الصالحين، فأسهرت ليلهم، وعكرت عليهم صفو العيش، وحرمتهم الضحك، والتمتع بالشهوات، فقد ذكر ابن كثير أن أبا ميسرة كان إذا أوىٰ إلىٰ فراشه قال: يا ليت أمي لم تلدني، ثم يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا ميسرة؟ فقال: أخبرنا الله أنا واردوها، ولم نخبر أنا صادرون عنها.

وقال عبد الله بن المبارك عن الحسن البصري، قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ قال: فما رئي ضاحكًا حتىٰ لحق بالله، وقال ابن عباس لرجل يحاوره: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها، فانظر هل نصدر عنها أم لا؟

مرور المؤمنين على الصراط وخلاص المؤمنين من المنافقين:

عندما يذهب بالكفرة الملحدين، والمشركين الضالين إلىٰ دار البوار، جهنم يصلونها، وبئس القرار، يبقىٰ في عرصات القيامة أتباع الرسل الموحدون، وفيهم أهل الذنوب والمعاصي، وفيهم أهل النفاق، وتلقىٰ عليهم الظلمة قبل الجسر كما في الحديث الذي يرويه مسلم في «صحيحه» عن عائشة قالت: سئل الرسول ﷺ: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال: «**هم في الظلمة دون الجسر**».

يقول شارح «الطحاوية»: «وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين، ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم».

* روىٰ البيهقي بسنده عن مسروق، عن عبد الله، قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة» إلىٰ أن قال: «فمنهم من يعطىٰ نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطىٰ نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطىٰ نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطىٰ دون ذلك بيمينه، حتىٰ يكون آخر من يعطىٰ نوره في إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ أخرىٰ، إذا أضاء قدَّم قدمه، وإذا أطفأ قام، قال: فيمر ويمرون علىٰ الصراط، والصراط كحد السيف دحض مزلة، ويقال لهم: امضوا علىٰ قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرجل، يرمل رملًا علىٰ قدر أعمالهم، حتىٰ يمر الذي نوره علىٰ إبهام قدمه، تخرّ يد، وتعلق يد، وتخرّ رجل وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون فإذا خلصوا، قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك، بعد أن أراناك، لقد أعطانا ما لم يعط أحد».

وقد حدثنا تبارك وتعالىٰ عن مشهد مرور المؤمنين علىٰ الصراط، فقال: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)﴾ [الحديد: ١٢-١٥].

فالحق يخبر أن المؤمنين والمؤمنات الذين استناروا بهذا الدين العظيم في الدنيا، وعاشوا في ضوئه، يعطون في يوم القيامة نورًا يكشف لهم الطريق الموصلة إلىٰ جنات النعيم، ويجنبهم العثرات والمزالق في طريق دحض مزلة، وهناك يبشرون بجنات النعيم، ويحرم المنافقون الذين كانوا يزعمون في الدنيا أنهم مع المؤمنين، وأنهم منهم، لكنهم في الحقيقة مفارقون لهم لا يهتدون بهداهم، ولا يسلكون سبيلهم من النور، كما حرموا أنفسهم في الدنيا من نور القرآن العظيم، فيطلب المنافقون من أهل الإيمان أن ينتظروهم ليستضيئوا بنورهم، وهناك يخدعون، كما كانوا يخدعون المؤمنين في الدنيا، ويقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا، وبذلك يعود المنافقون إلىٰ الوراء، ويتقدم المؤمنون إلىٰ الأمام، فإذا تمايز الفريقان، ضرب الله بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ويكون مصير المؤمنين والمؤمنات الجنة، ومصير المنافقين والمنافقات النار.

وقد أخبر الحق أن دعاء المؤمنين عندما يسعىٰ نورهم بين أيديهم وبأيمانهم هو ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم:٨]، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم:٨].

✍ **قال مجاهد والضحاك والحسن البصري وغيرهم**: هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طُفِئ».

وقد دلت الأحاديث التي سقناها علىٰ أن الأمم الكافرة تتبع ما كانت تعبد من آلهة باطلة، فتسير تلك الآلهة بالعابدين، حتىٰ تهوي بهم في النار، ثم يبقىٰ بعد ذلك المؤمنون وفيهم المنافقون، وعصاة المؤمنين، وهؤلاء هم الذين ينصب لهم الصراط.

مسألة في الورود على النار:

والورود على النار وردان: ورود الكفار أهل النار، فهذا ورود دخول لا شك في ذلك كما قال تعالىٰ في شأن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود:٩٨]، أي بئس المدخل المدخول.

والورود الثاني: ورود الموحدين، أي مرورهم علىٰ الصراط علىٰ النحو المذكور في حديث الرسول ففي «الصحيح» أنه ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة**»، قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]. فقال: «**ألم تسمعيه قال:** ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧٢].

وأشار ﷺ إلىٰ أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه، ولم يتمكنوا منه يقال: نجاه الله منهم.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود:٥٨].

مسألة في حقيقة الصراط ومعتقد أهل السنة فيه:

✍ **قال السفاريني**: «الصراط في اللغة: الطريق الواضح. ومنه قول جرير:

أمير المؤمنين علىٰ صراط ... إذا اعوج الموارد مستقيم

وفي الشرع: جسر ممدود علىٰ متن جهنم، يرده الأولون والآخرون، فهو قنطرة بين الجنة والنار»

✍ **وقد بين شارح «الطحاوية» معتقده في الصراط المذكور في الأحاديث فقال:**

«ونؤمن بالصراط، وهو جسر علىٰ جهنم، إذا انتهىٰ الناس بعد مفارقتهم الموقف إلىٰ الظلمة التي دون الصراط، كما قالت عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ سئل: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال: «**هم في الظلمة دون الجسر**».

✍ **وقد بيّن السفاريني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ - موقف الفرق من الصراط، وهل هو صراط مجازي أم حقيقي؟ ثم قرر مذهب أهل الحق الذي دلت عليه النصوص فيه، فقال: «اتفقت الكلمة علىٰ إثبات الصراط في الجملة، لكن أهل الحق يثبتونه علىٰ ظاهره من كونه جسرًا ممدودًا علىٰ متن جهنم، أحدّ من السيف وأدق من الشعر، وأنكر هذا الظاهر القاضي عبد الجبار المعتزلي، وكثير من أتباعه زعمًا منهم أنه لا يمكن عبوره، وإن أمكن ففيه تعذيب، ولا عذاب علىٰ المؤمنين والصلحاء يوم القيامة، وإنما المراد طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥﴾ [محمد:٥]، وطريق النار المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات:٢٣]، ومنهم من حمله علىٰ الأدلة الواضحة والمباحات والأعمال الرديئة التي يسأل عنها ويؤاخذ بها، وكل هذا باطل وخرافات لوجوب حمل النصوص علىٰ حقائقها، وليس العبور علىٰ الصراط بأعجب من المشي علىٰ الماء أو الطيران في الهواء، أو الوقوف فيه، وقد أجاب ﷺ عن سؤال حشر الكافر علىٰ وجهه بأن القدرة صالحة لذلك.

وخلاصة المسألة في موضوع حشر الخلائق:

أن البهائم والمخلوقات غير المكلفة تتحول إلىٰ تراب بعد الحساب وأن أهل الكفر من الملاحدة وعباد الأوثان وغير ذلك من كفرة أهل الكتاب الذين بدّلوا وحرّفوا وعبدوا عزيرًا أو عبدوا المسيح وممن لم يؤمنوا بنبينا محمد ﷺ يساقون إلىٰ جهنم قبل الصراط وبعد الحساب ويبقىٰ من الخلق أهل الإيمان وأهل النفاق الذين يفرق بينهم علىٰ الصراط علىٰ النحو الذي ذكرنا وهنا تبدأ نهاية النهاية وذلك في قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا

يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ
لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ
﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ
فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الزمر:٦٨-٧٤].

ومن هنا نجول بك أخي الكريم في مستقر الفريقين ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى:٧].

القاعدة التاسعة والعشرون في وجوب الإيمان بالجنة والنار وبكل ما جاء في حقهما في الكتاب والسنة

أولاً: النار (نسأل الله العافية)

و(النار) اصطلاحًا: هي تلك الدار التي أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عنها في كتبه وعلىٰ ألسنة رسله من أنه أعدها لمن خالف أمره وكفر به وأشرك معه غيره واتخذ إلهه هواه، وسميت كذلك لأن كل ما فيها مخلوق من النار الطعام والشراب والمسكن والمهاد والظلال والهواء والماء والملبس إلىٰ غير ذلك حتىٰ أن من دخلها صار جزء منها فصار وقودًا لها، وإذا عظم الشيء كثرت أسماؤه وأوصافه لذلك ولعظم خطرها وشدة بأسها عدد لنا الله جل ثناؤه أسماءها وأوصافها، ومن ذلك ما ذكره في كتابه العزيز والذي سنورد منه طرفًا لعل القلوب تخشع بذكره وتخضع لبارئها عسىٰ أن يعصمها من ذلك العذاب العظيم.

أسماء النار وأوصافها

١ – **النار:** ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

٢ □ **جهنم:** ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان:٦٥].

٣ □ **سقر:** ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [المدثر:٢٦-٣١].

٤ □ **عذاب الحريق:** ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران:١٨١].

٥ – **عذاب السعير:** ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج:٤].

٦ – **عذاب عظيم:** ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة:٧].

٧ – **عذاب أليم:** ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة:١٠].

٨ – **عذاب مهين:** ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [البقرة:٩٠].

٩ – **عذاب شديد:** ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [آل عمران:٤].

١٠ – **عذاب مقيم:** ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المائدة:٣٧].

١١ – **عذاب الهون:** ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ [الأنعام:٩٣].

١٢ – **عذاب الخلد:** ﴿ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ ﴾ [يونس:٥٢].

١٣ – **عذاب كبير:** ﴿ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾ [هود:٣].

١٤ – **عذاب غليظ:** ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [هود:٥٨].

١٥ – **عذاب غير مردود:** ﴿ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود:٧٦].

١٦ – **عذاب محيط:** ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [هود:٨٤].

١٧ – **عذاب الآخرة:** ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِۚ ﴾ [هود:١٠٣].

١٨ – **عذاب الله:** ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ﴾ [إبراهيم:٢١].

١٩ – **عذابها غراماً:** ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الفرقان:٦٥].

٢٠ – **عذاب الرجز:** ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [سبأ:٥].

٢١ – **عذاب واصب:** ﴿ دُحُورًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الصافات:٩].

٢٢ – **عذاب السموم:** ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الطور:٢٧].

٢٣ – **عذاب مستقر:** ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر:٣٨].

في ذكر الإنذار بالنار والتحذير منها

- قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم:٦].

- وقال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران:١٣١].

- وقال تعالىٰ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الليل:١٤].

- وقال تعالىٰ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر:١٦].

الاستعاذة من النار

- قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩٢].

- قال تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران:١٥-١٦].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣].

- وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان:٦٦].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ﴾ [الإسراء:٥٧].

في القدر الواجب من الخوف

والقدر الواجب من الخوف، ما حمل علىٰ أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد علىٰ ذلك بحيث صار باعثًا للنفوس علىٰ التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات، كان ذلك فضلًا محمودًا، فإن تزايد علىٰ ذلك بأن أورث مرضًا أو موتًا أو همًّا لازمًا بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عَزَّوَجَلَّ، لم يكن محمودًا.

✍ **كان الحسن يقول في وصف الخائفين:** قد براهم الخوف، فهم أمثال القداح ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضىٰ وما بهم مرض، ويقول: قد خولطوا، وقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمر عظيم!!

✍ وسمع عمر بن الخطاب ﷺ رجلًا يتهجد في الليل ويقرأ سورة الطور، فلما بلغ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الطور:٧-٨]. قال عمر: قسم ورب الكعبة حق، ثم رجع إلىٰ منزله، فمرض شهرًا يعوده الناس، لا يدرون ما مرضه.

* وكان جماعة من عباد البصرة مرضوا من الخوف، ولزموا منازلهم، كالعلاء بن زياد، وعطاء السلمي، وكان عطاء قد صار صاحب فراش عدة سنين.

* وكانوا يرون أن بدأ مرض عمر بن عبد العزيز الذي مات فيه كان من الخوف.

* وروىٰ الإمام أحمد عن حسين بن محمد عن فضيل عن محمد بن مطرف، قال: حدثني الثقة، أن شابًّا من الأنصار، دخل خوف النار قلبه، فجلس في البيت، فأتاه النبي ﷺ، فقام إليه فاعتنقه، فشهق شهقة خرجت نفسه، فقال النبي ﷺ: «**جَهِّزُوا صَاحِبَكُمْ فَإِنَّ الْفَرَقَ فَلَذَ كَبِدَهُ**».

* وقال حفص بن عمرو الجعفي: اشتكىٰ داود الطائي أيامًا، وكان سبب علته أنه مر بآية فيها ذكر النار، فكررها مرارًا في ليلته، فأصبح مريضًا، فوجدوه قد مات ورأسه علىٰ لبنة. خرجه أبو نعيم.

* وخرج أيضًا هو وابن أبي الدنيا، وغيرهما من غير وجه، قصة منصور ابن عمار مع الذي مر به بالكوفة ليلًا، وهو يناجي ربه، فتلا منصور هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

قال منصور: فسمعت دكدكة لم أسمع بعدها حسًّا ومضيت، فلما كان من الغد رجعت، فإذا جنازة قد أخرجت، وإذا عجوز، فسألتها عن أمر الميت، ولم تكن عرفتني، فقالت هذا رجل، لا جازاه الله خيرًا، مر بابني البارحة وهو قائم يصلي، فتلا آية من كتاب الله، فتفطرت مرارته، فوقع ميتًا.

* وروىٰ ابن أبي الدنيا عن محمد بن الحسين، حدثني بعض أصحابنا حدثني عبد الوهاب، قال: بينما أنا جالس في الحدادين ببلخ، إذ مر رجل، فنظر إلىٰ النار في الكور، فسقط، فقمنا ونظرنا، فإذا هو قد مات.

* وبإسناده عن البختري بن يزيد عن حارثة الأنصاري، أن رجلًا من العباد وقف علىٰ كور حداد، وقد كشف عنه، فجعل ينظر إليه ويبكي، قال: ثم شهق شهقة فمات.

* قال: وحدثت عن عبد الرحيم بن مطرف بن قدامة الرواس، أنبأنا أبي عن مولىٰ لنا، قال: لما مات المنصور بن المعتمر صاحت أمه: واقتيل جهنماه! ما قتل ابني إلَّا خوف جهنم.

* وروي من غير وجه، أن علي بن فضيل مات من سماع قراءة هذه الآية: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام:٢٧].

* وقال يونس بن عبد الأعلىٰ: قرأ عبد الله بن وهب كتاب «الأهوال» فمر في صفة النار فشهق فغشي عليه، فحُمل إلىٰ منزله، وعاش أيامًا، ثم مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

* وخرج مسلم في «صحيحه» من حديث أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده، لو رأيتم ما رأيت، لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا**» قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: «**رأيت الجنة والنار**».

* وفي «الصحيحين» عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال لما كسفت الشمس: «**أُرِيتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ**».

* وروىٰ الأعمش عن مجاهد، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «**لو أبرزت النار للناس ما رآها أحد إلَّا مات**».

* وروىٰ ابن أبي الدنيا بإسناده، عن معسر عن عبد الأعلىٰ: ما جلس قوم مجلسًا، فلم يذكروا الجنة والنار، إلَّا قالت الملائكة: أغفلوا العظيمتين؟!.

* وعن عامر بن يساف، عن يحيىٰ بن أبي كثير، قال: قطع قلوب الخائفين، طول الخلودين في الجنة أو النار.

* وقال أحمد بن أبي الحواري: حدثنا علي بن أبي الحر، قال: أوحىٰ الله إلىٰ يحيىٰ بن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا يحيىٰ، وعزتي، لو اطلعت إلىٰ الفردوس اطلاعة، لذاب جسمك، ولزهقت نفسك اشتياقًا، ولو اطلعت إلىٰ جهنم اطلاعة لبكيت بالصديد بعد الدموع، وللبست الحديد بعد المسوح.

* وذكر ابن أبي الدنيا بإسناده عن سفيان، قال: كان عمر بن عبد العزيز ساكتًا وأصحابه يتحدثون، فقالوا: ما لك لا تتكلم يا أمير المؤمنين، قال: كنت مفكرًا في أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها، ثم بكىٰ.

* وعن مغيث الأسود أنه كان يقول: زوروا القبور كل يوم بفكركم، وتوهموا جوامع الخير كل يوم بعقولكم، وشاهدوا الموقف كل يوم بقلوبكم، وانظروا إلىٰ المنصرف بالفريقين إلىٰ الجنة والنار بهممكم، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقمعها وأطباقها.

* وعن صالح المري أنه قال: للبكاء دواعي الفكرة في الذنوب، فإن أجابت علىٰ ذلك القلوب وإلا نقلتها إلىٰ الموقف وتلك الشدائد والأهوال، فإن أجابت إلىٰ ذلك وإلا فاعرض عليها التقلب بين أطباق النيران، قال: ثم صاح، فغشي عليه، وتصايح الناس من جوانب المسجد.

* وقال ابن عيينة قال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة، آكل من ثمارها، وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار، آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرد إلىٰ الدنيا، فأعمل صالحًا، قال: فأنت في الأمنية فاعملي.

وخلاصة المسألة أن علىٰ العبد أن يتقي عقوبات ربه عَزَّوَجَلَّ ويخشىٰ ربه بالغيب فيأتمر بأمره وينتهي بنهيه ويعمل بطاعته خشية عقوبته وطمعًا في جنته وذكر النار من أعظم أسباب الكف عن الذنوب والتوبة لعلام الغيوب.

في ذكر مكان جهنم

اختلف العلماء في موقع النار الآن فقال بعضهم: هي في الأرض السفلىٰ، وقال آخرون: هي في السماء، وقال آخرون بالتوقف في ذلك، وهو الصواب، لعدم ورود نص صريح صحيح يحدد موقعها، ومن الذين توقفوا في هذا، الحافظ السيوطي قال: «وتَقِفُ عن النار، أي: تَقُولُ فيها بالوقف، أي محلها، حيث لا يعلمه إلَّا الله، فلم يثبت عندي حديث أعتمده في ذلك».

في ذكر طبقاتها ودركاتها وصفتها

- قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء:١٤٥].

- وقال: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٦٢-١٦٣].

* قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات الجنة تذهب علوًّا ودرجات النار تذهب سفولًا.

* وروىٰ ابن أبي الدنيا، بإسناده عن عكرمة، في قوله تعالىٰ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ﴾ [الحجر:٤٤]. قال: لها سبعة أطباق.

* وعن قتادة: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحجر:٤٤]. قال: هي والله منازل بأعمالهم.

* وعن يزيد بن أبي مالك الهمذاني قال: لجهنم سبعة نيران: تأتلق: ليس منها نار إلَّا وهي تنتظر إلىٰ التي تحتها، مخافة أن تأكلها.

* وعن ابن جريج في قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحجر:٤٤] قال: أولها جهنم، ثم لظىٰ، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية وفيها أبو جهل.

في ذكر قعر جهنم وعمقها

* عن بن عمير قال: خطبنا عتبة بن غزوان فقال: إنه ذكر لنا أن الحجر يلقىٰ من شفة، فيهوي فيها سبعين عامًا، ما يدرك لها قعرًا، والله لنملأنه، أفعجبتم؟ خرجه هكذا مسلم موقوفًا.

سعة جهنم طولاً وعرضًا

* وأما سعة جهنم طولًا وعرضًا، فروىٰ مجاهد، «عن ابن عباس، قال: أتدرون ما سعة جهنم؟ قلنا: لا، قال: أجل، والله ما تدرون، أن ما بين شحمة أذن أحدهم وأنفه مسيرة سبعين خريفًا، تجري فيه أودية القيح والدم، قلنا: أنهار؟ قال: لا، بل أودية، ثم قال: أتدرون ما سعة جهنم؟ قلنا: لا، قال: حدثتني عائشة، أنها سألت رسول الله ﷺ، عن قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧] فأين الناس يومئذ؟ قال: «علىٰ جسر جهنم» خرجه الإمام أحمد.

أبواب جهنم تغلق على أهلها يوم القيامة

وقد وصف الله أبوابها بأنها مغلقة علىٰ أهلها، فقال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾ [الهمزة:٨].

* وقال ابن زيد في قوله: ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾ [الهمزة:٩] قال: في عمد من حديد مغلولين فيه، وتلك العمد من نار قد احترقت من النار، فهي ممددة لهم.

وقيل إن المراد بالعمد الممددة: الزمان الذي لا انقطاع له. قاله أبو فاطمة.

إحاطة سرادق جهنم بالكافرين

- قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩].

* وروىٰ ابن لهيعة، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «سرادق النار أربعة جدر، كثف كل جدار مسيرة أربعين سنة» خرجه الترمذي.

وإحاطة السرادق بهم قريب من المعنىٰ المذكور في غلق الأبواب، وهو شبه قول من قال: إنه حائط لا باب له.

ولما كان إحاطة السرادق بهم موجبًا لهمِّهم وغمِّهم، وكربهم وعطشهم، لشدة وهج النار عليهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج:٢١- ٢٢].

✍ قال أبو معشر: كنا في جنازة مع أبي جعفر القاري، فبكىٰ أبو جعفر، ثم قال: حدثني زيد بن أسلم، أن أهل النار لا يتنفسون، فذلك الذي أبكاني.

أبواب جهنم مغلقة قبل دخول أهلها

وأبواب جهنم قبل دخول أهلها إليها يوم القيامة مغلقة، كما دل عليه ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧١].

* وفي حديث أبي هارون العبدي، وهو ضعيف جدًّا، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ، في قصة الإسراء، قال: «**ثم عُرضت عليَّ النار، فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته، لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها، ثم أغلقت دوني**».

في ذكر ظُلمة النار وشدة سوادها

* روىٰ شريك، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «**أوقد علىٰ النار ألف سنة حتىٰ ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتىٰ احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتىٰ اسودت، فهي سوداء كالليل المظلم**». خرجه ابن ماجه والترمذي وقال: حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح.

في شدة حرها وزمهريرها

- قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة:٨١].

* وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «اشتكت النار إلىٰ ربها فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضًا، فأذن لها في نفسين، نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر من سمومها وأشد ما تجدون البرد من زمهريرها».

* وفي «الصحيحين» أيضًا عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «ناركم هذه، التي يوقد بنو آدم، جزء واحد من سبعين جزءًا من نار جهنم». قالوا: والله، إن كانت لكافية، قال: «إنها فضلت بتسعة وستين جزءًا. كلهن مثل حرها».

وخرجه الإمام أحمد، وزاد فيه: «ضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد».

وجهنم تسجر كل يوم نصف النهار

* وفي «صحيح مسلم» عن عمرو بن عبسة، عن النبي ﷺ، قال: «صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّىٰ تَرْتَفِعَ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّىٰ يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ، فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّىٰ تُصَلِّيَ الْعَصْرَ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّىٰ تَغْرُبَ الشَّمْسُ، فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ».

في ذكر تغيظها وزفيرها وحسيسها

- قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٢].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان:١١- ١٢].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [الملك:٦-٨].

والشهيق: الصوت الذي يخرج من الجوف بشدة كصوت الحمار.

قال الربيع بن أنس: الشهيق في الصدر، وقال مجاهد في قوله: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ [الملك:٧] قال: تغلي بهم كما يغلي القدر، وقال ابن عباس: تميز: تفرق، وعنه قال: يكاد يفارق بعضها بعضًا وتتفطر.

احذروا عيون جهنم

* وخرج ابن أبي حاتم، من حديث خالد بن دريك، عن رجل من الصحابة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تقوَّل عليَّ ما لم أقل، فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدًا**» قيل: يا رسول الله وهل لها عينان، قال: «**نعم، أولم تسمع قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾** [الفرقان:١٢]».

* وفي رواية مطرف بن الشخير، عن كعب، قال: كنت عند عمر، فقال: يا كعب، خوفنا، فقلت يا أمير المؤمنين، إن جهنم لتزفر يوم القيامة زفرة، لا يبقىٰ ملك مقرب، ولا نبي مرسل، إلَّا ساجدًا علىٰ ركبتيه، حتىٰ إن إبراهيم خليله عَلَيْهِ السَّلَامُ ليخر جاثيًا، ويقول: نفسي نفسي، لا أسألك اليوم إلَّا نفسي، قال: فأطرق عمر مليًّا، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، أولستم تجدون هذا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ؟ قال عمر: كيف؟ يقول الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [النحل:١١١].

بعض أسماء أهل النار

١ - **فرعون:** ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود:٩٧-٩٨].

٢، ٣ - **هامان، قارون:** ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر:٢٣-٢٥].

٤ - **كل كفار:** ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ [ق:٢٤].

٥ - **كل جبار:** ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) ﴾ [إبراهيم:١٥-١٦].

٦ - **كل متكبر:** ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) ﴾ [غافر:٣٥].

٧ - **كل منافق:** ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾ [النساء:١٤٠].

باب في أصحاب النار

١ - **أهل الكفر الأكبر:** ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) ﴾ [البقرة:٣٩].

٢ - **أهل الشرك الأكبر:** ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة:٨١].

٣ - **المرتد عن الإسلام:** ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) ﴾ [البقرة:٢١٧].

٤ - **أولياء الشيطان:** ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) ﴾ [البقرة:٢٥٧].

٥ - **آكل الربا:** ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا ﴾ [البقرة:٢٧٥].

٦ - **أهل الظلم الأكبر:** ﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)

إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المائدة:٢٧-٢٩].

٧- **أهل التكذيب بالقرآن كله أو بعضه:** ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف:٣٦].

٨- **الإسراف الأكبر:** ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [غافر:٤٣].

٩- **الطغيان:** ﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [ص:٥٥-٥٦].

باب في هيئة أهل النار

١- **وجوههم مسودة مظلمة كما كانت قلوبهم في الدنيا:** ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس:٢٧].

٢- **يساقون بسلاسل وأغلال في أعناقهم كما كانوا ينقادون لشهواتهم وشياطينهم في الدنيا:** ﴿ ۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد:٥].

٣- **يعلوهم الذل والخزي كما كان يعلوهم الكبر والفرح الباطل في الدنيا:** ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾ [التوبة:٦٣].

٤- **يكسون ملابس داخلية من نحاس مذاب لما كانوا يلبسون ما حرم الله في الدنيا:** ﴿ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٩-٥٢].

باب في استقبال أهل النار

١- **الاستقبال الأول عند الموت بغاية الإهانة بضرب الوجوه والأدبار:** ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١)﴾ [الأنفال:٥٠-٥١].

٢- **تتلقاهم ملائكة العذاب فتزج بهم إلى جهنم دون هوادة كما كانت تدعوهم شياطينهم إلى ما حرم الله:** ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)﴾ [الطور:١١-١٤].

٣- **تسحبهم ملائكة العذاب في سلاسل وأغلال ليسجروا في جهنم عياذاً بالله:** ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٧٤)﴾ [غافر:٧٠-٧٤].

٤- **يسحب أهل النار على وجوههم إلى منازلهم في جهنم:** ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾ [القمر:٤٦-٤٩].

باب في شراب أهل النار

١- **سقياهم من صديد أهل النار من عصارته:** ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم:١٦-١٧].

٢- **وشرابهم الحميم المغلي:** ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٧٠].

باب في ثياب أهل النار

فأما الثياب الداخلية والخارجية فقماشتها ونسيجها صنع لهم خصيصا من خيوط النار ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١)

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج:١٩-٢٢].

۞

باب في طعام أهل النار

١- طعامهم الزقوم الذي يحشر في جوف آكله من شدة كراهته يغلي في بطونهم صديدًا مغليًا: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان:٤٣-٤٦].

٢- والغسلين: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة:٣٦-٣٧].

٣- ونوع آخر من الأطعمة النارية يسمى الضريع: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ﴿٣﴾ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ﴿٤﴾ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ﴿٥﴾ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ﴿٦﴾ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ﴿٧﴾﴾ [الغاشية:١-٧].

٤- طعام ذو غصة يعلق في حلوقهم فيمذقها: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾﴾ [المزمل:١٢-١٣].

والعجيب في طعام أهل النار أنه عذاب للطاعم في ذاته، باعث للعذاب في مساغه، مهلك للبدن مذيب له، لا فائدة منه في شبع ولا إرباء للجسد، عذاب فوق العذاب.

۞

باب في مساكن أهل النار

١- سقف مساكن أهل النار من سحب نارية وأساس البناء من ظلل نارية عياذًا بالله: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر:١٦].

٢- وفرش المساكن نسجت من جهنم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف:٤٠-٤١].

۞

باب في حوار أهل النار

١- نداء الحسرة: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف:٤٤].

٢- دعاء الحسرة: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف:٤٦-٤٧].

٣- العتاب القاتل: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف:٣٨-٣٩].

٤- الاعتراف المذل: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون:١٠٣-١٠٨].

٥- حقيقة أخلاق أهل النار حتى وهم في جهنم: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾ [ص: ٥٥-٦١].

٦- استغاثة الخروج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر:١٠-١٢].

٧- وقلب متعلق بغير الله وإن أحاط به العذاب: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم:٢١].

باب في دعاء أهل النار

١- مسألتهم لأهل الجنة ومذلتهم الكبرى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأعراف:٥٠].

٢- صراخ الندامة وأمنية لن تتحقق: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر:٣٦-٣٧].

٣- وندم على مخالفة الرسل واتباع سادات الكفر والنفاق: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٨].

٤- نداء الموت: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف:٧٤-٧٧].

باب في حسرات أهل النار

١- حسرة على ما جمعوا في الدنيا: ﴿ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [المجادلة:١٧].

٢- حسرة على ما فرطوا في جنب الله: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزمر:٥٦].

٣- **حسرة على التخلف عن ركب المهتدين:** وادعاء كاذب على جبر الله للعباد وأنهم كفروا لأن الله لم يهديهم إلى الحق ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧﴾ [الزمر:٥٧].

٤- **حسرة على فوات حظها من الإحسان لما رأت ثواب أهل الإحسان:** ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾ [الزمر:٥٨-٥٩]

٥- **حسرة على فوات الدنيا وما جمع فيها بغير فائدة وتمن الهلاك قبل الحساب:** ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥﴾ [الحاقة:٢٥-٣٥].

باب في عذاب أهل النار

١- ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر:٢٦-٣١].

٢- ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝٢٤﴾ [البقرة:٢٤].

٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم:٦].

٤- ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ۝٣٥﴾ [التوبة:٣٤-٣٥].

٥- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة:٦٨].

٦- ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨١].

٧- ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان:٤٧-٥٠].

٨- في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ [المدثر:١٧]:

روىٰ دراج، «عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، قال في قوله تعالىٰ: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ [المدثر:١٧] قال: **«جبل من نار، يكلف أن يصعده، فإذا وضع يده عليه ذابت، وإذا رفعها عادت، وإذا وضع رجله عليه ذابت، فإذا رفعها عادت، يصعد سبعين خريفًا، ثم يهوي مثلها كذلك»**.

۞

باب في الصحبة الجهنمية

ومن أعظم أنواع عذابات أهل النار صحبة الأشرار والفجار فبئس الصحبة وبئس الدار فتخيل أن يكون جار الأبعد إبليس وشياطين الجن والإنس مثل فرعون وهامان وقارون وعقبة بن أبي معيط وأبي جهل وغيرهم من أصحاب القلوب السوداء والعقول الضالة والأرواح المظلمة فينظر عن يمينه فيرىٰ شياطين وينظر عن شماله فيرىٰ ظالمين وينظر من تحته فيرىٰ متكبرين جبارين وينظر من فوقه فلا يرىٰ إلَّا الآثمين فبئس القرين وبئس دار القرار وبئس مستقر الفجار نعوذ بالله من مساكن أهل النار، فتأمل.

۞

باب في خطيب أهل النار والخطبة الأخيرة

وهذا الباب موعظة خاصة لهؤلاء الذين أصموا آذانهم عن موعظة الله لهم وعن مقالة الحق وعن صوت الصدق ممن يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا هؤلاء الذين أصغوا بآذان عقولهم وقلوبهم في الدنيا لشياطينهم فأطاعوهم في معصية الله ومخالفة أنبيائه ورسله فلكل هؤلاء نهدي إليهم خطبة شيطانهم في جهنم - أعاذنا الله وإياكم - لعلهم يرجعون إلىٰ نداء الحق ويتعظون بواعظ الله فينتهوا عن غيهم وينتبهوا لمآلهم إن لم يتبعوا الهدىٰ وينتهوا عن الضلال.

قال عالم الغيب والشهادة في محكم تنزيله:

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢١-٢٣].

فانظر إلىٰ هذا النقل المباشر الحق من قعر جهنم بعد أن قُضي الأمر ولا مرد لهم من الله ولا تنفع الندامة حينئذ، فياليتهم يسمعون وإذا سمعوا يتعظون وإذا اتعظوا يعملون، فلا مخلوق يستحق أن تبيع دينك من أجله ولا أحد سينفعك عند الله إلَّا بعملك وهؤلاء الشياطين الذين ضحيت من أجل اتباعهم بالغالي والنفيس وبعت الجنة لأجلهم وزهدت في صحبة الصالحين واتباع النبي الأمين انظر كيف ضحوا بك فتخلوا عنك أحوج ما تكون إليهم وتأمل تلك الحسرة بعد الحسرة والعسرة بعد العسرة فمن تأمل التزم دأب الصالحين وسلك درب المحبين وعلم أن ليس له إلَّا رب العالمين فحفد له بالطاعة وانصاع له بالانقياد وتبرأ من أعدائه من العباد، والله المستعان وعليه وحده التكلان.

باب الحجاب أعظم مراتب العذاب

إن من أعظم عقوبات الله عَزَّوَجَلَّ للكافرين والمشركين والمنافقين حجبهم عن رؤية ربهم.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [المطففين: ١٤-١٧].

فتأمل، لما أعراض هؤلاء عن ربهم وكذبوا بآياته في الدنيا عجل لهم جزاءهم في الدنيا بحجب قلوبهم عن نور وحيه وتوعدهم في الآخرة بحجب أرواحهم عن نور وجهه جزاءً وفاقًا نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

وانظر كيف قدَّم الحجاب عن العذاب وأردف العذاب بالعتاب ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين:١٥]، فهنا موضع الحجب عن رب العالمين ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦﴾ [المطففين:١٦] وهنا موضع عذاب جهنم عياذًا بالله ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾ [المطففين:١٧] وهنا موضع العتاب الأليم.

قاعدة في وجوب الإيمان بالجنة وبما جاء من وصفها

أولاً: وصف ذات الجنة:

باب: في عدد أبواب الجنة

* عن شرحبيل بن شفعة قال لقيني عتبة بن عبد السلمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يتوفىٰ له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلّا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل». رواه ابن ماجه في «سننه».

باب: بعض أسماء أبواب الجنة

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصوم دعي من باب الريان»، فقال أبو بكر: والله يا رسول الله ما علىٰ أحد من ضرورة دعي من أيها دُعي، فهل يدعىٰ منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم وأرجو أن تكونه منهم». رواه البخاري ومسلم.

باب: سعة أبواب الجنة

* عن أبي خيثمة زهير بن حرب عن خالد بن عمير العدوي قال: خطبنا عتبة بن غزوان فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصَرْمٍ وَوَلَّتْ حَذَّاءَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ، يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا، وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَىٰ دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا، فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَىٰ مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ، فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا، لَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا، وَوَاللهِ لَتُمْلَأَنَّ، أَفَعَجِبْتُمْ؟ وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ

مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ». رواه مسلم.

باب ذكر درجات الجنة

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مسيرة خمسمائة عام». رواه الترمذي.

باب كلام الجنة

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجت الجنة والنار فقالت الجنة: يدخلني الضعفاء والمساكين وقالت النار: يدخلني الجبارون والمتكبرون: فقال الله للنار: أنت عذابي أنتقم بك ممن شئت وقال للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من شئت ولكل واحدة منكما ملؤها». (صحيح)... رواه مسلم والترمذي.

* وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله جنة عدن خلق ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم قال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون».

باب ذكر بناء الجنة

* وعن أبي هريرة قال: قلنا يا رسول الله إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد قال: «لو تكونون - أو قال: لو أنكم تكونون - على كل حالٍ على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم في بيوتكم ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم» قال: قلنا: يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: «لبنة ذهب ولبنة فضة وملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران من يدخلها ينعم لا ييأس ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم

تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماوات ويقول الرب وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين». كذا أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» ورواه الترمذي.

باب ذكر قدر الجنة بالنسبة للدنيا

* عن سهل بن سعد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها». أخرجه البخاري.

باب في ذكر خيام الجنة

* قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾ [الرحمن: ٧٠-٧٥].

* وعن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**إن للمؤمن في الجنة خيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلًا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا**». رواه البخاري ومسلم.

باب في ذكر غرف الجنة

* قال جل ثناؤه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

* وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لغرفًا يُرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها**» فقام أعرابي فقال: يا رسول الله لمن هي؟ قال: «**لمن طيَّب الكلام، وأطعم الطعام، أدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام**». أخرجه الترمذي.

باب في ذكر شجر الجنة

* عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها**». أخرجه البخاري ومسلم.

* وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عامًا أو مائة سنة هي شجرة الخلد**». رواه الإمام أحمد في «مسنده».

* وعن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما في الجنة شجرة إلّا ساقها من ذهب**». أخرجه الترمذي.

* وعن عكرمة عن ابن عباس قال: الظل الممدود شجرة في الجنة علىٰ ساق قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام في كل نواحيها قال فيخرج إليها أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون في ظلها قال فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا فيرسل الله ريحًا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا».

باب في ذكر شجرة طوبى

* عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول الله طوبىٰ لمن رآك وآمن بك، قال: «**طوبىٰ لمن رآني وآمن بي، ثم طوبىٰ ثم طوبىٰ لمن آمن بي ولم يرني**» فقال رجل: يا رسول الله وما طوبىٰ؟ قال: «**شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**».

باب في ذكر ثمر الجنة نسأل الله من فضله

* عن عبد الله بن عباس قال: خسفت الشمس علىٰ عهد رسول الله ﷺ فصلىٰ رسول الله ﷺ والناس معه فذكر صلاة الكسوف وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت فقال: «**إني رأيت الجنة أو أُريت الجنة فتناولت منها عنقودًا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا**». رواه البخاري.

* وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**رُفعت لي سدرة المنتهىٰ في السماء السابعة نبقها مثل قلال هجر، وورقها مثل آذان الفيلة، يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: أما النهران الباطنان ففي الجنة، وأما النهران الظاهران فالنيل والفرات**». رواه البخاري.

باب في ذكر أنهار الجنة

* قال جل ثناؤه: ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥ ﴾ [محمد: ١٥].

* وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أنا بِنَهَرٍ حَافَّتَاهُ خِيَامُ اللُّؤْلُؤِ فَضَرَبْتُ بِيَدِي فِي مَجْرَى الْمَاءِ فَإِذَا هو مِسْكٌ أَذْفَرُ فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا قَالَ هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ». رواه أحمد بسند صحيح.

ثانيًا: ذكر أهل الجنة وأحوالهم

ذكر طعام أهل الجنة وذكر أكلهم وشرابهم نسأل الله من فضله

* عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يتمخطون، ولا يتغوطون، ولا يبولون، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك، ويلهمون التسبيح والتكبير كما يلهمون النفس». أخرجه مسلم

* وعن زيد بن أرقم جاء رجل من أهل الكتاب إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون قال: «نعم، والذي نفس محمد بيده إن أحدهم ليُعطىٰ قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة»، قال: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذىٰ! قال: «يكون حاجة أحدهم رشحًا يفيض من جلودهم، كرشح المسك، فيضمر بطنه». رواه الإمام أحمد.

* وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلىٰ الطير في الجنة فتشتهيه، فيخر بين يديك مشويًّا».

باب: ذكر أول طعام يأكله أهل الجنة

* عن ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ قال: كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ، فجاء حبر من أحبار اليهود فذكر حديثًا وفيه: فقال اليهودي: فما تحيتهم؟ كذا فيه، ولعله: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زائدة كبد الحوت» قال: فما غذاؤهم علىٰ إثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين تسمىٰ سلسبيلًا» قال: صدقت. رواه مسلم.

باب: ذكر سوق الجنة نسأل الله من فضله وكرمه

- عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لسوقًا يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال، فتحثو في وجوههم، وثيابهم، فيزدادون حسنًا وجمالًا، فيرجعون إلىٰ أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالًا، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا

وجمالًا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا». كذا أخرجه مسلم.

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة جُردًا مُردًا بيضًا جعادًا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين وهم على خلق آدم ستون ذراعًا في عرض سبعة أذرع». رواه الإمام أحمد في «مسنده».

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر كليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون فيها ولا يتغوطون فيها، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم من ألوة ورشحهم المسك لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية». رواه البخاري ومسلم.

- قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ [الواقعة:١٠-٣٨].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان:٩-٢٥].

باب: ذكر حور الجنة

* عَنِ الْكَلْبِيِّ قَالَ بَلَغَنِي أَنَّ الْمُؤْمِنَ يُزَوَّجُ فِي الْجَنَّةِ أَرْبَعَةَ آلَافِ بِكْرٍ وَثَمَانِيَةَ آلَافِ ثَيِّبٍ وخمسمائة حوراء.

* عَنْ يَزِيدَ الرَّقَاشِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ كَعْبًا قَالَ: لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْحُورِ بَدَا مِعْصَمُهَا لَذَهَبَ ضَوْءُ الشَّمْسِ.

* عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيَتَّكِئُ اتِّكَاءَةً وَاحِدَةً قَدْرَ سَبْعِينَ سَنَةً يُحَدِّثُ بَعْضَ نِسَائِهِ ثُمَّ يَلْتَفِتُ الِالْتِفَاتَةَ فَتُنَادِيهِ الْأُخْرَىٰ فِدَانَا لَكَ أَمَا لَنَا فِيكَ نَصِيبٌ فَيَقُولُ: مَنْ أَنت فتقول: أنا الَّذِينَ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق:٣٥] قال: فيتحدث معها ثُمَّ يَلْتَفِتُ الِالْتِفَاتَةَ فَتُنَادِيهِ الْأُخْرَىٰ أَمَا إِنَّا لَكَ أَمَا لَنَا فِيكَ نَصِيبٌ فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتِ فَتَقُولُ: أَنَا مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

* عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ بَصَقَتْ فِي سَبْعَةِ أَبْحُرٍ لَكَانَتْ تِلْكَ الْأَبْحُرُ أَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ.

باب: الرؤية العظمى

اعلم - علَّمنا الله وإياك - أن أعظم نعيم أهل الجنة علىٰ الإطلاق رؤية ربهم ليس بينهم وبينه حجاب وهذا ما دلت عليه الأدلة التي لا مجال للجدال فيها وهو ما أجمعت عليه أمة محمد ﷺ من أهل السنة والجماعة ولا خلاف بينهم في ذلك إلَّا من خالفهم من أهل البدع والضلال.

وأدلة ذلك من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ومن صحيح سنة النبي ﷺ:

- **فمن الكتاب:** قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

- **ومن السنة:** ما جاء عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ «**يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: أَلَا يَتْبَعُ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فَيُمَثَّلُ لِصَاحِبِ الصَّلِيبِ صَلِيبُهُ، وَلِصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ، وَلِصَاحِبِ النَّارِ نَارُهُ، فَيَتْبَعُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَيَبْقَى الْمُسْلِمُونَ فَيَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: أَلَا تَتَّبِعُونَ**

النَّاسَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، اللهُ رَبُّنَا، وَهَذَا مَكَانُنَا حَتَّىٰ نَرَىٰ رَبَّنَا وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُثَبِّتُهُمْ، ثُمَّ يَتَوَارَىٰ ثُمَّ يَطَّلِعُ فَيَقُولُ: أَلَا تَتَّبِعُونَ النَّاسَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ اللهُ رَبُّنَا، وَهَذَا مَكَانُنَا حَتَّىٰ نَرَىٰ رَبَّنَا وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُثَبِّتُهُمْ » قَالُوا: وَهَلْ نَرَاهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ»؟

قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ لا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ تِلْكَ السَّاعَةَ، ثُمَّ يَتَوَارَىٰ ثُمَّ يَطَّلِعُ فَيُعَرِّفُهُمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِي، فَيَقُومُ المُسْلِمُونَ وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ، فَيَمُرُّونَ عَلَيْهِ مِثْلَ جِيَادِ الخَيْلِ وَالرِّكَابِ، وَقَوْلُهُمْ عَلَيْهِ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَيَبْقَىٰ أَهْلُ النَّارِ فَيُطْرَحُ مِنْهُمْ فِيهَا فَوْجٌ، ثُمَّ يُقَالُ: هَلْ امْتَلَأْتِ؟ فَتَقُولُ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق:٣٠] ثُمَّ يُطْرَحُ فِيهَا فَوْجٌ، فَيُقَالُ: هَلْ امْتَلَأْتِ؟ فَتَقُولُ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق:٣٠]، حَتَّىٰ إِذَا أُوعِبُوا فِيهَا وَضَعَ الرَّحْمَنُ قَدَمَهُ فِيهَا وَأَزْوَىٰ بَعْضَهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: قَطْ، قَالَتْ: قَطْ قَطْ، فَإِذَا أَدْخَلَ اللهُ أَهْلَ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، قَالَ: أُتِيَ بِالمَوْتِ مُلَبَّبًا، فَيُوقَفُ عَلَىٰ السُّورِ الَّذِي بَيْنَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَطَّلِعُونَ خَائِفِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَطَّلِعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ يَرْجُونَ الشَّفَاعَةَ، فَيُقَالُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ: قَدْ عَرَفْنَاهُ، هُوَ المَوْتُ الَّذِي وُكِّلَ بِنَا، فَيُضْجَعُ فَيُذْبَحُ ذَبْحًا عَلَىٰ السُّورِ الَّذِي بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ لا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ لا مَوْتَ ». صحيح رواه الترمذي.

باب: بعض أسباب دخول الجنة

من قال لا إله إلاَّ الله وجبت له الجنة:

* «بشر الناس أنه من قال: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له وجبت له الجنة». (صحيح)... [رواه النسائي]

حسن الظن بالله يوجب الجنة:

* «لا يموتن أحد منكم إلَّا وهو يحسن الظن بالله تعالىٰ». (صحيح) [رواه مسلم]

الموجبات الخمس:

* «من جاء يعبد الله لا يشرك به شيئًا ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم رمضان ويتقي الكبائر فإن له الجنة» قالوا: ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله، وقتل النفس المسلمة، وفرار يوم الزحف». (صحيح) [رواه أحمد] عن أبي أيوب.

۞ **من مات له ثلاثة من الولد واحتسب:**

* «ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلّا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل». (حسن) [رواه أحمد].

۞ **طهارة القلب والبدن توجب الجنة:**

* «ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول حين يفرغ من وضوئه: أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله إلّا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء». (صحيح) [رواه مسلم] عن عمر.

۞ **حُسْنُ التبعل يوجب الجنة:**

* «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحصنت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت». (صحيح)... [رواه ابن حبان] عن أبي هريرة.

۞ **من أحصى أسماء الله دخل الجنة:**

* «إن لله تعالىٰ تسعة وتسعين اسمًا مائة إلّا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة». صحيح رواه مسلم

۞ **الذكر خلف الصلوات يوجب الجنة:**

* «خصلتان لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلّا دخل الجنة، إلّا وهما يسير، ومن يعمل بهما قليل، يسبح الله في دبر كل صلاة عشرًا، ويحمده عشرًا، ويكبره عشرًا، فذلك خمسون ومائة باللسان، وألف وخمسمائة في الميزان، ويكبر أربعًا وثلاثين إذا أخذ مضجعه، ويحمده ثلاثًا وثلاثين، ويسبح ثلاثًا وثلاثين، فتلك مائة باللسان وألف في الميزان، فأيكم يعمل في اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيئة» (صحيح)... [رواه أحمد] عن ابن عمرو.

القاعدة الثلاثون في وجوب الإيمان بالقضاء والقدر

القضاء اصطلاحًا: قال صاحب «الكليات»: الْقَضَاء هُوَ الحكم الْكُلِّي الإجمالي علىٰ أعْيَان الموجودات بأحوالها من الْأَزَل إِلَىٰ الْأَبَد، مثل الحكم بِأَن كل نفس ذائقة الْمَوْت.

وَالْقدر اصطلاحًا: هُوَ تَفْصِيل هَذَا الحكم بِتَعْيِين الْأَسْبَاب وَتَخْصِيص إِيجَاد الْأَعْيَان بأوقات وأزمان بِحَسب قابلياتها واستعداداتها الْمُقْتَضِيَة للوقوع مِنْهَا وَتَعْلِيق كل حَال من أحوالها بِزَمَان معِين وَسبب مَخْصُوص، مثل الحكم بِمَوْت زيد فِي الْيَوْم الْفُلَانِيّ بِالْمَرَضِ الْفُلَانِيّ.

✍ **قلت:** والناظر في مصطلح القضاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة رسوله ﷺ يخرج من ذلك بأن قضاء الله عَزَّوَجَلَّ يعني حكمه جل ثناؤه وهو علىٰ قسمين فهو:

إما القسم الأول فهو القضاء كونيًا: (الحكم التكويني) وذلك كما في قوله جل ثناؤه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإسراء:٤].

وأما القسم الثاني فهو القضاء الشرعي: (أي الحكم الشرعي) كما في قوله جل ثناؤه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣].

أما مصطلح القدر فيأتي بمعنىٰ تقدير الله مقادير الخلق وذلك بوضع مقادير كل شيء بداية ثم تقدير حياته ورزقه وبلائه إلىٰ غير ذلك مما قدر الله لخلقه وقدر علىٰ خلقه ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩]، ثم تقديره لما خلق لهم وإنزاله له بقدر علىٰ من يشاء وقتما شاء علىٰ النحو الذي شاء بالقدر الذي شاء كما في قوله جل ثناؤه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر:٢١]، وهكذا نرىٰ أن تقدير الله يكون في خلق الخلق بداية ثم في إنزال ما قدر لهم من أرزاق وابتلاءات ومنايا وغير ذلك، ومن هذا يتضح للناظر أن القضاء حكم، والقدر تقدير ومقادير.

مراتب التقدير

التقدير الأول: في تقدير المقادير قبل خلق السموات والأرض:

* عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء**» رواه مسلم في الصحيح.

التقدير الثاني: تقدير الرب تبارك وتعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم:

* عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتىٰ رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكث بمخصرته ثم قال: «**ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلَّا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة**» قال: فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث علىٰ كتابنا وندع العمل فقال: «**من كان من أهل السعادة فسيصير إلىٰ عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلىٰ عمل أهل الشقاوة ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾** [الليل:٥-١٠].

وفي لفظ: «**اعملوا فكلٌّ ميسرٌ، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾** [الليل:٥-١٠].

التقدير الثالث: تقدير والجنين في بطن أمه وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله وسائر ما يلقاه:

* عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «**إن أحدكم ليجمع خَلقُهُ في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلَّا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلَّا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها**» متفق عليه.

التقدير الرابع: تقدير ليلة القدر:

* قال تعالىٰ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥﴾ [الدخان:١-٥]، وهذه هي ليلة القدر قطعًا لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ [القدر:١].

التقدير الخامس: التقدير اليومي:

* قال الله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن:٢٩] ذكر الحاكم في «صحيحه» من حديث أبي حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن مما خلق الله لوحًا محفوظًا من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة أو مرة ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء فذلك قوله: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ۝٢٩﴾ [الرحمن:٢٩].

وقال مجاهد والكلبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وعطاء ومقاتل: من شأنه أنه يحيي، ويميت، ويرزق، ويمنع، وينصر، ويعز، ويذل، ويفك عانيًا، ويشفي مريضًا، ويجيب داعيًا، ويعطي سائلًا، ويتوب علىٰ قوم، ويكشف كربًا، ويغفر ذنبًا، ويضع أقوامًا، ويرفع آخرين، دخل كلام بعضهم في بعض.

مراتب القضاء والقدر التي من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر:

المرتبة الأولى: العلم وهي علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها:

* قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة:٣٠]، فعلم الله عَزَّوَجَلَّ علم ذاتي علمه في نفسه قبل أن يخلق خلقه فعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون سبحانه عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال لا يخفىٰ علىٰ علمه شيء.

المرتبة الثانية: الكتابة وهي كتابته سبحانه لها قبل كونها:

* قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦﴾ [الأنبياء:١٠٥-١٠٦] فالزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء.

* وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩].

۞ المرتبة الثالثة: المشيئة، وهي مشيئته سبحانه لها:

* قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

* وقال: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴾ [يونس:٤٩].

۞ المرتبة الرابعة: الخلق وهي خلقه سبحانه لها:

* قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر:٤٩]، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات:٩٦].

إذًا مراتب القدر هي: العلم، ثم الكتابة، ثم المشيئة، ثم الخلق. وهذا مما ذكره بن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «شفاء العليل».

وبعد:

فإن هذا معتقد أهل السنة والجماعة الذي أجمع عليه أئمة الهدىٰ ومصابيح الدجىٰ من خيرة البشر وعلىٰ رأسهم سادة الخلق من أنبياء ورسل ثم من تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين والله هو العليم وهو من وراء القصد.

وقد سطر هذا الكلام مجملًا ومفصلًا أكابر أئمتنا وسادتنا من زمن صحابة نبينا وتابعيهم من حفظة الدين الغر الميامين طيب الله ثراهم وجمعنا وإياهم مع سيد أهل السنة النبي الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وإليك أيها الحبيب طائفة من أسماء هؤلاء الأعلام العلماء الربانيين، من خيار هذه الأمة المباركة، وسلفها الصالح، لعل الله أن يرزقنا صحبتهم، يوم يبعث الأنام، فمنهم:

* **فمن الصحابة:** أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وعبادة بن الصامت، وأبو موسىٰ الأشعري، وعمران بن حصين، وعمار بن ياسر، وأبو هريرة، وحذيفة بن اليمان، وعقبة بن عامر الجهني،

وسلمان، وجابر، وأبو سعيد الخدري، وحذيفة بن أسيد الغفاري، وأبو أمامة صدي بن عجلان، وجندب بن عبد الله البجلي، وأبو مسعود عقبة ابن عمرو، وعمير بن حبيب بن خماشة، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، وعائشة، وأم سلمة رضي الله عنهم أجمعين.

* **ومن التابعين من أهل المدينة:** سعيد بن المسيب، ولذلك أنت لا تسمع اسمًا من هذه الأسماء إلَّا وهو مشهور، لأن الله تبارك وتعالىٰ كتب له الذكر والثناء الجميل في قلوب الناس بسبب دعوته إلىٰ السنة، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ﷺ، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وسليمان بن يسار، ومحمد ابن الحنفية، وعلي بن الحسين، وابنه محمد بن علي بن حسين، وعمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد، وكعب الأحبار، وزيد بن أسلم، ومحمد بن مسلم الزهري، وربيعة بن أبي عبد الرحمن المعروف بـ (ربيعة الرأي) -لأنه إمام أهل المدينة في زمانه وكان شيخًا لـ مالك - وعبد الله بن يزيد بن هرمز، وزيد بن علي بن الحسين، وعبد الله بن حسن، وجعفر بن محمد الصادق.

* **ومن الطبقة الثالثة:** أبو عبد الله مالك بن أنس الفقيه، وعبد العزيز بن أبي سلمة المعروف بـ الماجشون.

* **ومن بعدهم:** ابنه عبد الملك -يعني: عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون - وإسماعيل بن أبي أويس، وأبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري، ويحيىٰ بن أبي كثير اليماني.

* **ومن أهل مكة:** عطاء -الذي هو ابن أبي رباح -، وطاوس بن كيسان المدني، ومجاهد بن جبر، وابن أبي مليكة، وعمرو بن دينار، وعبد الله بن طاوس، ثم ابن جريج، ونافع بن عمر الجمحي، وسفيان بن عيينة، وفضيل ابن عياض، ومحمد بن مسلم الطائفي، ويحيىٰ بن سليم الطائفي، ثم أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي الفقيه الإمام العلم، ثم عبد الله بن يزيد المقرئ، وعبد الله بن الزبير الحميدي رضي الله عنهم أجمعين.

* **ومن أهل الشام والجزيرة أو من يعد فيهما من التابعين:** عبد الله بن محيريز، ورجاء بن حيوة، وعبادة بن نسي، وميمون بن مهران، وعبد الكريم ابن مالك الجزري.

* **ثم من بعدهم:** إمام أهل الشام الإمام الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو، ومحمد بن الوليد الزبيدي، وسعيد بن عبد العزيز التنوخي، وعبد الرحمن ابن يزيد بن جابر، وعبد الله

بن شوذب، وأبو إسحاق الفزاري (وهو إمام جبل لو أنك قرأت ترجمته لعلمت أنه لا يقل أبدًا في الجلالة والفضل عن أحمد بن حنبل).

* **ثم من بعدهم:** أبو مسهر - وهو عبد الأعلىٰ بن مسهر الدمشقي - وهشام بن عمار شيخ البخاري، ومحمد بن سليمان المصيصي المعروف بـ (لوين)، وهذا إمام كبير من أئمة النقد.

* **ومن أهل مصر:** حيوة بن شريح، والليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة، كانوا دعاة إلىٰ السنة.

* **ومن بعدهم في مصر:** عبد الله بن وهب، وأشهب بن عبد العزيز (وهو إمام جبل كبير يقول فيه الشافعي: ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه). فكان سريع الغضب، وكان إذا غضب طاش وصاح في الذي أمامه، فهذه العصبية وهذا الغضب أثر علىٰ قبول كثير من علمه؛ ولذلك قال فيه الإمام الشافعي هذه الكلمة.

وعبد الرحمن بن القاسم، وأبو إبراهيم إسماعيل بن يحيىٰ المزني (الذي هو تلميذ الإمام الشافعي وكاتبه)، وأبو يعقوب البويطي (تلميذ الشافعي كذلك)، والربيع بن سليمان المرادي (تلميذ الشافعي)، ومحمد بن عبد الله ابن عبد الحكم (تلميذ الشافعي أيضًا).

واعلم أن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان إمام مدرسة الدعوة للسنة، ولذلك خرَّج تلاميذًا كلهم يدعون إلىٰ السنة، فالتلميذ يرضع من شيخه منهجه، ويرضع منه سمته ودله وهديه ومنهجه حتىٰ في حياته، لا أقول في دعوته فحسب وإنما في حياته؛ لأن الإنسان يؤثر ويتأثر، فإذا كان الأمر كذلك فإن كل إمام أخرج أئمة من بعده.

* **ومن أهل الكوفة:** الإمام الشعبي، وعلقمة بن قيس، وأبو البختري بن فيروز، وإبراهيم النخعي، وطلحة بن مصرف، وزبيد بن الحارث، والحكم ابن عتيبة، وابن مغول، وأبو حيان التيمي، وعبد الملك بن أبجر، وحمزة الزيات، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، والثوري، وشريك القاضي، وزائدة بن قدامة، وغيرهم من أهل العلم.

* **ومن أهل البصرة:** أبو العالية الرياحي، والحسن بن أبي الحسن البصري (الإمام الكبير الذي دعا إلىٰ السنة، حتىٰ خرج عليه واصل بن عطاء واعتزله)، ومحمد بن سيرين، وأبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي (هؤلاء أئمة كبار).

* **ومن بعدهم:** أيوب السختياني (الذي هو أبو بكر أيوب بن أبي تميمة)، ويونس بن عبيد، وعبد الله بن عون، وسليمان التيمي، وأبو عمرو بن العلاء، ثم حماد بن سلمة،

وحماد بن زيد، ويحيىٰ القطان، ومعاذ بن معاذ العنبري، وعبد الرحمن بن مهدي، ووهب بن جرير، وأبو الحسن المديني، وعباس ابن عبد العظيم العنبري، ومحمد بن بشار، وسهيل بن عبد الله التستري.

* **ومن أهل واسط:** هشيم بن بشير الواسطي، وعمرو بن عون، وشاذ بن يحيىٰ، ووهب بن بقية، وأحمد بن سنان.

* **ومن أهل بغداد:** أحمد بن حنبل (وإن لم يكن في بغداد إلَّا أحمد بن حنبل لكفىٰ، فهو إمام الدنيا بأسرها؛ ليس إمام السنة في بغداد فحسب، بل هو إمام أهل السنة في زمانه)، وأبو زكريا يحيىٰ بن معين (الإمام الكبير، إمام الجرح والتعديل)، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو ثور، وأبو خيثمة زهير ابن حرب، والحسن بن الصباح البزار، وأحمد بن إبراهيم الدورقي، ومحمد ابن جرير الطبري (صاحب التفسير)، وأحمد بن سلمان النجاد (الفقيه)، وأبو بكر النقاش المقرئ.

* **ومن أهل الموصل:** المعافىٰ بن عمران الموصلي.

* **ومن أهل خراسان:** عبد الله بن المبارك (الإمام الكبير)، والفضل بن موسىٰ السيناني، والنضر بن محمد المروزي، والنضر بن شميل المازني، ونعيم بن حماد (الإمام الكبير العلم)، وإسحاق (المعروف بـ ابن راهويه)، وأحمد بن سيار المروزي، ومحمد بن نصر المروزي (له كتاب اسمه (تعظيم قدر الصلاة) في مجلدين، ظل أهل العلم ينتظرونه دهرًا طويلًا حتىٰ طُبع منذ خمس سنوات فقط، ويحيىٰ بن يحيىٰ النيسابوري (شيخ مسلم وتلميذ مالك)، ومحمد بن يحيىٰ الذهلي (قرين البخاري، بل هو أعلىٰ منه)، ومحمد بن أسلم الطوسي، وحميد بن زنجويه النسوي، وأبو قدامة السرخسي، وعبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي، ومحمد بن إسماعيل البخاري (الإمام الكبير صاحب الصحيح)، ويعقوب بن سفيان الفسوي (صاحب كتاب المعرفة والتاريخ)، وأبو داود سليمان بن الأشعث (صاحب السنن)، وأبو عبد الرحمن النسوي وأبو عيسىٰ الترمذي (صاحب السنن)، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة (صاحب الصحيح)، ومحمد بن عقيل البلخي.

* **ومن أهل الري:** أبو زرعة الرازي، وأبو حاتم الرازي، وأبو عبيد الله الإمام الكبير محمد بن مسلم بن واره، الذي انفرد في زمانه بالدعوة إلىٰ منهاج النبوة، وأبو مسعود بن الفرات نزيل أصبهان.

* **ومن بعدهم:** عبد الرحمن بن أبي حاتم -يعني: عبد الرحمن ابن الإمام الكبير-.

* ومن أهل طبرستان: إسماعيل بن سعيد الشالنجي، والحسين بن علي الطبري، وأبو نعيم الاستراباذي، وعلي بن إبراهيم بن سلمة القطان القزويني.

يعني: الله تعالىٰ سخر لدينه من يدعو إليه علىٰ منهاج النبوة في كل زمان ومكان حتىٰ في البلاد التي لا تتكلم اللسان العربي، وهذا بلا شك من عظيم عناية الله عَزَّوَجَلَّ بهذا الدين العظيم، أن يسخر في بلاد العجم من يدعو بدعوة محمد عليه الصلاة والسلام، فصدق في هذه الأمة قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق** - أي: داعين إليه- **لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم علىٰ ذلك**».

فلا بد في كل زمان ومكان من قائم لله بحجة، ومبلغ دعوة الحق إلىٰ الخلق إلىٰ قيام الساعة.

ومن سوء الاعتقاد بالله عَزَّوَجَلَّ أن تعتقد أن الله تعالىٰ يُخلي بلدًا من داع إليه، أو يُخلي زمانًا من داع إليه. هذا من سوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ.

فهذه أمة لا ينضب معينها ولا تبور أرضها إلىٰ قيام الساعة فهؤلاء وغيرهم ممن لا يعلم عددهم إلَّا الذي خلقهم ومن خلقه اصطفاهم وبحمل السنة شرفهم وحباهم ومن كل خير أعطاهم هؤلاء هم حملة الهداية وهم حجة الله علىٰ خلقه وهم ورثة الأنبياء والمرسلين وخاتمهم النبي الأمين عليه أفضل صلاة وأتم تسليم وهم سلف الأمة الكرام وأئمتها الأعلام جعلنا الله وإياكم من أئمة الهدىٰ ومصابيح الدجىٰ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان:٧٤]، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران:٨-٩].

بحث مهم وميسر في إيضاح مسألة القدر

✍ **قلت:** وخلاصة المسألة في باب القدر وخاصة باب خلق أفعال العباد وكيف يحاسب العبد علىٰ أمر قد كتبه الله عَزَّوَجَلَّ عليه منذ القدم؟ وهل له اختيار في أفعاله؟ وإن كان مختارًا فكيف نجمع بين اختياره وبين ما كُتب عليه؟ إلىٰ ما هنالك من أسئلة كثيرة في هذا الباب.

وإننا نجد أنه ما من فعل يخرج للوجود صادرًا عن العبد إلَّا لابد له من إرادة وقدرة، فأما الإرادة فتكون من الداخل، وأما القدرة فتكون من الخارج، وبمعنىٰ أوضح فإن الإرادة هي عزيمة القلب (وتسمىٰ النية الصادقة)، والقدرة هي فعل الجوارح بالنسبة للمخلوق (وتسمىٰ المشيئة).

وقد أثبت الكتاب العزيز أن للعبد إرادة (علىٰ النحو الذي يليق بخلقته وافتقاره)، وللرب إرادة (علىٰ النحو الذي يليق به جل ثناؤه من الكمال مع عدم معرفة الكيفية ونفي المثلية):

* قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة:٣٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء:٢٧]، فأثبت جل ثناؤه أن للعبد إرادة مستقلة جعلها الله للعبد ليكون مختارًا لا مجبورًا فيما جعل له اختيار فيه وهذه الإرادة التي هي قصد القلب وعزيمته تختلف عن وسوسة الشيطان أو لمة الملك أو حديث النفس أو خواطر تطرأ عليه إنما هي عزيمته (قراره النهائي) الذي يريد إخراجه ويسعىٰ إليه جاهدًا لتحقيقه وهذه العزيمة والتي تسمىٰ الإرادة هي مناط الحساب وعليها دائرة صلاح النفس وفسادها وهي موضع نظر الرب وتقديره للعبد كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

وصح ذلك عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». رواه مسلم عن أبي هريرة.

وهذه الإرادة أيضًا هي مناط ميزان أعمال العبد عند الله عَزَّوَجَلَّ كما صح ذلك عن النبي ﷺ:

«ثَلاثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، فَأَمَّا الثَّلاثُ الَّتِي أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ: فَإِنَّهُ مَا نَقَّصَ مَالَ عَبْدٍ صَدَقَةٌ، وَلا ظُلِمَ عَبْدٌ بِمَظْلَمَةٍ فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللهُ بِهَا عِزًّا، وَلا يَفْتَحُ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللهُ لَهُ بَابَ فَقْرٍ، وَأَمَّا الَّذِي أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ عَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلانٍ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا، وَلا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلانٍ، قَالَ: هِيَ نِيَّتُهُ، فَوِزْرُهُمَا فِيهِ سَوَاءٌ». أحمد والترمذي عن أبي كبشة الأنماري.

فهذا الأثر المبارك بين لنا أن إرادة العبد ونيته أوسع من عمله بكثير خيرًا كان أو شرًّا لأن الإرادة حرة لا حدود لها والقدرة علىٰ إنفاذ العمل معلقة بإرادة الله ومشيئته، كما هو بين (في حال الثاني والرابع اللذان وردا في هذا الحديث) فمبنىٰ الحساب علىٰ عزيمة قلب كل منهما مع أنه لم يقع منهما فعل في الخارج لفقد القدرة.

وهنا وقفة لابد منها لنعلم أن إرادة العبد يمكن أن تقع ويمكن إلَّا تقع لأنها خاضعة لإرادة الله عَزَّوَجَلَّ فإن وافقت إرادةُ العبد إرادةَ الله كان ما أراد العبد ومنحه الله عَزَّوَجَلَّ القدرة علىٰ إيقاع الفعل شرًّا كان أو خيرًا، وإن خالفت إرادةُ العبد إرادةَ الله كان ما أراد الله لا ما أراد العبد شرًّا كان أو خيرًا ولله در من قال: «ما شِئتَ كان وإن لم أشاء وما شِئتُ لم يكن إن لم تشاء» فمشيئة العبد التي هي قدرته علىٰ إنفاذ ما أراد خاضعة لمشيئة الرب سبحانه وتعالىٰ.

إذًا عزيمة القلب علىٰ الإتيان بالفعل عليها مدار الحساب سواء وقع الفعل أو لم يقع لأن إيقاع الفعل يخضع لمشيئة الله فلا يجري في كونه إلَّا ما شاء ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠] ولذلك لا يوقع الله عقوبة علىٰ من فقد الإرادة سواء بذهاب عقل أو نسيان أو إكراه أو خطأ كما جاء في الحديث «إن الله تجاوز عن أمتي ثلاثة: الخطأ

والنسيان وما استكرهوا عليه». رواه الطبراني عن ثوبان. وكُلّ من هذه الأمور لا تكون بعزيمة القلب وإنما خارج الإرادة أو بلا إرادة فانتبه!!!

✍ وذكر صاحب «الكليات» في كتابه: «وَاعْلَم أن مَحل قدرَة العَبْد هُوَ عزمه المصمم عقيب خلق الداعية والميل وَالِاخْتِيَار، وَبِهَذَا يبطل احتجاج كثير من الْفُسَّاق بِالْقَضَاءِ وَالْقدر لفسقهم، إِذْ لَيْسَ الْقَضَاء وَالْقدر مِمَّا يسلب قدرَة الْعَزْم عِنْد خلق الاختيار فَيكون جبرا ليَصِح الِاحْتِجَاج».

والخلاصة: أن الفعل الذي يقع من العبد خاضعٌ لإرادته تمامًا، ولا يتدخل فيها أحد بسلطان القهر لا ملك ولا شيطان وإنما هي اللمة وهي عرض المقترح أو الإغراء والأمنية وحديث النفس ونزغات الهوىٰ وللعبد الاختيار المطلق في العزيمة علىٰ فعل الخير أو فعل الشر ثم يأتي دور القدر في تحقيق ذلك من غيره ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء:١٨-٢٠].

ومن هنا تبطل حجج كل من خالف معتقد أهل السنة والجماعة في هذه المسألة كالجبرية والقدرية ويظهر العدل الإلهي جليًّا واضحًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس:٤٤].

ثم إن الله عَزَّوَجَلَّ علم ما سيقع من العبد وسيكون من عزائم قلبه منذ الأزل وذلك في علمه الأزلي الذي ليس كمثله شيء وعَلم أحوال قلوب عباده ومنازل نفوسهم وما يستحقون من عذاب وعدل أو رحمة وفضل، وذلك قبل أن يُخلقوا وتُخلق أفعالهم التي سيخلقها لهم خيرًا كان أو شرًّا ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات:٩٦]، وهذا العلم لا ينبغي لغير الله ولا يعلم حقيقة كيفيته إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ ولا يمكن أن يخالف معلومه المسبق حقيقة ما ستصير إليه الأمور ولا يعلم هذا العلم المسبق بمصير العبد غيره ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة:٧]، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢]، فعلم ما في صدور العباد وما كان من أمر خلق العباد وما سيؤول إليه أمرهم وما سيكون من أفعالهم وأحوال قلوبهم وعزائمها ولم يُطلع علىٰ ذلك أحدٌ من خلقه ولا يكون في ملكه إلَّا ما شاء، وعليه فلا ينبغي لعاقل أن يقيس علم الخالق علىٰ علم المخلوق ولا قدرة الخالق

علىٰ قدرة المخلوق ولا حكم الخالق علىٰ حكم المخلوق فليس كمثله شيء لا في علمه ولا في قدرته ولا في حكمه لكن ينبغي للعبد أن يوقن بأن حكم الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ العباد قائم علىٰ العدل المطلق والعلم الكامل والحكمة البالغة والرحمة الشاملة والفضل بعد ذلك يعم الخلق، فتأمل هذا الباب فإنه نافع.

إشكال:

ولربما أُشكل علىٰ بعض الناس بعد هذا البحث حديث النبي ﷺ الصحيح «**إن ربكم رحيم من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرة أضعاف إلىٰ سبعمائة ضعف. إلىٰ أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة أو محاها الله، ولا يهلك علىٰ الله إلَّا هالك**». رواه أحمد وغيره.

والناظر لا يجد إشكالًا بين الحديثين (حديث الأربعة الوارد في هذا البحث وهذا الحديث) ذلك لأنه لا خلاف بين أهل العلم علىٰ أن الهم بالحسنة أي عزيمة القلب عليها تكتب حسنة وإن لم تقع في الخارج لأنه كما ذكرنا بأن الذي منع صاحبها من إنفاذها عدم القدرة التي هي خاضعة لتقدير الله عَزَّوَجَلَّ وإرادته لذلك يجازىٰ عليها خيرًا أما إن عملها ووافقت إرادته مشيئة الله وبذل بذلك زيادة من جهد وأداء ضعفت له علىٰ قدر مشقته وإخلاصه، وأما الآخر الذي هم بسيئة ثم تراجع عنها لا لنقص القدرة وإنما لوازع الخير أو لمخافة الله عَزَّوَجَلَّ فتكتب له حسنة لأنه كف أذاه عن الخلق أو حتىٰ عن نفسه فجوزي بذلك إحسانًا أما لو أنه لم يفعلها لعجز وعدم قدرة أو لحائل من قدر خارج عن إرادته فلا شك أنها تكتب له سيئة كمثل الرابع في حديث الأربعة المذكور فإن فعل السيئة فلا خلاف في أنها تكتب سيئة بقدرها. فانتبه!

مسألة في قضية التخيير والتسيير:

في الحقيقة هذه قضية شغلت بال الكثير من العلماء ناهيك عن العامة وطال فيها الجدل، والمتأمل يجد أن الأمر يحتاج إلىٰ بعض التفصيل للوصول إلىٰ قول فصل:

-**أولًا:** لابد من العلم بأن الله عَزَّوَجَلَّ خلق العباد مقهورون تحت سلطانه لا يخرج أحد من قهره أبدًا ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨].

-**ثانيًا:** لابد من اليقين بأن ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن ولا يكون في ملكه إلَّا ما أراد ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:٢٩]، وكما في الحديث «**قولي حين تصبحين: سبحان الله وبحمده، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن الله علىٰ كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا، فإنه من**

قالهن حين يصبح حُفظ حتىٰ يمسي ومن قالهن حين يمسي حُفظ حتىٰ يصبح». رواه أبو داوود عن بعض بنات النبي ﷺ».

-**ثالثًا:** أن الله خلق العباد وخلق لهم أفعالهم ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات:٩٦].

-**رابعًا:** بأن علم الله عَزَّوَجَلَّ سابق وقدره نافذ لا محالة ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ [الرعد:٨- ٩].

-**خامسًا:** لابد من العلم بأن هناك منطقة خاضعة لاختيار العبد لا جبر فيها ولا تسيير ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف:٢٩]، وأن هناك منطقة مجبور فيها العبد لا خيار له ولا قدرة عليها ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [الكهف:٢٤] وهي كما ذكرنا منطقة الإرادة.

-**سادسًا:** بأن منطقة الاختيار هي مناط الحساب والجزاء والعقاب ومنطقة الجبر لا حساب عليها ولا جزاء ولا عقاب.

-**سابعًا:** منطقة الاختيار التي جعلها الله لعباده وخلقها لهم هي منطقة الإرادة ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥]، ومحلها القلب (الذي هو مجمع الإرادات ومصدر التعقل كما سنذكر بإذن الله في بحث منفصل) ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦]، والإرادة هي عزيمته علىٰ الإتيان بالفعل وإنفاذه «**إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ**» جزء من حديث رواه البخاري، وهذه (أي عزيمة القلب وإرادته) هي عطية الله عَزَّوَجَلَّ لعباده المكلفين، وإلا لو أن إنسانًا خُلق فاقد العقل لا يكون مكلفًا أبدًا، ولو أنه فقد العقل لفترة لا يكون مكلفًا بل لو نام عقله لا يؤاخذ بذلك، كما جاء في الأثر الصحيح عند الطبراني «**رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتىٰ يستيقظ، والمعتوه حتىٰ يفيق، والصبي حتىٰ يحتلم**». فهذا واضح أنه عند زوال العقل الذي هو صانع الإرادة في القلب لا يؤاخذ العبد لأن فعله لم يصدر عن إرادة حقيقية فكيف يؤاخذه الحكم العدل عن فعل وقع بقدره ولم يكن له فيه أية إرادة.

ويلحق بذلك «**إن الله تعالىٰ تجاوز لي عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه**». فهذه الثلاث أيضًا أفعال بلا إرادة متعمدة وبلا عزيمة صادقة علىٰ الفعل.

إذًا فالذي يُحاسَب عليه العبدُ هو ما انعقدت عزيمة قلبه عليه دون أي عامل خارجي من إكراه وغيره كما بينا وأثبتنا، وبناء علىٰ ما تقدم فإن منطقة التخيير هي بلا شك هذه المنطقة الداخلية التي لا يطلع عليها إلَّا العليم الخبير الذي أفرد نفسه بالخلق وجعل لنفسه الأمر ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

-**ثامنًا**: وهناك منطقة ينتهي علىٰ عتباتها كل اختيار فلا خيار لأحد فيها وهي منطقة القدر الكوني كأن يكون المخلوق جميلًا أو دميمًا، أبيض أو أسود، مريضًا أو سليمًا، غنيًّا أو فقيرًا، حيًّا أو ميتًا، ومتىٰ يكون ذلك وكيف يكون ذلك كل هذا وما كان علىٰ شاكلته لا دخل لمخلوق فيه ومن ذلك التوفيق إلىٰ تحقق الهداية سواء كانت الهداية الكونية كالتوفيق إلىٰ الوصول لمكان قد دُل الإنسان عليه وهو يريد الوصول إليه فلن يصل إلَّا بإذن سيده وخالقه ومولاه سبحانه وتعالىٰ أو كانت هذه الهداية شرعية كأن يهتدي إلىٰ الصراط المستقيم أو يضل عنه فكل هذا وذاك بأمر الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]، فمن طلب الهدىٰ بحق وصدق وسعىٰ إلىٰ الوصول للحق كان حقًّا علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أن يهديه ويوصله إلىٰ الحق فضلًا وتكرمًا منه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

-**تاسعًا**: هناك منطقة العون الإلهي والمدد الرباني ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

فالله عَزَّوَجَلَّ يمد كلا الفريقين وفق مراده ومشيئته علىٰ القدر الذي يشاء فهذا المدد هو القدرة الربانية التي يتحقق بها الفعل المراد لذلك جعله الله عَزَّوَجَلَّ مرهونًا بمشيئته لأن ذلك المدد يترتب عليه فعل يقع في الواقع الخارجي، والفعل يترتب عليه أقدار أخرىٰ كثيرة متراكبة وهذا معلوم مشاهد فيمد أهل الإيمان ومحبة القرب من الرحمن بالعون علىٰ الطاعات وترك المنكرات ولكن بقدر معلوم ثم يكتب لهم بنيتهم الصالحة عمل الأبد وقرب الأبد خالدين فيها أبدًا ويمد أهل المعصية بمرادهم ولكن بقدر معلوم لا بكل ما أرادوا ليبتليهم ويبتلي بهم ولو أعطاهم كل ما يريدون لفسدت السماوات والأرض ثم يحاسبهم بما عملوا ونفذت قدرته فيه وبما لم يعملوا مما أرادوه ولم يوافق مشيئته لذلك يخلد مَنْ كَفَرَ منهم في عذابه الدائم كأنهم فعلوا ما أضمرته نفوسهم وأرادوه ولم يعانوا

عليه، فانظر وتأمل فإنه باب عظيم نافع بإذن الله تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد:١٧]، فهؤلاء الذين أرادوا الوصول إلىٰ مراضي ربهم واختاروه بإرادتهم رضي الله عنهم ورضوا عنه.

ثم ذكر عن أهل الطغيان ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة:١٥]، وهؤلاء الذين استحبوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ والضلالة علىٰ الرشد فجزاهم بما أرادوا علىٰ النحو الذي أرادوا جزاءً وفاقًا وما كان عطاء ربك محظورًا...

-**عاشرًا:** بيان أن الهداية تنقسم إلىٰ قسمين أو هي نوعان:

أولاً: هداية دلالة: وهذه جعلها الله لنفسه علىٰ النحو الذي ينبغي لذاته كونية وشرعية وعم بها من شاء من خلقه من أنبياء ورسل ومصلحين صالحين.

فأما الدلالة الكونية: فما خلق لعباده من علامات يهتدون بها في معايشهم كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل:١٥-١٦].

وأما الدلالة الشرعية: فهي ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ من الكتب وما خلق من مظاهر قدرته التي تدل علىٰ أسمائه وصفاته.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ الم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [السجدة:١-٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام:٩٩].

ثانيًا: هداية التوفيق: وهي أن يوفق الله عَزَّوَجَلَّ العبد إلىٰ الوصول إلىٰ الحق والثبات عليه وهذه خص الله عَزَّوَجَلَّ بها ذاته فلا يستطيعها غيره وتجلت تلك الهدية في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦].

واعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ عادل حكيم عليم فلا يمن بهداية التوفيق إلىٰ الحق إلَّا من علم من سريرته أنه يبحث بإخلاص عن الحق وأنه متجرد في رغبته في الوصول إليه بدون هوىٰ نفس أو زيغ قلب، وهذا هو ميزان الحق في هداية الدلالة فهي خاصة بأهل الإخلاص في طلب الحق.

-**حادي عاشر:** وهناك أيضًا إلهامات قدرية تخطر علىٰ القلب ولا يدري أنها لإنفاذ قدر الله عَزَّوَجَلَّ فيه وهذه ليست بالطبع في أمور التكليف بل في الأمور الكونية القدرية كالموت والمرض وغير ذلك فلربما خطرت في بال العبد خاطرة شديدة ألجمت قلبه وأسرته حتىٰ يكاد يجن جنونه لكي يفعلها فيقبل عليها بكل قوة ويكون في ذلك هلاكه أو مرضه أو غير ذلك مما جرت به الأقدار.

-**ثاني عشر:** أيضًا لا بد من ذكر الإغلاق والربط، فأما الإغلاق أو القفل أو الران فذلك أيضًا من الأمور القدرية التي لا دخل للعبد فيها إلَّا بما كسبت يداه وبما تقدم من عظم جرمه وإصراره علىٰ معاندة ربه فيختم الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ قلبه فلا يصل إليه إيمان ولا يخرج منه كفران فسبحان جبار السماوات والأرض القاهر فوق عباده ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين:١٤]، وهذا محض عدله عَزَّوَجَلَّ وعقوبته العاجلة لأهل الباطل بعد إمهالهم والحلم عليهم.

أما الربط فهو ربطه عَزَّوَجَلَّ علىٰ قلوب عباده المؤمنين الصادقين عند الملمات بالصبر وعدم الجزع وعند الفتن بعدم مواقعتها ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص:١٠]، ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف:٢٤].

وهكذا يأتي القفل علىٰ القلب بالكفر أو العصيان ومحبة الباطل والبهتان عدلًا من الرحمن ويجيء الربط علىٰ قلوب المؤمنين توفيقًا وتفضلًا من رب العالمين فلا ظلم ولا محاباة ولكن عدل وفضل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النجم:٣٠].

- وبناء علىٰ ما تقدم فهذا إيضاح يبين بما لا يدع ريبة بأن العباد مقهورون تحت سلطان ربهم مجملًا لا يستطيع أحدٌ منهم أن يخرج من سلطانه ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو

ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٣٣]

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [الأنعام:١٣٤].

﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾ [الإنسان:٢٨-٣١].

ثم الله تبارك وتعالىٰ أعطاهم منطقة إرادة هي كل ما يملكون علىٰ الحقيقة وجعل اختيارهم فيها وترك لهم أن يختاروا ما يشاؤون وأعلمهم أنه محاسبهم علىٰ هذا الاختيار ثم هو عالم منذ الأزل بما سيختار كل مخلوق من مخلوقاته المكلفين وهو الذي منحهم هذا الاختيار الذي لا إجبار فيه ليبلوهم أيهم أحسن عملًا ويُظهر أن الذين استحقوا الحسنىٰ هم أهلها والفضل له وحده وأن الذين استحقوا العقوبات هم أهلها والعدل منه والله يختص برحمته من يشاء وكل هذا وذاك خاضع لحكمته وعلمه ورحمته وقدرته وتقديره.

ثم أثبتنا أن إيقاع أفعال العباد خاضع لمشيئته عَزَّوَجَلَّ وحده وأن ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن، وبينا أن هناك منطقة لا خيار للعباد فيها ولا يؤاخذون بها وهي منطقة القدر الكوني الذي كتبه الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عباده من موت وحياة وغير ذلك.

إذًا فالعبد مُسيَّر من جهة ومُخيَّر من جهة، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ومنه الفضل والمنة.

وختامًا

هذا ما جمعه العبد المقصر المفتقر لفضل ربه، فإن كان من توفيق فمن الله وحده، وإن كان من تقصير أو خطأ أو نسيان فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء.

نسأل الله القبول ومصاحبة حبيبنا سيد أهل السنة أجمعين في يوم الدين، أوردنا الله حوضه، وسقانا منه شربة لا نظمأ بعدها أبدًا، وجمعنا مع أئمة الهدىٰ الأبرار، ووقانا وإياكم شر عباده الفجار، ما تعاقب الليل والنهار، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبي الهدىٰ المختار، وعلىٰ آلِهِ وأصحابه الأخيار.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧].

جمعه الفقير لعفو ربه
محمد بن إبراهيم بن أبو كرات
غفر الله له ولوالديه

تم بحمد الله في يوم الأربعاء الموافق السابع والعشرين من شهر رجب المبارك لعام ألف وأربع مائة وأربعين من هجرة النبي الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. انتهىٰ.

مراجع الكتاب

- **كتاب الله** عَزَّوَجَلَّ برواية حفص عن عاصم وكتب الصحاح ثم نذكر طرفًا مما رجعت إليه في بحثنا هذا فجمعنا منها مادة البحث والله الموفق.

❑ **الكتاب: كتاب الأيمان «ومعالمه، وسننه، واستكماله، ودرجاته».**

- المؤلف: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)
- المحقق: محمد نصر الدين الألباني

❑ **الكتاب: أصول السنة**

- المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)
- الناشر: دار المنار - الخرج - السعودية
- الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ

❑ **الكتاب: شرح السنة معتقد إسماعيل بن يحيى المزني**

- المؤلف: إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل، أبو إبراهيم المزني (المتوفى: ٢٦٤هـ)
- المحقق: جمال عزون
- الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية - السعودية
- الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

❑ **الكتاب: تفسير أسماء الله الحسنى**

- المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)
- المحقق: أحمد يوسف الدقاق
- الناشر: دار الثقافة العربية

❑ **الكتاب: تخريج العقيدة الطحاوية**

- المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)
- شرح وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني
- الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت
- الطبعة: الثانية، ١٤١٤ هـ

❑ **الكتاب: شرح السنة**

- المؤلف: أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري (المتوفى: ٣٢٩هـ)

❑ **الكتاب: تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء**

- المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي المعروف بـ «ابن خمير» (المتوفى: ٦١٤هـ)
- المحقق: محمد رضوان الداية
- الناشر: دار الفكر المعاصر - لبنان
- الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م

❑ **الكتاب: لمعة الاعتقاد**
- المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)
- الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية
- الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

❑ **الكتاب: العرش**
- المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)
- المحقق: محمد بن خليفة بن علي التميمي
- الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية
- الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م

❑ **الكتاب: الاعْتِصَام**
- المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)

❑ **الكتاب: شرح العقيدة الطحاوية**
- المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ)

❑ **الكتاب: الحسام المسلول على منتقصي أصحاب الرسول**
- المؤلف: محمد بن عمر بن مبارك الحميري الحضرمي الشافعي، الشهير بـ «بَحْرَق» (المتوفى: ٩٣٠هـ)

❑ **الكتاب: الجنة والنار**
- المؤلف: عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي

❑ **الكتاب: الرسل والرسالات**

- المؤلف: عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي
- الناشر: مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، دار النفائس للنشر والتوزيع، الكويت
- الطبعة: الرابعة، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

❏ **الكتاب: عالم الجن والشياطين**
- المؤلف: عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي
- الناشر: مكتبة الفلاح، الكويت
- الطبعة: الرابعة، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

❏ **الكتاب: عالم الملائكة الأبرار**
- المؤلف: عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي
- الناشر: مكتبة الفلاح، الكويت
- الطبعة: الثالثة، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

❏ **الكتاب: شرح معاني الآثار**
- المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)
- الكتاب: القاموس المحيط
- المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)

❏ **الكتاب: فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى**
- المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)

❏ **الكتاب: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**
- المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)

❏ **الكتاب: جامع البيان في تأويل القرآن**
- المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)
- المحقق: أحمد محمد شاكر
- الناشر: مؤسسة الرسالة
- الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

❏ **الكتاب: شرح القواعد المثلى**
- المؤلف: عبد الرحيم بن صمايل العلياني السلمي
- مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية

❏ **الكتاب: رسالة الشرك ومظاهره**

- المؤلف: مبارك بن محمد الميلي الجزائري (المتوفى: ١٣٦٤هـ)

❏ **الكتاب: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة**
- المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)

❏ **الكتاب: أشراط الساعة**
- المؤلف: عبد الله بن سليمان الغفيلي
- الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية
- الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

❏ **الكتاب: أحاديث في الفتن والحوادث** (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب، الجزء الحادي عشر)
- المؤلف: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (المتوفى: ١٢٠٦هـ)

❏ **الكتاب: لسان العرب**
- المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)

❏ **الكتاب: شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي**

❏ **الكتاب: قاعدة مختصرة في وجوب طاعة الله ورسوله وولاة الأمور**
- المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)

❏ **الكتاب: شرح السنة**
- المؤلف: أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري (المتوفى: ٣٢٩هـ)

❏ **الكتاب: إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين**
- المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)

❏ **الكتاب: شرح العقيدة الواسطية**
- المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١ هـ)

❏ **الكتاب: مجموع الفتاوى**
- المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)

❏ **الكتاب: شرح القواعد السبع من التدمرية**
- المؤلف: يوسف بن محمد علي الغفيص
- مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية

❏ **الكتاب: شرح العقيدة الطحاوية**

- المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ)

❑ **الكتاب: تفسير أسماء الله الحسنى**

- المؤلف: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)

❑ **الكتاب: الفوائد**

- المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)
- الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت
- الطبعة: الثانية، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م
- ومراجع أخرى لم تذكرها مخافة الإطالة والله من وراء القصد وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الفهرس

مقدمة المؤلف ٥

القواعد العقدية لأمة خير البرية... ٦

تعريف مصطلح العقيدة والمقصود به: ٦

ومعنى الإيمان:... ٦

القاعدة الأولى: اعلم علمك الله أن الإيمان قول وفعل وأنه يزيد وينقص وأن أهل الإيمان متفاوتون في إيمانهم.. ٧

القاعدة الثانية: واعلم أن لفظة الإيمان والإسلام إذا اجتمعتا تفرقتا وإذا تفرقتا اجتمعتا ٧

القاعدة الثالثة: واعلم أن الإيمان أركان وشعب وعبادات ٨

أصول الإيمان وأركانه الست:... ٨

القاعدة الرابعة: الإيمان بأن الله عَزَّوَجَلَّ واحد أحد صمد ٩

القاعدة الخامسة: أن توحيد الله عَزَّوَجَلَّ يكون من جهتين توحيد ربوبية وتوحيد الإهية........... ٩

أولاً: توحيد الربوبية:.. ٩

ويسمى أيضًا توحيد المعرفة والإثبات:... ٩

توحيد المعرفة: ٩

توحيد الذات:... ٩

توحيد الإثبات: ٩

الصفات الفعلية ٩

القاعدة السادسة: أدلة في وجود الخالق عَزَّوَجَلَّ كما نبه إليها القرآن العظيم ١٠

أولاً / من جهة الفطرة:.. ١٠

ودلالة الفطرة واضحة على وجودة سبحانه من جهتين: ١٠

أما تنبيهات القرآن.. ١١

ثانيًا: من جهة دلالة المخلوقات على الخالق سبحانه وتعالى: ١١
١ - الخلق: ١١
٢ - دليل العناية: ١٢
٣ - الإتقان والتقدير: ١٢
٤ - دليل التسخير والتدبير: ١٤
٥ - التخصيص: ١٥
القاعدة السابعة: وجوب الإيمان بتوحيد ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ ٢٠
ومعنى توحيد الربوبية: ٢٠
دليل ذلك: نقلي وعقلي: ٢٠
القاعدة الثامنة: من توحيد الربوبية أن الشرك ناقض من نواقض التوحيد ٢٤
والشرك لغة: ٢٤
والشرك إما أن يكون شرك ربوبية وإما أن يكون شرك إلوهية: ٢٤
شرك الربوبية ٢٤
شرك الإلهية ٢٤
قسمي الشرك اصطلاحًا: ٢٤
دليل حرمته: ٢٤
الشركُ أعظمُ الذنوب؛ وذلك لأمور: ٢٤
بعض عقوبات الشرك الأكبر: ٢٥
١ - إن الله تعالى لا يغفره لمن لقيه به: ٢٥
٢ - إن الله حرم الجنة على المشرك وجعله مخلدًا في نار جهنم: ٢٥
٣ - أنَّ الشركَ يُحبطُ جميعَ الأعمال: ٢٥
٤ - أنَّ المشرك حلال الدم والمال وذلك بضوابطه الشرعية: ٢٦
٥ - أن الشرك محبط للعمل: ٢٦
٦ - أنَّ الشركَ أكبرُ الكبائر: ٢٦

٧- أنَّ الشركَ تنقص وعيب: ٢٧
أقسام الشرك: ٢٨
فالشّرك الأكبر: ٢٨
(مسألة في الشفاعة): ٢٩
شرك الربوبية ٣١
الشّرك الأصغر: ٣٢
من مظاهر الشرك الأكبر: ٣٣
١ - الاستغاثة والتّوسّل بغير الله تعالى: ٣٣
٢ - الزيارة البدعية للمقابر: ٣٤
٣- الذّبح لغير الله والنّذر لغيره سبحانه: ٣٦
٤ - الحلف بغير الله تعالى: ٣٧
٥- سجود المريد للشّيخ: (الذي يفعله بعض الجهال من وضع الرأس عند قدم الشيخ): ٣٧
٦- حلق الرّأس للشّيخ: ٣٧
٧- الخوف من غير الله: ٣٨
بعض أنواع الشرك المشهورة وحكم ذلك: ٣٨
القاعدة التاسعة: في الأسماء والصفات ٣٨
دلالات وصف أسماء الله بالحسنى: ٤٠
أمثلة على أسماء الله الحسنى: ٤١
معنى الحسن في أسماء الله تعالى: ٤٢
قواعد جليلة في باب الأسماء والصفات والإخبار عن الله جل ثناؤه: ٤٣
قواعد عامة قبل دراسة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ٤٦
القاعدة الأولى (من قواعد الأسماء): أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته: ٤٦
القاعدة الثانية(من قواعد الأسماء): (أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في

أسمائه بل يطلق عليه منها كمالها):.. ٤٦

القاعدة الثالثة (من قواعد الأسماء): (أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا أن يشتق له منه اسم مطلق): ٤٦

القاعدة الرابعة (من قواعد الأسماء): (أن أسماءه عَزَّوَجَلَّ الحسنى هي أعلام وأوصاف): ٤٦

أنواع الصفات التي تتضمنها أسماء الله تعالى: ٤٩

ذكر عقيدة المعتزلة والمعطلة في صفات الله:.. ٤٩

عقيدة الأشاعرة في صفات الله:.. ٥١

الدهر ليس من أسماء الله تعالى: ٥٢

قاعدة في دلالة أسماء الله تعالى على إثبات الاسم والصفة والأثر: ٥٣

القاعدة الخامسة (من قواعد الأسماء): (أن الاسم من أسمائه له دلالات: دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم):............... ٥٤

دلالة المطابقة:.. ٥٤

دلالة التضمن: ٥٤

دلالة الالتزام: ٥٤

القاعدة السادسة (من قواعد الأسماء): أن أسماءه الحسنى لها اعتباران: اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثاني متباينة: ٥٥

القاعدة السابعة (من قواعد الأسماء): أن ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفًا: ٥٥

عقيدة المعتزلة والأشاعرة في توقيف أسماء الله:.. ٥٩

القاعدة الثامنة (من قواعد الأسماء): أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل:٦٢

القاعدة التاسعة (من قواعد الأسماء): (أن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم): ٦٢

القاعدة العاشرة (من قواعد الأسماء): إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم: ٦٢

القاعدة الحادية عشر(من قواعد الأسماء): أن أسماءه كلها حسنى ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً: ٦٣
القاعدة الثانية عشر(من قواعد الأسماء): في بيان مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة: ٦٤
القاعدة الثالثة عشر(من قواعد الأسماء): في اللفظ المشترك بين الله والعباد: ٦٦
القاعدة الرابعة عشر(من قواعد الأسماء): أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاثة اعتبارات (أي المشترك اللفظي): ٦٦
القاعدة الخامسة عشر(من قواعد الأسماء): أن الصفة متى قامت بموصوف لزمها أمور أربعة أمران لفظيان وأمران معنويان: ٦٧
القاعدة السادسة عشر(من قواعد الأسماء): أن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد: ٦٨
القاعدة السابعة عشر(من قواعد الأسماء): أن أسماءه تعالى منها ما يطلق عليه مفردًا ومقترنًا بغيره وهو غالب الأسماء: ٦٨
القاعدة الثامنة عشر(من قواعد الأسماء): أن الصفات أربعة أنواع: ٦٩
القاعدة التاسعة عشر(من قواعد الأسماء): أن من أسمائه الحسنى ما يكون دالاً على عدة صفات ويكون ذلك الاسم متناولا لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها: ٧٠
القاعدة العشرون (من قواعد الأسماء): وهي الجامعة لما تقدم من الوجوه وهي (معرفة الإلحاد في أسمائه): ٧٠
فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع: ٧١
القاعدة العاشرة في ذكر بعض الأسماء الحسنى التي جاء ذكرها في كتاب الله وصحيح سنة النبي ق٧٢
١ – (الإله): ٧٢
٢ – لفظ الجلالة (الله): ٧٣
٣ – (الواحد) ٤ – (الأحد): ٧٦
٥ – (العلي)، ٦ – (الأعلى): ٧٧
٧ – (الأول)، ٨ – (والآخر)، ٩ – (والظاهر)، ١٠ – (والباطن): ٧٩

١١ - (الخالق)، ١٢ - (البارئ)، ١٣ - (المصور)، ١٤ - (الخلاق): ٨٠

١٥ - (القابض)، ١٦ - (الباسط): ٨١

١٧ - (البر)، ١٨ - (الوهاب)، ١٩ - (الكريم): ٨١

٢٠ - (البصير)، ٢١- (التواب)، ٢٣- (السميع)، ٢٤ - (الرحيم)، ٢٥-(الرحمن): ٨٢

توبته على عبده نوعان: ٨٥

أولاً: من جهة الرحمة الكونية، ثانيًا من جهة الرحمة الشرعية: ٩٠

الجهة الثالثة: الرحمة القدرية، والجهة الرابعة: الرحمة الجزائية: ٩١

٢٦ - (الْمَلِكُ)، ٢٧ - (الْقُدُّوسُ)، ٢٨ - (السَّلَامُ)، ٢٩- (الْمُؤْمِنُ)، ٣٠- (الْمُهَيْمِنُ)، ٣١- (الْعَزِيزُ)،
٣٢- (الْجَبَّارُ)، ٣٣ - (الْمُتَكَبِّرُ)، ٣٤-(المالك)، ٣٥- (الكبير): ٩٢

٣٦- (المقدم)، ٣٧- (المؤخر): ٩٩

٣٨- (الحق): ١٠٠

٣٩- (الحكم): ١٠١

٤٠ - (الحكيم): ١٠٢

٤١ - (الحليم): ١٠٥

٤٢ - (الحَمِيد): ١٠٦

٤٣ - (الحي)، ٤٤ - (القيوم): ١٠٨

٤٥ - (العليم)، ٤٦ - (الخبير): ١٠٩

٤٧ - (الرب): ١١٣

٤٨ - (الرزاق): ١١٥

قسمت أنواع الأرزاق إلى عدة أقسام: ١١٥

- أولاً: أرزاق عامة: ١١٥

- ثانيًا: أرزاق خاصة: ١١٦

وهي أرزاق ظاهرة وباطنة: ١١٦

٤٩ - (الصمد): ١١٧

٥٠- (القوي)، ٥١- (المتين)، ٥٢- (القدير):........ ١١٨
٥٣- (العظيم):........ ١٢٠
٥٤- (الغفور)، ٥٥- (الغفار):........ ١٢٢
٥٦- (الغني):........ ١٢٤
٥٧- (الفتاح):........ ١٢٦
٥٨- (القهار):........ ١٢٧
٥٩- (اللطيف):........ ١٢٩
٦٠- (المقدم)، ٦١- (المؤخر):........ ١٣٦
٦٢- (الودود):........ ١٣٧
٦٢- (الوكيل):........ ١٣٨
الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل:........ ١٤٠
بين التوكل والاتّكال:........ ١٤١
٦٣- (الوهاب):........ ١٤١
٦٤- (الجميل):........ ١٤٣
٦٥ - (الجواد):........ ١٤٥
٦٦ - (الحسيب):........ ١٤٦
٦٧ - (الحفيظ):........ ١٤٧
٦٨- (الواسع):........ ١٤٩
٦٩- (المُقِيت):........ ١٥١
٧٠- (النور):........ ١٥١
٧١- (الهادي):........ ١٥٥
هداية دلالة:........ ١٥٥
هداية التوفيق:........ ١٥٦
٧٢- (الحيي)، ٧٣- (الستير):........ ١٥٦

٧٤- (المجيب): ١٥٧
٧٥- (المجيد): ١٥٩
٧٦ - (المحيط): ١٦٠
٧٧- (الرؤوف): ١٦١
٧٨- (الرفيق): ١٦٣
٧٩- (الرقيب)، ٨٠- (الشهيد): ١٦٥
٨١- (الشاكر)، ٨٢- (الشكور): ١٦٧
٨٣- (القريب): ١٦٩
٨٤- (الأحد): ١٧٠
٨٥- (الأكرم): ١٧١
٨٦- (الحافظ): ١٧٢
٨٧- (الولي): ١٧٣
٨٨- (العالم): ١٧٤
٨٩- (العفو): ١٧٥
٩٠- (الغفار): ٩١- (الغفور): ١٧٦
٩٢- (القادر): ١٧٨
٩٣- (القاهر): ١٨٠
٩٤- (المتعال): ١٨١
٩٥- (المقتدر): ١٨٢
٩٦- (المليك): ١٨٣
٩٧- (المولى): ١٨٣
٩٨- (النصير): ١٨٤
٩٩- (الوارث): ١٨٦
ومن أسماء الله جل ثناؤه التي وردت في سنة رسول الله ق: ١٨٦

١٠١- (السُّبوح):.......... ١٨٦

١٠٢- (السيد):.......... ١٨٩

١٠٣- (الشافي):.......... ١٩١

١٠٤- (المحسن):.......... ١٩٢

١٠٥- (المنان):.......... ١٩٤

ثانيًا: قواعد في صفات الله عَزَّوَجَلَّ.......... ١٩٧

القاعدة الأولى (من قواعد الصفات): وهي قاعدة الكمال لله سبحانه وتعالى.......... ١٩٩

صفات الله صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه:.......... ١٩٩

القاعدة الثانية (من قواعد الصفات): امتناع وصف الله تعالى بصفات النقص التي لا كمال فيها ٢٠١

القاعدة الثالثة (من قواعد الصفات): في ضابط الصفة المتضمنة للكمال المطلق لله تعالى..... ٢٠٣

القاعدة الرابعة (من قواعد الصفات): في مسألة في الأسماء المشتركة في اللفظ بين الله عَزَّوَجَلَّ وبين العباد
.... ٢٠٤

قاعدة مهمة في ثلاثة أصول لفهم الأسماء والصفات:.......... ٢٠٥

القاعدة الخامسة (من قواعد الصفات): في أن الصفة إذا قامت بموصوف لزمها أمور أربعة ... ٢٠٦

القاعدة السادسة (من قواعد الصفات): في معرفة الصفات.......... ٢٠٦

صفاته تعالى تنقسم إلى قسمين:.......... ٢٠٧

أولا ثبوتية:.......... ٢٠٧

ثانيًا: سلبية:.......... ٢٠٧

القاعدة السابعة (من قواعد الصفات): في أنه يجب في إثبات الصفات التخلي عن محذورين.. ٢٠٧

القاعدة الثامنة (من قواعد الصفات): في مسألة في التفويض.......... ٢٠٨

القاعدة التاسعة (من قواعد الصفات): في بعض صفات الله عَزَّوَجَلَّ الذاتية.......... ٢٠٩

صفة الوجه:.......... ٢٠٩

دليل الصفة:.......... ٢٠٩

صفة اليد:.......... ٢١٠

دليل الصفة: ٢١٠

صفة الأصابع: ٢١١

دليل الصفة: ٢١١

صفة القَدم: ٢١١

دليل الصفة: ٢١١

صفة السمع والبصر: ٢١٢

دليل الصفة: ٢١٢

صفة العين: ٢١٢

دليل الصفة: ٢١٢

صفة النفس: ٢١٢

دليل الصفة: ٢١٢

القاعدة العاشرة (من قواعد الصفات): في ذكر بعض الصفات الفعلية لرب البرية ٢١٣

صفة الكلام: ٢١٣

دليل الصفة: ٢١٣

صفة الاستواء على العرش: ٢١٣

دليل الصفة: ٢١٣

صفة النزول: ٢١٤

دليل الصفة: ٢١٤

صفة المجيء: ٢١٤

دليل الصفة: ٢١٤

رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة: ٢١٤

دليل ذلك: ٢١٤

القاعدة الحادية عشرة: في وجوب الإيمان بتوحيد ألوهية الله عَزَّوَجَلَّ ٢١٧

ودليل ذلك: شهادة الله لنفسه بالألوهية: ٢١٧

مراتب الشهادة التي ينبغي للشاهد أن يقوم بها:.................. ٢١٧
١ - مرتبة العلم:.................. ٢١٧
٢- مرتبة التكلم والإخبار:.................. ٢١٧
٣- مرتبة الإعلام:.................. ٢١٨
٤ - مرتبة الأمر والإلزام:.................. ٢١٨
القاعدة الثانية عشرة: في وجوب تحقيق شُرُوط لا الله إلاَّ الله.................. ٢٢٠
الشَّرْط الأول: الْعلم:.................. ٢٢٠
الشَّرْط الثَّانِي: الْيَقِين.................. ٢٢١
الشَّرْط الثَّالِث: الإِخْلَاص.................. ٢٢٢
الشَّرْط الرَّابِع: الصدْق الْمنَافِي للكذب:.................. ٢٢٣
الشَّرْط الْخَامِس: الْمحبَّة:.................. ٢٢٤
الشَّرْط السَّادِس: الانقياد.................. ٢٢٧
الشَّرْط السَّابِع: الْقبُول:.................. ٢٣٠
القاعدة الثالثة عشرة: في معرفة أقسام العبادات.................. ٢٣٢
القاعدة الرابعة عشرة: في شروط قبول العبادة.................. ٢٣٣
الشرط الأول: الإخلاص:.................. ٢٣٣
أقسام الإخلاص:.................. ٢٣٣
الشرط الثاني المتابعة:.................. ٢٣٥
القاعدة الخامسة عشر: في الأمور التي توجب رد العمل وعدم قبوله ومنها بعد الشرك والكفر (النفاق والرياء والابتداع) وهذه الأمور لا يقبل معها العمل.................. ٢٣٨
أولاً: النفاق:.................. ٢٣٨
أقسام النفاق:.................. ٢٣٨
ثانيًا الرياء:.................. ٢٣٩
أقسام الرياء:.................. ٢٣٩

درجات الرياء: ٢٤٠
حكم الرياء: ٢٤٠
ودليله: ٢٤٠
معالجة الرياء: ٢٤١
ثالثا: الابتداع في الدين: ٢٤١
ودليل حرمة الابتداع في دين الله عَزَّوَجَلَّ: ٢٤٢
أقسام البدعة: ٢٤٢
أسباب ودوافع البدعة: ٢٤٣
القاعدة السادسة عشرة: في وجوب الإيمان بالملائكة ٢٤٥
كيف يكون الإيمان بالملائكة؟ ٢٤٥
عظم خلقة الملائكة: ٢٤٦
عظم خُلق الملائكة: ٢٤٦
بعض وظائفهم التي كلفهم الله عَزَّوَجَلَّ بها: ٢٤٦
القاعدة السابعة عشرة: في وجوب الإيمان بالجن ٢٤٧
لماذا سمّوا جنًّا؟ ٢٤٨
ووجودهم معلوم من الدين بالضرورة: ٢٥٠
لماذا خلقت الجن؟ ٢٥١
القاعدة الثامنة عشرة: في وجوب الإيمان بكل الكتب المنزلة من عند الله عَزَّوَجَلَّ ٢٥٣
أولاً: الإيمان بالقرآن العظيم : ٢٥٣
ومن ثنائه عليه ما جاء في كتابه: ٢٥٣
أولاً: الأدلة المثبتة لصفة الكلام: ٢٥٤
ثانيًا: وجوب الإيمان بجميع الكتب المنزلة من عند الله تبارك وتعالى: ٢٥٧
الكتب التي ورد ذكرها في القرآن: ٢٥٧
- أولاً: (الصحف): ٢٥٨

- ثانيًا: التوراة:..٢٥٨

- ثالثًا: (الإنجيل):..٢٦٠

- رابعًا: (الزبور):...٢٦٢

أخبار أهل الكتاب على ثلاثة أقسام:.......................................٢٦٣

القاعدة التاسعة عشرة: في أن القرآن الكريم نسخ الكتب السابقة كلها..............٢٦٤

القاعدة العشرون: في وجوب الإيمان بالرسل جميعًا عليهم صلوات الله وسلامه...........٢٦٥

التعريف بالنبي والرسول والفرق بينهما:.......................................٢٦٥

أولا: تعريف النبي:...٢٦٥

ثانيًا: تعريف الرسول:...٢٦٦

الفرق بين الرسول والنبيّ:..٢٦٦

أربعة من العرب:...٢٧١

أنبياء عرفناهم من السنة، ولم ينصّ القرآن على أسمائهم، وهم:.....................٢٧١

- شيث:...٢٧١

- يوشع بن نون:..٢٧١

أما الخضر...٢٧١

حد الدّعوة إلى الله:..٢٧٥

القاعدة الحادية والعشرون: في وجوب الإيمان بالوحي المنزل من عند الله..............٢٧٨

تعريف الوحي:..٢٧٨

مقامات وحي الله إلى رسله:...٢٧٨

الأولى: الإلقاء في روع النبي الموحى إليه:.....................................٢٧٩

رؤيا الأنبياء:...٢٧٩

المقام الثاني: تكليم الله لرسله من وراء حجاب:................................٢٧٩

المقام الثالث: الوحي إلى الرسول بواسطة الملك:...............................٢٨٠

صفة مجيء الملك إلى الرسول:...٢٨٠

قاعدة في بشرية الرسل صلوات الله عليه أجمعين: ٢٨١

ثانيًا: تعرض الأنبياء للبلاء: ٢٨١

ثالثًا: اشتغال الأنبياء بأعمال البشر: ٢٨٢

رابعًا: ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية والملائكية: ٢٨٣

قاعدة في عصمة الأنبياء: ٢٨٤

أولاً: العِصمة في التحمّل وفي التبليغ: ٢٨٤

عصمة الرسول ق من القتل: ٢٨٥

عصمة الرسول ق من الشيطان: ٢٨٦

عدم العصمة من الأعراض البشريّة كالخوف والنسيان: ٢٨٦

١ – خوف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من ضيوفه: ٢٨٦

٢ – عدم صبر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على تصرفات العبد الصالح: ٢٨٦

٣ – تصرفات موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما رأى قومه يعبدون العجل: ٢٨٦

٤ – نسيان آدم وجحوده: ٢٨٧

٥ – نبي يحرق قرية النمل: ٢٨٧

– نسيان نبينا ق وصلاته الظهر ركعتين: ٢٨٧

ثانيًا: مدى العصمة في إصابة الحق في القضاء: ٢٨٨

الذين ينفون عن الرسل والأنبياء هذه الأعراض مخالفون للنصوص: ٢٨٨

ثالثًا العصمة من الكبائر: ٢٨٩

– أولاً: ما نسب اليهود إلى الأنبياء والمرسلين من القبائح: ٢٨٩

– ثانيًا: ما نسبه النصارى من القبائح إلى الأنبياء: ٢٩٠

رابعًا: العصمة من الصغائر: ٢٩١

القائلون بعصمة الأنبياء من الصغائر: ٢٩٢

شبهتان: ٢٩٣

قاعدة في دلائل النبوة ٢٩٦

الآيات والمعجزات التي يجريها الله تصديقًا لرسله: ٢٩٦
تعريف الآية والمعجزة: ٢٩٦
أمثلة من معجزات الرُّسُلِ: ٢٩٧
أولاً: آية نبي الله صالح: ٢٩٧
ثانيًا: معجزة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ٢٩٧
ثالثًا: آيات نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ٢٩٧
رابعًا: معجزات نبي الله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ٢٩٧
خامسًا: آيات خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه: ٢٩٨
الآية العظمى: ٢٩٩
نمط فريد من المعجزات: ٢٩٩
معجزٌ في كلِّ ناحية: ٢٩٩
سادسًا: النظر في أحوال الأنبياء: ٣٠٠
النظر في دعواهم: ٣٠١
ثم تأييد الله عَزَّوَجَلَّ ونصرته وحفظه لهم: ٣٠١
القاعدة الثانية والعشرون: في الولايات (والمقصود هنا الولاية العظمى) ٣٠٢
فِي بَيَانِ حُكْمِ الخِلافَةِ: ٣٠٢
الشروط التي ينبغي توافرها في الخليفة: ٣٠٢
بِمَ تنعقد الإمامة؟ ٣٠٣
القاعدة الثالثة والعشرون: في وجوب طاعة ولاة الأمور فيما لا معصية فيه لله ٣٠٤
فتوى العلماء في حكم الخروج في المظاهرات: ٣٠٩
فصل في بيان عدم جواز الخروج على ولاة الأمر إلاَّ بضوابط ٣٠٩
أولاً: أن يَرى كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان: ٣١٠
ثانيًا: القدرة: ٣١٠
ثالثًا: وجود البديل المسلم: ٣١٠

القاعدة الرابعة والعشرون: في وجوب محبة الصحابة والترضي عليهم والذب عنهم واقتفاء آثارهم والتمسك بمنهجهم ٣١٣
أولاً: تعريف الصحابي وعدد الصحابة وطبقاتهم ي: ٣١٣
قاعدة في: عقيدة أهل السنة والجماعة في صحابة النبي ق رضوان الله عليهم أجمعين ٣١٦
القاعدة الخامسة والعشرون: في وجوب الإيمان باليوم الآخر.................. ٣٢٤
أولاً: الروح: ٣٢٤
ذكر الموت وخروج الروح: ٣٢٤
وختام الأمر ٣٢٩
القاعدة السادسة والعشرون: في وجوب الإيمان بعذاب القبر ونعيمه.................. ٣٢٩
أدلة عذاب القبر ونعيمه كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله: ٣٢٩
بعض أسباب الوقاية من عذاب القبر:.. ٣٣٠
أولاً: الاستعاذة من عذاب القبر:.. ٣٣٠
ثانيًا: الرباط في سبيل الله: ٣٣١
ثالثًا: الشهادة في سبيل الله:.. ٣٣١
رابعًا: قراءة سورة الملك:.. ٣٣١
خامسًا: الموت بالمرض: ٣٣١
بعض ألوان عذاب القبر المذكورة في السنة:.. ٣٣٢
وخلاصة المسألة:.. ٣٣٣
القاعدة السابعة والعشرون: في وجوب الإيمان بالبعث والنشور ٣٣٤
وأدلة ذلك من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ:.. ٣٣٤
ومن علامات الساعة الصغرى:.. ٣٣٥
أولاً: بعثة النبي ق: ٣٣٥
ثانيًا: انشقاق القمر: ٣٣٦
ثالثًا: نار الحجاز التي أضاءت أعناق الإبل ببصرى لها:.. ٣٣٦

رابعًا: الفتن: ٣٣٦

خامسًا: خروج الدجالين والكذابين أدعياء النبوة: ٣٣٨

سادسًا: ولادة الأَمَةُ ربتها وتطاول الحفاة العراة رعاء الشاء في البنيان: ٣٣٩

سابعًا: قبض العلم وظهور الجهل: ٣٣٩

ثامنًا: تكليم السباع والجماد للإنس: ٣٤٢

تاسعًا: قطع الأرحام وسوء الجوار وظهور الفساد: ٣٤٣

عاشرًا: كثرة الزلازل وظهور الخسف والقذف والمسخ الذي يعاقب الله به بعض هذه الأمة: . ٣٤٤

أشراط وعلامات الساعة الكبرى: ٣٤٤

أولاً: خروج المهدي: ٣٤٤

المسألة الأولى: معنى المهدي: ٣٤٤

المسألة الثانية: اسمه واسم أبيه ونسبه: ٣٤٥

المسألة الثالثة: صفة المهدي من صفات المهدي الواردة في السنة: ٣٤٦

ومن الأمور الدالة عليه: ٣٤٦

المسألة الرابعة: مكان خروج المهدي وزمانه ومدة مكثه في الأرض: ٣٤٦

ثانيًا: فتنة المسيح الدجال: ٣٤٩

ثالثا: نزول عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٣٥٤

والكلام على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يتضمن عدة مسائل: ٣٥٤

المسألة الأولى: الأدلة على نزوله من الكتاب والسنة: ٣٥٤

وأما الأدلة من السنة المطهرة على نزوله فهي كثيرة جدًّا منها: ٣٥٥

المسألة الثانية صفات عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٣٥٦

المسألة الثالثة: مكان نزوله ينزل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٣٥٧

وأما مدة بقاء عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا نزل: ٣٥٨

وإليك بعض الأمور التي تكون في زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٣٥٩

١ - قتل المسيح الدجال: ٣٥٩

٢ - هلاك يأجوج ومأجوج.. ٣٦٠

٣ - ومن أجل هذا فهو يكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية فلا يقبل من أحد إلَّا الإسلام، أو القتل.. ٣٦٠

٤ - رفع الشحناء والتباغض من بين الناس وانتشار الأمن والرخاء بين الخلق:.. ٣٦٠

موت عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ودفنه:.. ٣٦١

رابعًا: خروج يأجوج ومأجوج:.. ٣٦١

المسألة الأولى: أصل يأجوج ومأجوج ونسبهم:.. ٣٦٢

المسألة الثانية: الأدلة على خروجهم من القرآن والسنة:.. ٣٦٢

المسألة الثالثة: السد ويأجوج ومأجوج:.. ٣٦٥

أما مكانه:.. ٣٦٥

المسألة الرابعة: هلاك يأجوج ومأجوج وطيب العيش وبركته بعد موتهم:.. ٣٦٧

خامسًا: طلوع الشمس من مغربها:.. ٣٦٨

سادسًا: خروج الدابة من أشراط الساعة الكبرى:.. ٣٧٠

المسألة الأولى: الأدلة على خروجها من الكتاب والسنة:.. ٣٧١

المسألة الثانية: صفة الدابة:.. ٣٧١

المسألة الرابعة: عمل الدابة:.. ٣٧٤

سابعًا: الدخان الذي يكون في آخر الزمان:.. ٣٧٤

المسألة الأولى: الأدلة من الكتاب والسنة:.. ٣٧٤

ثامنًا: الخسوفات الثلاثة من العلامات الكبرى التي أخبر الرسول ق بحدوثها في آخر الزمان: .٣٧٧

تاسعًا: النار التي تحشر الناس:.. ٣٧٧

المسألة الأولى: الأدلة على خروجها:.. ٣٧٧

المسألة الثانية: الجمع بين الأحاديث الواردة في مكانها:.. ٣٧٨

المسألة الثالثة: مكان الحشر:.. ٣٧٨

المسألة الرابعة: زمان الحشر:.. ٣٧٩

القاعدة الثامنة والعشرون: في وجوب الإيمان باليوم الآخر وما به من أحداث جسام.......... ٣٨٠

أولاً: أشهر أسماء ذلك اليوم: ٣٨١

١ - يوم القيامة:........................ ٣٨١

٢ - اليوم الآخر:........................ ٣٨١

٣- الساعة: ٣٨١

٤ - يوم البعث:........................ ٣٨٢

٥- يوم الخروج:........................ ٣٨٢

٦ - القارعة:........................ ٣٨٢

٧- يوم الفصل:........................ ٣٨٣

٨- يوم الدين: ٣٨٣

٩- الصاخة: ٣٨٣

١٠ - الطامة الكبرى:........................ ٣٨٤

١١ - يوم الحسرة:........................ ٣٨٤

١٢ - الغاشية:........................ ٣٨٤

١٣ - يوم الخلود: ٣٨٥

١٤ - يوم الحساب: ٣٨٥

١٥ - الواقعة: ٣٨٥

١٦ - يوم الوعيد:........................ ٣٨٥

١٧ - يوم الآزفة: ٣٨٦

١٨ - يوم الجمع:........................ ٣٨٦

١٩ - الحاقة:........................ ٣٨٦

٢٠ - يوم التلاق:........................ ٣٨٦

٢١ - يوم التناد: ٣٨٧

٢٢ - يوم التغابن:........................ ٣٨٧

السر في كثرة أسمائه: ٣٨٨
ثانيًا: النفخ في الصّور: ٣٨٨
الصّور الذي ينفخ فيه: ٣٨٩
اليَوم الذي يكون فيه النفخة: ٣٨٩
كم مَرّة ينفخ في الصُّور؟ ٣٨٩
الذين لا يُصعقون عند النفخ في الصّور: ٣٩٠
التعريفُ بالبَعث وَالنشور: ٣٩٢
البَعث خَلق جَديد: ٣٩٤
أول من تنشق عنه الأرض: ٣٩٥
حشر الخلائق جميعًا إلى الموقف العظيم: ٣٩٥
كِسَوة العبَاد في يَوم المعَاد: ٣٩٧
أرض المحشر: ٣٩٧
عظَم أهوال يوم القيامة: ٣٩٧
بَعض معَالم أهَوال القيَامَة: ٤٠٠
قبض الأرض وطي السماء: ٤٠٠
دك الأرض ونسف الجبال: ٤٠٢
تفجير البحار وتسجيرها: ٤٠٢
موران السماء وانفطارها: ٤٠٣
تكوير الشمس وخسوف القمر وتناثر النجوم: ٤٠٣
بعض النصوص الواصفة لأهوال يوم القيامة: ٤٠٤
بعض المشاهد التي يصفها القرآن الكريم من أهوال ما يحدث للخلق في ذلك اليوم: ٤١١
إحباط أعمالهم: ٤١٥
موقف الشفاعة: ٤١٦
وأنواع الشفاعة المقبُولة: ٤١٨

أنواع شفاعة الرسول ق:........................ ٤١٨

الحساب والجزاء:........................ ٤١٩

المشهد الأول:........................ ٤٢٠

يؤتى بالعباد الذين عقد الحق محكمته العظيمة لمحاسبتهم:........................ ٤٢١

الكفار محاسبون مسؤولون كما أن أعمالهم توزن:........................ ٤٢١

الحساب في ذلك اليوم قائم على العدل المطلق:........................ ٤٢١

المشهد الثاني: عرض الأعمال على العباد:........................ ٤٢٢

المشهد الثالث: من مشاهد الفضل والكرم لربنا الكريم سبحانه:........................ ٤٢٣

تبديل السيئات حسنات:........................ ٤٢٤

المشهد الرابع: الشهادات:........................ ٤٢٤

مشهد سؤال العباد:........................ ٤٢٦

١ - الكفر والشرك:........................ ٤٢٦

٢ - ما عمله في دنياه:........................ ٤٢٧

٣- النعيم الذي يتمتع به:........................ ٤٢٨

٤ - العهود والمواثيق:........................ ٤٢٩

٥ - السمع والبصر والفؤاد:........................ ٤٢٩

أول ما يحاسب عليه العبد من أعماله:........................ ٤٣٠

مشاهد من أنواع الحساب........................ ٤٣١

مشهد من مناقشة المرائين:........................ ٤٣٢

مشهد لعرض الرب ذنوب عبده عليه:........................ ٤٣٣

مشهد من معاتبة الرب عبده فيما وقع منه من تقصير:........................ ٤٣٣

مشهد إيتاء العباد كتبهم:........................ ٤٣٤

مشهد اقتصاص المظالم بين الخلق:........................ ٤٣٥

كيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة:........................ ٤٣٥

من أعظم مشاهد القصاص : ٤٣٦
ومن أعجب المشاهد مشهد الاقتصاص للبهائم بعضها من بعض: ٤٣٨
مشهد اقتصاص المؤمنين بعضهم من بعض: ٤٣٨
مشهد الميزان: ٤٣٨
والميزان عند أهل السنة ٤٣٩
المطلب الثالث: ما الذي يوزن في الميزان ٤٤٢
بعض الأعمال التي تثقل في الميزان: ٤٤٤
حسن الخلق: ٤٤٤
الذكر: ٤٤٤
الطهور والحمد والتسبيح: ٤٤٤
الجهاد بالمال في سبيل الله: ٤٤٥
مشهد الحوض: ٤٤٥
الأحاديث الواردة في الحوض متواترة: ٤٤٥
الذين يردون الحوض والذين يذادون عنه: ٤٤٦
المشهد الأخير من مشاهد يوم القيامة: ٤٤٨
مشهد حشر الكفار والمنافقين إلى جهنم أعاذنا الله وإياكم: ٤٥٠
يحشرون كقطعان الماشية جماعات جماعات: ٤٥٠
يحشرون إلى النار على وجوههم: ٤٥٠
يحشرون عميًا لا يرون، وبكمًا لا يتكلمون، وصمًّا لا يسمعون: ٤٥١
يحشرون مع آلهتهم الباطلة وأعوانهم وأتباعهم: ٤٥١
مغلوبون مقهورون أذلاء صاغرون: ٤٥١
قبل أن يصلوا إلى النار تصك مسامعهم أصواتها التي تملأ قلوبهم رعبًا وهلعًا: ٤٥١
يندمون ويتمنون العودة إلى الدنيا كي يؤمنوا: ٤٥١
يؤمرون بالدخول في النار وغضب الجبار أذلاء خاسرين: ٤٥١

مرور المؤمنين على الصّراط وخلاص المؤمنين من المنافقين:........................ ٤٥٢

مسألة في الورود على النار: ٤٥٤

مسألة في حقيقة الصّراط ومعتقد أهل السنة فيه: ٤٥٤

وخلاصة المسألة في موضوع حشر الخلائق:.. ٤٥٥

القاعدة التاسعة والعشرون: في وجوب الإيمان بالجنة والنار وبكل ما جاء في حقهما في الكتاب والسنة ٤٥٧

أولاً: النار (نسأل الله العافية)... ٤٥٧

أسماء النار وأوصافها ٤٥٧

١ - النار:.. ٤٥٧

٢ - جهنم:.. ٤٥٧

٣ - سقر:... ٤٥٧

٤ - عذاب الحريق:... ٤٥٧

٥ - عذاب السعير:... ٤٥٧

٦ - عذاب عظيم:... ٤٥٧

٧ - عذاب أليم: ٤٥٧

٨ - عذاب مهين: ٤٥٨

٩ - عذاب شديد:... ٤٥٨

١٠ - عذاب مقيم:.. ٤٥٨

١١ - عذاب الهون:... ٤٥٨

١٢ - عذاب الخلد:.. ٤٥٨

١٣ - عذاب كبير: ٤٥٨

١٤ - عذاب غليظ: ٤٥٨

١٥ - عذاب غير مردود: ٤٥٨

١٦ - عذاب محيط: ٤٥٨

١٧ – عذاب الآخرة:..٤٥٨

١٨ – عذاب الله:..٤٥٨

١٩ – عذابها غرامًا:..٤٥٨

٢٠ – عذاب الرجز:..٤٥٨

٢١ – عذاب واصب:..٤٥٨

٢٢ – عذاب السموم:..٤٥٨

٢٣ – عذاب مستقر:..٤٥٨

في ذكر الإنذار بالنار والتحذير منها..٤٥٩

الاستعاذة من النار..٤٥٩

في القدر الواجب من الخوف..٤٦٠

في ذكر مكان جهنم..٤٦٣

في ذكر طبقاتها ودركاتها وصفتها..٤٦٣

في ذكر قعر جهنم وعمقها..٤٦٤

سعة جهنم طولاً وعرضًا..٤٦٤

أبواب جهنم تغلق على أهلها يوم القيامة..٤٦٤

إحاطة سرادق جهنم بالكافرين..٤٦٤

أبواب جهنم مغلقة قبل دخول أهلها..٤٦٥

في ذكر ظُلمة النار وشدة سوادها..٤٦٥

في شدة حرها وزمهريرها..٤٦٥

وجهنم تسجر كل يوم نصف النهار..٤٦٦

في ذكر تغيظها وزفيرها وحسيسها..٤٦٦

احذروا عيون جهنم..٤٦٧

بعض أسماء أهل النار..٤٦٧

١ – فرعون:..٤٦٧

٢ ، ٣ - هامان، قارون: ٤٦٧

٤ - كل كفار: ٤٦٧

٥ - كل جبار: ٤٦٨

٦ - كل متكبر: ٤٦٨

٧ - كل منافق: ٤٦٨

باب في أصحاب النار ٤٦٨

١ - أهل الكفر الأكبر: ٤٦٨

٢ - أهل الشرك الأكبر: ٤٦٨

٣ - المرتد عن الإسلام: ٤٦٨

٤ - أولياء الشيطان: ٤٦٨

٥ - آكل الربا: ٤٦٨

٦ - أهل الظلم الأكبر: ٤٦٨

٧ - أهل التكذيب بالقرآن كله أو بعضه: ٤٦٩

٨ - الإسراف الأكبر: ٤٦٩

٩ - الطغيان: ٤٦٩

باب في هيئة أهل النار ٤٦٩

١ - وجوههم مسودة مظلمة كما كانت قلوبهم في الدنيا: ٤٦٩

٢ - يساقون بسلاسل وأغلال في أعناقهم كما كانوا ينقادون لشهواتهم وشياطينهم في الدنيا: ٤٦٩

٣ - يعلوهم الذل والخزي كما كان يعلوهم الكبر والفرح الباطل في الدنيا: ٤٦٩

٤ - يكسون ملابس داخلية من نحاس مذاب لما كانوا يلبسون ما حرم الله في الدنيا: ٤٦٩

باب في استقبال أهل النار ٤٧٠

١ - الاستقبال الأول عند الموت بغاية الإهانة بضرب الوجوه والأدبار: ٤٧٠

٢ - تتلقاهم ملائكة العذاب فتزج بهم إلى جهنم دون هوادة كما كانت تدعوهم شياطينهم إلى ما حرم الله: ٤٧٠

٣- تسحبهم ملائكة العذاب في سلاسل وأغلال ليسجروا في جهنم عياذًا بالله: ٤٧٠
٤ - يسحب أهل النار على وجوههم إلى منازلهم في جهنم: ٤٧٠
باب في شراب أهل النار ٤٧٠
١ - سقياهم من صديد أهل النار من عصارته: ٤٧٠
٢ - وشرابهم الحميم المغلي: ٤٧٠
باب في ثياب أهل النار.. ٤٧٠
باب في طعام أهل النار.. ٤٧١
١ - طعامهم الزقوم الذي يحشر في جوف آكله من شدة كراهته يغلي في بطونهم صديدًا مغليًّا: ٤٧١
٢ - والغسلين ٤٧١
٣- ونوع آخر من الأطعمة النارية يسمى الضريع: ٤٧١
٤ - طعام ذو غصة يعلق في حلوقهم فيمذقها: ٤٧١
باب في مساكن أهل النار.. ٤٧١
١ - سقف مساكن أهل النار من سحب نارية وأساس البناء من ظلل نارية عياذًا بالله:.......... ٤٧١
٢ - وفرش المساكن نسجت من جهنم: ٤٧١
باب في حوار أهل النار.. ٤٧٢
١ - نداء الحسرة:.. ٤٧٢
٢ - دعاء الحسرة:... ٤٧٢
٣- العتاب القاتل: ٤٧٢
٤ - الاعتراف المذل:... ٤٧٢
٥- حقيقة أخلاق أهل النار حتى وهم في جهنم: ٤٧٢
٦ - استغاثة الخروج:... ٤٧٢
٧- وقلب متعلق بغير الله وإن أحاط به العذاب:... ٤٧٣
باب في دعاء أهل النار ٤٧٣
١ - مسألتهم لأهل الجنة ومذلتهم الكبرى: ٤٧٣

٢- صراخ الندامة وأمنية لن تتحقق: ٤٧٣
٣- وندم على مخالفة الرسل واتباع سادات الكفر والنفاق: ٤٧٣
٤ - نداء الموت: ٤٧٣
باب في حسرات أهل النار ٤٧٣
١ - حسرة على ما جمعوا في الدنيا: ٤٧٣
٢- حسرة على ما فرطوا في جنب الله: ٤٧٣
٣- حسرة على التخلف عن ركب المهتدين: ٤٧٤
٤ - حسرة على فوات حظها من الإحسان لما رأت ثواب أهل الإحسان: ٤٧٤
٥ - حسرة على فوات الدنيا وما جمع فيها بغير فائدة وتمن الهلاك قبل الحساب: ٤٧٤
باب في عذاب أهل النار ٤٧٤
باب في الصحبة الجهنمية ٤٧٥
باب في خطيب أهل النار والخطبة الأخيرة ٤٧٥
باب الحجاب أعظم مراتب العذاب ٤٧٦
قاعدة: في وجوب الإيمان بالجنة وبما جاء من وصفها ٤٧٨
أولاً: وصف ذات الجنة: ٤٧٨
باب: في عدد أبواب الجنة ٤٧٨
باب: بعض أسماء أبواب الجنة ٤٧٨
باب: سعة أبواب الجنة ٤٧٨
باب: ذكر درجات الجنة ٤٧٩
باب: كلام الجنة ٤٧٩
باب: ذكر بناء الجنة ٤٧٩
باب: ذكر قدر الجنة بالنسبة للدنيا ٤٨٠
باب: في ذكر خيام الجنة ٤٨٠
باب: في ذكر غرف الجنة ٤٨٠

باب: في ذكر شجر الجنة.. ٤٨٠

باب: في ذكر شجرة طوبى ٤٨١

باب: في ذكر ثمر الجنة نسأل الله من فضله ٤٨١

باب: في ذكر أنهار الجنة.. ٤٨٢

ثانيًا: ذكر أهل الجنة وأحوالهم.. ٤٨٣

ذكر طعام أهل الجنة وذكر أكلهم وشرابهم نسأل الله من فضله ٤٨٣

ذكر أول طعام يأكله أهل الجنة ٤٨٣

باب: ذكر سوق الجنة نسأل الله من فضله وكرمه ٤٨٣

ذكر حور الجنة.. ٤٨٥

باب: الرؤية العظمى.. ٤٨٥

- فمن الكتاب: ٤٨٥

- ومن السنة: ٤٨٥

بعض أسباب دخول الجنة.. ٤٨٦

من قال لا إله إلاَّ الله وجبت له الجنة: ٤٨٦

حسن الظن بالله يوجب الجنة: ٤٨٦

الموجبات الخمس:.. ٤٨٦

من مات له ثلاثة من الولد واحتسب: ٤٨٧

طهارة القلب والبدن توجب الجنة: ٤٨٧

حُسْنُ التبعل يوجب الجنة: ٤٨٧

من أحصى أسماء الله دخل الجنة: ٤٨٧

الذكر خلف الصلوات يوجب الجنة: ٤٨٧

القاعدة الثلاثون: في وجوب الإيمان بالقضاء والقدر ٤٨٨

القضاء اصطلاحًا:.. ٤٨٨

الْقدر اصطلاحًا: ٤٨٨

مصطلح القدر..٤٨٨
مراتب التقدير..٤٨٩
التقدير الأول: في تقدير المقادير قبل خلق السموات والأرض:.........................٤٨٩
التقدير الثاني: تقدير الرب تبارك وتعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم: ٤٨٩
التقدير الثالث: تقدير والجنين في بطن أمه وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله وسائر ما يلقاه: ٤٨٩
التقدير الرابع: تقدير ليلة القدر: ٤٩٠
التقدير الخامس: التقدير اليومي: ٤٩٠
مراتب القضاء والقدر التي من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر: ٤٩٠
المرتبة الأولى: العلم وهي علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها: ٤٩٠
المرتبة الثانية: الكتابة وهي كتابته سبحانه لها قبل كونها:..............................٤٩٠
المرتبة الثالثة: المشيئة، وهي مشيئته سبحانه لها: ٤٩١
المرتبة الرابعة: الخلق وهي خلقه سبحانه لها: ٤٩١
بحث مهم وميسر في إيضاح مسألة القدر...٤٩٦
إشكال: ٤٩٩
مسألة في قضية التخيير والتسيير: ٤٩٩
وختامًا ٥٠٥
مراجع الكتاب ٥٠٦
الفهرس...٥١١